



مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغفلة



الرعد  
عليه صاب

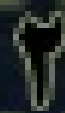
www. **Ghaemiyeh** .com  
www. **Ghaemiyeh** .org  
www. **Ghaemiyeh** .net  
www. **Ghaemiyeh** .ir

# الأمم

في تفسيرين كما جلا الله المنزلة

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ كاظم حكايم الشيرازي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل

كاتب:

آيت الله ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابي طالب ( عليه السلام )

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

# الفهرس

٥	الفهرس
٤٥	الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل المجلد ٢
٤٥	اشاره
٤٦	اشاره
٥٠	[اتمه سورة البقره]
٥٠	اشاره
٥٠	الآيات [سوره البقره (٢): آيه ١٨٨]
٥٠	اشاره
٥٠	التفسير
٥٠	اشاره
٥٠	المبادئ الأوليه للاقتصاد الإسلامى:
٥٣	بحث
٥٣	اشاره
٥٣	وباء الرشوه:
٥٥	الآيه [سوره البقره (٢): آيه ١٨٩]
٥٥	اشاره
٥٥	سبب النزول
٥٥	التفسير
٥٥	اشاره
٥٥	التقويم الطبيعى:
٥٩	بحوث
٥٩	اشاره
٥٩	١-أسئله مختلفه من رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم
٦٠	٢-التقويم و نظام الحياه

٦٢	الآيه [سوره البقره (٢): الآيات ١٩٠ الى ١٩٣]
٦٢	اشاره
٦٢	سبب النزول
٦٣	التفسير
٧٠	بحوث
٧٠	اشاره
٧٠	١-مسأله الجهاد فى الإسلام
٧١	٢-أهداف الجهاد فى الإسلام
٧٥	٣-لماذا شرع الجهاد فى المدينه
٧٦	الآيه [سوره البقره (٢): آيه ١٩٤]
٧٦	اشاره
٧٦	التفسير
٧٦	اشاره
٧٦	احترام الأشهر الحرم و المقابله بالمثل:
٧٩	الآيه [سوره البقره (٢): آيه ١٩٥]
٧٩	اشاره
٧٩	التفسير
٧٩	اشاره
٧٩	الإنفاق و الخلاص من المازق:
٨١	بحوث
٨١	اشاره
٨١	١-الإنفاق مانع عن انهيار المجتمع
٨٢	٢-سوء الاستفاده من مضمون الآيه
٨٣	٣-ما هو المنظور من الإحسان
٨٤	الآيه [سوره البقره (٢): آيه ١٩٦]
٨٤	اشاره

٨٤	التفسير
٨٤	اشاره
٨٤	بعض أحكام الحج المهمه:
٨٩	بحوث
٨٩	اشاره
٨٩	١-أهميته الحج بين الواجبات الإسلاميه
٩٠	٢-أقسام الحج و بيان أعمال حج التمتع
٩٥	الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ١٩٧ الى ١٩٩]
٩٥	اشاره
٩٥	التفسير
٩٥	اشاره
٩٥	خير الزاد و المتاع:
١٠١	بحوث
١٠١	اشاره
١٠١	١-أول موقف للحجيج
١٠٢	٢-المشعر الحرام-الموقف الثاني للحجيج
١٠٣	٣-درس الوحده و الاتحاد
١٠٤	٤-ارتباط الآيات
١٠٥	الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ٢٠٠ الى ٢٠٢]
١٠٥	اشاره
١٠٥	سبب النزول
١٠٦	التفسير
١٠٦	اشاره
١٠٦	الحج رمز وحده المسلمين:
١١١	الآيه [سوره البقره (٢): آيه ٢٠٣]
١١١	اشاره

- ١١١ ..... التفسير
- ١١١ ..... اشاره
- ١١١ ..... آخر كلام عن الحج:
- ١١٤ ..... الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ٢٠٤ الى ٢٠٦] .....
- ١١٤ ..... اشاره
- ١١٤ ..... سبب النزول
- ١١٥ ..... التفسير
- ١١٥ ..... اشاره
- ١١٥ ..... مصير المفسدين في الأرض:
- ١١٨ ..... الآيه [سوره البقره (٢): آيه ٢٠٧] .....
- ١١٨ ..... اشاره
- ١١٨ ..... سبب النزول
- ١١٩ ..... التفسير
- ١١٩ ..... اشاره
- ١١٩ ..... التضحيه الكبرى في دوله الهجره التاريخيه:
- ١٢٢ ..... الآيتان [سوره البقره (٢): الآيات ٢٠٨ الى ٢٠٩] .....
- ١٢٢ ..... اشاره
- ١٢٢ ..... التفسير
- ١٢٢ ..... اشاره
- ١٢٢ ..... السلام العالمى في ظلّ الإسلام:
- ١٢٦ ..... الآيه [سوره البقره (٢): آيه ٢١٠] .....
- ١٢٦ ..... اشاره
- ١٢٦ ..... التفسير
- ١٢٦ ..... اشاره
- ١٢٦ ..... توقع غير معقول:
- ١٢٨ ..... بحث



- ١٢٨ ..... اشارة
- ١٢٨ ..... استحاله رؤيه الله:
- ١٣٠ ..... الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢١١] -
- ١٣٠ ..... اشارة
- ١٣٠ ..... التفسير
- ١٣٠ ..... اشارة
- ١٣٠ ..... تبديل نعمه الله بالعذاب الأليم:
- ١٣٢ ..... الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢١٢] -
- ١٣٢ ..... اشارة
- ١٣٢ ..... سبب النزول
- ١٣٢ ..... التفسير
- ١٣٢ ..... اشارة
- ١٣٢ ..... الكافرون عبيد الدنيا:
- ١٣٣ ..... ملاحظه
- ١٣٤ ..... الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢١٣] -
- ١٣٤ ..... اشارة
- ١٣٤ ..... التفسير
- ١٣٤ ..... اشارة
- ١٣٤ ..... طريق الوصول إلى الوحده:
- ١٣٧ ..... بحوث
- ١٣٧ ..... اشارة
- ١٣٧ ..... ١-الدين و المجتمع
- ١٣٧ ..... ٢-بدايه التشريع
- ١٣٧ ..... ٣-الشرق الأوسط مهد الأديان الكبرى
- ١٣٨ ..... ٤-حلّ الاختلافات من أهم أهداف الدين
- ١٣٩ ..... ٥-الدليل على عصمه الأنبياء

- ١٤٠ ..... الآيه [سوره البقره (٢): آيه ٢١٤] -
- ١٤٠ ..... اشاره
- ١٤٠ ..... سبب النزول
- ١٤٠ ..... التفسير
- ١٤٠ ..... اشاره
- ١٤٠ ..... الصعاب و المشاقّ سنّه إلهيه:
- ١٤٤ ..... الآيه [سوره البقره (٢): آيه ٢١٥] -
- ١٤٤ ..... اشاره
- ١٤٤ ..... سبب النزول
- ١٤٤ ..... التفسير
- ١٤٥ ..... بحث
- ١٤٥ ..... اشاره
- ١٤٥ ..... التجانس فى السؤال و الجواب:
- ١٤٧ ..... الآيه [سوره البقره (٢): آيه ٢١٦] -
- ١٤٧ ..... اشاره
- ١٤٧ ..... التفسير
- ١٤٧ ..... اشاره
- ١٤٧ ..... التضحيه بالنفس و المال:
- ١٤٩ ..... بحوث
- ١٤٩ ..... اشاره
- ١٤٩ ..... ١- لماذا كان الجهاد مكروها
- ١٥٠ ..... ٢- القانون الكلى
- ١٥١ ..... الآيتان [سوره البقره (٢): الآيات ٢١٧ الى ٢١٨] -
- ١٥١ ..... اشاره
- ١٥١ ..... سبب النزول
- ١٥٢ ..... التفسير

- ١٥٢ ..... اشاره
- ١٥٢ ..... القتال في الأشهر الحرم:
- ١٥٤ ..... بحث
- ١٥٤ ..... اشاره
- ١٥٤ ..... الإحباط و التكفير:
- ١٥٧ ..... الآياتان [سوره البقره (٢): الآيات ٢١٩ الى ٢٢٠] -
- ١٥٧ ..... اشاره
- ١٥٧ ..... سبب النزول
- ١٥٨ ..... التفسير
- ١٥٨ ..... اشاره
- ١٥٨ ..... الجواب على أربعة أسئله:
- ١٦٤ ..... بحوث
- ١٦٤ ..... اشاره
- ١٦٤ ..... ١-الترابط بين الأحكام الأربعة
- ١٦٤ ..... ٢-أضرار المشروبات الكحوليه
- ١٧١ ..... الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢٢١] -
- ١٧١ ..... اشاره
- ١٧١ ..... سبب النزول
- ١٧١ ..... التفسير
- ١٧١ ..... اشاره
- ١٧١ ..... حرمه الزواج مع المشركين:
- ١٧٢ ..... بحوث
- ١٧٢ ..... اشاره
- ١٧٢ ..... ١-الحكمه في تحريم نكاح المشركين
- ١٧٣ ..... ٢-حقيقه المشركين
- ١٧٤ ..... ٣-هل نسخت هذه الآية؟

- ١٧٥ ..... ٤-تشكيل العائله و التدفقه في الأمر
- ١٧٦ ..... الآياتان [سوره البقره (٢): الآيات ٢٢٢ الى ٢٢٣] -
- ١٧٦ ..... اشاره
- ١٧٦ ..... سبب النزول
- ١٧٧ ..... التفسير
- ١٧٧ ..... اشاره
- ١٧٧ ..... أحكام النساء في العاده الشهرية: -
- ١٨٢ ..... بحوث
- ١٨٢ ..... اشاره
- ١٨٢ ..... ١-الحكم الإسلامي العادل في مسأله الحيض -
- ١٨٢ ..... ٢-اقتران الطهاره بالتوبه -
- ١٨٤ ..... الآياتان [سوره البقره (٢): الآيات ٢٢٤ الى ٢٢٥] -
- ١٨٤ ..... اشاره
- ١٨٤ ..... سبب النزول
- ١٨٤ ..... التفسير
- ١٨٤ ..... اشاره
- ١٨٤ ..... لا ينبغي القسم حتى الإيمان:
- ١٨٦ ..... الإيمان غير المعترفه:
- ١٨٨ ..... الآياتان [سوره البقره (٢): الآيات ٢٢٦ الى ٢٢٧] -
- ١٨٨ ..... اشاره
- ١٨٨ ..... التفسير
- ١٨٨ ..... اشاره
- ١٨٨ ..... القضاء على تقليد جاهلي: -
- ١٩٠ ..... بحوث
- ١٩٠ ..... اشاره
- ١٩٠ ..... ١-الإيلاء حكم استثنائي -

- ١٩٠ ..... ٢-الإيلاء في حكم الإسلام و الغرب
- ١٩١ ..... ٣-الصفات الإلهية في ختام كل آيه
- ١٩٢ ..... الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢٢٨] -
- ١٩٢ ..... اشاره
- ١٩٢ ..... التفسير
- ١٩٢ ..... اشاره
- ١٩٢ ..... حريم الزّواج أو العده:
- ١٩٨ ..... بحوث
- ١٩٨ ..... اشاره
- ١٩٨ ..... ١-العده وسيله للعوده و الضلح
- ١٩٨ ..... ٢-العده وسيله لحفظ التسل
- ١٩٩ ..... ٣-تلازم الحقّ و الوظيفه
- ١٩٩ ..... ٤-قضه المرأه في التاريخ و حقوقها المهدوره
- ٢٠١ ..... ٥-المرحله الجديده في حياه المرأه
- ٢٠٣ ..... ٦-المفهوم الصحيح للمساواه
- ٢٠٥ ..... الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢٢٩] -
- ٢٠٥ ..... اشاره
- ٢٠٥ ..... سبب التزول
- ٢٠٦ ..... التفسير
- ٢٠٦ ..... اشاره
- ٢٠٦ ..... إمّا الحياه الزوجيّة أو الطّلاق بالمعروف:
- ٢٠٨ ..... مسائل مهمه
- ٢٠٨ ..... اشاره
- ٢٠٨ ..... ١-لزوم تعدّد مجالس الطّلاق
- ٢٠٩ ..... ٢-شيخ الأزهر يأخذ برأى الشيعة
- ٢١٠ ..... ٣-الحدود الإلهية

٢١١	.....	الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢٣٠]
٢١١	.....	اشاره
٢١١	.....	سبب النزول
٢١١	.....	التفسير
٢١٢	.....	بحث
٢١٢	.....	اشاره
٢١٢	.....	المحلل مانع من تكرر الطلاق:
٢١٥	.....	الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢٣١]
٢١٥	.....	اشاره
٢١٥	.....	التفسير
٢١٨	.....	الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢٣٢]
٢١٨	.....	اشاره
٢١٨	.....	سبب النزول
٢١٩	.....	التفسير
٢٢٢	.....	الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢٣٣]
٢٢٢	.....	اشاره
٢٢٢	.....	التفسير
٢٢٢	.....	اشاره
٢٢٢	.....	أحكام الرضاع الشبعه:
٢٢٨	.....	الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ٢٣٤ إلى ٢٣٥]
٢٢٨	.....	اشاره
٢٢٨	.....	التفسير
٢٢٨	.....	اشاره
٢٢٨	.....	خرافات تبعت على تعاسه المرأه:
٢٣٤	.....	الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ٢٣٦ إلى ٢٣٧]
٢٣٤	.....	اشاره

التفسير ..... ٢٣٤

اشاره ..... ٢٣٤

كيفية أداء المهر: ..... ٢٣٤

الآيتان [سوره البقره (٢): الآيات ٢٣٨ الى ٢٣٩] ..... ٢٤٠

اشاره ..... ٢٤٠

سبب النزول ..... ٢٤٠

التفسير ..... ٢٤١

اشاره ..... ٢٤١

أهميته الصلاة و خاضه الوسطى: ..... ٢٤١

بحث ..... ٢٤٤

اشاره ..... ٢٤٤

دور الصلاة فى تقويه المعنويات: ..... ٢٤٤

الآيه [سوره البقره (٢): الآيات ٢٤٠ الى ٢٤٢] ..... ٢٤٥

اشاره ..... ٢٤٥

التفسير ..... ٢٤٥

اشاره ..... ٢٤٥

قسم آخر من أحكام الطلاق: ..... ٢٤٥

مسأله: ..... ٢٤٧

الآيه [سوره البقره (٢): آيه ٢٤٣] ..... ٢٥١

اشاره ..... ٢٥١

سبب النزول ..... ٢٥١

التفسير ..... ٢٥٢

اشاره ..... ٢٥٢

كيف ماتوا و كيف عادوا إلى الحياه!؟ ..... ٢٥٢

بحوث ..... ٢٥٢

اشاره ..... ٢٥٢

هنا ينبغي أن نشير إلى بعض النقاط: ..... ٢٥٣

الآيتان [سوره البقره (٢): الآيات ٢٤٤ الى ٢٤٥] ..... ٢٥٤

اشاره ..... ٢٥٤

سبب النزول ..... ٢٥٤

التفسير ..... ٢٥٧

اشاره ..... ٢٥٧

الجهاد بالنفس و المال: ..... ٢٥٧

بحث ..... ٢٥٨

اشاره ..... ٢٥٨

لماذا ورد التعبير بالقرض؟ ..... ٢٥٨

الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ٢٤٦ الى ٢٥٢] ..... ٢٦٠

اشاره ..... ٢٦٠

حادثة ذات عبره: ..... ٢٦١

من هو طالوت؟ ..... ٢٦٢

طالوت في الحكم ..... ٢٦٤

اشاره ..... ٢٦٤

التفسير ..... ٢٦٥

الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢٥٣] ..... ٢٨٠

اشاره ..... ٢٨٠

التفسير ..... ٢٨٠

اشاره ..... ٢٨٠

دور الأنبياء في حياة البشر: ..... ٢٨٠

مسأله: ..... ٢٨٣

الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢٥٤] ..... ٢٨٤

اشاره ..... ٢٨٤

التفسير ..... ٢٨٤



٢٨٦ ..... اشارة

٢٨٦ ..... الإنفاق من أهم أسباب النجاه يوم القيامة:

٢٨٩ ..... الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢٥٥] -

٢٨٩ ..... اشارة

٢٨٩ ..... آيه الكرسي من أهم آيات القرآن:

٢٩٠ ..... التفسير

٢٩٠ ..... اشارة

٢٩٠ ..... مجموعه من صفات الجمال و الجلال:

٢٩١ ..... و لكن ما مفهوم «لله حتى»؟

٢٩٤ ..... مالكيه الله المطلقه -

٢٩٥ ..... بحث

٢٩٥ ..... اشارة

٢٩٥ ..... الشفاعة ليست محسوبيه:

٢٩٩ ..... بحوث

٢٩٩ ..... اشارة

٢٩٩ ..... الأول: المراد من العرش و الكرسي

٣٠٢ ..... الثاني: هل أن آيه الكرسي هي هذه الآية فحسب؟

٣٠٤ ..... الثالث: الدليل على أهميته آيه الكرسي.

٣٠٥ ..... الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢٥٦] -

٣٠٥ ..... اشارة

٣٠٥ ..... سبب النزول

٣٠٦ ..... التفسير

٣٠٦ ..... اشارة

٣٠٦ ..... الدين ليس إجباريًا:

٣٠٨ ..... بحث

٣٠٨ ..... اشارة

- الدين لا يفرض: ..... ٣٠٨
- الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢٥٧] ..... ٣١١
- اشاره ..... ٣١١
- التفسير ..... ٣١١
- اشاره ..... ٣١١
- نور الإيمان و ظلمات الكفر: ..... ٣١١
- ملاحظات ..... ٣١٢
- الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢٥٨] ..... ٣١٤
- اشاره ..... ٣١٤
- التفسير ..... ٣١٤
- اشاره ..... ٣١٤
- محاجه إبراهيم مع طاغوت زمانه: ..... ٣١٤
- ملاحظات ..... ٣١٤
- الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢٥٩] ..... ٣٢٠
- اشاره ..... ٣٢٠
- التفسير ..... ٣٢٠
- اشاره ..... ٣٢٠
- قصة «عزير» العجيبه: ..... ٣٢٠
- الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢٦٠] ..... ٣٢٧
- اشاره ..... ٣٢٧
- التفسير ..... ٣٢٧
- اشاره ..... ٣٢٧
- تجلّى آخر للمعاد فى هذه الدنيا: ..... ٣٢٧
- بحوث ..... ٣٣١
- اشاره ..... ٣٣١
- ١-الحادثه الخارقه للمعاده ..... ٣٣١

- ٢-أربع طيور مختلفه ..... ٣٣١
- ٣-عدد الجبال ..... ٣٣٢
- ٤-متى وقعت هذه الحادثه؟ ..... ٣٣٢
- ٥-المعاد الجسمانى ..... ٣٣٢
- ٦-شبهه الأكل و المأكل ..... ٣٣٣
- الآيه [سوره البقره (٢): آيه ٢٦١] ..... ٣٣٧
- اشاره ..... ٣٣٧
- التفسير ..... ٣٣٧
- اشاره ..... ٣٣٧
- الإفناق و ترشيد الشخصيه: ..... ٣٣٧
- بحث ..... ٣٤٠
- اشاره ..... ٣٤٠
- الإفناق و مشكله الفوارق الطبقيه: ..... ٣٤٠
- الآيه [سوره البقره (٢): آيه ٢٦٢] ..... ٣٤٢
- اشاره ..... ٣٤٢
- التفسير ..... ٣٤٢
- اشاره ..... ٣٤٢
- الإفناق المقبول: ..... ٣٤٢
- الآيه [سوره البقره (٢): آيه ٢٦٣] ..... ٣٤٥
- اشاره ..... ٣٤٥
- التفسير ..... ٣٤٥
- اشاره ..... ٣٤٥
- الكلمه الطيبه أفضل من الصدقه مع المنه: ..... ٣٤٥
- بحوث ..... ٣٤٥
- الآيتان [سوره البقره (٢): الآيات ٢٦٤ الى ٢٦٥] ..... ٣٤٨
- اشاره ..... ٣٤٨

٣٤٨ ..... التفسير

٣٤٨ ..... اشاره

٣٤٨ ..... دوافع الإنفاق و نتائجه:

٣٥٠ ..... مثال رائع آخر

٣٥٠ ..... بحوث

٣٥٢ ..... الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢٦٦]

٣٥٢ ..... اشاره

٣٥٢ ..... التفسير

٣٥٢ ..... اشاره

٣٥٢ ..... مثال آخر للإنفاق الملوث بالرياء و المته:

٣٥٣ ..... بحوث

٣٥٥ ..... الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢٦٧]

٣٥٥ ..... اشاره

٣٥٥ ..... سبب النزول

٣٥٦ ..... التفسير

٣٥٦ ..... اشاره

٣٥٦ ..... الأموال التي يمكن إنفاقها:

٣٥٨ ..... ملاحظه

٣٥٩ ..... الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢٦٨]

٣٥٩ ..... اشاره

٣٥٩ ..... التفسير

٣٥٩ ..... اشاره

٣٥٩ ..... مكافحه موانع الإنفاق:

٣٦٢ ..... الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢٦٩]

٣٦٢ ..... اشاره

٣٦٢ ..... التفسير

٣٦٢ ..... اشاره

٣٦٢ ..... أفضل النعم الإلهية:

٣٦٥ ..... الأيتان [سوره البقره (٢): الآيات ٢٧٠ الى ٢٧١]

٣٦٥ ..... اشاره

٣٦٥ ..... التفسير

٣٦٥ ..... اشاره

٣٦٥ ..... كيفيه الإنفاق:

٣٦٦ ..... بحوث

٣٦٩ ..... الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢٧٢]

٣٦٩ ..... اشاره

٣٦٩ ..... سبب النزول

٣٦٩ ..... التفسير

٣٦٩ ..... اشاره

٣٦٩ ..... الإنفاق على غير المسلمين:

٣٧١ ..... بحوث

٣٧٦ ..... الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢٧٣]

٣٧٦ ..... اشاره

٣٧٦ ..... سبب النزول

٣٧٧ ..... التفسير

٣٧٧ ..... اشاره

٣٧٧ ..... خير مواضع الإنفاق:

٣٧٩ ..... بحث

٣٧٩ ..... اشاره

٣٧٩ ..... الاستجداء بدون حاجه حرام:

٣٨٠ ..... الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢٧٤]

٣٨٠ ..... اشاره

٣٨٠ ..... سبب النزول

٣٨٠ ..... التفسير

٣٨٠ ..... اشاره

٣٨٠ ..... الإنفاق محمود بكل أشكاله:

٣٨٣ ..... الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ٢٧٥ الى ٢٧٧].

٣٨٣ ..... اشاره

٣٨٣ ..... التفسير

٣٨٣ ..... اشاره

٣٨٣ ..... الربا في القرآن:

٣٨٧ ..... منطق المرابين:

٣٩١ ..... الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ٢٧٨ الى ٢٨١].

٣٩١ ..... اشاره

٣٩١ ..... سبب النزول

٣٩٢ ..... التفسير

٣٩٢ ..... اشاره

٣٩٥ ..... أضرار الربا

٣٩٨ ..... الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢٨٢]

٣٩٨ ..... اشاره

٣٩٩ ..... التفسير

٣٩٩ ..... اشاره

٣٩٩ ..... تدوين الأوراق التجارية:

٤٠٣ ..... بحوث

٤٠٦ ..... الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢٨٣]

٤٠٦ ..... اشاره

٤٠٦ ..... التفسير

٤٠٨ ..... الآية [سوره البقره (٢): آيه ٢٨٤]

٤٠٨ ..... اشاره

٤٠٨ ..... التفسير

٤٠٨ ..... اشاره

٤٠٨ ..... مالک کلّ شيء:

٤٠٩ ..... ملاحظتان

٤١٠ ..... الآية [سورة البقرة (٢): آية ٢٨٥]

٤١٠ ..... اشاره

٤١٠ ..... التفسير

٤١٠ ..... اشاره

٤١٠ ..... علائم الإيمان و طريقه:

٤١٣ ..... الآية [سورة البقرة (٢): آية ٢٨٦]

٤١٣ ..... اشاره

٤١٣ ..... التفسير

٤١٣ ..... اشاره

٤١٣ ..... عدّه حاجات مهمّة:

٤١٥ ..... العقاب على النسيان و الخطأ:

٤٢٠ ..... سورة آل عمران

٤٢٠ ..... اشاره

٤٢٢ ..... فضيله تلاوه هذه السورة:

٤٢٢ ..... محتوى السورة:

٤٢٤ ..... الآيات [سورة آل عمران (٣): الآيات ١ الى ٤]

٤٢٤ ..... اشاره

٤٢٤ ..... سبب النزول

٤٢٤ ..... التفسير

٤٢٤ ..... اشاره

٤٢٤ ..... تفسير الحروف المقطّعة بالعقول الإلكترونيه:

- ١- لا بدّ من الإبقاء على إملاء القرآن الأصلي ..... ٤٣١
- ٢- دليل على عدم تحريف القرآن ..... ٤٣١
- ٣- إشارات عميقه المعنى ..... ٤٣١
- نتيجه البحث ..... ٤٣١
- الآيتان [سوره آل عمران (٣): الآيات ٥ الى ٦] ..... ٤٣٧
- اشاره ..... ٤٣٧
- التفسير ..... ٤٣٧
- اشاره ..... ٤٣٧
- علم الله و قدرته المطلقه: ..... ٤٣٧
- بحوث ..... ٤٣٨
- اشاره ..... ٤٣٨
- ١- مراحل تطوّر الجنين من روائع الخلق ..... ٤٣٨
- الآيه [سوره آل عمران (٣): آيه ٧] ..... ٤٤١
- اشاره ..... ٤٤١
- سبب النزول ..... ٤٤١
- التفسير ..... ٤٤٢
- اشاره ..... ٤٤٢
- المحكم و المتشابه في القرآن: ..... ٤٤٢
- بحوث ..... ٤٤٣
- اشاره ..... ٤٤٣
- ١- ما المقصود بالآيات المحكمه و المتشابهه؟ ..... ٤٤٣
- ٢- لماذا تشابهت بعض آيات القرآن؟ ..... ٤٤٥
- ٣- ما التأويل؟ ..... ٤٤٧
- ٤- من هم الراسخون في العلم؟ ..... ٤٤٨
- ٥- الراسخون في العلم يعرفون معنى المتشابهات ..... ٤٥٠
- ٦- نتيجه الكلام في تفسير الآيه ..... ٤٥١



٧- وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ . ٤٥٢

الآيتان [سوره آل عمران (٣): الآيات ٨ الى ٩] ٤٥٣

اشاره ٤٥٣

التفسير ٤٥٣

اشاره ٤٥٣

النجاه من الزيغ: ٤٥٣

الآيتان [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٠ الى ١١] ٤٥٥

اشاره ٤٥٥

التفسير ٤٥٥

الآيه [سوره آل عمران (٣): آيه ١٢] ٤٥٨

اشاره ٤٥٨

سبب النزول ٤٥٨

التفسير ٤٥٩

الآيه [سوره آل عمران (٣): آيه ١٣] ٤٦٠

اشاره ٤٦٠

سبب النزول ٤٦٠

التفسير ٤٦١

اشاره ٤٦١

معركه بدر و التأيد الإلهي: ٤٦١

الآيه [سوره آل عمران (٣): آيه ١٤] ٤٦٤

اشاره ٤٦٤

التفسير ٤٦٤

اشاره ٤٦٤

جاذبيه المتاع الدنيوي: ٤٦٤

١-من الذي جعل الماديات زينه؟ ٤٦٥

٢-ما هي «لقناطر المقنطره» و«الخيال المسومه»؟ ٤٦٦

٤٦٦ ..... ٣- ما هو المراد بـ مُتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ؟

٤٦٨ ..... الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٥ الى ١٧]

٤٦٨ ..... اشاره

٤٦٨ ..... التفسير

٤٦٨ ..... اشاره

٤٦٩ ..... هل فى الجنة لذائد مادية أيضاً؟

٤٧١ ..... بحوث

٤٧٢ ..... الآية [سوره آل عمران (٣): آيه ١٨]

٤٧٢ ..... اشاره

٤٧٢ ..... التفسير

٤٧٢ ..... اشاره

٤٧٢ ..... الجميع يشهد بالوحدانيه:

٤٧٢ ..... بحوث

٤٧٢ ..... اشاره

٤٧٢ ..... ١- كيف يشهد الله على وحدانيته؟

٤٧٣ ..... ٢- ما القيام بالقسط؟

٤٧٤ ..... ٣- أهمية العلماء

٤٧٦ ..... الآية [سوره آل عمران (٣): آيه ١٩]

٤٧٦ ..... اشاره

٤٧٦ ..... التفسير

٤٧٦ ..... اشاره

٤٧٦ ..... روح الدين التسليم للحق:

٤٧٨ ..... ملاحظه

٤٧٨ ..... اشاره

٤٧٨ ..... منشأ الاختلافات الدينيه

٤٨٠ ..... الآية [سوره آل عمران (٣): آيه ٢٠]

٤٨٠ ..... اشاره

٤٨٠ ..... التفسير

٤٨١ ..... بحوث

٤٨٣ ..... الأيتان [سوره آل عمران (٣): الآيات ٢١ الى ٢٢]

٤٨٣ ..... اشاره

٤٨٣ ..... التفسير

٤٨٣ ..... اشاره

٤٨٣ ..... علامات الطغيان:

٤٨٤ ..... بحوث

٤٨٧ ..... الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ٢٣ الى ٢٥]

٤٨٧ ..... اشاره

٤٨٧ ..... سبب النزول

٤٨٨ ..... التفسير

٤٨٨ ..... اشاره

٤٩٠ ..... سؤالان

٤٩٢ ..... الأيتان [سوره آل عمران (٣): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

٤٩٢ ..... اشاره

٤٩٢ ..... سبب النزول

٤٩٤ ..... التفسير

٤٩٤ ..... اشاره

٤٩٤ ..... بيده كل شيء:

٤٩٧ ..... بحوث

٥٠٢ ..... الآية [سوره آل عمران (٣): آية ٢٨]

٥٠٢ ..... اشاره

٥٠٢ ..... التفسير

٥٠٢ ..... اشاره

٥٠٢	العلاقة مع الأجنبي:
٥٠٤	بحوث
٥٠٤	إشاره
٥٠٤	١-التقيه أو الدرغ الواقى
٥٠٥	٢-التقيه أو تغيير أسلوب النضال:
٥٠٦	الآيه [سوره آل عمران (٣): آيه ٢٩]
٥٠٦	إشاره
٥٠٦	التفسير
٥٠٦	إشاره
٥٠٦	العالم بأسراركم:
٥٠٨	الآيه [سوره آل عمران (٣): آيه ٣٠]
٥٠٨	إشاره
٥٠٨	التفسير
٥٠٨	إشاره
٥٠٨	حضور الأعمال يوم القيامة:
٥٠٩	القرآن و تجسيد الأعمال و حضورها
٥١١	رأى العلماء فى الثواب و العقاب
٥١٣	العلم و تجسيد الأعمال
٥١٤	الآيتان [سوره آل عمران (٣): الآيات ٣١ الى ٣٢]
٥١٤	إشاره
٥١٤	سبب النزول
٥١٥	التفسير
٥١٥	إشاره
٥١٥	الحب الحقيقى:
٥١٧	الدين و الحب
٥١٨	الآيتان [سوره آل عمران (٣): الآيات ٣٣ الى ٣٤]

٥١٨ ..... اشاره

٥١٨ ..... التفسير

٥١٨ ..... اشاره

٥١٩ ..... ١- امتياز الأنبياء:

٥٢٣ ..... الأيتان [سوره آل عمران (٣): الآيات ٣٥ الى ٣٦].

٥٢٣ ..... اشاره

٥٢٣ ..... التفسير

٥٢٣ ..... اشاره

٥٢٣ ..... كيفية ولاده مريم:

٥٢٧ ..... الآية [سوره آل عمران (٣): آيه ٣٧].

٥٢٧ ..... اشاره

٥٢٧ ..... التفسير

٥٣١ ..... الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ٣٨ الى ٤٠].

٥٣١ ..... اشاره

٥٣١ ..... التفسير

٥٣٣ ..... بحوث

٥٣٣ ..... اشاره

٥٣٣ ..... ١- هل العزوبه فضيله؟

٥٣٣ ..... ٢- يحيى و عيسى

٥٣٦ ..... الآية [سوره آل عمران (٣): آيه ٤١].

٥٣٦ ..... اشاره

٥٣٦ ..... التفسير

٥٣٩ ..... الأيتان [سوره آل عمران (٣): الآيات ٤٢ الى ٤٣].

٥٣٩ ..... اشاره

٥٣٩ ..... التفسير

٥٣٩ ..... اشاره

الانتخاب الإلهي لمريم: ..... ٥٣٩

الآية [سوره آل عمران (٣): آيه ٤٤] ..... ٥٤٢

اشاره ..... ٥٤٢

التفسير ..... ٥٤٢

اشاره ..... ٥٤٢

كفاله مريم: ..... ٥٤٢

الاقتراع الحل الأخير: ..... ٥٤٣

الآية [سوره آل عمران (٣): الآيات ٤٥ الى ٤٦] ..... ٥٤٥

اشاره ..... ٥٤٥

التفسير ..... ٥٤٥

الآية [سوره آل عمران (٣): آيه ٤٧] ..... ٥٤٨

اشاره ..... ٥٤٨

التفسير ..... ٥٤٨

الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ٤٨ الى ٤٩] ..... ٥٥٠

اشاره ..... ٥٥٠

التفسير ..... ٥٥٠

اشاره ..... ٥٥٠

بقية امتيازات المسيح عليه السلام: ..... ٥٥٠

بحوث ..... ٥٥٢

اشاره ..... ٥٥٢

١-أ كانت معجزات المسيح عجيبيه؟ ..... ٥٥٢

٢-الولاية التكوينية ..... ٥٥٢

الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ٥٠ الى ٥١] ..... ٥٥٥

اشاره ..... ٥٥٥

التفسير ..... ٥٥٥

الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ٥٢ الى ٥٤] ..... ٥٥٧

٥٥٧ ..... اشارة

٥٥٧ ..... التفسير

٥٥٧ ..... اشارة

٥٥٧ ..... استقامه الحواريين:

٥٥٩ ..... بحوث

٥٥٩ ..... اشارة

٥٥٩ ..... ١- من هم الحواريون؟

٥٦٠ ..... ٢- الحواريون فى القرآن و الإنجيل

٥٦٠ ..... ٣- ما المراد بالمكر الإلهى

٥٦٢ ..... الآيه [سوره آل عمران (٣): آيه ٥٥]

٥٦٢ ..... اشارة

٥٦٢ ..... التفسير

٥٦٥ ..... ملاحظه

٥٦٥ ..... اشارة

٥٦٥ ..... هل الديانتان اليهوديه و المسيحيه باقيتان؟

٥٦٦ ..... الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ٥٦ الى ٥٨]

٥٦٦ ..... اشارة

٥٦٦ ..... التفسير

٥٦٦ ..... اشارة

٥٦٦ ..... عاقبه أنصار و أعداء المسيح عليه السلام:

٥٦٨ ..... الآيتان [سوره آل عمران (٣): الآيات ٥٩ الى ٦٠]

٥٦٨ ..... اشارة

٥٦٨ ..... سبب النزول

٥٦٨ ..... التفسير

٥٦٨ ..... اشارة

٥٦٨ ..... نفى الوهيه المسيح:

٥٧٠	.....	الآيه [سوره آل عمران (٣): آيه ٦١]
٥٧٠	.....	اشاره
٥٧٠	.....	سبب النزول
٥٧٢	.....	التفسير
٥٧٢	.....	بحوث
٥٧٢	.....	اشاره
٥٧٢	.....	١-المباهله دليل قاطع على أحقيه نبي الإسلام:
٥٧٣	.....	٢-أحد أدله عظمه أهل البيت:
٥٧٧	.....	٣-اعتراض و جوابه:
٥٨١	.....	الآيتان [سوره آل عمران (٣): الآيات ٦٢ الى ٦٣]
٥٨١	.....	اشاره
٥٨١	.....	التفسير
٥٨٣	.....	الآيه [سوره آل عمران (٣): آيه ٦٤]
٥٨٣	.....	اشاره
٥٨٣	.....	التفسير
٥٨٣	.....	اشاره
٥٨٣	.....	الدعوه إلى الاتحاد:
٥٨٦	.....	بحث
٥٨٦	.....	اشاره
٥٨٦	.....	رسائل النبي إلى رؤساء العالم:
٥٨٦	.....	١-رساله إلى المقوقس
٥٨٨	.....	٢-رساله إلى قيصر الروم
٥٩١	.....	الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ٦٥ الى ٦٨]
٥٩١	.....	اشاره
٥٩١	.....	سبب النزول
٥٩٢	.....	التفسير



- ٥٩٢ ..... اشاره
- ٥٩٣ ..... كيف كان إبراهيم مسلماً؟
- ٥٩٤ ..... ملاحظه
- ٥٩٤ ..... اشاره
- ٥٩٤ ..... الارتباط الدينى أوثق الروابط:
- ٥٩٤ ..... الآيه [سوره آل عمران (٣): آيه ٦٩]
- ٥٩٤ ..... اشاره
- ٥٩٤ ..... سبب النزول
- ٥٩٤ ..... التفسير
- ٥٩٨ ..... الآيتان [سوره آل عمران (٣): الآيات ٧٠ الى ٧١]
- ٥٩٨ ..... اشاره
- ٥٩٨ ..... التفسير
- ٥٩٨ ..... اشاره
- ٥٩٨ ..... كتمان الحقّ لما ذا؟
- ٦٠٠ ..... الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ٧٢ الى ٧٤]
- ٦٠٠ ..... اشاره
- ٦٠٠ ..... سبب النزول
- ٦٠١ ..... التفسير
- ٦٠١ ..... اشاره
- ٦٠١ ..... مؤامره خطيره:
- ٦٠٣ ..... خطط قديمه
- ٦٠٥ ..... الآيتان [سوره آل عمران (٣): الآيات ٧٥ الى ٧٦]
- ٦٠٥ ..... اشاره
- ٦٠٥ ..... سبب النزول
- ٦٠٦ ..... التفسير
- ٦٠٨ ..... بحث

٦٠٨ ..... اشارة

٦٠٨ ..... ١-اعتراض:

٦٠٨ ..... الجواب:

٦١٠ ..... الأيه [سوره آل عمران (٣): آيه ٧٧]

٦١٠ ..... اشارة

٦١٠ ..... سبب النزول

٦١١ ..... التفسير

٦١١ ..... اشارة

٦١١ ..... المحرفون للحقائق:

٦١٢ ..... ملاحظه

٦١٣ ..... الأيه [سوره آل عمران (٣): آيه ٧٨]

٦١٣ ..... اشارة

٦١٣ ..... التفسير

٦١٥ ..... الأيتان [سوره آل عمران (٣): الآيات ٧٩ الى ٨٠]

٦١٥ ..... اشارة

٦١٥ ..... سبب النزول

٦١٦ ..... التفسير

٦١٦ ..... اشارة

٦١٦ ..... الدعوه إلى عباده غير الله مستحيله:

٦١٨ ..... ملاحظه

٦١٨ ..... اشارة

٦١٨ ..... منع عباده البشر:

٦٢٠ ..... الأيتان [سوره آل عمران (٣): الآيات ٨١ الى ٨٢]

٦٢٠ ..... اشارة

٦٢٠ ..... التفسير

٦٢٠ ..... اشارة

الميثاق المقدس: ..... ٦٢٠

الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ٨٣ الى ٨٥] ..... ٦٢٥

اشاره ..... ٦٢٥

التفسير ..... ٦٢٥

اشاره ..... ٦٢٥

الإسلام أفضل الأديان الإلهية: ..... ٦٢٥

الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ٨٦ الى ٨٩] ..... ٦٣٠

اشاره ..... ٦٣٠

سبب النزول ..... ٦٣٠

التفسير ..... ٦٣١

اشاره ..... ٦٣١

هل تقبل توبه المرتد؟ ..... ٦٣٣

الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ٩٠ الى ٩١] ..... ٦٣٥

اشاره ..... ٦٣٥

سبب النزول ..... ٦٣٥

التفسير ..... ٦٣٦

اشاره ..... ٦٣٦

التوبه الباطله: ..... ٦٣٦

الآيه [سوره آل عمران (٣): آيه ٩٢] ..... ٦٣٩

اشاره ..... ٦٣٩

التفسير ..... ٦٣٩

اشاره ..... ٦٣٩

من علائم الإيمان: ..... ٦٣٩

ماذا يعنى «البر» فى الآيه؟ ..... ٦٣٩

تأثير القرآن فى قلوب المسلمين: ..... ٦٤٠

الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ٩٣ الى ٩٥] ..... ٦٤٣

٦٤٣ -..... اشارة

٦٤٣ -..... سبب النزول

٦٤٤ -..... التفسير

٦٤٤ -..... اشارة

٦٤٥ -..... التوراه الرائجه و تحريم بعض اللحوم:

٦٤٧ -..... الأيتان [سوره آل عمران (٣): الآيات ٩٦ الى ٩٧].

٦٤٧ -..... اشارة

٦٤٧ -..... أول بيت وضع للناس:

٦٥٠ -..... ما هو المراد من «بئكه»؟

٦٥٠ -..... بحث تاريخي

٦٥٠ -..... اشارة

٦٥٠ -..... توسيع المسجد الحرام:

٦٥٢ -..... مزايا الكعبه و فضائلها:

٦٥٧ -..... أهميه الحج

٦٥٩ -..... الأيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ٩٨ الى ١٠١].

٦٥٩ -..... اشارة

٦٥٩ -..... سبب النزول

٦٦٠ -..... التفسير

٦٦٠ -..... اشارة

٦٦٠ -..... مفرقو الصفوف و مثيرو الخلاف:

٦٦٤ -..... الأيتان [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٠٢ الى ١٠٣].

٦٦٤ -..... اشارة

٦٦٤ -..... سبب النزول

٦٦٤ -..... التفسير

٦٦٤ -..... اشارة

٦٦٤ -..... الدعوه إلى التقوى:

٦٦٧ ..... الدعوه إلى الاتحاد

٦٦٨ ..... التعبير ب«حبلى اللّله» لماذا؟

٦٦٩ ..... أعداء الأمس و إخوان الیوم:

٦٧٠ ..... اعتراف العلماء و المؤرخین:

٦٧٢ ..... دور الاتحاد فى بقاء الأمم

٦٧٤ ..... الآیطان [سوره آل عمران (٣): الآیات ١٠٤ الى ١٠٥]

٦٧٤ ..... اشاره

٦٧٤ ..... التفسیر

٦٧٤ ..... اشاره

٦٧٤ ..... الدعوه إلى الحقّ و مكافحه الفساد:

٦٧٥ ..... سؤال

٦٧٦ ..... و الجواب:

٦٨٤ ..... الفرقة بعد الاتحاد من شیم النصارى و اليهود:

٦٨٧ ..... الآیطان [سوره آل عمران (٣): الآیات ١٠٦ الى ١٠٧]

٦٨٧ ..... اشاره

٦٨٧ ..... التفسیر

٦٨٧ ..... اشاره

٦٨٧ ..... الوجوه المبیضه و الوجوه المسوده:

٦٩٠ ..... الآیطان [سوره آل عمران (٣): الآیات ١٠٨ الى ١٠٩]

٦٩٠ ..... اشاره

٦٩٠ ..... التفسیر

٦٩٢ ..... الآیه [سوره آل عمران (٣): آیه ١١٠]

٦٩٢ ..... اشاره

٦٩٢ ..... التفسیر

٦٩٢ ..... اشاره

٦٩٢ ..... مكافحه الفساد و الدعوه إلى الحقّ أيضا:

٦٩٣ ..... وقتان عند هذه الآية:

٦٩٥ ..... الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ١١١ الى ١١٢]

٦٩٥ ..... اشاره

٦٩٥ ..... سبب النزول

٦٩٥ ..... التفسير

٦٩٥ ..... اشاره

٦٩٧ ..... اليهود و المصير الخطير:

٦٩٨ ..... اليهود و المسكنه الدائمه:

٧٠٠ ..... مصير اليهود المظلم:

٧٠١ ..... الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ١١٣ الى ١١٥]

٧٠١ ..... اشاره

٧٠١ ..... سبب النزول

٧٠١ ..... التفسير

٧٠١ ..... اشاره

٧٠١ ..... الإسلام و خصيصه البحث عن الحق:

٧٠٤ ..... الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ١١٦ الى ١١٧]

٧٠٤ ..... اشاره

٧٠٤ ..... التفسير

٧٠٤ ..... اشاره

٧٠٥ ..... إنفاق الكفار:

٧٠٨ ..... الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ١١٨ الى ١٢٠]

٧٠٨ ..... اشاره

٧٠٨ ..... سبب النزول

٧٠٩ ..... التفسير

٧٠٩ ..... اشاره

٧٠٩ ..... لا تتخذوا الأعداء بطانه:

- ٧١١ ..... البغض في مقابل الحب:
- ٧١٢ ..... تحذير إلى المسلمين:
- ٧١٤ ..... الأيتان [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٢١ إلى ١٢٢] .....
- ٧١٤ ..... اشاره .....
- ٧١٤ ..... التفسير .....
- ٧١٤ ..... اشاره .....
- ٧١٤ ..... اشاره .....
- ٧١٤ ..... اشاره .....
- ٧١٤ ..... اشاره .....
- ٧١٤ ..... غزوه أحد .....
- ٧١٤ ..... اشاره .....
- ٧١٤ ..... سبب هذه الغزوه: .....
- ٧١٧ ..... العباس يرفع تقريراً إلى النبي: .....
- ٧١٧ ..... النبي يشاور المسلمين .....
- ٧١٩ ..... المسلمون يتهيئون للدفاع: .....
- ٧٢٠ ..... بدء القتال: .....
- ٧٢٢ ..... من الصائح: قتل محمّد؟ .....
- ٧٢٤ ..... الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٢٣ إلى ١٢٧] .....
- ٧٢٤ ..... اشاره .....
- ٧٢٤ ..... التفسير .....
- ٧٢٤ ..... اشاره .....
- ٧٢٤ ..... المرحله الخطيره من الحرب: .....
- ٧٢٨ ..... الآية [سوره آل عمران (٣): آيه ١٢٨] .....
- ٧٢٨ ..... اشاره .....
- ٧٢٨ ..... التفسير .....
- ٧٢٨ ..... اشاره .....
- ٧٢٩ ..... تصحيح خطأ: .....
- ٧٣٢ ..... الآية [سوره آل عمران (٣): آيه ١٢٩] .....
- ٧٣٢ ..... اشاره .....

٧٣٢ ..... التفسير

٧٣٤ ..... الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٣٠ الى ١٣٢]

٧٣٤ ..... اشاره

٧٣٤ ..... التفسير

٧٣٤ ..... اشاره

٧٣٤ ..... حول الارتباط بين الآيات القرآنيه:

٧٣٤ ..... تحريم الزبا في مراحل:

٧٣٧ ..... التحريم في الآيه الحاضره:

٧٣٧ ..... اشاره

٧٣٩ ..... الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٣٣ الى ١٣٦]

٧٣٩ ..... اشاره

٧٣٩ ..... التفسير

٧٣٩ ..... اشاره

٧٣٩ ..... السباق في مضمار السعاده:

٧٤١ ..... و هنا سؤالان:

٧٤١ ..... هل الجنة و النار موجودتان الآن؟

٧٤٢ ..... أين تقع الجنة و النار؟

٧٤٤ ..... سيماء المتقين:

٧٥١ ..... الأيتان [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٣٧ الى ١٣٨]

٧٥١ ..... اشاره

٧٥١ ..... التفسير

٧٥١ ..... اشاره

٧٥١ ..... النظر في تاريخ الماضين و آثارهم:

٧٥٢ ..... السياحه و السير في الأرض:

٧٥٦ ..... الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٣٩ الى ١٤٣]

٧٥٦ ..... اشاره



- ٧٥٦ ..... سبب النزول
- ٧٥٧ ..... التفسير
- ٧٥٧ ..... اشاره
- ٧٥٧ ..... دراسة نتائج غزوه أحد:
- ٧٦٠ ..... الحوادث المره ميدان تربيته:
- ٧٦٢ ..... مزاعم جوفاء
- ٧٦٣ ..... دراسة سريعه لعلل الهزيمة في «أحد»:
- ٧٦٥ ..... الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٤٤ الى ١٤٥]
- ٧٦٥ ..... اشاره
- ٧٦٥ ..... سبب النزول
- ٧٦٦ ..... التفسير
- ٧٦٦ ..... اشاره
- ٧٦٦ ..... لا لعباده الشخصيه و تقديس الفرد:
- ٧٧١ ..... الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٤٦ الى ١٤٨]
- ٧٧١ ..... اشاره
- ٧٧١ ..... التفسير
- ٧٧١ ..... اشاره
- ٧٧١ ..... المجاهدون السابقون:
- ٧٧٣ ..... وقفات اخرى عند هذه الآيات
- ٧٧٥ ..... الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٤٩ الى ١٥١]
- ٧٧٥ ..... اشاره
- ٧٧٥ ..... التفسير
- ٧٧٥ ..... اشاره
- ٧٧٥ ..... تحذيرات مكرره:
- ٧٧٨ ..... الإنتصار بسبب خوف العدو:
- ٧٨٠ ..... الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٥٢ الى ١٥٤]

- ٧٨٠ ..... اشاره
- ٧٨١ ..... التفسير
- ٧٨١ ..... اشاره
- ٧٨١ ..... الهزيمة بعد الإنتصار:
- ٧٨٤ ..... وساوس الجاهليه:
- ٧٨٨ ..... الآيه [سوره آل عمران (٣): آيه ١٥٥]
- ٧٨٨ ..... اشاره
- ٧٨٨ ..... التفسير
- ٧٨٨ ..... اشاره
- ٧٨٨ ..... الذنب ينتج ذنبا آخر:
- ٧٩٠ ..... الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٥٦ الى ١٥٨]
- ٧٩٠ ..... اشاره
- ٧٩٠ ..... التفسير
- ٧٩٠ ..... اشاره
- ٧٩٠ ..... استغلال المنافقين:
- ٧٩٤ ..... الآيتان [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٥٩ الى ١٦٠]
- ٧٩٤ ..... اشاره
- ٧٩٤ ..... التفسير
- ٧٩٤ ..... اشاره
- ٧٩٤ ..... الأمر بالعفو العام:
- ٧٩٤ ..... الأمر بالمشاوره:
- ٧٩٨ ..... أهميه المشاوره فى نظر الإسلام:
- ٨٠٠ ..... مع من تشاور؟
- ٨٠٠ ..... وظيفه المشير:
- ٨٠١ ..... شورى عمر بن الخطاب
- ٨٠٢ ..... مرحله القرار الأخير!

نتيجه التوكل و ثمرته: ..... ٨٠٤

الآيه [سوره آل عمران (٣): آيه ١٦١] ..... ٨٠٦

اشاره ..... ٨٠٦

التفسير ..... ٨٠٦

اشاره ..... ٨٠٦

الخيانه ممنوعه مطلقا: ..... ٨٠٦

الآيتان [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٦٢ الى ١٦٣] ..... ٨١٠

اشاره ..... ٨١٠

التفسير ..... ٨١٠

اشاره ..... ٨١٠

المتخلفون عن الجهاد: ..... ٨١٠

مع أسلوب تربوي قرآني مؤثر ..... ٨١١

الآيه [سوره آل عمران (٣): آيه ١٦٤] ..... ٨١٣

اشاره ..... ٨١٣

التفسير ..... ٨١٣

اشاره ..... ٨١٣

النعمة الإلهيه الكبرى: ..... ٨١٣

متى تعرف قيمه البعته النبويه؟ ..... ٨١٦

الآيه [سوره آل عمران (٣): آيه ١٦٥] ..... ٨١٨

اشاره ..... ٨١٨

التفسير ..... ٨١٨

اشاره ..... ٨١٨

دراسه أخرى لمعركه أحد: ..... ٨١٨

الآيتان [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٦٦ الى ١٦٧] ..... ٨٢٠

اشاره ..... ٨٢٠

التفسير ..... ٨٢٠

٨٢٠ ..... اشارة

٨٢٠ ..... لا بد أن تتميز الصفوف:

٨٢٤ ..... الآية [سوره آل عمران (٣): آيه ١٦٨]

٨٢٤ ..... اشارة

٨٢٤ ..... التفسير

٨٢٤ ..... اشارة

٨٢٤ ..... مزاعم المنافقين الباطله:

٨٢٤ ..... الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٦٩ الى ١٧١]

٨٢٤ ..... اشارة

٨٢٤ ..... التفسير

٨٢٤ ..... اشارة

٨٢٤ ..... الحياه الخالده:

٨٣٠ ..... أجر الشهداء

٨٥٧ ..... تعريف مركز

سرشناسه: مکارم شیرازی، ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدیدآور: الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل / تالیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]

وضعیت ویراست: [ویرایش ۲]

مشخصات نشر: قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری: ج ۲۰

شابک: ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۳-X(دوره)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۹-۱(ج.۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۳-۲(ج.۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۸-۳(ج.۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۲-۴(ج.۴)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۷-۵(ج.۵)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۱-۶(ج.۶)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۶-۷(ج.۷)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۰-۸(ج.۸)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۵-۹(ج.۹)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۴-۱۰(ج.۱۰)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۲-۱۱(ج.۱۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۷-۱۲(ج.۱۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۱-۱۳(ج.۱۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۰-۱۵(ج.۱۵)

وضعیت فهرست نویسی: فهرست نویسی قبلی

یادداشت: کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است

یادداشت: کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است

یادداشت: کتابنامه

موضوع: تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)

رده بندی کنگره: BP۹۸/م ۷ ۷۰۴۴۷ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی: م ۷۹-۱۰۳۹۱











وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)

### المبادئ الأولى للاقتصاد الإسلامي:

هذه الآيه الكريمة تشير إلى أحد الأصول المهمه و الكئيه للاقتصاد الإسلامى الحاكمه على مجمل المسائل الاقتصادية،بل يمكن القول إن جميع أبواب الفقه الإسلامى فى دائره الإقتصاد تدخل تحت هذه القاعده و لذا نلاحظ أن الفقهاء العظام تمسكوا بهذه الآيه فى مواضع كثيره فى الفقه الإسلامى و هو قوله تعالى وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ .

أما المراد من «الباطل» فى هذه الآيه الشريفه فقد ذكر له عدّه تفاسير،ذهب أحدها إلى أنّ معناه الأموال التى يستولى عليها الإنسان من طريق الغصب و العدوان،و ذهب آخرون أنّ المراد هو الأموال التى يحصل عليها الشخص من القمار و أمثاله.

و يرى ثالث أنها إشاره إلى الأموال التى يكتسبها الشخص بواسطه القسم

الكاذب (و أشكال الحيل فى المعاملات و العقود التجارىه).

و لكن الظاهر أنّ مفهوم الآيه عام يستوعب جميع ما ذكرنا من المعانى للباطل لأنّ الباطل يعنى الزائل و هو شامل لما ذكر من المعانى، فلو ورد فى بعض الروايات- كما عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ معناه (القسم الكاذب) أو ورد عن الإمام الصادق عليه السلام فى تفسيره ب (القمار) فهو فى الواقع من قبيل المصاديق الواضحه له.

فعلى هذا يكون كلّ تصرف فى أموال الآخرين من غير الطريق المشروع مشمولاً لهذا النهى الإلهى. و كذلك فهكذا أنّ جميع المعاملات التى لا تتضمّن هدفاً سليماً و لا تركز على أساس عقلائى فهى مشموله لهذه الآيه.

و نفس هذا المضمون ورد فى سورة النساء الآيه ٢٩ مع توضيح أكثر حيث تخاطب المؤمنين يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ .

إنّ استثناء التجاره المقترنه مع التراضى هو فى الواقع بيان لمصداق بارز للمعاملات المشروعه و المباحه، فلا تنفى الهبه و الميراث و الهديه و الوصيه و أمثالها، لأنها تحققت عن طريق مشروع و عقلائى.

و الملفت للنظر أنّ بعض المفسرين قالوا: أنّ جعل هذه الآيه مورد البحث بعد آيات الصوم (آيات ١٨٢-١٨٧) علامه على وجود نوع من الارتباط بينهما، فهناك نهى عن الأكل و الشرب من أجل أداء عباده إلهيه، و هنا نهى عن أكل أموال الناس بالباطل الذى يعتبر أيضاً نوع من الصوم و رياضه النفوس، فهما فى الواقع فرعان لأصل التقوى. ذلك التقوى الذى ورد فى الآيه بعنوان الهدف النهائى للصوم (١).

و لا بدّ من ذكر هذه الحقيقه و هى أنّ التعبير ب (الأكل) يعطى معنا واسعاً حيث

ص: ٦

يشمل كل أنواع التصرفات، أى أنه تعبير كئائى عن أنواع التصرفات، و(الأكل) هو أحد المصاديق البارزه له.

ثم يشير فى ذيل الآيه إلى نموذج بارز لأكل المال بالباطل و العذى يتصور بعض الناس أنه حق و صحيح لأنهم أخذوه بحكم الحاكم فيقول: وَ تَدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١).

(تدلوا) من مادّه (إدلاء)، و هى فى الأصل بمعنى إنزال الدلو فى البئر لإخراج الماء، و هو تعبير جميل للموارد التى يقوم الإنسان فيها بتسيب الأسباب لنيل بعض الأهداف الخاصه.

و هناك احتمالان فى تفسير هذه الجملة:

الأول: هو أن يكون المراد أن يقوم الإنسان بإعطاء قسما من ماله إلى القضاة على شكل هديّه أو رشوه (و كليهما هنا بمعنى واحد) ليتملك البقيه، فالقرآن يقول:

إنكم بالرغم من حصولكم على المال بحكم الحاكم أو القاضى ظاهرا، و لكنّ هذا العمل يعنى أكل للمال بالباطل، و هو حرام.

الثانى: أن يكون المراد أنكم لا- ينبغى أن تتحاكموا إلى القضاة فى المسائل المائيه بهدف و غرض غير سليم، كأن يقوم أحد الأشخاص بإيداع أمانه أو مال ليتيم لدى شخص آخر من دون شاهد، و عند ما يطالبه بالمال يقوم ذلك الشخص بشكايته لدى القاضى، و بما أنّ المودع يفتقد إلى الشاهد فسوف يحكم القاضى لصالح الطرف الآخر، فهذا العمل حرام أيضا و أكل للمال بالباطل.

و لا- مانع من أن يكون لمفهوم الآيه هذه معنا و اسعا يشمل كلا- المعنيين فى جملة (لا- تدلوا)، بالرغم من أنّ كل واحد من المفسرين ارتضى أحد هذين الاحتمالين.

ص: ٧

١- ١) -جملة «تدلوا» عطف على تأكلوا، فعلى هذا يكون مفهومها «لا تدلوا».

ورد حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إنّما أنا بشر و إنّما يأتيني الخصم فلعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض فأفضى له فإن قضيت له بحق مسلم فإنّما هي قطعه من نار فليحملها أو ليذرها»

(١)

أى لا تتصوروا أنه من أمواله و يحل له أكله لأن رسول الله حكم له بهذا المال، بل هي قطعه من نار.

بحث

إشارة

وباء الرشوة:

من الأوبئة الاجتماعية التي ابتلى بها البشر منذ أقدم العصور وباء الارتشاء، و كانت هذه الظاهرة المرضية دوما من موانع إقامة العدالة الاجتماعية و من عوامل جرّ القوانين لصالح الطبقات المقتدره، بينما سنّت القوانين لصيانته مصالح الفئات الضعيفه من تطاول الفئات القويه عليهم. الأقوياء قادرون بما يمتلكونه من قوّه أن يدافعوا عن مصالحهم، بينما لا يملك الضعفاء إلا أن يلودوا بالقانون ليحميهم، و لا تتحقّق هذه الحماية في جوّ الارتشاء، لأنّ القوانين ستصبح ألعوبه بيد القادرين على دفع الرشوة، و سيستمر الضعفاء يعانون من الظلم و الاعتداء على حقوقهم.

و لهذا شدّد الإسلام على مسأله الرشوة و أدانها و قبحها و اعتبرها من الكبائر، فهي تفتّت الكيان الاجتماعي، و تؤدي إلى تفشى الظلم و الفساد و التمييز بين الأفراد في المجتمع الإنساني، و تصادر العدالة من جميع مؤسساته.

جدير بالذكر أنّ قبح الرشوة قد يدفع بالراشيين إلى أن يغطّوا رشوتهم بقناع من الأسماء الأخرى كالهديه و نظائرها، و لكن هذه التغطية لا تغيّر من ماهية العمل شيئا، و الأموال المستحصلة عن هذا الطريق محرّمة غير مشروع.

و هذا «الأشعث بن قيس» يتوسّل بهذه الطريقة، فيبعث حلوى لذيقه إلى بيت

ص: ٨

أمير المؤمنين على عليه السّلام أملا- في أن يستعطف الإمام تجاه قضيه رفعها إليه، ويسمى ما قدّمه هديّه، فيأتيه جواب الإمام صارما قاطعا، قال:

«هبلتك الهبول، أعن دين الله أتيتني لتخدعني؟... والله لو أعطيت الأقاليم السبعه بما تحت أفلاكها على أن أعصى الله في نمله أسلبها جلب شعيره ما فعلته، و أنّ دنياكم عندي لأهون من ورقه في فم جراده تقضمها. ما لعلّي و نعيم يفنى و لذّه لا تبقى؟!...» الإسلام أذان الرشوه بكلّ أشكالها، و في السيره

أنّ واحدا ممّن ولّاه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم قبل رشوه قدّمت إليه بشكل هديه، فقال له الرسول: «كيف تأخذ ما ليس لك بحق؟!» قال: كانت هديه يا رسول الله. قال: «أ رأيت لو قعد أحدكم في داره و لم نوّله عملا أ كان الناس يهدونه شيئا؟!» (١).

و من أجل أن يصون الإسلام القضاء من الرشوه بكلّ أشكالها الخفيّه و غير المباشره، أمر أن لا يذهب القاضي بنفسه إلى السوق للشراء، كي لا يؤثّر فيه بائع من الباعه فيبيعه بضاعه بثمان أقل، و يكسب على أثرها تأييد القاضي في المرافعه.

أين المسلمون اليوم من هذه التعاليم الدقيقه الصارمه الهادفه إلى تحقيق العداله الاجتماعيه بشكل حقيقيّ عمليّ في الحياه؟! إن مسأله الرشوه مهمّه في الإسلام إلى درجه

أن الإمام الصادق عليه السّلام يقول عنها: «و أمّا الرشا في الحكم فهو الكفر بالله العظيم» (٢).

و ورد في الحديث النبوي المعروف: «لعن الله الراشي و المرتشي و الماشي بينهما»

(٣)

ص: ٩

١-١) - نهج البلاغه، الخطبه ٢٢٤.

٢-٢) - وسائل الشيعه: ج ١٢ باب ٥ من أبواب ما يكتسب به ح ٢

٣-٣) - بحار الأنوار: ج ١٠١ ص ٢٧٤ و ج ١١ باب الرشا في الحكم.

### اشاره

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتٌ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩)

### سبب النزول

روى أن معاذ بن جبل قال: يا رسول الله إن اليهود يكثرون مسألتنا عن الأهل فأنزل الله هذه الآية. وقيل: إن اليهود سألو رسول الله: لم خلقت هذه الأهل؟ فنزلت هذه الآية، لتقول إن للأهل فوائد ماديّه و معنويّه فى نظام الحياه الإنسانيّه.

### التفسير

### اشاره

### التقويم الطبيعى:

كما اتضح من سبب نزول هذه الآية الشريفه من أن جماعه سألو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الهلال و ما يحصل عليه من تغييرات متدرّجه و عن أسبابها و نتائجها،

فيجيب القرآن الكريم على سؤالهم بقوله يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ .

(أهله) جمع «هلال» ويعنى القمر فى الليله الاولى و الثانيه من الشهر، و قال بعضهم أنّ التسميه تطلق عليه لثلاث ليالى من أوّل الشهر و بعد ذلك يسمّى (قمر)، و ذهب بعضهم إلى أكثر من هذا المقدار.

و يرى المرحوم (الطبرسى) فى مجمع البيان و آخرون من المفسرين أنّ مفرد «الهلال» هى فى الأصل من (استهلال الصبى) و يعنى بكاء الطفل من بدايه تولّده، ثمّ استعمل للقمر فى بدايه الشهر، و كذلك استعمل أيضا فى قول الحجاج فى بدايه مناسكهم: «لبيك لبيك». بصوت عال، فيقال (أهلّ القوم بالحج) و لكن يستفاد من كلمات الرّاغب فى المفردات عكس هذا المطلب و أنّ أصل هذه المفردة هو الهلال فى بدايه الشهر و قد استفيد منه (استهلال الصبى) أى بكائه عند ولادته.

و على كلّ حال يستفاد من جملة (يسألونك) التى هى فعل مضارع يدل على التكرار أنّ هذا السؤال قد تكرر مرّات عديده على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم.

ثمّ تقول الآيه قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِّ .

فما يحصل عليها من تغييرات منتظمه تدريجيّه، يجعل منها تقويما طبيعيا يساعد الناس على تنظيم أمورهم الحياتيه القائمه على التوقيت و تحديد الزمن، و كذلك على تنظيم امور عباداتهم المحدّده بزمان معين كالحجّ و الصوم، و الهلال هو المرجع فى تعيين هذا الزمان، و بالاستهلال ينظّم الناس امور عبادتهم و شؤون دنياهم.

هذا التقويم الطبيعى ميسور لجميع البشر متعلمهم و أمّتهم، فى جميع بقاع الأرض، و بموجه يمكن تعيين أوّل الشهر و وسطه و آخره، بل كلّ يوم من أيامه بدقه.

و واضح أنّ نظام الحياه الاجتماعيه يحتاج إلى تقويم، أى إلى وسيله تعين التاريخ الدقيق، و من هنا وضع الله سبحانه هذا التقويم الطبيعى للناس فى كلّ



من امتيازات قوانين الإسلام أنّ أحكامه قائمه عادة على المقاييس الطبيعيه لأنّ هذه المقاييس متوفره لدى جميع الناس، ولا يؤثر عليها مرور الزمان شيئاً.

أمّا المقاييس غير الطبيعيه فليست فى متناول يد الجميع و لم يستطع جميع البشر حتى فى زماننا هذا أن يستفيدوا من مقاييس عالميه موحدّه.

لذلك نرى أنّ المقياس فى الأحكام الإسلاميه يقوم فى الأطوال على أساس الشبر و الخطوه و الذراع و القامه، و فى الزمان على غروب الشمس و طلوع الفجر و زوال الشمس و روبه الهلال.

و هنا يتّضح امتياز الأشهر القمرية عن الشمسيه، فالبرغم من أنّ كلا منهما يترتب على حركات الكواكب السماويه، و لكنّ الأشهر القمرية قابله للمشاهده من الجميع، فى حين أنّ الأشهر الشمسيه لا يمكن تشخيصها إلاّ بواسطة المنجمين و بالوسائل الخاصيه لديهم، فيعرفون مثلاً أنّ الشمس فى هذا الشهر سوف تقع فى مقابل أى صوره فلكيه و أى برج سماوى.

و هنا يطرح هذا السؤال: هل أنّ الأشخاص الذين سألوا عن الاهله كان هدفهم هو الاستفسار عن فائده هذه التغيرات او السؤال عن كيفيه ظهور الهلال و تكامله إلى مرحله البدر الكامل؟ ذهب بعض المفسرين إلى الاحتمال الأوّل، و البعض الآخر ذهب إلى الثانى و أضاف: بما أنّ السؤال عن الأسباب و علل التغيرات ليست ذات فائده لهم و لعلّ فهم الجواب أيضا سيكون عسيرا على أذهانهم، فلماذا بين القرآن النتائج المترتبه على تغييرات الهلال لكي يتعلّم الناس أن يتوجّهوا دوما صوب النتائج.

ثمّ إنّ القرآن أشار فى ذيل هذه الآيه و بمناسبه الحديث عن الحجّ و تعيين موسمه بواسطة الهلال الذى ورد فى أوّل الآيه إلى إحدى عادات الجاهليين

الخرافيه فى مورد الحجّ و نهت الآيه الناس عن ذلك، حيث تقول: وَ لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَ لَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَ أَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

ذهب كثير من المفسرين إلى أن الناس فى زمن الجاهليه كانوا يمتنعون لدى لبسهم ثياب الإحرام من الدخول فى بيوتهم من أبوابها و يعتقدون بحرمه هذا العمل، و لهذا السبب فإنهم كانوا يفتحون كوّه و ثقب خلف البيوت لكى يدخلوا بيوتهم منها عند إحرامهم، و كانوا يعتقدون أنّ هذا العمل صحيح و جيد، لأنه بمعنى ترك العاده (1) و الإحرام يعنى مجموعه من تروك العادات فيكتمل كذلك بترك هذه العاده.

و يرى بعضهم أنّ هذا العمل كان بسبب أنهم لا يستظّلون بسقف فى حال الإحرام، و لذلك فإنّ المرور من خلال ثقب الحائط بالقياس مع دخول الدار من الباب يكون أفضل، و لكنّ القرآن يصرّح لهم أنّ الخير و البر فى التقوى لا- فى العادات و الرّسوم الخرافيه، و يأمر بعد ذلك فوراً بأن يدخلوا بيوتهم من أبوابها.

و هذه الآيه لها معنى أوسع و أشمل، و ذلك أنّ الإنسان لا بدّ له عند ما يقدم على أى عمل من الأعمال سواء كان دينياً أو دنيوياً لا بدّ له من أن يردّه من طريق الصحيح لا من الطرق المنحرفه، كما ورد هذا المعنى فى روايه جابر عند ما سأل الإمام الباقر عليه السلام عن ذلك (2) .

و هكذا يكون بإمكاننا العثور على ارتباط جديد بين بدايه الآيه و نهايتها، و ذلك أنّ كلّ عمل لا بدّ أن يردّه الإنسان من الطريق الصحيح، فالعباده فى الحجّ أيضاً لا بدّ أن يبتدأ الإنسان بها فى الوقت المقرّر و تعيينه بواسطه الهلال.

ص: ١٣

١-١) - تفسير البيضاوى: ذيل الآيه المذكوره.

٢-٢) - مجمع البيان، المجلد الأوّل، ص ٢٨٤ فى تفسير الآيه.

التفسير الثالث المذكور لهذه الآية هو أنّ الإنسان عند ما يبحث عن الخيرات و البر لا بدّ أن يتوجّه صوب أهله و لا يطلبه من غير أهله، و لكنّ هذا التفسير يمكن إدراجه في التفسير الثاني حيث

ورد في روايات أهل البيت عليهم السّلام عن الإمام الباقر عليه السّلام (آل محمّد أبواب الله و سبله و الدّعاء إلى الجنّ و القاده إليها و الأدلاء عليها إلى يوم القيامة)

(١)

هذا الحديث قد يشير إلى أحد مصاديق المفهوم الكلّي للآية لأنّه يقول أنّ عليكم أن تردوا في جميع أموركم الدينيه عن الطريق الصحيح لها، يعنى أهل بيت النبوه الذين هم طبقا لحديث الثقلين قرين القرآن، و لذلك يمكنكم أن تأخذوا معارفكم الدينيه منهم، لأنّ الوحي الإلهي نزل في بيوتهم، فهم أهل بيت الوحي و صنائع القرآن و ثمار تربيته.

جملة (ليس البر) يمكنها أن تكون إشاره إلى نكته لطيفه اخرى أيضا، و هي أنّ سؤالكم عن الأهل بدل سؤالكم عن المعارف الدينيه بمثابة من يترك الدخول إلى داره من الباب الأصلي ثمّ يردّه من ظهر البيت فهو عمل مستقبح و مستهجن.

ضمنا يجب الالتفات إلى هذه النكته في قوله تعالى **لَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى** أنّ وجود المتقين بمثابة ينابيع المستفيضه بالخيرات، بحيث أنّهم قد يطلق عليهم كلمه (البر) نفسه (٢).

بحوث

إشاره

## ١- أسئلة مختلفه من رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم

وردت في ١٥ مورد من الآيات القرآنيه جملة (يسألونك) و هذه علامه على

ص: ١٤

(١-١) - مجمع البيان: في تفسير الآية.

(٢-٢) - و ذهب البعض إلى وجود حذف في الجملة و تقديره: لكن البر من اتقى ذلك.

أنّ الناس يسألون من رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم مسائل مختلفه كرارا و مرارا، و الملفت للنظر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم مضافا إلى أنه لا ينزعج من هذه الأسئلة، فإنه يستقبلهم بصدر رحب، و يجيب على أسئلتهم من خلال الآيات القرآنيه.

و أساسا فإنّ السؤال هو أحد حقوق الناس في مقابل القاده، و هذا الحق مشروع حتّى للأعداء أيضا، فبإمكانهم طرح اسئلتهم بشكل معقول. فالسؤال مفتاح حل المشكلات. و السؤال بؤابه العلوم. و السؤال وسيله انتقال المعارف المختلفه.

و أساسا فإنّ طرح الأسئلة المختلفه في كلّ مجتمع علامه على التحرك الفكرى و الحضارى و الثقافى للناس، و وجود كلّ هذه الأسئلة في عصر النبى صلى الله عليه وآله و سلم هو علامه على تحرّك أفكار الناس في ذلك المحيط ضمن تعليمات القرآن الكريم و الدين الإسلامى.

فمن هنا يتّضح أنّ الأشخاص الذين يعارضون طرح الأسئلة المنطقيه في المجتمع يخالفون بذلك روح تعاليم الإسلام، و عملهم هذا مخالف لروح تعاليم الإسلام.

## ٢- التقويم و نظام الحياه

أنّ الحياه الفرديه و الاجتماعيه لا يمكن لها أن تقوم من دون نظم صحيح، نظم في التخطيط، و نظم في المديرية و الإجراء، فمن خلال نظره سريعه إلى عالم الخلق من المنظومات الشمسيه في السماء إلى بدن الإنسان و بناء هيكله و أعضائه المختلفه ندرك جيدا هذا الأصل الشامل و الحاكم على جميع المخلوقات.

و على هذا الأساس جعل الله سبحانه و تعالى هذا النظم تحت اختيار الإنسان و قرّر أن تكون الحركات المنظمه للكره الأرضيه حول نفسها و حول الشمس

و كذلك دوران القمر حول الأرض بانتظام وسيله لتنظيم حياه الإنسان الماديّه و المعنويّه و ترتيبها وفق برنامج معيّن.

و لنفترض أنّ هذا النظم فى الكون لم يكن موجودا و لم يكن لدينا مقياس معيّن لقياس الزّمان،فما ذا سيحصل من اضطراب فى حياتنا اليوميّه؟! و لهذا فإنّ الله تعالى ذكر هذا النظم الزمانى فى الأجرام السماويّه بعنوان أحد المواهب المهمّيه الإلهيّه للإنسان،ففى سورة يونس فى الآيه الخامسه يقول هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَ الْقَمَرَ نُورًا وَ قَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

و مثل ذلك ما ورد فى سورة الإسراء الآيه (١٢) حول النظام الحاكم على الليل و النهار (١).

ص: ١٤

---

١-١) -بحثنا فى هذا الموضوع ذيل الآيه (١٢) من سورة الاسراء،و كذلك ذيل الآيه (٥) من سورة يونس.

اشاره

وَ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَ أَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَ الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَ لَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَ قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)

سبب النزول

ذكر بعض المفسرين سببين لنزول الآيه الاولى من هذه الآيات محل البحث:

الأول: إن هذه الآيه هي أول آيه نزلت في جهاد أعداء الإسلام و بعد نزول هذه الآيه شرع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم في قتالهم إلا الكفار الذين لم يكونوا في حرب مع المسلمين، و استمر هذا الحال حتى نزل الأمر (اقتلوا المشركين) الذي أجاز جهاد

و قتال جميع المشركين (١).

الثانى: من أسباب النزول ما ورد عن ابن عباس أنّ هذه الآية نزلت فى صلح الحديبيّه، وذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمّا خرج هو وأصحابه فى العام الذى أرادوا فيه العمرة، وكانوا ألفاً وأربعمائة، فساروا حتّى نزلوا الحديبيّه فصدّهم المشركون عن البيت الحرام، فنحروا الهدى بالحديبيّه، ثمّ صالحهم المشركون على أن يرجع النبي من عامه و يعود العام المقبل، و يخلوا له مكّه ثلاثه أيّام، فيطوف بالبيت و يفعل ما يشاء، فرجع إلى المدينه من فوره. فلما كان العام المقبل تجهّز النبي صلى الله عليه وآله وسلم و أصحابه لعمرة القضاء، و خافوا أن لا تفى لهم قريش بذلك و أن يصدّوهم عن البيت الحرام و يقاتلوهم، و كره رسول الله قتالهم فى الشهر الحرام فى الحرم، فأنزل الله هذه الآية لتبيح للمسلمين القتال إن بدأهم المشركون به (٢).

و الظاهر أن شأن النزول الأوّل يناسب الآية الاولى، و الثانى يناسب الآيات التالیه، و على أية حال فإن مفهوم الآيات يدلّ على أنها نزلت جميعاً بفاصله قصيره.

### التفسير

القرآن أمر فى هذه الآية الكريمة بمقاتله الذين يشهرون السلاح بوجه المسلمين، و أجازهم أن يواجهوا السلاح بالسلاح، بعد أن انتهت مرحله صبر المسلمين على الأذى، و حلّت مرحله الدفاع الدامى عن الحقوق المشروعه.

تقول الآية: **وَ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ**.

عباره فى سبيل الله توضّح الهدف الأساسى من الحرب فى المفهوم الإسلامى، فالحرب ليست للانتقام و لا للعلوّ فى الأرض و التزعم، و لا للاستيلاء

ص: ١٨

(١-١) - تفسير الفخر الرازى، المجلد ٥، ص ١٢٧.

(٢-٢) - مجمع البيان، ج ١، ص ٢٨٤ (ذيل الآية مورد البحث) و ورد مثلها فى تفاسير اخرى.

على الأراضى، و لا للحصول على الغنائم...فهذا كله مرفوض في نظر الإسلام.

حمل السلاح إنما يصح حينما يكون في سبيل الله و في سبيل نشر أحكام الله، أى نشر الحقّ و العدالة و التوحيد و اقتلاع جذور الظلم و الفساد و الانحراف.

و هذه هي الميزه التي تميّز الحروب الإسلاميه عن ساير الحروب في العالم، و هذا الهدف المقدّس يضع بصماته على جميع أبعاد الحرب في الإسلام و يصبغ كيفيه الحرب و كميتها و نوع السلاح و التعامل مع الأسرى و أمثال ذلك بصبغه «في سبيل الله».

«سبيل» كما يقول الراغب في مفرداته أنها في الأصل تعنى الطريق السهل، و يرى بعض أنه ينحصر في طريق الحقّ. و لكن مع الالتفات إلى أن هذه المفردة جاءت في القرآن الكريم تارة بمعنى طريق الحقّ، و اخرى طريق الباطل، فإن مرادهم قد يكون إطلاقها على طريق الحقّ مع القرائن.

و لا شكّ أن سلوكك طريق الحقّ «سبيل الله» أى طريق الدين الإلهي مع احتوائه على مشاكل و مصاعب كثيره إلا أنه سهل يسير لتوافقه مع الفطره و الروح الإنسانيه للأشخاص المؤمنين، و لهذا السبب نجد المؤمنين يستقبلون تلك الصعوبات برحابه صدر حتى لو ادى بهم إلى القتل و الشهاده.

و عباره الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ تَدْلُ بِصِرَاحِهِ أَنَّ هَذَا الْحُكْمَ الشَّرْعِيَّ يَخْتَصُّ بِمَنْ شَهَرُوا السَّلَاحَ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ، فلا تجوز مقاتله العدو ما لم يشهر سيفاً و لم يبدأ بقتال باستثناء موارد خاصه سيأتي ذكرها في آيات الجهاد.

و ذهب جمع من المفسرين إلى أن مفهوم الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ محدود بدائره خاصه، في حين أن مفهوم الآيه عام و واسع. و يشمل جميع الذين يقاتلون المسلمين بنحو من الأنحاء.

و يستفاد من الآيه أيضا أن المدنيين -خاصه النساء و الأطفال- لا يجوز أن



يتعرّضوا لهجوم، فهم مصونون لأنهم لا يقاتلون و لا يحملون السلاح.

ثمّ توصى الآية الشريفه بضروره رعايه العدالة حتّى فى ميدان القتال و فى مقابل الأعداء، و تقول: **وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**.

أجل، فالحرب فى الإسلام لله و فى سبيل الله، و لا يجوز أن يكون فى سبيل الله اعتداء و لا عدوان. لذلك يوصى الإسلام برعايه كثير من الأصول الخلقية فى الحرب، و هو ما تفتقر إليه حروب عصرنا أشدّ الافتقار. يوصى مثلا بعدم الاعتداء على المستسلمين و على من فقدوا قدره على الحرب، أو ليست لديهم أصلا قدره على الحرب كالشيوخ و النساء و الأطفال، و هكذا يجب عدم التعرّض للمزارع و البساتين، و عدم اللجوء إلى المواد السامه لتسميم مياه شرب العدو كالسائد اليوم فى الحروب الكيماويه و الجرثوميّه.

الإمام عليّ عليه السّلام يقول لافراد جيشه - كما ورد فى نهج البلاغه - و ذلك قبل شروع القتال فى صفين:

«لا- تقاتلوهم حتّى يبدؤوكم فإنكم بجهد الله على حجه، و ترككم إيّاهم حتّى يبدؤوكم حجه اخرى لكم عليهم، فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبرا و لا تصيبوا معورا و لا تجهزوا على جريح، و لا تهيجوا النساء بأذى و إن شتمن أعراضكم و سببن أمراءكم»

(١)

و الجدير بالذكر أن بعض المفسّرين ذهب طبقا لبعض الروايات أن هذه الآية ناسخه للآيه التى تنهى عن القتال من قبيل كُفُوا أَيْدِيَكُمْ (٢). و ذهب آخرون إلى أنها منسوخه بالآيه **وَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً** (٣). و لكن الصحيح أن هذه الآية لا

ص: ٢٠٠

١- ١) -نهج البلاغه-الكتب و الرسائل-رقم ١٤.

٢- ٢) -سوره النساء، ٧٧.

٣- ٣) -التوبه، ٣٦.

ناسخه و لا- منسوخه، لأن منع المسلمين من قتال الكفار كان في زمن لم يكن للمسلمين القوه الكافيه، ومع تغير الظروف صدر الأمر لهم بالدفاع عن أنفسهم، و كذلك قتال المشركين فهو في الواقع استثناء من الآيه، فعلى هذا يكون تغيير الحكم بسبب تغيير الظروف لا- من قبيل النسخ و لا الاستثناء، و لكن القرائن تدلّ على أن النسخ في الروايات و في كلمات القدماء له مفهوم غير مفهومه في العصر الحاضر، أى له معنى واسع يشمل هذه الموارد أيضا.

في الآيه التاليه التى تعتبر مكمله للأمر الصادر في الآيه السابقه تتحدّث هذه الآيه بصراحه أكثر و تقول: إن هؤلاء المشركين هم الذين أخرجوا المؤمنين من ديارهم و صبوا عليهم ألوان الأذى و العذاب، فيجب على المسلمين أن يقتلوهم أينما وجدوهم، و أنّ هذا الحكم هو بمثابة دفاع عادل و مقابله بالمثل، لأنهم قاتلوكم و أخرجوكم من مكه و أقتلوهم حيث تفتتوهم و أخرجوهم من حيث أخرجوكم. ثم يضيف الله تعالى و الفتنه أشد من القتل .

أما المراد من (الفتنه) ما هو؟ فهناك أبحاث عديده بين المفسرين و أرباب اللغه، فهذه المفرده في الأصل من (فتن) على وزن متن، و يقول الراغب في مفرداته أنّها تعنى وضع الذهب في النار للكشف عن درجه جودته و أصالته، و قال البعض أنّ المعنى هو وضع الذهب في النار لتطهيره من الشوائب (١)، و قد وردت مفرده الفتنه و مشتقاتها في القرآن الكريم عشرات المرات و بمعان مختلفه.

فتاره جاءت بمعنى الامتحان مثل أ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢).

ص: ٢١

١-١) -روح المعاني، المجلد الثاني، ص ٦٥.

٢-٢) -العنكبوت: ٢.

و تاره وردت بمعنى المكر و الخديعه فى قوله تعالى <sup>□</sup> يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ (١).

و تاره بمعنى البلاء و العذاب مثل قوله يوم هم على النار يفتنون ذوقوا فتنتكم (٢).

و تاره وردت بمعنى الضلال مثل قوله و من يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا (٣).

و تاره بمعنى الشرك و عباده الأوثان أو سد طريق الإيمان أمام الناس كما فى الآيه مورد البحث و بعض الآيات الواردة بعدها فيقول تعالى: <sup>□</sup> <sup>□</sup> <sup>□</sup> وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ .

و لكن الظاهر أن جميع هذه المعانى المذكوره للفتنه تعود إلى أصل واحد (كما فى أغلب الألفاظ المشتركه)، لأنه مع الأخذ بنظر الإعتبار أن معنى الأصل هو وضع الذهب فى النار لتخليصه من الشوائب فلهذا استعملت فى كل مورد يكون فيه نوع من الشده، مثل الامتحان الذى يقترن عادة بالشده و يتزامن مع المشكلات، و العذاب أيضا نوع آخر من الشده، و كذلك المكر و الخديعه التى تتخذ عادة بسبب أنواع الضغوط و الشدائد، و كذلك الشرك و إيجاد المانع فى طريق ايمان الناس حيث يتضمن كل ذلك نوع من الشده و الضغط.

و الخلاصه أن عباده الأوثان و ما يتولم منها من أنواع الفساد الفردى و الاجتماعى كانت سائده فى أرض مكه المكرمه حيث لوثت بذلك الحرم الإلهى الآمن، فكان فسادها أشد من القتل فلذلك تقول هذه الآيه مورد البحث مخاطب

ص: ٢٢

١-١) -الأعراف: ٢٧.

٢-٢) -الذاريات: ١٣، ١٤.

٣-٣) -المائده: ٤١.

المسلمين: أنه لا ينبغي لكم ترك قتال المشركين خوفا من سفك الدماء فإنَّ عباده الأوثان أشد من القتل.

وقد أورد بعض المفسرين احتمالا- آخر، وهو أن يكون المراد من الفتنه هنا الفساد الاجتماعى من قبيل تباعد المؤمنين من أوطانهم حيث تكون هذه الأمور أحيانا أشد من القتل أو سببا فى قتل الأنفس و الأفراد فى المجتمع، فنقرأ فى الآيه (٧٣) من سوره الأنفال قوله تعالى إِلَّا- تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فسادٌ كَبِيرٌ أى إذا لم تقطعوا الرابطة مع الكفار فسوف تقع فتنه كبيره فى الأرض و فساد عظيم.

ثم تشير الآيه إلى مسأله اخرى فى هذا الصدد فتقول: إنَّ على المسلمين أن يحترموا المسجد الحرام دائما و أبدا، و لذلك لا ينبغي قتال الكفار عند المسجد الحرام، إلا أن يبدؤكم بالقتال و لا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ .

فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ

لأنهم عند ما كسروا حرمة هذا الحرم الإلهى الآمن فلا معنى للسكوت حينئذ و يجب مقابلتهم بشده لكى لا يسيئوا الاستفاده من قداسه الحرم و احترامه.

و لكن بما أن الإسلام فى منهجه التربوى للناس يقرن دائما الإنذار و البشاره معا، و الثواب و العقاب كذلك، لكى يؤثر فى المسلمين تأثيرا سليما، فلذلك فسح المجال فى الآيه التاليه للعوده و التوبه فقال فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

أجل فلو أنهم تركوا الشرك و أطفؤوا نيران الفتنه و الفساد فسوف يكونون من إخوانكم، و حتى بالنسبه إلى الغرامه و التعويضات التى تجب على سائر المجرمين بعد قيامهم للجريمه فإنَّ هؤلاء المشركون معفون من ذلك و لا يشملهم هذا الحكم.

و ذهب البعض إلى أن جملة فَإِنْ أَنْتَهَوْا بمعنى ترك الشرك و الكفر (كما ذكرنا أعلاه).

و ذهب البعض إلى أنّ المعنى هو ترك الحرب و القتال فى المسجد الحرام أو أطرافه.

و لكنّ الجمع بين هذين المعنيين ممكن أيضا.

الآية التالية تشير إلى هدف الجهاد فى الإسلام و تقول: **وَ قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَ يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ .**

ثمّ تضيف: فإنّ ترك هؤلاء المشركون عقائدهم الباطلة و أعمالهم الفاسده فلا- تتعرضوا لهم فإنّ انتهوا فلا عُدوانَ إلاّ على الظالمين .

و حسب الظاهر ذكر فى هذه الآية ثلاثة أهداف للجهاد و هى:

١- إزاله الفتنة.

٢- محو الشرك و عباده الأوثان.

٣- التصدى للظلم و العدوان.

و يحتمل أن يكون المراد من الفتنة هو الشرك أيضا و على هذا يكون الهدف الأول و الثانى واحدا، و هناك أيضا احتمال آخر و هو أنّ المراد من الظلم هنا هو الشرك أيضا كما ورد فى الآية (١٦) من سوره لقمان إنّ الشُّركَ لظُلْمٌ عَظِيمٌ .

و على هذا الأساس فإنّ هذه الأهداف الثلاثة تعود إلى هدف واحد و هو التصدى للشرك و عباده الأوثان و الذى يمثّل المصدر الأساس لكلّ أنواع الفتن و المظالم و العدوان.

و ذهب البعض إلى أنّ الظلم فى هذه الآية بمعنى الابتداء بالحرب أو القتال فى الحرم الإلهى الآمن، و لكنّ الاحتمال الأول و هو أنّ المراد من الآية هو الأهداف الثلاثة المتقدمه أقوى، فصحيح أنّ الشرك هو أحد مصاديق الفتنة، و لكنّ الفتنة لها مفهوم أوسع من الشرك، و صحيح أيضا أنّ الشرك أحد مصاديق الظلم، و لكنّ الظلم له مفهوم أوسع أيضا، فعند ما نرى تفسيره بالشرك أحيانا فهو لبيان المصداق.

و على هذا الأساس لا- يكون الجهاد فى الإسلام لغرض التسلّط على البلدان و الفتوحات، و ليس لغرض تحصيل الغنائم، و لا بهدف تملك الأسواق للتجاره أو السيطرة على ثروات و معادن البلدان الأخرى، أو من أجل غلبه العنصر القومى على آخر. فالهدف هو أحد الثلاثة المتقدمه: إزاله الفتن و الفوضى التى تؤدى إلى سلب حرّيه الناس و أمنهم، و كذلك محو آثار الشرك و عباده الأوثان، و أيضا التصدى للظالمين و المعتدين و الدفاع عن المظلومين.

## بحوث

## اشاره

### ١-مسأله الجهاد فى الإسلام

نلاحظ فى الكثير من المذاهب الوضعيه المنحرفه أنه لا- وجود للجهاد لديهم إطلاقا، فكلّ ما فيه يدور حول محور النصائح و المواعظ الأخلاقيه، حتّى أنّ البعض عند ما يسمع بوجود مقاله الجهاد و استعمال القوه كأحد الأركان المهمه فى التعاليم الإسلاميه يتعجب كثيرا على اقتران الدين بالحرب.

و لكن مع ملاحظه أنّ الحكام الطواغيت و الفراعنه و أمثالهم من النمروديين و القاروتيين الذين يعترضون دائما على دعوه الأنبياء الإصلاحيه و يقفون بوجهها و لا يرضون إلا بإزاله الدين الإلهى من الوجود يتّضح أنّ على المؤمنين و المتديّنين فى الوقت الذى يعتمدون على العقل و المنطق و الأخلاق فى تفاعلهم الاجتماعى مع الآخرين عليهم أن يتصدّوا لهؤلاء الظالمين و الطواغيت و يشقّوا طريقهم بالجهاد و تحطيم هذه الموانع و العوائق التى يقيمها حكام الجور فى طريقهم.

و أساسا فإنّ الجهاد هو من علامات الحياه لكلّ موجود و يمثّل قانونا عامّيا في عالم الأحياء، فجميع الكائنات الحيّه أعم من الإنسان و الحيوان و النبات تجاهد عوامل الفناء من أجل بقائها، و سيأتي مزيد من التوضيح في هذا المجال في سوره النساء ذيل الآيه ٩٥ و ٩٦.

و على كلّ حال فإنّ من افتخاراتنا نحن المسلمين أنّ ديننا يقرن المسائل الدينيه بالحكومه و يعتمد على الجهاد كأحد أركان المنظومه العقائديه لهذا الدين، غايه الأمر يجب ملاحظه أهداف هذا الجهاد الإسلامى، و هذا هو العدى يفصل بيننا و بين الآخرين.

## ٢- أهداف الجهاد فى الإسلام

يصرّ البعض من المتغزبين أنّ الجهاد الإسلامى منحصر فى الجهاد الدفاعى و يحاولون توجيه جميع غزوات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلّم أو الحروب التى حدثت بعده فى هذه الدائره، فى حين أنّه لا يوجد دليل على هذه المسأله، و لم تكن جميع غزوات رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم دفاعيه، فمن الأفضل العوده إلى القرآن الكريم بدل هذه الاستنباطات الخاطئه لاستجلاء أهداف الجهاد من القرآن الكريم، تلك الأهداف المنطقيه القابله للعرض على الصديق و العدو.

و كما تقدّم فى الآيات أعلاه أنّ الجهاد فى الإسلام يتعقّب عدّه أهداف مباحه:

الف: الجهاد من أجل إطفاء الفتن و بعبارة اخرى الجهاد الابتدائى من أجل التحرير، فنحن نعلم أنّ الله عزّ و جلّ قد أنزل على البشريّه شرائع و برامج لسعاده البشر و تحريرهم و تكاملهم و إيصالهم إلى السعاده و الرفاه، و أوجب على الأنبياء عليهم السلام أن يبلغوا هذه الشرائع و الإرشادات إلى الناس، فلو تصوّر أحد الأفراد أو طائفه من الناس أنّ إبلاغ هذه

الشرائع للناس سوف يعيقه عن نيل منافعه الشخصيّه و سعى لإيجاد الموانع و وضع العصى فى عجلات الدعوه الإلهيّه، فلأنبياء الحقّ فى إزاله هذه الموانع بطريقه المسالمة أولاً و إلاّ فعليهم استخدام القوّه فى إزاله هذه الموانع عن طريق الدّعوه لنيل الحرّيّه فى التبليغ.

و بعباره اخرى: أنّ الناس فى جميع المجتمعات البشريّه لهم الحقّ فى أن يسمعوا مقاله منادى الحقّ و هم أحرار فى قبول دعوه الأنبياء، فلو تصدّى فرد أو جماعه لسلب هذا الحقّ المشروع للناس و حرمانهم منه و منعوا صوت الحقّ من الوصول إلى الناس ليحرّرهم من قيود الأسر و العبوديّة الفكرية و الاجتماعيّة، فلاتباع الدين الحقّ فى الاستفاده من جميع الوسائل لتهيئه هذه الحرّيّه، و من هنا كان (الجهاد الابتدائي) فى الإسلام و سائر الأديان السماويّه ضروريًا.

و كذلك إذا استخدم البعض القوّه و الإرهاب فى حمل جماعه من المؤمنين على ترك دينهم و العوده إلى الدين السابق لهم، فللمؤمنين الحقّ فى الاستفاده من جميع الوسائل لرفع هذا الإكراه و الإرهاب.

ب-الجهاد الدفاعي.

هل من الصحيح أن يواجه الإنسان هجوما و عدوانا عليه و لا- يدافع عن نفسه؟ أو أن يقوم جيش معتدى بالهجوم على بعض الشعوب الاخرى و لا تقوم تلك الشعوب بالدفاع عن نفسها و عن بلدها بل تقف موقف المتفرّج؟ هنا نجد أنّ جميع القوانين السماويّه و البشريّه تبيح للفرد أو الجماعه الدّفاع عن النفس و الاستفاده ممّا وسعهم من قوّه فى هذا السبيل، و يسمّى مثل هذا الجهاد ب(الجهاد الدفاعي) و من ذلك غزوه الأحزاب و احد و مؤته و تبوك و حنين و نظائرها من الحروب الإسلاميه الّتي لها جنبه دفاعيّه.

و فى هذا الزمان نجد أنّ الكثير من أعداء الإسلام يعتدون على المسلمين



و يشعلون نيران الحروب للسيطره على البلاد الإسلاميه و نهب ثرواتها، فكيف يبيح الإسلام السكوت أمام هذا العدوان؟ ج-  
الجهاد لحماية المظلومين و نلاحظ فرعا آخر من فروع الجهاد في الآيات القرآنيه الكريمه، و هو الجهاد لحماية المظلومين، فتقرأ  
في الآيه (٧٥) من سوره النساء وَ مَا لَكُمْ لَا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ وَ الْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا  
أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَ اجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَ اجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا .

و على هذا الأساس فالقرآن يطلب من المسلمين الجهاد في سبيل الله و كذلك في سبيل المستضعفين المظلومين، و أساسا إن  
هاتين الغايتين متحدتان، و مع الأخذ بنظر الاعتبار عدم وجود قيد أو شرط في الآيه أعلاه نفهم من ذلك وجوب الدفاع عن  
جميع المظلومين و المستضعفين في كل نقطه من العالم القريبه منها أو البعيده، و في الداخل أو الخارج.

و بعبارة أخرى: أنّ حمايه المظلومين في مقابل عدوان الظالمين هو أصل في الإسلام يجب مراعاته، حتّى لو أدّى الأمر إلى الجهاد  
و استخدام القوه، فالإسلام لا يرضى للمسلمين الوقوف متفرجين على ما يرد على المظلومين في العالم، و هذا الأمر من الأوامر  
المهمه في الشريعه الإسلاميه المقدسه التي تحكى عن حقايقه هذا الدين.

د-الجهاد من أجل دحر الشرك و عباده الأوثان الإسلام يدعو البشريه إلى اعتناق الدين الخاتم الأكمل و هو يحترم مع ذلك  
حريه العقيدته، و بذلك يعطى أهل الكتاب الفرصه الكافيه للتفكير في أمر اعتناق الرّساله الخاتمه، فإن لم يقبلوا بذلك فإنّه  
يعاملهم معاملة الأقبائيه المعاهده (أهل الذّمه) و يتعايش معهم تعايشا سلميا ضمن شروط خاصه بسيطه و ميسوره، لكنّ

الشرك و الوثنيّه ليسا بدين و لا عقيدته و لا يستحقّان الاحترام، بل هما نوع من الخرافه و الحرق و الانحراف و نوع من المرض الفكرى و الأخلاقى الذى ينبغى أن يستأصل مهما كلف الثمن.

كلمه حرّيه العقيدته و احترام أفكار الآخرين تصدق فى مواقع يكون لهذه العقيدته و الأفكار على أقلّ تقدير أساس من الصّحّه، أما الانحراف و الخرافه و الضلال فليست بأشياء تستحق الاحترام، و لذلك يأمر الإسلام بضروره اقتلاع جذور الوثنيّه من المجتمع و لو كلف ذلك خوض الحرب، و ضروره هدم آثار الشرك و الوثنيّه بالطرق السلميه أولاً، فإن تعذّرت الطرق السلميه بالقوّه.

أجل فالإسلام يرى ضروره تطهير الأرض من أدران الشرك و الوثنيّه و يعد المسلمين بمستقبل مشرق للبشريّه فى العالم تحت ظل حكومه التوحيد و زوال كلّ أنواع الشرك و الوثنيّه.

و ممّا تقدّم من ذكر أهداف الجهاد يتّضح أنّ الإسلام أقام الجهاد على أسس منطقيّه و عقليه، فلم يجعله وسيله للتسلّط و السيطره على البلدان الاخرى و غصب حقوق الآخرين و تحميل العقيدته و استعمار و استثمار الشعوب الاخرى، و لكننا نعلم أنّ أعداء الإسلام و خاصّه القائمون على الكنيسه و المستشرقين المغرضين سعوا كثيرا لتحريف الحقائق ضد مسأله الجهاد الإسلامى، و اتّهموا الإسلام باستعمال الشدّه و القوّه و السيف من أجل تحميل الإيمان به و تهموا كثيرا على هذا القانون الإسلامى.

و الظاهر أنّ خوفهم و هلعهم إنّما هو من تقدّم الإسلام المطرد فى العالم بسبب معارفه الساميه و برنامجه السليم، و لهذا سعوا لإعطاء الإسلام صبغه موحشه كيما يتمكّنوا من الوقوف أمام انتشار الإسلام.

نعلم أنّ الجهاد وجب على المسلمين في السنّه الثانيه بعد الهجره، و لم يكن قد شرع قبلها، و السبب واضح فهو يعود من جهه إلى قلّه عدد المسلمين في مكّه بحيث يكون الأمر بالكفاح المسلّح في مثل هذه الحاله هو الانتحار بعينه، و من جهه اخرى كان العدو في مكّه قويًا جدًّا، فمكّه في الواقع كانت مركز القوى المعاديه للإسلام، و لم يكن بالإمكان حمل السلاح فيها.

أمّا حين قدم النبي صلى الله عليه و آله و سلّم إلى المدينه إزداد عدد المؤمنين و اتسع نطاق الدّعوه داخل المدينه و خارجها، و تأسّست الحكومه الإسلاميه الصالحه، و تهيّأت وسائل الجهاد ضدّ العدو على صعيد العدّه و العدد، و بما أنّ المدينه المنوره كانت بعيده عن مكّه استطاع المسلمون في حاله من الأمن و الطمأنينه أن يبنوا وجودهم و يعدّوا أنفسهم لمواجهه العدو و الدفاع عن رسالتهم.

اشاره

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتِ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤)

التفسير

اشاره

احترام الأشهر الحرم و المقابله بالمثل:

هذه الآيه الشريفه تكمّل البحث الوارد فى الآيات السّابقيه عن الجهاد بشكل عام، فهى فى الواقع إجابته على من يتصوّر أنّه لا يمكن القتال فى الأشهر الحرم، فكيف أمر الإسلام بالقتال فيها.

و لتوضيح الأمر: كان المشركون على علم بأنّ الإسلام يحضر الحرب فى الأشهر الحرم (ذى القعدة و ذى الحجه و محرم و رجب) خاصّه فى حرم مكّه و المسجد الحرام، و بعبارة اخرى أنّ الإسلام أمضى هذه السنّه التى كانت موجوده من قبل، فكان نبي الإسلام ملتزم بهذا الحضر، لذلك أرادوا أن يشنّوا هجوما مباغتاً على المسلمين فى هذه الأشهر الحرم متجاهلين حرمتها ضائين أنّ المسلمين ممنوعون من المواجهه، و فى هذه الحاله يستطيعون أن يحقّقوا هدفهم.

الآية الكريمة تكشف مؤامره المشركين و تحمّل المسلمين مسؤوليته مواجهه العدوان حتى في الأشهر الحرم فتقول الآية: الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ أَي أَنَّ الأعداء لو كسروا حرمة و احترام هذه الأشهر الحرم و قاتلوكم فيها فلکم الحق أيضا في المقابله بالمثل، لأنّ وَ الْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ .

(حرمات) جمع «حرمة» و تعنى الشىء العذی يجب حفظه و احترامه، و قيل للحرم: حرم لأنّه مكان محترم و لا يجوز هتكه. و يقال الأعمال الممنوعه و القبيحه حرام لهذا السبب، و لهذا أيضا كانت بعض الأعمال محرّمه في الشهر الحرام و الأرض الحرم.

و هذه العبارة وَ الْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ تتضمنّ جوابا رابعا لأولئك العذین اعترضوا على النبی صلی الله عليه و آله و سلم لإباحته الحرب في الأشهر الحرم، أو أرض مكّه المكرمه الحرم الإلهی الآمن، و تعنى أنّ احترام الأشهر الحرم ضرورى أمام العدو الذى يراعى حرمة هذه الأشهر، أمّا العدو الذى يهتك هذه الحرمة فلا تجب معه رعايه الاحترام و تجوز محاربتة حتى في هذه الأشهر، و امر المسلمون أن يهبّوا للجهاد عند اشتعال نار الحرب كى لا تخامر أذهان المشركين فكره انتهاك حرمة هذه الشهور.

ثمّ تشرّع الآية حكما عامّا يشمل ما نحن فيه و تقول: فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

فالإسلام- و خلافا للمسيحيّه الحائيه التى تقول (إذا لطمك شخص على خدك الأيمن فأدر له الأيسر) (1)- لا يقول بمثل هذا الحكم المنحرف الذى يبعث على جرأه المعتدى و تطاول الظالم، و حتى المسيحيون في هذا الزمان لا يلتزمون مطلقا بهذا الحكم أيضا، و يردون على كلّ عدوان مهما كان قليلا بعد و ان أشد، و هذا أيضا مخالف لدستور الإسلام في الرد، فالإسلام يقول: يجب التصدّى للظالم

ص: ٣٢

والمعتدى، و يعطى الحق للمظلوم و المعتدى عليه المقابله بالمثل، فالاستسلام فى منطق الإسلام يعنى الموت، و المقاومه و التصدى هى الحياه.

و الجدير بالذكر أنّ مفهوم الآيه يشمل دائره وسيعه و لا ينحصر بمسأله القصاص فى مقابل القتل أو الجنايات الاخرى، بل يشمل حتّى الأمور المائيه القصاص فى مقابل القتل أو الجنايات الأخرى، بل يشمل حتّى الأمور المائيه و سائر الحقوق الاخرى.

و هذا طبعاً لا يتعارض مع مسأله العفو و الصفح عن الإخوان و الأصدقاء النادمين.

أحيانا يتصوّر بعض العوام أنّ معنى الآيه هو أنه لو قتل شخص شخصاً آخر فإنّ معنى المقابله بالمثل تبيح لأب المقتول أن يقتل ابن القاتل، و إذا ضرب أخاه فيجوز له أن يضرب أخا الضارب، و لكن هذا اشتباه كبير، لأنّ القرآن يقول فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ لا الأفراد الأبرياء.

و أيضاً لا- ينبغي أن يتصوّر أنّ مفهوم الآيه هو أنه أن أقام شخص بإحراق بيت آخر فيجوز للمعتدى عليه أن يقوم بحرق بيت المعتدى، بل مفهومه أن يؤدّى المعتدى ما يعادل قيمه البيت المحترق إلى المعتدى عليه.

و عبارته وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ تأكيد آخر على ضروره عدم تجاوز الحدّ فى الدّفاع و المقابله، لأنّ الإفراط فى المقابله يبعد مواجهه عن إطار التقوى.

و قوله تعالى وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ إشاره إلى أنّ الله لا يهمل المتقى فى خضمّ المشكلات، بل يعينه و يراعه، لأنّ من كان مع شخص آخر فمفهومه أنه يعينه فى مشكلاته و يحميه مقابل الأعداء.

اشاره

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥)

التفسير

اشاره

الإِنْفَاقُ وَ الْخِلاصُ مِنَ الْمَازِقِ:

هذه الآيه تكمل ما مرّ من آيات الجهاد فكما أنّ الجهاد بحاجة إلى الرجال المخلصين و المجريين كذلك بحاجة إلى المال و الثروه أى بحاجة إلى الاستعداد البدنى و المعنوى و المعدّات الحربيه، صحيح أن العامل الحاسم فى تقرير مصير الحرب هو الرجال بالدرجه الاولى، و لكنّ الجندى بحاجة إلى أدوات الحرب (أعمّ من السلاح و الأدوات و وسائل النقل و الغذاء و الوسائل الصحيّه) فإنّه بدونها لا يمكنه أن يفعل شيئاً.

من هنا أوجب الإسلام تأمين وسائل الجهاد مع الأعداء، و من ذلك ما ورد فى الآيه أعلاه حيث تأمر بصراحه و أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ .

و هذا المعنى يتأكد خاصه في عصر نزول هذه الآيات حيث كان المسلمون في شوق شديد إلى الجهاد كما يحدثنا القرآن عن أولئك الذين أتوا النبي يطلبون منه السلاح ليشاركوا في ساحه الجهاد و إذ لم يجدوا ذلك عادوا مهمومين محزونين تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (١).

فعباره وَ لَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا وارده في ترك الإنفاق في الجهاد الإسلامي، و لكن مفهومها واسع يشمل موارد اخرى كثيره، منها أنّ الإنسان ليس له الحقّ في اتّخاذ الطرق الخطره للسيفر (سواء من الناحيه الأمتيه أو بسبب العوامل الجويه أو غير ذلك) دون أن يتخذ لنفسه الاحتياطات اللازمه لذلك، كما لا يجوز له تناول الغذاء الذي يحتمل قويا أن يكون مسموما و حتّى أن يرد ميدان القتال و الجهاد دون تخطيط مدروس، ففي جميع هذه الموارد الإنسان مسئول عن نفسه في ما لو ألقى بها في الخطر بدون عذر مقبول.

و تصوّر بعض الجهلاء من أنّ كلّ ألوان الجهاد الابتدائي هو إلقاء النفس في التهلكه و حتّى أنهم أحيانا يعتبرون قيام سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السّلام في كربلاء مصداق لهذه الآيه، و هذا ناشئ من الجهل المطبق و عدم درك مفهوم الآيه الشريفه، لأنّ إلقاء النفس بالتهلكه يتعلّق بالموارد التي لا يكون فيها الهدف أثن من النفس و إلا فلا بدّ من التضحيه بالنفس حفاظا على ذلك الهدف المقدّس كما صنع الإمام الحسين و جميع الشهداء في سبيل الله كذلك.

فهل يتصوّر أحد أنّ الشّخص الذي يرى النبي صلى الله عليه و آله و سلّم في خطر فيحميه بنفسه و يذبّ عنه معرّضا نفسه للخطر فداء لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم (كما صنع على عليه السّلام في حرب احد أو في ليله المبيت) فهل يعنى هذا إلقاء للنفس بالتهلكه و إنّه صنع حراما؟ و هل

ص: ٣٥



يعنى ذلك أن يقف موقف المتفرّج حتّى يقتل رسول الله و يقول أنّ إلقاء النفس فى التّهلكه حرام؟ و الحقّ أنّ مفهوم الآيه واضح و التمسك بها فى مثل هذه الموارد نوع من الجهل و الحمق.

أجل، إذا لم يكن الهدف مهمًا و لا يستحق أن يضحي الإنسان بنفسه فى سبيله، أو أنّه يكون مهمًا و لكن بإمكانه تحقيقه بوسائل و طرق اخرى أفضل، ففي هذه الموارد لا ينبغي إلقاء النفس فى الخطر (كموارد التقيّه مثلا من هذا القبيل).

و فى آخر الآيه أمر بالإحسان و يقول أَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

أمّا ما هو المراد بالإحسان هنا؟ فهناك عدّه احتمالات فى كلمات المفسّرين، منها: أنّ المراد هو حسن الظن بالله (فلا تظنّوا أنّ إنفاقكم هذا يؤدى إلى الاختلال فى معاشكم)، و الآخر هو الاقتصاد و الاعتدال فى مسأله الإنفاق، و احتمال ثالث هو دمج الإنفاق مع حسن الخلق للمحتاجين بحيث يتزامن مع البشاشه و إظهار المحبّه و تجنّب أى لون من ألوان المنه و الأذى للشخص المحتاج، و لا مانع من أن يكون المراد فى مفهوم الآيه جميع هذه المعانى الثلاث.

**بحوث**

**إشاره**

### **١- الإنفاق مانع عن انهيار المجتمع**

هناك ارتباط معنوى بين جمله وَ أَنْفِقُوا فى سَبِيلِ اللَّهِ و لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ بملاحظه أنّ عبارات الآيات القرآنيه مترابطه و متلازمه، و الظاهر أنّ الرّابطه بين هاتين العبارتين هو أنّكم لو لم تنفقوا فى سبيل الله و فى مسار الجهاد فقد ألقيتم أنفسكم فى التّهلكه.

ص: ٣٦

و يمكن أن يكون الارتباط أكثر من ذلك و هو أن نقول: إن هذه الآية بالرغم من أنها وردت في ذيل آيات الجهاد، ولكنها تبين حقيقة كليته و اجتماعيته، و هي أن الإنفاق بشكل عام سبب لنزاهه المجتمع من المفساد المدمره، لأنه حينما يترك أفراد المجتمع الإنفاق و تتراكم الثروه في أحد أقطاب المجتمع تنشأ طبقه محرومه بائسه، و لا يلبث أن يحدث انفجار عظيم فيه يحرق الأثرياء و ثروتهم و يتضح من ذلك ارتباط الإنفاق بابعاد التهلكه.

و من هنا فالإنفاق يعود بالخير على الأثرياء قبل أن يصيب خيره المحرومين، لأنّ تعديل الثروه يصون الثروه كما قال الإمام على عليه السلام (حصّنوا أموالكم بالزّكاه) (١).

و بتعبير بعض المفسّرين أنّ الامتناع من الإنفاق في سبيل الله يؤدّي إلى موت الرّوح الإنسانيّه في الفرد بسبب البخل، و كذلك يؤدّي إلى موت المجتمع بسبب الضعف الاقتصادي و خاصّه في النظام الإسلامي المبتنى على أساس الإحسان و الخير (٢).

## ٢- سوء الاستفاده من مضمون الآية

تقدّم أنّ بعض أهل الدنيا من طلاب العافيه تمسّكوا في هذه الجملة من هذه الآية وَ لَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ للفرار من الجهاد في سبيل الله حتّى أنّهم و سموا ثوره الإمام الحسين عليه السّلام في عاشوراء التي كانت سبب نجاه الإسلام و بقائه إمام الأعداء كبنى أمّيه أنّها مصداق لهذه الآية، و غفلوا عن أنه لو كان الأمر كما يقولون لانسدّ باب الجهاد تماما.

ص: ٣٧

١-١) - نهج البلاغه، الحكمة ١٤٦.

٢-٢) - تفسير في ظلال القرآن، ج ١، ص ٢٧٦.

و أساسا هناك تباين بين مفهومى التهلكه و الشَّهاده،فالتَّهلكه تعنى الموت بدون دليل موجَّه،فى حين أنَّ الشَّهاده تعنى تضحيه الفرد فى سبيل هدف مقدَّس و نيل الحياه الأبدية الخالده.

و يجب الالتفات إلى هذه الحقيقه،و هى أنَّ نفس الإنسان ليست أثنى شىء فى وجوده،فهناك حقائق أثنى للنفس مثل الإيمان بالله و الاعتقاد بالإسلام و حفظ القرآن و أهدافه المقدَّسه،بل حفظ حيثه و عزه المجتمع الإسلامى،فهذه أهداف أسمى من التهلكه،و لم ينه عنها الشرع المقدَّس إطلاقا.وقد ورد فى الحديث أنَّ مجموعه من المسلمين توجَّهوا إلى القسطنطينيه للجهاد،فهجم أحد المسلمين الشجعان على جيش الزوم و فى صفوفهم فقال الحاضرین (لقى بيده إلى التهلكه)فقال أبو أيوب الأنصارى:

### ٣- ما هو المنظور من الإحسان

المراد من الإحسان عاده هو الإنفاق و بذل الخير إلى الآخرين و لكن تاره يأتى بمعنى أوسع و يشمل بذلك كل عمل صالح بل حتى الدوافع فى العلم الصالح أيضا

كما ورد فى الحديث النبوى الشريف فى تفسير الإحسان (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

و من البديهى أنه لو كان إيمان الفرد بحيث كأنه يرى الله سبحانه تعالى و يعتقد بأنه حاضر و ناظر فى كل الأحوال فسوف يهتم بالإتيان بالأعمال الصالحه و يتجنَّب كل ذنب و معصيه.

اشاره

وَ اتُّمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا  
أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفَدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ  
يَجِدْ فَصِيَامًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ  
إِغْلُظُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)

التفسير

اشاره

بعض أحكام الحج المہمہ:

لا- يعلم بدقہ تاریخ نزول الآيات المتعلقة بالحج في القرآن الكريم، و لكن يرى بعض المفسرين العظام أنها نزلت في حجہ  
الوداع (١)، في حين يرى بعضهم أن

ص: ٣٩

جملة فَإِنَّ أَحْصِهْ زُتْمَ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ناظره إلى حادثه (الحدييّه) الواقعه فى السنّه السادسه للهجره حيث منع المسلمون من زياره بيت الله الحرام (١).

ففى هذه الآيه ذكرت أحكام كثيره:

١- فى مطلع الآيه تأكيدا على أنّ أعمال العمرة و الحجّ ينبغى أن تكون لله و طلب مرضاته فقط وَ أَتَمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ مِنْ هُنَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَشُوبَ أَعْمَالَ الْحَجِّ نِيَّةَ أُخْرَى غَيْرِ الدَّافِعِ الْإِلَهِيِّ وَ كَذَلِكَ الْإِتْيَانُ بِالْعَمَلِ الْعِبَادِيِّ هَذَا كَامِلًا وَ تَامًا بِمَقْتَضَى جَمَلِهِ وَ أَتَمُّوا .

٢- ثمّ أنّ الآيه تشير إلى الأشخاص الذين لا يحالفهم التوفيق لأداء مناسك الحجّ و العمرة بعد لبس ثياب الإحرام بسبب المرض الشديد أو خوف العدو و أمثال ذلك، فتقول فَإِنَّ أَحْصِهْ زُتْمَ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فمثل هذا الشخص عليه أن يذبح ما تيسر له من الهدى و يخرج بذلك من إحرامه (٢).

و على كلّ حال فإنّ الأشخاص الذين منعهم مانع و لم يتمكنوا من أداء مراسم الحجّ و العمرة فيمكنهم بالاستفادة من هذه المسأله أن يحلّوا من إحرامهم.

و نعلم أيضا أنّ الهدى يمكن أن يكون بعيرا أو بقره أو خروفا، و هذا الأخير أقلّ الهدى مؤنه، و لهذا كانت جملة فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ تشير غالبا إلى الغنم.

٣- ثمّ أنّ الآيه الشريفه تشير إلى أمر آخر من مناسك الحجّ فنقول: وَ لَا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ .

فهل أنّ هذا الأمر يتعلّق بالأشخاص المحصورين الممنوعين من أداء مراسم

ص: ٤٠

١- (١) - تفسير فى ظلال القرآن، ج ١، ص ٢٧٧.

٢ - (٢) - ذكر احتمالات فى تفسير الآيه، أحدهما أن «ما» فى «ما استيسر» مبتدأ، و خبرها محذوف بتقدير «عليكم» فتكون الجملة «فعلكم ما استيسر من الهدى» و الثانى أن «ما» مفعول لفعل مقدّر تقديره: «فاهدوا ما استيسر من الهدى».

الحجّ، فهو بمثابة تكميل للأوامر السابقة، أو أنه يشمل جميع الحجّاج؟ اختار بعض المفسّرين الرأى الأوّل و قالوا أنّ المراد من محل الهدى أى محل الأضحيه هو الحرم.

وقال آخرون أنّ المراد هو المكان الذى حصل فيه المانع و المزاحم و يستدلّ بفعل النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلّم فى واقعه الحديبيّه التى هى مكان خارج الحرم المكى، حيث أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم بعد منع المشركين له ذبح هديه فى ذلك المكان و أمر أصحابه أن يفعلوا ذلك أيضا.

يقول المفسّر الكبير المرحوم الطبرسى: (ذهب علمائنا إلى أنّ المحصور إذا كان بسبب المرض فيجب عليه ذبح الأضحيه فى الحرم، و إذا كان بسبب منع الأعداء فيجب الذبح فى نفس ذلك المكان الذى منع به).

ولكنّ ذهب مفسرون آخرون إلى أنّ هذه الجملة ناظره إلى جميع الحجّاج و تقول: لا يحقّ لأحد التقصير (حلق الرأس و الخروج من الإحرام) إلاّ- أن يذبح هديه فى محلّه (ذبح الهدى فى الحجّ يكون فى منى و فى عمره يكون فى مكّه) و على كلّ حال، فالمراد من بلوغ الهدى محلّه هو أن يصل الهدى إلى محل الذبح فيذبح، و هذا التعبير كناية عن الذبح.

و مع الأخذ بنظر الاعتبار عموميه التعبير الوارد فى الآيه الشريفه فالتفسير الثانى يكون أنسب ظاهرا بحيث يشمل المحصور و غير المحصور.

٤- ثمّ تقول الآيه فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ .

(نسك) فى الأصل جمع (نسيكه) بمعنى حيوان مذبوح، و هذه المفردة جاءت بمعنى العباده أيضا (١) و لهذا يقول الراغب فى المفردات بعد أن فسّر النسك

ص: ٤١

بالعبادة: هذا الاصطلاح يأتي في أعمال الحجّ و(نسيكه) بمعنى (ذبيحه).

و يرى بعض المفسّرين أيضا أنّ الأصل في هذه الكلمه هو سبائك الفضة، و قيل للعباده (نسك) بسبب أنّها تطهّر الإنسان و تخلّصه من الشوائب (١).

و على أى حال فإنّ ظاهر الآيه أنّ مثل هذا الشخص مخيرا بين ثلاث امور (الصوم و الصدقه أو ذبح شاه). و الوارد في روايات أهل البيت عليهم السّلام أنّ الصوم في هذا المورد يجب أن يكون ثلاثه أيام و الصدقه على ستّه مساكين، و في روايه اخرى على عشره مساكين، و كلمه (نسك) تعنى شاه (٢).

٥- ثمّ تضيف الآيه فإذا أمّنتم فمنّ تمّتع بالعمره إلى الحجّ فما استيسر من الهدى و هذه إشاره إلى أنّه يجب الذبح في حجّ التمتع و يكون المكلف في هذا الحجّ قد أتى بالعمره قبله، و لا فرق في هذا الهدى بين أن يكون من الإبل أو من البقر أو من الضأن دون أن يخرج من الإحرام.

و حول الأصل في كلمه (الهدى) فهناك قولان حسب ما أورده المرحوم الطبرسى: الأوّل أنّه مأخوذ من (الهديه) و بما أنّ الأضحيه هى فى الواقع هديّه إلى بيت الله الحرام فقد اطلق عليها هذه الكلمه، و الآخر أنّها من مادّه (الهدايه) لأن الحيوان المقرّر للذبح يؤتى به مع الحاج إلى بيت الله الحرام، أو يكون هدايته إلى بيت الله.

و لكنّ ظاهر كلام الراغب فى المفردات أنّه مأخوذ من الهديه فقط فيقول:

(هدى) جمع و مفرده (هديه).

و قد أورد فى معجم مقاييس اللغة أنّ لهذه الكلمه أصلاّن: الهدايه و الهديه،

ص: ٤٢

١-١) -التفسير الكبير، ج ٥، ص ١٥٢.

٢-٢) -مجمع البيان، ج ١، ص ٢٩١ (و مثل هذا المعنى ورد فى تفسير القرطبي عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم حول الصوم و إطعام المسكين ذيل هذه الآيه).

و لكن لا يبعد أن تعود كليهما إلى الهدايه، لأن الهديه تعنى الشيء الذى يهدى إلى الشخص الآخر، أى يساق إليه هديه (فتأمل بدقه).

٦- ثم أن الآيه تبين حكم الأشخاص الغير قادرين على ذبح الهدى فى حج التمتع فتقول: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَ سَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ .

فعلى هذا فلو لم يجد الإنسان أضحيه أو أن وضعه المالى لا يطيق ذلك فيجب عليه جبران ذلك بصيام عشره أيام، يصوم ثلاثه أيام منها (يوم السابع و الثامن و التاسع من ذى الحجه) فى أيام الحج - وهذه هى من الأيام التى يجوز فيها الصوم فى السفر - و يأتى بصيام سبعة أيام بعد ذلك حين العوده إلى الوطن.

واضح أن مجموع ثلاثه أيام فى الحج و سبعة بعد الرجوع يساوى عشره، لكن القرآن عاد فأكد بأنها عشره كامله.

بعض المفسرين قال فى تفسير هذه الجملة أن الواو تأتى للجمع و تأتى أحيانا للتخيير بمعنى (أو)، و من أجل رفع توهم التخيير أكدت الآيه على رقم عشره، و يحتمل أيضا أن التعبير بكلمه (كامله) إشاره إلى أن صوم الأيام العشره يحل محل الهدى بشكل كامل، و لهذا ينبغى للحجاج أن يطمأنوا لذلك و أن جميع ما يترتب على الأضحيه من ثواب و بركه سوف يكون من نصيبهم أيضا.

و قال بعضهم: إن هذا التعبير إشاره إلى نكته لطيفه فى العدد (عشره) لأنه من جانب أكمل الأعداد، لأن الأعداد تتصاعد من واحد يتصل إلى عشره بشكل تكاملى، ثم بعد ذلك تترتب من عشره و أحد الأعداد الاخرى لتكون أحد عشر و اثني عشر... حتى تصل إلى عشرين أى ضعف العدد عشره ثم ثلاثين و هكذا.

ص: ٤٣

(١ - ١) - «عشرون» و «عشرين» و إن كان على شكل الجمع، و لكن يطلق الجمع أحيانا على الاثنين و ما علا.



٧- ثم أن الآيه الشريفه تتعرض إلى بيان حكم آخر و تقول ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فعلى هذا لا يكون لأهل مكّه أو الساكنين فى أطرافها حجّ التمتع، لأنه يختصّ بالمسلمين خارج هذه المنطقه، فالمشهور بين الفقهاء أن كلّ شخص يبعد عن مكّه ٤٨ ميلاً فإنّ وظيفته حجّ التمتع، و أما إذا كان دون هذه المسافه فوظيفته حجّ القران أو الأفراد و الذى تكون عمرته بعد الإتيان بمراسم الحجّ (و تفصيل هذا الموضوع و بيان مراتبه مذكور فى الكتب الفقهيّه).

و بعد بيان هذه الأحكام السبعه تأمر الآيه فى ختامها بالتقوى و تقول وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ و لعلّ هذا التأكيد يعود إلى أنّ الحجّ عباده إسلاميّه هامّه و لا ينبغى للمسلمين التساهل فى أداء مناسكه و أنّ ذلك سيؤدى إلى إضرار كثيره، و أحيانا يسبّب فساد الحجّ و زوال بركاته المهمّه.

## بحوث

## إشاره

### ١- أهميّه الحجّ بين الواجبات الإسلاميه

يعتبر الحجّ من أهم العبادات التى شرّعت فى الإسلام و لها آثار و بركات كثيره جدّاً، فهو مصدر عظمه الإسلام و قوّه الدّين و اتّحاد المسلمين، و الحجّ هو الشعيره العباديّه التى ترعب الأعداء و تضحّ فى كلّ عام دما جديداً فى شرايين المسلمين.

و الحجّ هو تلك العباده التى أسماها أمير المؤمنين عليه السّلام ب(علم الإسلام و شعاره) و قال عنها فى وصيته فى الساعات الأخيره من حياته

(اللّه فى بيت ربّكم لا تخلوه ما بقيتم فإنّه إن ترك لم تناظروا)

## (١)

أى أنّ البلاء الإلهى سيشملكم

ص: ٤٤

دون إمهال. وقد فهم أعداء الإسلام أهميّه الحجّ أيضا إذ صرّح أحدهم:

(نحن لا نستطيع أن نحقق نصرا على المسلمين ما دام الحجّ قائما بينهم) (١).

وقال أحد العلماء (الويل للمسلمين إن لم يفهموا معنى الحجّ، والويل لأعدائهم إذا عرفوا معناه).

و

في الحديث المعروف عن أمير المؤمنين عليه السّلام في بيان توصفه الأحكام كما ورد في نهج البلاغه الحكمة ٢٥٢ أنه أشار عليه السّلام إلى أهميّه الحجّ الكبيره و قال (فرض الله الإيمان تطهيرا من الشرك... والحجّ تقويه للدين)

(٢)

و نختم هذه الفقره بحديث عن الإمام الصادق عليه السّلام و سيأتي شرحه بالتفصيل في ذيل الآيه ٢٦ إلى ٢٨ من سوره الحجّ و بيان أهميّه و فلسفه و أسرار الحجّ هناك)

فقال عليه السّلام: (لا يزال الدّين قائما ما قامت الكعبه)

(٣)

## ٢- أقسام الحجّ و بيان أعمال حجّ التمتع

لقد قسم الفقهاء العظام و بإلهام من الآيات و الأحاديث الشريفه عن النبي و آله عليهم السّلام الحجّ إلى ثلاثه أقسام: حجّ التمتع، حجّ القران، و حجّ الأفراد.

أما حجّ التمتع فيختص بمن كان على مسافه ٤٨ ميلا فصاعدا من مكّه (١٦ فرسخ و ما يعادل ٩٦ كيلومتر تقريبا، و أما حجّ القران و الأفراد فيتعلّقان بمن كان أدنى من هذه الفاصله. ففي حجّ التمتع يأتي الحاج بالعمره أولا ثمّ يحلّ من إحرامه و بعد ذلك يأتي بمراسم الحجّ في أيامه المخصوصه، و لكن في حجّ القران

ص: ٤٥

(١-١) -شبهات حول الإسلام.

(٢-٢) -في بعض النسخ (تقربه للدين)-متن ابن أبي الحديد-و مفهومها أنه سبب وحده الائمة الإسلاميه و تقريب الصفوف.

٣-٣) - وسائل الشيعة، ج ٨ ص ١٤، باب عدم جواز تعطيل الكعبة عن الحج، ح ٥.

و الأفراد يبدأ أولاً بأداء مراسم الحجّ ثم بعد الانتهاء منها يشرع بمناسك عمره مع تفاوت أنّ الحاج في حجّ القران يأتي و معه هديه، أمّا في حجّ الأفراد فلا هدى فيه و لكن بعقيدته أهل السنّه أنّ حجّ القران هو أن يقصد بالحجّ و العمره بإحرام واحد.

أمّا أعمال حجّ التمتع فكما يلي:

في البدايه يحرم الحاج للحجّ من الأماكن الخاصّه به و تسمّى الميقات، أى أنّ الحاج يتعهد بالإحرام أن يترك و يتجنّب سلسله من المحرّمات على المحرم، و يرتدى ثوبى الإحرام غير المخيطه، و يبدأ بالتلبيه و هو متّجه إلى بيت الله الحرام، ثم يشرع بالطّواف حول الكعبه سبعة مرّات، و بعد ذلك يصلّى ركعتين صلاه الطواف في المحل المعروف بمقام إبراهيم، ثم يسعى بين الصفا و المروه سبعة مرّات، ثم بعد الانتهاء من السعى يقصّر، أى يقص مقداراً من شعره أو أظافره، و بذلك يخرج من الإحرام و يحلّ منه.

ثم يحرم مرّه اخرى من مكّه لأداء مناسك الحجّ و يذهب مع الحجاج في اليوم السابع من ذى الحجّه إلى «عرفات» و هى صحراء على بعد ٤ فراسخ من مكّه، و يبقى في ذلك اليوم من الظهر إلى غروب الشمس في ذلك المكان حيث يشتغل بالعباده و المناجاه و الدّعاء، ثم بعد غروب الشمس يتّجه إلى (مشعر الحرام) و يقع على بعد فرسخين و نصف من مكّه تقريبا و يبقى هناك إلى الصباح، و حين طلوع الشمس يتوجّه إلى «منى» الواقعة على مقربه من ذلك المكان، و في ذلك اليوم الّذى هو يوم «عيد الأضحى» يرمى الحاج (جمره العقبه) بسبعة أحجار صغيره (و جمره العقبه على شكل اسطوانه حجريّه خاصّه) ثم يذبح الهدى و يحلق رأسه، و بذلك يخرج من إحرامه.

ثم أنّه يعود إلى مكّه في نفس ذلك اليوم أو في اليوم القادم، و يطوف حول الكعبه و يؤدّى صلاه الطواف و السعى بين الصفا و المروه ثم طواف النساء و صلاه

الطواف أيضا، وفي اليوم الحادى عشر و الثانى عشر يرمى فى منى الجمرات الثلاثه واحده بعد الاخرى بسبعه أحجار صغيره، و يبقى فى ليله الحادى عشر و الثانى عشر فى أرض منى، و بهذا الترتيب تكون مناسك الحجّ إحياء لذكرى تاريخيه و عبارته عن كنايات و إشارات لمسائل تتعلّق بتهذيب النفس و لها أغراض اجتماعيه كثيره، و سوف نستعرض كلّ واحده منها فى الآيات المناسبه له.

٣- لماذا نسخ البعض حجّ التمتع؟ إنّ ظاهر الآيه محل البحث هو أنّ وظيفه الأشخاص البعيدين عن مكّه هى حجّ التمتع (الحجّ المذى يتبدأ بالعمرة و بعد الانتهاء منها يخرج من الإحرام ثمّ يجدد الإحرام للحجّ و يأتى بمناسك الحجّ) و ليس لدينا دليل إطلاقا على نسخ هذه الآيه، بل إنّ الروايات الكثيره فى كتب الشيعة و أهل السنّه وردت فى هذا الصدد، و من جمله المحدثين المعروفين من أهل السنّه (السنائى فى كتاب السنن) و (أحمد فى كتاب المسند) و (ابن ماجه فى كتابه السنن) و (البيهقى فى السنن الكبرى) و (الترمذى فى صحيحه) و (مسلم أيضا فى كتابه المعروف بصحيح مسلم) فهناك وردت روايات كثيره فى حجّ التمتع و أنّ هذا الحكم لم ينسخ و هو باق إلى يوم القيامة. و الكثير من فقهاء أهل السنّه أيضا ذهبوا إلى أنّ أفضل أنواع الحجّ هو حجّ التمتع بالرغم من أنّهم أجازوا إلى جانبه حجّ القران و الأفراد (بذلك المعنى الذى تقدّم آنفا من الفقهاء).

و لكنّ هناك حديث معروف نقل عن عمر بن الخطاب حيث قال (متعنان كانتا على عهد رسول الله و أنا أنهى عنهما و يعاقب عليهما متعه النساء و متعه الحجّ).

يقول «الفخر الرازى» فى ذيل الآيه مورد البحث بعد نقل هذا الحديث عن عمر: إنّ المراد من متعه الحجّ هو أنّ يجمع بين الإحرامين (إحرام الحجّ و إحرام

العمره) ثم يفسخ نيه الحج و يأتي بالعمره المفرده و بعد ذلك يأتي بالحج (١).

فمن البديهي أنه لا يحق لأحد نسخ الحكم الشرعي إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و أساساً أن هذا التعبير و هو أن رسول الله قال كذا و أنا أقول كذا هو تعبير غير مقبول من أي شخص، فهل يصح إهمال أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم و طرحه و الالتزام بأوامر الآخرين؟ و على كل حال، فإن الكثير من علماء أهل السنه في هذا الزمان تركوا الخبر المذكور، و ذهبوا إلى أن حج التمتع أفضل أنواع الحج و عملوا على وفقه.

ص: ٤٨

---

١ - ١) - التفسير الكبير، ج ٥، ص ١٥٣.

اشاره

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩)

التفسير

اشاره

خير الزاد و المتاع:

تواصل هذه الآيات الشريفه بيان أحكام الحج و زياره بيت الله الحرام و تقزّر طائفه من التشريعات الجديده:

١- تقول الآية الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ (١).

و المراد بهذه الأشهر: هي شوال، ذى القعدة، ذى الحجة (شهر ذى الحجة بكامله أو العشرة الأوائل منه) وهذه الأشهر تسمى (أشهر الحج) لأنَّ قسما من أعمال الحج و عمره لا يمكن الإتيان بها في غير هذه الأشهر، و قسما آخر يجب الإتيان بها في اليوم التاسع إلى الثاني عشر من شهر ذى الحجة، و السبب في أنَّ القرآن الكريم لم يصرِّح بأسماء هذه الأشهر لأنَّها معلومه للجميع و قد أكد عليها القرآن الكريم بهذه الآية.

ثمَّ إنَّ هذه الآية تستبطن نفيا لأحد التقاليد الخرافية في الجاهليَّة حيث كانوا يستبدلون هذه الأشهر بغيرها في حاله حدوث حرب بينهم فيقدموا و يؤخروا منها كيف ما شاؤوا، فالقرآن يقول: «إنَّ هذه الأشهر معلومه و معيَّنه فلا يصحَّ تقديمها و تأخيرها» (٢).

٢- ثمَّ تأمر الآية الكريمه فيمن أحرَم إلى الحجِّ و شرع بأداء مناسك الحجِّ و تقول: فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَ لَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ .

(رفث) بالأصل بمعنى الكلام و الحديث المتضمن ذكر بعض الأمور القبيحه أعمَّ من الأمور الجنسيه أو مقلداتهما، ثمَّ بات كناية عن الجماع، و لكنَّ البعض ذهبوا إلى أنَّ مفردَه (رفث) لا تطلق على هذا النوع من الكلام إلا في حضور النساء، فلو كان الحديث في غياب النساء فلا يسمَّى بالرفث (٣).

و ذهب البعض إلى أنَّ الأصل في هذه الكلمه هو الميل العملي للنساء من

ص: ٥٠

١- ١) - بما أنَّ الحج ليس هو الأشهر نفسها، لذا ذهب المفسرون إلى وجود تقدير و هو: «أشهر الحج أشهر معلومات»، و ذهب بعض إلى عدم وجود تقدير، و احتملوا أنَّ الجمله كناية عن شدة ارتباط الحج بهذه الأشهر الخاصه و كأنه هو هي.

٢- ٢) - مجمع البيان، ج ١، ص ٢٩٣-التفسير الكبير، ج ٥، ص ١٦٠.

٣- ٣) -التفسير الكبير، ج ٥، ص ١٦٤.



المزاح و اللّمس و التماس البدني الذي ينتهي بالمقاربه الجنسيه (1).

(فسوق)بمعنى الذنب و الخروج من طاعه الله، و(جدال)تأتى بمعنى المكالمه المقرونه بالتزاع، و هى فى الأصل بمعنى شدّ الجبل و لفه، و من هذا استعملت فى الجدال بين اثنين، لأنّ كلّ منهما يشدّ الكلام و يحاول إثبات صحّه رأيه و نظره.

و على كلّ حال، ورد هذا الأمر للحجّاج فى حرمة المقاربه مع الأزواج، و كذلك وجوب اجتناب الكذب و الفحش (مع أنّ هذا العمل حرام أيضا فى غير مواضع الإحرام و لكنّه ورد النهى عنه فى أعمال الحجّ بالخصوص ضمن المحرّمات الخمسه و العشرين على المحرم).

و كذلك من المحرّمات على المحرم فى الحجّ هو الجدال و القسم بالله تعالى سواء كان على حقّ أم باطل، و هو قول (لا- و الله، بلى و الله).

و هكذا ينبغى أن تكون أجواء الحجّ طاهره من التمتّعات الجنسيه و كذلك من الذنوب و الجدال العقيم و أمثال ذلك، لأنها أجواء عباديه تتطلّب الإخلاص و ترك اللذائذ الماديه و تقتبس روح الإنسان من ذلك المحيط الطاهر قوّه جديده تسوقها إلى عالم آخر بعيدا عن عالم المادّه، و فى نفس الوقت تقوى الالفه و الاتحاد و الاتّفاق و الاخوّه بين المسلمين باجتنب كلّ ما ينافى هذه الأمور.

و طبعا لكلّ واحد من هذه الأحكام الشرعيه شروط و شرائط مذكوره فى كتب مناسك الحجّ الفقهيّه.

٣- بعد ذلك تعقب الآيه و تبين المسائل المعنويه للحجّ و ما يتعلّق بالإخلاص و تقول وَ مَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ .

ص: ٥١

و هذا أول لطف إلهي يناله الصالحون، فالمرحلة الأولى من لذة الإنسان المؤمن هي إحساسه بأن ما يعمل في سبيل الله إنما هو بعين الله، و يا لها لذة.

و تضيف الآية: وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى .

هذه الآية أمرت بحمل الزاد. قيل: إن جماعه من أهل اليمن كانوا يحجون دون أن يصحبوا معهم زادا للطريق، قائلين: نحن ضيوف الله و طعامنا عليه. و هذه الفقرة من الآية أمرت بحمل الزاد، لأن الله سبحانه هياً للجميع طعامهم بالطريق الطبيعيه.

و الآية تشير في الوقت نفسه إلى مسأله معنويه هي زاد التقوى، فهناك حاجه إلى زاد من نوع آخر هو «التقوى».

و العبارة تنطوي على توعيه المسلمين بالنسبه لعطاء الحج المعنوي و تفتح أبصارهم على ما في ساحه الحج من معان عميقه تشد الإنسان بتاريخ الرسل و الأنبياء و بمشاهد تضحيه إبراهيم بطل التوحيد، و بمظاهر عظمه الله سبحانه ممّا لا يوجد في مكان آخر، و لا بدّ للحاج أن يستلهم من هذه الساحة زادا يعينه على مواصلة مسيرته نحو الله فيما بقى من عمره.

وَ اتَّقُونَ يَا أُولَى الْأَلْبَابِ

(١)

الحديث موجه إلى أولى الألباب و العقول، و التركيز عليهم بانتهاج التقوى لأنهم هم القادرون على التزود كما ينبغي من العطاء التربوي لمناسك الحج، و الآخرون لا ينالون منها سوى المظاهر و القشور.

الآيه التاليه ترفع بعض الاشتباهات في مسأله الحج و تقول لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ .

ص: ٥٢

(١ - ١) - «الباب» جمع «لب»، و يقال للعقل الخالص «لب» أيضاً.

لقد كان التعامل الاقتصادي بكافه ألوانه محضورا فى موسم الحج عند الجاهليين، و كانوا يعتقدون ببطلان الحج إذا اقترن بالنشاط الاقتصادي، فالأيه مورد البحث تعلن بطلان هذا الحكم الجاهلى و تؤكد أنه لا مانع من التعامل الاقتصادي و التجارى فى موسم الحج، و تسمح بابتغاء فضل الله فى هذا الموسم عن طريق العمل و الكد.

و هذا النمط من التفكير كان سائدا فى العصر الجاهلى و نجده كذلك فى زماننا هذا و أنّ هذه العباده العظيمه-يعنى الحج- يجب أن تكون خالصه من أيه شوائب ماديه، و لكن بما أنّ سائر العاملين فى هذا السبيل مضافا إلى الناس الذين يقصدون بيت الله من بعيد الديار يمكنهم أن يحلوا الكثير من مشاكلهم الاقتصاديه فى سفر الحج هذا، و لهذا السبب أبطل القرآن الكريم هذا اللون من التفكير، و يحقّ لهؤلاء الأشخاص أن يأتوا بعباده الحج و يؤدوا مناسكه ضمن أداء خدماتهم الاخرى و لا يكونوا فى مضيقه من هذه الجبهه، بل أنّ النصوص الإسلاميه التى تتحدث عن حكمه الحج تشير أيضا إلى الجوانب الاقتصاديه إضافه إلى الجوانب الأخلاقيه و السياسيه و الثقافيه، و توضّح أنّ سفر المسلمين من كلّ فج عميق إلى بيت الله الحرام اعقد مؤتمر الحج العظيم يستطيع أن يكون منطلقا لتحرك اقتصادى عامّ فى المجتمعات الإسلاميه. و ذلك يتحقق باجتماع الأدمغه الاقتصاديه الاسلاميه المفكره قبل أداء المناسك أو بعده لوضع أسس اقتصاد سليم فى المجتمعات الإسلاميه يقوم على أساس التعاون و التبادل الاقتصادي بين أبناء الأمه الإسلاميه، و الاستغناء عن الأجانب و الأعداء، و بلوغ المستوى الممكن اللائق من الاكتفاء الذاتى.

من هنا، فهذه المعاملات و المبادلات التجاريه سبل لتقويه بنيه المجتمع الإسلامى أمام أعداء الإسلام، ذلك لأنّ أى شعب من الشعوب لا يمكن أن ينال

استقلاله الكامل دون أن يقوم على أساس اقتصادى قوى، و لكن النشاط الاقتصادى فى موسم الحج ينبغى طبعاً أن ينضوى تحت الأبعاد العباديه و الأخلاقيه للحج، لا أن يقدم و يهيمن عليها. و واضح أن الحجاج لهم الوقت الكافى قبل أعمال الحج و بعده لمثل هذا النشاط.

يروى هشام بن الحكم أنه سأل الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن العله التى لأجلها كلف الله العباد الحج و الطواف بالبيت، فقال: «...فجعل فيه الاجتماع من الشرق و الغرب ليتعارفوا و لينزع كل قوم من التجارات من بلد إلى بلد و ليتتفع بذلك المكارى و الجمال... و لو كان كل قوم إنما يتكلمون على بلادهم و ما فيها هلكوا و خربت البلاد و سقطت الجلب و الأرباح...»

(١)

ثم تعطف الآيه الشريفه على ما تقدم من مناسك الحج و تقول فإذا أفضتكم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام و اذكروه كما هداكم و إن كنتم من قبيله لمن الضالين .

ثم تقول الآيه فى حديثها هذا: ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس فهذا المقطع يتضمن أمراً بالإفاضه أى بالاندفاع و الحركه من المشعر الحرام إلى أرض منى.

ففى نهايه الآيه تعطى أمراً بالاستغفار و التوبه و تقول: وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

ففى هذا المقطع من الآيات إشاره إلى ثلاث مواقف من مواقف الحج (عرفات) و هى صحراء و تقع على بعد ٢٠ كيلومتراً تقريباً من مكه و يجب على الحجاج أن يقفوا فى هذا المحل من ظهر يوم التاسع من ذى الحجه إلى غروب

ص: ٥٤

الشمس فيشتغلوا بالعباده و الذكر، ثم الوقوف ب(المشعر الحرام أو المزدلفه) حيث يبيتون هناك ليله عيد الأضحى و يقفون هناك إلى قبل طلوع الشمس مشغولين بالدعاء و المناجاه مع الله تعالى، و الثالث أرض (منى) و هى محل ذبح الأضاحى و رمى الجمرات و حلّ الإحرام و أداء مناسك العيد.

## بحوث

## إشاره

### ١- أول موقف للحجيج

تقدّم أنّ حجّاج بيت اللّٰمه الحرام يتّجهون بعد أداء مناسك العمره نحو أداء مناسك الحجّ، و أوّل موقف يقفون فيه هو فى «عرفات»، و هى صحراء واسعته تقع على بعد أربعة فراسخ من مكّه يقف فيها الحاج من ظهر يوم التاسع من ذى الحجّه حتّى غروب ذلك اليوم. و فى سبب تسميه هذه الأرض بهذا الاسم قيل: إنّ إبراهيم عليه السّلام قال حين أراه جبرائيل مناسك الحجّ: «عرفت، عرفت». و

وقيل إن هذه القصه وقعت لآدم و حواء، و قيل أيضا أن آدم و حواء تعارفا فى هذا المكان، و قيل أن حجّاج بيت الله يتعارفون فيما بينهم فى هذا المكان، و تفسيرات أخرى (١) (٢).

و لا يبعد أن تكون التسميه إشاره إلى حقيقته أخرى أيضا، و هى أن هذه الأرض المشرفه التى تبدأ منها أولى مراحل الحجّ محيط مناسب جدّا لمعرفة الله

ص: ٥٥

١- ١) - ذكر الفخر الرازى هنا ثمانيه أقوال فى معنى «عرفات» (ج ٥، ص ١٧٣-١٧٤).

٢- ٢) - هناك بحث بين المفسرين فى أن «عرفات» مفرد أو جمع ل«عرفه». و قيل أن «عرفه» اسم زمان للأعمال فى يوم التاسع من ذى الحجّه و «عرفات» اسم ذلك المكان (روح المعانى، ج ٢، ص ٨٧).

تعالى. والحاج في هذا الموقف يشعر حقًا بانشداد رُوحى و معنى لا يمكن التعبير عنه بالكلمات.

الحجيج فى هذه الأرض القاحله متجمّعو بشكل واحد و بزى واحد،قد هربوا من بريق الحياه و زخرفها و صخبها و ضجيجها و لا ذوا بهذه الأرض المشرفه المفعمه بذكريات الرسالات السماويه،حيث يحمل نسيمها نداء جبرائيل و صوت الخليل و دعوه النبى الخاتم،و صحبه المجاهدين.و تنطق أرضها بصور الجهاد و التضحيه و الانقطاع إلى الله على مرّ التاريخ. كأنّ هذه الأرض نافذه تشرف على عالم ما وراء الطبيعه،يرتوى فيها الإنسان من منهل العرفان،و ينساق مع تسييح الخليقه العام،بل يعود أيضا إلى ذاته التى انفصل عنها زمنا طويلا فيعرف نفسه، و يعرف أنّه ليس بذلك الكائن اللاهث ليل نهار وراء جمع الحطام و المتاع دون أن يرويه شىء،بل إنّّه جوهر آخر كان يجهله قبل الوقوف فى عرفات... نعم إنّها «عرفات»و ما أجمل هذا الاسم!و ما أعمق مدلوله!

## ٢- المشعر الحرام -الموقف الثانى للحجيج

و بشأن تسميه «المشعر الحرام» بهذا الاسم قيل: إنّهُ مركز لشعائر الحجّ، و معلم من معالم هذه العباده العظيمه.

و من المهمّ أن نفهم أنّ «المشعر» من ماده «الشعور»،ففى تلك الليله التاريخيه المشيره «ليله العاشر من ذى الحجه» حيث حجّاج بيت الله الحرام قد أنّهوا المرحله الاولى من هذه الدوره التربويه فى عرفات و اندفعوا نحو المشعر الحرام ليقضوا ليله يفترشون فيها الأرض و يلتحفون السماء،ضمن إطار أرض محدوده الأبعاد أشبه ما تكون-و هى تموج بألاف الحجّاج-بأرض المحشر...

فى مثل هذه الظروف الزمانيه و المكانيه...و فى إطار الالتزام بالإحرام و واجباته

و محرّماته، تجيش في النفس الإنسانيه «مشاعر» خاصّه تربط الإنسان بالملأ الأعلى و تحلق به في أبعاد جديده ساميه... و من هنا كانت تلك الأرض مشعرا.

### ٣- درس الوحده و الاتحاد

جاء في بعض الروايات الشريفه أن قبائل قريش كانت ترى لنفسها مكانه دينيه خاصّه بين العرب، و كان أفرادها يسمّون أنفسهم «الحمس» (١) و يرون أنّهم أبناء إبراهيم عليه السّلام و سدنه الكعبه، و لذلك كانوا يترفّعون على بقيه القبائل العربيه.

و من هنا فإنهم تركوا الوقوف في عرفات لأنّها خارج الحرم المكي، و ما كانوا يودّون أن يحترموا أرضا تقع خارج حرم مكّه، ظلّنا منهم أنّ ذلك يقلّل من شأنهم بين قبائل العرب، مع علمهم بأنّ الوقوف في عرفات من مناسك الحجّ الإبراهيمي (٢).

الآيه الكريمه تبطل كلّ هذه الأوهام و تأمر بوقوف الحجّاج جميعا في عرفات، ثمّ التحرك منها نحو المشعر الحرام، و من ثمّ الاتجاه إلى منى دون أن يكون لأحد امتياز على آخر ثمّ أفيضوا من حيث أفاض الناس .

الإفاضه التي تأمر بها الآيه هي الإفاضه من المشعر الحرام إلى منى، لأنّها جاءت بعد ذكر الإفاضه من عرفات إلى المشعر، و مسبوقه ب«ثم» التي تفيد الترتب الزماني، و يكون مدلول الآيتين معا الأمر بالوقوف الجماعي بعرفات، ثمّ الإفاضه منها إلى المشعر الحرام، و من ثمّ إلى منى.

وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ

و الأمر بالاستغفار في اختتام الآيه حتّى على ترك تلك الأوهام و الأفكار

ص: ٥٧

١-١) -الحمس: هم الأفراد المتمسكون بالدين.

٢-٢) -سيره ابن هشام، ج ١، ص ٢١١ و ٢١٢.

الجاهلييه، والاتجاه نحو تعلم دروس الحج في المساواه، وإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

#### ٤-ارتباط الآيات

قد يتساءل أحد عن الرّابطه بين قوله تعالى **إِنْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ** و مسأله الوقوف بعرفات و الإفاضه منها إلى المشعر الحرام و ثم إلى منى التي وردت الآية الشريفه منضمّه بعضها إلى بعض.

يمكن أن تكون الرّابطه هي الإشاره إلى هذه الحقيقه و هي أنّ السعى المادى و الاقتصادى إذا كان لله و من أجل الحياه الشريفه فيكون هذا نوع من العباده حال مناسك الحج، أو أنّ حركه و انتقال الحجاج من مكّه إلى عرفات و منها إلى المواقف الاخرى يستلزم عاده نفقات و خدمات كبيره، فلو كان كلّ نوع من العلم و الكسب فى هذه الأيام محرّم على الحجاج فمن الواضح أنّهم سيقعون فى حرج و مشقّه، فلهذا ذكرت الآية الشريفه هذه العبارات منضمّه و متتاليه.

أو يقال إن المفهوم منها هو أنّ الآية تحذّر الحجاج أن لا ينسيكم العمل و الكسب و سائر الفعاليات الاقتصاديه ذكر الله و التوجّه إليه و إدراك عظمته فى هذه المواقف الشريفه.



إشاره

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَ مِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَ فِينَا عَذَابُ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)

سبب النزول

في حديث الإمام الباقر عليه السلام: إن الجاهليين كانوا يعقدون الاجتماعات بعد موسم الحج يذكرون فيها مفاخرهم الموهومه الموروته من آبائهم و يمجّدون أسلافهم.

و القرآن الكريم يؤكّد في هذه الآيات أعلاه أنّ على المسلمين أن يذكروا الله تعالى و نعمه السابغه بدل الخوض في تلك الأباطيل و الأوهام و الافتخارات الوهميه (١).

ص: ٥٩

و مثله ما أورده سائر المفسرين عن ابن عباس و غيره أن أهل الجاهليه كانوا يعقدون مجالسا بعد الحج للتفاخر بأبائهم و ذكر مفاخرهم أو أنهم يجتمعون في الأسواق كسوق (عكاظ، ذى المجاز، مجنه) لم تكن هذه الأسواق مراكزا تجاريه فحسب، بل أماكن لتلك المجالس الباطله التي يجتمع فيها الناس و يذكرون مفاخر أسلافهم (١).

## التفسير

## اشاره

### الحج رمز وحده المسلمين:

هذه الآيات تواصل الأبحاث المتعلقة بالحج في الآيات السابقه، فالبرغم من أن أعراب الجاهليه ورثوا مناسك الحج بوسائط عديده من إبراهيم الخليل عليه السلام و لكنهم خلطوا هذه العباده العظيمه و البناءه و التي تعتبر ولاده ثانيه لحجاج بيت الله الحرام بالخرافات الكثيره بحيث إنها خرجت من شكلها الأصلي و نسخت و تحولت إلى وسيله للتفرقه و النفاق.

الآيه الأولى من الآيات محل البحث تقول فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَدِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا .

إن العزه و العظمه يكملان بالارتباط في الله تعالى لا بالارتباط الوهمي بالأسلاف، و ليس المراد من هذه العبارة أنكم اذكروا أسلافكم و اذكروا الله كذلك، بل هو إشاره إلى هذه الحقيقه بأنكم تذكرون أسلافكم من أجل بعض الخصال و المواهب الحميده، فلما ذا لا تذكرون الله تعالى رب السموات و الأرض و الرازق و الواهب لجميع هذه النعم في العالم و هو منبع و مصدر جميع الكمالات

ص: ٦٠

---

١ - ١) - روح المعاني، ج ٢، ص ٨٩ - و القرطبي، ج ٢، ص ٨٠٣ - التفسير الكبير، ج ٥، ص ١٨٣ - تفسير في ظلال القرآن، ج ١، ص ٢٨٩ - تفسير البرهان، ج ١، ص ٢٠٣.

أمّا المراد من (ذكر الله) فى هذه الآيه فهناك أقوال كثيره بين المفسّرين، و لكنّ الظاهر أنّها تشمل جميع الأذكار الإلهيه بعد أداء مناسك الحجّ، و فى الحقيقه أنّه يجب شكر الله تعالى على جميع نعمه و خاصّه نعمه الإيمان و الهدايه إلى هذه العباده العظيمه، فتكتمل الآثار التربويه للحجّ بذكر الله.

بعد ذلك يوضّح القرآن طبيعه مجموعتين من الناس و طريقه تفكيرهم.

مجموعه لا- تفكّر إلاّ- بمصالحها الماديّه و لا تتجّه فى الدعاء إلى الله إلاّ من هذه المنطلقات الماديّه فتقول فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ (١).

و المجموعه الثانيه تتحدّث عنهم الآيه بقولها وَ مِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ .

و هذه الفقرات من الآيات محلّ البحث تشير إلى هاتين الطائفتين و أنّ الناس فى هذه العباده العظيمه على نوعين، فبعض لا يفكر إلاّ بالمنافع الماديّه الدنيويه و لا يريد من الله سواها، فمن البديهي أنّه يبقى له شيء فى الآخره.

و لكنّ الطائفه الثانيه اتسعت آفاقهم الفكرية فاتجّهوا إلى طلب السّعاده فى الدنيا باعتبارها مقدّمه لتكاملهم المعنوى و طلب السّعاده فى الآخره، فهذه الآيه الكريمة توضّح فى الحقيقه منطق الإسلام فى المسائل الماديّه و المعنويه و تدين الغارقين فى الماديّات كما تدين المنعزلين عن الحياه.

أمّا ما المراد من (الحسنه)؟ فهناك تفاسير مختلفه لها،

فقد ورد فى الروايه عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير الحسنه: (إنّها السّعه فى الرزق و المعاش و حس الخلق

ص: ٦١

١- ١) -«خلاق» كما يقول الراغب تعنى الفضائل الأخلاقيه التى يكتسبها، و هنا على قول الطبرسى أنّها تعنى النصيب (الذى هو نتيجته الفضائل الأخلاقيه).

و لكنّ بعض المفسّرين ذهبوا إلى أنّها تتضمّن معنى العلم و العبادة فى الدنيا و الجنة فى الآخرة، أو المال فى الدنيا و الجنة فى الآخرة، أو الزوجه الصالحه فى الدنيا و الجنة فى الآخرة، و

قد ورد عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم هذه المعانى (من أوتى قلبا شاكرا و لسانا ذاكرا و زوجه مؤمنه تعينه على أمر دنياه و أخراه فقد أوتى فى الدنيا حسنه و فى الآخرة حسنه و وقى عذاب النار) (٢).

و واضح أنّ تفسير الحسنه هذا له مفهوم واسع بحيث يشمل جميع المواهب الماديه و المعنويه، و ما ورد فى الروايه أعلاه أو فى كلمات المفسّرين فهو بيان لأبرز المصاديق لا حصر الحسنه بهذه المصاديق، فما تصوّره بعض المفسّرين من أنّ الحسنه الوارده فى الآيه بصوره المفرد النكره لا- تشمل على كلّ خير، و لهذا وقع الاختلاف فى مصداقها بين المفسّرين (٣)، إنّما هو اشتباه محض، لأنّ المفرد النكره تاره يأتى بمعنى الجنس و مورد الآيه ظاهرا من هذا القبيل، فالمؤمنون- كما ذهب إليه بعض المفسّرين- يطلبون من الله تعالى أصل الحسنه بدون أن ينتخبوا لها مصداقا من المصاديق، بل يوكولون هذا الأمر إلى مشيئته و إرادته و فضله تعالى (٤).

و فى آخر آيه إشاره إلى الطائفه الثانيه (الذين طلبوا من الله الحسنه فى الدنيا و الآخرة) فتقول أولئك لهم نصيب مما كسبوا و الله سريع الحساب .

و فى الحقيقه هذه الآيه تقع فى النقطه المقابله للجمله الأخيره من الآيه السابقه و ما له فى الآخره من خلاق .

١-١) -مجمع البيان، ج ١، ص ٢٩٧.

٢-٢) -مجمع البيان، ج ١، ص ٢٩٨.

٣-٣) -التفسير الكبير، ج ٥، ص ١٨٩.

٤-٤) -فى ظلال القرآن، ج ١، ص ٢٩٠.

و احتمال البعض أنّها تتعلّق بكلا الطائفتين، فالطائفه الاولى يتمتّعون بالنعم و المواهب الدنيويّه، و الطائفه الثانيه يتمتّعون بخير الدنيا و الآخره كما ورد ما يشبه هذه الآيات في سورة الإسراء الآيه ١٨ إلى ٢٠ حيث يقول: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصِيرُ فِيهَا مِذْمُومًا مِدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا .

و لكنّ التفسير الأول منسجم مع الآيات مورد البحث أكثر.

عباره (نصيب) مع أنّها جاءت بصوره نكره، و لكنّ القرائن تدلّ على أنّ النكره هنا لبيان العظمه، و التعبير بقوله مِمَّا كَسَبُوا ليست إشاره إلى قلّه النصيب و الثواب و الجزاء، لأنّه من الممكن أن تكون (من) ابتدائيّه لا تبعيضيّه.

أمّا التعبير بقوله (كسب) في جمله (مِمَّا كَسَبُوا) فتعني - كما ذهب إليه كثير من المفسّرين - الدّعاء لطلب خير الدنيا و الآخره، فاختيار هذا التعبير قد يكون إشاره إلى نكته لطيفه و هو أنّ الدّعاء بذاته يعتبر من أفضل العبادات و الأعمال، و من خلال التحقيق في عشرات الآيات الوارده في القرآن المجيد في مادّه «كسب» و مشتقاتها يستفاد جيّدا أنّ هذه المفرده تستعمل أيضا لغير الأعمال الجسميّه أيضا، أي الأعمال القلبيه و الروحيّه كما ورد في الآيه ٢٢٥ من سورة البقره وَ لَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ .

فلا- عجب أن يكون الدّعاء إذا نوع من الكسب و الاكتساب و خاصّه إذا لم يكن الدّعاء باللسان فقط بل مقترن بجميع وجود الإنسان.

أمّا جمله وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ الوارده في الفقره الأخيره من الآيه فإنّها تشير إلى سرعه حساب الله تعالى لعباده، فإنّه يجازى بالثواب و العقاب نقدا و بدون تأخير،

فقد ورد في الحديث الشريف (إنّ الله تعالى يحاسب الخلائق كلّهم

و هذا لأن علم الله ليس كعلم المخلوقات المحدود حيث يشغلها موضوع عن موضوع آخر.

إضافه إلى ذلك أن محاسبه الله لا ينبغي أن تستلزم زماناً، لأن أعمالنا ذات آثار باقيه فى جسم و روح الموجودات المحيطه بنا و فى الأرض و أمواج الهواء، فالإنسان يشبه من هذه الجهه السيّارات المجهّزه بقياس السرعه و المسافه حيث تقرأ فيها كلّ لحظه مقدار عملها و سيرها و لا يحتاج بعدها إلى كتاب لحساب المسافات التى طوتها السيّاره طيله عمرها.

ص: ٦٤

اشاره

وَ اذْكُرُوا اللّٰهَ فِيْ اَيّامٍ مَّعْدُوْدَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِيْ يَوْمَيْنِ فَلَا اِثْمَ عَلَيْهِ وَ مَنْ تَاَخَّرَ فَلَا اِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقٰ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ وَ اعْلَمُوْا اَنَّكُمْ اِلَيْهِ تُحْشَرُوْنَ (٢٠٣)

التفسير

اشاره

آخر كلام عن الحج:

هذه الآيه فى الحقيقه آخر آيه وردت فى بيان مناسك الحج و إبطال السنين الجاهليه فى المفاخرات الموهومه بالنسبه للأسلاف فتوصى المسلمين (بعد مراسم العيد) أن يذكروا الله تعالى وَ اذْكُرُوا اللّٰهَ فِيْ اَيّامٍ مَّعْدُوْدَاتٍ .

و مع الأخذ بنظر الاعتبار أن هذا الأمر بقريته الآيات السابقه ناضره إلى الأيام الحادى عشر و الثانى عشر و الثالث عشر التى تسمى بلسان الروايات (أيام التشريق) و يتضح من اسم هذه الأيام أنها فتره إشراق الرّوح الإنسانيه فى ظل تلك المناسك العظيمه.

و فى الآيه ٢٨ من سوره الحج ورد الأمر بذكر الله فى اَيّامٍ مَّعْلُوْمَاتٍ و هنا

وردت عبارته في أيام معدودات فالمعروف هو أنّ الأيام المعلومات تعني العشرة الأيام من بدايته ذى الحجة، و أما (أيام معدودات) فالمراد بها أيام التشريق المذكوره آنفاً، ولكن بعض المفسرين أورد احتمالات أخرى غير ذلك في شرح الآية ٢٨ من سورة الحج، وسيأتي في شرح الآية ٢٨ من سورة الحج (١).

أما المراد من (أذكار)

فقد ورد في الأحاديث الإسلامية أنّها تعني تلاوة التكبيرات التالية بعد خمسه عشر صلاة في هذه الأيام (ابتداء من صلاة الظهر من يوم العيد حتى صلاة الصبح من اليوم الثالث العشر) وهي (الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله و الله أكبر و لله الحمد، الله أكبر على ما هدانا الله أكبر على ما رزقنا من بهيمه الأنعام).

ثم تشير الآية إلى هذا الحكم الشرعي فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه و من تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى و هذا التعبير بالحقيقه إشاره إلى نوع من التخيير في أداء ذكر الله بين يومين أو ثلاثة أيام.

و جملة (لمن اتقى) ظاهراً قيد للتعجيل في اليومين، أي لا- إثم على من تعجل و اختار اليومين أو الثلاثة، و هذا التعجيل يختص بمثل هؤلاء الأشخاص.

و جاء في روايات أهل البيت عليهم السلام أنّ المراد من التقوى هنا هي تجنب الصيد، أي أنّ الأشخاص حين الإحرام يجب عليهم تجنب الصيد أو جميع تروك الإحرام، فيمكنهم البقاء بعد عيد الأضحى يومين في منى و لأداء مناسكهم و ذكر الله تعالى، أما من لم يتق فيجب عليه البقاء ثلاثة أيام هناك لأداء المراسم العبادية و ذكر الله تعالى.

ص: ٦٦

١- ١) - بالرغم من أنّ «أيام» جمع «يوم» و هو مذكر، إلا أنه وصف ب«معلومات» و«معدودات» بصيغه المؤنث، و قيل أنّ ذلك لأنّ الأيام مركبة من ساعات، و لعلّه إشاره إلى أنّكم ينبغي أن تذكروا الله طيله ساعات هذه الأيام.



و ذهب البعض إلى أنّ جملة (لا إثم عليه) إشاره إلى نفي كلّ إثم و ذنب عن زوّار بيت الله الحرام، أى أنّ الحاج بعد أداء مناسكه عن ايمان و إخلاص و وعى يغفر له ما تقدّم من ذنبه و تزول رواسب المعاصى و أدران الذنوب من قلبه و نفسه، و يخرج من هذه العباده التربويّه خالصا طاهرا نقيّا.

فمع أنّ هذا المعنى صحيح بذاته، إلا أنّ ظاهر الآيه ينسجم مع المعنى الأوّل أكثر.

و فى نهايه الآيه نلاحظ أمرا كليّا بالتقوى حيث تقول الآيه وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ فعلى أحد هذين التفسيرين المذكورين آنفا يمكن أن تكون هذه الجملة إشاره إلى أنّ المناسك الروحانيه فى الحجّ تطهر الإنسان من الذنوب السابقيه كيوم ولدته امّه، و لكن عليكم تقوى الله و الحذر من الوقوع فى الذنب مرّه اخرى.

ص: ٦٧

اشاره

وَ مِنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَيْهِ مَا فِي قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسِبُهُ جَهَنَّمَ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)

سبب النزول

ذكر في سبب نزول هذه الآيات أمران:

١- أنّ هذه الآيات نزلت في (الأخنس) بن شريف) وكان رجلا و سيما عذب البيان يتظاهر بالإسلام و حبّ الرسول صلى الله عليه و آله و سلّم، و كان كلّما جلس عند النبي صلى الله عليه و آله و سلّم أقسم بالله على إيمانه و حبه للرسول، و كان الرسول صلى الله عليه و آله و سلّم يغدق عليه من لطفه و حبه كما هو مأمور به، و لكنّ هذا الشخص كان منافقا في الباطن و في حادثه نزاع بينه و بين بعض المسلمين هجم عليهم و قتل أحشامهم و أباد زرعهم (و بهذا أظهر ما في باطنه من النفاق) (١).

ص: ٦٨

٢- من المفسرين من نقل عن ابن عباس أنّ الآية المذكوره نزلت في سرّيه (الرجيع) حيث بعث رسول الله مجموعه من الدعاه إلى القبائل المتوطنه أطراف المدينه، فدبرت لهم مؤامره لئيمه استشهدوا فيها (١).

و لكنّ سبب النزول الأوّل أكثر انسجاما مع مضمون الآيات، و على أيّ حال فالدرس الذي تقدّمه الآية عام و شامل.

## التفسير

### اشاره

### مصير المفسدين في الأرض:

الآيه الاولى تشير إلى بعض المنافقين حيث تقول وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يُشْهَدُ اللَّهُ عَلَيْهِ مَا فِي قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ .

(ألد) تأتي بمعنى ذو العداوه الشديده، و أصلها من (لديد) التي يراد بها طرفى الرقبه و كناية عن الشخص الذى يغلب الأعداء من كلّ جانب، و (خصام) لها معنى مصدرى و هو الخصومه و العداوه.

ثمّ تضيف الآية التاليه بعض العلامات الباطنيه لعداوه مثل هذا الإنسان و هى:

وَ إِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ .

أجل، فإنّ الله سبحانه و تعالى يفضح هؤلاء و يكشف سريرتهم، لأنّ هؤلاء لو كانوا صادقين فى إيمانهم و إظهارهم المحبّه لما أفسدوا فى الأرض مطلقا و لما اعتدوا على مزارع الناس و أغنامهم بدون رحمه أو شفقه، فبالرغم من أنّ ظاهرهم المحبّه الخالصه إلا أنّهم فى الباطن أشدّ الناس قساوه و وحشيّه.

و احتمال كثير من المفسرين أنّ المراد بقوله (إذا تولى) أى إذا حكم، لأنّ

ص: ٦٩

التولّى من الولايه بمعنى الحكومه، فيكون معنى الولايه حينئذ أنّ المنافقين إذا حكموا فى الأرض أهلكوا الحرث و النسل و أشاعوا الظلم بين عباد الله، و بسبب ظلمهم و جورهم تهلك الماشيه و تتعرض أموال و نفوس الناس للخطر (١).

(حرث) بمعنى الزّراعه، (نسل) بمعنى الأولاد، و تطلق أيضا على أولاد الإنسان و غير الإنسان، فعلى هذا يكون إهلاك الحرث و النسل بمعنى إتلاف كلّ الموجودات الحيّه أعمّ من الأحياء النباتيه و الحيوانيه و الإنسانيّه.

و ذكر لمعنى الحرث و النسل تفاسير اخرى منها: أنّ المراد بالحرث هو النساء بقريته الآيه الشريفه **نِسَاءُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ (٢)** و المراد بالنسل هم الأولاد، أو يكون المراد من الحرث هنا الدين و العقيدته و النسل الناس (و هذا التفسير هو الوارد فى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام المذكور فى مجمع البيان).

و على كلّ حال فإنّ التعبير يُهْلِكُ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ كلام مختصر و جامع لكلّ المصاديق حيث يشمل الإفساد و التخريب بالنسبه للأموال و النفوس فى المجتمع البشرى.

و الآيه الاخرى تضيف و إِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ (٣) فتشتعل فى قلبه نيران التعصّب و اللجاج و تجرّه إلى المعصيه و الإثم.

فمثل هذا الشخص لا يستمع إلى نصيحه الناصحين و لا يهتم للإنذارات الإلهيه، بل يستمر على عناده و ارتكابه للآثام و المنكرات مغرورا، فلا يكون جزاءه إلا النار، و لذلك يقول فى نهايه الآيه فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهَادُ .

ص: ٧٠

١ - ١) - تفسير الميزان، ج ٢، ص ٩٦ - و كذلك أشير إلى هذا البحث فى ذيل هذه الآيه فى تفسير مجمع البيان و أبو الفتوح الرازى، و لكن هذا الرأى لا يناسب سبب النزول، و إن كان مفهوم الآيه واسعا.

٢ - ٢) - البقره، ٢٣٣.

٣ - ٣) - العزه فى مقابل الذلّه فى الأصل. و لكن هنا ورد بمعنى الغرور و النخوه، (روح المعانى) و الراغب يرى أنها بمعنى عدم المغلوبيه فى الأصل، و مجازا تأتي بمعنى الغرور.

و فى الحقيقه أنّ هذه هى أحد الصّيفات القبيحه و الدّميمه للمنافقين حيث أنّهم لا يستسلمون للحقّ بسبب التعصّب و التحجّر و قساوه القلب، و هذه الصفات الدّميمه تبلغ بصاحبه إلى أعلى درجات الإثم، فمن البديهي أنّ مثل هذه الأخشاب اليابسه المنحرفه لا تستقيم إلاّ بنار جهنّم.

و ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ الله عزّ و جلّ وصف هؤلاء الأشخاص بخمس صفات فى الآيات المذكوره آنفا، الأولى: أنّ كلامهم يخدع الإنسان، الثانيه: أنّ قلوبهم ملوثه و مظلمه، الثالثه: أنّهم ألدّ الأعداء، الرابعه: أنّهم إذا سنحت الفرصه فلا يرحمون أحدا من الإنسان و الحيوان و الزرع، الخامسه: أنّهم و بسبب الغرور و التكبر لا يقبلون أيّه نصيحه.

اشاره

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ إِتِّعَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧)

سبب النزول

روى «الثعلبى» مفسّر أهل السنّه المعروف فى تفسيره أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم لما أراد الهجره إلى المدينه خلف على بن أبى طالب بمكه لقضاء ديونه و أداء الودائع التى كانت عنده و أمره ليله خروجه من الدار و قد أحاط المشركون بالدار أن ينام على فراشه و

قال له: أتشح ببردى الحضرمى الأخضر و نم على فراشى و إنّه لا يصل منهم إليك مكروه إن شاء الله تعالى. ففعل ذلك على ، فأوحى الله تعالى إلى جبرئيل و ميكائيل إنى آخيت بينكما و جعلت عمر أحدكما أطول من الآخر فأيتكما يؤثر صاحبه بالحياه، فاختار كلاهما الحياه فأوحى الله تعالى إليهما: أ فلا كنتما مثل على بن أبى طالب آخيت بينه و بين محمّد فبات على فراشه يفديه بنفسه و يؤثره بالحياه انزلا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه.

فتزلا فكان جبرئيل عند رأسه و ميكائيل عند رجليه و جبرئيل ينادى بخّ بخّ

من مثلك يا علي يباهى الله تبارك و تعالى بك الملائكة،فأنزل الله على رسوله و هو متوجه إلى المدينة في شأن علي الآيه.

و لهذا سميت هذه الليله التاريخيه بليله المبيت، و يقول ابن عباس نزلت الآيه في علي حين هرب رسول الله من المشركين إلى الغار مع أبي بكر و نام علي على فراش النبي.

و يقول (أبو جعفر الإسكافي) كما جاء في شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد المجلد (٣) الصفحه (٢٧٠) «إنّ حديث الفراش قد ثبت بالتواتر فلا يجحده إلاّ مجنون أو غير مخالط لأهل المله» (١).

## التفسير

### اشاره

### التضحيه الكبرى في دوله الهجره التاريخيه:

بالرغم من أنّ الآيه محل البحث تتعلّق كما ورد في سبب النزول بحادثه هجره النبي صلى الله عليه و آله و سلّم و تضحيه الإمام علي و مبيته علي فراش النبي، و لكنّ مفهومها و محتواها الكلي - كما في سائر الآيات القرآنيه - عامّ و شامل، و في الحقيقه أنّها تقع في النقطه المقابله للآيات السابقه التي تحدّث عن المنافقين.

تقول الآيه وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ .

الطائفه السابقه التي تحدّثنا عنها هي مجموعه من الأشخاص المعاندين و المغرورين و الأنانيين الذين يحاولون أن يحقّقوا لهم بين المجتمع عزّه و كرامه

ص: ٧٣

١- ١) - ذكر صاحب الغدير: ج ٢ ص ٤٤ و ٥٥ أنّ ليله المبيت رواها الغزالي في إحياء العلوم: ج ٣ ص ٢٣٨، و الصفوى في نزّهه المجالس: ج ٢ ص ٢٠٩، و ابن الصبّاح المالكي في الفصول المهمّه، و السبط ابن الجوزي الحنفي في تذكرة الخواص: ص ٢١، و مسند أحمد: ج ١ ص ٤٨ و تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٩٩-١٠١، و ابن هشام في السيره: ج ٢ ص ٢٩١، و الحلبي في السيره: ج ٢ ص ٢٩، و تاريخ يعقوبى: ج ٢ ص ٢٩.

عن طريق النفاق و يتظاهرون بالإيمان بأقوالهم بينما أعمالهم ليس فيها سوى الإفساد فى الأرض و إهلاك الحرث و النسل.

أما هذه الطائفة الثانية فتعاملهم مع الله وحده حيث يقدمون أرواحهم رخيصه فى سبيله، و لا يتغون سوى رضاه، و لا يطلبون عزه و رفعه إلا بالله، و بتضحيات هؤلاء يصلح أمر الدين و الدنيا و يستقيم شأن الحق و الحقيقه و تصفو حياه الإنسان و تثمر شجره الإسلام.

و من هنا يتضح أن جملة وَ اللَّهُ رَوْفٌ بِالْعِبَادِ بمثابة النقطه المقابله لما ورد فى الآيه السابقه عن المنافقين المفسدين فى الأرض فَحَسِبُهُمْ جَهَنَّمَ وَ كَبُئِسَ الْمِهَادُ وَ قد تكون إشاره إلى أن الله عز و جل فى الوقت الذى هو رحيم و رؤوف بالعباد هو الذى يشرى الأنفس بأعلى الأثمان و هو رضوان الله تعالى عن الإنسان.

و ممّا يستلفت النظر أنّ البائع هو الإنسان، و المشتري هو الله تعالى، و البضاعه هى النفس، و ثمنها هو رضوان الله تعالى، فى حين نرى فى موارد اخرى أنّ ثمن مثل هذه المعاملات هو الجنة الخالده و النجاه من النار، من قبيل قوله تعالى إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ (١).

و لعلّه لهذا السبب كانت (من) فى الآيه مورد البحث تبعيضيه (و من الناس)، يعنى أنّ بعض الناس يستطيعون أن يقوموا بمثل هذه الأعمال الخارقه بحيث لا- يطلبون عوضا عن أرواحهم و أنفسهم سوى رضوان الله تعالى، و أمّا فى الآيه (١١١) من سوره التوبه التى ذكرناها سابقا رأينا أنّ جميع المؤمنين قد دعوا إلى التعامل و التجاره مع الله تعالى فى مقابل الجنة الخالده.

ص: ٧٤



و يحتمل أيضا في تفسير جملة وَ اللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعبَادِ و تناسبها مع بدايه هذه الآيه أنّ المراد هو بيان هذه الحقيقه أنّ وجود مثل هؤلاء الأفراد بين الناس لطف من اللّهِ سبحانه و رأفه بعباده، إذ لو لم يكن بين الناس مثل هؤلاء الأفراد المضحين المتفانين مقابل تلك العناصر الخبيثه لانهدمت أركان الدّين و المجتمع، لكنّ اللّهُ سبحانه بفضلله و منه يدفع بهؤلاء الصّيديقين الأولياء خطر أولئك الأعداء.

فعلى أيّ حال، فهذه الآيه و مع الالتفات إلى سبب النزول المذكور آنفا تعدّ أعظم الفضائل لإمام على عليه السّلام الوارده في اكثر المصادر الإسلاميه، و كانت في صدر الإسلام من الوضوح بين المسلمين بحيث دعت معاويه العدو اللدود للإمام على عليه السّلام أن يرشى (سمره بن جندب) بأربعمائه ألف درهم كى يروى حديثا مختلطا ينسب فيه فضيله هذه الآيه إلى عبد الرحمن ابن ملجم، و قد اختلق هذا المنافق الجانى هذه الفريه، و لكنّ أحدا لم يقبل منه حديثه المجعول (1).

ص: ٧٥

---

١-١) -نقل قصه هذه المعامله «ابن أبى الحديد» في شرح «نهج البلاغه» ج ٤، ص ٧٣.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ  
الْبَيِّنَاتُ فَاغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩)

التفسير

اشاره

السّلام العالمى فى ظلّ الإسلام:

بعد الإشارة إلى الطائفتين (المؤمنين المخلصين و المنافقين المفسدين) فى الآيات السابقه تدعو هذه الآيات الكريمة كلّ المؤمنين إلى السلم و الصلح و تقول:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً

(سلم) و(سلام) فى اللغه بمعنى الصّيلح و الهدوء و السكينه، و ذهب البعض إلى تفسيرها بمعنى الطّاعه، فتدعوا هذه الآيه الكريمة جميع المؤمنين إلى الصلح و السلام و التسليم إلى أوامر الله تعالى، و يستفاد من مفهوم هذه الآيه أنّ السلام لا يتحقّق إلاّ فى ظلّ الإيمان، و أنّ المعايير و المفاهيم الأرضيه و الماديّه غير قادره على إطفاء نار الحروب فى الدنيا، لأنّ عالم المادّه و التعلّق به مصدر جميع الاضطرابات و النزاعات دائما، فلو لا القوّه المعنويّه للإيمان لكان الصّلح

مستحيلاً، بل يمكن القول أنّ دعوته الآيه العامه لجميع المؤمنين بدون استثناء من حيث اللغه و العنصر و الثروه و الإقليم و الطبقة الاجتماعيه إلى الصلح و السلام يستفاد منها أنّ تشكيل الحكومه العالميه الواحده فى ظل الإيمان بالله تعالى و العيش فى مجتمع يسوده الصلح ممكن فى إطار الدوله العالميه.

واضح أنّ الاطر الماديّه الأرضيه (من اللغه و العنصر و...) هى عوامل تفرقه بين أفراد البشر و بحاجه إلى حلقه اتصال محكمه تربط بين قلوب الناس، و هذه الحلقه ليست سوى الإيمان بالله تعالى الذى يتجاوز كلّ الاختلافات، الإيمان بالله و اتباع أمره هو النقطه و المحور لوحده المجتمع الإنسانى و رمز ارتباط الأقسام و الشعوب، و يمكن رؤيه ذلك من خلال مناسك الحجّ الذى يعتبر نموذجاً بارزاً إلى اتحاد الأقسام البشرىه بمختلف ألوانها و قوميتها و لغاتها و أقاليمها الجغرافيه و أمثال ذلك حيث يشتركون فى المراسم العباديه الروحانيه فى منتهى الصلح و الصفاء، و بمقايسه سريعه بين هذه المفاهيم و الأنظمه الحاكمه على الدول الفاقده للإيمان بالله تعالى و كيف أنّ الناس يفتقدون فيها إلى الأمان النفسى و المالى و يخافون على اعراضهم و نوااميسهم يتضح لنا التفاوت بين المجتمعات المؤمنه و غير المؤمنه من حيث الصلح و الأمان و السلام و الطمأنينه.

و يحتمل أيضاً فى تفسير الآيه أنّ بعض أهل الكتاب (اليهود و النصارى) عند ما يعتنقون الإسلام يقون أوفياء لبعض عقائدهم و تقاليدهم السابقه، و لهذا تأمر الآيه الشريفه أن يعتنقوا الإسلام بكافه وجودهم و يخضعوا و يسلموا لجميع أحكامه و تشريعاته (1). ثمّ تضيف الآيه وَ لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ و قد مرّ بنا فى تفسير الآيه (١٦٨) من هذه السوره الإشاره إلى أنّ كثير من الانحرافات و وساوس الشيطان تحدث بصوره تدريجيّه على شكل مراحل حيث

ص: ٧٧

---

١-١) - تفسير الكبير، المجلد الخامس، ص ٢٠٧-روح المعانى، ج ٢، ص ٩٧، و لكن نظر أن «كافه» تشمل جميع المؤمنين و ليس كافه تشريعات الإسلام (فى الحقيقه حال ل«الذين آمنوا» لا السلم) و التفسير الأوّل أصح فى النظر.

يسمّيها القرآن (خطوات الشيطان).

(خطوات) جمع «خطوه» و هنا تكثرت هذه الحقيقه من أنّ الانحراف عن الصلح و العداله، و التسليم لإرادته الأعداء و دوافع العداوه و الحرب و سفك الدماء يبدأ من مراحل بسيطه و ينتهى بمراتب حادّه و خطره كما فى المثل العربى المعروف (إنّ بدو القتال اللطام).

فتاره تصدر من الإنسان حركه بسيطه عن عدا و حقد و تؤدّى إلى الحرب و الدمار، و لهذا تخاطب الآيه المؤمنين أن يلتفتوا إلى نقطه البدايه كى لا تؤدّى شرارات الشرّ الاولى الاشتعال لظى المعارك و الحروب.

و جدير بالذكر أنّ هذا التعبير ورد فى القرآن الكريم خمس مرّات و فى غايات مختلفه.

و ذكر بعض المفسّرين أنّ (عبد الله بن سلام) و أتباعه الذين كانوا من اليهود و أسلموا طلبوا الإذن من رسول الله بقراءه التوراه فى الصلاه و العمل ببعض أحكامها، فنزلت الآيه الآنفه الذكر و نهت هؤلاء عن إتباع خطوات الشيطان (١).

و من شأن النزول هذا يتبين أنّ الشيطان ينفذ فى فكر الإنسان و قلبه خطوه خطوه، فيجب التصدّى للخطوات الاولى لكيلا تصل إلى مراحل خطره.

و تتضمّن جملة إنّه لكم عدوّ مبين برهانا و دليلا حيا حيث تقول إنّ عدا الشيطان للإنسان ليس بأمر خفى مستتر، فهو منذ بدايه خلق آدم أقسم أن يبذل جهده لإغواء جميع البشر إلا المخلصين الذين لا ينالهم مكر الشيطان، فمع هذا الحال كيف يمكن تغافل و سوسه الشيطان.

الآيه التاليه إنذار لجميع المؤمنين حيث تقول فإنّ زللتكم من بعيد مما جاءكم البيّنات فاعلموا أنّ الله عزيز حكيم فلو انحرفتم و سرتم مع

ص: ٧٨

وساوس الشيطان على خلاف مسار الصلح و السلام فَإِنَّكُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ بِذَلِكَ الْفِرَارَ مِنَ الْعَدَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ.

المنهج يبين و الطريق يبين و الهدف يبين، و معلوم من هنا لا عذر لمن يزل عن الطريق، فلو انحرقتم فَأَنْتُمْ الْمُقْصِرُونَ، فاعلموا أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ حَكِيمٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَفْرَّ مِنْ عَدَالَتِهِ.

(بينات) بمعنى الدلائل الواضحة، و لها مفهوم واسع يستوعب الدلائل العقلية، و كذلك ما يتضح للإنسان عن طريق الوحي أو المعجزات.

ص: ٧٩

اشاره

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠)

التفسير

اشاره

توقع غير معقول:

قد يبدو للوهله الاولى أنّ في هذه الآيه الكريمه نوعا من الإبهام و التعقيد، لكنّ ذلك يزول عند إمعان النظر بتعبيراتها.

الآيه تخاطب الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و تقول معقبه على الآيات السابقه: أ ليست كلّ هذه الدلائل و الآيات و الأحكام الواضحه كافيه لصدّ الإنسان عن الهلكه و انقاذه من براثن عدوّه المبين (الشيطان)، هل ينتظرون أن يأتي الله إليهم مع الملائكه في وسط الغمامه و يطرح عليهم من الآيات و الدلائل أوضح ممّا سبق، و إنّ ذلك محال، و على فرض كونه غير محال فإنه لا ضروره لذلك: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ (١).

أمّا ما هو المراد من «قضى الأمر» الوارد في الآيه؟ ذهب المرحوم (الطبرسي) في مجمع البيان أنّ معناها انتهاء حساب البشر في

ص: ٨٠

١ - ١) - «ظلل» جمع «ظله» يقال لكلّ شيء يصنع ظلا، و «غمام» بمعنى السحاب.

يوم القيامة و دخول أهل الجنّة إلى الجنّة و أهل النَّار إلى النَّار، و على هذا الأساس فالآية ناظره إلى الآخرة في حين أنّ ظاهر الآية يتعلّق بهذه الحياه الدنيا، و لهذا فليس من البعيد أن تكون هذه الآية إشارة إلى نزول العذاب الإلهي على الكفّار المعاندين، و قد ورد في هذا المعنى في كلام الطبرسي و غيره من المفسّرين بعنوان أحد الاحتمالات.

و يمكن أن يكون المعنى إشارة إلى انتهاء مأموريّة التبليغ و بيان الحقائق الواردة في الآية السابقه بعنوان (بينات)، و بهذا يكون انتظار و توقع هؤلاء بلا معنى، فعلى فرض المحال إمكانيّه حضور الله تعالى و الملائكة أمامهم فلا حاجة إلى ذلك كما ذكرنا، لأنّ مستلزمات الهدايه قد وضعت أمامهم بالقدر الكافي، و بناء على هذا التفسير لا يوجد في الآية أي تقدير، و الألفاظ بعينها قد فسّرت، و بهذا يكون الاستفهام الوارد في الآية استفهاما إنكاريا.

و هناك من المفسّرين من لم ير الاستفهام في الآية استنكاريا، و اعتبره نوعا من التهديد للمذنبين و لأولئك السائرين على خطى الشيطان، سواء كان التهديد بعذاب الآخرة أو الدنيا، و لهذا فهم يقدّرون قبل كلمه «الله» كلمه (أمر) فيكون المعنى حينئذ: (أ يريد هؤلاء بأعمالهم هذه أن يؤتيهم أمر الله و ملائكته لمعاقبتهم و تعذيبهم و لينالوا عذاب الدنيا أو الآخرة و ينتهي أمرهم و أعمالهم).

و لكنّ التفسير المذكور أعلاه أنسب المعاني لهذه الآية ظاهرا و لا حاجة إلى التقدير.

و الخلاصه أنّ لهذه الآية ثلاثه تفاسير:

١- أنّ المراد هو أنّ الله تعالى قد أتمّ حجّته بمقدار كاف، فلا ينبغي للمعاندين توقّع أن يأتيهم الله و الملائكة أمامهم و يبينوا لهم الحقائق، لأنّ هذا أمر محال و على فرض أنّه غير محال لا حاجة لذلك.

٢- المراد هو أنّ هؤلاء مع عنادهم و عدم إيمانهم هل ينتظرون الأمر الإلهي

يُنزَلُ العذابُ و ملائكةُ العذابِ عليهم فيهلكوا عن آخرهم.

٣- المراد أنّ هؤلاء بهذه الأعمال هل ينتظرون قيام الساعة ليصدر الأمر إلى الملائكة بتعذيبهم و ينالوا جزاءهم العادل؟ (١) التعبير ب(ظل من الغمام) بناء على التفسير الثاني و الثالث الذي ذهب إليه الكثير من المفسرين إشاره إلى أنّ العذاب الإلهي يأتي فجأه كالسحاب الذي يظلمهم و خاصّه أنّ الإنسان إذا رأى السحاب يتوقّع أمطار الرّحمه، فعند ما يأتي العذاب بصوره الصاعقه و أمثال ذلك و ينزل عليهم فسيكون أقسى و أشدّ إيلا ما مع الالتفات إلى أنّ عذاب بعض الأقسام السالفه نزل عليهم بصوره صاعقه من الغمام (٢).

أمّا على أساس التفسير الأوّل فقد يكون إشاره إلى عقيدته الكفّار الخرافيه حيث يظنون أنّ الله تعالى ينزل أحيانا من السماء و السحاب تظلمه (٣).

□  
و في نهايه الآيه تقول وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ الْأُمُورُ المتعلّقه بإرسال الأنبياء و نزول الكتب السماويه و تبين حقائق يوم القيامة و الحساب و الجزاء و الثواب و العقاب و كلّها تعود إليه.

## بحث

## إشاره

## استحاله رؤيه الله:

لا- شكّ أنّ الرّؤيه الحسيه لا تكون إلّا للأجسام التي لها لون و مكان و تأخذ حتيز من الفراغ، فعلى هذا لا معنى لرؤيه الله تعالى الذي هو فوق الزمان و المكان.

ص: ٨٢

١ - ١) - لم يذكر التقدير في التفسير الأوّل و يجب أخذه بنظر الاعتبار في التفسير الثاني و الثالث في كلمه «امر» قبل لفظ الجلاله «الله».

٢ - ٢) - راجع الآيه (١٨٩) من سوره الشعراء.

٣ - ٣) - المصدر السابق.



إنّ الذات المقدّسه يستحيل رؤيتها بهذه العين لا في الدّنيا و لا في الآخرة، و الأدلّه العقليّه على هذه المسأله واضحه إلى درجه أنّه لا- حاجه لشرحها و بيانها، و لكن مع ذلك فإنّ طائفه من علماء أهل السّينه و مع الأسف يستندون على بعض الأحاديث الضعيفه و عدد من الآيات المتشابهه على إمكان رؤيه الله تعالى يوم القيامة بهذه العين الماديّه، و إنّّه سيكون له قالب جسماني و لون و مكان، و بعضهم يرى أنّ الآيه مورد البحث ناظره إلى هذا المعنى، فلعلّهم لم يلتفتوا إلى مدى المفاسد و المشكلات المترتبه على هذا القول.

و طبعا لا شكّ في إمكانيه رؤيه الله تعالى بعين القلب، سواء في هذه الدنيا أو في عالم آخر، و من المسلم أنّ ذاته المقدّسه في يوم القيامة لها ظهور أقوى و أشد من ظهورها في هذا العالم ممّا يستدعي أن تكون المشاهده أقوى،

و في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السّلام في جواب من سأله: هل يمكن مشاهده الله يوم القيامة؟ فقال: «...إنّ الأبصار لا تدرك إلا ما له لون و كيفيه و الله تعالى خالق الألوان و كيفيه»

(١)

و قد أوردنا أبحاثا في عدم إمكانيه رؤيه الله تعالى في الدنيا و الآخرة في ذيل الآيات المربوطه، منها في ذيل آيه (١٠٣) من سوره الأنعام لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَ ذكّرنا بحثا آخر أكثر تفصيلا في المجلّد الرابع من (نفحات القرآن) فراجع.

ص: ٨٣

اشاره

سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيْنَهُ وَ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١)

التفسير

اشاره

تبدیل نعمه الله بالعذاب الأليم:

تشير هذه الآيه إلى أحد مصاديق الآيات السابقة، لأنّ الحديث في الآيات السابقة كان يدور حول المؤمنين و الكافرين و المنافقين، و أنّ الكافرين كانوا يتجاهلون آيات الله و براهينه الواضحه و يتذرّعون بمختلف الحجج و المعاذير، و بنى إسرائيل مصداق واضح لهذا المعنى، و تقول الآيه: سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيْنَهُ .

و لكنّهم تجاهلوا و تغافلوا عن هذه الآيات و العلائم الواضحه و أنفقوا المواهب الإلهيه و النعم الربانيه في أساليب مذمومه و منحرفه، ثمّ تقول الآيه وَ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

و المراد من (تبدیل النعمه) هو استخدام الإمكانيات و الطاقات و المصادر

الماديّة و المعنويّة الموهوبه على طريق تخريبي انحرافى و ممارسه الظلم و الطغيان، فقد وهب الله سبحانه و تعالى مواهب كثيره لبنى إسرائيل من قبيل الأنبياء و القاده الشجعان و الإمكانات الماديّة الكثيره، و لكنّهم لم ينتفعوا من أنبياءهم الإلهيين، و لا استفادوا من المواهب الماديّة استفاده صحيحه، و بهذا ارتكبوا معصيه تبديل النعمه ممّا سبّب لهم أنواع العذاب الدنيوى، كالتيه فى الصحراء و كذلك العذاب الاخرى الأليم.

و عباره (سل بنى إسرائيل) فى الحقيقه تستهدف كسب الاعتراف منهم بشأن النعم الإلهيّه، ثمّ التفكير بالسبب الذى أدّى بهم إلى الهاويه و التمزّق مع كلّ هذه الإمكانات ليكونوا عبره للمسلمين و لكلّ من لا ينتفع بالمواهب الإلهيّه بصوره سليمه.

و لا تنحصر مسأله تبديل النعمه و المصير المؤلم لها بنى إسرائيل، بل أنّ جميع الأقسام و الشّعوب إذا ارتكبت مثل هذه الخطيئه سوف تبتلى بالعذاب الإلهي الشديد فى الدنيا و فى الآخره.

فالعالم المتطوّر صناعيّا يعانى اليوم من هذه المأساه الكبرى، فمع و فور النعم و الطاقات لدى الإنسان المعاصر و فورا لم يسبق له مثل فى التاريخ نجد صورا شتى من تبديل النعم و تسخيرها بشكل فضيع فى طريق الإباده و الفناء بسبب ابتعادهم عن التعاليم الإلهيّه للأنبياء، حيث حوّروا هذه النعم إلى أسلحه مدمّره من أجلّ بسط سيطرتهم الظالمه و استعمارهم للبلدان الاخرى، و بذلك جعلوا من الدنيا مكانا غير آمن، و جعلوا الحياه الدنيا غير آمنه من كلّ ناحيه.

(نعمه الله) فى هذه الآيه قد تكون إشاره إلى الآيات الإلهيّه و تبديلها يعنى تحريفها، أو يكون المعنى أوسع و أشمل من ذلك حيث يستوعب كلّ الإمكانات و المواهب الإلهيّه، و المعنى الثانى أرجح.

اشاره

زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ  
(٢١٢)

سبب النزول

عن ابن عباس المفسر المعروف قال: إنها نزلت في رؤساء قريش الذين بسطت لهم الدنيا و كانوا يسخرون من قوم من المؤمنين الفقراء كعبد الله بن مسعود و عمار و بلال و خباب و يقولون: لو كان محمد نبيا لا تبعته أشرافنا، فنزلت الآية لترد عليهم.

التفسير

اشاره

الكافرون عبيد الدنيا:

نزول الآية طبقا للروايه المذكوره بشأن رؤساء قريش لا يمنع أن تكون مكتمله لموضوع الآية السابقه بشأن اليهود و أن نستنتج منها قاعده كليته، تقول الآية زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا و لذلك أفقدهم الغرور و التكبر شعورهم.

فى حين أنّ المؤمنين و المتقين فى أعلى عليين فى الجنة، و هؤلاء فى دركات الجحيم و الذين اتقوا فوقهم يوم القيامة .

لأنّ المقامات المعنويّة تتخذ صور عينيّة فى ذلك العالم، و يكتسب المؤمنون درجات أسمى من هؤلاء، و كأنّ هؤلاء يسيرون فى أعماق الأرض بينما يحلق الصالحون فى أعالي السماء، و ليس ذلك بعجيب و الله يرزق من يشاء بغير حساب .

و هذه فى الحقيقة بشاره للمؤمنين الفقراء و إنذار و تهديد للأغنياء و الأثرياء المغرورين، و هناك احتمال آخر أيضا و هو أنّ الجملة الأخيرة تشير إلى أنّ الله تعالى يرزق المؤمنين فى المستقبل بدون حساب، و ذلك بتقدّم الإسلام و اتّساعه حيث تحقّق هذا الوعد الإلهي .

و كون ذلك الرزق الإلهي بدون حساب للمؤمنين إشارة إلى أنّ الثواب و المواهب الإلهيّة ليست بمقدار أعمالنا إطلاقا، بل هى مطابقه لكرمه و لطفه، و نعلم أنّ كرمه و لطفه ليست لهما حدود و نهايه .

#### ملاحظه

إنّ الحياه الماديّة فى منظار الكافرين-الذين لا- يتعدى أفق تفكيرهم إطار العالم المادى-جميله و جذابه و معيار تقويم كلّ شىء، و من هنا فإنّهم ينظرون بفكرهم الضيق إلى الفقراء نظره تحقير و استهانه و استهزاء، و لا- يقيمون و زنا للقيم المعنويّة و الإنسانيّة.

و يبقى هنا سؤال عن معنى فعل المجهول (زين) فمن الذى يزين الدنيا فى أنظار الكافرين؟ الجواب على هذا السؤال سيأتى إن شاء الله فى تفسير الآيه (١٤) من سوره آل عمران.

اشاره

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اِخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اِخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اِخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣)

التفسير

اشاره

طريق الوصول إلى الوحدة:

بعد بيان حال المؤمنين و المنافقين و الكفار في الآيات السابقة شرع القرآن الكريم في هذه الآيه في بحث اصولي كلي و جامع بالنسبة لظهور الدين و أهدافه و المراحل المختلفه التي مرّ بها.

في البدايه تقول الآيه كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً (١).

فتبدأ هذه الآيه ببيان مراحل الحياه البشريه و كيفيه ظهور الدين لإصلاح

ص: ٨٨

١- ١) - «أمه» بمعنى الجماعه التي ترتبط بنوع من الرابطة الموحده لأفرادها سواء كانت وحده دينيه أو زمانيه أو مكانيه.

المجتمع بواسطه الأنبياء و ذلك على مراحل:

المرحلة الاولى:مرحلة حياه الإنسان الابتدائيه حيث لم يكن للإنسان قد أُلِف الحياه الاجتماعيه،و لم تبرز في حياته التناقضات و الاختلافات،و كان يعبد الله تعالى استجابته لنداء الفطره و يؤدّي له فرائضه البسيطة،و هذه المرحلة يحتمل أن تكون في الفتره الفاصله بين آدم و نوح عليهما السلام.

المرحلة الثانيه:و فيها اتّخذت حياه الإنسان شكلا اجتماعيا،و لا بدّ أن يحدث ذلك لأنّه مفطور على التكامل،و هذا لا يتحقّق إلاّ في الحياه الاجتماعيه.

المرحلة الثالثه:هي مرحله التناقضات و الاصطدامات الحتميه بين أفراد المجتمع البشرى بعد استحكام و ظهور الحياه الاجتماعيه،و هذه الاختلافات سواء كانت من حيث الإيمان و العقيدته،أو من حيث العمل و تعيين حقوق الأفراد و الجماعات تحتم وجود قوانين لرعايه و حمل هذه الاختلافات،و من هنا نشأت الحاجه الماسّه إلى تعاليم الأنبياء و هدايتهم.

□  
المرحلة الرابعه:و تتميز ببعث الله تعالى الأنبياء لإنقاذ الناس،حيث تقول الآيه فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ .

فمع الالتفات إلى تبشير الأنبياء و إنذارهم يتوجّه الإنسان إلى المبدأ و المعاد و يشعر أنّ وراءه جزاء على أعماله فيحس أنّ مصيره مرتبط مباشرة بتعاليم الأنبياء و ما ورد في الكتب السماويه من الأحكام و القوانين الإلهيه لحل التناقضات و النزاعات المختلفه بين أفراد البشر،لذلك تقول الآيه وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ .

المرحلة الخامسه:هي التمسك بتعاليم الأنبياء و ما ورد في كتبهم السماويه لإطفاء نار الخلافات و النزاعات المتنوعه(الاختلافات الفكرية و العقائديه

المرحله السادسه: و استمر الوضع على هذا الحال حتى نفذت فيهم الوسوس الشيطانيه و تحركت في أنفسهم الأهواء النفسانيه، فأخذت طائفه منهم بتفسير تعليمات الأنبياء و الكتب السماويه بشكل خاطئ و تطبيقها على مرادهم، و بذلك رفعوا علم الاختلاف مره ثانيه. و لكن هذا الاختلاف يختلف عن الاختلاف السابق، لأن الأول كان ناشئاً عن الجهل و عدم الاطلاع حيث زال و انتهى ببعث الأنبياء و نزول الكتب السماويه، في حين أن منبع الاختلافات الثانيه هو العناد و الانحراف عن الحق مع سبق الإصرار و العلم، و بكلمه: (البغي)، و بهذا تقول الآيه بعد ذلك و مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ .

المرحله السابعه: الآيه الكريمه بعد ذلك تقسم الناس إلى قسمين، القسم الأول المؤمنون الذين ينتهجون طريق الحق و الهدايه و يتغلبون على كل الاختلافات بالاستناره بالكتب السماويه و تعليم الأنبياء، فتقول الآيه: فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ فِي حِينِ أَنَّ الْفَاسِقِينَ وَ الْمُعَانِدِينَ مَا كَثُرُوا فِي الضَّلَالَةِ وَ الْاِخْتِلَافِ.

و ختام الآيه تقول وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَ هذه الفقره إشاره إلى حقيقه ارتباط مشيئه الله تعالى بأعمال الأفراد، فجميع الأفراد الراغبون في الوصول إلى الحقيقه يهديهم الله تعالى إلى صراط مستقيم و يزيد في وعيهم و هدايتهم و توفيقهم في الخلاص من الاختلافات و المشاجرات الدنيويه مع الكفار و أهل الدنيا و يرزقهم السكينه و الاطمئنان، و يبين لهم طريق النجاه و الاستقامه.



### ١- الدين و المجتمع

يستفاد من الآيه أعلاه ضمناً أنّ الدين و المجتمع البشرى حقيقتان لا تقبلان الانفصال، فلا يمكن لمجتمع أن يحيى حياه سليمه دون دين و إيمان بالله و بالآخره، و ليس بمقدور القوانين الأرضيه أن تحلّ الاختلافات و التناقضات الاجتماعيه لعدم ارتباطها بدائره إيمان الفرد و افتقارها التأثير على أعماق وجود الإنسان، فلا يمكنها حل الاختلافات و التناقضات فى حياه البشر بشكل كامل، و هذه الحقيقه أثبتتها بوضوح أحداث عالمنا المعاصر، فالعالم المسمّى بالمتطوّر قد ارتكب من الجرائم البشعه ما لم نر له نظيراً حتّى فى المجتمعات المتخلفه.

و بذلك يتّضح منطق الإسلام فى عدم فصل الدّين عن السّياسه و أنه بمعنى تدبير المجتمع الإسلامى.

### ٢- بدايه التشريع

و يتّضح من الآيه أيضاً أنّ بدايه انبثاق الدين بمعناه الحقيقى كانت مقترنه مع ظهور المجتمع البشرى بمعناه الحقيقى، من هنا نفهم سبب كون نوح أوّل أنبياء اولوا العزم و أوّل أصحاب الشريعه و الرساله لا آدم.

### ٣- الشرق الأوسط مهد الأديان الكبرى

و من الآيه محل البحث نفهم الجواب على السؤال عن سبب ظهور الأديان الإلهيه الكبرى فى منطقه الشرق الأوسط (الدين الإسلامى و المسيحى و اليهودى و دين إبراهيم و...) لأنّ التاريخ يشهد على أنّ مهد الحضارات البشريه كانت فى هذه المنطقه من العالم و انتشرت منها إلى المناطق الاخرى، و مع الالتفات إلى

الرابطه الشديده بين الدين و الحضاره و حاجه المجتمعات المتحضّره إلى الدين من أجل حل الاختلافات و التناقضات الهدّامه يتّضح أنّ الدين لا بدّ أن يتحقّق في هذه المنطقه بالذات.

و عند ما نرى أنّ الإسلام انطلق من محيط جاهلي متخلّف كمجتمع مكّه و مدينه في تلك الأيام، فذلك بسبب أنّ هذه المنطقه تقع على مفترق طرق عدّه حضارات عظيمه في ذلك الزّمان، ففي الشمال الشرقي من جزيره العرب كانت الحضاره الفارسيّه و بقيه من حضاره بابل، و إلى الشمال كانت حضاره الزّوم، و في الشّمال الغربي كانت حضاره مصر القديمه بينما كانت حضاره اليمن في الجنوب.

و في الحقيقه أنّ مركز ظهور الإسلام في ذلك الزّمان كان بمثابة مركز الدّائره التي تحيط بها الحضارات المهمّه في ذلك الزّمان (فتأمّل بالدقه).

#### ٤- حلّ الاختلافات من أهم أهداف الدّين

هناك عدّه أهداف للأديان الإلهيّة، منها تهذيب النفوس البشريّه و إيصالها إلى المقام القرب الإلهي، و لكن من أهمّ الأهداف أيضا هو رفع الاختلافات، لأنّ هناك بعض العوامل من قبيل القوميّه و الرّس و اللّغه و المناطق الجغرافيه دائما تكون عوامل تفرقه بين المجتمعات البشريّه، و الأمر الّذي بإمكانه أن يوحد هذه الحلقات المختلفه و يكون بمثابة حلقة اتّصال بين أفراد البشر من مختلف القوميّات و الألوان و اللّغات و المناطق الجغرافيه هو الدّين الإلهي، حيث بإمكانه أن يهدم جميع هذه السدود، و يزيل تمام هذه الحدود، و يجمع البشريّه تحت رايه واحده بحيث نرى نموذجا من ذلك في مناسك الحجّ العباديّه و السياسيّه.

و عند ما نرى أنّ بعض الأديان و المذاهب هي السبب في الاختلاف و النزاع بين طوائف البشر، لأنّها قد خالطتها الخرافات و اقترنت بالتعصب الأعمى، و إلّا

فإنَّ الأديان الإلهية لو لم تتعرض للتحريف لكانت سببا للوحده في كل مكان.

## ٥- الدليل على عصمه الأنبياء

يذكر (العلامة الطباطبائي) في الميزان بعد أن يقسم عصمه الأنبياء إلى ثلاثة أقسام:

١- العصمه من الخطأ عند نزول الوحي و استلامه، ٢- العصمه من الخطأ في تبليغ الرساله، ٣- العصمه من الذنب و ما يؤدي إلى هتك حرمة العبودية لله. يقول: إنَّ الآيه مورد البحث دليل على عصمه الأنبياء من الخطأ في تلقى الوحي و تبليغ الرساله، لأنَّ الهدف من بعثهم هو البشاره و الإنذار للناس و بيان العقيدة الحقه في الإعتقاد و العمل، و بذلك يمكنهم هدايه الناس عن هذا الطريق، و من الواضح أنَّ هذا الهدف لا يتحقق بدون العصمه في تلقى الوحي و تبليغ الرساله.

القسم الثالث من العصمه يمكن استفادته من هذه الآيه أيضا، لأنَّه لو صدر خطأ في تبليغ الرساله لكان بنفسه عاملا على الاختلاف، و لو حصل تضاد بين أعمال و أقوال الأنبياء الإلهيين بارتكابهم الذنب فيكون أيضا عاملا و سببا للاختلاف، و بهذا فإنَّ الآيه أعلاه يمكن أن تكون إشارة إلى عصمه الأنبياء في جميع الأقسام الثلاثة المذكوره (١).

ص: ٩٣

١- ١) - اقتباس من تفسير الميزان، ج ٢، ص ١٣٤، في ذيل الآيه (٢١٣) من سوره البقره.

## اشاره

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)

## سبب النزول

قال بعض المفسرين: إن الآيه نزلت عند ما حوَصر المسلمون و اشتدَّ الخوف و الفرع بهم في غزوه الأحزاب، فجاءت الآيه لتثبت على قلوبهم و تعدهم بالنصر.

وقيل: إنَّ عبد الله بن أبي قال للمسلمين عند فشلهم في غزوه أحد: إلى متى تتعرضون للقتل و لو كان محمّد نبيا لما واجهتم الأسر و التقتيل، فنزلت الآيه (١).

## التفسير

## اشاره

### الصعاب و المشاق سنّه إلهيه:

يبدو من الآيه الكريمه أن جماعه من المسلمين كانت ترى أن إظهار الإيمان بالله وحده كاف لدخولهم الجنّه، و لذلك لم يوطنوا أنفسهم على تحمّل الصعاب

ص: ٩٤

والمشاقّ ظانّين أنه سبحانه هو الكفيل بإصلاح أمورهم و دفع شرّ الأعداء عنهم.

الآيه تردّ على هذا الفهم الخاطئ و تشير إلى سنّه إلهيه دائمه فى الحياه،هى أنّ المؤمنين ينبغى أن يعدّوا أنفسهم لمواجهة المشاقّ و التحديّات على طريق الإيمان ليكون ذلك اختبارا لصدق إيمانهم،و مثل هذا الاختبار قانون عامّ سرى على كلّ الأمم السابقه.

و يتحدّث القرآن الكريم عن بنى إسرائيل-مثلا-و ما واجهوه من مصاعب بعد خروجهم من مصر و نجاتهم من التسلّط الفرعونى،خاصّه حين حوصروا بين البحر و جيش فرعون،فقد مرّوا بلحظات عصيبه فقد فيها بعضهم نفسه،لكن لطف الله شملهم فى تلك اللحظات و نصرهم على أعدائهم.

و هذا الذى عرضه القرآن عن بنى إسرائيل عامّ لكلّ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ و هو سنّه إلهيه تستهدف تكامل الجماعه المؤمنه و تربيتها.فكلّ الأمم ينبغى أن تمرّ فى أفران الأحداث القاسيه لتخلص من الشوائب كما يخلص الحديد فى الفرن ليتحوّل إلى فولاذ أكثر مقاومه و أصلب عودا.ثمّ ليتبيّن من خلال هذا الاختبار من هو اللائق،و ليسقط غير اللائق و يخرج من الساحه الاجتماعيه.

المسأله الأخرى التى ينبغى التأكيد عليها فى تفسير هذه الآيه: أنّ الجماعه المؤمنه و على رأسها النبىّ صلى الله عليه و آله و سلّم ترفع صوتها حين تهجم عليها الشدائد بالقول متىّ نَصِيرُ اللهِ؟!،و واضح أنّ هذا التعبير ليس اعتراضا على المشيئه الإلهيه،بل هو نوع من الطلب و الدعاء.

فتقول الآيه أمّ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتِمُ الْبِأَسَاءِ وَ الضَّرَاءِ... .

و بما أنّهم كانوا فى غايه الاستقامه و الصبر مقابل تلك الحوادث و المصائب، و كانوا فى غايه التوكّل و تفويض الأمر إلى اللّطف الإلهي،فلذلك تعقّب الآيه ألاّ إنّ نَصَرَ اللهِ قَرِيبٌ .

(بأساء)من مادّه(بأس)و كما يقول صاحب معجم مقاييس اللّغه أنّها فى

الأصل تعنى الشده و أمثالها،و تطلق على كل نوع من العذاب و المشقه،و يطلق على الأشخاص الشجعان الذين يخوضون الحرب بضراوه و شده(بأيس)أو(ذو البأس).

و كلمه(ضراء)كما يقول الرّاعب فى مفرداته هى النقطه المقابله للسرّاء،و هى ما يسرّ الإنسان و يجلب له النفع،فعلى هذا الأساس تعنى كلمه ضراء كل ضرر يصيب الإنسان،سواء فى المال أو العرض أو النفس و أمثال ذلك.

جمله متى نَصِرُ الله قيلت من قبل النبى و المؤمنين حينما كانوا فى منتهى الشده و المحنه،و واضح أنّ هذا التعبير ليس اعتراضا على المشيئه الإلهيه،بل هو نوع من الطلب و الدعاء،و لذلك تبعته البشاره بالإمداد الإلهي.

و ما ذكره بعض المفسرين من احتمال أن تكون جمله(متى نصر الله)قيلت من طرف جماعه من المؤمنين،و جمله(ألا إنّ نصر الله قريب)قيلت من قبل النبى صلى الله عليه و آله و سلم بعيد جدّا.

و على ايه حال،فإنّ الآيه أعلاه تحكى أحد السنن الإلهيه فى الأقوام البشريه جميعا،و تنذر المؤمنين فى جميع الأزمنه و الأعصار أنّهم ينبغى عليهم لنيل النّصر و التوفيق و المواهب الاخرويّه أن يتقبلوا الصّعوبات و المشاكل و يبذلوا التضحيات فى هذا السبيل،و فى الحقيقه إنّ هذه المشاكل و الصّعوبات ما هى إلاّ إمتحان و تربيه للمؤمنين و لتمييز المؤمن الحقيقى عن المتظاهر بالإيمان.

و عباره الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ تقول للمسلمين:أنكم لستم الوحيدين فى هذا الطريق الذين ابتليتم بالمصائب من قبل الأعداء،بل أنّ الأقوام السّالفه ابتلوا أيضا بهذه الشدائد و المصائب إلى درجه أنّهم مسّتهم البأساء و الضراء حتّى استغاثوا منها.

و أساسا فإنّ رمز التكامل للبشريه أن يحاط الأفراد و المجتمعات فى دائره البلاء و الشدائد حتّى يكونوا كالفولاذ الخالص و تفتّح قابلياتهم الداخليه و ملكاتهم النفسائيه و يشتد إيمانهم بالله تعالى،و يتميّز كذلك المؤمنون و الصّابرون

عن الأشخاص الانتهازيين، ونختتم هذا الكلام بالحديث النبوي الشريف:

يقول (الخباب ابن الأرت) الذي كان من المجاهدين في صدر الإسلام: قال قلنا يا رسول الله ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه؛ ثم قال: والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه و كلكم يستعجلون» (١).

ص: ٩٧

---

١-١) - الدر المنثور: ج ١ ص ٢٤٣، تفسير الكبير: ج ٦ ص ٢٠.

اشاره

يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْأَقْرَبِينَ وَ الْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)

سبب النزول

(عمرو بن الجموح) شيخ ثري سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عما ينفق و لمن يعطى؟ فنزلت الآية (١).

التفسير

يتعرض القرآن الكريم في آيات عديده إلى الإنفاق و البذل في سبيل الله، و حث المسلمين بطرق عديده على الإنفاق و الأخذ بيد الضعفاء، و هذه الآية تتناول مسأله الإنفاق من جانب آخر، فتمه سائل عن نوع المال الذي ينفقه، و لذلك جاء تعبير الآية بهذا الشكل يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ .

ص: ٩٨

---

١- (١) - مجمع البيان: ج ١ ص ٣٠٩، كذلك تفسير روح المعاني: ج ٢ ص ٩١، و التفسير الكبير: ج ص ٢٣٢.



و فى الجواب بينت الآيه نوع الإنفاق، ثم تطرقت أيضا إلى الأشخاص المستحقين للنفقه، و سبب نزول الآيه كما مرّ يبين أنّ السؤال اتجه إلى معرفه نوع الإنفاق و مستحقّيه.

بشأن المسأله الاولى: ذكرت الآيه كلمه «خير» لتبين بشكل جامع شامل ما ينبغى أن ينفقه الإنسان، و هو كلّ عمل و رأسمال و موضوع يشتمل على الخير و الفائده للناس، و بذلك يشمل كلّ رأسمال مادى و معنوى مفيد.

و بالنسبه للمسأله الثانيه:- أى موارد الإنفاق- فتذكر الآيه أولا الأقربين و تخصّ الوالدين بالذكر، ثم اليتامى ثم المساكين، ثم أبناء السبيل، و من الواضح أنّ الإنفاق للأقربين- إضافه إلى ما يتركه من آثار تترتب على كلّ إنفاق- يوطد عرى القرابه بين الأفراد.

وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ

لعلّ فى هذه العبارة من الآيه إشاره إلى أنّه يحسن بالمنفقين أن لا يصروا على اطلاع الناس على أعمالهم، و من الأفضل أن يسروا إنفاقهم تأكيدا لإخلاصهم فى العمل، لأنّ الذى يجازى على الإحسان عليهم بكلّ شىء، و لا يضيع عنده سبحانه عمل عامل من البشر.

**بحث**

**اشاره**

**التجانس فى السؤال و الجواب:**

ذهب البعض إلى أنّ مورد السؤال فى هذه الآيه عن الأشياء التى يجب الإنفاق منها، و لكنّ الجواب كان عن مصارف هذه النفقات و الصدقات، أى الأشخاص المستحقين لها، و ذلك بسبب أنّ معرفه موارد الصّرف أهم و أولى،

ص: ٩٩

و لكن هذا الفهم من الآيه اشتباه محض، لأن القرآن الكريم أجاب عن سؤالهم و كذلك بين موارد الإنفاق، و هذا من فنون الفصاحة و البلاغه بحيث يجب على السؤال و يضيف عليه بيان مسأله مهمه ضروريه.

و على أى حال فإن جمله **لَمَّا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ تَبَيَّنَ أَنَّ الْإِنْفَاقَ أَمْرٌ جَمِيلٌ وَ حَسَنٌ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَ يَسْتَوْعِبُ جَمِيعَ الْأُمُورِ الْحَسَنَةِ سِوَاءَ كَانَتْ فِي الْأَمْوَالِ أَوْ الْخِدْمَاتِ أَوْ الْمَوْضُوعَاتِ الْمَادِيَةِ أَوْ الْمَعْنَوِيَةِ.**

ثم أن كلمه (خير) ذكرت بصوره مطلقه أيضا، و تدلّ على أن المال و الثروه ليست شيئا مذموما بذاته، بل هي من أفضل وسائل الخير بشرط الاستفاده السليمه و الصحيحه منها.

و كذلك فإن التعبير بكلمه (خير) يمكن أن يكون إشاره إلى أن الإنفاق يجب أن يكون خاليا من كل أذى و منه بالنسبه إلى الأشخاص المعوزين حتى يمكن أن يطلق عليه كلمه (خير) بشكل مطلق.

اشاره

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)

التفسير

اشاره

التضحيه بالنفس و المال:

الآيه السابقه تناولت مسأله الإنفاق بالأموال، و هذه الآيه تدور حول التضحيه بالدم و النفس فى سبيل الله، فالآيتان يقترن موضوعهما فى ميدان التضحيه و الفداء، فتقول الآيه كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ .

التعبير بكلمه (كتب) إشاره إلى حتميه هذا الأمر الإلهي و مقطوعيته.

(كره) و إن كان مصدرا، إلا أنه استعمل هنا باسم المفعول يعنى مكروه، فالمراد من هذه الجملة أن الحرب مع الأعداء فى سبيل الله أمر مكروه و شديد على الناس العاديين، لأنّ الحرب تقترن بتلف الأموال و النفوس و أنواع المشقّات و المصائب، و أمّا بالنسبه لعشاق الشّهاده فى سبيل الحقّ و من له قدم راسخ فى المعركه

فالحرب مع أعداء الحقِّ بمثابة الشراب العذب للعطشان، ولا شكَّ في أنَّ حساب هؤلاء يختلف عن سائر الناس و خاصَّه في بدايه الإسلام.

ثمَّ تشير هذه الآيه الكريمة إلى مبدأ أساس حاكم في القوانين التكوينيَّة و التشريعيَّة الإلهيَّة و تقول: وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ .

و على العكس من تجنَّب الحرب و طلب العافيه و هو الأمر المحبوب لكم ظاهراً، إلاَّ أنه و عسىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ .

ثمَّ تضيف الآيه و فى الختام وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ فهنا يؤكِّد الخالق جلَّ و علا بشكل حاسم أنه لا ينبغي لأفراد البشر أن يحكِّموا أذواقهم و معارفهم فى الأمور المتعلِّقه بمصيرهم، لأنَّ علمهم محدود من كلِّ جانب و معلوماتهم بالنسبه إلى مجهولاتهم كقطره فى مقابل البحر، و كما أنَّ الناس لم يدركوا شيئاً من أسرار الخلقه فى القوانين التكوينيَّة الإلهيَّة، فتاره يهملون شيئاً و لا يعيرونه اهتماماً فى حين أنَّ أهميَّته و فوائده فى تقدِّم العلوم كبيره، و هكذا بالنسبه إلى القوانين التشريعيَّة فالإنسان لا يعلم بكثير من المصالح و المفاسد فيها، و قد يكره شيئاً فى حين أنَّ سعاده تكون فيه، أو أنه يفرح لشيء و يطلبه فى حين أنه يستبطن شقاوته.

فهؤلاء النَّاس لا- يحقَّ لهم مع الالتفات إلى علمهم المحدود أن يتعرضوا على علم الله اللامحدود و يعترضوا على أحكامه الإلهيَّة، بل يجب أن يعلموا يقيناً أنَّ الله الرَّحمن الرَّحيم حينما يشرِّع لهم الجهاد و الزكاه و الصوم و الحجَّ فكلُّ ذلك لما فيه خيرهم و صلاحهم.

ثمَّ إنَّ هذه الحقيقه تعمق فى الإنسان روح الانضباط و التسليم أمام القوانين الإلهيَّة و تؤدى إلى توسعه آفاق إدراكه إلى أبعد من دائره محيطه المحدود و تربطه

## ١- لماذا كان الجهاد مكروها

و هنا يمكن أن يطرح هذا السؤال و هو أن الجهاد الذى هو أحد أركان الشريعة المقدسه و الأحكام الإلهيه كيف أصبح مكروها فى طبع الإنسان مع أننا نعلم أن الأحكام الإلهيه امور فطريه و تتوافق مع الفطره، فالمفروض على الأمور المتوافقه مع الفطره أن تكون مقبوله و مطلوبه؟ فى الجواب عن هذا السؤال يجب الالتفات إلى هذه النقطة، و هى أن المسائل و الأمور الفطريه تتناغم و توافق مع طبع الإنسان إذا اقترنت بالمعرفه، مثلاً الإنسان يطلب النفع و يتجنب الضرر بفطرته، و لكن هذا يتحقق فى موارد أن يعرف الإنسان مصاديق النفع و الضرر و يتجنب الضرر بالنسبه له، فلو اشتبه عليه الأمر فى تشخيص المصداق و لم يميز بين الموارد النافعه من الضاره، فمن الواضح أن فطرته و نتيجه لهذا الاشتباه سوف تكره الأمر النافع، و العكس صحيح.

و فى مورد الجهاد نجد أن الأشخاص السطحيين لا يرون فيه سوى الضرب و الجرح و المصائب، و لهذا قد يكون مكروها لديهم و أما بالنسبه إلى الأفراد الذين ينظرون إلى أبعاد من هذا المدى المحدود فإنهم يعلمون أن شرف الإنسان و عظمته و افتخاره و حرّيته تكمن فى الإيثار و الجهاد، و بذلك يرحبون بالجهاد و يستقبلوه بفرح و شوق، كما هو الحال فى الأشخاص الذين لا يعرفون آثار الأدويه المرّه و المنفرّه، فهم فى أول الأمر يظهرون عدم رغبتهم فيها، إلا أنهم بعد أن يروا

تأثيرها الإيجابي في سلامتهم و نجاتهم من المرض، فحين ذاك يتقبلوا الدواء برحابه صدر.

## ٢- القانون الكلى

ما ورد فى الآيه الشريفه آنفا لا ينحصر بمسأله الجهاد و الحرب مع الأعداء، بل أن الآيه تكشف عن قانون كلى و عام، و هو أن الآيه تجعل من جميع الشدائد و المصاعب فى سبيل الله سهله و ميسوره و لذينه للإنسان بمقتضى قوله تعالى وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

فعلم الله تعالى و رحمته و لطفه لعباده يتجلى فى كل أحكامه المقدسه فيرى ما فيه نجاتهم و سعادتهم، و على هذا الأساس يستقبل المؤمنون هذه الأوامر و الأحكام الإلهيه فيعتبروها كالأدويه الشافيه لهم و يطبقونها بمنتهى الرضا و القبول.

ص: ١٠٤

اشاره

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكَ حَتَّى يَرْدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتِطَاعُوا وَمَنْ يَزِدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)

سبب النزول

قيل إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث سرية (١) من المسلمين وأمر عليهم عبد الله

ص: ١٠٥

١-١) -السريه:هى الحرب الإسلاميه التى لم يشترك فيها رسول الله(ص)،وقيل إنها مجموعه من الجيش تتكون من ٥ إلى ٣٠٠ رجل.

ابن جحش الأسدي- وهو ابن عمه النبي صلى الله عليه وآله وسلم- وذلك قبل بدر بشهرين، على رأس سبعة عشر شهرا من مقدم النبي المدينة، فانطلقوا حتى هبطوا نخله- وهي أرض بين مكة والطائف- فوجدوا بها عمرو بن الحضرمي في قافله تجاره لقريش في آخر يوم من جمادى الآخرة، وكانوا يرون أنه من جمادى وهو رجب- من الأشهر الحرم- فاختلف المسلمون أ يقتلون الحضرمي و يغنمون ماله، لعدم علمهم بحلول الشهر الحرام، أم يتركونه احتراما لحرمة شهر رجب، وانتهى بهم الأمر أن شدوا على الحضرمي فقتلوه و غنموا ماله، فبلغ ذلك كفار قريش فطفقوا يعيرون المسلمين و يقولون إن محمدا أحل سفك الدماء في الأشهر الحرم، فنزلت الآية الأولى.

ثم نزلت الآية الثانية حين سأل عبد الله بن جحش و أصحابه عما إذا كانوا قد أدركوا أجر المجاهدين في انطلاقتهم أو لا (١)؟!

## التفسير

### إشاره

### القتال في الأشهر الحرم:

كما مر بنا في سبب النزول و يشير إلى ذلك السياق أيضا فإن الآية الأولى تتصدى للجواب عن الأسئلة المرتبطه بالجهاد و الاستثناءات في هذا الحكم الإلهي فتقول الآية يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه ثم تعلن الآية حرمة القتال و أنه من الكبائر قل قتال فيه كبير أي إثم كبير.

و بهذا يمضى القرآن الكريم بجديده السنه الحسنه التي كانت موجوده منذ قديم الأزمان بين العرب الجاهليين بالنسبه إلى تحريم القتال في الأشهر الحرم

(١)

و السريه من «السرى» أى الشىء النفيس، و إنما سميت بذلك لأن أفرادها ممتازون. و قال المطرزي: السريه من «السرى» و هو المشى ليلا، لأن هذه المجموعه كانت تستتر بالليل في حركتها، و ذهب إلى ذلك أيضا ابن حجر في الملتقطات.

ص: ١٠٦



(رجب، ذى القعدة، ذى الحجة، محرم).

ثمّ تضيف الآية أنّ هذا القانون لا يخلو من الاستثناءات، فلا ينبغي السماح لبعض المجموعات الفاسده لاستغلال هذا القانون في إشاعه الظلم و الفساد، فعلى الرّغم من أنّ الجهاد حرام في هذه الأشهر الحرم، ولكنّ الصد عن سبيل الله و الكفر به و هتك المسجد الحرام و إخراج الساكنين فيه و أمثال ذلك أعظم إثما و جرما عند الله و صدّ عن سبيل الله و كُفْرُ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ إِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ (١).

ثمّ تضيف الآية بأنّ إيجاد الفتنة و السعى في إضلال الناس و حرفهم عن سبيل الله و دينه أعظم من القتل و الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ لِأَنَّ الْقَتْلَ مَا هُوَ إِلَّا جُنَايَهُ عَلَى جِسْمِ الْإِنْسَانِ، و الفتنة جنايه على روح الإنسان و إيمانه (٢)، ثمّ إنّ الآية تحذّر المسلمين أن لا يقعوا تحت تأثير الإعلان الجاهلى للمشركين، لأنهم لا يقنعون منكم إلا بترككم لدينكم إن استطاعوا و لَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا .

فينبغي على هذا الأساس أن تقفوا أمامهم بجزم و قوّه و لا- تعتنوا بوسوساتهم و أراجيفهم حول الأشهر الحرم، ثمّ تنذر الآية المسلمين و تحذّرهم من الارتداد عن دين الله و مَنْ يَزِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيُتِمِّتْ وَ هُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

فما أشدّ عقاب المرتد عن الإسلام، لأنّ ذلك يبطل كلّما قدّمه الفرد من عمل صالح و يستحقّ بذلك العذاب الإلهى الأبدى.

و من الواضح أنّ الأعمال الصّالحه لها آثار طيّبه فى الدنيا و الآخرة،

ص: ١٠٧

١- ١) - «صدّ» مبتدأ، «كفر» و «إخراج أهله» معطوف عليه، و «أكبر» خبرها و هو ما ذهب إليه الطبرسى فى «مجمع البيان» و القرطبي فى تفسير «الجامع».

٢- ٢) - قدمنا بحثا مفصلا عن معنى «الفتنة» فى ذيل الآية (١٩١) من هذه السوره المبحوثة.

و المرتدّون سوف يحرمون من هذه البركات بسبب ارتدادهم، مضافا إلى محو جميع معطيات الإيمان الدنيويّه للفرد حيث تنفصل عنه زوجته و تنتقل أمواله إلى ورثته فور ارتداده.

الآيه التاليه تشير إلى النقطه المقابله لهذه الطائفه، وهم المؤمنون المجاهدون و تقول: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

أجل، فهذه الطائفه التي يتحلّى أفرادها بهذه الصّيفات الثلاث المهمّه (الإيمان و الهجره و الجهاد) قد يرتكبون خطأ بسبب جهلهم و عدم اطلاعهم (كما صدر ذلك من عبد الله بن جحش الوارد في سبب النزول) إلا أنّ الله تعالى يغفر لهم زلّتهم بلطفه و رحمته . (١).

## بحث

## اشاره

## الإحباط و التكفير:

(حبط) في الأصل كما يقول الراغب في مفرداته بمعنى أنّ الحيوان قد يأكل كثيرا حتّى تنتفخ بطنه، و بما أنّ هذه الحاله تؤدّي إلى فساد الغذاء و عدم تأثيره الإيجابي في الحيوان استعملت هذه الكلمه بمعنى البطلان و ذهاب الأثر، و لذلك ورد في معجم مقاييس اللغه أنّ معنى هذه الكلمه هو البطلان، و من ذلك ما ورد في آيه (١٦) من سوره هود حيث أوردت هذه الكلمه مساوقه للبطلان أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

ص: ١٠٨

١ - ١) - أشرنا إلى معنى «المرتد الفطرى و الحلّى» في ذيل الآيه (١٠٦) من سوره النحل، و سيأتى الكلام عنه في ذيل الآيه (٨٩) من سوره آل عمران من هذا المجلد.

و أمّا (الإحباط) فكما يقول علماء العقائد و المتكلّمون أنّها تعنى إبطال ثواب الأعمال السابقه بسبب ارتكاب الذنوب اللاحقه، و يقابله «التكفير» بمعنى زوال العقوبات و آثار الذنوب السابقه بسبب الأعمال الصالحه بعد ذلك.

و هناك بحث بين علماء العقائد فى صحّه الإحباط و التكفير بالنسبه لثواب الأعمال الصالحه و عقوباتها و عقاب الأعمال الطالحه و المشهور بين المتكلّمين الإماميه كما يقول العلامه المجلسى هو بطلان الإحباط و التكفير، غايه الأمر إنهم يرون أنّ تحقق الثواب مشروط أن يستمر الإنسان على إيمانه فى الدنيا إلى النهايه، و العقاب مشروط كذلك بأن يرحل من هذه الدنيا بدون توبه، و لكنّ العلماء المعتزله يعتقدون بصحّه الإحباط و التفكير بالنظر إلى ظواهر بعض الآيات و الروايات (١).

و يرى الخواجه نصر الدين الطوسى فى كتاب (تجريد العقائد) بطلان القول بالإحباط، و استدللّ على ذلك بالدليل العقلى و النقلى، أما الدليل العقلى فهو أنّ الإحباط نوع من الظلم (لأنّ الشخص المذنب قلّت حسناته و كثرت ذنوبه سيكون بعد الإحباط بمنزله من لم يأت بعمل حسن إطلاقاً و هذا نوع من الظلم بحقه)، و أمّا الدليل النقلى فالقرآن يصرّح فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٢) (٣).

بعض علماء المعتزله مثل (أبو هاشم) ذهب إلى اقتران الإحباط و التكفير بشكل متوازن، بهذا المعنى أنه جمع بين العقاب و الثواب فى ميزان واحد و بعد حدوث الكسر و الانكسار بينهما يتمّ الحصول على النتيجة النهايه.

و لكنّ الحقّ هو أنّ الإحباط و التكفير من الأمور الممكنه، و لا تستلزم الظلم

ص: ١٠٩

١-١) -بحار الأنوار: ج ٥ ص ٣٣٢.

٢-٢) -الزلزله: ٧ و ٨.

٣-٣) -تجريد العقائد: ص ٣٢٧.

مطلقا، و تدل على ذلك الآيات و الروايات الصريحة، و الظاهر أنّ ما ذهب إليه المنكرون هو نوع من الالتباس اللفظي.

و توضيح ذلك: تاره يعمل الإنسان سنوات طويله بمشقه كبيره و ينفق رأس مال كثير، و لكنّه قد يخسر كلّ تلك الأفعال بخطأ بسيط، فهذا يعنى أنّ حسناته السابقه قد أحبطت، و على العكس من ذلك فيما لو كان قد خسر كثيرا فى السابق لارتكابه بعض الأخطاء و الحماقات، و لكنّه يجبر ذلك بعمل عقلائى واحد، فهذا نوع من أنواع التكفير (التكفير نوع من أنواع التغطيه و الجبران) و كذلك يصدق هذا الأصل فى المسائل المعنويه أيضا.

ص: ١١٠

## اشاره

يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْتَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)

## سبب النزول

قيل في سبب نزول الآيه الاولى أن جماعه سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن حكم الخمر الذي يذهب بالعقل، والميسر الذي يبذل المال، فنزلت الآيه.

و عن سبب نزول الآيه الثانيه فقد ورد في تفسير القمى عن إمام الصادق عليه السلام و في مجمع البيان عن ابن عباس أنه لما نزلت الآيه وَ لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (١) و الآيه إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَ سَيَصْلُونَ سَعِيرًا

ص: ١١١

تخلى الناس عن اليتامى، و عمد بعضهم على إخراج اليتيم من بيته، و أولئك المذنبون احتفظوا بهم فى بيوتهم عزلوا طعامهم عن طعام اليتيم، و جعلوا لا يجالسونهم على مائده و واحد و لا يستفيدون مما بقى من طعامهم، بل يحتفظون به له لوجبات اخرى، فإن فسد يلقونه، كل ذلك ليتخلصوا من أكل مال اليتامى، و اشتد ذلك على اليتامى و على من يرعاهم، فجاؤا إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يخبرونه بذلك، فنزلت الآية.

## التفسير

### إشارة

### الجواب على أربعة أسئلة:

الآية الاولى تجيب عن سؤالين حول الخمر و القمار يسألونك عن الخمر و الميسر .

(الخمر) فى اللغة بقول الراغب بمعنى الغطاء و كل ما يخفى شيئا وراءه هو (خمار) بالرغم من أن الخمار يستعمل فى الاصطلاح لغطاء الرأس بالنسبة للمرأة.

و فى معجم مقاييس اللغة ورد أن الأصل فى كلمه (الخمر) هو الدلاله على التغطية و الاختلاط الخفى و قيل للخمر خمر، لأنه سبب السكر الذى يغطى على عقل الإنسان و يسلبه قدره التمييز بين الحسنه و القبيح.

أما فى الاصطلاح الشرعى فيأتى (الخمر) بمعنى كل ما يع مسكر، سواء أخذ من العنب أو الزبيب أو التمر أو شىء آخر، بالرغم من أن الوارد فى اللغة أسماء مختلفه لكل واحد من أنواع المشروبات الكحوليه.

(الميسر) من مادّه (اليسر) و إنما سمى بذلك لأن المقامر يستهدف الحصول على ثروه بيسر و دون عناء.

ثم تقول الآية فى الجواب قل فيهما إثم كبير و منافع للناس و إثمهما أكبر من نفعهما .

ص: ١١٢

و مع الالتفات إلى أنّ المجتمع الجاهلي كان غارقاً في الخمر و القمار، و لذلك جاء الحكم بتحريمهما بشكل تدريجي و على مراحل، كما نرى من اللين و المداراه و الأسلوب الهادىء فى لحن الآيه إنّما هو بسبب ما ذكرناه.

فى هذه الآيه وردت مقايسه بين منافع الخمر و الميسر و أضرارهما و أثبتت أنّ ضررهما و إثمهما أكثر من المنافع، و لا شك أنّ هناك منافع مادّيّه للخمر و القمار أحياناً يحصل عليها الفرد عن طريق بيع الخمر أو مزاولة القمار، أى تلك المنفعه الخياليه التى تحصل من السكر و تخدير العقل و الغفله عن الهموم و الغموم و الأحزان، إلا أنّ هذه المنافع ضئيله جداً بالنسبه إلى الأضرار الأخلاقيه و الاجتماعيه و الصحيه الكثيره المترتبّه على هذين الفعلين.

و بناء على ذلك، فكلّ إنسان عاقل لا يقدم على الإضرار بنفسه كثيراً من أجل نفع ضئيل.

(الإثم) كما ورد فى معجم مقاييس اللغه أنّه فى الأصل بمعنى البطء و التأخر، و بما أنّ الذنوب تؤخر الإنسان عن نيل الدرجات و الخيرات، و لذلك أطلقت هذه الكلمه عليها، بل أنّه ورد فى بعض الآيات القرآنيه هذا المعنى بالذات من كلمه الإثم مثل و إذا قيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ (١) أى أنّ الغرور و المقامات الموهومه تؤخره عن الوصول إلى التقوى.

و على كلّ حال، فالمراد من الإثم هو كلّ عمل و شىء يؤثّر تأثيراً سلبياً فى روح و عقل الإنسان و يعيقه عن الوصول إلى الكمالات و الخيرات، فعلى هذا يكون وجود (الإثم الكبير) فى الخمر و القمار دليل على التأثير السلبى لهما فى وصول الإنسان إلى التقوى و الكمالات المعنويه و الإنسانيه التى سوف يأتى شرحها.

السؤال الثالث المذكور فى الآيه محلّ البحث هو السؤال عن الإنفاق فتقول الآيه وَ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ .

ص: ١١٣

(١ - ١) - البقره: ٢٠٦.

ورد في تفسير «الدر المنثور» في شأن نزول هذه العبارة من الآية عن ابن عباس أنّ المسلمين سألوا الرسول صلى الله عليه وآله و سلم عند نزول آيات الحثّ على الإنفاق: ماذا ينفقون؟ أ ينفقون كلّ أموالهم أم بعضها؟ فنزلت الآية لتأمر برعايه (العفو) (١).

و لكن ما المراد من «العفو» في الآية؟ (العفو) في الأصل - كما يقول الزاغب في المفردات - بمعنى القصد إلى أخذ شيء، أو بمعنى الشيء الذي يؤخذ بسهولة، و بما أنّ هذا المعنى واسع جدًا و يطلق على مصاديق مختلفه منها: المغفره و الصفح و إزاله الأثر الحد الوسط بين شيئين.

المقدار الإضافي لشيء. و أفضل جزء من الثروه. فالظاهر أنّ المعنى الأوّل و الثاني لا يتناسب مع مفهوم الآية، و المراد هو أحد المعاني الثلاثه المتأخّره، يعنى رعايه الحد الوسط في الإنفاق، أو إنفاق المقدار الزائد عن الحاجه، أو إنفاق القسم الجيد للأموال و عدم بذل الحصّه الرخيصه و العديمه النفع من المال.

و هذا المعنى وارد أيضا في الروايات الإسلاميه في تفسير هذه الآية،

و قد ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: العفو الوسط

(٢)

(أى أنّ المراد من العفو في الآية أعلاه هو الحد الوسط).

و ورد في تفسير على بن إبراهيم (لا إقتار و لا إسراف)

(٣)

و

في مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السّلام (العفو ما فضل عن قوت السنه) (٤).

و يحتمل أيضا أن يكون العفو في الآية (و إن لم أجده في كلمات المفسّرين) هو المعنى الأوّل، أى الصفح عن أخطاء الآخرين، و بذلك يكون معنى الآية الكريمة: أنفقوا الصفح و المغفره فهو أفضل الإنفاق.

و لا يبعد هذا الاحتمال لو أخذنا بنظر الاعتبار أوضاع شبه جزيره العرييه

ص: ١١٤



٢-٣-٢) -نور الثقلين:ج ١ ص ٢١٠.

٣-٣-٤) -مجمع البيان:ج ١ ص ٣١٦.

-٤

عامّه و خاصّه مكّه و المدينة محل نزول القرآن من حيث هيمنه روح التنافر و العداة و الحقد بين الناس، و خاصّه أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم هو النموذج الكامل لهذا المعنى، كما أعلن العفو العام عن مشركى مكّه الذين هم أشدّ الناس عداوه للإسلام و المسلمين، و الجواب بهذا المعنى لا يتنافى مع سؤالهم بشأن الإنفاق المالى، لأنّهم قد يسألون عن موضوع كان ينبغي أن يسألوا عن أهم منه، و القرآن يستثمر فرصه سؤالهم المعبر عن استعدادهم للسّماع و القبول ليجيبهم بما هو أهم و ألزم، و هذا من شؤون الفصاحة و البلاغه حيث يترك سؤالهم ليتناول موضوعا أهم. و لا يوجد تعارض بين هذه التفاسير، فيمكن أن تكون مراده بأجمعها من مفهوم الآية.

و أخيرا يقول تعالى فى ختام الآية: كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ .

و يذكر بدون فصل فى الآية التالىة المحور الأصلي للتفكر و يقول فى الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ .

أجل، يجب أن تكون جميع نشاطات الإنسان الماديّه و المعنويّه فى الحياه مشفوعه بالفكر و التدبّر، و يتّضح من هذه العبارة أمران:

الأوّل: إنّ الإنسان إضافه إلى وجوب التسليم أمام أوامر الله يجب أن يطيع هذه الأوامر عن تفكّر و تعقل لا عن اتّباع أعمى، و بعبارة اخرى على الإنسان المؤمن أن يعى أسرار الأحكام و روحها ليس فقط فى مجال تحريم الخمر و القمار، بل فى جميع المجالات و لو إجمالاً.

و لا- يعنى هذا الكلام أنّ إطاعه الأحكام الإلهيّه مشروطه بإدراك فلسفتها و حكمتها، بل المراد أنّ الإنسان يجب عليه بموازاه الطّاعة العمليّه أن يسعى إلى فهم أسرار و روح الأحكام الإلهيّه.

الثانى: إنّ على الإنسان أن لا يحصر تفكيره فى عالم المادّه وحده أو عالم

المعنى وحده، بل عليه أن يفكر في الإثنين معاً، لأنّ الدنيا والآخرة مرتبطتان و كلّ خلل في أحدهما يخلّ بالآخر، و أساساً لا يمكن أن يؤدي أحدهما إلى رسم صورته صحيحه عن الواقعيّات في هذا العالم، لأنّ كلّاً منهما هو قسم من هذا العالم، فالدنيا هي القسم الأصغر و الآخرة القسم الأعظم، فمن حصر فكره في أحدهما فإنّه لا يمتلك تفكيراً سليماً عن العالم.

ثمّ تذكّر الآيه السّؤال الرابع و جوابه و تقول: **وَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ (١)**.

و على هذا الأساس فالقرآن يوصي المسلمين بعدم إهمال اليتامى، فإنّ الإعراض عن تحمّل مسؤوليتهم و تركهم و شأنهم أمر مذموم، فالأفضل أن يتقبّلوا المسؤوليّة و يصلحوا أمر اليتامى و إن اختلطت معيشتهم بمعيشتكم فعاملوهم معامله الأخ لأخيه، فلا حرج في الاختلاط بالأموال إذا كان الدافع هو الإصلاح.

ثمّ تضيف الآيه **وَ اللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ أَجَلٍ**، إنّ الله مطلع على نياتكم و يعلم من يقصد السوء بالاستفاده من أموال اليتامى ليحيف عليهم و من هو مخلص لهم.

و الفقرة الأخيرة من الآيه تؤكد بأنّ الله تعالى قادر على أن يضيق و يشدّد عليكم برعايه اليتامى مع فصل أموالهم عن أموالكم، لكنّ الله لا يفعل ذلك أبداً، لأنّه عزيز و حكيم، و لا داعي لأن يضيق على عباده **وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢)**.

ص: ١١٦

١-١ - جملة شرطيه، فيها محذوف و تقديره «لا بأس به» أو «فلكم ذلك».

٢-٢ - «اعتنكم» من ماده «عنت» و في الأصل بمعنى الوقوع في أمر مخوف، و على قول مقاييس اللغة أنه يعنى كلّ أمر شاق. و عبارته «فإخوانكم» بمثابه الدليل على ذلك.

## ١- الترابط بين الأحكام الأربعة

رأينا أنّ الآيتين أعلاه ذكرتا أربعة مسائل عن الخمر و القمار و الإنفاق و الأيتام مع أجوبتها، و يمكن أن يكون ذكر هذه الأسئلة و الأجوبة الأربعة مع بعضها لأنّ الناس كانوا مبتلين بهذه المسائل واقعا، و لذلك كانوا يسألون الرسول صلى الله عليه و آله و سلّم هذه الأسئلة تباعا (مع الالتفات إلى أنّ يسألونك فعل مضارع و يدلّ على الاستمرار).

و يحتمل أنّ هذه المسائل ترتبط مع بعضها باشتراكها في الأمور المائيّة فالخمر و القمار هما سبب لتلف الأموال و الإنفاق على العكس من ذلك سبب لنماء الأموال، و أمّا مسئوليّه اليتامى فيمكن أن تكون مفيدة أو مخزّبه.

و الآخر أنّ: الإنفاق له جنبه عموميّه شامله و جنبه اخرويّه، و الخمر و القمار لهما طابع شخصي و مادّي مخزّب و إصلاح أمر اليتامى له جنبتين عموميّه و خصوصيّة، و بهذا الترتيب يكون مصداق للتفكّر في الدنيا و الآخرة، و من هنا يتّضح الارتباط الوثيق بين الخمر و القمار، لأنّ كلّا منهما يؤدّي إلى تلف الأموال و فساد المجتمع و انتشار الأمراض البدنيّه و الروحيّه.

## ٢- أضرار المشروبات الكحولية

ألف: أثر الكحول في العمر ذكر أحد علماء الغرب المشهورين أنه لو كان عدد الوفيات بين الشباب المدمنين البالغه أعمارهم بين ٢١ إلى ٢٣ سنة يصل إلى ٥١ شابا، فإنّ عدد الوفيات من غير المدمنين في تلك الأعمار لا يبلغ ١٠ أشخاص.

و قال عالم مشهور آخر: الشباب في سنّ العشرين الذين يتوقّع أن تطول

أعمارهم إلى خمسين عاما، لا يعمرّون بسبب معاقرة الخمره أكثر من خمسة و ثلاثين عاما.

التجارب التي أجرتها شركات التأمين على الحياه أثبتت أنّ أعمار المدمنين على الكحول أقلّ من أعمار غيرهم بنسبه ٢٥-٣٠ بالمائه.

و تذكر إحصائيات أخرى أنّ معدّل أعمار المدمنين على الكحول يبلغ حوالى ٣٥-٥٠ سنه، بينما معدّل العمر الاعتيادى مع رعايه القواعد الصحيه يبلغ ستين عاما فصاعدا.

ب: أثر الكحول على النسل ٣٥ بالمائه من عوارض الإدمان الحادّه تنتقل إلى الوليد إذا كان أبوه-حين انعقاد النطفه-سكرانا، وإن كان الوالدان سكرانين فتر تفع نسبه هذه العوارض إلى مائه فى المائه. و هذه إحصائيات تبين آثار الإدمان على الجنين:

الأطفال الذين ولدوا قبل موعد ولادتهم الطبيعى: من أبوين مدمنين ٤٥ بالمائه. و من أمّ مدمنه ٣١ بالمائه. و من أب مدمن ١٧ بالمائه.

الأطفال الذين ولدوا و هم لا يحملون مقومات استمرار الحياه: من أب مدمن ٦ بالمائه، و من أمّ مدمنه ٤٥ بالمائه.

الأطفال الذين لا يتمتّعون بطول طبيعى: من والدين مدمنين ٧٥ بالمائه، و من أمّ مدمنه ٤٥ بالمائه.

و أخيرا الأطفال الذين يفتقدون القوّه العقليه و الروحيه الكافيه: من أمّهات مدمنات ٧٥ بالمائه، و من آباء مدمنين ٧٥ بالمائه أيضا.

ج: أثر الكحول فى الأخلاق العاطفه العائليه فى الشخص المدمن تضعف، و يقلّ انشداده بزوجه و أبنائه، حتّى يحدث أن يقدم المدمن على قتل أبنائه بيده.

د:أضرار الكحول الاجتماعيه حسب الاحصائيه التي نشرها معهد الطب القانونى فى مدينه(نيون)عام ١٩٦١، كانت الجرائم الاجتماعيه للمدمنين على النحو التالى:

القتله: ٥٠ بالمائه،المعتدون بالضرب و الجرح بين المدمنين:٨،٧٧ بالمائه، السرقات بين المدمنين:٥،٨٨ بالمائه،الجرائم الجنسيه المرتبطه بالمدمنين:

٨،٨٨ بالمائه.هذه الإحصائيات تشير إلى أنّ الأكتريه الساحقه من الجرائم ترتكب فى حاله السكر.

ه:الأضرار الاقتصايه للمشروبات الكحوليه أحد علماء النفس المشهورين يقول:من المؤسف أنّ الحكومات تحسب ما تدر عليها المشروبات الكحوليه من ضرائب،و لا تحسب الميزانيه الضخمه التى تنفق لترميم مفاسد هذه المشروبات.فلو حسبت الحكومات الأضرار الناتجه من المشروبات الكحوليه،مثل زياده الأمراض الروحيه،و إهدار الوقت و الاصطدامات الناتجه عن السكر،و فساد الجيل،و انتشار روح التفاعس و التحلل،و التخلف الثقافى،و المشاكل التى تواجه رجال الشرطه و دور الحضانه المخصّصه لرعايه أبناء المخمورين،و ما تحتاجه جرائم المخمورين من مستشفيات و أجهزه قضائيه و سجون، و غيرها من الخسائر و الأضرار الناتجه عن تعاطى الخمر،و قارنت هذه الخسائر بما تحصل عليه من ضرائب على هذه المشروبات لوجدت أنّ الأرباح تكاد تكون تافهه أمام الخسائر،هذا إضافة إلى أنّ الخسائر المؤسفه الناتجه عن المشروبات الكحوليه لا يمكن حسابها بالدولار، لأنّ موت الأعزّاء و تشتت العوائل و تبدّد الآمال و فقدان الأدمغه المفكّره لا يمكن حسابه بالمال.

أضرار المشروبات الكحوليه فظيعه للغاية،حتّى أنّ أحد العلماء قال:لو أنّ

الحكومه ضمنت لى غلق حانات الخمر لضمنت لها غلق نصف المستشفيات و دور المجانين.

مما تقدم يتضح بجلاء معنى الآيه الكريمه بشأن الخمر، فلو كان فى الخمره فائده تجاريه، و لو كان السكران يحسب لحظات غفلته عن عمومه أثناء السكر فائده له، فإنّ الأضرار التى تترتب عليها أكثر بكثير و أوسع دائره و أبعد مدى من فوائدها، حتى لا يمكن المقارنه بين الاثنين.

٣- آثار القمار المشؤومه أضرار القمار لا تخفى على أحد، و لمزيد من التوضيح نذكر باختصار جانباً من المآسى المترتبه على هذه الظاهره الخطره:

الف: القمار أكبر عوامل الهياج و الانفعال يجمع علماء النفس على أنّ الهياج هو النفسى هو العامل الأساسى فى كثير من الأمراض، مثل: نقص الفيتامينات، و قرحة المعده، و الجنون، و الأمراض العصبية و النفسية الخفيفه و الحاده. و القمار أكبر عامل على إثارة الهياج، حتى أنّ عالماً أمريكياً يقول: فى أمريكا يموت ألفاً شخص سنوياً نتيجة هياج القمار، و قلب لاعب البوكر «نوع من القمار» تزيد عدد ضرباته على مائه ضربه فى الدقيقه، و قد يؤدى القمار إلى سكتة قلبيه و دماغية أيضاً، و من المؤكّد أنّه يدفع إلى شيخوخه مبكره.

إضافه إلى ما سبق فإنّ المقامر - كما يقول العلماء - يصاب بتوتر روحى، بل أنّ جميع أجهزه جسمه تصاب بحاله استثائيه، كأن يزداد ضربان القلب و تزداد نسبه السكر فى الدم، و يختلّ ترشح الغدد الداخليه، و يشحب لون الوجه، و تقلّ الشهيه، و يمرّ المقامر بعد اللعب بفترة حرب أعصاب و حاله أزمه نفسيه، و قد يلجأ

إلى الخمر و المخدرات لتهده أعصابه، فيزيد في الطين بله و تتضاعف بذلك أضرار القمار.

و يقول عالم آخر: المقامر إنسان مريض يحتاج إلى إشراف مريض يحتاج إلى إشراف نفسى مستمر، و يجب تفهيمه بأن الفراغ الروحي هو الذى يدفعه لهذا العمل الشنيع، كى يتجه لمعالجه نفسه.

ب: علاقه القمار بالجرائم إحدى مؤسسات الإحصاء الكبرى ذكرت: أن ٣٠ بالمائه من الجرائم ناتجه مباشره عن القمار، و ٧٠ بالمائه من الجرائم ناتجه بشكل غير مباشر عن القمار أيضا.

ج: الأضرار الاقتصادية للقمار الملايين بل المليارات من ثروات الأفراد تبدد سنويات على هذا الطريق، إضافة إلى المقدار الهائل من الوقت و من الطاقات الإنسانيه.

و جاء فى أحد التقارير: فى مدينه «مونت مونت كارلو» حيث توجد أكبر دور القمار فى العالم، خسر شخص خلال مدّه ١٩ ساعه من اللعب المستمر أربعة ملايين دولار، و حين أغلقت دار القمار اتجه مباشره إلى الغابه، و انتحر بإطلاق رصاصه على رأسه، و يضيف التقرير: أن غابات «مونت كارلو» تشهد باستمرار انتحار مثل هؤلاء الخاسرين.

د: الأضرار الاجتماعيه للقمار القمار يصد أصحابه عن التفكير بالعمل الجادّ الإنتاجى المثمر فى الحقل الاقتصادى، و يشدهم دائما إلى أمل الحصول على ثروه طائله بدون عناء عن طريق القمار، و هذا يؤدى إلى إهدار الطاقات الإنتاجيه لهؤلاء المقامرين و بالتالى إلى ضعف الإنتاج على قدر نسبتهم.



المقامرون و عوائلهم يعيشون عادة حياه طفيليه فى الجانب الاقتصادى و لا ينتجون، بل يجنون ثمار الآخرين، و قد يضطرون فى حالات الإفلاس إلى السرقة.

أضرار القمار فادحه إلى درجه دفعت حتى بعض البلدان غير الإسلاميه إلى إعلان منعه، كما حدث فى بريطانيا عام ١٨٥٣، و أمريكا عام ١٨٥٥، و الاتحاد السوفيتى عام ١٨٥٤، و المانيا عام ١٨٧٣.

و لا بأس أن نشير فى الخاتمه إلى إحصائيه أجراها بعض المحققين تذكر أنّ القمار وراء ٩٠ بالمائه من السرقات، و ١٠ بالمائه من المفاسد الخلقيه، و ٤٠ بالمائه من الاعتداءات بالضرب و الجرح، و ١٥ بالمائه من الجرائم الجنسيه، و ٣٠ بالمائه من الطلاق، و ٥ بالمائه من عمليات الانتحار.

لو أردنا أن نعرّف القمار تعريفا شاملا علينا أن نقول: إنه إهدار للمال و الشرف، للحصول على أموال الآخرين بالخدعه و التزوير، و للترويج عن النفس أحيانا، ثمّ عدم الحصول على كلا الهدفين.

استعرضنا الأضرار الفادحه المترتبه على «الخمير و الميسر»، و تلزم الإشاره إلى مسأله أخرى فى هذا المجال و هى سبب إشاره الآيه الكريمه إلى منافع الخمير و الميسر، عند ما تعرّضت إلى ذمهما، بينما نعلم أن منافعهما تافهه بالنسبه إلى أضرارهما.

قد يكون السبب هو أنّ سوق الخمير و القمار كانت رائجه فى الجاهليه مثل عصرنا هذا، و لو لم تشر الآيه إلى مسأله المنافع لظنّ ذووا الأفق الفكرى الضيق أنّ القرآن تناول المسأله من جانب واحد.

أضف إلى ما سبق أن أفكار الإنسان تدور عادة حول محور المنفعه و الضرر،

و تجب الاستفادة من هذا المنطق لإنقاذ الفرد من المفاصد الأخلاقية الكبرى.

و الآيه تجيب ضمناً على بعض أقوال الأطباء بشأن إمكان الاستفادة من المشروبات الكحولية لمعالجه قسم من الأمراض، و تؤكد أنّ الأضرار المترتبة عليها أكبر بكثير من نفعها، أى إذا كان لها أثر إيجابى على الشفاء من مرض معين، فإنها منشأ لأمراض خطره اخرى، و قد تكون هذه الحقيقه هى التى تشير إليها الروايات القائله: إن الله لم يجعل الشفاء فى الخمر.

٤- الاعتدال فى مسأله الإنفاق بالرغم من أنّ الإنفاق من أهم المسائل أكد عليها الإسلام و القرآن الكريم إلا أنه لم يتركها بدون حساب لتؤدى إلى الإفراط الشديد بحيث تشلّ حياه الإنسان، فالآيه محل البحث ناظره إلى هذا المعنى كما ذهب إليه بعض المفسّرون، و يمكن أن تكون إشاره إلى أنّ بعض الأشخاص يتذرّعون باحتياجاتهم الشخصيه للتخلّص من هذا الحكم الإسلامى المهم، فالقرآن الكريم يقول: أنكم تتمتعون فى الحياه بالكثير من الأمور الزائده عن الحاجه فعليكم بانتخاب مقدار منها و إنفاقه.

٥- التفكّر فى كلّ شىء جمله لعلكم تتفكّرون فى الدُّنيا و الآخِرَه عباره عن درس مهم للمسلمين فى أنّهم لا يخوضون فى جميع أمورهم الماديه و المعنويه بدون تفكّر و تدبّر حتّى تبين الآيات الإلهيه إلى الناس لبعث روح التفكّر و التدبّر فيهم، فما أسوأ حال الأشخاص الذين لا يتفكّرون فى أمورهم و أعمالهم الدنيويه و لا فى أعمالهم الدنيويه.

اشاره

وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَّهُ مُؤْمِنَهُ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكِهِ وَ لَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَ لَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَ الْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَ يُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)

سبب النزول

نزلت في «مرشد الغنوى» بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى مكة ليخرج منها جماعه من المسلمين. وكان قويا شجاعا، فدعته امرأه يقال لها «عناق» إلى نفسها، فأبى و كانت صديقتة في الجاهليه، فقالت له: هل لك أن تتزوج بي؟ فقال: حتى استأذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلما رجع استأذن في التزويج بها، فنزلت الآيه تنهى عن الزواج بالمشركات حتى يؤمن.

التفسير

اشاره

حرمه الزواج مع المشركين:

هذه الآيه و طبقا لسبب النزول المذكور أعلاه بمثابة جواب عن سؤال آخر

حول الزواج مع المشركين فتقول وَ لَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ ثُمَّ تضيف مقاييسه وجدائيه فتقول وَ لَمَّا مَهْ مُؤْمِنَهُ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكِهِ وَ لَوْ أَعْجَبْتُمْكُمْ .

فصحيح أنّ نكاح الجوارى و خاصه الجوارى اللاتى ليس لهنّ مال و لا جمال غير محبّب فى عرف الناس و لا محمود لا سيّما إذا كانت هناك امرأه مشركه فى مقابل ذلك تتمتع بجمال و ثروه مادّيه، و لكنّ قيمه الإيمان تجعل الكفّه تميل لصالح الجوارى، لأنّ الهدف من الزواج ليس هو اللذّه الجنسيه فقط، فالمرأه شريكه عمر الإنسان و مربّيه لأطفاله و تشكّل قسما مهمّما من شخصيته، فعلى هذا الأساس كيف يصحّ استقبال الشرك و عواقبه المشؤومه لاقترانه بجمال ظاهرى و مقدار من الأموال و الثروه.

ثمّ أنّ الآيه الشريفة تقرّر حكما آخر و تقول وَ لَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَ لَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكُمْ .

و بهذا الترتيب منع الإسلام من زواج المرأه المؤمنه مع الرجل المشرك كما منع نكاح الرجل المؤمن من المرأه المشركه حتّى أنّ الآيه رجحت العبد المؤمن أيضا على الرجال المشركين من أصحاب النفوذ و الثروه و الجمال الظاهرى، لأنّ هذا المورد أهم بكثير من المورد الأوّل و أكثر خطوره، فتأثير الزوج على الزوجه أكثر عاده من تأثير الزوجه على زوجها.

و فى ختام الآيه تذكر دليل هذا الحكم الإلهى لزياده التفكّر و التدبّر فى الأحكام و تقول أُولَئِكَ - أى المشركين - يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَ الْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ثُمَّ تضيف الآيه وَ يُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

**بحوث**

**إشاره**

### **١- الحكمه فى تحريم نكاح المشركين**

كما رأينا فى الآيه مورد البحث أنّها تبين الغرض و الحكمه من هذا التحريم

ص: ١٢٥

بجمله قصيره، و لو أننا توغلنا في المراد منها يتضح: أن الزواج هو الدعامه الأساسيه لتكثير النسل و تربيته أولاد و توسعه المجتمع و أن المحيط العائلي مؤثر جدًا لتربيته الأولاد، هذا من جهه.

و من جهه اخرى التأثير الحتمى للوراثه على أخلاق الأولاد و سلوكهم، فالطفل يتربى في أحضان الاسره منذ تولده و ينمو و يتعرع تحت رعايه امه و أبيه غالباً، و هذه المرحله هي المرحله الحساسه في تكوين شخصيه الطفل.

و من جهه ثالثه أن الشرك هو المصدر الأساس لأنواع الانحرافات، و في الحقيقه هو النار المحرقه في الدنيا و الآخره، و لذلك فالقرآن الكريم لا يبيح للمسلمين أن يلقوا بأولادهم في هذا النار. مضافاً إلى أن المشركين العذبن هم بالحقيقه أجانب عن الإسلام و المجتمع الإسلامى سوف ينفذون إلى مفاصل المجتمع الإسلامى و بيوت المسلمين من هذا الطريق، فيؤدى ذلك إلى تنامى قدره الأعداء فى الداخلى و الفوضى السياسيه و الاجتماعيه فى أوساط المجتمع، و هذا الحال إنما يكون فى ما لو أصرّ المشركون على شركهم، و لكنّ الباب مفتوح أمامهم فيامكانهم اعتناق الإسلام و الانخراط فى صفوف المسلمين و بذلك يستطيعون الزواج من أكفائهم المسلمين.

كلمه (النكاح) وردت فى اللغه فتاره بمعنى المقاربه الجنسيه، و اخرى بمعنى عقد الزواج، و المراد هنا فى هذه الآيه هو الثانى، أى عقد الزواج بالرغم من أن الراغب فى المفردات يقول: (النكاح) فى الأصل بمعنى العقد، ثم استعمل مجازاً فى العمليه الجنسيه.

## ٢- حقيقه المشركين

مفرده (المشرك) تطلق غالباً فى القرآن الكريم على من يعبد الأوثان، و لكنّ

بعض المفسرين ذهب إلى أنّ المشرك يشمل سائر الكفار كاليهود والنصارى والمجوس (و بشكل عام أهل الكتاب) أيضا، لأنّ كلّ واحد من هذه الطوائف يعتقد بوجود شريك للبارى عزّ وجلّ، فالنصارى يعتقدون بالتثليث، والمجوس يذهبون إلى الثنويّه وأنّ ربّ العالم هو مزدا وأهريمن، واليهود يرون أنّ «عزير» ابن الله.

ولكن بالرغم من أنّ هذه الاعتقادات الباطله موجهه للشرك إلا أنّ الآيات الشريفه التي تتحدّث عن المشركين في مقابل أهل الكتاب ومع الأخذ بنظر الإعتبار أنّ اليهود والنصارى والمجوس يرتكزون في أساس ديانتهم على النبوات الحقه و الكتب السماويه فيتّضح أنّ منظور القرآن الكريم من المشرك هو عبّاد الوثن.

وقد ورد في الحديث النبوي المعروف في ضمن وصايا متعدّده (أخرجوا المشركين من جزيره العرب) وهو شاهد على هذا المدعى، لأنّ من المسلم أنّ أهل الكتاب لم يخرجوا من جزيره العرب، بل بقوا هناك يعيشون جنبا إلى جنب مع المسلمين بعنوان أقلية دينيه، و يلتزمون بما أمر به القرآن الكريم من أداء الجزية إلى المسلمين.

### ٣- هل نسخت هذه الآيه؟

ذهب بعض المفسرين إلى أنّ حكم الآيه أعلاه قد نسخ و النسخ له الآيه الشريفه وَ الْمُحْصِنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ (١)

و قد نشأ هذا التصور من الإعتقاد أنّ الآيه مورد البحث قد حرّمت الزواج مع

ص: ١٢٧

جميع الكفار، فعلى هذا تكون الآية (٥) من سورة المائدة التي أجازت الزواج من كفار أهل الكتاب ناسخه لهذا الحكم (أو مخصّصه له) ولكن مع ملاحظه ما ذكرناه من تفسير الآية يتضح أنّ نظر هذه الآية خاص بالزواج من المشركين وعباد الأوثان لا كفار أهل الكتاب كاليهود والنصارى (و طبعاً في مورد الزواج من كفار أهل الكتاب هناك قرائن في الآية و ما ورد من الأحاديث عن أهل البيت عليهم السلام أنّ المراد هو الزواج الموقت).

#### ٤- تشكيل العائلة و الدقه في الأمر

أشار بعض المفسرين المعاصرين إلى نكته ظريفه في هذه الآية، وهي أنّ هذه الآية و (٢١) آية أخرى تأتي بعدها تبين الأحكام المتعلقة بتشكيل الأسرة في أبعادها المختلفه، و في هذه الآيات بين القرآن الكريم اثني عشر حكماً شرعياً:

١- حكم الزواج مع المشركين. ٢- تحريم الاقتراب من الزوجه في حال الحيض، ٣- حكم القسم بعنوان مقدّمه للإيلاء (المراد من الإيلاء هو أن يقسم الإنسان أن لا يجامع زوجته)، ٤- حكم الإيلاء و يتبعه حكم الطلاق، ٥- عدّه المرأة المطلّقه، ٦- عدد الطلقات، ٧- إبقاء الزوجه بالمعروف أو تركها بالمعروف، ٨- حكم الرضاع، ٩- عدّه المرأة المتوفى زوجها (الأرملة)، ١٠- خطبه المرأة قبل تمام عدتها، ١١- مهر المرأة المطلّقه قبل الدخول، ١٢- حكم الهدية للمرأة بعد وفاه زوجها أو طلاقها منه.

و هذه الأحكام مع مجمل الإرشادات الأخلاقيه في هذه الآيات تبين أنّ مسأله تشكيل الأسرة هو نوع من العباده لله تعالى و يجب أن يكون مقرونا بالتفكر و التدبّر (١).

ص: ١٢٨

اشاره

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣)

سبب النزول

للنساء عاده شهريه تستمر بين ثلاثه إلى عشره أيام. و خلالها يخرج من رحم المرأة دم ذو أوصاف خاصه مذكوره في كتب الفقه. و المرأة في هذه الحاله تكون حائضا، و موقف الديانتين اليهوديه و النصرانيه الحاليتين من المرأة الحائض متناقض يثير الاستغراب.

جمع من اليهود قالوا: إنَّ معاشره المرأة الحائض حرام حتَّى المجالسه على مائده الطعام أو في غرفه واحده. و يذهبون إلى حظر جلوس الرجل في المكان الذي تجلس فيه الحائض، و إن فعل ذلك تنجست ملابسه و عليه أن يغسلها، و إن



رقد معها على سرير واحد تنجس بدنه و لباسه، فهم يعتبرون المرأة في هذه الحالة موجودا مدنسا يلزم اجتنابه.

و مقابل هؤلاء يذهب النصارى إلى عدم التفريق بين حالة الحيض و الطهر في المرأة، حتى بالنسبة للجماع.

المشركون العرب، و خاصه أهل المدينه منهم، كانوا متأثرين بالنظرة اليهوديه، و يعاملون المرأة الحائض على أساسها، فينفصلون عنها خلال مدّه الحيض. و هذا الاختلاف في المواقف و ما يصحبه من إفراط و تفريط دفع ببعض المسلمين لأن يسأل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عن ذلك، فنزلت الآيه.

## التفسير

### اشاره

### أحكام النساء في العاده الشهرية:

في الآيه الأولى نلاحظ سؤال آخر عن العاده الشهرية للنساء، فتقول الآيه:

وَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى

و تضيف بلا فاصله فَأَعْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَ لَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ... .

(المحيض) مصدر ميمي و يعنى العاده الشهرية للنساء، و جاء في معجم مقاييس اللغة أنّ أصل هذه المفردة تعنى خروج سائل أحمر من شجره تدعى «سمره» (ثم استعملت للعاده الشهرية للنساء) و لكن ورد في تفسير «الفخر الرازى» أنّ الحيض في الأصل بمعنى السيل و لذلك يقال للسيل عند حدوثه (حاض السيل) و يقال للحوض هذه اللفظه بسبب أنّ الماء يجرى إليه.

و لكن استفاد من كلمات الرّاغب في المفردات عكس هذا المطلب و أنّ هذه المفردة في الأصل تعنى دم الحيض (ثم استعملت في المعانى الاخرى).

فعلى كلّ حال فهذه العبارة تعنى دم الحيض الذى عرّفه القرآن بأنّه أذى، و في

الحقيقه أنّ هذه العبارة تبين عله اجتناب الجماع فى أيام الحيض، فهو إضافة إلى ما فيه من اشمئزاز، ينطوى على أذى و ضرر ثبت لدى الطب الحديث، و من ذلك احتمال تسبب عقم الرجل و المرأة، و إيجاد محيط مناسب لتكاثر جراثيم الأمراض الجنسيه مثل السفلس و التهابات الأعضاء التناسليه للرجل و المرأة، و دخول مواد الحيض المليئه بمكروبات الجسم فى عضو الرجل، و غير ذلك من الأضرار المذكوره فى كتب الطب، لذلك ينصح الأطباء باجتناى الجماع فى هذه الحاله.

خروج دم الحيض يعود إلى احتقان الرحم و تسلخ جداره، و مع هذا الاحتقان يحتقن المبيض أيضا، و دم الحيض فى البدايه يكون متقطعاً باهت اللون ثم يزداد و يحمرّ و يعود فى الأخير إلى وضعه المتقطع الباهت (1).

الدم الخارج فى أيام العاده الشهرية هو الدم الذى يتجمع شهريا فى العروق الداخليه للرحم من أجل تقديم الغذاء للجنين المحتمل. ذلك لأن مبيض المرأة يدفع كل شهر ببويضه إلى الرحم، و فى نفس الوقت تمتلى عروق الرحم بالدم استعداد لتغذيه الجنين فإن انعقد الجنين يستهلك الدم لتغذيته، و إلا يخرج بشكل دم حيض. من هنا نفهم جانبا آخر لحظر الجماع فى هذه الفتره التى يكون الرحم خلالها غير مستعد استعداد طبيعيا لقبول نطفه الرجل، حيث يواجه أذى من جراء ذلك.

جملة (يطهرن) بمعنى طهاره النساء من دم الحيض كما ذهب إليه كثير من المفسرين، و أمّا جملة فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فقد ذهب الكثير منهم على أنها تعنى الغسل من الحيض، فعلى هذا الأساس و طبقا للجملة الاولى تكون المقاربه الجنسيه بعد

ص: ١٣١

انتهاء دم الحيض جائزه حتى لو لم تغتسل، و أما الجملة الثانيه فتعني أنها ما لم تغتسل فلا يجوز مقاربتها (1).

و على هذا فالآيه لا تخلو من إبهام، و لكن مع الالتفات إلى أنّ الجملة الثانيه تفسير للجملة الاولى و نتيجه لها(و لهذا اعطفت بفاء التفریح) فالظاهر أنّ(تطهّرن) أيضا بمعنى الطهاره من دم الحيض، و بذلك تجوز المقاربه الجنسيه بمجرد الطهاره من العاده الشهرية، و هذا هو ما ذهب إليه الفقهاء العظام في الفقه و أفتوا بحلّيه المقاربه الجنسيه بعد الطهاره من الحيض حتى قبل الغسل، و لكن لا شكّ في أنّ الأفضل أن تكون بعد الغسل.

□  
الفقره الثانيه من الآيه تقول فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ أَي أن يكون الجماع من حيث أمر الله، و قد تكون هذه الفقره تأكيدا لما قبلها، أي أتوا نساءكم في حاله النقاء و الطهر فقط لا في غير هذه الحاله، و قد يكون مفهومها أوسع بخصوص أنّ الجماع بعد الطهر يجب أن يكون في إطار أوامر الله أيضا.

هذا الأمر الإلهي من الممكن أن يشمل الأمر التكويني و الأمر التشريعي معا، فالله سبحانه أودع في الرجل و المرأة الغريزه الجنسيه لبقاء نوع الإنسان، و هذه الغريزه تدفع الإنسان للحصول على اللذه الجنسيه، لكنّ هذه اللذه مقدّمه لبقاء النوع فقط، و من هنا لا- يجوز الحصول عليها بطرق منحرفه مثل الاستمنا و اللواط و أمثالهما، لأنّ هذا الطريق نوع من الانحراف عن الأمر التكويني.

و كذلك يمكن أن يكون المراد هو الأمر التشريعي، يعنى أنّ الزوجه بعد طهارتها من العاده الشهرية ينبغي عليها مراعاة جهات الحلال و الحرام في الحكم الشرعي.

ص: ١٣٢

(١-١) - الجملة الثانيه مفهوم الشرط، و الأول مفهوم الغايه.

و ذهب البعض إلى أنّ مفهوم هذه الجملة هو حرمة المقاربه الجنسيه مع الزوجه عن غير الطريق الطبيعي، و لكن مع الالتفات إلى أنّ الآيات السابقه لم تتحدّث عن هذا الأمر يكون هذا التفسير غير مناسب للسياق (١).

الآيه الثانيه إشاره لطيفه إلى الغايه النهائيه من العمليه الجنسيه فتقول نِسَاءُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ شَبَّهَتِ النِّسَاءَ بِالْمَزْرَعِ، وَ قَدْ يَثْقُلُ هَذَا التَّشْبِيهُ عَلَى بَعْضٍ، وَ يَتَسَاءَلُ لِمَاذَا شَبَّهَ اللَّهُ نِصْفَ النُّوعِ الْبَشَرِيِّ بِهَذَا الشَّكْلِ؟ وَ لَوْ أَمَعْنَا النَّظْرَ فِي قَوْلِهِ سَبَّحَانَهُ لَوَجَدْنَا فِيهِ إِشَارَةً رَائِعَةً لِبَيَانِ ضَرُورَةِ وَجُودِ الْمَرْأَةِ فِي الْمَجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ. فَالْمَرْأَةُ بِمَوْجِبِ هَذَا التَّعْبِيرِ لَيْسَتْ وَسِيلَةً لِإِطْفَاءِ الشَّهْوَةِ، بَلْ وَسِيلَةً لِحِفْظِ حَيَاةِ النُّوعِ الْبَشَرِيِّ.

«الحرث» مصدر يدلّ على عمل الزراعة، و قد يدلّ على مكان الزراعة «المزرعه» و «أنّى» من أسماء الشرط، و تكون غالبا زمانيه. و قد تكون مكانيه كما جاء في قوله سبحانه: يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ (٢).

يستفاد من الآيه الكريمه -على افتراض زمانيه أنى- الرخصه في زمان الجماع، أى جوازه في كلّ ساعات الليل و النهار، و على افتراض مكانيه أنى يستفاد من الآيه الرخصه في مكان الجماع و محلّه و كيفيته.

وَ قَدَّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ

هذا الأمر القرآنى يشير إلى أنّ الهدف النهائى من الجماع ليس هو الاستمتاع باللذه الجنسيه، فالْمُؤْمِنُونَ يجب أن يستثمروه على طريق تربيّه أبناء صالحين، و أن يقدّموا هذه الخدمه التربويه المقدّسه ذخيره لآخراهم. و بذلك يؤكّد القرآن

ص: ١٣٣

١- ١) -تأتى كلمه «حيث» بعنوان اسم مكان و اسم زمان، و لكن هنا تشير إلى زمن جواز المقاربه الجنسيه أى زمن الطهر.

٢- ٢) -آل عمران: ٣٧.

على رعايه الدقه فى انتخاب الزوجه كى تكون ثمره الزواج إنجاب أبناء صالحين و تقديم هذه الذخيره الاجتماعيه الإنسانيه الكبرى.

و فى حديث عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال:

«إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا عن ثلاث: صدقه جاريه، و علم ينتفع به، و ولد صالح يدعو له»

(١)

و جاء فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلا ثلاث خصال: صدقه أجراها فى حياته فهى تجرى بعد موته و سنه هدى سنّها فهى تعمل بها بعد موته و ولد صالح يستغفر له»

(٢)

و وردت بهذه المضمون روايات عديده أيضا، و قد جاء فى بعضها سنّه موارد أولها الولد الصالح (٣).

و على هذا الأساس يأتى الولد الصالح من حيث الأهميه إلى جانب الخدمات العلميه و تأليف الكتب المفيده و تأسيس المراكز الخيريه كالمسجد و المستشفى و المكتبه و أمثال ذلك.

و فى ختام هذه الآيه تأمر بالتقوى و تقول: <sup>□</sup> وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ .

لمّا كانت المقاربه الجنسيه تعتبر من المسائل المهمه و من أشد الغرائز إلحاحا على الإنسان، فإنّ الله تعالى يدعو فى هذا الآيه الإنسان إلى الدقه فى أمر ممارسه هذه الغريزه و الحذر من الانحراف، و تنذر الجميع بأنهم ملاقوا ربهم و ليس لهم طريق للتجاه سوى الإيمان و التقوى.

ص: ١٣٤

١-١) -مجمع البيان: ج ١ ص ٣٢١.

٢-٢) -بحار الأنوار: ج ١ ص ٢٩٤ ح ٤.

٣-٣) -المصدر نفسه ص ٢٩٣ ح ١.

## ١- الحكم الإسلامي العادل في مسأله الحيض

هناك الاعتقادات مختلفه في الأقوام السالفه حول العاده الشهرية للنساء، فاليهود يشددون أمرها و يعزلون المرأة في هذه الأيام كلياً عن كل شيء: عن الأكل و الشرب عن المجالسه و المؤاكله و المضاجعه، و قد وردت في التوراه الحاليه أوامر متشدده في هذا الصدد (١).

و على العكس من ذلك النصارى حيث لا يلتزمون بأية محدودية في هذه الأيام، فلا فرق بين حاله الحيض و الطهر لدى المرأة. المشركون العرب ليس لديهم حكماً خاصاً في هذا المجال، و لكن أهالي المدينة كانوا متأثرين بأداب اليهود و عقائدهم في معاشرتهم للنساء أيام الحيض فكانوا يتشددون مع المرأة في هذه الأيام، في حين أن سائر العرب لم يكونوا كذلك، بل قد تكون المقاربه الجنسيه محببه لديهم فيها، و يعتقدون أنه لو حصل من تلك المقاربه ولد فإنه سوف يكون فتاكاً و متعطشاً للدماء، و هذه من الصفات المتميزه و المطلوبه لدى أعراب البادية (٢).

## ٢- اقتران الطهاره بالتوبه

إن اقتران الطهاره و التوبه في الآيات أعلاه يمكن أن يكون إشارة إلى أن الطهاره تتعلق بالطهاره الظاهرية و التوبه إشارة إلى الطهاره الباطنيه.

ص: ١٣٥

١- ١) - ورد في باب ١٥ من سفر اللاويين من التوراه: «و إذا حاضت المرأة فسبعه أيام تكون في طمئها، و كل من يلمسها يكون نجسا إلى المساء، كل ما تنام عليه في أثناء حيضها أو تجلس عليه يكون نجسا، و كل من يلمس فراشها يغسل ثيابه و يستحم بماء و يكون نجسا إلى المساء...» و أحكام اخرى من هذا القبيل.

٢- ٢) - مقتبس من تفسير الميزان: ج ٢ ص ٢٠٨ ذيل الآيه مورد البحث، كتاب أنيس الأعلام: ج ٢ ص ١٠٦ و ١٠٧، و كذلك شرح المبسوطى مع ذكر المصادر.

و يحتمل أيضا أنّ الطهاره هنا عدم التلوّث بالذنب، يعنى أنّ الله تعالى يحب من لم يتلوّث بالذنب، و كذلك يحب من تاب بعد تلوّثه.

و يمكن أن تشير مسأله التوبه هنا إلى أنّ بعض الناس يصعب عليهم السيطره على الغريزه الجنسيه فيتلوّثون بالذنب و الإثم خلافا لما أمر الله تعالى، ثمّ يعترتهم الندم على عملهم و يتألّمون من ذلك، فالله سبحانه و تعالى فتح لهم طريق التوبه كيلا يصيبهم اليأس من رحمه الله (١).

ص: ١٣٦

---

١ - ١) - تحدّثنا تفصيلا عن حقيقه «التوبه» و شرائطها فى المجلد الثالث فى ذيل الآيه (١٧) من سوره النساء، و فى المجلد ١٤ ذيل الآيه (٥) من سوره النور.

### اشاره

وَ لَا تَجْعَلُوا لِلّٰهِ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَ تَتَّقُوا وَ تَصِلُوا بَيْنَ الْأَسْبَابِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَ لَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥)

### سبب النزول

حدث خلاف بين صهر أحد الصحابه و ابنته، و هذا الصحابي هو «عبد الله بن رواحه» حيث أقسم أن لا يتدخل في الإصلاح بين الزوجين، فنزلت الآية تنهى عن هذا اللون من القسم و تلغى آثاره.

### التفسير

### اشاره

### لا ينبغي القسم حتى الإمكان:

كما قرأنا في سبب النزول أن الآيتين أعلاه ناظرتان إلى سوء الاستفاده من القسم، فكانت هذه مقدّمه إلى الأبحاث التاليه في الآيات الكريمه عن الإيلاء



و القسم و ترك المقاربه الجنسيه.

في الآيه الاولى يقول تعالى وَ لَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَ تَتَّقُوا وَ تَصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١).

(الأيمن) جمع (يمين) و(عرضه) بضم العين، تقال للبضاعه و أمثالها التي تعرض أمام الناس في السوق. و قد تطلق العرضه على موانع الطريق لأنها تعترض طريق الإنسان.

و ذهب البعض إلى أنّ المراد بها ما يشمل جميع الأعمال، فالآيه تنهى عن القسم بالله في الأمور الصغيره و الكبيره و عن الاستخفاف باسمه سبحانه، و بهذا حذرت الآيه من القسم إلا في كبائر الأمور، و هذا ما أكدت عليه الأحاديث الكثيره،

و قد روى عن الصادق عليه السلام (لا تحلفوا بالله صادقين و لا كاذبين فإنّ الله سبحانه يقول: وَ لَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ) (٢).

و هناك أحاديث متعدده وردت في هذا المجال (٣).

و لو أخذنا سبب نزول الآيه بنظر الإعتبار يكون مؤداها أنّ القسم ليس بعمل مطلوب في الأعمال الصالحه، فكيف بالقسم بترك الأعمال الصالحه؟! و في الآيه التاليه نلاحظ تكمله لهذا الموضوع و أنّ القسم لا ينبغي أن يكون مانعا من أعمال الخير فتقول: لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَ لَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ أَى عن إرادته و إختيار.

في هذه الآيه يشير الله تعالى إلى نوعين من القسم:

ص: ١٣٨

١ - ١) - طبقا لهذا التفسير «لا» مقدره و في الأصل «لثلاث تبروا» و هذا المعنى مطابق تماما لشأن النزول و يحتمل أيضا أن «عرضه» بمعنى المانع يعني لا تجعلوا القسم بالله مانعا لأداء الأعمال الصالحه و الإصلاح بين الناس «بتقدير: لا تجعلوا الله بسبب إيمانكم حاجزا أن تبروا و تتقوا» و لكنّ التوجيه الأوّل أنسب.

٢ - ٢) - الكافي حسب نقل تفسير نور الثقلين: ج ١ ص ٢١٨ ح ٨٣٣، وسائل الشيعه: ج ١٦ ص ١١٦ ح ٥.

٣ - ٣) - راجع نفس المصدر: ح ٨٣٢ و ٨٣٤، وسائل الشيعه: ج ١٦ ص ١١٥ و ما بعد.

الأول: القسم اللغو الذى لا- أثر له، ولا- يعبأ به، هذا النوع من القسم يتردد على ألسن بعض الناس دون التفات، ويكرّونه فى كلامهم عن عادته لهم، فيقولون: لا والله... بلى والله... على كل شىء، وإنما سمى لغوا لأنه لا هدف له و لم يطلقه المتكلم عن عزم و وعى، و كل عمل و كلام مثل هذا لغو.

من هنا فالقسم الصادر عن الإنسان حين الغضب لغو (إذا أخرج الغضب تماما عن حالته الطبيعيه). و حسب الآيه أعلاه لا يؤخذ الإنسان على مثل هذا القسم، و عليه أن لا- يرتب أثرا عليه، و يجب الالتفات إلى أنّ الإنسان يجب أن يتربى على ترك مثل هذا القسم و على كل حال فإن العمل بهذا القسم غير واجب و لا كفّاره عليه، لأنه لم يكن عن عزم و إرادته.

النوع الثانى: القسم الصادر عن إرادته و عزم، أو بالتعبير القرآنى هو القسم الداخلى فى إطار كسب القلب، و مثل هذا القسم معتبر، و يجب الالتزام به، و مخالفته ذنب موجب للكفّاره إلا فى مواضع سنذكرها. و قد أشارت الآيه (٨٩) من سوره المائده إلى هذا النوع من القسم بقولها «ما عقدتم الايمان».

### الأيمان غير المعتره:

الإسلام لا يحدّد القسم كما أشرنا آنفا، لكنّه ليس بالعمل المحرّم، بل قد يكون مستحبّا أو واجبا تبعا لما تترتب عليه من آثار.

و هناك أيمان لا قيمه لها و لا اعتبار فى نظر الإسلام، منها:

١- القسم بغير اسم الله و حتّى القسم باسم النبى و أئمّه الهدى عليهم السّلام مثل هذا القسم غير المتضمّن اسم الله تعالى لا أثر له و لا يلزم العمل به و لا كفّاره على مخالفته.

٢- القسم على ارتكاب فعل محرّم أو مكروه أو ترك واجب أو مستحب،

حيث لا- يترتب عليه شيء. كأن يقسم شخص على عدم أداء دين، أو على قطع رحم، أو على فرار من جهاد، أو أمثالها أو يترك إصلاح ذات البين مثلا كما نلاحظ ذلك لدى بعض الأشخاص الذين واجهوا بعض السلبيات من إصلاح ذات البين فأقسموا على ترك هذا العمل. فإن أقسم على شيء من ذلك فعليه أن لا يعتنى بقسمه و لا كفاره عليه، و قيل إن هذا هو معنى قوله تعالى: لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ .

أمّا الأيمان-التي تحمل اسم الله-على أداء عمل صالح أو مباح على الأقل، فيجب الالتزام به، وإلا وجبت على صاحبه الكفارة، وكفارته كما ذكرته الآية (٨٩) من سورة المائدة، إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة.

اشاره

لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِن عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)

التفسير

اشاره

القضاء على تقليد جاهلي:

القسم على ترك وطء الزوجه أو الإيلاء (١) تقليد جاهلي كان شائعا بين العرب، واستمر معمولاً به عند المسلمين الجدد قبل نزول حكم الطلاق.

كان الرجل في الجاهليه-حين يغضب على زوجته-يقسم على عدم وطئها، فيشدّد عليها بهذه الطريقه الفصّه، لا هو يطلق سراحها بالطلاق لتتزوج من رجل آخر، ولا يعود إليها بعد هذا القسم ليصالحها و يعايشها. وطبعاً لا يواجه الرجل غالباً صعوبه في ذلك لأنه يتمتع بعده زوجات.

ص: ١٤١

١-١) - كلمه «إيلاء» من ماده «الو» بمعنى القدره و العزم، و بما أن القسم نموذج من هذا المعنى و لذا اطلق على الطلاق.

الآيه الكريمه وضعت لهذه القضيه حدًا، فذكرت أنّ الرجل يستطيع خلال مدّه أقصاها أربعة أشهر أن يتخذ قرارا بشأن زوجته: إمّا أن يعود عن قسمه و يعيش معها، أو يطلقها و يخلّي سبيلها.

لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ

و الغايه من الامهال أربعة أشهر هو إعطاء الفرصه للزوج ليفكر فى أمره مع زوجته و ينقذها من هذا الحال. ثمّ تضيف:

فَإِنِ فَاؤُا فَاِنَّ اللّٰهَ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ

أى إن عادوا وجدوا الله غفوراً رحيماً، و العبارة تدلّ أيضاً أنّ العوده عن هذا القسم ليس ذنباً، بالرغم من ترتب الكفّاره عليه.

وَإِنِ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللّٰهَ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ

أى فلا مانع من ذلك مع توفر الشروط اللازمه.

و فيما لو أهمل الزوج كلا الطريقتين و لم يختار أحدهما، فلم يرجع إلى الحياه الزوجيه السليمه، و لم يطلق. ففي هذه الصوره يتدخل حاكم الشرع و يأمر بإلقاء الزوج فى السجن، و يشدد عليه حتّى يختار أحدهما، و ينقذ الزوجه من حالتها المعلقه.

ينبغى التأكيد هنا على أنّ الإسلام، و إن لم يبلغ حكم الإيلاء نهائياً، فقد أزال آثار هذه الظاهره، لأنّه لم يسمح للرجل أن ينفصل عن زوجته بالإيلاء. و تعيينه مدّه للذين يؤلون من نسائهم لا يعنى إلغاء حقّ من حقوق الزوجيه، لأنّ حقّ المرأه على زوجها- فى إطار الوجوب الشرعى- الوطاء كلّ أربعة أشهر، هذا طبعاً فى حاله عدم انجرار المرأه إلى الذنب على أثر طول المدّه، و إلاّ يجب أن تقلل المدّه إلى مقدار تأمين الحاجه الجنسيه و خاصّه بالنسبه للمرأه الشابه التى يخشى انحرافها.

## ١- الإيلاء حكم استثنائي

تقدّم الحديث في الآيات السابقة عن القسم اللغو، وقلنا أنّ كلّ قسم على فعل ما يخالف الشريعة المقدّسه فهو من مصاديق اللغو في القسم، فلا إشكال من نقضه، و على ذلك فالقسم على ترك الواجبات الزوجية لا أثر له إطلاقاً، في حين أنّ الإسلام قد جعل له كفّاره (١) (و هي كفّاره نقض القسم و اليمين المذكوره في الأبحاث السابقة) وهذا في الحقيقة عبارته عن عقوبه لبعض الرجال الذين يتوسلون بهذه الذريعه لتضييع حقوق الزوجه حتّى لا يقوموا بتكرار هذا العمل مرّة اخرى.

## ٢- الإيلاء في حكم الإسلام و الغرب

في اوربا نلاحظ وجود ما يشبه الإيلاء و يطلقون عليه الانفصال البدني و توضيحه: أنه بما أن الطلاق كان محضورا في الديانة المسيحية لذا قام الغربيين بعد الثوره الفرنسيه الكبرى باستخدام ظاهره الانفصال الجسمي بين الزوجين باعتبارها إحدى سبل الطلاق، و ذلك بأن يعيش الرجل في مكان و المرأة في مكان آخر عند عدم وجود الوفاق بينهما، و تبقى كلّ الحقوق الزوجية محفوظة سوى نفقه الرجل و تمكين المرأة، فالرجل لا يستطيع أن يتزوج بامرأة اخرى و لا المرأة كذلك على أن لا تتجاوز مدّة الانفصال ثلاث سنوات يجب على الزوجين بعدها أن يعودا إلى حياتهم الزوجية (٢)، فالبرغم من أنّ القانون الغربي سمح للزوجين أن يفصلا في ثلاث سنين، إلا أنّ الإسلام لم يسمح لهذا الانفصال أن

ص: ١٤٣

١- ١) - إذا جامع الرجل قبل الأربعة أشهر فإن الكفّاره واجبه عليه إجماعا و إذا جامع بعد الأربعة أشهر فإن هذا الحكم مشهور بين الفقهاء، رغم أن البعض أنكروا الكفّاره في هذه الصوره.

٢- ٢) - حقوق المرأة في الإسلام و أوروبا.

يستمر أكثر من أربعة أشهر و استمرار هذه المدّة جائز حتّى مع عدم القسم، و بعد هذه المدّة يجب على الرجل أن يعيّن أمره، فإذا أراد أن يماطل أكثر من هذه المدّة فإنّ الحكومه الإسلاميه تستدعيه و ترغمه على اتّخاذ قراره النّهائي.

### ٣- الصّفات الإلهيه في ختام كلّ آبه

مميّا يلفت النّظر أنّ الكثير من آيات القرآن تختتم أبحاثها بصفات الله تعالى و هذه الصفات لها ارتباط مباشر بمحتوى الآيات دائما، و من جمله هذه الآيات ما نحن فيه، فعند ما كان الحديث عن الإيلاء و التصميم على نقض هذا القسم الممنوع تذكّر الآيه بعدها جمله غفورٌ رحيمٌ و هي إشارة إلى أنّ هذا السلوك السليم سبب لغفران الله تعالى و شمول رحمته لهؤلاء الأشخاص، و عند ما كان الحديث يدور حول التصميم على الطّلاق كانت العبارة سَمِيعٌ عَلِيمٌ يعنى أنّ الله تعالى يسمع كلامكما و مطّلع على دوافع الطّلاق و الفرقه و سوف يجازيكم وفقا لهذا العمل.

ص: ١٤٤

اشاره

وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ  
بِعَوْلْتُهُنَّ أَحَقُّ بِرُدِّهِنَّ فِي ذَلِكِ إِنْ أَرَادُوا إِضْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ  
(٢٢٨)

التفسير

اشاره

حريم الزواج أو العده:

كان الكلام في الآيه السابقه عن الطلاق، و هنا تذكر الآيه بعض أحكام الطلاق و ما يتعلق به حيث ذكرت خمسہ أحكام له في هذه الآيه.

في البدايه ذكرت الآيه عده الطلاق و الْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ .

(قروء) جمع (قراء) تطلق على الحيض و على النقاء منه، و يمكن الاستفاده من كلا- هذين المعنيين مفهوما كليًا يجمع بينهما، و هو الانتقال من حاله إلى حاله



اخرى و يرى «الزَّاعِب» في المفردات أن «القرء» في الحقيقه هي كلمه يراد منها الانتقال من حاله الحيض إلى الطَّهر، و بما أن كلا هذين العنوانين مأخوذان في معنى الكلمه، فتستعمل أحيانا بمعنى الحيض و اخرى بمعنى الطَّهر، و يستفاد من بعض الروايات و كثير من كتب اللغه أن القرء تعنى الجمع بين الحالتين، و بما أن حاله الطَّهر يجتمع في المرأه مع وجود دم الحيض في رحمها فتطلق هذه المفرده على الطَّهر و على كل حال فقد ورد التصريح في الروايات أن المقصود بالقروء الثلاثه في الآيه أن تطهر المرأه ثلاث مرّات من دم الحيض (١).

و بما أن الطلاق يشترط فيه أن تكون المرأه في حاله الطَّهر العذى لم يجامعها زوجها فيه فيحسب ذلك الطَّهر مرّه واحده، و بعد أن ترى المرأه دم الحيض مرّه و تطهر منه حينئذ تتم عدّتها بمجرد أن ينتهى الطَّهر الثالث و تشرع و لو للحظه في العاده، فيجوز لها حينئذ الزواج، و مضافا إلى الروايات في هذا المجال يمكن استنباط هذه الحقيقه من نفس الآيه مورد البحث لأن:

أولاً: (قرء) تستبطن جمعان: قروء و أقراء، و ما كان جمعه قروء فهو طهر، و ما كان جمعه أقراء فهو بمعنى الحيض (٢).

ثانياً: القرء في اللغه بمعنى الجمع، كما تقدّم و هي أنسب لحاله الطَّهر، لأنّ الدم يتجمّع في هذه الحاله في الرّحم بينما يخرج و يتفرّق عند العاده الشهرية (٣).

الحكم الثانى المستفاد من هذه الآيه هو قوله تعالى وَ لَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ  
الْآخِرِ .

الإسلام قرّر أن تكون المرأه بنفسها هي المرجع في معرفه بدايه العده

ص: ١٤٦

١- ١) - راجع تفسير نور الثقلين: ج ١ ص ٢٣٠ و ٢٣١.

٢- ٢) - راجع قاموس اللغه.

٣- ٣) - لسان العرب: ماده «قرء».

و نهايتها حيث إنّ المرأة نفسها أعلم بذلك من الآخرين، و

في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآيه محلّ البحث قال: «قد فوّض الله إلى النساء ثلاثة أشياء: الحيض و الطهر و الحمل» (١).

و يمكن أن يستفاد من الآيه هذا المعنى أيضا، لأنّ الآيه تقول و لا يَحِلُّ لهنَّ أن يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ اللهُ في أَرْحَامِهِنَّ و يخبرن بخلاف الواقع، و هذا يعني أن كلامهنّ مقبول.

و جملة ما خَلَقَ اللهُ في أَرْحَامِهِنَّ كما ذهب إليه جماعة من المفسرين يمكن أن يراد بها معنيان: (الجنين) و (العاده الشهرية) لأنّ كلا هذين المعنيين قد جعلهما الله في أرحام النساء أي يجب على المرأة أن لا تكتم حملها و تدعى العاده الشهرية بهدف تقليل مدّة العدّه (لأنّ عدّه الحامل وضع حملها) و هكذا يجب عليها أن لا تخفي وضع حيضها و تبين خلاف الواقع، و لا يبعد استفاده كلا هذين المعنيين من العبارة أعلاه.

الحكم الثالث المستفاد من الآيه هو أنّ للزوج حقّ الرجوع إلى زوجته في عدّه الطلاق الرجعي، فتقول الآيه: وَ بَعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا (٢).

و بهذا يستطيع الزوج استئناف علاقته الزوجية بدون تشريفات خاصّه إذا كانت المرأة في عدّه الطلاق الرجعي، فإذا قصد الرجوع يتحصّل بمجرد كلمه أو عمل يصدر منه بهذا القصد، و جملة: إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا في الحقيقة هي لبيان أنّ هدف الرجوع يجب أن يكون بنية الإصلاح لا كما كان عليه الحال في العصر

ص: ١٤٧

١-١) -مجمع البيان: ج ١ ص ٣٢٦ في ذيل الآيه المبحوثة.

٢-٢) -«بعوله» جمع «بعل» بمعنى الزوج و يقول الراغب في مفرداته بأن البعض يرى إطلاقها على الزوج و الزوجه. (تفسير الكبير: ج ٦ ص ٩٣) و قيل أن هذه المفردة تعطى معنى العلو و الأفضليه.

الجاهلى من أن الزوج يستخدم هذا الحق لغرض الإضرار بالزوجه حيث يتركها فى حاله معلقه بين الزواج و الطلاق.

فهذا الحق يكون للزوج فى حاله إذا كان نادما واقعا و أراد أن يستأنف علاقته الزوجيه بجديّه،و لم يكن هدفه الإضرار بالزوجه.

ضمنا يستفاد مّيا ورد فى ذيل الآيه من مسأله الرجوع هو أنّ حكم العده و الاهتمام بحساب أيامها يتعلّق بهذه الطائفه من النساء،و بعباره اخرى أنّ الآيه تتحدّث بشكل عام عن الطلاق الرجعى و لهذا فلا مانع من أن تكون بعض أقسام الطلاق بدون عدّه أصلا.

ثمّ تبين الآيه حكما رابعا و تقول: **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللرّجَالِ عَلَيِهِنَّ دَرَجَةٌ** .

يقول الطبرسى فى مجمع البيان أنه يستفاد من هذه العبارة العجيبه و الجامعه فوائد كثيره جدّا (1)،فهى قد جرّت البحث إلى مسائل أهم بكثير من الطلاق و العده،وقرّرت مجموعه من الحقوق المتبادله بين الرجال و النساء فتقول: كما أنّ للرجال حقوقا على النساء،فكذلك للنساء حقوق على الرجال أيضا،فيجب عليهم مراعاتها،لأنّ الإسلام اهتمّ بالحقوق بصوره متعاده و متقابله و لم يتخيّر إلى أحد الطرفين.

و كلمه (بالمعروف)التي تأتي بمعنى الأعمال الحسنه المعقوله و المنطقيّه تكرّرت فى هذه السلسله من الآيات اثنا عشر مرّه(من الآيه مورد البحث إلى الآيه ٢٤١)كيما تحذّر النساء و الرجال من عاقبه سوء الاستفاده من حقوق الطرف المقابل،و عليهم احترام هذه الحقوق و الاستفاده منها فى تحكيم العلاقه

ص: ١٤٨

الزوجه و تحصيل رضا الله تعالى.

جملة و للرجال عليهن درجه تكميل القاعده السابقه فى الحقوق المتقابله بين الرجل و المرأه، و فى الواقع أن مفهومها هو أن مسأله العداله بين الرجل و المرأه لا تكون بالضروره بمعنى التساوى فى الحقوق و أن يكونا فى عرض واحد، فهل يلزم أن يكون الجنسان، متساويين تماما فى الواجبات و الحقوق؟ لو أخذنا بنظر الإعتبار الاختلافات الكبيره بين الجنسين على صعيد القوى الجسميه و الروحيه لا تضح الجواب عن السؤال.

المرأه بطبيعه مسئوليتها الحسياسه فى إنجاب الأبناء و تربيتهم تتمتع بمقدار أوفر من العواطف و المشاعر و الإحساسات، فى حين أن الرجل و طبقا لهذا القانون انيطت به مسئوليته الواجبات الاجتماعيه التى تستلزم قوه الفكر و الابتعاد عن العواطف و الأحاسيس الشخصيه أكثر، و لو أردنا إقامه العداله فيجب أن نضع الوظائف الاجتماعيه التى تحتاج إلى تفكر و تحمّل أكثر بعهد الرجل، و الوظائف و المسئوليات التى تحتاج إلى عواطف و إحساسات أكثر بعهد النساء، و لهذا السبب كانت إداره الاسره بعهد الرجل و مقام المعاونه بعهد المرأه، و على أى حال فلا يكون هذا مانعا من تصدى المرأه للمسؤوليات الاجتماعيه المتوائمه مع قدراتها الجسميه و ملكاتها البيولوجيه فتؤدى تلك الوظائف و المسئوليات إلى جانب أداء وظيفه الامومه فى الاسره.

و كذلك لا يكون هذا التفاوت مانعا من تفوق بعض النساء من الجهات المعنويه و العلميه و التقوائيه على كثير من الرجال.

فما نرى من إصرار بعض المثقفين على مقوله التساوى بين الجنسين فى جميع الأمور هو إصرار لا تؤيده الحقائق على أرض الواقع حيث ينكرون فى

ص: ١٤٩

دعواهم هذه الثوابت العلميّة في هذا المجال، فحتّى في المجتمعات التي تنادى بالمساواة بين الجنسين في مختلف المجالات نشاهد عملاً بونا شاسعاً مع نداءاتهم، فمثلاً الإدارة السياسيّة والعسكريّة لجميع المجتمعات البشريّة هي في عهده الرّجال (إلاّ في موارد استثنائيّة) حيث يرى هذا المعنى أيضاً في المجتمعات الغربيّة التي ترفع شعار المساواة دائماً.

و على كلّ حال، فالحقوق التي يختصّ بها الرّجال مثل حقّ الطّلاق أو الرّجوع في العدّه أو القضاء (إلاّ في موارد خاصّة اعطى فيها حقّ الطّلاق للزّوجه أو حاكم الشرع) تتركز على هذا الأساس و نتيجة مباشره لهذه الحقائق العمليّة.

و ذهب بعض المفصّرين إلى أنّ جملة: لِلرّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ناظره إلى مسأله الرّجوع في عدّه الطّلاق فقط (1)، و لكن من الواضح إنّ هذا التفسير لا يتواءم و ظاهر الآيه، لأنّ الآيه ذكرت قبل ذلك قانوناً كلياً حول حقوق المرأه و وجوب رعايه العداله بجملة وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ثمّ أوردت العبارة مورد البحث بشكل قانون كليّ آخر بعد ذلك.

و أخيراً تقول الآيه: وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ و هذا إشاره إلى ما يرد في هذا المجال من إشكالات و تساؤلات و أنّ الحكمه الإلهيّه و التدبير الرّباني يستوجبان أن يكون لكلّ شخص في المجتمع وظائف و حقوق معيّنه من قبل قانون الخلقه و يتناسب مع قدراته و قابليّاته الجسميّه و الرّوحيّه، و بذلك فإنّ الحكمه الإلهيّه تستوجب أن تكون للمرأه في مقابل الوظائف و المسؤوليّات الملقاه على عاتقها حقوقاً مسلّمه كيما يكون هناك تعادل بين الوظيفه و الحقّ.

ص: ١٥٠

## ١- العده وسيله للعوده و الصلح

أحيانا ينشأ فى مناخ الاسره و بسبب عوامل مختلفه بعض الاختلافات الجزئيه و تتهياً الأرضيه النفسيه لكل من الزوجين بشكل يشتد فيه حس الانتقام و تنطفاً فيه أنوار العقل و الوجدان. و فى الغالب تكون حالات الفرقة و تشتت العائله ناشئه من هذه الموارد و الحالات، و لكن يشاهد فى كثير من الحالات أن كل من الزوج و الزوج بعد حصول النزاع و الفرقة بفترة قليله من الزمان يصيبهم الندم و خاصه بعد مشاهدته انهدام الاسره و تلاشى المحيط العائلى الدافئ لتصب حياتهم فى بحر المشاكل المختلفه.

و هنا تقول الآيه مورد البحث: أن على النساء العده و الصبر ريثما تهدأ تلك الأمواج النفسيه و تنقشع سحب النزاع و العداوه عن سماء الحياه المشتركه، و خاصه إذا أخذنا بنظر الإعتبار حكم الإسلام فى وجوب بقاء المرأه و عدم خروجها من بيت زوجها طيله مدّه العاده حيث يبعث ذلك على حسن التفكير و إعادته النظر فى قرار الطلاق ممّا يؤثّر ذلك كثيراً فى رسم و صياغه علاقاتها مع زوجها، و لذلك نقرأ فى سورة الطلاق آيه (١) لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ... لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا .

و فى الغالب نلاحظ أنه يكفى لاستعادته المناخ الملائم و الأجواء الدافئه للاسره قبل الطلاق قليل من تقويه المحبه و إعادته المياهِ إلى مجاريها.

## ٢- العده وسيله لحفظ النسل

إن إحدى الأغراض المهمه للعدّه هو اتّضاح حاله المرأه بالنسبه إلى الحمل،

فصحيح أنّ رؤيه المرأه لدم الحيض مرّه واحده دليل على عدم الحمل، و لكن أحيانا ترى المرأه دم العاده حين الحمل أيضا و فى بدايته، فمن أجل رعايه هذا الموضوع و الحكم بشكل كامل كان على المرأه أن تصبر لثرى العده ثلاث مرّات و تطهر منها حتّى تقطع تماما بعدم حملها من زوجها السابق فيمكنها بعد ذلك الزواج المجدّد، و طبعا هناك فوائد اخرى للعهده سنشير إليها فى مواردّها.

### ٣-تلازم الحقّ و الوظيفه

هنا يشير القرآن الكريم إلى أصل أساس، و هو أنّه كلّما كانت هناك وظيفه و مسؤوليه كان هناك حقّ إلى جانبها، يعنى أنّ الوظيفه و الحقّ لا ينفصلان أبدا، فمثلا أنّ على الوالدين وظائف بالنسبه للأولاد، و هذه الوظائف تسبّب إيجاد حقوق فى عهده الأولاد، أو أنّ القاضى موظّف فى تحقيق العداله فى المجتمع ما أمكنه ذلك، و فى مقابل هذه الوظيفه و المسؤوليه له حقوق كثيره فى عهده الآخرين، و هكذا بالنسبه إلى الأنبياء عليهم السّلام و أقوامهم.

و فى الآيه مورد البحث إشاره إلى هذه الحقيقه حيث تقول أنّ النساء لهنّ من الحقوق بمقدار ما عليهنّ من الواجبات و الوظائف، و هذا التساوى بين الحقوق و الواجبات يسهّل عمليا إجراء العداله فى حقّهن، و كذلك يثبت عكس هذا المطلب أيضا فمن جعل له حقّا ففى مقابله عليه واجبات و مسؤوليات لا بدّ من أدائها، و لذلك لا نجد أحدا له حقّ من الحقوق فى أحد الموارد و ليست فى ذمّته وظيفه و مسؤوليه.

### ٤-قصة المرأه فى التاريخ و حقوقها المهدوره

عانت المرأه خلال العصور التاريخيه المختلفه ألوانا من الظلم و الاضطهاد

والتعسف، ويشكل هذا التاريخ المؤلم المرّ جزء هامًا من الدراسات الاجتماعية بشكل عامّ يمكن تقسيم تاريخ حياة المرأة إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى:مرحلة ما قبل التاريخ،و ليس لنا معلومات صحيحة عن وضع المرأة في هذه المرحلة،و من الممكن أن تكون قد تمتعت آنذاك بحقوقها الإنسانية الطبيعيه.

و المرحلة الثانية:مرحلة التاريخ،و المرأة كانت خلالها في كثير من المجتمعات شخصيه غير مستقلة في جميع الحقوق الاقتصاديه و السياسيه و الاجتماعيه،و استمرّ هذا الوضع في قسم من المجتمعات حتّى القرون الأخيره.

هذا اللون من التفكير بشأن المرأة مشهود حتّى في القانون المدنيّ الفرنسيّ المشهور بتقدّميته،على سبيل المثال نشير إلى بعض فقراته المتعلّقه بالشؤون الماليه للزوجين:

يستفاد من المادّتين ٢١٥ و ٢١٧ أنّ المرأة المتروجه لا- تستطيع بدون إذن زوجها و توقيعه أن تؤدّي أى عمل حقوقي،و تحتاج في كلّ معامله إلى إذن الزوج.

هذا إذا لم يرد الرجل أن يستغلّ قدرته و أن يمتنع عن الإذن دون مبرّر.

و حسب المادّه ١٢٤٢ يحقّ للرجل أن يتصرّف لوحده بالثروه المشتركه بين المرأة و الرجل بأيّ شكل من الأشكال،و لا يلزمه استئذان المرأة بشرط أن يكون التصرّف في إطار الإدارة،و إلّا لزمّت موافقه المرأة و توقيعها.

و أكثر من ذلك ورد في الماده ١٤٢٨:..إنّ حقّ إداره جميع الأموال الخاصّه بالمرأة موكول إلى الرجل-على أنّ المعامله الخارجيه عن حدود الإدارة تتطلّب موافقه المرأة و توقيعها-.

و في أرض الرساله الإسلاميه-أى الحجاز-كانت المرأة تعامل معامله الكائن غير المستقل،و كانوا يستثمرونها بشكل فظيع قريب من حاله التوحّش.



و بلغ وضع المرأة من الانحطاط بحيث إن صاحبها كان يستفيد منها للارتزاق أحيانا، فيعرضها للإيجار.

ما كان يعانیه هؤلاء من فقر حضارى و فقر مادى جعل منهم قساة لا يتورعون عن ارتكاب جريمه «الواد» بحق الأنثى.

## ٥- المرحلة الجديدة فى حياة المرأة

مع ظهور الإسلام و انتشار تعاليمه الساميه، دخلت حياة المرأة مرحلة جديدة بعيدة كل البعد عما سبقها. فى هذه المرحلة أصبحت المرأة مستقلة و متمتعها بكل حقوقها الفردية و الاجتماعية و الإنسانيه.

تقوم تعاليم الإسلام بشأن المرأة على أساس الآيات التى ندرسها فى هذا المبحث حيث يقول تعالى: وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلِيهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ، فالمرأة بموجب هذه الآية تتمتع بحقوق تعادل ما عليها من واجبات ثقيله فى المجتمع.

الإسلام اعتبر الرجل والمرأة كائنا ذا روح إنسانيه كامله، و ذا إرادته و إختيار، و يطوى طريقه على طريق تكامله الذى هو هدف الخلقه، و لذلك خاطب الرجل و المرأة معا فى بيان واحد حين قال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ... يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .

وضع لهما منهجا تربويا و أخلاقيا و علميا و وعدهما معا بالسعاده الأبدية الكامله فى الآخرة، كما جاء فى قوله تعالى: وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ (١).

و أكد أنّ الجنسين قادران على انتهاج طريق الإسلام للوصول إلى الكمال المعنوى و المادى و لبلوغ الحياه الطيبه المفعمه بالطمأنينه، نظير ما جاء فى قوله

ص: ١٥٤

تعالى: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١).

الإسلام يرى المرأة كالرجل إنسانا مستقلا حرا، وهذا المفهوم جاء في مواضع عديدة من القرآن الكريم، كقوله تعالى: كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ (٢). و مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا (٣).

هذه الحرية قررها الإسلام للمرأة و الرجل، و لذلك فهما متساويان أمام قوانين الجزاء: الزانية و الزاني فاجلِتُدوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ (٤).

لَمَّا كان الاستقلال يستلزم الإرادة و الاختيار، فقد قرّر الإسلام هذا الاستقلال في جميع الحقوق الاقتصادية، و أباح للمرأة كل ألوان الممارسات المالية، و جعلها مالكة عائدها و أموالها، يقول سبحانه في سورة النساء: لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ (٥).

كلمه «اكتساب» -خلافًا لكلمه «كسب»- لا تستعمل إلا فيما يعود نتيجه على الإنسان نفسه (٦).

و لو أضفنا إلى هذا المفهوم القاعده العامه القائله: «الناس مسلطون على أموالهم» لفهمنا مدى الاحترام الذي أقره الإسلام للمرأة بمنحها الاستقلال الاقتصادي، و مدى التساوى الذي قرره بين الجنسين في هذا المجال.

فالمراة- في مفهوم الإسلام- ركن المجتمع الأساسى، و لا يجوز التعامل معها

ص: ١٥٥

١- ١) -النحل: ٩٥.

٢- ٢) -المذثر: ٢٨.

٣- ٣) -فصلت: ٤٦.

٤- ٤) -النور: ٢.

٥- ٥) -النساء: ٣٢.

٦- ٦) -راجع مفردات الراغب، هذا طبعا حين تتقابل كلمتى: كسب و اكتساب.

على أنها موجود تابع عديم الإرادة يحتاج إلى قيم.

## ٦- المفهوم الصحيح للمساواة

و هنا ينبغي الالتفات إلى مسأله الاختلافات الروحيه و الجسميه بين المرأه و الرجل، و هى مسأله التفت إليها الإسلام بشكل خاص و أنكرها بعضهم منطلقين من تطرف فى أحاسيسهم.

إن أنكرنا كل شىء فلا نستطيع أن ننكر الاختلافات الصارخه بين الجنسين فى الناحيه الجسميه و الناحيه الروحيه، و هذه مسأله تناولتها تأليفات مستقلة ملخصها:

إن المرأه قاعده انبثاق الإنسان، و فى أحضانها يتربى الجيل و يتعرع، و هى لذلك خلقت لتكون مؤهله جسمياً لتربيه الأجيال، كما أن لها من الناحيه الروحيه سهما أوفى من العواطف و المشاعر.

و هل يمكن مع هذا الاختلاف الكبير أن ندعى تساوى الجنسين فى جميع الأعمال و اشتراكهما المتساوى فى كل الأمور؟! أ ليست العداله أن يؤدى كل كائن واجبه مستفيداً من مواهبه و كفاءاته الخاصه؟! أ ليس خلافاً للعداله أن تقوم المرأه بأعمال لا تتناسب مع تكوينها الجسمى و الروحى؟! من هنا نرى الإسلام- مع تأكيده على العداله- يجعل الرجل مقدماً فى بعض الأمور مثل الإشراف على الأسره و... و يدع للمرأه مكانه المساعد فيها.

العائله و المجتمع يحتاج كل منهما إلى مدير، و مسأله الإدارة فى آخر

مراحلها يجب أن تنتهى بشخص واحد،و إلا ساد الهرج و المرج.

فهل من الأفضل أن يتولّى هذه المسؤوليه المرأه أم الرجل؟ كلّ المحاسبات البعيده عن التعصّب تقول:إنّ الوضع التكويني للرجل يفرض أن تكون مسئوليه إداره الأسره بيد الرجل،و المرأه تعاونه.

مع إصرار المصّرّين و لججاج المتعصّبين على إنكار الواقع،فإنّ وضع الحياه الواقعيه فى عالمنا المعاصر و حتّى فى البلدان التى منحت المرأه الحريّه و المساواه بالشكل الكامل-على زعمهم-يدلّ على أنّ المسأله على الصعيده العملى هى كما ذكرناه و إن كانت المزاعم خلاف ذلك.

ص: ١٥٧

اشاره

الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ حِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩)

سبب النزول

جاءت امرأه إلى إحدى زوجات النبي و شكّت لها من زوجها الذي يطلقها مرارا ثم يعود إليها للإضرار بها، و كان للزوج في تقاليد الجهاليّه الحق في أن يطلق زوجته ألف مره ثم يعود إليها و هكذا فلم يكن للطلاق حدّ حين ذاك، و حينما اطّلع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم على شكوى هذه الامراه نزلت الآيات أعلاه و بينت حدّ الطلاق (١).

ص: ١٥٨

---

١ - ١) -مجمع البيان: ج ١ و ٢ ص ٣٢٩. و ورد هذا السبب في تفسير الكبير، و القرطبي و روح المعاني أيضا في ذيل الآيه المبحوثه.

## إمّا الحياه الزوجيه أو الطلاق بالمعروف:

ذكرنا فى تفسير الآيه السابقه إن الإسلام قرّر قانون (العده) و(الرجوع) لإصلاح وضع الأسره و منع تشتتها و تمزقها، لكن بعض المسلمين الجدد استغلّوا هذا القانون كما كانوا عليه فى الجاهليّه، و عمدوا إلى التضييق على الزوجه بتطليقها المرّه بعد الأخرى و الرجوع إليها قبل انتهاء العده، و بهذه الوسيله ضيقوا الخناق على النساء.

هذه الآيه تحوّل بين هذا السلوك المنحط و تقرّر أنّ الطلاق و الرجوع مشروعان لمّرتين، أمّا إذا تكرّر الطلاق للمرّه الثالثه فلا رجوع، و الطلاق الأخير هو الثالث، و المراد من عبارته (الطلاق مرّتان) هو أنّ الطلاق المّدى يمكن معه الرجوع مرّتان و الطلاق الثالث لا رجوع بعده، و تضيف الآيه فإمسأك بمعروفٍ أو تشريحٍ بإحسانٍ .

فعلى هذا يكون الطلاق الثالث هو الأخير لا رجعه فيه، و عبارته أخرى أنّ المحبّه و الحنان المتقابل بين الزوجين يمكن إعادتهما فى المرّتين السابقتين و تعود المياها إلى مجاريها، و فى غير هذه الصوره إذا تكرّر منه الطلاق فى المرّه الثالثه فلا يحقّ له الرجوع إلاّ بشرائط معيّنه تأتي فى الآيه التاليه.

و يجب الالتفات إلى أنّ (إمسأك) يعنى الحفظ و (تشريح) بمعنى إطلاق السّراح و مجيء جملة تشريحٍ بإحسانٍ بعد جملة الطلاقٍ مرّتانٍ إشاره إلى الطلاق الثالث المّدى يفصل بين الزوجين لا- بدّ أن يكون مع مراعاة موازين الحقّ و الإنصاف و القيم الأخلاقيه (جاء فى أحاديث متعدده أنّ المراد من قوله تشريحٍ بإحسانٍ هو الطلاق الثالث) (1).

ص: ١٥٩

فعلى هذا يكون المراد من التسريح بإحسان أن يؤدى للمرأة حقوقها بعد الانفصال النهائى، ولا يسعى الإضرار بها عملا و قولاً بأن يعيها فى غيابها أو يتهمها بكلمات رخيصة و يسقط شخصيتها و سمعتها أمام الناس، و بذلك يحرمها من إمكانته الزواج المجدد، فكما أن الصلح و الرجوع إلى الزوجه يجب أن يكون بالمعروف و الإحسان و الموده، فكذلك الانفصال النهائى يجب أن يكون مشفوعا بالإحسان أيضا، و لهذا تضيف الآية الشريفه و لا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا .

فعلى هذا الأساس لا يستطيع الزوج عند الانفصال النهائى أن يأخذ ما أعطاه من مهرها شيئا، و هذا المعنى أحد مصاديق التسريح بإحسان.

و قد ذكر هذا الحكم بالتفصيل فى سوره النساء الآيات ٢٠ و ٢١ حيث يأتى ذكره.

و ذهب بعض المفسرين إلى أن مفهوم هذه الجملة أوسع من (المهر) و قالوا أنه يشمل كل ما أعطاه الزوج من الهدايا لزوجته أيضا (١).

و مما يستجلب النظر فى مورد الرجوع و الصلح هو التعبير ب(المعروف) و لكن فى مورد الفرقه و الانفصال ورد التعبير (بإحسان) الذى يفهم منه ما هو أعلى و أسمى من المعروف، و ذلك من أجل جبران ما يتخلف من المراه و الكآبه لدى المراه بسبب الانفصال و الطلاق (٢).

و تستطرق الآية إلى ذكر مسأله (طلاق الخلع) و تقرّر أنه فى حاله واحده تجوز استعادته المهر و ذلك عند رغبه المراه نفسها بالطلاق (٣) حيث تقول الآية

ص: ١٦٠

١-١) - تفسير الكبير: ج ٩ ص ٩٩.

٢-٢) - الميزان: ج ٢ ص ٢٣٤ ذيل الآية.

٣-٣) - و هو الطلاق الخلعى المشروح فى كتب الفقه.

إِلَّا أَنْ يَخَافَ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ

ثُمَّ تَضِيفُ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ .

أى الفديه أو التعويض الذى تدفعه المرأة للتخلص من الرابطة الزوجية، هذه الحالة تختلف عن الاولى فى أن الطالب للفرقة هى المرأة نفسها و يجب عليها دفع الغرامه و التعويض للرجل الذى يريد و يطلب بقاء العلقه الزوجيه، و بذلك يتمكن الزوج بهذه الغرامه و الفديه أن يتزوج مره اخرى و يختار له زوجه ثانيه.

و الجدير بالذكر أن الضمير فى جمله أَلَّا يُقِيمَا الوارد بصوره التثنيه إشاره إلى الزوجين، و لكن فى جمله فَإِنْ خِفْتُمْ ورد بصيغه الجمع للمخاطب، و هذا التفاوت يمكن أن يكون إشاره إلى لزوم نظاره حكام الشرع على هذا اللون من الطلاق، أو إشاره إلى أن تشخيص عدم إمكانيه استمرار الحياه الزوجيه مع رعايه حدود الإلهيه لا- يمكن أن تكون بعهد الزوجين، لأنه فى كثير من الحالات يظن الزوجين و لأسباب نفسيه و حالات عصبيه عدم إمكانيه إدامه الحياه الزوجيه لأسباب تافهه، و لهذا يجب أن تطرح المسأله على العرف و من له علاقه بهذين الزوجين يثبت بهذه الصوره جواز الطلاق الخلعى.

و فى ختام الآيه تشير إلى مجمل الأحكام الوارده فيها و تقول: تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

**مسائل مهمه**

**إشاره**

**١- لزوم تعدد مجالس الطلاق**

يستفاد من جمله الطلاق مَرَّتَانِ أَنْ تَعَدَّ الطَّلَاقَ لا- يصح أن يكون فى مجلس واحد، بل يجب أن يقع الطلاق فى مجالس متعدده، و خاصه إذا عرفنا بأن

ص: ١٦١



الغايه هو إعطاء فرصه أكثر للزوج و احتمال عوده المؤده بعد النزاع الأول.

فإن لم يتحقق الصلح فى المرحله الاولى فسيتحقق فى الثانيه و لكن وقوع عدّه طلاقات مرّه واحده يوصد هذا الباب كليًا و ينفصل الزوجان بعد ذلك نهائيًا فلا أثر لتعدّد الطلاق عملاً.

و هذا الحكم المذكور آنفاً مقبول لدى فقهاء الشيعة، و لكن هناك اختلاف بين أهل السنّه بالرغم من أنّ أكثرهم يرى جواز تعدّد الطلاق فى مجلس واحد.

أمّا كاتب تفسير المنار فينقل عن مسند أحمد بن حنبل و صحيح مسلم أنّ حكم ثلاث طلاقات فى مجلس واحد لا يحسب إلاّ طلاق واحد، و هذا ما كانت السنّه جاريه عليه منذ حياه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم و حتّى سنتين من خلافه عمر حيث يتفق على ذلك جميع الصحابه، و لكنّ الخليفه الثانى بعد ذلك حكم بأنّ الطلاق ثلاثاً فى مجلس واحد صحيح و يقع ثلاثاً.

## ٢- شيخ الأزهر يأخذ برأى الشيعة

مع حكم الخليفه الثانى بوقوع الطلاقات الثلاثه فى مجلس واحد ذهب جماعه من أهل السنّه إلى عدم وقوعها، و منهم الشيخ الأزهر الأكبر (الشيخ محمود شلتوت) حيث كتب فى مجلّه «رساله الإسلام» و فى مقارنه بين آراء المذاهب الإسلاميه و أخذ فى كثير من الأحيان بآراء الشيعة، لأنّها كما يقول أقوى دليلاً و من ذلك مسأله تعدّد الطلاق و أفتى رحمه الله بأنّ الطلاقات الثلاثه فى مجلس واحد هى بمثابة الطلاق الواحد (١).

ص: ١٦٢

١-١) - رساله الإسلام: العدد الأول السنه ١١ ص ١٠٨، نقلاً عن هامش كتر العرفان: ج ٢ ص ٢٧١.

فى هذه الآيه و آيات كثيره اخرى عبرت عن القوانين الإلهيه بكلمه (حد) و بهذا فإن المعصيه و مخالفه هذه القوانين تعدد تجاوزا للحد، و فى الواقع فأن بين الأعمال التى يؤديها الإنسان توجد مجموعه مناطق ممنوعه، أى يكون الدخول فيها خطرا و ترسم القوانين و الأحكام الإلهيه حدود هذه المناطق الممنوعه كالعلامات المنصوبه على تلك المناطق، و لهذا نقرأ فى سوره البقره النهى عن الاقتراب من هذه الحدود تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا (١) لأن الاقتراب منها يعرض الإنسان إلى خطر السقوط فى الهاويه، و كذلك ورد النهى فى روايات أهل البيت عليهم السّلام عن مواضع الشبهه، لأنه بحكم الاقتراب من شفا الهاويه الذى قد يستتبعه السقوط بأدنى غفله (من حام حول الحمى أو شك أن يقع فيه).

ص: ١٦٣

اشاره

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠)

سبب النزول

جاءت امرأه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقالت: كنت عند ابن عمي (رفاعه) فطلقني ثلاثا، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير، ولكنه أيضا طلقني قبل أن يمسي، فهل لي أن أعود إلى زوجي الأول؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا، حتى يذوق عسيلتك، و تذوق عسيلته» أي حتى يتم النكاح مع الزوج الثاني (١).

التفسير

جاء في الآيه السابقه إجمالاً أنّ للمرأة و للرجل بعد الطلاق الثاني أحد

ص: ١٦٤

١-١) -مجمع البيان: ج ١ و ٢ ص ٣٣٠، مع التلخيص من سبب النزول الوارد في تفسير روح المعاني، و القرطبي، و المراعي.

أمرين: إما أن يتصالحا و يرجعا إلى الحياه الزوجيه،و إما أن ينفصلا انفصالا نهائيا.

هذه الآيه حكمها حكم الفقره التابعه لماده قانونيه.

فهذه الآيه تقول إن حكم الانفصال حكم دائمى،إلا إذا اتخذت المرأه زوجها آخر،و طلقها بعد الدخول بها،فعندئذ لها أن ترجع إلى زوجها الأول إذا رأيا أنهما قادران على أن يعيشا معا ضمن حدود الله.

و استفاد من الزوايات عن أئمه الدين أن لهذا الزواج الثانى شرطين،أولاً:أن يكون هذا الزواج دائمياً،و الثانى:أن يتبع عقد الزواج الاتصال الجنسي،و يمكن استفاده هذين الشرطين من مفهوم الآيه أيضاً،أما الأول و هو أن يكون العقد دائمياً فلجمله فإن طلقها الشاهده على هذا المعنى،لأنّ الطلاق لا يكون إلا فى العقد الدائمى،و أما الوطء فيمكن أن يستفاد من جملة حتى تنكح زوجاً غيرهُ لأنّ المستعمل فى سيره أدباء العرب أنهم حينما يقولون(نكح فلانا فلانه)فيمكن أن يراد منه مجرد العقد،أما لو قيل(نكح زوجته)فهذا يدلّ على الوطء(لأنه حسب الفرض أنّها زوجته فعند ما يقال(نكح)فى مورد الزوجه فلا يعنى سوى العمليه الجنسيه) (١) مضافا إلى أنّ المطلق ينصرف إلى الفرد الغالب و الغالب فى عقد الزواج هو اقترانه بالوطئ،و مضافا إلى ما تقدّم فإنّ لهذا الحكم فلسفه خاصه لا تتحقّق بمجرد إجراء العقد كما سنشير إلى ذلك لاحقا.

بحث

اشاره

**المحلل مانع من تكرّر الطلاق:**

المعمول بين الفقهاء أنهم يطلقون على الزوج الثانى فى هذه الموارد قسم

ص: ١٦٥

(١-١) - تفسير التكبير: ج ٦ ص ١٠٤.

(المحلل) لأنه يؤدي إلى أن تكون هذه المرأة حلال لزوجها السابق (طبعاً بعد الطلاق و العده) و الظاهر أن مراد الشارع المقدس من ذلك هو منع تعدد الطلقات.

توضيح ذلك: كما أن الزواج أمر ضروري و حياتي بالنسبة للإنسان، فكذلك الطلاق تحت شرائط خاصه يكون ضرورياً أيضاً، و لذلك نجد أن الإسلام (و خلافاً للمسيحيه المحرفه) يبيح الطلاق، و لكن بما أنه يؤدي إلى تشتيت العائله و إلى إنزال ضربات موجعه بالفرد و المجتمع، فقد وضعت شروط متنوعه للحيلولة دون وقوع الطلاق قدر إمكان.

إن موضوع الزواج المجدد أو «المحلل» واحد من تلك الشروط، إذ أن زواج المرأة من رجل جديد بعد طلاقها من زوجها الأول ثلاثاً يعتبر عائفاً كبيراً بوجه استمرار الطلاق أو التماذي فيه. فالذي يريد أن يطلق زوجته الثالث، يشعر أنه إن فعل ذلك فلن تعود إليه و تكون من نصيب غيره، و هذا الشعور يجرح كرامته، و لذلك فهو لن يقدم على هذا العمل عادة إلا مضطراً.

في الحقيقه أن قضيه «المحلل» أو الأصح زواج المرأة برجل آخر زواجاً دائماً يعتبر مانعاً يقف بوجه الرجال من ذوى الأهواء المتقلبه و المخادعين لكي لا يجعلوا من النساء ألعاب بين أيديهم و غرضاً لخدمه أهوائهم، و أن لا يمارسوا - بلا حدود - قانون الطلاق و العوده.

إن شروط هذا الزواج (كأن يكون دائماً) تدلّ على أن هذا الزواج ليس هدفه إيجاد وسيله لإيصال الزوجه إلى زوجها الأول، لأنه يحتمل أن لا يطلقها الزوج الثاني، لذلك فلا يمكن استقلال هذا القانون و رفع العائق عن طريق زواج مؤقت.

و مع الالتفات إلى ما ذكر أعلاه يمكن القول أن هدف الزواج الثاني بعد ثلاث طلقات و السماح لكل من الزوجين في تشكيل حياه زوجيه جديده من أجل أن لا يصبح الزواج هذا الرّباط المقدس مدعاه للتغالب وفق أهواء الزوج الأول

و مشتهياته الشيطانية، و فى نفس الوقت إذا طلقها الزوج الثانى فإنّ طريق العوده و الرجوع سيكون مفتوحا أمامهما فيجوز للزوج الأول نكاحها من جديد، و لذلك اطلق على الزوج الثانى (المحلل).

و من هنا يتضح أنّ البحث يخص الزواج الواقعى الجاد بالنسبه إلى المحلل، أما إذا قصد شخص منذ البدايه أن يتوسل بزواج مؤقت، و اعتبر القضييه مجرد شكليات يحلها (المحلل) فإنّ زواجا هذا شأنه لا يؤخذ به و يكون باطلا، كما أنّ المرأه لا تحلّ لزوجها الأول، و لعلّ الحديث المذكور

(لعن الله المحلل و المحلل له)

(١)

يشير إلى هذا النوع من المحللين، و هذا الأسلوب من الزواج الظاهرى و الشكلى.

و ذهب البعض إلى أنّ الزوج الثانى إذا قصد الزواج الدائمى الجدى، و لكن كانت نيته أن يفتح طريق عوده المرأه و رجوعها إلى الزوج الأول، فإنّ هذا الزواج يعتبر باطلا أيضا، و ذهب البعض أيضا إلى أنّه فى هذه الحاله يقع الزواج صحيحا رغم أن نيته هى إرجاع المرأه إلى زوجها الأول، و لكنّه مكروها بشرط أن لا يذكر هذا المعنى كالجزم من شرائط العقد.

و من هنا يتضح أيضا الضجّه المفتعله للمغرضين الذين اتّخذوا من (المحلل) ذريعه لشن حملاتهم الظالمه على أحكام الإسلام و مقدساته، فهذه الضجّه المفتعله دليل على جهلهم و قدهم على الإسلام، و إلا فإنّ هذا الحكم الإلهى بالشرائط المذكوره عامل على منع الطلاق المتكرّر و الحدّ من التصرفات الهوجاء لبعض الأزواج، و دافع على إصلاح الوضع العائلى و إصلاح الحياه الزوجيه.

ص: ١٦٧

١-١) - مجمع البيان: ج ٢ ص ٣٣١، و نقل هذا الحديث تفسير القرطبى و المنار و المراغى فى ذيل الآيه المبحوثه أيضا.

اشاره

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّبِعُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُورًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)

التفسير

تستمر هذه الآيه فى تبيان الأحكام التى أقرها الإسلام للطلاق، لكى لا تهمل حقوق المرأه و حرمتها.

تقول الآيه: ما دامت العده لم تنته، و حتى فى آخر يوم من أيامها، فإن للرجل أن يصالح زوجته و يعيدها إليه فى حياه زوجيه حميمه: فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ .

و إذا لم تتحسن الظروف بينهما فيطلق سراحها أو سرحوهن بمعروف .

و لكن كل رجوع أو تسريح يجب أن يكون فى جو من الإحسان و المعروف

و أن لا يخالطه شيء من روح الانتقام. ثم تشير الآية إلى المفهوم المقابل لذلك و تقول:

وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ

هذه الجملة فى الحقيقة تفسير لكلمه «معروف» أى أن الرجوع يجب أن يكون على أساس من الصفا و الوئام، و ذلك لأن الجاهليين كانوا يتخذون من الطلاق و الرجوع وسيله للانتقام، و لهذا يقول القرآن بلهجه قاطعه: إن استرجاع الزوجه يجب أن لا يكون رغبه فى الإيذاء و الاعتداء، إذ أن ذلك-فضلا عن كونه ظلما للزوجه-ظلم لنفس الزوج أيضا.

و الآمن علينا أن نعرف لماذا يكون ظلم الزوج زوجته ظلما لنفسه أيضا؟ أولا: إن الرجوع المبني على غمط الحقوق لا يمكن أن يمنح الهدوء و الاستقرار.

ثانيا: الرجل و المرأه-بالنظره القرآنيه-جزءان من جسد واحد فى نظام الخلقه فكل غمط لحقوق المرأه هو ظلم و عدوان على الرجل نفسه.

ثالثا: إن من يستسيغ ظلم الآخرين يكون غرضا لنيل العقاب الإلهي، فيكون بذلك قد ظلم نفسه.

ثم يحذر القرآن الجميع: وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا هَذَا التعبير يمكن أن يكون إشاره إلى بعض التقاليد الجاهليه المترسّيه فى أفكار الناس، ففى الروايه أن بعض الرجال فى العصر الجاهلي يقولون حين الطلاق: أن هدفنا من الطلاق هو اللعب و المزاح، و كذلك الحال عند ما يعتقون عبدا أو يتزوجون من امرأه.

فنزلت الآيه أعلاه لتحذّرهم بأن كل من يطلق زوجته أو يعتق عبده أو يتزوج من امرأه أو يزوجه من شخص آخر، ثم يدعى أنه كان يمزح و يلعب فإنه لا يقبل



منه، و يتحقّق ما أقدم عليه في الواقع العملي بشكل جاد (١).

و يحتمل أيضا أنّ الآيه ناظره إلى حال الأشخاص المدينين يستغلّون الأحكام الشرعيّه لتبرير مخالفتهم و يتمسّكون بالطّواهر من أجل بعض الحيل الشرعيّه، فالقرآن يعتبر هذا العمل نوع من الاستهزاء بآيات الله، و من ذلك نفس مسأله الزّواج و الطّلاق و الرّجوع في زمان العده بتيه الانتقام و إلحاق الضرر بالمرأه و التّظاهر بأنّه يستفيد من حقّه القانوني.

فعلى هذا لا ينبغي الإغماض عن روح الأحكام الإلهيه و التمسّك فقط بالطّواهر الجامده لها، فلا ينبغي اتّخاذ آيات الله ملعبه بيد هؤلاء، فإنّه يعتبر ذنب عظيم و يترتّب عليه عقوبه أليمه.

ثمّ تضيف الآيه و اذكروا نعمت الله عليكم و ما أنزل عليكم من الكتاب و الحكمه يعظكم به و اتقوا الله و اعلموا أنّ الله بكلّ شئ عليم .

هذه تحذيرات من أجل أن تعلموا: أوّلا: أنّ الله تعالى عدّ تلك التصرفات من خرافات و تقاليد الجاهليه الشنيعه بالنسبه إلى الزّواج و الطّلاق و غير ذلك، فأنقذكم منها و أرشدكم إلى أحكام الإسلام الحياتيه، فينبغي أن تعرفوا قدر هذه النعمه العظيمه و تؤدّوا حقّها، و ثانيا: بالنسبه إلى حقوق المرأه ينبغي أن لا- تسيئوا إليها بالاستفاده من موقعيتكم، و يجب أن تعلموا أنّ الله تعالى مطلع حتّى على نياتكم (٢).

ص: ١٧٠

١-١) - تفسير القرطبي: ج ٢ ص ٩٦٤، و مثله في تفسير المراغي: ج ٢ ص ١٧٩.

٢-٢) - فعلى هذا تكون جملته «و ما نزل عليكم من الكتاب و الحكمه» عطف «نعمه الله» أو من قبيل عطف الخاصّ على العامّ و في هذه الصوره يكون مفهوم «نعمه الله» واسعا حيث يشمل جميع النعم الإلهيه التي منها نعمه المحبّه و الألفه التي جعلها الله بين الزوجين.

اشاره

وَ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُمُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢)

سبب النزول

كان أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو «معقل بن يسار» يعارض زواج أخته «جملاء» من زوجها الأول «عاصم بن عدي» لأن عاصم كان قد طلقها من قبل، ولكن بعد انقضاء العدة رغب الزوجان بالعودة بعقد نكاح جديد. فنزلت الآية ونهت الأخ عن معارضة هذا الزواج.

وقيل إن الآية نزلت في معارضة «جابر بن عبد الله» زواج ابنه عمه من زوجها السابق (١).

ص: ١٧١

---

١-١) -مجمع البيان: ج ١ و ٢ ص ٣٣٢. ونقل أكثر المفسرين مثل: القرطبي، تفسير الكبير، روح المعاني، في ظلال القرآن أحد سبب نزول أو كلاهما في ذيل الآية المبحوثة.

و ربّما كان حقّ المنع هذا يعطى فى الجاهليّه للأقربين.

لا شكّ أنّ الأخ و ابن العمّ لا ولايه لهما-فى فقهنّا-على الأخت و ابنه العم. إلا أنّ هذه الآيه تتحدّث عن حكم عام-كما سنرى- يشمل الأولياء و غير الأولياء، و تقول أنّه حتّى الأب و الأم و ابن العم، و كذلك الغرباء لا حقّ لهم فى الوقوف بوجه هذا الزواج.

## التفسير

ذكرنا فى البحوث السابقه كيف كانت النسوه يعشن فى أسر العادات الجاهليه، و كيف كن تحت سيطره الرجال دون أن يعنى أحد برغبتهم و رأيهم.

و إختيار الزوج كان واحدا من قيود ذلك الأسر، إذ أنّ رغبه المرأه و إرادتها لم يكن لها أىّ تأثير فى الأمر، فحتّى من كانت تتزوج زواجا رسميا ثمّ تطلق لم يكن لها حقّ الرجوع ثانيه بمحض إرادتها، بل كان ذلك منوطا برغبه وليها أو أوليائها، و كانت ثمّه حالات يرغب فيها الزوجان بالعوده إلى الحياه الزوجيه بينهما، و لكن أولياء المرأه كانوا يحولون دون ذلك تبعا لمصالحهم أو لتخيّلاتهم و أوهامهم.

إلا أنّ القرآن أداّن هذه العاده، و رفض أن يكون للأولياء مثل هذا الحقّ، إذ أنّ الزوجين- و هما ركنا الزواج الأصليان، إذا توصّيا إلى اتفاق بالعوده بعد الانفصال- يستطيعان ذلك دون أن يكون لأحد حقّ الاعتراض عليهما. تقول الآيه و إذا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُمُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ هَذَا إِذَا كَانَ الْمُخَاطَبُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُمُ الْأَوْلِيَاءُ مِنَ الرِّجَالِ الْأَقْرَابِ، و لكن يحتمل أن يكون المخاطب هو الزوج الأوّل. بمعنى أنكم إذا طلقتم زوجاتكم فلا تمنعوهن من الزواج المجدّد مع رجال آخرين، حيث إن بعض الأشخاص المعاندين فى السابق و فى الحال الحاضر يشعرون بحساسيه

شديده تجاه زواج زوجاتهم السابقه من آخرين، و ما ذلك سوى نزعه جاهليه فحسب (١).

فى الآيه السابقه «بلوغ الأجل» يعنى بلوغ أواخر أيام العده، و لكن فى هذه الآيه المقصود هو انقضاء آخر يوم من العده، بقريته الزواج المجدد. فالغايه فى الآيه السابقه جزء من المغيا و فى الآيه محل البحث خارجه عن المغيا.

و يتبين من هذه الآيه أنّ الثيبات- أى اللواتى سبق لهنّ الزواج ثمّ طلقن أو مات أزواجهنّ- إذا شئن الزّواج ثانيه فلا يلزمهنّ موافقه أوليائهنّ أبدا.

ثمّ تضيف الآيه و تحذّر ثانيه و تقول: ذَلِكْ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ثُمَّ مِنْ أَجْلِ التَّأَكِيدِ أَكْثَرَ تَقُولُ: ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

يشير هذا المقطع من الآيه إلى أنّ هذه الأحكام قد شرّعت لمصلحتكم غايه الأمر أنّ الأشخاص الذين ينتفعون بها هم الذين لهم أساس عقائدى من الإيمان بالله و المعاد و لا يتبعون أهوائهم.

و بعبارة اخرى أنّ هذه الجملة تقول: أنّ نتيجة العلم بهذه الأحكام يصبّ فى مصلحتكم، لكنكم قد لا تدركون الحكمه و الغايه منها لجهلكم و قلّه معارفكم، و الله هو العالم بكلّ الأسرار، و لذلك قرّر هذه الأحكام و شرّعها لما فيها من تركيتكم و حفظ طهارتكم.

و الجدير بالذكر أنّ الآيه تشير إلى أنّ العمل بهذه الأحكام يستوجب:

(التركيه) و (الطهاره) فتقول أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ يعنى أنّ العمل بها يطهّر أفراد العائله من مختلف الأذناس و الخبائث، و كذلك يوجب لهم الخير و البركه و التكامل

ص: ١٧٣

١- ١) -رجح البعض التفسير الثانى لأنّ المخاطب فى الآيات السابقه هو الأزواج و لكنه يشكل بأنّ تعبير «أزواجهن» يكون تعبيرا مجازيا بالنسبه إلى الأزواج مضافا إلى انه لا ينسجم مع شأن النّزول.

المعنوى، لأن «التزكية» فى الأصل (الزكاه) بمعنى النمو.

و ذكر بعض المفسرين إن جملة أَرْكَى لَكُمْ تشير إلى الثواب المترتب على الأعمال، و جملة (أطهر) تشير إلى الطهاره و النقاء من الذنوب. و من البديهي أن الزوجين بالرغم من كل تلك العلاقه الوطيده و الحميمه التى تربط بينهما قد ينفصلا بسبب بعض الحوادث المؤسفه، و لكن بعد الانفصال و الفرقه و مشاهده الآثار الوخيمه المترتبه على هذه الفرقه يندمان و يصممان على العوده إلى الحياه المشتركه، و هنا لا ينبغى التشدد و التعصب لمنع عودتهما لأن ذلك يخلد آثارا سلبية و خيمه فى روحيه كل منهما، و قد يؤدى إلى انحرافهما و تلوثهما بالزذيله، و إن كان لهما أبناء كما هو الغالب فإن مصيرهم سوف يكون تعيسا جدا، و مسئوليته هذه العواقب الأليمه و الإفرازات المشؤومه تكون بعهدده من يمنع هذين الزوجين من المصالحه.

ص: ١٧٤

اشاره

وَ الْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّمَ الرِّضَاعَةَ وَ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ  
نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَ لَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ وَ عَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَ تَشَاهُرٍ فَلَا  
جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَأَلْتُم مِمَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا  
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣)

التفسير

اشاره

أحكام الرضاع السبعة:

هذه الآيه فى الواقع استمرار للأبحاث المتعلقة بمسائل الزواج و الحياه الزوجيه، و تبحث مسأله مهمه هى مسأله (الرضاع)، و تذكر  
بعبارات مقتضبه و فى نفس الوقت ذات معنى عميق الجزئيات المتعلقة بالرضاع المختلفه، فهناك على العموم سبعة أحكام فى  
هذا الباب:

ص: ١٧٥

١- تقول الآية في أولها وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ .

(والدات) جمع (والده) وهى فى اللغه بمعنى الام، و لكن كلمه الام لها معنى أوسع وهى قد تطلق على الوالده و على الجدّه أى والده الوالده، و قد تعنى أصل الشئ و أساسه.

و فى هذا المقطع من الآيه نلاحظ أنّ حقّ الإرضاع خلال سنتى الرضاعه يعود للام، فهى التى لها أن ترضع مولودها خلال هذه المدّه و أن تعتنى به، و على الرغم من أنّ (الولايه) على الأطفال الصغار قد أعطيت للأب، و لكن لما كانت تغذيه الوليد الجسميه و الروحيه خلال هذه المدّه ترتبط ارتباطا لا ينفصم بلبن الأم و عواطفها، فقد أعطيت حقّ الاحتفاظ به، كما تجب مراعاة عواطف الأمومه، لأنّ الأم لا تستطيع فى هذه اللحظات الحساسه أن ترى حضنها خاليا من وليدها و أن لا تبالى به، و عليه فإنّ تخصيصها بحقّ الحضانه و الرعايه و الرضاعه يعتبر حقا ذا جانبين، فهو يرعى حال الطفل كما يرعى حال الأم، و التعبير ب«أولادهن» إشاره لطيفه إلى هذا المعنى. و بالرغم من أن الجملة مطلقه ظاهرا و تشمل النساء المطلقات و غير المطلقات، و لكن الجملة اللاحقه توضح أن الآيه تقصد النساء المطلقات مع وجود هذا الحقّ لسائر الأمهات، و لكن فى صورته عدم وجود الطلاق فلا أثر عملى لهذا الحكم.

٢- ليس من الضرورى أن تكون مدّه رضاعه الطفل سنتين حتما، إنّما السنتان لمن يريد أن يقضى دوره رضاعه كامله لمن أراد أن يُتِمَّ الرِّضَاعَةَ و لكن للأم أن تقلل من هذه الفتره حسب مقتضيات صحّه الطفل و سلامته.

فى الروايات التى وصلتنا من أهل البيت عليهم السّلام أنّ دوره رضاعه الطفل الكامله سنتان كاملتان، و دورتها غير الكامله ٢١ شهرا (١)، و لعلّ هذا يأخذ أيضا بنظر

ص: ١٧٦

١ - ١) - وسائل الشيعه: ج ١٥ ص ١٧٧ (باب أقل مدّه الرضاع و أكثره) ج ٢ و ٥، و ورد فى بعض هذه الروايات إذا نقص عن (٢١) شهرا كان ظلما للرضيع.

الاعتبار مفاد هذه الآيه مع الآيه (١٥) من سوره الأحقاف التى تقول وَ حَمْلُهُ وَ فَضَّلَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا . و لَمَّا كَانَتْ فَتْرَهُ الْحَمْلِ ٩ أشهر، فتكون فتره الرضاعه الاعتياديه ٢١ شهرا.

و لَمَّا لَمْ يَكُنْ فِي آيَةِ سُوْرَةِ الْأَحْقَافِ مَا يَفِيدُ الْإِجْرَامَ وَ الْوَجُوبَ، فَإِنَّ لِلْوَالِدَاتِ الْحَقَّ فِي تَخْفِيزِ فَتْرِهِ ال ٢١ شهرا بما يَتَّفِقُ وَ صَحَّهِ الْوَلِيدِ وَ سَلَامَتِهِ.

٣-نفقه الأم فى الطعام و اللباس، حتّى عند الطلاق أثناء فتره الرضاعه تكون على والد الطفل، لكى تتمكن الأم من الانصراف إلى العنايه بطفلها و إرضاعه مرتاحه البال و بدون قلق.

وَ عَلَي الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ

هنا تعبير «المولود له» بدلا من «الأب» يستلقت الانتباه، و لعلّه جاء لاستثارة عواطف الأبوه فيه فى سبيل حثّه على أداء واجبه. أى أنّه إذا كان قد وضع على عاتقه الإنفاق على الوليد و أمه خلال هذه الفتره، فذلك لأنّ الطفل ابنه و ثمره فؤاده، و ليس غريبا عنه.

إنّ الإتيان بقيد «المعروف» يشير إلى أنّ طعام الأم و لباسها ينبغى أن يكونا من اللائق بها و المتعارف عليه، فلا يجوز التقتير و لا الإسراف.

و لرفع كلّ غموض محتمل تشير الآيه إلى أنّ على كلّ أب أن يؤدّى واجبه على قدر طاقته لا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . و يرى البعض أن هذه الجملة بمثابة العله لأصل الحكم. و البعض الآخر بعنوان تفسير الحكم السابق (و النتيجة واحده).

٤- لا يحقّ لأى من الوالدين أن يجعلوا من مستقبل وليدهما و مصيره أمرا مرتبطا بما قد يكون بينهما من اختلافات، فيكون من أثر ذلك أن تصاب نفسه الوليد بضربه لا يمكن تفادى آثارها.

لَا تُضَارُّ وَالِدَهُ بِوَلَدِهَا وَ لَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ

على الأب أن يحذر انتزاع الوليد من أحضان أمه خلال فتره الرضاعه



فيعدى بذلك على حقّ الأم في حضانه وليدها. كما أنّ على الأم التي أعطيت هذا الحقّ أن لا تستغله و أن لا تتذرع بمختلف الأعذار الموهومه للتصلّ من إرضاع وليدها، أو أن تحرم الأب من رؤيه طفله.

و ذكر احتمال آخر في تفسير الآيه و هو أنّ المراد أنّ الأب ليس له أن يسلب الرّوجه حقّها في المقاربه الجنسيه بسبب الخوف من الحمل و في النتيجة الإضرار بالمرضع، و لا الام بإمكانها منع زوجها من هذا الحقّ لهذا السبب، و لكنّ التفسير الأول أكثر انسجاما مع ظاهر الآيه (١).

التعبير ب(ولدها) و(ولده) من أجل تشويق الآباء و الأمهات برعايه حال الأطفال الرّضع، مضافا إلى أنّه إشاره إلى أنّ الرّضيع متعلّق لكليهما خلافا لما هو المرسوم من تقاليد الجاهليه من أنّ الولد متعلّق بالأب خاصّه و ليس للام سهم من الحقّ فيه.

٥- ثمّ تبين الآيه حكما آخر يتعلّق بما بعد وفاه الأب فتقول: وَ عَلَيَّ الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ .

يعنى أنّ الورثه يجب عليهم تأمين احتياجات الام في مرحله الرّضاعه للطفل، و هناك احتمالات اخرى في تفسير الآيه الشريفه و لكنّها ضعيفه.

٦- و تتحدّث الآيه أيضا عن مسأله فطام الطّفل عن الرّضاعه و تجعله بعهده كلّ من الأبوين على الرّغم ممّا جاء في الآيات السابقه من تحديد فتره الرّضاعه، إلا أنّ للأبوين أن يفظما الطّفل وقت ما يشاء ان حسب ما تقتضيه صحّه الطّفل و سلامته الجسميه، و تقول الآيه: فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَ تَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا .

و في الواقع أنّ الأب و الام يجب أن يراعي مصالح الطّفل و يتشاوران في ذلك

ص: ١٧٨

١- ١) - على التفسير الأول فعل «لا تضار» فعل معلوم، و على التفسير الثاني فعل مجهول و إن كان تلفظ الاثنين واحدا، تأمل جيدا.

للوصول إلى التوافق و التراضي، فيضعان برنامج مدروس لطفام الطفل من الرضاع دون أن يحدث لهما مشاجره في هذه المسأله و التي قد تؤدي إلى ضياع حقوق الطفل.

٧- أحيانا تمتنع الام من حضانه الطفل و حقها في إرضاعه و رعايته أو أنه يوجد هناك مانع حقيقي لذلك، ففي هذه الصوره يجب التفكير في حل هذه المسأله و لهذا تقول الآيه وَ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَأَلْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ .

و هناك عدّه تفاسير لجمله إِذَا سَأَلْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ فذهب بعض المفسرين .

و أنه لا مانع من اختيار مرضعه بدل الام بعد توافق الطرفين بشرط أن هذا الأمر لا يسبب إهدار حقوق الام بالنسبه إلى المدّه الفائته من الرضاعه، بل يجب إعطاءها حقها في المدّه الفائته التي أرضعت فيها الطفل حسب ما تقتضيه الأعراف و العادات.

و ذهب بعض المفسرين إلى أن العبارة ناظره إلى حقّ المرضعه، فيجب أداء حقها وفقا لمقتضيات العرف و العاده، و ذهب آخرون إلى أن المراد من هذه الجملة هو اتفاق الأب و الأم في مسأله انتخاب المرضعه فعلى هذا تكون تأكيداً للجمله السابقه، و لكن هذا التفسير ضعيف ظاهراً، و الصحيح هو التفسير الأول و الثاني، و قد اختار المرحوم (الطبرسي) التفسير الأول (١) .

و في الختام تحذّر الآيه الجميع و تقول وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

فلا ينبغي للاختلافات التي تحصل بين الزوجين أن تؤدي إلى إيقاد روح الانتقام فيهما حيث يعرض مستقبلهما و مستقبل الطفل إلى الخطر، فلا بد أن يعلم

ص: ١٧٩

الجميع بأنَّ الله تعالى يراقب أعمالهم بدقّه.

هذه الأحكام المدروسة بدقّه و المشفوعه بالتحذيرات تبين بوضوح درجه اهتمام الإسلام بحقوق الأطفال و كذلك الامهات حيث يدعو إلى رعايه الحدّ الأكثر من العداله فى هذا المجال.

أجل، فإنّ الإسلام-و على خلاف ما هو السائد فى العالم المادى المعاصر حيث تسحق فيه حقوق الطبقة الضعيفه-يهتم غايه الاهتمام بحفظ حقوقهم.

ص: ١٨٠

اشاره

وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنُتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَذَكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرُضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)

التفسير

اشاره

خرافات تبعث على تعاسة المرأة:

إن واحده من المشاكل الرئيسييه فى حياه المرأه هى الزواج بعد موت زوجها.

ولما كان بناء الأرملة بزواج جديد بعد موت زوجها السابق مباشره لا ينسجم مع ما تكنه من حب و احترام لزوجها المتوفى، ولا مع الاطمئنان إلى عدم وجود

حمل في رحمها منه، وقد يؤدي إلى جرح مشاعر أهل زوجها الأول، فقد جاءت الآية تشترط للزواج الجديد أن يمر على موت زوجها السابق أربعة أشهر وعشرة أيام.

إن احترام الحياه الزوجيه بعد موت أحد الزوجين أمر فطري، بحيث نجد في مختلف القبائل تقاليدا وطقوسا خاصه بهذا الموضوع على الرغم من أن بعض هذه العادات كانت تبلغ حد الإفراط الذي يقيد المرأة بقيود ثقيه تبلغ حد القضاء على حياتها احتراما لذكرى زوجها الراحل. كقيام بعض القبائل بحرق المرأة بعد موت زوجها، أو بدفنها حيّه معه في قبره. و بعض آخر كانوا يحرمون المرأة من الزواج بعد زوجها مدى الحياه، و في بعض القبائل كان على المرأة أن تقضى بعض الوقت بجانب قبر زوجها تحت خيمه سوداء قدره و في ملابس رثه بعيده عن كل نظافه أو زينه أو اغتسال (١).

إلا أن الآية المذكوره تلغى كل هذه الخرافات، و لكنّها تحافظ على احترام الحياه الزوجيه بإقرار العده.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ

و بما أن أولياء و أقرباء المرأة يتدخلون أحيانا في أمرها أو يأخذون بمصالحهم بنظر الإعتبار في زواجها المجدد تقول الآية في ختامها: وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ و سيجازى كل شخص بما عمله من أعمال سيئه أو حسنه.

و جمله فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف و التي تشير إلى أن المخاطب فيها هم الرجال من أقرباء المرأة تدل على أنهم كانوا يرون في تحرر

ص: ١٨٢

المرأه بعد وفاه زوجها عيبا و إثمًا، و يعتقدون بأنّ التضييق عليها و التشدد في أمرها من واجباتهم، فهذه الآيه تأمر بصراحه بترك هذه الامرأه حرّه في اختيارها و لا إثم عليكم من ذلك(و يستفاد ضمنا من هذه العبارة سقوط ولاية الأب و الجد أيضا عليها)و لكن في نفس الوقت تتضمن الآيه تحذيرا للمرأه بأنه لا ينبغي أن تسيء الاستفاده من هذه الحرّيّه، بل تتقدّم إلى اختيار الزوج الجديد بخطوات مدروسه و أسلوب لائق(بالمعروف).

و حسب ما وصلنا من أئمّه المسلمين فإنّ على الأرامل في هذه الفتره أن يحافظن على مظاهر الحزن، أي ليس لهنّ أن يتزيّن مطلقا، بل ينبغي التجرد من كلّ زينته، و لا شك أنّ فلسفه المحافظه على هذه العده توجب ذلك أيضا.

لقد حرّر الإسلام المرأه من الخرافات الجاهليّه و اقتصر على هذه العده القصيره بحيث ظنّ بعضهم أنّ لها أن تتزوج حتّى خلال هذه الفتره، و من ذلك أنّ امرأه قدمت على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم تستجيزه أن تكتحل و هي في العده فنهاها رسول الله و ذكرها بما كان يفرض على المرأه في الجاهليّه خلال سنه كامله بعد الوفاه من حداد شديد و إرهاق فظيع مشيرا إلى سماحه الإسلام في هذا الأمر (1) و إنّهُ ممّا يلفت النظر أنّ الأحكام الإسلاميه بشأن العده تأمر المرأه بالتزام العده حتّى و إن لم يكن هناك أيّ احتمال بأن تكون حاملا، حيث إنّ عدتها لا تبدأ بتاريخ موت زوجها، بل بتاريخ وصول خبر موت زوجها إليها و إن يكن بعد شهر، و هذا يدلّ دلالة قاطعه على أنّ الهدف من هذا التشريع هو الحفاظ على احترام الحياه الزوجيّه و حرمتها إضافه إلى ما لهذا التشريع من أهميّه بالنسبه لاحتمال حمل المرأه.

ص: ١٨٣

الآيه الثانيه تشير إلى أحد الأحكام المهمه للنساء فى العده (بمناسبه البحث عن عده الوفاه فى الآيات السابقه) فتقول ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنُتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا .

فهذه الآيه تبيح للرجال أن يخطبوا النساء اللواتى فى عده الوفاه بالكنايه أو الإضممار فى النفس أو أكننتم فى أنفسكم و هذا الحكم فى الواقع من أجل الحفاظ على حريم الزواج السابق من جهه، و كذلك لا يحرم الأرملة من حقها فى تعيين مصيرها من جهه اخرى، فهذا الحكم يراعى العدالة و كذلك حفظ احترام الطرفين.

و من الطبعى أن تفكر المرأة فى مصيرها بعد وفاه زوجها، و كذلك يفكر بعض الرجال بالزواج بهنّ للشروط اليسيره السهله فى الزواج بالأرامل، و لكن من جهه لا بدّ من حفظ حريم دائره الزوجيه السابقه كما ورد من الحكم أنفا يدلّ بوضوح على رعايه كلّ هذه المسائل المذكوره، و نفهم من عبارته و لكن لا تؤاعدوهنّ سِرًّا أنه مضافا إلى النهى عن الخطبه العلنيه فإنه لا يجوز كذلك أن تصارحوهنّ بالخطبه سِرًّا أيضا إلا إذا كان الكلام بهذا الشأن يتفق مع الآداب الاجتماعيه فى موضوع موت الزوج، أى أن يكون الكلام بالكنايه و بشكل مبطن.

و عبارته (عَرَّضْتُمْ) من مادّه (التعريض) و التى تعنى كما يقول الرّاعب فى المفردات: الحديث الذى يحتمل معنيين الصدق و الكذب أو الظاهر و الباطن.

و على قول المفسّر الكبير المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان أنّ التعريض ضد التصريح، و هو فى الأصل من مادّه (عرض) الذى هو بمعنى جانب الشىء (1).

ص: ١٨٤

و يضرب أئمه الإسلام في تفسير هذه الآيه بشأن الخطبه الخفيّه أو القول المعروف كما يقول القرآن أمثله عديده، من ذلك ما

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قال (يلقاها فيقول إني فيك راغب و إني للنساء لمكرم فلا تسبقيني بنفسك) (١).

و قد ورد هذا المضمون أو ما يماثله في كلام كثير من الفقهاء و الجديير بالذكر أنّ الآيه أعلاه على الرّغم من أنّها وردت بعد الآيه التي تذكر عدّه الوفاء، و لكنّ الفقهاء صرّحوا بأنّ الحكم أعلاه لا يختصّ بعدّه الوفاء بل يشمل غيرها أيضا.

يقول المرحوم الفقيه و المحدث المعروف صاحب الحقائق: (و قد صرّح الأصحاب بأنّه لا يجوز التعريض بالخطبه لذات العدّه الرجعيّه لأنّها زوجته، فيجوز للمطلّقه ثلاثا من الزوج و غيره، و لا- يجوز التصريح لها منه و لا- من غيره، أمّا المطلّقه تسعا للعدّه ينكحها بينها رجلان فلا يجوز التعريض لها من الزوج و يجوز من غيره، و لا يجوز التصريح في العدّه منه و لا من غيره.

أمّا العدّه البائنه فيجوز التعريض من الزوج و غيره و التصريح من الزوج دون غيره) (٢).

و إذا أردتم التفصيل راجعوا الكتب الفقيهيه بالأخص كتاب الحقائق في استمرار هذا البحث.

ثمّ تضيف الآيه و لا تَعَزِّمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ فَمِنَ الْمُسْلِمِ أَنَّ الشَّخْصَ إِذَا عَقَدَ عَلَى الْمَرْأَةِ فِي عِدَّتِهَا يَقَعُ الْعَقْدُ بَاطِلًا، بَلْ أَنَّهُ إِذَا أَقْدَمَ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ عَالِمًا بِالْحَرَمِ فَإِنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ سَتَحْرَمُ عَلَيْهَا أَبَدًا.

و بعد ذلك تعقب الآيه: وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ .

ص: ١٨٥

١-١) -تفسير نور الثقلين: ج ١ ص ٢٣٢ ح ٩٠٥.

٢-٢) -الحقائق: ج ٢٤ ص ٩٠.



و بهذا لا بدّ أن تعلموا أنّ الله تعالى مطّلع على أعمالكم و نياتكم و في نفس الوقت لا يؤاخذ المذنبين بسرعته.

جمله لا- تَعَزُّمُوا من مادّه (عزم) بمعنى قصد، فعند ما تقول الآية وَ لَا تَعَزِّمُوا عُقُودَ النِّكَاحِ فهو في الواقع نهى مؤكّد عن الإقدام العملي على عقد الزّواج و يعنى التحذير حتّى من نيته و قصد هذا العمل في زمان العده.

ص: ١٨٦

اشاره

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَ مَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَّاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)

التفسير

اشاره

كيفية أداء المهر:

في هاتين الآيتين نلاحظ أحكام أخرى للطلاق استمرارا للأبحاث السابقة.

تقول الآية في البدايه لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ (١) أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً

ص: ١٨٧

١- ١) - «مس» في اللغة بمعنى الملامسه، و هنا كناية عن الجماع و«فريضة» بمعنى الواجب، و هنا جاءت بمعنى المهر.

و هذا يعنى جواز طلاق النساء قبل المقاربه الجنسيه و قبل تعيين المهر، و هذا فى صورته ما إذا علم الرجل أو كلا الزوجين بعد العقد و قبل المواقعه أنهما لا يستطيعان استمرار الحياه الزوجيه هذه، فمن الأفضل أن يتفارقا فى هذا الوقت بالذات، لأنّ الطلاق فى المراحل اللاحقه سيكون أصعب.

و على كلّ حال فهذا التعبير فى الآيه جواب على من يتصوّر أنّ الطلاق قبل المواقعه أو قبل تعيين المهر لا يقع صحيحاً، فالقرآن يقول أنّ هذا الطلاق صحيح و لا إثم عليه (و قد يمنع من كثير من المفسدات).

و ذهب البعض أن (جناح) فى هذه الآيه بمعنى (المهر) الذى يثقل على الزوج، يعنى أنّ الرجل حين الطلاق و قبل المقاربه الزوجيه و تعيين المهر ليس مكلفاً بدفع أى شىء بعنوان المهر إلى المرأه، و بالرغم من أنّ بعض المفسرين (١) أورد كلاماً طويلاً حول هذا التفسير، و لكن استعمال كلمه «جناح» بمعنى المهر يعتبر غريباً و غير مأنوس.

و احتمال آخرون أنّ معنى الجملة أعلاه هو جواز طلاق المرأه قبل المقاربه الجنسيه فى جميع الأحوال (سواء كانت فى العاده الشهرية أو لم تكن) و الحال أنّ الطلاق بعد المواقعه الجنسيه يجب أن يكون فى الزمان الطهر الذى لم يواقعها فيه حتماً (٢)، و لكن هذا التفسير بعيد جداً لأنه لا ينسجم مع جملة أو تفرّضوا لهنّ فريضه .

ثمّ تبين الآيه حكماً آخر فى هذا المجال و تقول: وَ مَتَّعُوهُنَّ أَى يجب أن تمنح المرأه هديه تناسب شؤونها فيما لو جرى الطلاق قبل المضاجعه و قبل تعيين المهر، و لكن يجب أن يؤخذ بنظر الإعتبار قدره الزوج المائيه فى هذه الهديه،

ص: ١٨٨

١-١) - تفسير الكبير: ج ٦ ص ١٣٧.

٢-٢) - المصدر السابق.

و لذلك تعقب الآيه الشريفه بالقول عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَ عَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ .

(الموسع) بمعنى المقتدر و الثرى و(المقتر)بمعنى الفقير(من مادّه قتر و كذلك وردت بمعنى البخل أيضا)كقوله تعالى وَ كَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (١) .

و جمله مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ يمكن أن تشير إلى جميع ما ذكرناه،أى أن الهدية لا بد أن تكون بشكل لائق و بعيدة عن الإسراف و البخل.

و مناسبه لحال المهدي و المهدي إليه.

و لَمَّا كان لهذه الهدية أثر كبير للقضاء على روح الانتقام و فى الحيلولة دون إصابه المرأه بعقد نفسية بسبب فسخ عقد الزواج،فإن الآيه تعتبر هذا العمل من باب الإحسان حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢) أى أن يكون ممزوجا بروح الإحسان و اللطف،و لا حاجة إلى القول بأن تعبير(المحسنين)لم يأت ليشير إلى أن الحكم المذكور ليس إلزاميًا،بل جاء لإثارة المشاعر و العواطف الخيره فى الناس للقيام بهذا الواجب الإلزامى.

الملاحظه الاخرى فى هذه الآيه هى أن القرآن يعبر عن الهدية التى يجب أن يعطيها الرجل للمرأه باسم(متاع)فالمتاع فى اللغه هو كل ما يستمتع به المرء و ينتفع به،و يطلق غالبا على غير النقود،لأن الأموال لا يمكن التمتع بها مباشرة،بل لا بدّ أولا من تبديلها إلى متاع،و لهذا كان تعبير القرآن عن الهدية بالمتاع.

و لهذا العمل أثر نفسى خاص،فكثيرا ما يحدث أن تكون الهدية من المأكل أو الملبس و نظائرها مهما كانت زهيدة الثمن أثر بالغ فى نفوس المهدي إليهم لا يبلغه أبدا أثر الهدية النقديه،لذلك نجد أنّ الروايات الواصله إلينا عن أمّه

ص: ١٨٩

١- (١) -الاسراء: ١٠٠.

٢- (٢) -«حَقًّا»يمكن أن تكون صفة ل«متاعا»،أو حال أو مفعول مطلق لفعل محذوف-«متاعا»مفعول مطلق أيضا عن جمله«و متعوهن».

الأطهار عليهم السّلام تذكر هذه الهدايا بصورة مأكل أو ملبس أو أرض زراعته.

كذلك يتّضح من هذه الآيه أنّ تعيين المهر قبل إجراء العقد فى النكاح الدائم ليس ضروريًا إذ يمكن للطرفين أن يتّفقا على ذلك بعد (1) إذ كما تفيد الآيه أيضا أنّه إذا حصل الطّلاق قبل تعيين المهر و قبل المضاجعه فلا يجب المهر، بل يستعاض عنه بالهدية المذكوره.

و يجب الالتفات إلى أنّ الزّمان و المكان مؤثّران فى مقدار الهدية المناسبه.

و تتحدّث الآيه التاليه عن حاله الطّلاق الّذى لم يسبقه المضاجعه و لكن بعد تعيين المهر فتبيّن أنّ الحكم فى هذا اللّون من الطّلاق الّذى يكون قبل المضاجعه و بعد تعيين المهر يوجب على الزّوج دفع نصف المهر المعين و إنّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ .

و هذا هو حكم القانونى لهذه المسأله، فيجب دفع نصف المهر إلى المرأه بدون أيه نقيصه، و لكن الآيه تتناول الجوانب الأخلاقيه و العاطفيه و تقول: إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدُهُ النَّكَاحِ .

و المراد من ضمير (يعفون) هم الأزواج، أمّا فى قوله أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدُهُ النَّكَاحِ هو ولى الصغير أو السفيه، و من الواضح أنّ الولى ليس له الحقّ من أن يعفو أو يتنازل عن حقّ الصغير إلاّ إذا تضمّن مصلحه الصغير.

فعلى هذا يكون حكم دفع نصف المهر بغض النظر عن مسأله العفو و التنازل عن الحقّ، و ممّا تقدّم يتّضح أن من له العفو هو الولى للصغير أو السفيه لأنّه هو الّذى بيده أمر زواج المولى عليه، و لكن بعض المفسرين تصوّروا أنّ المراد هو الزّوج، بمعنى أنّ الزوج متى ما دفع تمام المهر قبلا (كما هو المتعارف عند الكثير من

ص: ١٩٠

١ - ١) - لا شكّ أنّ المهر لا يسقط إن لم يذكر فى العقد الدائم بل يعبر (مهر المثل) أى المهر الذى يعادل مهر نساء مماثلات إلاّ إذا حصل الطّلاق قبل الدخول عندئذ يتوجب تقديم هديه كما ذكرنا.

العرب) فله الحق في أن يسترجع نصف المهر إلا أن يعفو و يتنازل عنه.

أما مع الملاحظه الدقيقه في مضمون الآيه يتبين أنّ التفسير الأول هو الصحيح، وأنّ المخاطب في هذه الآيه هم الأزواج حيث تقول: وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ فِي حِينِ أَنْ الضَّمِيرُ فِي جَمَلِهِ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ جَاءَ حِكَايَهُ عَنِ الْغَائِبِ وَ لَا يَتَنَاسَبُ ذَلِكَ مَعَ عَوْدِهِ إِلَى الْأَزْوَاجِ.

أجل، فإنّ الآيه في الجملة التاليه تقول وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَ لَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

فمن الواضح أنّ المخاطب في هذه الجملة هم الأزواج، فتكون النتيجة أنّ الحديث في الجملة السابقه كان عن عفو الأولياء، وفي هذه الجملة تتحدّث الآيه عن عفو الأزواج، و جملة وَ لَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ خطاب لعموم المسلمين أن لا ينسوا المثل الإنسانيه في العفو و الصفح و الإيثار في جميع الموارد.

و هذا ما ورد في الروايات التي وصلتنا من الأئمه المعصومين عليهم السلام في تفسير هذه الآيه، و كذلك نرى أنّ المفسرين الشيعه قد اختاروا هذا الرأى بالتوجه إلى مضمون الآيه و الروايات الشريفه، فذهبوا إلى أنّ المقصود في هذه العبارة هم أولياء الرّوجه.

و من الطبيعي أن تطرأ ظروف تجعل الاضطرار إلى أخذ نصف المهر حتّى قبل الدّخول أمرا قد يشير مشاعر الرّجل و أقرباءه و يجرح عواطفهم و قد ينزعون إلى الانتقام، و يحتمل أن تتعرّض سمعه المرأه و كرامتها إلى الخطر، فهنا قد يرى الأب أنّ من مصلحه ابنته أن يتنازل عن حقّها.

جملة وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى تبين جانبا آخر من واجبات الرّوج الإنسانيه، و هو أن يظهر الرّوج التنازل و الكرم فلا يسترجع شيئا من المهر إن كان قد دفعه، و إن لم يكن دفعه بعد فمن الأفضل دفعه كاملا متنازلا عن النصف الذي

هو من حقّه، وذلك لأنّ المرأه التي تنفصل عن زوجها بعد العقد تواجه صدمه نفسيه شديده، ولا شكّ أنّ تنازل الرجل عن حقّه من المهر لها يكون بمثابة البلم لجرحها.

و نلاحظ تأكيدا في سياق الآيه الشريفه على أصل (المعروف) و(الإحسان) فحتّى بالنسبه إلى الطلاق و الانفصال لا ينبغي أن يكون مقترنا بروح الانتقام و العداوه، بل ينبغي أن يتم على أساس السماحه و الإحسان بين الرجل و المرأه، لأنّ الزوجين إذا لم يتمكنّا من العيش سوّيّه و فضلا الإفتراق بدلائل مختلفه، فلا دليل حينئذ لوجود العداوه و البغضاء بينهما.

ص: ١٩٢

اشاره

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ حِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أُمْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩)

سبب النزول

تذرع جمع من المنافقين بحراره الجو لإلقاء التفرقه في صفوف المسلمين، فلم يكونوا يشتركون في صلاة الجماعة، فتبعهم آخرون وأخذوا يتخلفون عن صلاة الجماعة، فقلّ بذلك عدّه المصلّين، فتألّم النبي صلى الله عليه وآله وسلم لذلك كثيرا حتّى أنّه هدّدهم بعقاب أليم، و

في حديث عن زيد بن ثابت قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يؤدّي صلاة الظهر جماعة والحجر على أشدّه ممّا كان يثقل على أصحابه كثيرا بحيث أنّ صلاة الجماعة أحيانا لم تتجاوز صفا واحدا أو صفّين، فهنا هدّد النبي صلى الله عليه وآله وسلم هؤلاء المنافقين و من لم يشترك صلاة الجماعة بإحراق منازلهم، فنزلت الآية أعلاه و بينت أهمّيّة صلاة الظهر جماعة بصوره مؤكّده (١).

ص: ١٩٣

١ - ١) - تفسير مجمع البيان: ج ١ و ٢ ص ٣٤٢ - و بنفس المضمون في تفسير «الدّر المنثور» في ذيل الآيه المبحوثة حسب نقل الميزان.



و هذا التأكيد يدلّ على أنّ مسأله عدم المشاركة فى صلاه الجماعه لم تكن بسبب حراره الجو فقط، بل أنّ جماعه أرادوا تضعيف الإسلام بهذه الذريعه و إيجاد الفرقه فى صفوف المسلمين بحيث دعى النبى صلى الله عليه و آله و سلم إلى أن يتخذ مثل ذلك الموقف الحازم من هؤلاء.

## التفسير

### إشاره

#### أهميه الصلاه و خاصه الوسطى:

بما أن الصلاه أفضل وسيله مؤثره تربط بين الإنسان و خالقه، و إذا أقيمت على وجهها الصحيح ملأت القلب بحبّ الله و استطاع الإنسان بتأثير أنوارها أن يتجنّب الذنوب و التلوّث بالمعصيه، لذلك ورد التأكيد فى آيات القرآن الكريم عليها، و من ذلك ما ورد فى الآيه محل البحث حيث تقول: **حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَ قُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ** .

فلا ينبغى للمسلمين أن يتركوا هذا الأمر المهم بحجّه البرد و الحرّ و مشكلات الحياه و دوافع الزوجه و الأولاد و الأموال.

أمّا ما هو المراد بقوله **الصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ**؟ ذكر المفسّرون معان مختلفه للمراد من الصلاه الوسطى، و ذكر صاحب تفسير مجمع البيان سنّه أقوال، و الفخر الرّازى ذكر فى تفسيره سبعة أقوال، و بلغ بها القرطبى فى تفسيره إلى عشره أقوال، أمّا تفسير روح المعانى فذكر لها ثلاثه عشر قولاً.

فالبعض يرى أنّها صلاه الظهر، و آخر صلاه العصر، و بعض صلاه المغرب، و بعض صلاه العشاء، و بعض صلاه الصبح، و بعض صلاه الجمعة، و بعض صلاه الليل أو خصوص صلاه الوتر، و ذكروا لكلّ واحد من هذه الأقوال أدلّه و توجيهات مختلفه، و لكنّ القرائن المختلفه المتوفّره تثبت أنّها صلاه الظهر، لأنّها فضلاً عن

كونها تقع في وسط النهار، فإن سبب نزول هذه الآية يدل على أن المقصود بالصلاة الوسطى هو صلاة الظهر التي كان الناس يتخلّفون عنها لحرارة الجو، كما أن هناك روايات كثيرة تصرّح بأن الصلاة الوسطى هي صلاة الظهر (١). و التأكيد على هذه الصلاة كان بسبب حرارة الجو في الصيف، أو بسبب انشغال الناس في أمور الدنيا و الكسب فلذلك كانوا لا يعيرون لها أهميته، فنزلت الآية آنفه الذكر تبين أهميته صلاة الوسطى و لزوم المحافظه عليها (٢).

(قانتين) من مادّه (قنوت) و تأتي بمعنيين.

١- الطاعة و الإتياع.

٢- الخضوع و الخشوع و التواضع.

□ و لا يبعد أن يكون المعنيان مرادين في هذه الآية، كما ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية و قُومُوا لِلَّهِ □ قَانَتِينَ قَالَ: «إِقْبَالَ الرَّجُلِ عَلَى صَلَاتِهِ وَ مَحَافِظَتِهِ عَلَى وَقْتِهَا حَتَّى لَا يَلْهِيَهُ عَنْهَا وَ لَا يَشْغَلُهُ شَيْءٌ».

و في روايه اخرى قال:

و في الآية الثانيه تؤكّد على أن المسلم لا ينبغي له ترك الصلاة حتّى في أصعب الظروف و الشرائط كما في ميدان القتال، غايه الأمر أن الكثير من شرائط الصلاة في هذا الحال تكون غير لازمه كالأتجاه نحو القبلة و أداء الرّكوع و السّجود بالشكل الطبيعي، و لذا تقول الآية فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا .

سواء كان الخوف في حال الحرب أو من خطر آخر، فإن الصلاة يجب أداءها

ص: ١٩٥

١- ١) - انظر الكتب الفقيهيه للاستزاده.

٢- ٢) - المشهور بين فقهاء الشيعة أن المراد منها «صلاة الظهر» بل ادعى الإجماع على ذلك و من عدّه روايات معتبره وردت في كتاب وسائل الشيعة: ج ٣ ص ١٤ الباب ٥ أو هناك قول شاذ و ضعيف بأن المراد منها صلاة العصر «و ذهب أغلب فقهاء أهل السنّه إلى هذا الرأي» و استدلووا على ذلك بعدّه روايات ضعيفه السند و قد اعرض الأصحاب عنها (لمزيد الإيضاح راجع الكتب الفقيهيه).

بالإيماء والإشارة للركوع والسجود، سواء كنتم مشاه أو راكبين.

فَإِذَا أَمِنتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ

ففى هذه الصوره، أى فى حاله الأمان يجب عليكم أداء الصلاه بالصوره الطبيعیه مع جميع آدابها و شرائطها.

و من الواضح أن أداء الشكر لهذا التعليم الإلهى للصلاه فى حاله الأمان و الخوف هو العمل على وفق هذه التعليمات.

(رجال) جمع (راجل) و(ركبان) جمع (راكب) و المقصود هو أنكم إذا خفتم العدو فى ميدان القتال لكم أن تؤدوا الصلاه راجلين أو راكبين فى حاله الحركه.

و

قد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه فى بعض الحروب أمر المقاتلين أن يصلوا بالتسبيح و التكبير و قول (لا إله إلا الله) (١)، و كذلك نقرأ

فى حديث آخر: إن النبى صلى يوم الأحزاب إيماء

(٢)

و كذلك ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام جواز أداء الصلاه فى حاله الخوف إلى غير جهه القبله و يومى للركوع و السجود فى حال القيام (٣).

فهذه الصلاه هى صلاه الخوف التى شرحها الفقهاء فى كتبهم شرحا مفصلا، و عليه فالآيه توضح أن إقامة الصلاه و الارتباط بين العبد و خالقه يجب أن يتحقق فى جميع الظروف و الحالات، و بهذا تتحصّل نقطه ارتكاز للإنسان و اعتماده على الله، فتكون مبعث الأمل و الرجاء فى الحياه و تعينه فى التغلب على جميع المصاعب و المشكلات.

ص: ١٩٦

١-١) - تفسير نور الثقلين.

٢-٢) - مجمع البيان، فى ذيل الآيه المبحوثه.

٣-٣) - وسائل الشيعه: ج ٥، ص ٤٨٣ الباب ٣، الحديث ٣ مع التلخيص و نقل الحديث بالمعنى، و وردت أحاديث اخرى بهذا المضمون فى هذا الباب.

## دور الصلاة في تقوية المعنويات:

قد يحسب البعض أنّ هذا الإصرار و التوكيد على الصلاة ضرب من التعسير، و لربّما منع ذلك الإنسان من القيام بواجبه الخطير في الدفاع عن نفسه في مثل ظروف القتال الصّعبه.

في حين أنّ هذا الكلام اشتباه كبير، فالإنسان في مثل هذه الحالات أحوج إلى تقوية معنويّته من أي شيء آخر، لأنّه إذا ضعفت معنويّته و استولى عليه الخوف و الفزع فإنّ هزيمته تكاد تكون حتميّه، فأى عمل أفضل من الصّلاه و الاتّصال باللّه القادر على كلّ شيء و بيده كلّ شيء من أجل تقويّه معنويّات المجاهدين أو من يواجه الخطر.

لو تركنا الشواهد الكثيره في جهاد المجاهدين المسلمين في صدر الإسلام فإنّنا نقرأ عن حرب الصهاينه الرّابعه مع العرب في شهر رمضان عام ١٣٩٣ هـ.ق أنّ توجّه الجنود المسلمين إلى الصّلاه و المبادئ الإسلام كان له أثر فعّال في تقويه عزائمهم و في التالي انتصارهم على عدوّهم. و على أي حال فإنّ أهمّيّه الصلاه و تأثيرها الإيجابي في الحياه أكبر من أن يستوعبها هذا المختصر، فلا شكّ في أنّ الصّلاه إذا روعيت معها آدابه الخاصّه و حضور القلب فيها فإنّ لها تأثيرا إيجابيا عظيما في حياه الفرد و المجتمع، و بإمكانها أن تحل الكثير من المشاكل و تطهّر المجتمع من الكثير من المفاسد، و تكون للإنسان في الأزمات و الشدائد خير معين و صديق (١).

ص: ١٩٧

اشاره

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّهًا لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠) وَالْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢)

التفسير

اشاره

قسم آخر من أحكام الطلاق:

تعود هذه الآيات لتذكر بعض مسائل الزواج و الطلاق و الأمور المتعلقة بها، و في البدايه تتحدّث عن الأزواج الذين يتوسّدون فراش الاحتضار و لهم زوجات فتقول: وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّهًا لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ .

أى أنّ الأشخاص من المسلمين إذا حانت ساعه و فاتهم و بقيت زوجاتهم على قيد الحياه فينبغى أن يوصوا بأزواجهم فى النفقه و السكن فى ذلك البيت لمدّه

سنه كامله، و هذا طبعاً في صورته ما إذا بقيت الزوجه في بيت زوجها و لم تخرج خارج البيت، و لهذا تضيف الآية: فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ كَأَنْ يَخْتَرْنَ زَوْجًا جَدِيدًا، فلا مانع من ذلك و لا إثم عليكم، و لكن يسقط حَقُّهَا فِي النِّفْقَةِ وَ السُّكْنَى.

و في ختام الآيه تشير إلى أنه لا ينبغي التَخَوُّفُ من عاقبه خروج النسوة، فتقول بأنَّ الله قادر على فتح أبواب اخرى أمامهنَّ بعد وفاه الأزواج فلو حدثت مشكله في البيت و لحقت بها مصيبه فإنَّ ذلك سيكون لحكمه حتماً لأنَّ الله تعالى عزيز حكيم وَ اللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، فلو أغلق باباً بحكمته فسوف يفتح اخرى بلطفه، فلا محلَّ للقلق و التَخَوُّفُ، و يعلم من ذلك أنَّ جملة يُتَوَفَّوْنَ هنا لا تعنى الموت، بل تعنى المشرف على الموت بقربه ذكر الوصيه.

و قوله فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ تدلُّ على وجوب دفع ورثه الزَّوْجِ نفقه الزوجه لمدته سنه كامله، و فيما إذا لم ترض هذه المرأه بالبقاء في بيت الزوج و الاستفاده من النفقه، فلا مانع من ذلك، و لا مانع كذلك من أن تختار زوجاً آخر أيضاً، و لكنَّ بعض المفسرين ذكر تفسيراً آخر لهذه العبارة و هو أنَّها إذا صبرت في بيت زوجها مدته سنه كامله ثمَّ خرجت من البيت فتزوجت فلا مانع من ذلك.

و طبقاً للتفسير الثاني يجب على المرأه العده لمدته سنه كامله، و لكن على التفسير الأول لا يلزم ذلك. و بعبارة اخرى أن دوام العده لمدته سنه كامله على التفسير الأول يعتبر حقَّ للمرأة، و لكنَّه على التفسير الثاني حكم و إزام، و لكنَّ ظاهر الآية ينسجم أكثر مع التفسير الأول، لأنَّ ظاهر الجملة الأخيره هو أنه استثناء من الحكم السابق.

هل نسخت هذه الآية؟

يعتقد الكثير من المفسرين أنّ هذه الآية قد نسخت بالآية ٢٣٤ من هذه السورة التي سبق بيانها و فيها ورد أنّ عدّه الوفاه أربعة أشهر و عشره أيام، و على الرغم من أنّ تلك الآية تأتي قبل هذه الآية من حيث الترتيب و لكننا نعلم أنّ الآيات في السورة لم ترتب بحسب نزولها، بل قد نجد آيات متأخره في النزول وضعت متقدمه في الترتيب، و قد جرى ذلك للتناسب بين الآيات و لأمر من رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم.

و يرى هؤلاء المفسرين أيضا أنّ حقّ النفقه لمدّه سنه كامله كان قبل نزول آيات الإرث، و لكن بعد أن قررت آيات الإرث للزوجين مقدارا من الإرث زال هذا الحقّ عنها، فعلى هذا فإنّ الآية محل البحث منسوخه من جهتين (من جهه مقدار زمان العدّه و من جهه النفقه).

و ذكر المرحوم (الطبرسي) في «مجمع البيان» أنّ جميع العلماء اتفقوا أنّ هذه الآية منسوخه. ثمّ يذكر حديثا عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ الرجل في العصر الجاهلي إذا مات كانت زوجته تتمتع بالنفقه لمدّه سنه كامله ثمّ أنّها تخرج من بيت زوجها بدون ميراث، و بعد ذلك نزلت الآيات المتعلقة بإرث الزوجه و نسخت هذه الآية بتعيين الربع أو الثمن من الميراث لها.

و على هذا يجب أن تحسب نفقه المرأة في مدّه العدّه من حصّتها من الإرث، و كذلك ورد عن الإمام الصادق أيضا أنّ الآية التي تقرّر العدّه أربعة أشهر و عشره أيام و كذلك آيه الإرث قد نسختا هذه الآية (١).

و على كلّ حال، يستفاد من كلمات العلماء أنّ عدّه الوفاه كانت في زمان

ص: ٢٠٠

الجاهليّة سنة كامله تمرّ خلالها الارمله بكثير من التقاليد و العادات الخرافيّه الشّاقه، ف جاء الإسلام و ألغى تلك العادات و أبقى مدّه العدّه سنة فى بدايه الأمر، ثمّ جعلها أربعه أشهر و عشره أيّام، كما منع المرأه فقط من الزّينه خلال هذه المدّه.

و يستفاد من كلام «الفخر الرازى» هو أن الآيه أعلاه نسخت بآيات الإرث و عدّه أربعه أشهر و عشره أيّام (1).

و لكن لو لا إجماع العلماء و الروايات المتعدّده فى هذا المجال لأمكن القول بعدم وجود التعارض بين هذه الآيات، فإنّ الحكم بأربعه أشهر و عشره أيّام للعدّه هو حكم إلهى، و أمّا المحافظه على العدّه لمدّه سنة كامله و البقاء فى بيت الزوج و الاستفاده من النفقه فإنّه حقّ لها، أى أنّه قد اعطى الحقّ للمرأه أن تبقى فى بيت زوجها المتوفّى سنة كامله إن أرادت ذلك و تستفيد من النفقه طبقا لوصيّه زوجها فى جميع هذه المدّه، و إن رفضت ذلك و لم ترغب فى البقاء، فيجوز لها الخروج من البيت بعد أربعه أشهر و عشره أيّام، و يمكنها كذلك اختيار زوج آخر، و حينئذ سوف تقطع عنها بطبيعته الحال النفقه من مال زوجها السابق.

و لكن مع ملاحظه الروايات المتعدّده عن أهل البيت عليهم السّلام و شهره حكم النسخ أو اتفاق العلماء على ذلك، فلا يمكن قبول مثل هذا التفسير رغم أنّه موافق لظواهر الآيات الشريفه.

فى الآيه الثانيه يبين القرآن الكريم حكما آخر من أحكام الطّلاق و يقول:

وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ

أى أنّ المتقين يجب عليهم تقديم هديّه لائقه للنساء المطلّقات.

و بالرّغم من أنّ ظاهر الآيه يشمل جميع النساء المطلّقات، و لكن بقريته الآيه ٢٣٦ السابقه نفهم أنّ هذا الحكم يختص بمورد النسوه التى لم يقرّر لهنّ مهر بعد

ص: ٢٠١



وقوع الطلاق قبل الوطاء، و في الحقيقة فإن هذه الجملة تأكيد للحكم المذكور كيلا يتعرض للإهمال، و يحتمل أيضا أن الحكم المذكور يشمل جميع النساء المطلقات، غاية الأمر أن المورد أعلاه من الموارد الوجودية و الموارد الاخرى لها جنبه استحيائي.

و على كل حال فإن هذا الحكم هو أحد الأحكام الإنشائية و الأخلاقية في الإسلام و التي لها أثر إيجابي على إزالة الرسوبات المتخلفة من عملية الطلاق و منع حالة العداوة و الانتقام و الكراهية الناشئة منه.

و ذكر البعض أن دفع هديه لائقه للنساء المطلقات أمر واجب و هو غير المهر، و لكن الظاهر بين علماء الشيعة كما يستفاد من عبارة المرحوم الطبرسي في مجمع البيان أنه لا قائل بهذا القول (و يصرح المرحوم صاحب الجواهر أيضا أن الهدية المذكورة لا تجب إلا في ذلك المورد الخاص و أن هذه المسألة إجماعية) (١).

و قد احتمل البعض أن المراد من المتاع هنا النفقة و هو احتمال بعيد جدًا.

و على كل حال أن هذه الهدية و طبق الروايات الواردة من الأئمة المعصومين تعطى إلى المرأة بعد تمام العدة و الإفتراق الكامل لا في عده الطلاق الرجعي، و بعبارة أخرى أن هذه الهدية ليست وسيلة للعودة، بل للوداع النهائي (٢).

و في آخر آية من الآيات مورد البحث و التي هي آخر آية من الآيات المتعلقة بالطلاق تقول: كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

و من البديهي أن المراد من التفكير و التعقل هو ما يتعقبه التحرك نحو العمل، و إلا فإن التفكير و التعقل لوحده في الأحكام و الآيات لا يثمر نتيجة، و يتبين من دراسته الآيات و الأحاديث الإسلامية أن لفظه «العقل» تستعمل غالباً عند إيراد

ص: ٢٠٢

١-١) -جواهر الكلام: ج ٣١ ص ٥٨.

٢-٢) -نور الثقلين: ج ١ ص ٢٤٠ ح ٩٥٦ و ٩٥٧.

التعبير عن امتزاج الإدراك و الفهم مع العواطف و الأحاسيس ثم يستتبع ذلك العمل. فعند ما يتحدث القرآن في مواضع كثيرة عن معرفه الله مثلا يشير إلى نماذج من نظام هذا الكون العجيب، ثم يقول إنا نبين هذه الآيات لعلكم تعقلون .

و هذا لا- يعنى أنّ القصد هو ملء الأدمغه ببعض المعلومات عن نظام الطبيعه، إذ أنّ العلوم الطبيعهه إذا لم تبعث في القلب و العواطف حركه نحو معرفه الله و حبه و الانشداد به فلا ارتباط لها بقضايا التوحيد. و هكذا المعارف العلميه لا تكون تعقلا إلا إذا اقترنت بالعمل.

صاحب تفسير الميزان (١) يؤيد هذا الاتجاه في فهم معنى التعقل، و يرى أنه الذى يدفع الإنسان بعد الفهم و الإدراك إلى مرحله العمل، و الدليل على ذلك قوله تعالى: لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٢).

و قوله سبحانه أ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتُكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا (٣) فالتعقل الذى يتحدث عنه المجرمون يوم القيامة هو ذلك الذى يرافقه العمل، و هكذا التعقل الناتج عن السير فى الأرض و التفكير فى خلق الله إنما هو المعرفه التى تحمل الإنسان على تغير مسير حياته و الاتجاه إلى الصراط المستقيم.

و بعبارة اخرى أنّ التفكير و التعقل و التدبر إذا كان متعمقا و متجدرا فى روح الإنسان فلا يمكن أن يكون عديم الآثار فى دائره الواقع العملى، فكيف يمكن أن يقطع الإنسان و يعتقد جازما بمسوميه الغذاء ثم يتناوله؟! أو يعتقد جازما بتأثير الدواء الفلانى على معالجه أحد الأمراض الخطره التى يعانى منها ثم لا يتناوله!!

ص: ٢٠٣

١-١) -الميزان: ج ٢ ص ٢٤٩-٢٥٠.

٢-٢) -الملك: ١٠.

٣-٣) -الحج: ٤٦.

اشاره

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حِدْرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَغَدُورٌ عَلَى النَّاسِ وَ  
لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣)

سبب النزول

انتشر مرض الطاعون في إحدى مدن الشام و أخذ يحصد الناس بسرعه عجيبيه، فهجر المدينه جمع من الناس أملا في النجاه من مخالبا الموت. و إذ نجوا من الموت فعلا بهروبهم من ذلك الجو المبوء، شعروا في أنفسهم بشيء من القدره و الاستقلاليه، و حسبوا أن نجاتهم مدينه لعوامل طبيعيه غافلين عن إرادته الله و مشيئته، فأما تهم الله في تلك الصحراء بالمرض نفسه.

قيل: إن نزول المرض بأهل هذه المدينه كان عقابا لهم، لأن زعيمهم وقائدهم طلب منهم أن يستعدوا للحرب و أن يخرجوا من المدينه. و لكنهم رفضوا الخروج للحرب بحجّه أن مرض الطاعون متفشى في ميادينها، فابتلاهم الله بما كانوا يخشونه و يفرون منه، فانتشر بينهم مرض الطاعون، فهجروا بيوتهم و هربوا من

المرض إلى خارج المدينة حيث انشب المرض مخالبه فيهم و ماتوا.و مضى زمان على هذا حتى مرّ يوماً «حزقيل» (١) أحد أنبياء بنى إسرائيل بذلك المكان و دعا الله أن يحييهم،فاستجاب الله دعاءه و أحياهم.

## التفسير

## إشاره

### كيف ماتوا و كيف عادوا إلى الحياه!؟

هذه الآيه كما مرّ في سبب نزولها تشير إشارة عابره و لكنّها معبّره إلى قصّه أحد الأقبام السالفه التي انتشر بين أفرادها مرض خطير و موحش بحيث هرب الآلاف منهم من ذلك المكان فتقول الآيه: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ .

من الأساليب الشايعه في الأدب العربى استعمال تعبير ألم تر فيما يطلب الفات النظر إليه،و بالرغم من أن المخاطب هو رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم و لكنّ الكلام موجّه بطبيعه الحال إلى جميع الناس.

و رغم أن الآيه أعلاه لا تشير إلى عدد خاص و اكتفت بكلمه أُلُوفٌ و لكنّ الوارد في الروايات أنّ عددهم كان عشره آلاف،و ذكرت روايات اخرى أنّهم كانوا سبعين ألف أو ثمانين ألف (٢).

ثمّ أنّ الآيه أشارت إلى عاقبتهم فقالت: فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ لتكون قصّه موتهم و حياتهم مرّه اخرى عبره للآخرين.و من الواضح أنّ المراد من مُوتُوا ليس هو الأمر اللفظى بل هو أمر الله التكويني الحاكم على كلّ حيّ في

ص: ٢٠٥

١-١) -في بعض الروايات أنّ حزقيل هو النبى الثالث بعد موسى عليه السلام فى بنى إسرائيل.

٢-٢) -راجع التفاسير:مجمع البيان،القرطبي،روح البيان،فى ذيل الآيه المبحوثة.

عالم الوجود، أى أنّ الله تعالى أوجد أسباب هلاكهم فماتوا جميعاً فى وقت قصير، و هذه أشبه بالأمر الذى أورد فى الآية ٨٢ من سورة يس **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١)**.

و جمله ثمّ أحيّاهم إشارة إلى عودتهم إلى الحياه بعد موتهم استجابته لدعاء (حزقيل النبى) كما ذكرنا فى سبب نزول الآية، و لما كانت عودتهم إلى الحياه مرّه اخرى من النعم الإلهيه البينه (نعمه لهم و نعمه لبقية الناس للعبره) ففى ختام الآية تقول **إِنَّ اللَّهَ لَمَدُّو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ** فليست نعمه الله و أطفاه و عنايته تنحصر بهؤلاء، بل لجميع الناس.

## بحوث

## إشارة

### هنا ينبغى أن نشير إلى بعض النقاط:

١- هل هذه الحادته التاريخيه حقيقيه، أم مجرد تمثيل؟ هذه الحكايه التى ذكرناها، أ هى حدث تاريخى واقعى أشار إليه القرآن إشاره عابره، ثمّ شرحته الروايات و الأحاديث، أم أنّها أقصوصه لتجسيد الحقائق العقليه و بيانها بلغه حسيه؟ لما كان لهذه الحكايه جوانب غير عاديه بحيث صعب هضمها على بعض المفسرين، فإنّهم أنكروا كونها حقيقه واقعه، و قالوا إنّ ما جاء فى الآية إنّما هو من باب ضرب المثل بقوم يضعفون عن الجهاد ضدّ العدوّ فيهزمون ثمّ يعتبرون بما جرى فيستيقظون و يستأنفون الجهاد و محاربه العدوّ و ينتصرون.

و بموجب هذا التفسير يكون معنى «موتوا» الهزيمة فى الحرب بسبب الضعف

ص: ٢٠٦

(١-١) -يس: ٨٢.

والتهاون. و«أحياهم» إشاره إلى الوعي و اليقظه و من ثم النصر.

هذا التفسير يرى أنّ الروايات التي تعتبر هذه الحادته واقعه تاريخيه روايات مجعوله و إسرائيليه.

و على الرغم من أن مسأله «الهزيمه» بعد التهاون و«الانتصار» بعد اليقظه مسأله هامه و رائعه، و لكن لا يمكن إنكار كون ظاهر الآيه يدلّ على بيان حادته تاريخيه بعينها، و ليست تمثيلا.

إنّ الآيه تتحدّث عن قوم من الماضين ماتوا على أثر هروبهم من حدث مروّع ثمّ أحياهم الله. فإذا كانت غرابه الحادته و بعدها عن المألوف هو السبب في تأويلها ذاك التأويل، فهذا إذا ما ينبغي أن نفعله بشأن جميع معاجز الأنبياء.

و لو أنّ أمثال هذه التأويلات و التوجيهات و جدت طريقها إلى القرآن لأمكن إنكار معاجز الأنبياء، فضلا عن إنكار معظم قصص القرآن التاريخيه و اعتبارها من قبيل القصص الرمزي التمثيلي، كأن نعتبر قصّه هايبيل و قابيل قصّه موضوعه لتمثّل الصراع بين العداله و طلب الحقّ من جهه، و القسوه و الظلم من جهه اخرى، و بهذا تفقد قصص القرآن قيمتها التاريخيه.

و فضلا عن ذلك فإننا لا نستطيع أن نتجاهل الروايات الوارده في تفسير هذه الآيه، لأنّ بعضها قد ورد في الكتب الموثوق بها و لا يمكن أن تكون من الإسرائيليات المجعوله.

٢- درس للعبره هدف الآيه في الواقع كما ورد في سبب النزول هو إشاره إلى جماعه من بنى إسرائيل الذين كانوا يتذرّعون تهربا من الجهاد بمختلف المعاذير، فابتلاهم الله بمرض الطّاعون حيث فتكّ بهم سرّيعا و أفناهم و أبادهم إلى درجه أنّه لا يستطيع

أى عدوّ شرس أن يصنع ذلك فى ميدان القتال، فبهذا تقول الآيه لهم أنه لا تتصوّروا أنّ التهزّب من المسؤوليّة و التوسّل بالأعدار الواهيه يجعلكم فى مأمن من الخطر، فأنتم أعجز من أن تقفوا أمام قدره الله تعالى، فإنّه تعالى قادر على أن يبتليكم بعدوّ صغير لا يرى بالعين و هو مكروب الطّاعون أو الوباء و أمثال ذلك فيختطف أرواحكم فيذركم كعصف مأكول.

٣-مسأله الرّجعه النقطه الاخرى التى لا بدّ من الالتفات إليها هنا هى مسأله إمكان الرّجعه التى تستفاد من الآيه بوضوح.

و توضيح ذلك: أنّ التاريخ يحدّثنا عن بعض الأقوام من السالفين ماتوا ثمّ أعيدوا إلى هذه الدنيا، كما فى حادثه طائفه من بنى إسرائيل الذين توجّهوا مع النّبى موسى عليه السّلام إلى جبل طور الوارده فى آيه ٥٥ و ٥٦ من سوره البقره و قصّه «عزير» أو إرميا الوارده فى الآيه ٢٥٩ من هذه السوره، و كذلك الحادثه المذكوره فى هذه الآيه مورد البحث.

فلا مانع أن تتكرّر هذه الحادثه مرّه اخرى فى المستقبل.

العالم الشيعى المعروف ب«الصدوق» رحمه الله استدلّ بهذه الآيه على القول بالرّجعه و قال: (إنّ من معتقداتنا الرّجعه) أى رجوع طائفه من الناس العّدين ماتوا فى الأزمنه الغابره إلى هذه الدّنيا مرّه اخرى، و يمكن كذلك أن تكون هذه الآيه دليلا على المعاد و إحياء الموتى يوم القيامه.

### اشاره

وَ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَ اللَّهُ يَقْبِضُ وَ يَبْصُطُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)

### سبب النزول

قيل في سبب نزول الآيه الثانيه

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: مَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَلَهُ مِثْلَاهَا فِي الْجَنَّةِ. سَوْفَ يَنَالُ ضِعْفَهُ فِي الْجَنَّةِ فَقَالَ (أَبُو الدَّحْدَاحِ الْأَنْصَارِيُّ): يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي حَدِيقَتَيْنِ إِنْ تَصَدَّقْتُ بِأَحَدِهِمَا فَإِن لِي مِثْلِيهَا فِي الْجَنَّةِ، قَالَ: نَعَمْ.

قال: و أم الدحداح معي، قال: نعم. قال: و الصبيه معي. قال: نعم. فتصدَّق بأفضل حديقتيه فدفعتها إلى رسول الله. فنزلت الآيه فضاعف الله له صدقته الفى الف و ذلك قوله أضعاف كثيره.

فرجع أبو الدحداح فوجد أم الدحداح و الصبيه فى الحديقه التى جعلها صدقه، فقام على باب الحديقه و تحرج أن يدخلها فنادى يا أم الدحداح، قالت:

لييك يا أبا الدحداح، قال: إنى قد جعلت حديقتى هذه صدقه و اشتريت مثليها فى



الجَنَّة و ام الدحداح معى و الصبيه معى. قالت: بارك الله لك فيما شريت و فيما اشتريت، فخرجوا منها و اسلموا الحديقه إلى النبى فقال النبى: كم نخله متدلّ عذوقها لأبى الدحداح فى الجنه (١).

## التفسير

## اشاره

## الجهاد بالنفس و المال:

هذه الآيات تشرع فى حديثها عن الجهاد و تعقب بذكر قصه فى هذا الصدد عن الأقسام السالفه، مع الالتفات إلى الأحداث التى مرّت على جماعه من بنى إسرائيل الّذين تهزّبوا من الجهاد بحجّه الإصابه بمرض الطّاعون و أخيرا ماتوا بهذا المرض، يتّضح الارتباط بين هذه الآيات و الآيات السّابقه.

فى البدايه تقول الآيه و قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ يسمع أحاديثكم و يعلم نياتكم و دوافعكم النفسيه فى الجهاد.

ثمّ يضيف القرآن فى الآيه التّاليه: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً أى ينفق من الأموال التى رزقه الله تعالى إياه فى طريق الجهاد و حمايه المستضعفين و المعوزين.

فعلى هذا يكون إقراض الله تعالى بمعنى (الإنفاق فى سبيل الله)، و كما ذكر بعض المفسّرين أنّها تعنى المصارف التى ينفقها الإنسان فى طريق الجهاد، لأنّ تأمين احتياجات الجهاد فى ذلك الوقت كان فى عهد المسلمين المجاهدين، فى حين أنّ البعض يرى بأنّ الآيه تشمل كلّ أنواع الإنفاق (٢).

و لكنّ التفسير الثانى أقرب و أكثر انسجاما مع ظاهر الآيه، و خاصّه أنّه شامل للمعنى الأوّل أيضا، و أساسا فإنّ الإنفاق فى سبيل الله و مساعده الفقراء و المساكين

ص: ٢١٠

١-١) -مجمع البيان: ج ١ و ٢ ص ٣٤٩.

٢-٢) -راجع تفسير الكبير: ج ٦ ص ١٦٦.

و حمايه المحرومين يعطى ثمره الجهاد أيضا، لأن كلاً منها يبعث على استقلال المجتمع الإسلامى و عزته.

(أضعاف) جمع (ضعف) على وزن «علم». و الضّعف هو أن تضيف إلى المقدار مثله أو أمثاله، و قد ورد هنا الجمع مؤكّداً بالكثرة (كثيره) كما أنّ كلمه (يضعف) فيها تأكيد على هذا المعنى أكثر من كلمه (يضعف) (1)، و كلّ ذلك يدلّ على أنّ الله تعالى يعطى كلّ من ينفق فى سبيله الكثير الكثير كالبذر الذى تبذر فى أرض صالحه و تسقى فينمّيها و يعيدها إلى صاحبها أضعافاً كثيرة كما سيأتى فى الآيه (٢٤١).

□  
و فى ختام الآيه يقول: وَ اللَّهُ يَقْبِضُ وَ يَبْصُطُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ و تشير الآيه إلى أنه لا تتصوروا إن الإنفاق و البذل سوف يؤدى إلى قلّه أموالكم، لأنّ سعه و ضيق أرزاقكم بيد الله فهو القادر على أن يعوض ما أنفقتموه أضعافاً مضاعفاً، بملاحظه الارتباط الوثيق لأفراد المجتمع، فإن نفس تلك الأموال التى أنفقتموها سوف تعود إليكم فى الواقع.

هذا من البعد الدنيوى، و أمّا البعد الأخرى للإنفاق فلا تنسوا أن جميع المخلوقات سوف تعود إلى الله عزّ و جلّ و سوف يثيبكم حينذاك و يجزل لكم العطاء.

**بحث**

**إشارة**

**لماذا ورد التعبير بالقرض؟**

لقد ورد التعبير بالقرض فى مورد الإنفاق فى عدّه آيات قرآنيه، و هذا من جهه يحكى عظيم لطف الله بالنسبه لعباده، و أهميه مسائله الإنفاق من جهه أخرى،

ص: ٢١١

١-١) - قال الراغب فى المفردات، فى ماده «ضعف»: قال البعض: ضاعفت أبلغ من ضعفته.

فالبِرغم من أن المالِك الحقيقى لجميع عالم الوجود هو الله تعالى و أن الناس يمثلون و كلاء عن الله فى التصرف فى جزء صغير من هذا العالم كما ورد فى الآيه (٧) من سورة الحديد آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ .

و لكن مع ذلك يعود سبحانه إلى العبد ليستقرض منه و أيضا استقرض بريح و فير جدا (فانظر إلى كرم الله و لطفه).

يقول الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغه: «و استقرضكم و له خزائن السموات و الأرض و هو الغنى الحميد و إنما أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملا»

(١)

ص: ٢١٢

---

١-١) - نهج البلاغه القسم الأخير من الخطبه ١٨٣.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانَنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِالْجَالُوتِ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلٌ فَلَمَّا خَلَّوْا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ قَالَ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)

من الضروري وقبل الشروع فى تفسير هذه الآيات الشريفه التعرض لجانب من تاريخ بنى إسرائيل المنظور فى هذه الآيات. اليهود الذين كانوا قد استضعفوا تحت سلطه الفراعنه استطاعوا أن ينجوا من وضعهم المأساوى بقياده موسى عليه السلام الحكيمه حتى بلغوا القوه و العظمه.

لقد أنعم الله على اليهود ببركه نبيهم الكثير من النعم بما فيها «صندوق العهد» (١) الذى حمله اليهود أمام الجند فأضفى عليهم الطمأنينه والمعنويه العاليه، وظلت هذه الروحيه فيهم بعد رحيل موسى عليه السلام مده من الزمن، إلا أن تلك النعم

ص: ٢١٤

---

١-١) -سوف نتطرق قريبا إلى تاريخ هذا الصندوق و محتوياته.

والانتصارات أثارت في اليهود الغرور شيئاً فشيئاً، وأخذوا بمخالفة القوانين، وأخيراً اندحروا على أيدي الفلسطينيين و خسروا قوتهم و نفوذهم بخسارتهم صندوق العهد، فكان أن تشتتوا و ضعفوا و لم يعودوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم حتى أمام أتفه أعدائهم، بحيث إن هؤلاء الأعداء طردوا الكثيرين منهم من أرضهم و أسروا أبناءهم.

استمرت حالهم على هذا سنوات طوالاً إلى أن أرسل إليهم الله نبياً اسمه «اشموئيل» لإنقاذهم و هدايتهم، فتجمع حوله اليهود الذين كانوا قد ضاقوا ذرعاً بالظلم و كانوا يبحثون عن ملجأ يأوون إليه، و طلبوا منه أن يختار لهم قائداً و أميراً لكي يتوحدوا تحت لوائه، و يحاربوا العدو متحدين يدا و رأياً، لاستعادة عزتهم الضائعة.

اشموئيل الذي كان يعرف ضعفهم و تهاونهم و هبوط معنوياتهم قال لهم:

أخشى إن اخترت لكم قائداً أن تخذلوه عند ما يدعوكم إلى الجهاد و محاربه العدو.

فقالوا: كيف يمكن أن نعصى أوامر أميرنا و نرفض القيام بواجبنا، مع أن العدو قد شردنا من أوطاننا و استولى على أرضنا و أسر أبناءنا!! فرأى اشموئيل أن هؤلاء القوم قد شخّصوا داءهم و ها هم قد اتجهوا للمعالجه، و لعلمهم أدركوا سبب تخلفهم، فتوجه إلى الله يعرض عليه ما يطلبه القوم فأوحى إليه: أن اخترنا «طالوت» ملكاً عليهم.

فقال اشموئيل: ربّ إني لا أعرف طالوت و لم أره حتى الآن. فجاءه الوحي:

سنرسله إليك فأعطه قياده الجيش و لواء الجهاد.

### من هو طالوت؟

كان طالوت رجلاً طويلاً قامه، ضخماً، حسن التركيب، متين الأعصاب قويها، ذكياً، عالماً، مدبراً.

و يقول بعض: إنَّ اختيار اسم «طالوت» له كان لطوله، و لكنَّه مع كلِّ ذلك لم يكن معروفاً، حيث كان يعيش مع أبيه في قرية على أحد الأنهر، و يرعى ماشيه أبيه و يشتغل بالزراعة.

أضاع يوماً بعض ماشيته في الصحراء، فراح يبحث عنها مع صاحب له بضعة أيام حتَّى اقتربا من مدينه صوف.

قال له صاحبه: لقد اقتربنا من صوف مدينه النبي اشموئيل، فتعال نزوره لعلَّه يدلُّنا بما له من اتصال بالوحي و حصانه في الرأى على ضالَّتنا. و التقيا باشموئيل عند دخولهما المدينه.

ما أن تبادل اشموئيل و طالوت النظرات حتَّى تعارف قلباهما، و عرف اشموئيل طالوت و أدرك أنَّ هذا الشاب هو الذى أرسله الله ليقود الجماعه. و عند ما انتهى طالوت من قصِّته عن ضياع ماشيته، قال له اشموئيل: أمَّا ماشيتك الضائعه فهى الآن على طريق القرية تتجه إلى بستان أبيك فلا تقلق بشأنها. و لكنى أدعوك لأمر أكبر من ذلك، إنَّ الله قد اختارك لنجاه بنى إسرائيل.

فأصاب العجب طالوت من هذا الأمر فى البدايه، و لكنَّه قبل المهمه مسرورا فقال اشموئيل لقومه: لقد اختار الله طالوت لقيادتكُم، فعليكم جميعا أن تطيعوه، و أن تتهيأوا للجهاد و محاربه الأعداء.

كان بنو إسرائيل يعتقدون أنَّ قائدهم يجب أن تتوفَّر فيه بعض المميّزات من حيث نسبه و ثروته، ممَّا لم يجدوا منها شيئاً فى طالوت، فانتابتهم حيره شديده لهذا الإختيار، فطالوت لم يكن من أسره لاوى التى ظهر منها الأنبياء، و لا كان من أسرتى يوسف أو يهودا اللتين سبق لهما الحكم، بل كان من أسره بنيامين المغموره الفقيره، فاعترضوا قائلين: كيف يمكن لطالوت أن يحكمنا، و نحن أحقُّ منه بالحكم! فقال اشموئيل -الذى رآهم على خطأ كبير-: إنَّ الله هو الذى اختاره أميراً

عليكم، و القيادة تحتاج إلى كفاءه جسميه و روحيه و هي متوفّره فى طالوت، و هو يفوقكم فيها. إلاّ أنّهم لم يقبلوا بهذا القول، و طلبوا دليلا على أنّ هذا الاختيار إنّما كان من الله سبحانه.

فقال اشموئيل: الدليل هو أنّ التابوت-صندوق العهد-الذى هو أثر مهمّ من آثار أنبياء بنى إسرائيل، و كان مدعاه لثقتكم و طمئنانكم فى الحروب، سيعود إليكم يحمله جمع من الملائكه. و لم يمض وقت طويل حتّى ظهر الصندوق، و على أثر رؤيته وافق بنو إسرائيل على قياده طالوت لهم.

## طالوت فى الحكم

### اشاره

تسلّم طالوت قياده الجيش، و خلال فتره قصيره أثبت لياقته و جدارته للاضطلاع بمهامّ إداره الملك و قياده الجيش، ثمّ طلب من بنى إسرائيل أن يعدّوا العده لمحاربه عدوّ كان يهدّدهم من كلّ جانب. قال لهم مؤكّدا إنّّه لا يريد أن يسير معه للقتال إلاّ الذين ينحصر كلّ تفكيرهم فى الجهاد، أمّا الذين لهم عماره لم تتم، أو معامله لم تكمل، و أمثالهم، فليس لهم الاشتراك فى الجهاد. و سرعان ما اجتمع حوله جمع تظهر عليه الكثره و القوّه، و تحرّكوا صوب العدو.

و فى المسيره الطويله و تحت أشعه الشمس المحرقه أصابهم العطش. فأراد طالوت-بأمر من الله-أن يختبرهم و يصفّيهم، فقال لهم: سوف نصل قريبا إلى نهر فى مسيرتنا، و أنّ الله يريد أن يمتحنكم به، فمن شرب منكم منه و ارتوى فليس منى، و من لا يشرب إلاّ قليلا-منه فهو منى. و لكنّهم ما أن وقعت أنظارهم على النهر حتّى فرحوا و هرعوا إليه و شربوا منه حتّى ارتووا، إلاّ نفر قليل منهم ظلّوا على العهد.

أدرك طالوت أنّ أكثره جيشه يتألّف من أناس ضعفاء الإراده و عديمى العهد، ما خلا بعض الأفراد المؤمنين، لذلك فقد تخلّى عن تلك الأكثره و اتّجه مع



النفر المؤمن القليل خارجاً من المدينة إلى ميادين الجهاد.

إلا أنّ هذا الجيش الصغير انتابه القلق من قلته، فقالوا لطلوت: إننا لا طاقة لنا بمقابله جيش قوى كثير العدد. غير أنّ الذين كان لهم إيمان راسخ بيوم القيامة، و كانت محبة الله قد ملأت قلوبهم، لم يرهبوا كثرة العدو و قلّه عددهم، فخاطبوا طلوت بكلّ شجاعه قائلين: قزّر ما تراه صالحاً، فنحن معك حيثما ذهبت، و لسوف نجالدهم بهذا العدد القليل بحول الله و قوّته، و لطالما انتصر جيش صغير بعون الله على جيش كبير، و الله مع الصابرين.

فاستعدّ طلوت بجماعته القليلة المؤمنه للحرب، و دعوا الله أن يمنحهم الصبر و الثبات، و عند التقاء الجيشين خرج جالوت من بين صفوف عسكره و طلب المبارزه بصوت قوى أثار الرعب فى القلوب، فلم يجرأ أحد على منازلته، فى تلك اللحظه خرج شاب اسمه داود من بين جنود طالوت، و لعلّه لصغر سنّه، لم يكن قد خاض حرباً من قبل، بل كان قد جاء إلى ميدان المعركة بأمر من أبيه ليكون بصحبه اخوته فى صفوف جيش طالوت. و لكنّه كان سريع الحركة خفيفها، و بالمقلاع الذى كان بيده رمى جالوت بحجرين - بمهاره شديده - فأصابا جبهته و رأسه، فسقط على الأرض ميتاً وسط تعجب جيشه و دهشتهم. و على أثر ذلك استولى الرعب و الهلع على جيش جالوت، و لم يلبثوا حتّى ركنوا إلى الفرار من أمام جنود طالوت و انتصر بنو إسرائيل (١).

## التفسير

نعود إلى تفسير الآيات محلّ البحث فى أوّل آيه يخاطب الله تعالى نبيّه الكريم و يقول: أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذِ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ اابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

ص: ٢١٨

(١-١) - عن مجمع البيان و الدر المنثور و قصص القرآن باختصار.

(الملاء) هم الجماعة يجتمعون على رأى فيملئون العيون رواء و منظرا و النفوس بهاء و جلالا- و لذلك يقال لأشراف كل قوم (الملاء) لأنهم بما لهم من مقام و منزله يملأون العين.

هذه الآية- كما قلنا- تشير إلى جماعة كبيرة من بنى إسرائيل طلبوا بصوت واحد من نبيهم أن يختار لهم أميرا و قائدا ليحاربوا بقيادته (جالوت) الذى كان يهدد مجتمعهم و دينهم و اقتصادهم بالخطر.

و على الرغم من أن الجماعة المذكوره كانت تريد أن تدفع العدو المعتدى الذى أخرجهم من أرضهم و يعيدوا ما أخذ منهم، فقد وصفت تلك الحرب بأنها فى سبيل الله، و بهذا يتبين أن ما يساعد على تحرر الناس و خلاصهم من الأسر و رفع الظلم و العدوان يعتبر فى سبيل الله.

و قد ذكر البعض أن اسم ذلك النبى هو (شمعون) و ذكر آخرون بأنه (إشموئيل) و بعض (يوشع) و لكن المشهور بين المفسرين أنه (إشموئيل) أى إسماعيل بلغه العرب، و بهذا وردت روايه عن الإمام الباقر عليه السلام أيضا (1).

و لما كان نبيهم يعرف فيهم الضعف و الخوف قال لهم: يمكن أن يصدر إليكم الأمر للجهاد فلا تطيعون قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا .

و لكنهم قالوا: كيف يمكن أن نتملص من محاربه العدو الذى أجلانا عن أوطاننا و فرق بيننا و بين أبنائنا قالوا و ما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله و قد أخرجنا من ديارنا و أبنائنا و بذلك أعلنوا و تمسكهم بالعهد.

و مع ذلك فإن هذا الجمع من بنى إسرائيل لم يمنعهم اسم الله و لا أمره و لا الحفاظ على استقلالهم و الدفاع عن وجودهم و لا تحرير أبنائهم من نقض العهد،

ص: ٢١٩

و لذلك يقول القرآن مباشرة بعد ذلك: فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ .

و ذكر بعض المفسرين أنّ عدّه من بقى مع طالوت (٣١٣ نفر) بعدد جيش الإسلام يوم بدر (١) .

و على كلّ حال فإنّ نبيهم أجابهم على طلبهم التراما منه بواجبه و جعل عليهم طالوت ملكا بأمر من الله تعالى و قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا .

و يتّضح من هذه الآية أنّ الله هو الذى اختار طالوت ليكون ملكا على بنى إسرائيل و قائدا لعسكرهم، و لعلّ استعمال كلمه (قد بعث) يشير إلى ما ذكرنا فى القصّه من الحوادث غير المتوقّعه الذى جاءت بطالوت إلى مدينه ذلك النّبى و الحضور فى مجلسه، فكذلك يظهر من كلمه (ملكاً) أنّ طالوت لم يكن قائدا للجيش فحسب، بل كان ملكا على ذلك المجتمع (٢) .

و من هنا بدأت المخالفات و الاعتراضات و قال بعضهم: قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ .

و هذا هو أوّل اعتراضا و نقض فى العهد من قبل بنى إسرائيل لنبيهم مع أنّه قد صرح لهم أنّ الله هو اختار طالوت، و فى الواقع أنّهم اعتراضوا على الله تعالى بقولهم: (إننا أجدد من طالوت بالحكم لأنّ الحكم لا بدّ فيه من شرطين لا يتوفّران فى طالوت و هما: الحسب و النسب من جهه، و المال و الثروه من جهه اخرى، و قد ذكرنا فى القصّه أنّ طالوت كان من قبيله مغموره من قبائل بنى إسرائيل، و من حيث الثروه لم يكن سوى مزارع فقير.

ص: ٢٢٠

(١-١) -روح المعانى و تفسير الكبير فى ذيل الآية المبحوثة.

(٢-٢) -اعتبر صاحب «الكشاف» طالوت اسما أعجيا مثل: جالوت و داود، و قال الآخرون: إنّه اسم عربى مأخوذ من ماده «طول» و إشاره إلى طول قامه. (تفسير الكبير: ج ٦ ص ١٧٢).

غير أن القرآن الكريم يشير إلى الجواب القاطع على هذا الاعتراض إذ يقول:

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ

فأفهمهم بذلك أن اختيار الله طالوت ملكا وقائدا لما يتمتع به من علم و حكمه و عقل، و من الناحية البدئية فهو قوى و مقتدر.

و هذا يعنى أولا، أن هذا الإختيار هو إختيار الله تعالى.

و ثانيا: إنكم على خطأ كبير فى تشخيص شرائط القيادة، لأن النسب الرفيع و الثروه الكبيره ليستا امتيازين للقائد إطلاقا، لأنهما من الامتيازات الاعتباريه الخارجيه، أما العلم و المعرفه و كذلك القوه الجسميه فهما امتيازان واقعيان ذاتيان حيث يلعبان دورا مهما فى شخصيه القائد.

إن قائد العالم يعرف طريق سعادته المجتمع و يرسم الخطط للوصول إليه بعلمه و حنكته، و كذلك يرسم الأسلوب الصحيح فى مواجهه الأعداء، ثم يقوم بقوته الجسمائيه بتمثيل هذا المخطط على أرض الواقع.

كلمه (بسطة) إشاره إلى اتساع وجود الإنسان فى أنوار العلم و القوه، أى أن الإنسان بالعلم و الحكمه و القوه الجسميه الكافيه يزداد سعه فى وجوده، و هنا نلاحظ أن البسطه فى العلم تقدمت على القوه الجسميه، لأن الشرط الأول هو العلم و المعرفه.

و يستفاد ضمنا من هذا التعبير أن مقام الإمامه و القيادة من الأحكام الإلهيه و أن الله تعالى هو الذى يشخص اللائق لها، فلو رأى اللياقه الكافيه فى أولاد الرسول صلى الله عليه و آله و سلم لجعل الإمامه عندهم، و لو توفرت عند أشخاص آخرين لجعلها فيهم، و هذا هو ما يعتقد به علماء الشيعه و يدافعون عنه.

ثم تضيف الآيه و الله يُؤْتِي مَلِكُهُ مَن يَشَاءُ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

هذه الجملة يمكن أن تكون إشاره إلى شرط ثالث للقائد، و هو توفير الله

تعالى الإمكانيات و آليات القيادة و وسائل الحكم، لأنه من الممكن أن يكون قائدا كاملا من حيث العلم و القوه و لكنه محاط بظروف لا تمنحه أى استعداد للوصول إلى أهدافه المقدسه، و لا شك أن قائدا مع هذه الظروف لا يمكن أن ينتصر و ينجح فى قيادته، و لذلك يقول القرآن هنا أن الله تعالى يمنح الحكومه الإلهيه لمن يشاء، أى أنه يهيأ الظروف اللازمه لنجاحه.

الآيه التاليه تبين أن بنى إسرائيل لم يكونوا قد اطمأنوا كل الاطمئنان إلى أن طالوت مبعوث من الله تعالى لقيادتهم على الرغم من أن نبيهم صرح ذلك لهم، و لهذا طلبوا منه الدليل، فكان جوابه أن الدليل سيكون مجيء التابوت أو صندوق العهد إليهم و قال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت .

فما هو تابوت بنى إسرائيل أو صندوق العهد؟ و من الذى صنعه؟ و ما هى محتوياته؟ فإن فى تفاسيرنا و أحاديثنا، و كذلك فى العهد القديم-التوراه- كلاما كثيرا عنه. إلا أن أوضحها هو ما جاءنا فى أحاديث أهل البيت عليهم السلام و أقوال بعض المفسرين من أمثال ابن عباس، حيث قالوا إن التابوت هو الصندوق الذى وضعت فيه أم موسى ابنها موسى و ألقته فى اليم، و بعد أن انتشل أتباع فرعون الصندوق من البحر و أتوا به إليه و أخرجوا موسى منه، ظلّ الصندوق فى بيت فرعون ثم وقع بأيدى بنى إسرائيل، فكانوا يحترمونه و يتبركون به.

موسى عليه السلام وضع فيه الألواح المقدسه-التي تحمل على ظهرها أحكام الله- و درعه و أشياء أخرى تخصه و أودع كل ذلك فى أواخر عمره لدى وصيه يوشع ابن نون.

و بهذا ازدادت أهميه هذا الصندوق عند بنى إسرائيل فكانوا يحملونه معهم كلما نشبت حرب بينهم و بين الأعداء، ليصعد معنوياتهم، لذلك قيل: إن بنى إسرائيل كانوا أعزه كرماء ما دام ذلك الصندوق بمحتوياته المقدسه بينهم، و لكن

بعد هبوط التزاماتهم الدينيه و غلبه الأعداء عليهم سلب منهم الصندوق. و اشموئيل - كما تذكر الآيه - و عداهم بإعادة الصندوق باعتباره دليلا على صدق قوله.

فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَ بَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَ آلُ هَارُونَ

هذه الفقره من الآيه تبين أنّ الصندوق كما قلنا كان يحتوى على أشياء تضيفى السكينه على بنى إسرائيل و ترفع معنوياتهم فى الحوادث المختلفه فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ .

ثمّ إنّ محتويات الصندوق كانت تضمّ آثارا ممّا خلف آل موسى و آل هارون أضيفت إلى ما كان فيه من قبل، و ممّا يجدر ذكره هو أنّ «السكينه» بمعنى الهدوء، و يقصد بها هنا هدوء النفس و القلب.

قال لهم اشموئيل: إنّ الصندوق سوف يعود إليكم لتستعيدوا الهدوء الذى فقدتموه. و فى الحقيقه أنّ هذا الصندوق بطابعه المعنوى و التاريخى كان أكثر من مجرد لواء لبنى إسرائيل و شعار لهم. كان يمثّل رمز استقلالهم و وجودهم و برؤيته كانوا يسترجعون ذكرى عظمتهم السابقه. لذلك كان الوعد بعودته بشاره عظيمه لهم.

تَحْمِيلُهُ الْمَلَائِكَةُ

كيف جاء الملائكه بصندوق العهد؟ فى هذا أيضا للمفسّرين كلام كثير أوضحها قولهم: جاء فى التاريخ أنّه عند ما وقع صندوق العهد بين عبده الأصنام فى فلسطين و أخذوه إلى حيث يعبدون فيه أصنامهم، أصابتهم على أثر ذلك مصائب كثيره، فقال بعضهم: ما هذه المصائب إلا بسبب هذا الصندوق، فعزموا على إبعاده عن مدينتهم و ديارهم، و لما لم يرض أحد بالقيام بالمهمه اضطرّوا إلى ربط الصندوق بقرتين و أطلقوهما فى الصحراء. و اتفق هذا فى الوقت الذى تمّ فيه نصب طالوت ملكا على بنى إسرائيل. و أمر الله الملائكه أن يسوقوا الحيوانين نحو

مدينة اشموئيل. و عند ما رأى بنو إسرائيل الصندوق بينهم، اعتبروه إشارة من الله على اختيار طالوت ملكا عليهم.

و عليه نسب حمل الصندوق إلى الملائكة، لأنهم هم الذين ساقوا البقرتين إلى بنى إسرائيل.

فى الحقيقة أنّ للملائكة معنى واسعاً فى القرآن و الروايات، يشمل فضلاً عن الكائنات الروحىة العاقله، مجموعه من القوى الغامضه الموجوده فى هذا العالم.

و يستفاد ممّا تقدّم أنّه بالرّغم من ثبوت مسأله القيادة الإلهيّه لطالوت بالأدله و المعاجز الإلهيّه، فهناك بعض الأفراد لضعف إيمانهم لم يسلموا إلى هذا الحقّ، و قد ظهرت هذه الحقيقة على أعمالهم العباديّه و من ذلك تشير الجملة الأخيره فى هذه الآيه **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ .**

ثمّ أنّ بنى إسرائيل رضخوا لقيادة طالوت فصنع منهم جيوشاً كثيره و ساروا إلى القتال، و هنا تعرّض بنى إسرائيل لاختبار عجيب، و من الأفضل أن نجمع تلك الأحداث و مجريات الأمور من القرآن نفسه حيث يقول: **فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّيْ وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّيْ إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ (١)**.

و يتّضح فى هذه الموارد الامتحان الكبير الذى تعرّض له بنو إسرائيل و هو المقاومه الشديده للعطش، و كان هذا الامتحان ضروريًا لجيش طالوت و خاصّه مع السوابق السيئه لهذا الجيش فى بعض الحروب السابقه، لأنّ الانتصار يتوقّف على مقدار الانضباط و قدره الإيمان و الاستقامه فى مقابل الأعداء و الطّاعه لأوامر القيادة.

ص: ٢٢٤

١- ١) -جنود جمع جند فى الأصل بمعنى الأرض الكثيره الأحجار و المتراكمه الصخور ثمّ أطلقت على كلّ شىء متراكم و عاده تأتي بمعنى الجيش الكبير، و عبارته «لم يطعمه» جاءت بدل كلمه لم يشربه و هى إشارة إلى أن الجنود لا ينبغى لهم أن يشربوا منه بمقدار كفى واحده بل لا يذوقونه أيضاً.

و طالوت الذى كان يتجه بجنوده للجهاد، كان لا بد له أن يعلم إلى أى مدى يمكن الاعتماد على طاعه هؤلاء الجنود، و على الأخص أولئك الذين ارتضوه و استسلموا له على مضض مترددين، و لكنهم فى الباطن كانت تراودهم الشكوك بالنسبه لإمرته، لذلك يؤمر طالوت أمرا إلهيا باختبارهم، فيخبرهم أنهم سوف يصلون عمّا قريب إلى نهر، فعليهم أن يقاوموا عطشهم، و ألا يشربوا إلا قليلا، و بذلك يستطيع أن يعرف إن كان هؤلاء الذين يريدون أن يواجهوا سيوف الأعداء البتّاره يتحملون سويعات من العطش أم لا.

و شرب الأكثرية كما قلنا فى سرد الحكايه، و كما جاء بايجاز فى الآيه.

و هكذا جرت التصفيه الثانيه فى جيش طالوت. و كانت التصفيه الأولى عند ما نادى المنادى للاستعداد للحرب و طلب الجميع بالاشتراك فى الجهاد إلا الذين كانت لهم التزامات تجاريه أو عمرانيه أو نظائرها.

فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ

تفيد هذه الآيه أنّ تلك القلّه التى نجحت فى الامتحان هى وحدها التى تحرّكت معه، و لكن عند ما خطر لهؤلاء القلّه أنهم مقدمون على مواجهه جيش جرّار و قوى، ارتفعت أصواتهم بالتباكى على قلّه عددهم، و هكذا بدأت المرحله الثالثه فى التصفيه.

قَالَ الَّذِينَ يُظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَهُ كَثِيرَةً يُأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ

(١)

«الفئه» أصلا من «الفىء» بمعنى الرجوع، و يقصد بها الجماعه الملتحمة التى يرجع بعضهم إلى بعض ليعضده. تقول الآيه: إنّ الذين كانوا يؤمنون بيوم القيامة

ص: ٢٢٥

١ - ١) - «فته» من «فىء» فى الأصل بمعنى الرجوع و بما أن كلّ جماعه تتعاضد فيما بينها و تعود أحدها على الاخرى بالعون و المساعدة أطلقت كلمه «فته».



إيماناً راسخاً قالوا للآخرين: ينبغي ألا تلتفتوا إلى (الكم) بل إلى (الكيف) إذ كثيراً ما يحدث أن الجماعة الصغيره المتحليه بالإيمان والعزم والتصميم تغلب الجماعة الكبيره بإذن الله.

ينبغي أن نتنبه إلى أن «يظنون» هنا تعنى يعلمون، أى أنهم على يقين من قيام يوم القيامة، ولا يعنى الظن هنا الاحتمال، و ظن هذه تعنى اليقين فى كثير من الحالات، حتى لو اعتبرناها بمعنى الاحتمال، فإنها هنا تناسب المقام أيضاً، إذ فى هذه الحاله يكون المعنى أن مجرد احتمال قيام يوم القيامة يكفى، فكيف باليقين به حيث يحمل الإنسان على اتخاذ قرار بالنسبه للأهداف الربانيه. إن من يحتمل النجاح فى حياته- فى الزراعة أو التجاره أو الصناعه أو السياسه- يمضى فى مسيرته بكل عزم وتصميم.

أما لماذا يطلق على يوم القيامة يوم لقاء الله، فذلك ما أوضحناه فى الجزء الأول من هذا التفسير.

فى الآيه التاليه يذكر القرآن الكريم موضوع المواجهه الحاسمه بين الجيشين و يقول: **لَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَ جُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَ تَبَّتْ أَعْدَامُنَا وَ انصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .**

(برزوا) من مادّه (بروز) بمعنى الظهور، فعند ما يستعد المحارب للقتال و يتجه إلى الميدان يقال أنه برز للقتال، و إذا طلب القتال من الأعداء يقال أنه طلب مبارزاً.

تقول هذه الآيه أنه عند ما وصل طالوت و جنوده إلى حيث ظهر لهم جالوت و جيشه القوى و وقفوا فى صفوف أمامه رفعوا أيديهم بالدعاء، و طلبوا من الله العليّ القدير ثلاثه امور، الأول: الصبر و الاستقامه إلى آخر حد، و لذا جاءت الجملة تقول: **أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا .**

و(الإفراغ) تعنى فى الأصل صبّ السائل بحيث يخلو الإناء ممّا فيه تماماً،

و مجيء (صبر) بصيغه النكره يؤكد هذا المعنى بشكل أكبر.

الاعتماد على ربوبيه الخالق جلّ و علا- بقولهم (ربنا) و كذلك عبارته (إفراغ) مضافا إلى كلمه (على) التي تبين أنّ النزول من الأعلى، و كذلك عبارته (صبرا) في صيغه النكره كلّ هذه المفردات تدلّ على نكات عميقه لمفهوم هذا الدعاء و أنّه دعاء عميق المغزى و بعيد الأفق.

الثاني: أنهم طلبوا من الله تعالى أن يثبت أقدامهم وَ تَبَّتْ أَقْدَامُنَا حَتَّى لَا يَرْجِحَ الْفِرَارَ عَلَى الْقَرَارِ، و الواقع أنّ الدعاء الأول اتّخذ سمه الطلب النفسى و الباطنى، و هذا الدعاء له جنبه ظاهريّه و خارجيّه، و من المسلم أنّ ثبات القدم هو من نتائج روح الاستقامه و الصبر.

الثالث: من الأمور التي طلبها جيش طالوت هو وَ انصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ و هو في الواقع الهدف الأصلي من الجهاد و ينفذ النتيجة النهائيه للصبر و الاستقامه و ثبات الأقدام.

و من المسلم أنّ الله تعالى سوف لا يترك عباده هؤلاء لوحدهم أمام الأعداء مع قلّه عددهم و كثره جيش العدو، و لذلك تقول الآيه التاليه: فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ قَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ .

و كان داوود في ذلك الوقت شابا صغير السن و شجاعا في جيش طالوت. و لا تبين الآيه كيفيّة قتل ذلك الملك الجبار بيد داود الشاب اليافع، و لكن كما تقدّم في شرح هذه القصّه أنّ داود كان ماهرا في قذف الحجاره بالقلّاب حيث وضع في قلّابه حجرا أو اثنين و رماه بقوّه و بمهاره نحو جالوت، فأصاب الحجر جبهته بشدّه فصرعه في الوقت، فتسرب الخوف إلى جميع أفراد جيشه، فانهزموا بسرعه أمام جيش طالوت، و كأنّ الله تعالى أراد أن يظهر قدرته في هذا المورد و أنّ الملك العظيم و الجيش الجرار لا يستطيع الوقوف أمام شاب مراهق مسلّح بسلاح ابتدائي لا قيمه له.

تضيف الآية: وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ الضَّمير في هاتين الجملتين يعود على داود الفاتح في هذه الحرب، و على الرِّغم من أن الآية لا تقول أن داود هذا هو داود النبي والد سليمان عليهما السلام ولكن جملة وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ تدلُّ على أنه وصل إلى مقام النبوة، لأن هذا مما يوصف به الأنبياء عادة، ففي الآية ٢٠ من سورة ص نقرأ عن داود وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ كَمَا أَنَّ الأحاديث الواردة في ذيل هذه الآية تشير إلى أنه كان داود النبي نفسه.

و هذه العبارة يمكن أن تكون إشارة إلى العلم الإداري و تدبير البلاد و صنع الدروع و وسائل الحرب و أمثال ذلك حيث كان داود عليه السلام يحتاج إليها في حكومته العظيمة، لأن الله تعالى لا يعطي منصباً و مقاماً لأحد العباد إلا و يؤتیه أيضاً الاستعداد الكامل و القابليته اللازمه لذلك.

و في ختام الآية إشارة إلى قانون كلى فتقول: وَ لَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَ لَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ .

فالله سبحانه و تعالى رحيم بالعباد و لذلك يمنع من تشرى الفساد و سرايته إلى المجتمع البشرى قاطبه.

و صحيح أن سنَّه الله تعالى في هذه الدنيا تقوم على أصل الحرية و الإرادة و الإختيار و أن الإنسان حرّ في اختيار طريق الخير أو الشر، و لكن عند ما يتعرّض العالم إلى الفساد و الاندثار بسبب طغيان الطواغيت، فإنَّ الله تعالى يبعث من عباده المخلصين من يقف أمام هذا الطغيان و يكسر شوكتهم، و هذه من أطفاف الله تعالى على عباده. و شبيه هذا المعنى ورد في آية ٤٠ من سورة الحج وَ لَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَّمتْ صَوَامِعُ وَ بِيَعُ وَ صَلَوَاتُ وَ مَسَاجِدُ....

و هذه الآيات في الحقيقة بشاره للمؤمنين الذين يقفون في مواقع إمامية من مواجهه الطواغيت و الجبابرة فينتظرون نصره الله لهم.

و يرد هنا سؤال، و هو أنّ هذه الآيه هل تشير إلى مسأله تنازع البقاء التي تعتبر أحد الأركان الأربعة لفرضيه دارون في مسأله تكامل الأنواع؟ تقول الفرضيه أنّ الحرب و النزاع ضروري بين البشر، و إلاّ فالسكون و الفساد سيعم الجميع، فتعود الأجيال البشريه إلى حالتها الأولى، فالتنازع و الصّراع الدائمي يؤدّي إلى بقاء الأقوى و زوال الضعفاء و انقراضهم، و هكذا يتمّ البقاء للأصلح بزعمهم.

الجواب:

إنّ هذا التفسير يصح فيما إذا قطعنا صلّه هذه الآيه لما قبلها تماما، و كذلك الآيه المشابهه لها في سوره الحجّ و لكننا إذا أخذنا بنظر الإعتبار هذه الآيات رأيناها تدور حول محاربه الظالمين و الطّغاه، فلو لا- منع الله تبارك و تعالى لملؤوا الأرض ظلما و جورا، فعلى هذا لا تكون الحرب أصلا كليتا مقدّسا في حياه البشريه.

ثمّ أنّ ما يقال عن قانون (تنازع البقاء) المبنى على المبادئ الأربعة لنظريه دارون في (تطور الأنواع) ليست قانونا علميا مسلما، به بل هو فرضيه أبطلها العلماء، و حتّى اللّذين كانوا يؤيّدون نظريه تكامل الأنواع لم يعدّ أيّا منهم يعول عليها و يعتبرون تطوّر الأحياء نتيجة الطفره (1).

و إذا ما تجاوزنا عن كلّ ذلك و اعتبرنا فرضيه تنازع البقاء مبدء علميا فإنّه يمكن أن يكون كذلك فيما يتعلّق بالحيوان دون الإنسان، لأنّ حياه الإنسان لا يمكن أن تتطوّر وفق هذا المبدأ أبدا، لأنّ تكامل الإنسان يتحقّق في ضوء التّعاون على البقاء لا تنازع البقاء.

و يبدو أنّ تعميم فرضيه تنازع البقاء على عالم الإنسان أنّما هو ضرب من الفكر الاستعماري الذي يؤكّده بعض علماء الاجتماع في الدول الرأسماليه لتسويغ حروب حكوماتهم الدمويه البغيضه و إطفاء الطّابع العلمى على سلوكياتهم

ص: ٢٢٩

(١- ١) - لمزيد من الاطلاع راجع الكتاب «الفرضيه الأخيره في التّكامل».

و جعل الحرب و النزاع ناموسا طبيعيا لتطوّر المجتمعات الإنسانية و تقدّمها، أمّا الأشخاص الّذين وقعوا دون وعى تحت تأثير أفكار هؤلاء اللّإنسانيّيه و راحوا يطبّقون هذه الآيه عليها فهم بعيدون عن تعاليم القرآن، لأنّ القرآن يقول بكلّ صراحة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً (١)﴾ .

و من العجب أنّ بعض المفسّرين المسلمين مثل صاحب المنار و كذلك (المرائي) في تفسيره وقعوا تحت تأثير هذه الفرضيه إلى الحدّ الذي اعتبروها أحد السنن الإلهيه، ففسّروا بها الآيه محلّ البحث و تصوّروا أنّ هذه الفرضيه من إبداعات القرآن لا من ابتكارات و اكتشافات دارون، و لكن كما قلنا أنّ الآيه المذكوره ليست ناظره إلى هذه الفرضيه، و لا أنّ هذه الفرضيه لها أساس علمي متين، بل أنّ الأصل الحاكم على الروابط بين البشر هو التعاون على البقاء لا تنازع البقاء.

و آخر آيه في هذا البحث تقول: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ .

تشير هذه الآيه إلى القصص الكثيره التي وردت في القرآن بشأن بنى إسرائيل و أنّ كلّا منها دليلا على قدره الله و عظمته و منزهه عن كلّ خرافه و أسطوره (بالحقّ) حيث نزلت على نبيّ الإسلام صلى الله عليه و آله و سلّم و كانت إحدى دلائل صدق نبوّته و أقواله.

ص : ٢٣٠

الجزء الثالث من القرآن الكريم من الآية ٢٥٣ من سورة البقره

ص: ٢٣١



اشاره

تَلَمَّكَ الرَّسُولُ فُضِّلْنَا بِغَضِّهِمْ عَلَيَّ بَعْضُ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اِخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣)

التفسير

اشاره

دور الأنبياء في حياه البشر:

هذه الآيه تشير إلى درجات الأنبياء و مراتبهم و جانباً من دورهم في حياه المجتمعات البشريه، تقول الآيه: تَلَمَّكَ الرَّسُولُ فُضِّلْنَا بِغَضِّهِمْ عَلَيَّ .

«تلك» اسم إشاره للبعيد. و الإشاره إلى البعيد- كما نعلم- تستعمل أحياناً لإضفاء الاحترام و التبجيل على مقام الشخص أو الشئ المشار إليه، هنا أيضاً أشير إلى الرسل باسم الإشاره «تلك» لتبيان مقام الأنبياء الرفيع.

و اختلف المفسرون في المقصود بالرسل هنا، هل هم جميع الرسل و الأنبياء؟



أم هم الرسل الذين وردت أسماءهم أو ذكرت حكاياتهم في ما سبق من آيات هذه السورة فقط، مثل إبراهيم، موسى، عيسى، داود، اشموئيل؟ أم هم جميع الرسل الذين ذكرهم القرآن حتى نزول هذه الآية؟ ولكن يبدو أن المقصود هم الأنبياء والمرسلون جميعاً، لأن كلمة «الرسول» جمع حلى بالألف واللام الدالتين على الاستغراق، فتشمل الرسل كافة.

فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ

يتضح جلياً من هذه الآية أن الأنبياء - وإن كانوا من حيث النبوة والرسالة متماثلين - هم من حيث المركز والمقام ليسوا متساوين لاختلاف مهماتهم، وكذلك مقدار تضحياتهم كانت مختلفه أيضاً.

مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ

هذه إشارة إلى بعض فضائل الأنبياء، وواضح أن المقصود بالآية موسى عليه السلام المعروف باسم «كليم الله»، كما أن الآية ١٦٣ من سورة النساء تقول عنه وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا.

أمياً القول بأن المقصود هو نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم وأن التكليم المنظور هنا هو التكليم الذي كان في ليله المعراج مع الرسول، أو أن المراد هو الوحي الإلهي الذي ورد في آية ٥١ من سورة الشورى وَمِمَّا كَانَتْ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَخِيًا...

حيث اطلق عليه عنوان التكلم، فإنه بعيد جداً، لأن الوحي كان شاملاً لجميع الأنبياء، فلا يتلائم مع كلمة «منهم» لأن (من) تعبئيه.

ثم تضيف الآية وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَمَعَ اللَّاتِفَاتِ إِلَّا أَنَّ الْآيَةَ أَشَارَتْ إِلَى التَّفَاضُلِ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ بِالدرجات و المراتب، فيمكن أن يكون المراد في هذا التكرار إشاره إلى أنبياء معينين و على

رأسهم نبي الإسلام الكريم لأنّ دينه آخر الأديان و أكملها، فمن تكون رسالته الإبلاغ أكمل الأديان لا بدّ أن يكون هو نفسه أرفع المرسلين، خاصّه و أنّ القرآن يقول فيه في الآية ٤١ من سورة النساء فكيف إذا جئت من كمل أمه بشهيد و جئت بك على هؤلاء شهيداً (١).

و الشاهد الآخر على هذا الموضوع، و هو أنّ الآية السابقة تشير إلى فضيله موسى عليه السلام، و الآية التاليه تبين فضيله عيسى عليه السلام، فالمقام يتطلّب الإشاره إلى فضيله رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم، لأنّ كلّ واحد من هؤلاء الأنبياء الثلاثة كان صاحب أحد الأديان الثلاثة العظيمه فى العالم. فإذا كان اسم نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم قد جاء بين اسميهما، فلا عجب فى ذلك، أو ليس دينه الحدّ الوسط بين دينيهما و أنّ كلّ شىء قد جاء فيه بصورة معتدله و متعاده؟ ألا يقول القرآن: وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا (٢) ! و مع ذلك، فإنّ العبارات المتقدمه فى هذه الآية تدلّ على أنّ المقصود من رفع بعضهم درجات هم بعض الأنبياء السابقين، مثل إبراهيم إذ يقول سبحانه فى الآية التاليه: وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ أَى لو شاء الله ما أخذت امم هؤلاء الأنبياء تتقاتل فيما بينها بعد رحيل أنبيائها.

وَ آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَ أَيْدِنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ

أى آتينا وهبنا عيسى عليه السلام براهين واضحه مثل شفاء المرضى المزمنين و إحياء الموتى و المعارف الدينيه الساميه.

أمّا المراد من (روح القدس) هل هو جبرئيل حامل الوحي الإلهي، أو قوى اخرى غامضه موجوده بصوره متفاوته لدى أولياء الله؟ تقدّم البحث مشروحا فى الآية ٨٧ من سورة البقره، و عند ما تؤكّد هذه الآية على أنّ عيسى عليه السلام كان مؤيدا

ص: ٢٣٥

(١-١) - النساء: ٤١.

(٢-٢) - البقره: ١٤٣.

بروح القدس فلائنه كان يتمتع بسهم أوفر من سائر الأنبياء من هذه الروح المقدسه.

و تشير الآيه كذلك إلى وضع الأمم و الأقوام السالفه بعد الأنبياء و الاختلافات التى جرت بينهم فتقول: وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَمَقَامَ الْأَنْبِيَاءِ وَ عَظَمَتِهِمْ لَنْ يَمْنَعَا مِنْ حُصُولِ الْاِخْتِلَافَاتِ وَ الْقِتَالِ وَ الْحَرْبِ بَيْنَ أَتْبَاعِهِمْ لِأَنَّهَا سَنَّهُ إِلَهِيَّةٌ أَنْ جَعَلَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ حَرًّا وَ لَكِنَّهُ أَسَاءَ الْاِسْتِفَادَةِ مِنْ هَذِهِ الْحَرِيَّةِ وَ لَكِنْ اِخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَ مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ .

و من الواضح أنّ هذا الاختلاف بين الناس ناشئ من اتّباع الأهواء و الشهوات و إلا فليس هناك أى صراع و اختلاف بين الأنبياء الإلهيين حيث كانوا يتبعون هدفا واحدا.

ثم تؤكد الآيه أنّ الله تعالى قادر على منع الاختلافات بين الناس بالإرادته التكوينية و بالجبر، و لكنّه يفعل ما يريد وفق الحكمة المنسجمه مع تكامل الإنسان و لذلك تركه مختارا وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ .

و لا شكّ فى أنّ بعض الناس أساء استخدام هذه الحرّيه، و لكنّ وجود الحرّيه فى المجموع يعتبر ضرورياً لتكامل الإنسان، لأنّ التكامل الإيجابى لا يعدّ تكاملا.

و ضمنا يستفاد من هذه الآيه التى تعرّضت إلى مسأله الجبر مرّه اخرى بطلان الاعتقاد بالجبر، حيث ثبت أنّ الله تعالى ترك الإنسان حرّاً فبعض آمن و بعض كفر.

### مسأله:

هل الأديان تسبب الاختلافات؟

يتّهم بعض الكتّاب الغربيين الأديان على أنّها هى سبب التفرقه و النزاع بين أفراد البشر، و هى السبب فى إراقه الكثير من الدماء، فالتاريخ شهد الكثير من

الحروب الدينيه، و هكذا سعوا إلى إدانه الأديان و اعتبارها من الأسباب المثيره للحروب و المخاصمات.

و إزاء هذا القول لا بدّ من الانتباه إلى ما يلي:

أولاً: أنّ الاختلافات- كما جاء في الآيه المذكوره- لا تنشأ في الحقيقه بين الأتباع الصادقين لدين من الأديان، بل هي بين أتباع الدين و مخالفه. و إذا ما شاهدنا صراعا بين أتباع مختلف الأديان فإنّ ذلك لم يكن بسبب التعاليم الدينيه، بل بسبب تحريف التعاليم و الأديان و بالتعصّب المقيت و مزج الأديان السماويه بالخرافات.

ثانياً: إنّ الدين- أو تأثيره- قد انحسر اليوم عن قسم من المجتمعات البشريه، و مع ذلك نرى أنّ الحروب قد ازدادت قسوه و اتسعا و انتشرت في مختلف أرجاء العالم. فهل أن الدين هو السبب، أم أنّ روح الطغيان في مجموعه من البشر هي السبب الحقيقى لهذه الحروب، و لكنّها تظهر اليوم بلبوس الدين، و في يوم آخر بلبوس المذاهب الاقتصايه و السياسيّه، و في أيّام اخرى بقوالب و مسميات أخرى؟! و عليه فالدين لا ذنب له في هذا، إنّما الطغاه هم الذين يشعلون نيران الحروب بحجج متنوّعه.

ثالثاً: إنّ الأديان السماويه- و على الأخصّ الإسلام- التي تكافح العنصريه و القوميّه، كانت سببا في إلغاء الحدود العنصريه و الجغرافيه و القبليه، فقضت بذلك على الحروب التي كانت تثار باسم هذه العوامل. و عليه فإن الكثير من الحروب في التاريخ قد خمدت نيرانها بفضل الدين. كما أنّ روح السلام و الصداقه و الأخلاق و العواطف الإنسانيه التي ترفع لواءها جميع الأديان السماويه، كان لها أثر عميق في تخفيض الخصومات و المشاكسات بين مختلف الأقسام.

رابعاً: أنّ من رسالات الأديان السماويه تحرير الطبقات المحرومه المعذبّه، و كانت هذه الرساله هي سبب الحروب التي شنتها الأنبياء و أتباعهم على

الظالمين و المستغلين، من أمثال فرعون و النمرود. إنّ هذه الحروب التي تعتبر جهادا في سبيل تحرير الإنسان، ليست عيوباً تلصق بالأديان، بل هي من مظاهر فخرها و اعتزازها و قوتها. إنّ حروب رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم مع المشركين من العرب و المرابين في مكّة من جهه، و مع قيصر و كسرى من جهه أخرى، كانت كلّها من هذا القبيل.

ص: ٢٣٨

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةَ وَلَا شَفَاعَةَ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)

التفسير

اشاره

الإِنْفَاقُ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ النِّجَاحِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

بعد أن تحدّث الآيات السّابقيه عن الأمم الماضيه و جهاد حكوماتها الإلهيه و الاختلافات التي حدثت بعد الأنبياء عليهم السّلام تخاطب هذه الآيه المسلمين و تشير إلى أحد الواجبات المهمه عليهم التي تسبّب في تقويه بنيتهم الدّفاعيه و توحيد كلمتهم فتقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ .

جمله مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ لها مفهوم واسع حيث يشمل الإِنْفَاقُ الواجب و المستحب، و كذلك الإِنْفَاقُ المعنوي كالتعليم و أمثال ذلك، و لكن مع الالتفات إلى التهديد الوارد في ذيل الآيه لا- يبعد أن يكون المراد به الإِنْفَاقُ الواجب يعنى الزكاه و أمثالها، مضافا إلى أنّ الإِنْفَاقُ الواجب هو الذى يعزّز بيت المال و يقوم كيان

الحكومة، وبهذه المناسبة يشير تعبير (مما) أنّ هذا الإنفاق يكون بجزء من المال الذي يملكه الشخص لا كله.

وقد رجّح المرحوم (الطبرسي) في مجمع البيان شموله الآيه للإنفاق الواجب والمستحب، وذهب إلى أنّ ذيل الآيه لا يعتبر تهديداً، بل هو إخبار عن الحوادث المخوفه يوم القيامة (١).

ولكن مع ملاحظه آخر جمله في هذه الآيه التي تقول إنّ الكافرين هم الظالمون يتضح أنّ ترك الإنفاق نوع من الكفر و الظلم، وهذا لا يكون إلا في الإنفاق الواجب.

ثمّ تضيف الآيه مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ (٢).

عليكم أن تنفقوا ما دتم اليوم قادرين على ذلك، لأنّ العالم الآخر الذي هو محلّ حصاد ما زرتموه في الدنيا لن يتسنى لكم فيه أن تفعلوا شيئاً، فلا معاملات ولا صفقات تجاربه تستطيعون بها أن تشتروا السعاده والخلص من العقاب، ولا هذه الصداقات الماديّه التي تكسبونها في الدنيا بأموالكم تنفعكم في شيء هناك، لأنّ أصدقاءكم أنفسهم يعانون نتائج أعمالهم ولا يدفعون من أنفسهم للآخرين، ولا تنفعكم شفاعة، لأنكم بتخلّفكم حتّى عن الإنفاق الواجب لم تفعلوا ما هو جدير بأن يشفع لكم. وعليه فإنّ جميع أبواب النجاه مسدوده بوجوهكم.

وَ الْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ

لأنهم بتركهم الإنفاق والزكاة يظلمون أنفسهم و يظلمون الناس.

و يريد القرآن في هذه الآيه أن يوضّح ما يلي:

ص: ٢٤٠

١- (١) - مجمع البيان: ج ١ و ج ٢ ص ٣٦٠.

٢- (٢) - «خلّة» مأخوذه من ماده «خلل» بمعنى الفاصله بين شيئين و بما أن المحبّه و الصداقه تحل في وجود الإنسان و روحه و تملأ الفواصل لذا أطلقت هذه المفرده على الصداقه العميقه.

أولاً: إنّ الكافرين يظلمون أنفسهم، فبتركهم الإنفاق الواجب و سائر التكاليف الدينيه و الإنسانيه حرموا أنفسهم من أعظم السعادات، و أنّ أعمالهم هذه هي التي تثقل كواهلهم في العالم الآخر، لذلك فإنّ الله لم يظلمهم أبداً.

ثانياً: يظلم الكافرون أفراد مجتمعهم أيضاً، لأنّ الكفر يمنع القسوه و تحجّر القلب و التمسك بالماده و عباده الدنيا، و هذه كلّها من مصادر الظلم، لا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ الكفر في الآيه يعنى التمردّ و العصيان و التخلف عن إطاعه أمر الله لورود الكلمه بعد الأمر بالإنفاق. و استعمال الكفر بهذا المعنى شائع في القرآن و غيره من النصوص الإسلاميه.

ص: ٢٤١



اشاره

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)

آيه الكرسي من أهم آيات القرآن:

يكفي لبيان أهميته وفضيله هذه الآيه

قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عند ما سأله (أبي بن كعب): أي آيه من آيات كتاب الله أفضل؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: الله لا إله إلا هو الحي القيوم.

قال: فضرب يده في صدرى ثم قال: ليهنك العلم، والذي نفس محمد بيده إن لهذه الآيه لسانا وشفقتين يقدر الملك لله عن ساق العرض.

و في حديث آخر عن علي عليه السلام عن رسول الله قال: سيد القرآن البقره و سيد البقره آيه الكرسي، يا علي إن فيها لخمسين كلمه في كل كلمه خمسون بركه، و

في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام قال: من قرأ آيه الكرسي مره صرف الله عنه ألف

مكروه من مكاره الدنيا و ألف مكروه من مكاره الآخرة أيسر مكروه الدنيا الفقر و أيسر مكروه الآخرة عذاب القبر. و عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن لكل شيء ذروه و ذروه القرآن آية الكرسي (١).

و الروايات الواردة في كتب العلماء الشيعة و السنّة في فضيله هذه الآيات الشريفه كثيره جدّا و نختم كلامنا هذا

بروايتين عن رسول الله قال: أعطيت آية الكرسي من كنز تحت العرش و لم يؤتها نبيّ كان قبلي

(٢)

و

في حديث آخر أنّ أخوين جاء إلى رسول الله فقالا نريد الشام في التجاره فعلمنا ما نقول؟ فقال: نعم، إذا آويتما إلى منزل، فصليا العشاء الآخرة، فإذا وضع أحدكما جنبه على فراشه بعد الصلاه، فليستبّح تسبيح فاطمه، ثم ليقرأ آية الكرسي فإنه محفوظ من كلال شيء حتى يصبح. و جاء في ذيل الحديث أن لوصفا تبعوهما و سعوا في سرقه ما معهما إلا أنهم لم يفلحوا في ذلك (٣).

و من المعلوم أنّ كلّ هذه الأهميّة و الفضيله لآية الكرسي إنّما هي للمحتوى العميق و المغزى المهم لها و المذى سوف نلاحظه ضمن تفسيرها.

## التفسير

### إشارة

### مجموعه من صفات الجمال و الجلال:

تبدأ الآية بذكر الذات المقدسه و مسأله التوحيد في الأسماء الحسنی و الصفات العليا لله عزّ و جلّ فتقول: **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**.

(الله) يعنى الذات الواحده الجامعه لصفات الكمال، إنه خالق عالم الوجود،

ص: ٢٤٣

١-١) -مجمع البيان: ج ١ ص ٢٦٠.

٢-٢) -تفسير البرهان: ج ٢ ص ٢٤٥، بحار الأنوار: ج ٨٩ ص ٢٦٤، ج ٧ (باب فضائل سورة يذكر فيها البقره و آية الكرسي) و لأجل الاطلاع أكثر راجع بحار الأنوار: ج ٨٩ ص ٢٦٢-٢٧٢.

٣-٣) -بحار الأنوار: ج ٨٩ ص ٢٦٦ باب فضائل سورة البقره ح ١١ (بتلخيص).

لذا ليس فى عالم الوجود معبود جدير بالعباده غيره.

و بعباره لا- إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يبين القرآن وحدانيه خالق الوجود التى هى أساس الإسلام، و لكن هذه الحقيقه- كما قلنا- موجوده فى لفظه «الله».

لذلك فَإِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ تأكيد لتلك الحقيقه نفسها.

«الحى» من كانت فيه حياه، و هذه الصفه المشبّهه، كمثيلاتھا تدلّ على الدوام و الاستمرار. و حياه الله حياه حقيقه، لأنّ حياهه عين ذاته، و ليس عارضه عليه مأخوذه من غيره. فى الآيه ٥٨ من سوره الفرقان يقول: وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ .

هذا من جهه، و من جهه اخرى تكون الحياه الكامله حياه لا يعترىها الموت، و عليه فَإِنَّ الحياه الحقيقه هى حياهه الباقيه من الأزل إلى الأبد، أمّا حياه الإنسان التى يخالطها الموت فى هذه الدنيا فلا يمكن أن تكون حياه حقيقه، لذلك نقرأ فى الآيه ٦٤ من سوره العنكبوت: وَ مَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ . و على ذلك فَإِنَّ الحياه الحقيقه هى التى تختصّ بالله.

### و لكن ما مفهوم «الله حى»؟

فى التعبير السائد نقول للكائن أنّه حى إذا كان يتّصف بالنموّ و التغذيه و التكاثر و الجذب و الدفع، و قد يتّصف بالحسّ و الحركه. و لكن لا بدّ من الانتباه إلى أنّ بعضا من السدج قد يحسبون حياه الله شبيهه بهذه، مع علمنا بأنّه لا يتّصف بأيه واحده من هذه الصفات. هذا هو القياس الذى يوقع الإنسان فى أخطاء فى حقل معرفه الله، حين يقيس صفات الله بصفاته.

«الحياه» بمعناها الواسع الحقيقى هى العلم و القدره، و عليه فَإِنَّ من يملك العلم و القدره اللامتناهيّتين يملك الحياه الكامله.

حياء الله هي مجموعته علمه و قدرته، و فى الواقع بالعلم و القدره يمكن التمييز بين الحى و غير الحى. أما النمو و الحركه و التغذيه و التكاثر فهى صفات كائنات ناقصه و محدوده، فهى تكمل نقصها بالتغذيه و التكاثر و الحركه، أما الذى لا نقص فيه فلا يمكن أن يتصف بمثل هذه الصفات.

«القيوم» صيغه مبالغه من القيام. لذلك فالكلمه تدلّ على الموجود الذى قيامه بذاته، و قيام كل الكائنات بوجوده، و بعبارة أخرى: جميع كائنات العالم تستند إليه.

بديهي أن القيام كما هو الشائع فى الكلام اليومى هو الوقوف و بالهيئه المعروفه، و لكن بما أن هذا المعنى لا يتفق مع الله المنزه عن الصفات الجسميه، لذلك فالمقصود به هو القيام بالخلق و التدبير و التعهيد، فإنه هو الذى خلق المخلوقات كلها و تعهد بتدبيرها و تربيتها و إدامتها، و لن يغفل عنها لحظه واحده، فهو قائم دائما و أبدا و باستمرار دون توقّف.

و يتضح من هذا أن «قيوم» هى فى الواقع أساس كل صفات الفعل - و هى الصفات التى تبين علاقته الله بالموجودات مثل الخالق، الرزاق، الهادى، المحيى، و أمثالها -.

فالقيام بالخلق و تدبير أمور العالم يشمل كل هذه الأمور، فهو الذى يرزق، و هو الذى يحيى، و هو الذى يميت، و هو الذى يهدى. و عليه فإن صفات الخالق و الرزاق و الهادى و المحيى و أمثالها تتجمع كلها فى «القيوم».

و من هنا يتضح أن تحديد البعض لمفهوم هذه الجمله بالقيام بأمر الخلقه أو القيام بأمر الرزق و أمثال ذلك، هو فى الواقع إشاره إلى أحد مصاديق القيام، فى حين أنه مفهومه واسع و يشمل كل ذلك، لأن مفهومه كما قلنا يعطى معنى القائم بالذات و غيره متقوم به و محتاج له.

و فى الحقيقه أنّ (الحى) يشمل جميع الصفات الإلهيه كالعلم و القدره و السميع و البصير و أمثال ذلك، و (القيوم) تتحدّث عن احتياج جميع المخلوقات إليه، و لذا قيل أنّ الاسم الأعظم الإلهى هو مجموع هاتين الصفتين.

ثمّ تضيف الآيه لا تأخذه سنه و لا نوم .

(سنه) من مادّه (و سن) و تعنى كما يقول كثير من المفسرين أنّها الإغفاء و الاستخراء الذى يكون فى بدايه النوم، و بعبارة اخرى أنّه النوم الخفيف، و (نوم) يعنى الحاله التى تركد فيها بعض حواس الإنسان المهمه، و فى الواقع أنّ (سنه) عبارة عن النوم العارض للعين، و لكن عند ما يتوغّل كثيرا فى الإنسان و يتعمّق و يعرض على العقل فيقال له (نوم) و جمله لا تأخذه سنه و لا نوم هي فى الواقع تأكيد لصفه القيوم التى يوصف بها الله، لأنّ القيام الكامل و المطلق بتدبير عالم الوجود يتطلّب عدم إغفال ذلك حتّى للحظه واحده. أى إنّ الله لا يغفل طرفه عين عن حكمه المطلق على عالم الوجود و إدارته.

لذلك فكلّ صفه لا تتفق مع قيوّميه الله تنتفى من ساحه قدس الله تلقائيا، بل أنّ ذاته منزّهه حتّى عن أتفه عامل يمكن أن يؤدى إلى أىّ تهاون فى عمله، مثل «السنه».

أمّا سبب تقديم «السنه» على «النوم» فى الآيه مع أنّ القوى يذكر عاده قبل الضعيف، فيعود إلى التتالى الطبيعى فى عمليه النوم، إذ تتتاب المرء «السنه» أوّلا ثمّ تزداد عمقا حتّى تورده فى النوم العميق.

و تشير هذه الآيه إلى حقيقه استمرار فيض اللطف الإلهى و ديمومته و عدم انقطاعه عن وجوده لحظه واحده، فهو ليس كعباده الذين يغفلون عن الآخرين بسبب النوم أو أىّ عامل آخر.

يلاحظ أنّ تعبير لا تأخذه تعبير رائع يؤدى الغرض بدقه، و هو يصوّر

استيلاء النوم على الإنسان تصويراً مجسّداً، و كأنّ النوم كائن قويّ ذو مخالب تمسك بالإنسان بقوّه و تأسره، إنّ ضعف أقوى الناس أمام سلطان النوم أمر لا اختلاف فيه.

## مالكيه الله المطلقة

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

لا- يكون هناك قيام بشؤون العالم بغير ملكيه السماوات و الأرض و ما فيها، لذلك فهذه الآيه-بعد ذكر قيوّميه الله-تشير إلى حقيقه كون العالم كلّ ملك خاصّ لله، و أنّ كلّ تصرّف يحدث فيه فبأمر منه.

و عليه، فإنّ الإنسان ليس المالك الحقيقي لما عنده و لما يقع تحت تصرّفه، بل أنّه يتصرّف فيه لمدّه محدوده و وفق شروط معيّنه قرّرها المالك الحقيقي، لذلك فعلى هؤلاء المالكين المؤقتين أن يلتزموا تمام الالتزام بالشروط التي وصفها المالك الحقيقي، و إلاّ فإنّ مالكيّتهم المؤقتة هذه تصبح باطله و تصرّفهم غير جائز.

الشروط المطلوبه للتصرّف بملك الله هي التي وردت في الشرع و أبغت للناس.

من الواضح أنّ التقيد بهذا يعتبر في الواقع عاملاً مهمّاً من عوامل التربيّه، إذا اعتقد الإنسان أنّه ليس المالك الحقيقي لما يملك و إنما هو يتصرّف به لفترة قصيره من الزمن، فسيمتنع-دون شكّ-عن الاعتداء على حقوق الآخرين و عن الحرص و الطمع و الاحتكار و البخل و أمثالها ممّا يتولّد في الإنسان نتيجة التصاقه بالدنيا، فيكون ذلك مدعاه لتربيته تجعله قانعا بحقوقه المشروعه (1).

مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ

و هذا في الواقع ردّ على ادّعاء المشركين

ص: ٢٤٧

(١-١) - شرحنا معنى الأحلام في سورة يوسف شرحاً وافياً.

الذين يقولون إننا نعبد الأوثان لتكون شفعا لنا عند الله كما ورد في الآية ٣ من سورة الزمر ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ (١).

و هذه الآية من نوع الاستفهام الاستنكاري، أى ما من أحد يتقدم بشفاعه إليه بإذنه. هذه الآية تكمل فى الواقع معنى قِيوميه الله و مالكيته المطلقة لجميع ما فى عالم الوجود. أى أننا إذا رأينا أحدا يشفع عند الله، فليس معنى ذلك أنه يملك شيئا و أن له تأثيرا مستقلا، بل أن مقامه فى الشفاعه هبه من الله. و لَمَا كانت شفاعته بإذن الله، فإنَّ هذا بذاته دليل آخر على قِيوميه الله و مالكيته.

بحث

إشارة

الشفاعة ليست محسوبية:

«الشفاعة» (٢) هى العون الذى يقدمه قوَى لضعيف لكى يساعده على اجتياز مراحل تكامله بسهولة و نجاح.

إلا أن الكلمة تستعمل عادة فى التوسط لغفران الذنوب. غير أن مفهوم الشفاعه أوسع من ذلك و تشمل جميع العوامل و الدوافع و الأسباب فى عالم الوجود، على سبيل المثال التربة و الماء و الهواء و أشعه الشمس هى العوامل الأربعة التى تشفع لبذره النبات و تعينها على الوصول إلى مرحله النضج لتصبح شجره أو نبتة متكامله. و لو نظرنا إلى الشفاعه فى الآية الكريمة بهذا المعنى الواسع أدركنا أن وجود العوامل و الأسباب المختلفه لا يحدّد مالكيه الله المطلقة و لا يقلل منها، لأنَّ تأثير هذه العوامل كافه لا يكون إلا بإذن الله و أمره، و هذا أيضا

ص: ٢٤٨

١ - ١) - وردت «ما» فى جملة (ما فى السموات و ما فى الأرض) للموجودات غير العاقله، و مع أن الموجودات العاقله أيضا مملوكه لله سبحانه جاءت «ما» للتغليب لأن الغلبه الأكثرية للموجودات غير العاقله.

٢ - ٢) - تحدّثنا عن الشفاعه فى المجلد الأول الآية (٤٨) من سورة البقره بصوره مفصله.

دليل على قيمته و مالكيته.

يبد أن بعضهم يظن أن الشفاعة في المفاهيم الدينيه تشبه التوصيات و المحسوبيات و المنسوبيات، و أن مفهومها العام هو السماح للإنسان أن يرتكب ما يشاء من المعاصي، ثم يتوسل بالشفاعة لغفران ذنوبه كلها بيسر و سهوله!! و لكن الأمر ليس كذلك، فلا المعترضون أدركوا شيئاً من منطق الدين في موضوع الشفاعة، و لا العاصون المتجرون على حدود الله فهموا ذلك. فالشفاعة التي يقوم بها بعض عباد الله المقربين يمكن اعتبارها- كما قلنا- شفاعة تكوينيه تتحقق بوساطه عوامل طبيعیه، كما تتحقق في بذره النبات. و كما أن البذره لا- تنمو إن لم تكن فيها عوامل الحياه حتى لو سطعت عليها الشمس و هبت عليها الرياح و هطل عليها المطر الهتون سنوات طويله، كذلك شفاعة أولياء الله لغير المؤهلين، لن يكون لها أى أثر، أو قل إنهم لا يمكن أن يشفعوا لأمثال هؤلاء.

الشفاعة تستلزم نوعاً من العلاقه المعنويه بين الشفيع و المشفوع له. لذلك فإن على من يرجو الشفاعة أن يقيم في هذه الدنيا علائق روحيه مع من يتوقع شفاعته.

و هذه العلائق ستكون- في الواقع- وسيله من وسائل تربيته المشفوع له بحيث إنها تقرّبه من مدرسه أفكار الشفيع و أعماله، و هذا ما سيوصله إلى أن يكون مؤهلاً لنيل تلك الشفاعة.

و بناء على ذلك، فالشفاعة عامل تربوي، و ليست نوعاً من المحسوبيه و المنسوبيه، و لا ذريعه للتصل عن المسؤوليه.

و من هذا يتضح أن الشفاعة لا تغير إرادته الله بشأن العصاه المذنبين، بل أن العاصي و المذنب- بارتباطه الروحي بشفيعه- يحظى بتربيته تؤهله لنيل عفو الله تعالى (1).

ص: ٢٤٩

---

(١-١) - في المجلد الأول من هذا التفسير بحث واف تحت عنوان «القرآن و الشفاعة». راجع ص ١٦٣ منه.



بعد الإشارة إلى الشفاعة في الآيه السابقه، و إلى أنّ هذه الشفاعة لا تكون إلا بإذن الله، تأتي هذه الجملة لبيان سبب ذلك فتقول إنّ الله عالم بماضى الشفعاء و مستقبلهم، و بما خفى عليهم أيضا. لذلك فهم غير قادرين على أن يبينوا عن المشفوع لهم أمورا جديده تحمل الله على إعاده النظر فى أمرهم بسببها و تغيير حكمه فيهم.

و ذلك لأنّ الشفيح- فى الشفاعات العاديه- يؤثّر فى المتشفّع عنده بطريقتين اثنتين: فهو إمّا أن يعمد إلى ذكر صفات و مؤهلات المشفوع له التى تدعو إلى إعاده النظر فى أمره. أو أن يبيّن للمتشفّع عنده العلاقه التى تربط المشفوع بالشفيع ممّا يستدعى تغيير الحكم إكراما للشفيع.

بديهيّ أنّ كلا- هذين الاسلوبين يعتمدان على كون الشفيح يعلم أشياء عن المشفوع له لا يعلمها المتشفّع عنده. أمّا إذا كان المتشفّع عنده محيطا إحاطه كامله بكلّ شىء ممّا يتعلّق بكلّ شخص، فلا يكون لأحد أن يشفع لأحد عنده، و ذلك لأنّ المتشفّع عنده أعلم بمن يستحقّ الشفاعة فيجيز للشفيع أن يشفع له.

كلّ ذلك فى صورته أن يكون ضمير ما بين أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ يعود على الشفعاء أو المشفوع لهم، و لكن يحتمل أيضا أن يعود الضمير لجميع الموجودات العاقله فى السموات و الأرض الوارده فى جملة له في السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ و تعتبر تأكيدا لقدره الله الكامله على جميع المخلوقات و عجز الكائنات أيضا و حاجتها إليه، لأنّ من ليس له علم بماضيه و مستقبله و غير مّطلع على غيب السموات و الأرض فإنّ قدرته محدوده جدّا، بخلاف من هو عالم و مّطلع على جميع الأشياء، و فى جميع الأزمنه و الأعصار، فى الماضى و الحاضر فإنّ قدرته غير محدوده، و لهذا السبب فكلّ عمل حتّى الشفاعة يحتاج إلى إذنه.

و بهذا الترتيب يمكن الجمع بين كلا المعنيين.

أمّا المراد من جملة مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ فَإِنَّ الْمَفْسِّرِينَ احتمالات متعدّده، فبعض ذهب إلى أنّ المراد من مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ أمور الدّنيا التي تكون أمام الإنسان و بين يديه، و جملة وَمَا خَلْفَهُمْ يراد بها أمور الآخرة التي تقع خلف الإنسان، و ذهب بعض آخر إلى عكس هذا التفسير.

و بعض ثالث ذهب إلى أنّها إشاره إلى أجر الإنسان أو أعماله الخيره أو الشّريه أو الأمور التي يعلمها و التي لا يعلمها.

و لكن بمراجعه آيات القرآن الكريم يستفاد أنّ هذين التعبيرين استعمالاً في بعض الموارد للمكان كالآيه ١٧ من سوره الأعراف حيث تحدّث عن قول الشيطان لَأَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ .

و تارة تأتي بمعنى القبل و البعد الزماني كالآيه ٧١ من سوره آل عمران حيث تقول وَ يَشْتَبِهُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ فَمَنْ الْوَاضِحُ أَنَّ الْآيَةَ هُنَا نَظَرُهُ إِلَى الزَّمَانِ.

أمّا في الآيه التي نحن بصددّها فالتعبير قد يجمع بين المكان و الزمان، أي أنّ الله يعلم ما كان في الماضي أو يكون في المستقبل و ما هو أمام أنظارهم بحيث إنّهم يعلمونه، و ما هو خلفهم و محجوب عنهم و لا يعلمون عنه شيئاً، و على هذا فإنّ الله محيط بكلّ أبعاد الزمان و المكان فكل عمل حتّى الشفاعة يجب أن تكون بإذنه.

و في ثامن صفه مقدّسه تقول الآيه وَ لَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ (١).

هذه الفقرة أيضاً تؤكد لما سبق من سعه علمه اللامحدود و أنّ علم الكائنات

ص: ٢٥١

١ - ١) - ذهب أكثر المفسّرين إلى ان كلمه «علم» هنا بمعنى المعلوم. و هذا ما يتناسب مع معنى الآيه و من هنا تبعّضيه. مجمع البيان، تفسير الكبير، روح البيان، و القرطبي في ذيل الآيه المبحوثة.

إنما هو قيس من علمه تعالى، فلذلك يكون علم الشفعاء محدودا بإزاء علمه تعالى، فلا حظ لهم من العلم إلا بمقدار ما يريد الله تعالى لهم.

و من هذه الفقره من الآيه يستفاد أمرين:

الأول: أنه لا أحد يعلم شيئا بذاته، فجميع العلوم و المعارف البشريه إنما هي من الله تعالى، فهو الذى يزىح الستار عن حقائق الخلقه و اسرار الطبيعه و يضع معلومات جديده فى متناول البشر فيوسع من أفق معرفتهم.

و الآخر: هو أن الله تعالى قد يضع بعض العلوم الغيبية فى متناول من يشاء من عباده فيطلعهم على ما يشاء من أسرار الغيب، و هذا رد على من يعتقد أن علم الغيب غير متاح للبشر، و هو تفسير أيضا للآيات التى تنفى علم الغيب عن البشر (و سيأتى أن شاء الله مزيد من الشرح لهذا الموضوع فى مكانه عند تفسير الآيات الخاصه بالغيب كآياه ٢٦ من سوره الجن).

و جمله لا يُحِيطُونَ إِشاره لطيفه إلى حقيقه العلم و أنه نوع من الإحاطه.

و فى تاسع و عاشر صفه إلهيه تقول الآيه: وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا .

و فى الصفه الحاديه عشر و الثانيه عشر تقول الآيه: وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ .

**بحوث**

**إشاره**

**الأول: المراد من العرش و الكرسي**

(الكرسى) من «كرس» بوزن إرث، و معناه أصل الشىء و أساسه، كما يطلق على كل شىء متجمّع و مترابط، و لهذا يطلق على المقعد الواطئ المتعارف عليه للجلوس، و يقابله «العرش» الذى يعنى السقف، أو الشىء ذا السقف، أو الكرسي ذا

ص: ٢٥٢

القوائم المرتفعه. ولما كان الأستاذ أو المعلم يجلس أحيانا على كرسى أثناء التدريس، فقد انتقل اسم «الكرسى» ليدل على العلم، وقد يستعمل رمزا للسلطه و السيطرة أو يكون كناية عن الحكومه و الحكم.

فى هذه الآيه نقرأ عن كرسى الله أنه يسع السماوات و الأرض. و عليه فيمكن أن يكون للكرسى عدّه معان:

١-منطقه نفوذ الحكم: أى أنّ حكم الله نافذ فى السماوات و الأرض و أنّ منطقته نفوذه تشمل كل مكان، أى أنه يشمل عالم المادّه برمته، بما فيه من أرض و نجوم و مجرّات و سدم.

و على هذا يكون «العرش» مرحله أرفع و أعظم من عالمنا المادى هذا، لأنّ العرش - كما قلنا - يعنى السقف أو المسقف أو مقعدا أعلى من الكرسى. و بهذا يشمل العرش عالم الأرواح و الملائكه و ما وراء الطبيعه، و هذا يكون بالطبع إذا وضع الكرسى فى قبال العرش بحيث يعنى الأول «عالم المادّه و الطبيعه» و يعنى الثانى «عالم ما وراء الطبيعه».

و للعرش معان أخرى كما سيأتى فى تفسير الآيه ٥٣ من سوره الأعراف، خاصّه إذا لم يذكر فى قبال الكرسى، و عندئذ يمكن أن يكون بمعنى عالم الوجود كلّه.

٢-منطقه نفوذ العلم: أى أنّ علم الله يحيط بجميع السماوات و الأرض و أنّ ما من شىء يخرج عن منطقته نفوذ علمه، لأنّ الكرسى - كما قلنا - قد يكون كناية عن العلم. و هناك أحاديث كثيره تعتمد هذا المعنى، من ذلك ما رواه حفص بن غياث

عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه سأله عن معنى وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَالَ:

هو العلم (١).

ص: ٢٥٣

٣- شىء أوسع من السماوات و الأرض كلها بحيث إنه يحيط بها من كل جانب. و على هذا يكون معنى الآية: كرسى الله يضم جميع السماوات و الأرض و يحيط بها.

و قد نقل هذا التفسير عن الإمام على عليه السلام أنه قال: «الكرسى محيط بالسماوات و الأرض و ما بينهما و ما تحت الثرى»

(١)

بل يستفاد من بعض الروايات أن الكرسى أوسع بكثير من السماوات و الأرض.

فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «ما السماوات و الأرض عند الكرسى إلا كحلقة خاتم فى فلاه، و ما الكرسى عند العرش إلا كحلقة فى فلاه»

(٢)

المعنيان الأول و الثانى مفهومان، أما المعنى الثالث فأمر لم يتوصل العلم البشرى بعد لمعرفة و كشف الستار عنه، فالعالم الذى يضم فى زاويه منه السماوات و الأرض لم يثبت وجوده بالطرق العلميه حتى الآن، كما أنه ليس هناك أى دليل على عدم وجوده، فالعلماء يعترفون جميعا بأن اتساع السماء و الأرض يزداد بمرور الأيام و بتقدم وسائل المعرفة العلميه، و ما من أحد يستطيع أن يزعم أن سعه عالم الوجود هو ما يعرفه العلم اليوم، و لا- يستبعد أن تكون هناك عوالم أخرى لا تعد و لا تحصى خارجه عن نطاق وسائل الأبصار عندنا اليوم.

نضيف هنا أن التفاسير الثلاثه المذكوره لا يتعارض بعضها مع بعض، و أن عبارته وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يمكن أن تشير إلى حكمه الله المطلقة و نفوذ قدرته فى السماوات و الأرض، كما تشير فى الوقت نفسه إلى علمه النافذ، و كذلك إلى عالم أوسع بكثير من عالمنا هذا. و هذه الآية تكمل الآيات السابقه من سعه علم الله.

ص: ٢٥٤

١-١) -المصدر السابق: ص ٢٦٠ ح ١٠٤٢.

٢-٢) -مجمع البيان: ج ١ ص ٣٦٢.

بعبارة موجزه أنّ عرش حكومه الله و قدرته يهيمن على السماوات و الأرض جميعا، و أنّ كرسى علمه يحيط بكلّ هذه العوالم، و ما من شىء يخرج عن نطاق حكمه و نفوذ علمه.

قوله: وَ لَا يُوَدُّهُ حِفْظُهُمَا. «يؤوده» من «أود»-على وزن قول-بمعنى الثقل و المشقه، أى أنّ حفظ السماوات و الأرض ليس فيه أى ثقل أو مشقه على الله، فهو ليس مثل مخلوقاته التى يتعبها الحفاظ على الأشياء و يوهنها، ذلك لأنّ المخلوقات ضعيفه محدوده القدره، و قدرته غير محدوده، و من لا حدود لقدرته لا يكون للثقل و الخفه و الصعب و السهل مفهوم عنده. فهذه مفاهيم تصدق عند من تكون قدراتهم محدوده.

مما تقدّم يتّضح أنّ الضمير فى «يؤوده» يعود على الله، و يؤكّد هذا ما سبق من آيات و الآيه التاليه، فضمائرهما كلّها تعود على الله، و عليه فإنّ احتمال عود هذا الضمير إلى «الكرسى»-باعتبار أنّ حفظ السماوات و الأرض ليس ثقيلًا على الكرسى-ضعيف جدا.

قوله: وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ. توكيد لما سبق. أى أنّ الله الذى هو أرفع و أعلى من كلّ شبيهه و شريكه، و منزّه عن كلّ نقص و عيب، و هو العظيم اللامحدود، لا يصعب عليه أى عمل و لا يتعبه حفظ عالم الوجود و تدبيره، و لا يغفل عنه أبدا، و علمه محيط بكلّ شىء.

### الثانى: هل أنّ آيه الكرسى هى هذه الآيه فحسب؟

و قد يرد سؤال و هو: هل أنّ آيه الكرسى هى التى تبدأ من قوله لا إله إلا هو و تنتهى بقوله وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ أو أنّ الآيتين التاليتين لهذه الآيه جزء من آيه الكرسى، فعلى هذا لو ورد الأمر بقراءه آيه الكرسى فى صلاه (ليله الدفن) مثلا

فلا بدّ من قراءه الثلاث آيات هذه.

هناك قرائن تشير إلى أنّ آيه الكرسيّ هي الآيه المذكوره آنفا:

١- إنّ جميع الروايات التي أوردت فضيله هذه الآيه و عثرت عنها بآيه الكرسيّ تدلّ على أنّها آيه واحده لا أكثر.

٢- أنّ كلمه (الكرسيّ) وردت في الآيه الاولى فقط، فلذلك فإنّ تسميتها بآيه الكرسيّ متعلّق بهذه الآيه.

٣- ورد في بعض الأحاديث تصريح بهذا المعنى، فالحديث الذي ذكره الشيخ- في أماليه-

عن أمير المؤمنين عليه السّلام حيث قال عليه السّلام ضمن بيان فضيله آيه الكرسيّ أنّه بدأها من **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** إِلَى **هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**.

٤- ذكر صاحب مجمع البيان نقلا عن مستدرک سفينه البحار أنّ (و آيه الكرسيّ معروفه و هي إلى قوله و هو العليّ العظيم) (١).

٥- و نقرأ

في حديث عن الإمام علي بن الحسين عليهما السّلام عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم قال: «من قرأ أربع آيات من أول البقره و آيه الكرسي و آيتين بعدها، و ثلاث آيات من آخرها لم ير في نفسه و ماله شيئا يكرهه و لا يقربه شيطان، و لا ينسى القرآن» (٢).

و من هذا التعبير يستفاد أيضا أنّ آيه الكرسيّ آيه واحده.

٦- ورد في بعض الروايات أنّ آيه الكرسيّ خمسون كلمه، و في كلّ كلمه خمسون برکه (٣)، و عند ما يعدّ كلمات هذه الآيه إلى قوله **وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** تكون خمسين كلمه.

ص: ٢٥٦

١- ١) - مستدرک سفينه البحار: ج ٩ ص ٩٧.

٢- ٢) - بحار الأنوار: ج ٨٩ ص ٢٦٥.

٣- ٣) - مجمع البيان: ج ١ ص ٣٦١.

أجل يستفاد من بعض الروايات الأمر بقراءه هذه الثلاث آيات إلى قوله:

هُم فِيهَا خَالِدُونَ

دون أن تكون معنونه بعنوان آيه الكرسي.

و على كل حال أن المستفاد من القرائن أعلاه هو أن آيه الكرسي آيه واحده لا أكثر.

### الثالث: الدليل على أهميته آيه الكرسي.

إن أهميته آيه الكرسي الكبيره تكمن في تضمّنها لمجموعه من المعارف الإسلاميه و الصفات الإلهيه أعم من صفات الذات و الفعل خاصه مسأله التوحيد في أبعادها المختلفه، و هذه الصفات البالغه اثنا عشر صفه و كل واحده منها يمكن أن تكون ناظره إلى أحد المسائل التربويه للإنسان تستحق التأمل و التدبّر، و كما يقول أبو الفتوح الرازي أن كل واحده من هذه الصفات تنفي أحد المذاهب الباطله (و على هذا يمكن إصلاح و تقويم اثنا عشر فكره باطله و خاطئه بواسطه هذه الآيه) (١).

ص: ٢٥٧

---

١-١) - تفسير ابو الفتوح الرازي: ج ٢ ص ٣٢٧.



اشاره

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)

سبب النزول

يقول الطبرسي في مجمع البيان في سبب نزول هذه الآيه: كان لرجل من المدينة اسمه «ابو الحصين» ولدان دعاهما إلى اعتناق المسيحيه بعض التجار الذين كانوا يفتدون على المدينة، فتأثر هذان بما سمعا و اعتنقا المسيحيه، و رحلا مع أولئك التجار إلى الشام عند عودتهم. فأزعج ذلك أبو الحصين، و أقبل يخبر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بما حدث، و طلب منه أن يعمل على الاعاده ولديه إلى الإسلام، و سأله إن كان يجوز إجبارهما على الرجوع إلى الإسلام، فنزلت الآيه المذكوره و بينت أن لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .

و جاء في تفسير المنار أن أبو الحصين كان يريد إكراه ولديه على الرجوع إلى أحضان الإسلام، فجاء مع أبيهما لعرض الأمر على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، فقال

أبو الحصين: كيف أجزى لنفسى أن أنظر إلى ولدى يدخلان النار دون أن أفعل شيئاً؟ فنزلت الآية.

## التفسير

### إشارة

### الدين ليس إجبارياً:

إنَّ آية الكرسى فى الواقع هى مجموعه من توحيد الله تعالى و صفاته الجماليه و الجلاليه التى تشكّل أساس الدين، و بما أنّها قابله للاستدلال العقلى فى جميع المراحل و ليست هناك حاجه للإجبار و الإكراه تقول هذه الآية: لا إكراه فى الدين قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .

(الرشد) لغويا تعنى الهدايه للوصول إلى الحقيقه، بعكس (الغى) التى تعنى الانحراف عن الحقيقه و الابتعاد عن الواقع.

و لَمَّا كان الدين يهتّم بروح الإنسان و فكره و مبنّى على أساس من الإيمان و اليقين، فليس له إلا طريق المنطق و الاستدلال و جملة: لا إكراه فى الدين فى الواقع إشاره إلى هذا المعنى، مضافاً إلى أنّ المستفاد من شأن نزول هذه الآية و أنّ بعض الجهلاء طلبوا من رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم أن يقوم بتغيير عقائد الناس بالإكراه و الجبر فجاءت الآية جواباً لهؤلاء و أنّ الدين ليس من الأمور التى تفرض بالإكراه و الإجبار و خاصّه مع كلّ تلك الدلائل الواضحه و المعجزات البينه التى أوضحت طريق الحقّ من طريق الباطل، فلا حاجه لأمثال هذه الأمور.

و هذه الآية ردّ حاسم على الذين يتهمون الإسلام بأنّه توسّل إحيانا بالقوّه و بحدّ السيف و القدره العسكريه فى تقدّمه و انتشاره، و عند ما نرى أنّ الإسلام لم يسوّغ التوسل بالقوّه و الإكراه فى حمل الوالد لولده على تغيير عقيدته الدينيه فإنّ واجب الآخرين بهذا الشأن يكون واضحاً، إذ لو كان حمل الناس على تغيير

أديانهم بالقوّه والإكراه جائزا في الإسلام، لكان الأولى أن يجيز للأب ذلك لحمل ابنه على تغيير دينه، في حين أنه لم يعطه مثل هذا الحقّ.

و من هنا يتّضح أنّ هذه الآيه لا تنحصر بأهل الكتاب فقط كما ظنّ ذلك بعض المفسّرين، وكذلك لم يمسح حكم هذه الآيه كما ذهب إلى ذلك آخرون، بل أنّه حكم سار و عام و مطابق للمنطق و العقل.

ثمّ أنّ الآيه الشريفه تقول كنتيجة لما تقدّم فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاعُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا .

(الطاغوت) صيغه مبالغه من طغيان، بمعنى الاعتداء و تجاوز الحدود، و يطلق على كلّ ما يتجاوز الحدّ. لذلك فالطاغوت هو الشيطان و الصنم و المعتدى و الحاكم الجبار و المتكبر، و كلّ معبود غير الله، و كلّ طريق لا ينتهي إلى الله. و هذه الكلمه تعنى المفرد و تعنى الجمع.

أمّا المقصود بالطاغوت، فالكلام كثير بين المفسّرين. قال بعض إنّه الصنم، و قال بعض إنّه الشيطان، أو الكهنة، أو السحرة، و لكن الظاهر أنّ المقصود هو كلّ أولئك، بل قد تكون أشمل من كلّ ذلك، و تعنى كلّ متعدّد للحدود، و كلّ مذهب منحرف ضال.

إنّ الآيه في الحقيقه تأييد للآيات السابقه التي قالت أن لا إكراه في الدين ، و ذلك لأنّ الدين يدعو إلى الله منبع الخير و البركه و كلّ سعادته، بينما يدعو الآخرون إلى الخراب و الانحراف و الفساد. على كلّ حال، إنّ التمسك بالإيمان بالله هو التمسك بعروه النجاه الوثقى التي لا تنفصم.

وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

الإشاره في نهايه الآيه إلى الحقيقه القائله إنّ الكفر و الإيمان ليسا من الأمور الظاهريه، لأنّ الله عالم بما يقوله الناس علانيه- و في الخفاء- و كذلك هو عالم بما

يكنه الناس في ضمائرهم وقلوبهم.

و في هذه الجملة ترغيب للمؤمنين الصادقين، و ترهيب للمنافقين.

## بحث

### اشاره

### الدين لا يفرض:

لا يمكن للإسلام و لا للأديان الحقّه الاخرى أن تفرض فرضا على الناس لسببين:

١- بعد كلّ تلك الأدلّه و البراهين الواضحه و الاستدلالات المنطقيه و المعجزات الجليه لم تكن ثمه حاجه لذلك. إنّما يستخدم القوّه من أعوزه المنطق و الحجّه. و الدين الإلهي ذو منطق متين و حجّه قويّه.

٢- أنّ الدين القائم على أساس مجموعه من العقائد القليليه لا- يمكن أن يفرض بالإ-كراه. إن عوامل القوّه و السيف و القدره العسكريه يمكنها أن تؤثر في الأجسام، لا في الأفكار و المعتقدات.

يتّضح ممّا تقدّم الردّ على الإعلام الصليبي-المسموم ضدّ الإسلام-القائل «إنّ الإسلام انتشر بالسيف»، إذ لا قول أبلغ و لا أفصح من لا إكراه في الدين الذي أعلنه القرآن.

هؤلاء الحاقدون يتناسون هذا الإعلان القرآني الصريح، و يحاولون من خلال تحريف مفهوم الجهاد و أحداث الحروب الإسلاميه أن يثبتوا مقولتهم، بينما يتّضح بجلاء لكلّ منصف أنّ الحروب التي خاضها الإسلام كانت إمّا دفاعيه، و إمّا تحريريّه، و لم يكن هدف هذه الحروب السيطرة و التوسّع، بل الدفاع عن النفس، أو إنقاذ الفئه المستضعفه الرازحه تحت سيطره طواغيت الأرض و تحريرها من

ربقه العبوديه لتستنشق عبير الحريه و تختار بنفسها الطريق الذى ترتئيه.

و الشاهد الحى على هذا هو ما تكرر حدوثه فى التاريخ الإسلامى، فقد كان المسلمون إذا افتتحوا بلدا تركوا أتباع الأديان الأخرى أحرارا كالمسلمين.

أما الضريبه الصغيره التى كانوا يتقاضونها منهم باسم الجزيه، فقد كانت ثمنا للحفاظ على أمنهم، و لتغطيه ما تتطلبه هذه المحافظه من نفقات، و بذلك كانت أرواحهم و أموالهم و أعراضهم مصونه فى حمى الإسلام. كما أنه كانوا أحرارا فى أداء طقوسهم الدينيه الخاصه بهم.

جميع الذين يطالعون التاريخ الإسلامى يعرفون هذه الحقيقه، بل إن المسيحيين الذين كتبوا فى الإسلام يعترفون بهذا أيضا. يقول مؤلف «حضاره الإسلام او العرب»: «كان تعامل المسلمين مع الجماعات الأخرى من التساهل بحيث إن رؤساء تلك الجماعات كان مسموحا لهم بإنشاء مجالسهم الدينيه الخاصه».

و قد جاء فى بعض كتب التاريخ أن جمعا من المسيحيين الذين كانوا قد زاروا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم للتحقيق و الاستفسار أقاموا قداسا فى مسجد النبى فى المدينه بكل حرّيه.

إن الإسلام- من حيث المبدأ- توسل بالقوّه العسكريه لثلاثه امور:

١- لمحو آثار الشرك و عباده الأصنام، لأنّ الإسلام لا يعتبر عباده الأصنام دينا من الأديان، بل يراها انحرافا و مرضا و خرافه، و يعتقد أنه لا يجوز مطلقا أن يسمح لجمع من الناس أن يسيروا فى طريق الضلال و الخرافه، بل يجب إيقافهم عند حدّهم. لذلك دعا الإسلام عبده الأصنام إلى التوحيد، و إذا قاومه توسل بالقوّه و حطّم الأصنام و هدّم معابدها، و حال دون بروز أى مظهر من مظاهر عباده الأصنام، لكى يقضى تماما على منشأ هذا المرض الروحى و الفكرى.

و هذا يتبين من آيات القتال مع المشركين، مثل الآية ١٩٣ من سورة البقره:

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ. و ليس هناك أى تعارض بين الآية التى نحن بصددها و هذه الآية، و لا نسخ فى هذا المجال.

٢- لمقابله المتآمرين للقضاء على الإسلام، عندئذ كانت الأوامر تصدر بالجهاد الدفاعى و بالتوسل بالقوه العسكرىه. و لعل معظم الحروب الإسلاميه على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم كانت من هذا القبيل، مثل حرب أحد و الأحزاب و حنين و مؤته و تبوك.

٣- للحصول على حريه الدعوه و التبليغ. حيث إن لكل دين الحق فى أن يكون حراً فى الإعلان عن نفسه بصوره منطقيه، فإذا منعه أحد من ذلك فله أن ينتزع حقه هذا بقوه السلاح.

ص: ٢٦٣

اشاره

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)

التفسير

اشاره

نور الإيمان و ظلمات الكفر:

بعد أن أشير في الآيات السابقة إلى مسأله الإيمان و الكفر و اتضح الحق من الباطل و الطريق المستقيم عن الطريق المنحرف توضح هذه الآيه الكريمه استكمالاً للموضوع أن لكل من المؤمن و الكافر قائدا و هاديا فتقول: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا فهُمْ يَسِيرُونَ فِي ظِلِّ هَذِهِ الْوَلَايَةِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .

كلمه (ولي) في الأصل بمعنى القرب و عدم الانفصال و لهذا يقال للقائد و المرابي (ولي) - و سيأتي شرحها في تفسير آيه إنما وَرِيثُكُمْ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ... (١) -

ص: ٢٦٤

تطلق أيضا على الصديق و الرفيق الحميم، إلا أنه من الواضح أن الآيه مورد البحث تعنى فى هذه الكلمه المعنى الأول، و لذلك تقول الله وليُّ الَّذِينَ آمَنُوا... .

و يمكن أن يقال أن هدايه المؤمنين من الظلمات إلى النور هو تحصيل للحاصل، و لكن مع الالتفات إلى مراتب الهدايه و الإيمان يتضح أن المؤمنين فى مسيرهم نحو الكمال المطلق بحاجه شديده إلى الهدايه الإلهيه فى كلِّ مرحله و فى كلِّ قدم و كلِّ عمل، و ذلك مثل قولنا فى الصلاه كلِّ يوم: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ .

ثم تضيف الآيه إن أولياء الكفار هم الطاغوت (الأوثان و الشيطان و الحاكم الجائر و أمثال ذلك) فهؤلاء يسوقونهم من النور إلى الظلمات و الذين كفروا أولياءهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات و لهذا السبب أولئك أضلُّ حابِّ النارِ هم فيها خالِدُونَ .

### ملاحظات

١- إن تشبيه الإيمان و الكفر بالنور و الظلمه تشبيه بليغ رائع، فالنور هو منبع الحياه و مصدر البركات و الرشد و النمو التكاملى و التحرُّك و منطلق الاطمئنان و العرفه و الهدايه، بينما الظلام رمز السكون و الموت و النوم و الجهل و الضلال و الخوف، و هكذا الإيمان و الكفر.

٢- النقطة الثانيه هى أن «الظلام» فى هذه الآيه و فى آيات اخرى جاء بصيغه الجمع (ظلمات)، و النور جاء بصيغه المفرد، و هذا يشير إلى أن مسيره الحق ليس فيها تفرُّق و تشتت، بل هى مسيره واحده فهى كالخط المستقيم بين نقطتين حيث إنه واحد دائما غير متعدّد، أما الباطل و الكفر فهما مصدر جميع أنواع الاختلاف و التشتت، حتى أن أهل الباطل غير منسجمين فى باطلهم، و ليس لهم هدف واحد



كما هو الحال فى الخطوط المائله و المنحرفه بين نقطتين حيث يكون عددها على طرفى الخط المستقيم غير محدود و لا معدود.

و أحتمل البعض أنّ المراد من ذلك أن صفوف الباطل بالنسبه لأهل الحقّ كثيره.

٣-يمكن أن يقال أنّ الكفّار ليس لهم نور فيخرجوا منه،و لكن مع الالتفات إلى أنّ نور الإيمان موجود فى فطرتهم دائما فينطبق عليه هذا التعبير انطباقا كاملا.

٤-من الواضح أنّ الله تعالى لا- يجبر المؤمنين للخروج من الظلمات إلى النور(ظلمات المعصيه و الجهل و الصفات الذميه و البعد عن الحقّ)و لا يكره الكفّار على خروجهم من نور التوحيد الفطرى،بل أنّ أعمال هؤلاء هى التى توجب هذا المصير و ثمر هذه العاقبه.

ص: ٢٦٦

اشاره

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)

التفسير

اشاره

مواجهه إبراهيم مع طاغوت زمانه:

تعقيبا على الآيه السابقه التي تناولت هدايه المؤمنين بواسطه نور الولايه و الهدايه الإلهيه، و ضلال الكافرين لاتباعهم الطاغوت، يذكر الله تعالى في هذه الآيه: عمدّه شواهد لذلك، و أحدها ما ورد في الآيه أعلاه و هي تتحدّث عن الحوار الذي دار بين إبراهيم عليه السلام و أحد الجبارين في زمانه و يدعى (نمرود) فتقول: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ .

و تعقّب الآيه بجمله أخرى تشير فيها إلى الدافع الأساس لها و تقول: إِنَّ ذَلِكَ الْجَبَّارُ تَمَلَّكَ الْغُرُورَ وَالْكَبْرَ وَأَسْكِرَهُ الْمَلِكُ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ .

و ما أكثر الأشخاص الذين نجدهم فى الحالات الطبيعىه أفراد معتدلين و مؤمنين، و لكن عند ما يصلون إلى مقام أو ينالون ثروه فأنهم ينسون كل شىء و يسحقون كل المقدرات.

و تضيف الآيه أن ذلك الجبار سأل إبراهيم عن ربه: من هو الإله الذى تدعونى إليه؟ إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى و يميت .

الواقع أن أعظم قضيه فى العالم هى قضيه الخلقه، يعنى قانون الحياه و الموت الذى هو أوضح آيه على علم الله و قدرته.

و لكن نمرود الجبار اتخذ طريق المجادله و السفسطه و تزييف الحقائق لإغفال الناس و الملاء من حوله فقال: إن قانون الحياه و الموت بيدى قال أنا أحيى و أميت .

و من أجل إثبات هذه الدعوى الكاذبه استخدم حيله كما ورد فى الروايه المعروفه حيث أمر بإحضار سجينين أطلق سراح أحدهما و أمر بقتل الآخر، ثم قال لإبراهيم و الحضار: أرايتم كيف أحيى و أميت.

و لكن إبراهيم قدم دليلا آخر لإجباط هذه الحيله و كشف زيف المدعى بحيث لا يمكنه بعد ذلك من إغفال الناس فقال: قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب و هنا ألقم هذا المعاند حجرا فبهت الذى كفر و الله لا يهيدى القوم الظالمين .

و بهذا أسقط فى يدى العدو المغرور، و عجز عن الكلام أمام منطق إبراهيم الحى، و هذا أفضل طريق لاسكات كل عدو عنيد. بالرغم من أن مسأله الحياه و الموت أهم من قضيه حركه الشمس و شروقها و غروبها من حيث كونها برهانا على علم الله و قدرته، و لهذا السبب أورده إبراهيم دليلا أول، و لو كان فى ذلك المجلس عقلاء و متفكرون لاكتفوا بهذا الدليل و اقتنعوا به، إذ أن كل شخص يعرف

أنّ مسأله اطلاق سراح سجين و قتل آخر لا علاقته له بقضيه الإحياء و الإماتة الطبيعيتين أبداً، و لكن قد يكون هذا الدليل غير كافٍ لأمثال هؤلاء السذج، و يحتمل وقوعهم تحت تأثير سفسطه ذلك الجبار المكار، فلهذا قدم إبراهيم عليه السلام دليله الآخر و هو مسأله طلوع و غروب الشمس لكي يتضح الحق للجميع (1).

و ما أحسن ما صنع إبراهيم عليه السلام من تقديمه مسأله الحياه و الموت كدليل على المطلوب حتى يدعى ذلك الجبار مشاركه الله تعالى في تدبير العالم، ثم طرح مسأله طلوع و غروب الشمس بعد ذلك ليوضح زيف دعواه و يحجم عن دعوى المشاركة.

و يتضح ضمناً من جملة وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أنّ الهدايه و الضلاله بالرغم من أنّهما من أفعال الله تعالى، إلا أنّ مقدّماتهما بيد العباد، فارتكاب الآثام من قبيل الظلم و الجور و المعاصي المختلفه تشكل على القلب و البصيره حجب مظلمه تمنع من أدراك الحقائق على حقيقتها.

### ملاحظات

١- القرآن لا يذكر اسم هذا الشخص الذي حاج إبراهيم، و يشير إليه بقوله:

أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ

أى أنّه لغوره بحكمه قام بمحاجه إبراهيم.

صاحب تفسير الدر المنثور نقل عن أمير المؤمنين على عليه السلام روايه تذكر أنّه «النمرود بن كنعان» و كتب التاريخ تذكر هذا الاسم أيضاً.

٢- على الرغم من عدم تعرّض القرآن لذكر وقت هذا الحوار، فالقرائن تدلّ

ص: ٢٦٩

(١ - ١) - إن الاستدلال الثانى يبدأ بإلغاء و قد يكون إشاره إلى أن الاستدلال الثانى لا يعنى صرف النظر عن الاستدلال الأوّل بل تضاف إليه.

على أنه وقع بعد قيام إبراهيم بتحطيم الأصنام و نجاته من النار، إذ من الواضح أنه قبل إلقائه فى النار لم تكن لتجرى أمثال هذه المجادلات، لأن عبده الأصنام ما كانوا يسمحون له بالكلام و هم يعتبرونه مجرماً ينبغى أن ينال بأسرع وقت جزاءه على فعلته الشنيعه بتحطيم آلهتهم المقدسه! إنهم سألوه عن سبب فعلته ثم أصدروا أمرهم بإحراقه و هم غاضبون، و لكن عند ما خرج من النار سليماً على تلك الصورة العجيبه استطاع أن يصل إلى نمرود و أن يحاوره.

٣- يتبين جلياً من الآيه أن نمرود لم يكن فى الواقع يبحث عن الحقيقه، بل كان يريد أن يظهر باطله بمظهر الحق. و لعل استعمال الفعل «حاج» قصد به هذا المعنى، لأنه يستعمل عادة فى مثل هذه الحالات.

٤- يستدل من الآيه بصوره واضحه أن جبار ذلك الزمان كان يدعى الألوهيه، لا ليعبدوه فحسب، بل ليؤمنوا به خالقاً لهذا العالم أيضاً، أى أنه كان يرى نفسه معبوداً و خالقاً.

و ليس فى هذا ما يدعو إلى العجب، ففى الوقت الذى يسجد فيه الناس لأصنام من الحجر و الخشب، و فضلاً عن عبادتها يعتبرونها مؤثره فى إداره العالم و تساهم فيها، فإن الفرصه مناسبه لجبار مخادع أن يستغل الناس و يستغل سداجتهم و يدعوهم إليه و يظهر نفسه بمظهر صنم يعبدونه و يعتبرونه خالقاً.

٥- تاريخ عباده الأصنام يصعب لنا بيان تاريخ لعباده الأصنام و تعيين مبدأ له، فمنذ أقدم الأزمنه التى كانت عباده الأصنام سائده بين البشر الذين كانت أفكارهم منحطه و على مستوى واطئ.

الواقع أن عباده الأصنام نوع من التحريف فى العقيدة الفطريه الطبيعيه

المودعه في الإنسان المتمثله في عباده الله. ولما كانت هذه الفطره موجوده في الإنسان دائما، فإنَّ تحريفها كان أيضا موجودا بين المجموعات البشريه المنحطه دائما. لذلك يمكن القول أنَّ تاريخ عباده الأصنام يكاد يوازي تاريخ ظهور الإنسان على الأرض، وذلك لأنَّ الإنسان بمقتضى فطرته و خلقه يتوجّه إلى قوّه فوق الطبيعه. إنَّ طبيعته هذه كانت تؤيّدُها أدلّه واضحه من نظام الوجود تقضى بوجود مبدأ عالم قادر، وكان الإنسان يدرك هذا بقدر ما عن طريقين - فطرته و عقله - والإحساس بالجوع في الأطفال مثلا إذا لم يوجّه في الوقت المناسب إلى الغذاء السليم فإنَّ الطفل قد يمدّ يده إلى أشياء كالطين و التراب، و يتعود على ذلك بالتدريج فيفقد صحّته من جراء ذلك. كذلك الإنسان الذي يبحث عن الله بفطرته و عقله إذا لم يوجّه الوجهه الصحيحه يمدّ نظره إلى مختلف الآلهه و الأصنام المصطنعه، فيحنى و يسجد لها و يسبغ عليها كلّ صفات الألوهيه.

و لا حاجه إلى القول بأنَّ قصيرى النظر و السفهاء يسعون إلى أن يجسّموا كلّ شيء في قالب حسى، لأنّ فكرهم لا يفارق منطقهم المحسوسات أبدا، لذلك كان يصعب عليهم عباده إله غير منظور و مرئى، و رغبوا في صبّ آلهتهم في قالب حسى. إنَّ هذا الجهل إذا امتزج بفطرته عباده الله يظهر في صوره عباده الأصنام و الآلهه المجرّده.

و قيل من جهه اخرى: إنَّ الأقوام السالفه كانت تقدّس أنبياءها و شخصياتها الدينيه، فإذا توفى هؤلاء أقامت لهم التماثيل لإحياء ذكراهم مدفوعين بروح تقديس الأبطال، و الغلوّ التي نجدها في ضعفاء العقول، و من ثمّ تقديس تماثيلهم إلى حدّ التآليه، و كان هذا سببا آخر من أسباب عباده الأصنام.

و من الأسباب الأخرى لعباده الأصنام هو أنّ عددا من الموجودات الطبيعيه التي هي مصدر خير و بركه للإنسان كالقمر و الشمس و النار و الماء و غيرها قد

أثارت اهتمام الإنسان بها، فراح يحنى رأسه أمامها تعظيماً لها و اعترافاً منه بجمالها دون أن يوسع أفق تفكيره ليرى المبدأ الأوّل فى خلق العالم وراء تلك الموجودات، فاتخذ هذا التقدير و الاحترام بمرور الزمان صورته عباده لهذه الموجودات.

إنّ منشأ كلّ أنواع عباده الأصنام شىء واحد، وهو الانحطاط الفكرى و الجهل و عدم وجود الهادى المخلّص إلى طريق الله، الأمر الذى يمكن الوقايه منه باتباع تعاليم الأنبياء و تربيتهم و إرشاداتهم.

ص: ٢٧٢

اشاره

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)

التفسير

اشاره

قصه «عزير» العجيبه:

جاءت هذه الآيه معطوفه على الآيه السابقه و تقصّ حكاية أحد الأنبياء القدامى، و هي من الشواهد الحثيه على مسأله البعث. و قد دارت الآيات السابقه- التي استعرضت الحوار بين إبراهيم عليه السّلام و النمرود- حول التوحيد و معرفه الله. أمّا هذه الآيه و الآيات التاليه فتدور حول المعاد و الحياه بعد الموت. نبدأ بشرح



الحكاية بصوره مجمله ثم نياشر بالتفسير.

الآيه تشير إلى حكاية رجل سافر على حماره و معه طعام و شراب، فمرّ بقريه قد تهدمت و تحوّلت إلى انقاض تتخللها عظام أهاليها النخره. و إذ رأى هذا المشهد المروع قال: كيف يقدر الله على إحياء هؤلاء الأموات؟ لم يكن تساؤله بالطبع من باب الشكّ و الإنكار، بل كان من باب التعجب، إذ أنّ القرائن الأخرى فى الآيه تدلّ على أنّه كان أحد الأنبياء، و قد تحدّث إليه الله، كما أنّ الأحاديث تؤيد هذا كما سيأتى.

عند ذلك أماته الله مدّه مائه سنه، ثمّ أحياه مرّه اخرى و سأله: كم تظنّ أنّك بقيت فى هذه الصحراء؟ فقال و هو يحسب أنّه بقى سويّعات: يوماً أو أقل، فخاطبه الله بقوله: بل بقيت هنا مائه سنه، انظر كيف أنّ طعامك و شرابك طوال هذه المدّه لم يصبه أى تغير يا ذن الله. و لكن لكى تؤمن بأنك قد أمضيت مائه سنه كامله هنا انظر إلى حمارك الذى تلاشى و لم يبق منه شىء بموجب نوايس الطبيعه، بخلاف طعامك و شرابك، ثمّ انظر كيف إنّنا نجمع أعضاءه و نحياه مرّه اخرى. فعند ما رأى كلّ هذه الأمور أمامه قال: أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، أى: إنّى الآن على يقين بعد أن رأيت البعث بصوره مجسّمه أمامى.

و من هذا النبىّ الذى تحدّث عنه هذه الآيه؟ ثمّه أقوال عديده، قال بعض: إنّها «ارميا». و قال آخرون: إنّها «الخضر». إلا أنّ أشهر الأقوال: إنّها «العزير» و يؤيده حديث عن الإمام الصادق عليه السلام (1).

و اختلفت الأقوال أيضا بشأن القريه المذكوره، قال بعض: إنّها «بيت المقدس» التى دمرها نبوخذ نصر، و هو احتمال بعيد.

ص: ٢٧٤

نعود إلى تفسير الآية: أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا .

هذه الآية - كما قلنا - تكمله للآية السابقة التي دارت حول التوحيد. هذه الآية و الآيات التالية تجسد مسأله المعاد.

«عروش» جمع عرش، و هنا تعنى السقف. و «خاويه» فى الأصل بمعنى خاليه، و لكنّها هنا كناية عن الخراب و الدمار، فالببوت العامره تكون عاده مسكونه، أمّا الدور الخاليه فإمّا أن تكون قد تهدمت من قبل، أو أنّها تهدمت بسبب خلّوها من الساكنين، و عليه فإنّ قوله وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا تعنى أنّ دور تلك القرية كانت كلّها خربه، فقد هوت سقوفها ثمّ انهارت الجدران عليها، و هذا هو الخراب التام إذ أنّ الانهدام يكون عاده بسقوط السقف أولاً، و تبقى الجدران قائمه بعض الوقت، ثمّ تنهار فوق السقف.

قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا

الظاهر أنّ أحدا لم يكن مع النبىّ فى هذه الواقعه، فهو بهذا يخاطب نفسه.

و بديهى أنّ القرية هنا تعنى أهل القرية، و هذا يعنى أنّه كان يرى عظام أهل القرية بعينه، فأشار إليها و هو ينطق بتساؤله.

فَأَمَّا تَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ

يرى أكثر المفسرين أنّ هذه الآية تعنى أنّ الله قد أمات النبىّ المذكور مده مائه سنه ثمّ أحياه بعد ذلك، و هذا ما يستفاد من كلمه «أماته». إلا أنّ صاحب تفسير المنار يحتمل أن يكون ذلك إشاره إلى نوع من النوم الطويل المعروف عند بعض الحيوانات المسمّى بالسبات. حيث يغطّ الكائن الحى فى نوم عميق و طويل دون أن تتوقف فيه الحياه، كالذى حدث مثلا عند أصحاب الكهف.

و إذا كان النوم لبضع سنوات ممكنا، فهو على رأى صاحب المنار ممكن أيضا لمائه عام و إن لم يكن اعتياديا. و يلزم فى قبول الخوارق أن تكون ممكنه لا محاله عقلا (1).

و لكن ليس فى هذه الآيه ما يدل على صحه هذا القول، بل إن ظاهر الآيه يدل على أن النبى قد فارق الحياه، و بعد مائه سنه استأنف الحياه مره أخرى. و لا شك أن موتا و حياه كهذين هما من خوارق العادات، و إن لم يكن مستحيلا. و على كل حال فإن الحوادث الخارقه للعادة فى القرآن ليست منحصره بهذه الحادثه بحيث نعلم إلى تأويلها.

نعم نستطيع فى هذا المجال ذكر مسأله النوم الطويل الطبيعى أو السبات الشتوى لبعض الحيوانات التى تنام خلال أشهر الشتاء و تستيقظ عند انخفاض حدّه البرد، أو مسأله انجماد بعض الحيوانات انجمادا طبيعيا، أو تجميد بعض الأحياء على يد البشر لمدّه طويله دون أن تموت، كل ذلك لتقريب فكره الإمامه و الإحياء مدّه عام إلى الأذهان، و يكون ذكر هذه المسائل بهدف الخروج بالنتيجه التاليه:

إن الله القادر على الإبقاء الأحياء مئات السنين فى نوم طويل أو حاله انجماد، ثم إيقاظها و إعادتها إلى حالتها الأولى لهو قادر على إحياء الموتى.

إننا بقبولنا أصل المعاد و إحياء الموتى فى البعث و كذلك بقبول خوارق العادات و المعجزات على أيدي الأنبياء ليس ثمه ما يدعونا إلى محاوله تفسير جميع آيات القرآن بسلسله من المسائل العاديه و الطبيعيه مخالفين بذلك ظاهر الآيات، فهذا ليس صحيحا و لا لزوم له.

و كما قال بعض المفسرين: كأننا نسينا أننا هنا أموات فى البدايه و قد أحيانا

ص: ٢٧٤

(١ - ١) - تفسير المنار و المراغى فى ذيل الآيه المبحوثه.

اللّٰه تعالى،فما المانع أن تتكرر ظاهره الموت و الحياه هذه.

قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ

يسأل الله نبيه في هذه الآيه عن المدّة التي قضاها في النوم،فيتردّد في الجواب بين قضائه يوما كاملا أو جزءا من اليوم.و يستفاد من هذا التردّد أنّ الساعه التي أماته الله فيها تختلف عن الساعه التي أحياه فيها من ساعات النهار، كأن تكون إماتته قد حدثت مثلا قبل الظهر،و أعيد إلى الحياه بعد الظهر.لذلك انتابه الشكّ إن كان قد نام يوما كاملا بليله و ناره،أم أنّه لم ينم سوى بضع ساعات من النهار.و لهذا بعد أن قال إنّ قضى يوما،راوده الشكّ فقال أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .

و لكنّه ما لبث أن سمع الله يقول له: بَلْ لَبِثْتَ مِائَةً عَامًا .

ثمّ أن الله تعالى أمر نبيه بأن ينظر إلى طعامه الذي كان معه من جهه،و ينظر إلى مركوبه من جهه اخرى ليطمئن إلى واقعيه الأمر فالأول بقى سالما تماما.أما الثاني فتلاشى و أصبح رميما.ليعلم قدره الله على حفظ الأشياء القابله للفساد خلال هذه الأعوام،و يدرك من جهه اخرى مرور الزمان على وفاته:

فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَ شَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ

«لم يتسنّه»من مادّه«سنه»أى لم يمض عليه مدّه سنه،لعدم تعفّنه و تفسّخه.

و على ذلك يكون معنى الآيه:لاحظ طعامك و شرابك تجده كأنّه لم تمض عليه سنه و لا مدّه زمنيّه،فلم يتغير،أى أنّ الله القادر على إبقاء ما يسرع إليه التفسّخ و الفساد كالطعام و الشراب،قادر أيضا على إحياء الموتى بيسر.فإبقاء الطعام و الشراب نوع من إدامه الحياه لهذه المواد السريعه التفسّخ،و عمليه الإبقاء هذه ليست بأيسر من إحياء الموتى (1).

ص: ٢٧٧

(١ - ١) -الضمير في«لم يتسنّه»مفرد و عائده مثنى:الطعام و الشراب،و إنّما أفرد لقصد الجنس،فكلاهما من جنس واحد.

إلا- أن الآيه لم تشر إلى ماهيته طعام النبي و شرابه. يقول بعض: إن طعامه كان فاكهه التين و كان شرابه عصير بعض الفواكه، و كلاهما يسرع إليه الفساد و التفسخ كما هو معلوم، لذلك فإن بقاءهما هذه المدّة الطويله دون تلف أمر مهم.

وَ انْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ

لم يذكر القرآن عن حماره شيئاً فى الآيات السابقه، إلا أن الآيات التاليه تشير إلى أن حماره قد تلاشى تماما بمضى الزمان، و لو لا- ذلك لما كان هناك ما يشير إلى انقضاء مائه سنه، و هذا أمر عجيب أيضاً، لأن حيوانا معروفا بطول العمر يتلاشى على هذه الصوره، بينما الذى يطرأ عليه التفسخ السريع كالفاكهه و عصيرها لم يتغير لا فى الرائحه و لا فى الطعم، و هذا منتهى تجلّى قدره الله.

وَ لِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ

أى أن حكايتك هذه ليست آيه لك وحدك، بل هى كذلك للناس جميعا.

وَ انْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِئُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا

«النشوز» هو الارتفاع و البروز، و يعنى هنا رفع العظام من مكانها و تركيبها مره اخرى. فمعنى الآيه يكون: انظر إلى هذه العظام النخره كيف نرفعها من مواضعها و نربط بعض ببعض ثم نغطيها باللحم و نحبيها. واضح أن العظام المقصوده هى عظام حماره المتلاشى، لا عظام أهل القرية لما فى ذلك من انسجام مع الآيات السابقه.

و احتمال بعض المفسرين أن المراد من العظام هى عظام نفس ذلك النبي، و هذا بعيد جداً، لأن الحديث كان بعد إحيائه، و كذلك احتمال الآخرون هى عظام الحمار أو عظام الموتى الذين تعجب من احيائهم (1)، و هذا أيضا بعيد لأن الكلام

ص: ٢٧٨

قبل هذه الجملة كان يدور حول الحمار و الراكب لا أهل القرية.

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

عند ما اتضحت كل هذه المسائل للنبي المذكور قال إنه يعلم أن الله قادر على كل شيء. لاحظ أنه لم يقل: الآن علمت كقول زليخا بشأن يوسف الآن حَصَّصَ الْحَقُّ (١) بل قال «أعلم» أي أنني أعترف و معرفتي بهذا الأمر بعلمي.

ص: ٢٧٩

---

١- (١) - يوسف: ٥١.

اشاره

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَ لَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)

التفسير

اشاره

تجلى آخر للمعاد فى هذه الدنيا:

يذكر القرآن الكريم حول مسأله المعاد بعد قصه عزير قصه اخرى عن إبراهيم عليه السلام ليكتمل البحث، و يذكر معظم المفسرين و المؤرخين فى تفسير هذه الآيه الحكايه التاليه:

مرّ إبراهيم عليه السلام يوماً على ساحل البحر فرأى جيفه مرميه على الساحل نصفها فى الماء و نصفها على الأرض تأكل منها الطيور و الحيوانات البرّ و البحر من الجانبين و تتنازع أحياناً فيما بينها على الجيفه، عند رؤيه إبراهيم عليه السلام هذا المشهد خطرت فى ذهنه مسأله يوّد الجميع لو عرفوا جوابها بالتفصيل، و هى كيفيه عوده

الأموات إلى الحياه مرّه اخرى، ففكر و تأمّل في نفسه أنّه لو حصل مثل هذا الحادث لبدن الإنسان و أصبح طعاما لحيوانات كثيره، و كان بالتالى جزء من بدن تلك الحيوانات، فكيف يحصل البعث و يعود ذلك الجسد الإنسانى نفسه إلى الحياه؟ فخاطب إبراهيم عليه السلام ربّه و قال: رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى .

فأجابه الله تعالى: أو لم تؤمن بالمعاد؟ فقال عليه السلام: بلى و لكن ليطمئن قلبي.

فأمره الله أن يأخذ أربعة طيور و يذبحها و يخلط لحمها، ثم يقسمها عدّه أقسام و يضع على كلّ جبل قسما منها، ثم يدعو الطيور إليه، و عندئذ سوف يرى مشهد يوم البعث، فامتثل إبراهيم للأمر و استولت عليه الدهشه لرؤيته أجزاء الطيور تتجمّع و تأتيه من مختلف النقاط و قد عادت إليها الحياه.

و ثمّه تفسير آخر للآيه نقله الفخر الرازى عن أحد المفسرين يدعى (أبو مسلم) يخالف آراء بقيه المفسرين و لكننا نذكره هنا لثّن مفسرا معاصرا و هو صاحب المنار قد اختار هذا الرأى.

يقول هذا المفسر: ليس فى هذه الآيه ما يدلّ على أنّ إبراهيم عليه السلام ذبح الطيور و بعد ذلك عادت إلى الحياه من جديد بأمر الله تعالى، بل أنّ الآيه فى صدد بيان مثال لتوضيح مسأله المعاد، يعنى أنّك يا إبراهيم خذ أربعة من الطير فضمّها إليك حتّى تستأنس بك بحيث تعجيب دعوتك إذا دعوتها، فإنّ الطيور من أشدّ الحيوانات استعدادا لذلك، ثم اجعل كلّ واحده منهنّ على جبل ثم ادعها، فإنّها تسرع إليك، و هذه المسأله اليسيره بالنسبه لك تماثل فى سهولتها و يسرها مسأله إحياء الأموات و جمع إجزائها المتناثره بالنسبه إلى الله تعالى.

فعلى هذا يكون أمر الله تعالى لإبراهيم عليه السلام فى الطيور الأربعة لا يعنى أن يقدم إبراهيم على هذا العمل حتما، بل أنّه مجرد بيان مثال و تشبيه كأن يقول شخص



لآخر لبيان سهوله الأمر عليه: اشرب هذا القدر من الماء حتى أنهى هذا العمل و يريد بذلك بيان سهولته، لا أن الآخر يجب عليه أن يشرب الماء.

و أستدل أنصار النظرية الثانية بكلمه فَصِرْهُنَّ إِلَيْكَ و قالوا إن هذه الجملة إذا كانت متعدية بحرف (إلى) فتكون بمعنى الأنا و الميل، فعلى هذا يكون مفهوم الجملة أنه (خذ هذه الطيور و أنسهن بك) مضافا إلى أن الضمائر فى (صرهن) و (منهن) و (ادعهن) كلها تعود إلى الطيور، و هذا لا يكون سليما إلا إذا أخذنا بالتفسير الثانى، لأنه على التفسير الأول تعود بعض هذه الضمائر على نفس الطيور و تعود البعض الآخر على أجزائها، و هذا غير مستساغ فى الاستعمال.

الجواب على هذه الاستدلالات سيأتى ضمن تفسيرنا للآية الشريفة و لكن ما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن الآية تبين بوضوح هذه الحقيقة، و هى أن إبراهيم عليه السلام طلب من الله تعالى المشاهدة الحسية للمعاد و البعث لكى يطمئن قلبه، و لا شك أن ضرب المثل و التشبيه لا- يجسد مشهدا و لا- يكون مدعا لتطمين خاطر، و فى الحقيقة أن إبراهيم كان مؤمنا عقلا و منطقا بالمعاد، و لكنّه كان يريد أن يدرك ذلك عن طريق الحس أيضا.

و الآن نبدأ بتفسير الآية ليتضح لنا أى التفسيرين أقرب و أنسب:

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى

سبق أن قلنا إن هذه الآية تكمله للآية السابقة فى موضوع البعث، يفيد تعبير أَرِنِي كَيْفَ... أنه طلب الرؤيه و الشهود عيانا لكيفيته حصول البعث لا البعث نفسه.

قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَ لَكِن لِّيطْمَئِنَّ قَلْبِي

كان من الممكن أن يتصور بعضهم أن طلب إبراهيم عليه السلام هذا إنما يدل على تزلزل إيمان إبراهيم عليه السلام، و لإزاله هذا التوهم أوحى إليه السؤال: «أو لم تؤمن؟»

لكى يأتى جوابه موضحا الأمر، و مزيلا كل التباس قد يقع فيه البعض فى تلك الحادته، لذلك أجاب إبراهيم عليه السلام بلى و لكن ليطمئن قلبى .

يفهم من هذه الآيه أيضا على أن الاستدلالات العمليه و المنطقيه قد تؤدى إلى اليقين و لكنها لا تؤدى إلى اطمئنان القلب، إنها ترضى العقل لا القلب و لا العواطف. إن ما يستطيع أن يرضى الطرفين هو الشهود العيني و المشاهد الحسيه.

هذا موضوع مهم سوف نزيده إيضاحا فى موضعه.

التعبير بالاطمئنان القلبى يدل على أن الفكر قبل وصوله إلى مرحله الشهود يكون دائما فى حاله حركه و تقلب و لكن إذا وصل مرحله الشهود يسكن و يهدأ.

قال فخذ أربعه من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً

«صرهن» من «الصور» أى التقطيع، أو الميل، أو النداء، و معنى التقطيع أنسب.

أى خذ أربعه من الطير و اذبحهن و قطعهن و اخلطنهن.

لقد كان المقصود أن يشاهد إبراهيم عليه السلام نموذجا من البعث و عوده الأموات إلى الحياه بعد أن تلاشت أجسادها. و هذا لا يأتلف مع أملهن و لا- مع صح بهن و على الأخص ما يأتى بعد ذلك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً و هذا دليل على أن الطيور قد قطعت أولا- و صارت أجزاء. و لعل الذين قالوا إن فصرهن إليك تعنى استمالتهن و ايناسهن قد غفلوا عن لفظه «جزاء» هذه، و كذلك الهدف من هذا العمل.

و بذلك قام إبراهيم بهذا العمل و عند ما دعاهن تجمعت أجزاءهن المتناثره و تركبت من جديد و عادت إلى الحياه، و هذا الأمر أوضح لإبراهيم عليه السلام أن المعاد يوم القيامه سيكون كذلك على شكل واسع و بمقياس كبير جدا.

و يرى بعضهم أن كلمه (سعيًا) تعنى أن الطيور بعد أن عادت إليهن الحياه لم يطرن، بل مشين مشيا إلى إبراهيم عليه السلام لئن السعى هو المشى السريع، و ينقل عن

الخليل ابن أحمد الأديب المعروف أنّ إبراهيم عليه السلام كان يمشى عند ما جاءت إليه الطيور، أى أنّ (سعيًا) حال من إبراهيم لا من الطيور (١)، و لكن بالرغم من كلّ ذلك فالقرائن تشير إلى أنّ (سعيًا) كناية عن الطيران السريع.

**بحوث**

**اشاره**

### ١- الحادته الخارقه للعاده

لا شكّ في أنّ هذه الحادته التي حدثت للطيور كانت أمرًا خارقًا للعاده تماما كما في وقوع البعث يوم القيامة، و نعلم أنّ الله تعالى حاكم على قوانين الطبيعه و ليس محكوما لها، فعلى هذا لا يكون من العسير حدوث مثل هذه القضايا بأمره، و كما أشرنا سابقا إلى أنّ إصرار بعض المفسّرين المثقفين على الأعراض عن التفسير المشهور. و القول بأنّ المراد هو تدجين و تأهيل هذه الطيور حتّى تستأنس به ثمّ يدعوها إليه فتستجيب، ضعيف جدّا و كلام لا يستند على أساس منطقي و لا يتناسب مع مسأله المعاد و لا مع قصّه إبراهيم عليه السلام و رؤيته للجيفه على ساحل البحر ثمّ طلبه رؤيه مشهد البعث و المعاد.

و الجدير بالذكر أنّ (الفخر الرازي) قال بأنّ جميع المفسّرين اتّفقوا على ما ذكر من التفسير المشهور إلاّ أبو مسلم حيث أنكر ذلك (٢).

### ٢- أربع طيور مختلفه

لا شكّ أنّ الطيور الأربعة كانت من أربعة أنواع مختلفه، و إلاّ فإنّ هدف

ص: ٢٨٤

١-١) - البحر المحيط: ج ٢ ص ٣٠٠ ذيل الآيه المبحوثة.

٢-٢) - تفسير الكبير: ج ٧ ص ٤١.

إبراهيم عليه السلام من عوده كلّ جزء إلى أصله لا يتحقق. و في بعض الروايات أنّ هذه الطيور كانت طاووسا و ديكاً و حمامه و غراباً، فكان الاختلاف بينها كبيراً، و يرى بعض أنّها مظهر للصفات و الخصال المختلفه في البشر. فالطاوس يمثّل العجب و الخيلاء و التكبر، و الديك يمثّل الرغبات الجنسيه الشديده، و الحمامه تمثّل اللهو و اللعب، و الغراب يمثّل الآمال و المطامح البعيده.

### ٣- عدد الجبال

لم يرد في القرآن ذكر عدد الجبال التي وضع عليها إبراهيم أجزاء الطيور، و لكن الأحاديث التي وصلتنا عن أهل البيت عليهم السلام تقول أنّها عشره. و لهذا ورد في الروايات: إنّ من يوصى بإنفاق جزء من أمواله في أمر من الأمور دون تعيين النسبه فإن صرف عشره بالمائه يكفي (١).

### ٤- متى وقعت هذه الحادثه؟

هل وقعت عند ما كان إبراهيم في بابل، أم بعد نزوله بالشام؟ يظهر أنّ ذلك قد حدث في الشام، لأنّ منطقته بابل خاليه من الجبال.

### ٥- المعاد الجسماني

معظم الآيات الوارده في القرآن المجيد بشأن البعث تشرح و توضح المعاد الجسماني. إنّ العليم بالمفاهيم القرآنيه الخاصيه بالمعاد يعلم أنّ ما يذكره القرآن هو المعاد الجسماني فقط، أي عند ما يبعث الناس يكون البعث للجسم و الروح معا.

ص: ٢٨٥

لذلك فالقرآن يعبر عن ذلك بأنه إحياء الموتى، و لو كان البعث يقتصر على الروح لما كان للإحياء أى مفهوم.

و هذه الآيه تشرح بكلّ وضوح كيفيه تجمّع أجزاء الجسد المتناثره، و هو ما رآه إبراهيم عليه السّلام بعينه.

## ٦- شبهه الأكل و المأكول

ما ذكرناه من الدافع الذى دفع بإبراهيم عليه السّلام إلى طلب مشاهدته إحياء الموتى و حكاية الجيفه التى كان يأكل منها حيوانات البرّ و البحر، نفهم أنّ اهتمام إبراهيم عليه السّلام كان منصّبًا على أن يعرف كيف يمكن إرجاع جسد ميّت إلى حالته الأولى بعد أن أكلته الحيوانات و أصبح جزءًا من أجساد تلك الحيوانات؟ و هذا ما يطلق عليه فى علم العقائد اسم «شبهه الأكل و المأكول».

لتوضيح ذلك نقول: إنّ الله سبحانه يعيد الإنسان فى يوم القيامة بهذا الجسد المادى. و بعبارة أخرى يعود جسم الإنسان و تعود روحه أيضا.

فى هذه الحاله يبرز تساؤل يقول: إذا استحال جسد الإنسان إلى تراب، و امتصّته جذور الأشجار و النباتات و أصبح ثمرا أكله إنسان آخر و غدا جزءًا من جسده. أو إذا افترضنا مثلا سنوات قحط شديده أكل فيها إنسان لحم إنسان، فإلى أىّ جسد ستعود هذه الأجزاء المأكوله؟ فإذا غدت جزء من الجسد الأوّل أصبح الجسد الثانى ناقصا، و إن بقيت جزء من الجسد الثانى نقص الأوّل أو انعدم.

الجواب:

هذا الاعتراض القديم أجاب عليه الفلاسفه و علماء العقائد إجابات مختلفه لا نرى ضروره لدرجها جميعا هنا. و هناك آخرون لم يستطيعوا أن يعثروا على جواب مقنع، فراحوا يؤوّلون الآيات المرتبطه بالمعاد الجسمانى و عمدوا إلى

ص: ٢٨٦

اعتبار شخصيه الإنسان منحصره بالروح و الخصائص الروحيه، مع أنّ شخصيه الإنسان لا تنحصر بالروح فقط، و لا الآيات الخاصه بالمعاد الجسماني غامضه بحيث يمكن تأويلها، بل هي صريحه صراحه قاطعه كما قلنا.

و هناك غيرهم قالوا بنوع من المعاد الجسماني الذي لا يختلف كثيرا عن المعاد الروحاني، إلا أننا نجد أمامنا طريقا أكثر وضوحا بالاعتماد على النصوص القرآنيه و يتفق مع ما توصل إليه العلم الحديث، و يحتاج توضيحه إلى عدّه مقدمات.

١-إننا نعلم أنّ أجزاء جسد الإنسان تتبدّل مرّات عديده من الطفوله إلى الموت، حتّى خلايا الدماغ التي لا-تتغيّر من حيث العدد، تتغيّر من حيث الأجزاء، فهي من جهه تتغذّى و من جهه اخرى تتجزّأ، و هذا نفسه يؤدّي إلى تبديلها الكامل على مدى الزمن، بحيث إنّ بعد مرور عشر سنوات لا تبقى أيّه ذرّه من ذرّات الجسم القديمه.

و لكن الذرّات السابقه عند ما تكون على أعتاب الهلاك تنقل جميع خواصّها و آثارها إلى الخلايا الجديده، لذلك فإنّ مميّزات الإنسان الجسميه كالطول و الشكل و الهيئه و غيرها من الكيفيات الجسمانيه تبقى ثابتة على مرور الزمان، و هذا لا يكون إلاّ بانتقال هذه الصفات إلى الخلايا الجديده، (لاحظ هذا بدقّه).

و عليه فإنّ الأجزاء الأخيره من كلّ إنسان، عند ما تتبدّل بعد الموت إلى تراب، تكون حاويه على مجموعه من الصفات التي اكتسبتها على امتداد العمر، فهي تاريخ ينطق بمسيره جسم الإنسان على امتداد العمر كلّه.

٢-صحيح أنّ الروح هي الأساس الذي تبنى عليه شخصيه الإنسان، و لكن ينبغي أن نعرف أنّ الروح تتكامل و تتربّى بالجسم، و هما يتبادلان التأثير. لذلك فكما أنّ جسدين لا يتشابهان من جميع الجهات، كذلك لا تتشابه روحان من

جميع الجهات أيضا.

ولهذا السبب فإنّ الروح لا تستطيع أن تتفاعل تفاعلا كاملا إلا مع الجسد الذي تربّت و تكاملت معه. لذلك ففي البعث لا بدّ من حضور الجسد السابق نفسه لكي تستطيع الروح الاندماج به و تستأنف نشاطها في عالم أسمى، و لتجني ثمار أعمالها.

٣- تتمثل في كلّ ذرّه من ذرّات الجسم جميع صفاته، أى أنّنا لو أمكننا أن نربّي كلّ خليه من خلايا جسم الإنسان لتصبح إنسانا كاملا، فإنّ ذلك الإنسان سوف يحمل جميع صفات الإنسان الذي أخذ منه هذا الجزء، (لاحظ بدقه).

هل أن الإنسان كان في اليوم الأوّل أكثر من خليه واحده؟ خليه النطفه التي كانت تحمل جميع الصفات، ثمّ راحت كلّ خليه تنشطر إلى خليتين على التوالي حتى اكتملت جميع خلايا الجسم، و عليه فإنّ كلّ خليه في جسم الإنسان هي جزء من الخليه الأولى بحيث لو أنّها تربّت لاستحالت إلى إنسان شبيه بالأوّل يحمل صفاته من جميع الجهات.

و الآن مع أخذ هذه المقدمات الثلاث بنظر الإعتبار مباشر بالإجابة على الاعتراض المذكور.

في القرآن آيات تقول بوضوح: إنّ الذرّات الموجوده في جسم الإنسان عند الموت هي التي تعود إلى ذلك الجسد يوم القيامة (١). فإذا كان شخص آخر قد طعم من لحمه فإنّ الأجزاء التي طعمها تنفصل عنه و تعود إلى الجسم الأصلي، كلّ ما في الأمر أنّ جسم الشخص الآخر يصبح ناقصا، و لكن ينبغي أن نقول إنّّه لا ينقص، بل يصغر، لأنّ أجزاء الجسم المأكول تكون قد انتشرت في كلّ أجزاء جسم الأكل،

ص: ٢٨٨

(١- ١) - انظر الآيات التي تشير إلى أنّ الله يبعث من في القبور.

و لذلك فإنّ جسم الأكل حين تسترجع منه الأجزاء ينحف و يصغر بنسبه ما يؤخذ منه. فالذى يزن ستين كيلو غراما، مثلا، حين يؤخذ منه أربعون كيلو غراما لتعطى للشخص الأول يصغر بحيث لا يزيد على وزن طفل.

و هل يسبب هذا مشكله؟ كلاً طبعاً، لأنّ هذا الجسد الصغير يكون حاوياً على جميع صفات الشخص دون زياده و لا نقصان، و عند البعث يكون كالطفل الذى يولد صغيراً ثمّ ينمو و يكبر و يحشر بهيئه إنسان كامل. و ليس فى هذا النوع من النموّ عند البعث أى إشكال عقلى أو نقلى.

هل هذا النموّ عند البعث فورى أم تدريجى؟ هذا ما لا نعلمه، و لكن الذى نعلمه هو أنّه سواء أ كان هذا أم ذاك، فلا يثير أيّه مشكله، و المسأله محلولة فى كلتا الحالتين.

و يبقى سؤال واحد، و هو: إذا كان كلّ جسد الشخص الأكل مكوّناً من أجزاء جسد الشخص المأكول، فما العمل؟ الجواب بسيط، لأنّ حاله كهذه مستحيله الوجود، ففضيه الأكل و المأكول تقتضى أن يكون هناك أولاً جسد معيّن، ثمّ يتغذى على جسد آخر و ينمو، و على هذا فلا يمكن أن تكون جميع أجزاء جسم الأكل متكونه من أجزاء جسم المأكول، إذ ينبغى أن نفترض أولاً وجود جسم سابق حتى يمكن أن يتغذى على جسم آخر، و عليه فإنّ جسم الثانى سوف يكون جزء من جسم الأوّل لا كلّ، فتأمل.

يتّضح من هذا الشرح أنّ مسأله المعاد الجسمانى لجسم الإنسان نفسه ليس فيه أى إشكال، و لا حاجه إلى تأويل الآيات الصريحه فى إثبات هذا الموضوع.



اشاره

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)

التفسير

اشاره

الإِنْفَاقُ وَتَرْشِيدُ الشَّخْصِيَّةِ:

تعتبر مسألة الإِنْفَاقِ إحدى أهمِّ المسائل التي أكَّدَ عليها الإسلام و القرآن الكريم، والآيه أعلاه هي أول آيه في مجموعه الآيات الكريمه من سوره البقره التي تتحدَّث عن الإِنْفَاقِ، ولعلَّ ذكرها بعد الآيات المتعلِّقه بالمعاد من جهه أنَّ أحد الأسباب المهمه للنجاه في الآخره هو الإِنْفَاقِ في سبيل الله. و ذهب البعض إلى أنَّ الآيات لها ارتباط بآيات الجهاد المذكوره قبل آيات المعاد و التوحيد في هذه السوره.

تقول الآيه الشريفه: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ فَيَكُونُ الْمَجْمُوعُ الْمُتَحَصِّلُ مِنْ حَبَّةٍ وَاحِدَةٍ

سبعمائه حبه، و تضيف الآيه بأن ثواب هؤلاء لا ينحصر بذلك وَ اللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ .

و ذلك باختلاف التّيات و مقدار الإخلاص في العمل و في كفيته و كميته. و لا عجب في هذا الثواب الجزيل لأنّ رحمه الله تعالى واسع و قدرته شامله و هو مطلع على كلّ شيء وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

و يرى بعض المفسّرين أنّ المراد من الإنفاق في الآيه أعلاه هو الإنفاق للجهاد في سبيل الله فقط لأنّ هذه الآيه في الواقع تأكيد لما مرّ في الآيات التي تحدّثت عن قصه عزيز و إبراهيم و طالوت، و لكنّ الإنصاف أنّ مفهوم الآيه أوسع من ذلك و مجرد ارتباطها بالآيات السابقة لا- يمكن أن يكون دليلا على تخصيص هذه الآيه و الآيات التاليه لأنّ عبارته في سبيل الله لها مدلول واسع يشمل كلّ مصارف الخير، مضافا إلى أنّ الآيات التاليه أيضا ورد فيها بحث الإنفاق بسوره مستقلّه، و قد أشير كذلك في الروايات الإسلاميه إلى عموم معنى الإنفاق في هذه الآيه (١).

و الجدير بالذكر أنّ هذه الآيه تشبه الأشخاص الذين ينفقون في سبيل الله بالبذره المباركه التي تزرع في أرض خصبه في حين أنّ التشبيه عاده يجب أن يكون بين الإنفاق نفسه و البذره أي أعمالهم لا أنفسهم، و لذلك ذهب الكثير من المفسّرين أنّ في الآيه حذف مثل كلمه (صدقات) قبل كلمه (الذين ينفقون) أو كلمه (زارع) قبل كلمه الحبه و أمثال ذلك.

و لكن ليس هناك أي دليل على وجود الحذف و التقدير في هذه الآيه، بل إنّ تشبيه المنفقين بحبات كثيره البركه تشبيه رائع و عميق و كأنّ القرآن يريد أن يقول:

ص: ٢٩١

---

١- (١) - «الطبرسي» في مجمع البيان بعد أن يذكر المفهوم الآيه معنا واسعا يقول: و هو المروى عن أبي عبد الله عليه السلام.

إنَّ عمل كلِّ إنسان انعكاس لوجوده، وكلِّما اتَّسع العمل اتَّسع في الواقع وجود ذلك الإنسان.

و بعبارة اخرى: أنَّ القرآن لا- يفصل عمل الإنسان عن وجوده، بل يرى أنَّهما مظهران مختلفان لحقيقته واحده، و وجهان لعمله واحده، لذلك فإنَّ آيه قابله للتفسير من دون أن نفترض فيها حذفاً و تقديراً، فالآيه إشاره إلى حقيقته أنَّ شخصيه الإنسان الصالح تنمو و تكبر معنوياً بأعماله الصالحه، فمثل هؤلاء المنفقين كمثل البذور الكثيره الثمر التي تمدَّ جذورها و أغصانها إلى جميع الجهات و تفيض ببركتها على كلِّ الأرجاء.

و الخلاصه أنَّه في كلِّ مورد للتشبيه مضافاً إلى وجود أداه التشبيه لا بدَّ من وجود ثلاثة امور اخرى:

المشبه، و المشبه به، و وجه التشبيه، ففي هذا المورد المشبه هو الإنسان المنفق، و المشبه به هو البذور الكثيره البركه، و وجه التشبيه هو النمو و الرشده، و نحن نعتقد أنَّ الإنسان المنفق ينمو و يرشد معنوياً و اجتماعياً من خلال عمله ذاك و لا- يحتاج إلى أى تقدير حينئذ.

و شبيه هذا المعنى ورد كذلك في الآيه ٢٦٥ من هذه السوره، و هناك بحث بين المفسرين في التعبير بقوله **أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٍ** حيث أشارت الآيه إلى أنَّ حبه واحده تصير سبعمائه حبه أو أكثر، و أنَّ هذا التشبيه لا وجود خارجي له فهو تشبيه فرضي (لأنَّ حبه الحنطه لا- تبلغ في موسم الحصاد سبعمائه حبه أبداً) و أنَّ المقصود هو نوع خاص من الحبوب (كالدخن) التي تعطى هذا القدر من الناتج، و يلفت النظر أنَّ الصحف كتبت أخيراً أنَّ بعض مزارع القمح أنتجت في السنوات الممطره سنابل طويله يحمل بعضها نحواً من اربعمائه آلاف

حبه، وهذا يدلّ على أنّ تشبيه القرآن واقعي و حقيقي.

جملة (يضاعف) من مادّه (ضعف) و يعنى مقدار المرتين أو المرّات و بالنظر إلى ما ذكرنا آنفا من وجود حبوب تعطى عدّه آلاف من المحصول نعرف بأنّ هذا التشبيه هو تشبيه واقعيّ أيضا.

**بحث**

**اشاره**

### **الإنفاق و مشكله الفوارق الطبقيه:**

من المشكلات الاجتماعيه الكبرى التى يعانى منها الإنسان دوما و لا زال يعانى رغم كلّ ما حقّقه البشر من تقدّم صناعى و مادى هى مشكله التباين الطبقي المتمثله بالفقر المدقع فى جانب، و تراكم الثروه فى جانب آخر.

إنّك لترى بعضهم يكتنز من الثروه بحيث إنّه لا يستطيع أن يحصيها، و ترى بعضهم من الفقر فى عذاب ممض بحيث لا يستطيع أن يجد حتّى الضرورىّ اللازم لحياته كالحدّ الأدنى من الغذاء و الملابس و المأوى.

لا شكّ أنّ المجتمع الذى يقوم قسم من بنيانه على الغنى الفاحش، و القسم الأعظم على الفقر المدقع و الجوع القاتل، لا دوام له، و لن يصل إلى السعاده الحقيقيه أبدا، إنّ مجتمعا كهذا يسوده حتما الهلع و الاضطراب و القلق و الخوف و سوء الظن، و من ثمّ العداة و الصراع.

هذا التباين الطبقي الذى كان موجودا فى القديم قد تفسّى فينا اليوم -مع الأسف- بأكثر و أخطر ممّا سبق، ذلك لأنك تجد أبواب التعاون الإنسانى الحقيقى قد أغلقت بوجه الناس، و فتحت بمكانها أبواب الربا الفاحش الذى هو من أهمّ أسباب اتساع الهوه الطبقيه بين الناس، و لا أدلّ على ذلك من ظهور الشيوعيه

ص: ٢٩٣

و أمثالها، وإراقه الدماء فى أنواع الحروب المروعـه التى اندلعت فى قرننا الأخير و ما زالت مندلعـه هنا و هناك فى أنحاء مختلفـه من العالم، و معظمها ذات منشأ اقتصادى و ردّ فعل لحرمان أكثرىـه شعوب العالم.

و قد سعى العلماء و المذاهب الاقتصادىـه فى العالم للبحث عن علاج، و اختار كلّ طريقا، فالشيوعىـه اختارت إلغاء الملكىـه الفردىـه، و الرأسمالىـه اختارت طريق استىفاء الضرائب الثقىـله و إنشاء المؤسّسات الخىرىـه العامّـه (و هى شكلىـه أكثر من كونها حلّا لمشكلـه الطبقيـه)، ظانّين أنّهم بذلك يكافحون هذه المشكلـه، لكن أيّا من هؤلاء لم يستطع فى الحقيـقه أن يخطو خطوه فعّالـه فى هذا السبىـل، و ذلك لأنّ حلّ هذه المشكلـه غير ممكن ضمن الروح المادىـه التى تسيطر على العالم.

بالتدقيق فى آيات القرآن الكرىـم يتّضح أنّ واحدا من الأهداف التى يسعى لها الإسلام هو إزالة هذه الفوارق غير العادلـه الناشئـه من الظلم الاجتماعى بين الطبقتىـن الغنىـه و الفقيرـه، و رفع مستوى معيشـه الـذين لا يستطيعون رفع حاجاتهم الحياتىـه و لا توفير حدّ أدنى من متطلّباتهم اليومىـه دون مساعدـه الآخرىـن.

و للوصول إلى هذا الهدف وضع الإسلام برنامجا واسعا يتمثّل بتحريم الربا مطلقا، و بوجوب دفع الضرائب الإسلامىـه كالزكاه و الخمس، و الحثّ على الإنفاق، و قرض الحسنـه، و المساعدات المالىـه المختلفـه، و أهمّ من هذا كلّـه هو إحياء روح الأخوّـه الإنسانىـه فى الناس.

اشاره

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)

التفسير

اشاره

الإِنْفَاقُ الْمَقْبُولُ:

الآيه السابقه بيّنت أهميه الإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِشَكْلِ عَامٍ، وَ لَكِنْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيَّنَّتْ بَعْضَ شَرَايِطِ هَذَا الْإِنْفَاقِ (و يَسْتَفَادُ ضَمْنًا مِنْ عِبَارَاتِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْإِنْفَاقَ هُنَا لَا يَخْتَصُّ بِالْإِنْفَاقِ فِي الْجِهَادِ).

تَقُولُ الْآيَةُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا... وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١).

ص: ٢٩٥

١ - ١) - «مَنْ» بِمَعْنَى حَجَرِ الْمِيزَانِ الْمَعْرُوفِ ثُمَّ أَطْلَقَتْ عَلَى النِّعَمِ الْمَهْمَةِ الَّتِي يَلَاحِظُ فِيهَا الْجَانِبَ الْعَمَلِيَّ «و مَنْ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ» وَ إِنْ كَانَ الْمَلْحُوظُ فِيهَا الْجَانِبَ اللَّفْظِي كَانَتْ قَبِيحَةً جَدًّا وَ فِي الْآيَةِ أَعْلَاهُ وَرَدَتْ بِهَذَا الْمَعْنَى الثَّانِي.

يستفاد بوضوح من هذه الآيه أنّ الإنفاق في سبيل الله لا يكون مقبولا عند الله تعالى إذا تبعته المنه و ما يوجب الأذى و الألم للمعوزين و المحتاجين، و عليه فإنّ من ينفق ماله في سبيل الله و لكنّه يمنّ به على من ينفق عليه، أو ينفقه بشكل يوجب الأذى للآخرين فإنّه في الحقيقه يحبط ثوابه و أجره بعمله هذا.

إنّ ما يثير الاهتمام أكثر في هذه الآيه هو أنّ القرآن لا- يعتبر رأسمال الإنسان في الحياه مقتصرًا على رأس المال المادى، بل يحسب حساب رؤوس الأموال المعنويه و الاجتماعيه أيضا.

إنّ من يعطى شيئًا لأحد و يمنّ عليه به أو يقوم بما يثير الألم في نفس المعطى له و يجرح عواطفه فإنّه لا يكون قد أعطاه شيئًا في الواقع، لأنّه إذا كان قد أعطاه رأسمال، فإنّه قد أخذ منه رأسمال أيضًا، بل لعلّ المنه التي يمنّ بها عليه و نظره التحقير التي ينظر بها إليه ذات أضرار باهضه يفوق ثمنها ما أنفقه من مال إذا لم ينل أمثال هؤلاء الأشخاص أيّ ثواب على إنفاقهم هذا فهو أمر طبيعي و عادل. و قد يصحّ القول إنّ هؤلاء في كثير من الأحوال هم المديونون لا الدائنون لأنّ كرامه الإنسان أغلى بكثير من أيّ مال و ثروه.

و لاحظ في الآيه إنّ كلمتي المنّ و الأذى مسبوقتان ب(ثمّ) التي تفيد التراخي، أي وجود فتره زمنيّه بين فعلين. فيكون معنى الآيه: إنّ الذين ينفقون، و بعد ذلك لا يمنّون على أحد و لا يؤذون أحدا يكون ثوابهم محفوظًا عند الله.

و يعنى هذا ضروره الابتعاد عن المنّ و الأذى لا- في حاله الإنفاق فحسب، بل عليه أن لا- يمنّ عليه في أوقات تاليه عن طريق تذكير المنفق عليه بالإنفاق، و هذا دليل على الدقه المتناهيه التي يتغيها الإسلام من الخدمات الإسلاميه الخالصه.

لا- بدّ من القول إنّ المنّ و الأذى اللذين يحبطان قبول الإنفاق لا يختصان بالإنفاق على الفقراء فقط، بل تجنّبهما لازم في جميع الأعمال العامه و الاجتماعيه

كالجهاد في سبيل الله و الأعمال ذات المنفعة العامه التي تتطلب بذل المال.

لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

تطمئن هذه الآيه المنفقين أن أجرهم محفوظ عند الله لكي يواصلوا هذا الطريق بثقه و يقين.فما كان عند الله باق و لا ينقص منه شيء،بل أن عبارته(ربهم) قد تشير إلى أن الله تعالى سيزيد في أجرهم و ثوابهم.

وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

سبق أن قلنا إن الخوف يكون من المستقبل،و الحزن على ما مضى.و عليه فإن المنفقين بعلمهم أن جزاءهم محفوظ عند الله لن ينتابهم الخوف من يوم البعث الآتى،و لا هم يحسّون بالحزن على ما أنفقوه في سبيل الله.

و ذهب البعض إلى أنه لا خوف من الفقر و الحقد و البخل و الغبن و أمثال ذلك و لا حزن على ما أنفقوا في سبيل الله.

و في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال: «من أسدى إلى مؤمن معروفا ثم آذاه بالكلام أو من عليه فقد أبطل صدقته»

(١)

فالشخص الذى ينفق في سبيل الله و لم يرتكب مثل هذه الأعمال بعد ذلك لا يخشى بطلان إنفاقه،و المفاهيم الإسلاميه تؤكد دقه الشريعه المقدسه في هذا المجال بحيث أن بعض العلماء الأقدمون قالوا:(إنك إذا تصدقت على شخص و تعلم أنك إذا سلمت عليه سيعصب عليه ذلك فيتذكر صدقتك عليه فلا تسلم عليه) (٢).

ص: ٢٩٧

١-١) -تفسير البرهان:ج ١ ص ٢٥٣ ح ١.

٢-٢) -تفسير أبو الفتوح الرازى:ج ٢ ص ٣٦٤.



اشاره

قَوْلُ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)

التفسير

اشاره

الكلمه الطيبه أفضل من الصدقه مع المنه:

هذه الآيه تكميل ما بحثته الآيه السابقه في مجال ترك المنه و الأذى عند الإنفاق و التصدق فتقول: إن الكلمه الطيبه للسائلين و المحتاجين و الصفح عن أذاهم أفضل من الصدقه التي يتبعها الأذى قَوْلُ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَىٰ .

و يجب أن يكون معلوما أن ما تنفقوه في سبيل الله فهو في الواقع ذخيره لكم لإنقاذكم و نجاتكم لأن الله تعالى غير محتاج إليكم و إلى أموالكم و حلیم في مقابل جهالاتكم وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ .

بحوث

١- تبين هذه الآيه منطق الإسلام في قيمه الأشخاص الاجتماعيه و كرامتهم،

و ترى أن أعمال الذين يسعون في حفظ رؤوس الأموال الإنسانيه،و يعاملون المحتاجين باللطف و يقدّمون لهم التوجيه اللازم،و لا يفشون أسرارهم،أفضل و أرفع من إنفاق أولئك الأنايين ذوى النظرة الضيقه الذين إذا قدّموا عونا صغيرا يتبعونه تجريح الناس المحترمين و تحطيم شخصياتهم.في الحقيقه إنّ أمثال هؤلاء الأشخاص ضررهم أكثر من نفعهم،فهم إذا أعطوا ثروه عرضوا ثروات للإباده و الضياع.

يتّضح ممّا قلناه إنّ لتعبير قَوْلٍ مَعْرُوفٍ مفهوما واسعا يشمل كلّ أنواع القول الطيّب و التسليه و التعزیه و الإرشاد.

و ذهب بعضهم إلى أن المراد هو الأمر بالمعروف (1) و لكن هذا المعنى لا يتناسب مع الآيه ظاهرا.

«المغفره»بمعنى العفو بإزاء خشونه المحتاجين،أولئك الذين طفح كيل صبرهم بسبب تراكم الابتلاءات عليهم،فتزلّ ألسنتهم أحيانا بالخشن من القول ممّا لا- يودونه قلبيا.هؤلاء بعنفهم هذا إنّما يريدون أن ينتقموا من المجتمع الذى ظلمهم و غمط حقوقهم،فأقلّ ما يمكن للأشخاص الأثرياء فى مقابل حرمان هؤلاء المحرومين هو أن يتحمّلوا منهم اندفاعاتهم اللفظيه التى هى شرر النار التى تستعر فى قلوبهم فتنتطق على ألسنتهم.

لا- شكّ أنّ تحمّل عنفهم و خشونتهم و العفو عنها يخفّف عنهم ضغط عقدهم النفسيه،و بهذا تتّضح أكثر أهميه هذه الأوامر الإلهيه.

يرى بعض أنّ «المغفره»يقصد بها هنا المعنى الأصلى،و هو الستر و الإخفاء.

أى ستر أسرار المحتاجين الذين لهم كرامتهم مثل غيرهم.غير أنّ هذا التفسير لا- يتعارض مع ما قلناه،لأننا إذا فسّرنا المغفره بمعناها الأوسع فهى تشمل العفو كما تشمل الستر و الإخفاء أيضا.

جاء فى تفسير «مجمع البيان»عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: «إذا سأل السائل

ص: ٢٩٩

(١- ١) - ذكره فى تفسير «البحر المحيط»:ج ٢ ص ٣٠٧ بعنوان: قيل.

فلا- تقطعوا عليه مسألته حتى يفرغ منها، ثم ردّوا عليه بوقار ولين إمّا ببذل يسير أو ردّ جميل، فإنّه قد يأتيكم من ليس بإنس ولا جان ينظرونكم كيف صنيعكم فيما حوّلكم الله تعالى»

(١)

فى هذا الحديث يبيّن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جانباً من آداب الإنفاق.

٢- إن العبارات القصيره التى تأتى فى ختام الآيات عاده و تورّد بعض صفات الله تعالى ترتبط حتماً بمضمون الآيه نفسها. و على هذا فمن الممكن أن يكون المقصود من وَ اللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ هو: أنّ الإنسان ظالم بالطبع، و لذلك فإنّه إذا نال منصباً و حصل ثروه حسب نفسه غنياً و لم يعد بحاجة إلى الآخرين، و قد تحدو به هذه الحاله إلى استعمال الخشونه و التهجم ضدّ المحرومين و المحتاجين. لذلك يقول القرآن إنّ الغنى بذاته هو الله، فالله هو وحده الغنى الذى لا- يحتاج شيئاً، أمّا إحساس البشر بأنّه غنى فسراب خادع لا ينبغي أن يؤدى إلى الطغيان و التعالى على الفقراء. ثمّ إنّ الله حلیم بالنسبه للذين لا يشكرون، فعلى المؤمنين أن يكونوا كذلك أيضاً.

و قد تكون الآيه إشاره إلى أنّ الله غنى عن إنفاقكم. و أنّ ما تنفقونه إنّما هو لخيركم أنفسكم، فلا تمنّوا على أحد. ثمّ إنّ الله حلیم باتجاه خشونتك و لا يتعجل معاقبتكم لعلكم تستيقظون و تصلحون أنفسكم.

ص: ٣٠٠

(١-١) - مجمع البيان: ج ١ ص ٣٧٥، نور الثقلين: ج ١ ص ٢٨٣.

اشاره

ا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَمَادِ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ نُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صِدًّا لَا يَفْقِدُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَ تَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُفًا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)

التفسير

اشاره

دوافع الإنفاق و نتائجه:

في هاتين الآيتين نهى للمؤمنين عن المنّ و الأذى عند إنفاقهم في سبيل الله، لأنّ ذلك يحبط أعمالهم. ثمّ يضرب القرآن مثلا للإنفاق المقترن بالمنّ و الأذى، و مثلا آخر للإنفاق المنطلق من الإخلاص و العواطف الإنسانية.

يقول تعالى فى المثال الأول: فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ... .

تصوّر قطعه حجر صلد تغطيه طبقه خفيفه من التراب، و قد وضعت فى هذا التراب بذور سليمه، ثم عرّض الجميع للهواء الطلق و أشعه الشمس، فإذا سقط المطر المبارك على هذا التراب لا يفعل شيئاً سوى اكتساح التراب و البذور و بعثرتها، ليظهر سطح الحجر بخشونته و صلابته التى لا تنفذ فيها الجذور، و هذا ليس لأن أشعه الشمس و الهواء الطلق و المطر كان لها تأثير سىء، بل لأن البذر لم يزرع فى المكان المناسب، ظاهر حسن و باطن خشن لا يسمح بالنفوذ إليه. قشره خارجيه من التربه لا تعين على نموّ النبات الذى يتطلّب الوصول إلى الأعماق لتتغذى الجذور.

و يشبه القرآن الإنفاق الذى يصاحبه الرياء و المنّه و الأذى بتلك الطبقة الخفيفه من التربه التى تغطى الصخره الصلده و التى لا نفع فيها، بل أنها بمظهرها تخدع الزارع و تذهب بأعباءه أدرج الرياح. هذا هو المثل الذى ضربه القرآن فى الآيه الاولى للإنفاق المرائى الذى يتبعه المنّ و الأذى (١).

و فى نهايه الآيه يقول تعالى: وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ و هو إشاره إلى أنّ الله تعالى سوف يسلبهم التوفيق و الهدايه، لأنهم أقدموا على الرياء و المنّه و الأذى باقدامهم، و اختاروا طريق الكفر باختيارهم، و مثل هذا الشخص لا يليق بالهدايه، و بذلك وضع القرآن الكريم الإنفاق مع الرياء و المنّه و الأذى فى عرض واحد.

ص: ٣٠٢

١ - ١) - صفوان: جمع مفرده صفوانه، و تعنى الصخره الصافيه. و الوبل: هو المطر الشديد الكبير و الصلد: بمعنى الحجر الأملس. و ضعفين: تشبيه الضعف و لكنه لا يعنى أربع مرّات بل مرّتين مثل زوجين التى تعنى طرفين، تأمل بدقه.

فى الآيه التالىة نقرأ مثالا- جميلا- آخر يقع فى النقطه المقابله لهذه الطائفه من المنفقين، وهؤلاء هم الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله بدافع من الإيمان و الإخلاص فتقول الآيه: **وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ .**

تصوّر هذه الآيه مزرعه خضراء يانعه تقع على أرض مرتفعه خصبه تستقبل لنسيم الطلق و أشعه الشمس الوافره و المطر الكثير النافع، و إذا لم يهطل المطر ينزل الطلّ و هو المطر الخفيف و ذرات الهباب ليحافظ على طراوه المزرعه و لطافتها، فتكون النتيجة أنّ مزرعه كهذه تعطى ضعف ما تعطى المزارع الاخرى، فهذه الأرض فضلا عن كونها خصبه بحيث يكفيها الطلّ و المطر الخفيف ناهيك عن المطر الغزير لأيناع حاصلها، و فضلا عن كونها تستفيد كثيرا من الهواء الطلق و أشعه الشمس و تلفت الأنظار لجمالها، فإنّها لوقوعها على مرتفع تكون فى مأمن من السيول.

فالآيه الشريفه تريد أن تقول: إنّ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله لتمكّن الإيمان و اليقين فى قلوبهم و أرواحهم هم أشبه بتلك المزرعه ذات الحاصل الوافر المفيد و الثمين.

و فى ختام الآيه تقول: **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** فهو سبحانه يعلم ما إذا كان الدافع على هذا الإنفاق إلهيا مقترنا بالمحبّه و الاحترام، أو للرياء المشفوع بالمنّه و الأذى.

## بحوث

١- إنّ عبارته **لَا تُبْطَلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى** تفيد بأنّ بعض الأعمال

يمكن أن تبدد نتائج بعض الأعمال الحسنه، وهذا هو الإحباط الذى مرّ شرحه فى ذيل الآيه ٢١٧ من هذه السوره.

٢- إن تشبيه العمل مع الرياء بالصخره التى خطتها قشره ناعمه من التراب تشبيه دقيق جدّا لأنّ المرأى له باطن خشن و مجذب فيحاول تغطيته بمظهر حسن و جميل، و هو حبّ الخير و الإحسان للنّاس، فأعماله غير متجدّره فى وجوده و روحه و ليس لها أساس عاطفىّ ثابت فما أسرع ما ينقشع هذا الحجاب بسبب الأحداث و الوقائع فى الحياه فيظهر باطنهم بذلك.

٣- جملة **إِنِّيغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَ تَثْبِيْتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ تَبَيَّنَ دَوَافِعَ الْإِنْفَاقِ الْإِلَهَى السَّلِيمِ، وَ هُمَا دَافِعَانِ: ابْتِغَاءَ مَرْضَاهُ اللَّهِ، وَ تَقْوِيَةَ رُوحِ الْإِيمَانِ وَ الْاطْمِئْنَانِ فِي الْقَلْبِ.**

هذه الآيه تقول إنّ المنفقين الحقيقيين هم الذين يكون دافعهم رضا الله و تربيته الفضائل الإنسانيه و تثبيتها فى قلوبهم، و إزاله الاضطراب و القلق اللذين يحصلان فى نفس المرء بإزاء مسئوليته نحو المحرومين. و عليه فإنّ «من» فى الآيه تعنى «فى» أى فى نفوسهم.

٤- و جملة **وَ اللَّهِ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** المذكوره فى آخر الآيه الثانيه تحذير إلى جميع الذين يريدون القيام بعمل صالح كى يأخذوا حذرهم لئلا يخالط عملهم و تبتهم و أسلوب عملهم أى تلوث، لأنّ الله يراقب أعمالهم.

اشاره

أَيُّودُ أَحِدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصْحَابُ الْكِبَرِ لَهُ ذُرِّيَّهُ  
ضُعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)

التفسير

اشاره

مثال آخر للإفناق الملوث بالرياء والمنه:

هنا يضرب القرآن مثلا- آخر يبين حاجه الإنسان الشديده إلى الأعمال الصالحات يوم القيامة،و كيف أنّ الرياء والمن والأذى  
تؤثر على الأعمال الصالحات فتزيل بركتها.

يتجسد هذا التمثيل في صاحب مزرعه مخضره ذات أشجار متنوعه كالنخيل و الأعناب،و تجرى فيها المياه بحيث لا تتطلب  
السقى،لكن السنون نالت من صاحبها و تحلّق حوله أبناؤه الضعفاء،و ليس ثمّه ما يقيم أودهم سوى هذه المزرعه،فإذا جفت فلن  
يقدر هو و لا أبناؤه على إحيائها،و فجأه تهبّ عاصفه



محرقة فتحرقها وتبيدها. في هذه الحالة ترى كيف يكون حال هذا العجوز الهرم الذي لا يقوى على الارتزاق و تأمين معيشته و معيشه أبنائه الضعفاء؟ و ما أعظم أحزانه و حسراته!.

أَيُّوْدُ أَحَادِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ...).

إنَّ حال أولئك الذين يعملون عملا صالحا ثم يحبطونه بالرياء و المنِّ و الأذى أشبه بحال من تعب و عانى كثيرا حتّى إذا حان وقت اقتطاف النتيجة ذهب كلُّ شيء و لم يبق سوى الحسرات و الآهات. و تضيف الآية:

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ

لَمَّا كان منشأ كلِّ تعاسه و شقاء-و على الأخصَّ كلَّ عملٍ أحقَّ كالمَنِّ على الناسي-هو عدم أعمال العقل و التفكير في الأمور، فإنَّ الله في ختام الآية يحثُّ الناس على التعمق في التفكير في آياته كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ .

## بحوث

١-هذه الأمثلة بالتوالي كلِّ واحده منها تدلُّ على الأمور الزراعيه اللطيفه، لأن هذه الآيات لم تنزل على أهل المدينه الذين كانوا زراعا فحسب، بل أنها نزلت على جميع الناس، على أيه حال كانت الزراعه تشكل جانبا من حياتهم.

٢-يستفاد من وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعْفَاءُ إِنَّ الْإِنْفَاقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

و مد يد العون للمحتاجين أشبه بالستان اليناع اللى ينفع بثمره صاحبه و أبناؤه أيضا. و لكن الرياء و المن و الأذى لا تحرم صاحبه وحده من ثمرات عمله، بل أن ذلك يحرم حتى أبناءه و الأجيال التالیه من بركات تلك الأعمال الصالحات. و هذا دليل على أن الأجيال القادمه تشارك الأجيال السابقه فى الانتفاع بثمرات العلم الطيب.

و هو كذلك أيضا على الصعيد الاجتماعى، إذ أن المحبوبيه و الثقه التى ينالها الآباء نتيجه لأعمالهم الصالحه بين الناس، و تكون خير رأسمال لأبنائهم من بعدهم.

٣- عبارته إغصاؤ فيه نأز قد تكون إشاره إلى رياح السموم التى تحرق الزرع و تجفف المياه، أو الرياح التى تكتسب الحراه من المرور على الحرائق فتكتسح معها النيران المحرقه و تحملها إلى مناطق اخرى، أو قد تكون إشاره إلى العواصف التى تصاحبها الصواعق فتصيب الأرض و تحيلها إلى رماد، إنها على كل حال إشاره إلى إباده سريعه (١).

ص: ٣٠٧

---

١- ١) - «الإعصار» ریح تثير الغبار، و هى تهب من اتجاهين مختلفين، بحيث إنها تتجه من الأرض عموديا إلى السماء.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)

سبب النزول

عن الصادق عليه السلام أنها نزلت في أقوام لهم ربا في الجاهليه، وكانوا يتصدقون منه، فنهاهم الله عن ذلك و أمر بالصدقه من الطيب الحلال.

عن علي عليه السلام أنها نزلت في قوم كانوا يأتون بالحشف (و هو أردأ التمر) فيدخلونه في الصدقه (١).

و ليس بين الروايتين أى تعارض، و لعل الآيه نزلت في كلتا الفتنتين، فالشأن الأول يخص الطهاره المعنويه، و يخص الثانى طيب الظاهر المادى.

و لكن ينبغى الإشاره إلى أنّ المرابين فى الجاهليه امتنعوا عن تعاطى الربا بعد

ص: ٣٠٨

نزول الآية ٢٧٥ من سورة البقره و لم تحرم عليهم أموالهم السابقه،أى أنّ الآية لم يكن لها أثر رجعى،و لكن من الواضح أنّ هذا المال و إن يكن حلالا،فهو يختلف عن الأموال الأخرى،فكان فى الحقيقه أشبه بتحصيل أموال عن طرق مكروهه.

## التفسير

## إشاره

## الأموال التى يمكن إنفاقها:

شرحت الآيات السابقه ثمار الإنفاق و صفات المنفقين و الأعمال التى قد تبطل أعمال الإنفاق الإنسانيه فى سبيل الله.و هذه الآية تبين نوعيه الأموال التى يمكن أن تنفق فى سبيل الله.

فى بدايه الآية يأمر الله المؤمنين أن ينفقوا من (طيبات)أموالهم.و«الطيب» فى اللغه هو الطاهر النقى من الناحيه المعنويه و الماديه،أى الأموال الجيده النافعه و التى لا- شبهه فيها من حيث حليتها.و يؤيد عموميه الآية الروايتان المذكورتان فى سبب النزول.

كما أنّ جملة لَسِيْتُمْ بِأَخْذِيهِ إِلَّا- أَنْ تُعْمِضُوا فِيهِ أى أنكم أنفسكم لا- تأخذون غير الطيب من المال إلا- إذا أغمضتم أعينكم كارهين،دليل على أنّ المقصود ليس الطهاره الظاهريه فقط،لأنّ المؤمنين لا يقبلون مالا تافها ملوثا فى ظاهره،كما لا يقبلون مالا مشبوها مكروها إلا بالإكراه و التغاضى.

وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ

كانت عبارته مَا كَسَبْتُمْ إِشَارَه إِلَى الدخلى التجارى،و هذه العبارة إشاره إلى الدخلى الزراعى و عائدات المناجم،فهو يشمل كلّ أنواع الدخلى،لأنّ أصل دخل الإنسان ينبع من الأرض و مصادرها المتنوعه،بما فيها الصناعه و التجاره و تربيه المواشى و غير ذلك.

تقول هذه الآية:إننا وضعنا مصادر الثروه هذه تحت تصرفكم، لذلك ينبغى

أن لا تمتنعوا عن إنفاق خير ما عندكم في سبيل الله.

وَلَا تَيْمَمُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ

(١)

اعتاد معظم الناس أن ينفقوا من فضول أموالهم التي لا قيمة لها أو الساقطة التي لم تعد تنفعهم في شيء. إن هذا النوع من الإنفاق لا- هو يربى روح المنفق، ولا- هو يرتق فتقا لمحتاج، بل لعله إهانته له و تحقير. فجاءت هذه الآية تنهى بصراحة عن هذا و تقول للناس: كيف تنفقون مثل هذا المال الذى لا- تقبلونه أنتم إذا عرض عليكم إلا- إذا اضطررتم إلى قبوله؟ أ ترون إخوانكم المسلمين، بل أ ترون الله الذى فى سبيله تنفقون أقل شأنا منكم؟ الآية تشير فى الواقع إلى فكره عميقه و هى أن للإنفاق فى سبيل الله طرفين، فالمحتاجون فى طرف، و الله فى طرف آخر. فإذا اختير المال المنفق من زهيد الأشياء ففى ذلك إهانته لمقام الله العزيز الذى لم يجده المنفق جديرا بطيبات ما عنده كما هو إهانته للذين يحتاجونه، و هم ربما يكونون من ذوى الدرجات الإيمانيه الساميه، و عندئذ يسبب لهم هذا المال الرديء الألم و العذاب النفسى.

التعبير بكلمه (الطيبات) يشمل الطيب الظاهرى الذى يستحق الإنفاق و المصروف، و كذلك الطيب المعنوى، أى الظاهر من الأموال المشته و الحرام لأن المؤمنين لا يرغبون فى تناول مثل هذه الأموال.

و جمله إلا أن تُغْمِضُوا فِيهِ تشمل الجميع، فما ذهب إليه بعض المفسرين من حصرها بأحد هذين المعنيين بعيد عن الصواب، و نظير هذه الآية ما جاء فى سورة آل عمران الآية ٩٢ حيث يقول: لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ و طبعا هذه الآية ناظره أكثر إلى الآثار المعنويّه للإنفاق.

ص: ٣١٠

١- ١) - «يتمم» فى الأصل بمعنى القصد أى شيء و جاءت هنا بهذا المعنى و أطلقت هذه الكلمه على التيمم لأن الإنسان يقصد الاستفادة من التراب الظاهر كما يقول القرآن: فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا (النساء: ٤٣).

و فى ختام الآ-يه يقول: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ أى لا تنسوا أَنَّ اللَّهَ لا حاجه به لإنفاقكم فهو غنى من كلّ جهه، بل أنّ جميع المواهب و النعم تحت أمره و فى دائره قدرته، و لذلك فهو حميد و مستحق للثناء و الحمد، لأنّه وضع كلّ هذه النعم بين أيديكم. و احتمال البعض أنّ كلمه (حميد) تأتي هنا بمعنى اسم الفاعل (حامد) لا بمعنى محمود، أى أنّه على الرغم من غناه عن إنفاقكم فإنّه يحمدكم على ما تنفقون.

### ملاحظه

لا- شكّ أنّ الإنفاق فى سبيل الله هو من أجل نيل القرب من ساحته المقدّسه، و عند ما يريد الناس التقرب إلى السلاطين و أصحاب النفوذ فإنّهم يقدمون إليهم هدايا من أفضل أموالهم و أحسن ثرواتهم، فى حين أنّ هؤلاء السلاطين أناس مثلهم فكيف يتقرب الإنسان إلى ربّه و خالقه و ربّ السموات و الأرض لتقديم بعض أمواله الدنيئه كهديّه؟! فما نرى فى الأحكام الشرعيه من وجوب كون الزكاه و حتّى الهدى فى الحجّ من المرغوب و الجيّد يدخل فى دائره هذا الإعتبار. و على كلّ حال يجب الالتزام و نشر هذه الثقافه القرآنيه بين صفوف المسلمين فى إنفاقهم الجيّد من الأموال.

اشاره

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨)

التفسير

اشاره

مكافحه موانع الإنفاق:

تشير الآيه هنا و تعقبا على آيات الإنفاق إلى أحد الموانع المهمه للإنفاق، و هو الوسواس الشيطانيه التي تخوف الإنسان من الفقر و العوز و خاصه إذا أراد التصدق بالأموال الطيبه و المرغوبه، و ما أكثر ما منعت الوسواس الشيطانيه من الإنفاق المستحب في سبيل الله و حتى من الإنفاق الواجب كالزكاه و الخمس أيضا.

فتقول الآيه في هذا الصدد الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ و يقول لكم: لا- تنسوا مستقبل أطفالكم و تدبروا في غدكم، و أمثال هذه الوسواس المظله، و مضافا إلى ذلك يدعوكم إلى الإثم و ارتكاب المعصيه و يَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ .

(الفحشاء) تعنى كل عمل قبيح و شنيع، و يكون المراد به في سياق معنى الآيه البخل و ترك الإنفاق في كثير من الموارد حيث يكون نوع من المعصيه و الإثم

(رغم أنّ مفرده الفحشاء تعنى عادة الأعمال المنافية للعفة و لكننا نعلم أنّ هذا المعنى لا يناسب السياق).

حتّى أنّ بعض المفسّرين صرّح بأنّ العرب يسمّون الشخص البخيل (فاحش) (١).

و يحتمل أيضا أنّ الفحشاء هنا بمعنى إختيار الأموال الرديئه و غير القابله للمصرف و التصدّق بها، و قيل أيضا: أنّ المراد بها كلّ معصيه، لأنّ الشيطان يحمل الإنسان من خلال تخويفه من الفقر على اكتساب الأموال من الطرق غير المشروعه.

و التعبير عن وسوسه الشيطان بالأمر و يَأْمُرُكُمْ إشاره لنفس الوسوسه أيضا، و أساسا فكلّ فكره سلبيه و ضيقه و مانعه للخير فإنّ مصدرها هو التسليم مقابل وساوس الشيطان، و فى المقابل فإنّ كلّ فكره إيجابيه و بناءه و ذات بعد عقلى فإنّ مصدرها هو الإلهامات الإلهيه و الفطره السليمه.

و لتوضيح هذا المعنى ينبغى أن نقول: إنّ النظره الاولى إلى الإنفاق و بذل المال توحى أنّه يؤدى إلى نقص المال، و هذه هى النظره الشيطانيه الضيقه، و لكننا بتدقيق النظر ندرّك أن الإنفاق هو ضمان بقاء المجتمع، و تحكيم العدل الاجتماعى، و تقليل الفواصل الطبقيه، و التقدّم العام.

و بديهى أنّ تقدّم المجتمع يعنى أنّ الأفراد الذين يعيشون فيه يكونون فى رخاء و رفاه، و هذه هى النظره الواقعيه الإلهيه.

يريد القرآن بهذا أن يعلم الناس أنّ الإنفاق و إن بدأ فى الظاهر أنّه أخذ، و لكنّه فى الواقع عطاء لرؤوس أموالهم ماديا و معنويا.

فى عالمنا اليوم حيث نشاهد نتائج الاختلافات الطبقيه و المآسى الناتجه عن

ص: ٣١٣

(١-١) - تفسير روح البيان: ج ١ ص ٤٣١ ذيل الآيه المبحوثة.



الظلم و احتكار الثروه، نستطيع أن نفهم معنى هذه الآيه بوضوح.

كما أنّ الآيه تفيد أيضا أنّ هناك نوعا من الارتباط بين ترك الإنفاق و الفحشاء. فإذا كانت الفحشاء تعنى البخل، فتكون علاقتها بترك الإنفاق هو أنّ هذا الترك يكرّس صفه البخل الذميمة فى الإنسان شيئا فشيئا. و إذا كانت تعنى الإثم مطلقا أو الفحشاء فى الأمور الجنسية فإن علامه ذلك بترك الإنفاق لا- تخفى، إذ أنّ منشأ كثير من المعاصى و الانحرافات الجنسية هو الفقر و الحاحه. يضاف إلى ذلك أن للإنفاق آثارا و نتائج معنويه مباركه لا يمكن إنكارها.

□  
وَ اللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَ فَضْلًا

جاء فى تفسير «مجمع البيان» عن الإمام الصادق عليه السلام: أنّ فى الإنفاق شيئين من الله و شيئين من الشيطان، فاللذان من الله هما غفران الذنوب و السعه فى المال، و اللذان من الشيطان هما الفقر و الأمر بالفحشاء.

و عليه فإنّ المقصود بالمغفره هو غفران الذنوب، و المقصود بالفضل هو ازدياد رؤوس الأموال بالإنفاق، كما رواه ابن عباس.

و

قد جاء عن الإمام على أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «إذا أملتكم فتاجروا الله بالصدقه» (١).

□  
وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ

فى هذا إشاره إلى أنّ لله قدره واسع و علما غير محدود، فهو قادر على أن يفى بما يعد، و لا شك أنّ المرء يطمئن إلى هذا الوعد، لا كالوعد الذى يعده الشيطان المخادع الضعيف الذى يجزّ المرء إلى العصيان، فالشيطان ضعيف و جاهل بالمستقبل، و لذلك ليس وعده سوى الضلال و التحريض على الإثم.

ص: ٣١٤

اشاره

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩)

التفسير

اشاره

أفضل النعم الإلهيه:

مع الالتفات إلى ما تقدم في الآيه السابقه التي تحدثت عن تخويف الشيطان من الفقر و وعد الرحمن بالمغفره و الفضل الإلهي، ففي هذه الآيه مورد البحث دار الحديث عن الحكمه و المعرفه و العلم لأنّ الحكمه فقط هي التي يمكنها التفريق و التمييز بين هذين الدافعين الرحمانى و الشيطانى و تدعوا الإنسان إلى ساحل المغفره و الرحمه الإلهيه و ترك الوسوس الشيطانيه و عدم الاعتناء بالتخويف من الفقر.

و بعبارة اخرى، أننا نلاحظ في بعض الأشخاص نوع من العلم و المعرفه بسبب الطهاره القلبيه و رياضه النفس حيث تترتب عليها آثار و فوائد جمّه، منها أن يدرك الشخص فوائد الإنفاق و دوره المهم و الحيوى فى المجتمع و يميز بينه و بين ما تدعوه إليه وسوس الشيطان فتقول الآيه:

و قد ذكر لكلمه (الحكمه) معان كثيره منها (المعرفه و العلم بأسرار العالم) و منها (العلم بحقائق القرآن) و (الوصول إلى الحق بالقول و العمل) و (معرفة الله تعالى) و (أنها النور الإلهي الذي يميز بين وساوس الشيطان و إلهامات الرحمان).

و الظاهر هو أنّ الحكمه تأتي بالمعنى الواسع حيث تشمل جميع هذه الأمور بما فيها النبوه التي هي نوع من العلم و الاطلاع و الإدراك، فهي في الأصل أخذت من ماده (حكم) -على وزن حرف- بمعنى المنع، و بما أنّ العلم و المعرفه و التدبير تمنع الإنسان من ارتباك الأعمال الممنوعه و المحرّمه، فلذا يقال عنها أنّها حكمه.

بديهي أنّ القصد من مَنْ يَشَاءُ ليس إسباغ الحكمه على كلّ من هبّ و دبّ بغير حساب، بل أنّ مشيئه الله هي دائما منبعثه عن حكمه، أي أنّه يمنحها لمن يستحقّها، و يرويه من سلسيل هذه العين الزلال.

وَمَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا

رغم أنّ واهب الحكمه هو الله فإنّ اسمه لم يرد في هذه الآيه و إنما بنى الفعل للمجهول و مَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ .

و لعلّ المقصود هو أنّ الحكمه أمر حسن بذاته بصرف النظر عن مصدرها و منشئها.

من الملاحظه أنّ الآيه تقول: إذا نزلت الحكمه بساحه أحد فقد نزلت بساحته البركه و الخير الكثير لا الخير المطلق، لأنّ السعاده و الخير المطلق ليسا في العلم وحده، بل العلم أهمّ عامل لهما.

وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ

«التذكّر» هو حفظ العلوم و العارف في داخل الروح. و الألباب جمع لب و هو قلب كلّ شيء و مركزه، و لهذا قيل العقل اللب.

تقول هذه الفقرة من الآيه إنّ أصحاب العقول هم الذين يحفظون هذه الحقائق و يتذكّرونها. رغم أنّ جميع الناس ذو عقل-عدا المجانين-فلا يوصفون جميعا بأولى الألباب، بل هؤلاء هم الذين يستخدمون عقولهم فيشقّون طريقهم على ضوء نورها الساطع.

و نختم هذا البحث بكلام لأحد علماء الإسلام (و يحتمل أنّه مقتبس من كلام الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلّم) حيث يقول: قد يريد الله تعالى أحيانا تعذيب أمته على الأرض و لكنّه يرى معلّما يعلم الأولاد الحكمة فيرفع عن تلك الأمّة العذاب بسبب ذلك (1).

ص: ٣١٧

---

(١-١) - تفسير القرطبي: ج ٢ ص ١١٣٨.

اشاره

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧٠) إِنَّ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)

التفسير

اشاره

كيفية الإنفاق:

تحدثت الآيات السابقة عن الإنفاق و بذل المال في سبيل الله، و أن ينفق الشخص ذلك المال من الطيب دون الخبيث، و أن يكون مشفوعا بالمحبه و الإخلاص و حسن الخلق، أما في هاتين الآيتين أعلاه فيدور الحديث عن كيفية الإنفاق و علم الله تعالى بذلك.

فيقول الله تعالى في الآية الاولى: وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ .

تقول الآية: إِنَّ كُلَّ مَا تَنْفِقُونَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سَوَاءٌ كَانَ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا، جِيءَ بِأَمْرٍ رَدِيئًا، مِنْ حَلَالٍ اِكْتَسَبَ أَمْرًا مِنْ حَرَامٍ، مَخْلُصًا كَانَ فِي نِيَّتِهِ أَمْ مَرَانِيًا، اتَّبَعَهُ الْمَنْ

و الأذى أم لم يتبعه، أ كان الإنفاق ممّا أوجب الله تعالى عليه أم ممّا أوجب الإنسان على نفسه بنذر و شبهه، فإنّ الله تعالى يعلم تفاصيله و يثيب عليه أو يعاقب.

و فى ختام الآيه تقول: **وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ** (الظالمين) هنا إشاره إلى المحتكرين و البخلاء و المرائين و الذين ينفقون بالمنّ و الأذى، فإنّ الله تعالى لا ينصرهم، و سوف لا ينفعهم ما أنفقوا لا فى الدنيا و لا فى الآخرة.

أو أنّ المراد هم الأشخاص الذين امتنعوا من الإنفاق إلى المحرومين و المعوزين، فإنّهم بذلك قد ظلموهم و ظلموا كذلك أنفسهم و مجتمعهم.

أو أنّهم الأشخاص الذين لا ينفقون فى موارد الإنفاق، لأنّ مفهوم الظلم واسع يشمل كلّ عمل يأتى به الإنسان فى غير مورده، و بما أنّه لا منافاه بين هذه المعانى الثلاثة لذلك يمكن أن تدخل هذه المعانى فى مفهوم الآيه بأجمعها.

أجل فهؤلاء ليس لهم ناصر فى الدنيا و لا شفيع فى الآخرة، و هذه النتيجة من الخصائص المترتبه على الظلم و الجور بأى صورته كان.

و يستفاد من هذه الآيه ضمنا مشروعيتها النذر و وجوب العمل بمؤداه، و هو من الأمور التى كانت موجوده قبل الإسلام و قد أمضاها الإسلام و أيدها.

فى الآيه الثانيه إشاره إلى كيفيه الإنفاق من حيث السرّ و العلن فتقول: **إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ** **وَ إِنْ تَخْفُواهَا وَ تُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ** **فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**.

و سوف يعفو الله عنكم بذلك **وَ يُكْفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ** **وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**.

## بحوث

١- لا شك أنّ لكلّ من الإنفاق العلنى و الإنفاق الخفى فى سبيل الله آثارا نافعته، فإذا كان الإنفاق واجبا فالإعلان عنه يشجع الآخرين على القيام بمثله، كما

يرفع عن المنفق تهمة إهماله لواجبه.

أمّا إذا كان الإنفاق مستحباً، فإنّه يكون فى الواقع أشبه بالدعايه والإعلان العملى لحثّ الناس على فعل الخير، ومساعدته المحتاجين، والقيام بالأعمال الخيرية الاجتماعيه العامه.

أمّا الإنفاق الخفى البعيد عن الأنظار فلا شكّ أنّه أبعد عن الرياء وحبّ الظهور و خلوص النيه فيه أكثر، خاصه وأن مدّ يد العون إلى المحتاجين فى الخفاء يحفظ لهم ماء وجههم وكرامتهم، ولذلك تثنى الآيه على كلا الأسلوبين.

و ذهب بعض المفسرين إلى أنّ الإخفاء يقتصر على الإنفاق المستحب، وأمّا الإنفاق الواجب كالزكاه وغيره فيفضّل فى حاله الجهر، وليست هذه بقاعده عامه، بل تختلف باختلاف حالات الإنفاق.

ففى الحالات التى يكون فيها الجانب التشجيعى أكثر و لا- يصادر فيها الإخلاص بالإظهار أولى، وفى الحالات التى يكون فيها المحتاجون من ذوى العزه والكرامه فإن حفظ ماء وجوههم يقتضى إخفاء الإنفاق، كما أنّه إذا خشى الرياء وعدم الإخلاص بالإخفاء أولى.

وقد جاء فى بعض الأحاديث أنّ الإنفاق الواجب يفضّل فيه الإظهار، والمستحبّ يفضّل فيه الإخفاء.

و

قد نقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: الزكاه المفروضه تخرج علانيه و تدفع علانيه، وغير الزكاه إن دفعه سرّاً فهو أفضل (١).

إلا أنّ هذه الأحاديث لا تتعارض مع ما قلناه آنفاً، لأنّ أداء الواجب يكون أقلّ امتزاجاً بالرياء، فهو واجب لا بدّ أن يؤدّيه كلّ مسلم فى محيط الاسلامى كالضريبه اللزمه التى يدفعها الجميع، و عليه فإنّ إظهار الإنفاق أفضل، وأمّا الإنفاق

ص: ٣٢٠

---

١- (١) - تفسير مجمع البيان: ج ١ ص ٣٨٤ نقلاً عن على بن إبراهيم: ج ١ ص ٩٣.

المستحبّ فليس إلزامياً لذلك، فإنّ إظهار إنفاقه قد يشوبه شيء من الرياء و عدم خلوص التّيه، فيكون الأجدر إخفاؤه.

٢- قوله: وَ يُكْفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ يُوَضِّحُ أَنَّ لِلْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَثْرًا فِي غَفْرَانِ الذُّنُوبِ، فَالتَّكْفِيرُ عَنِ السَّيِّئَاتِ - أَيْ تَطْغِيهِ الذُّنُوبِ - كُنَايَةٌ عَنْ ذَلِكَ.

بديهي أنّ هذا لا يعني أنّ إنفاق بعض المال يذهب بكلّ ذنوب الإنسان، و لذلك لا بدّ من ملاحظه استعمال «من» التبعيضية، أي أنّ الغفران يشمل قسماً من ذنوب الإنسان، و أنّ هذا القسم يتناسب مع مقدار الإنفاق و ميزان الإخلاص.

هنالك أحاديث كثيرة بشأن غفران الذنوب بالإنفاق وردت عن أهل البيت عليهم السّلام و في كتب أهل السنّه.

من ذلك:

«صدقه السرّ تطفى غضب الربّ و تطفى الخطيئه كما يطفى الماء النار» (١).

كما

جاء أيضاً: «سبعه يظلمهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه: الإمام العدل، و الشابّ الذي نشأ في عباده الله تعالى، و رجل قلبه يتعلّق بالمساجد حتّى يعود إليها، و رجلاّن تحايا في الله و اجتمعا عليه و افترقا عليه، و رجل دعته امرأه ذات منصب و جمال فقال إنّي أخاف الله تعالى، و رجل تصدّق فأخفاه حتّى لم تعلم يمينه ما تنفق شماله، و رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه» (٢).

٣- يستفاد من جملة وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ. هو أنّ الله عالم بما تنفقون سواء أ كان علانيه أم سرّاً، كما أنّه عالم بتّيّاتكم و أغراضكم من إعلان إنفاقكم و من إخفائه. على كلّ حال أنّ الذي له تأثير في الإنفاق هو التّيه الطاهره و الخلوص في العمل لله وحده، لأنّه هو الذي يجزى أعمال العبد، و هو عالم بما يخفى و يعلن.

ص: ٣٢١

١- ١) -مجمع البيان: ج ١ ص ٣٨٥.

٢- ٢) -المصدر السابق.



## اشاره

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَ مَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّفَ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢)

## سبب النزول

جاء فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس أنّ المسلمين لم يرضوا بالإنفاق على غير المسلمين، فنزلت هذه الآيه تجيز لهم ذلك عند الضروره.

و هناك سبب نزول آخر لهذه الآيه قريب من سبب النزول السابق. فقد جاء أنّ امرأه مسلمه تدعى «أسماء» كانت فى رحله عمره القضاء مع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، فجاءتها أمها و جدّتها تطلبان بعض العون منها، و لكن لما كانتا من المشركين و عبده الأصنام، فقد امتنعت أسماء عن مديد المساعدة إليهما، و قالت: لا بدّ أن استجيز رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فى ذلك لأنكما لستما على دينى. و أقبلت إلى النّبي صلى الله عليه و آله و سلم تستجيزه، فنزلت الآيه المذكوره.

## التفسير

## اشاره

### الإنفاق على غير المسلمين:

تحدّث الآيات السابقه عن مسأله الإنفاق فى سبيل الله بشكل عام، و لكن

فى هذه الآيه الحديث عن جواز الإنفاق على غير المسلمين، بمعنى أنه لا ينبغي ترك الإنفاق على المساكين و المحتاجين من غير المسلمين حتى تشتد بهم الأزمه و الحاجه فيعتنقوا الإسلام بسبب ذلك.

تقول الآيه لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ فَلَا- يَصَحُّ أَنْ تَجْبِرَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، و ترك الإنفاق عليهم نوع من الإيجابار على دخولهم إلى الإسلام، و هذا الأسلوب مرفوض، و رغم أن المخاطب فى هذه الآيه الشريفه هو النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم إلا أنه فى الواقع يستوعب كل المسلمين.

ثم تصنيف الآيه وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ و من تكون له اللياقه للهدايه.

فبعد هذا التذكّر تستمر الآيه فى بحث فوائد الإنفاق فى سبيل الله فتقول:

وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ و مَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ

هذا فى صورته ما إذا قلنا أن جملة و مَا تُنْفِقُونَ قد أخذت هنا بمعنى النهى، فيكون معناها أن إنفاقكم لا ينفعكم شيئاً إلا إذا كان فى سبيل الله تعالى.

و يحتمل أيضاً أن تكون هذه الجملة خبرية، أى أنكم أيها المسلمون لا تنفقون شيئاً إلا فى سبيل الله تعالى و كسب رضاه.

و فى آخر عبارته من هذه الآيه الكريمه نلاحظ تأكيداً أكثر على مقدار الإنفاق و كفيته حيث تقول الآيه و مَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ و أَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ .

يعنى أنكم لا- ينبغي أن تتصوروا أن إنفاقكم سيعود عليكم بربح قليل، بل أن جميع ما أنفقتم و تنفقون سيعود إليكم كاملاً، و ذلك فى اليوم الذى تحتاجون إليه بشده، فعلى هذا لا تترددوا فى الإنفاق أبداً.

و يستفاد من ظاهر هذه الجملة أن نفس المال المنفق سيعود على صاحبه (لا-ثوابه) فيمكن أن تكون الآيه دليلاً على تجسيم الأعمال الذى سيأتى بحته

## بحوث

١- الآيه أعلاه تقول أنّ نعم الله و آلاءه في هذا العالم كما أنّها تشمل الجميع بغضّ النظر عن العقيدة و الدين، كذلك ينبغي أن يشمل إنفاق المؤمنين المستحبّ رفع حاجات الناس غير المسلمين أيضاً إذا اقتضت الضروره.

و من الواضح أنّ الإنفاق على غير المسلمين يجب أن يكون ذا طابع إنساني ففي هذه الصوره يكون جائزاً، لا ما إذا كان موجبا لتقويه الكفر و دعم خطط الأعداء المشؤومه.

٢- للهدايه أنواع مختلفه: من الواضح أنّ المقصود من عدم وجوب هدايه الناس على الرسول صلى الله عليه و آله و سلّم لا يعنى أنّه غير مكلف بإرشاد الناس و هدايتهم لأنّ الإرشاد و الدعوه من أهم جوانب مسؤوليات النبي، و إنّما المقصود أنّه غير مكلف بممارسه الضغط و عوامل الإكراه لحمل الناس على اعتناق الإسلام.

و هل أنّ المقصود من هذه الهدايه هو الهدايه التكوينيّه أو التشريعيّه؟ لأنّ الهدايه لها عدّه أنواع:

أ- الهدايه التكوينيّه: و تعنى أنّ الله تعالى خلق مجموعه من عوامل التقدّم و التكامل في مختلف كائنات هذا العالم، يشمل ذلك الإنسان و جميع الكائنات الحيّه، بل حتّى الجمادات، و هذه العوامل تدفع الموجودات نحو تكاملها.

إنّ نموّ الجنين في رحم أمّه و رشده، و نموّ البذره في الباطن الأرض و رشدها،

ص: ٣٢٤

---

١- ١) - سوف تأتي هذه المسأله مفصلاً في ذيل الآيه (٣٠) من سوره آل عمران و في هذا المجلد بالذات.

و حركة السيارات و المنظومات الشمسيه فى مداراتها، و أمثال ذلك نماذج مختلفه من الهدايه التكوينيّه. و هذا النوع من الهدايه خاصّ بالله تعالى، و وسائلها عوامل و أسباب طبيعيه و ما وراء الطبيعيه. يقول القرآن المجيد: الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (١).

ب- الهدايه التوفيقيه: و تعنى هدايه الناس عن طرق التعليم و التربيّه، و القوانين، و الحكومات العادله، و الموظه و النصيحه. و هذه الهدايه يقوم بها الأنبياء و الأئمّه و الصالحون و المرّبون المخلصون. و قد أشار القرآن إلى هذا بقوله:

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ

(٢)

ج- الهدايه التوفيقيه: و هى الهدايه إلى تهيئه الوسائل و وضعها فى متناول الأفراد لكى يستفيدوا منها حسبما يشاءون فى مضان التقدّم، كبناء المدارس و المساجد و معاهد التربيّه، و إعداد الكتب و وضع الخطط و تدريب المرّبين و المعلمين المؤهلين، و هذا النوع من الهدايه يقع بين الهدايتين التكوينيّه و التشريعيّه. يقول القرآن: وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا (٣).

د- الهدايه نحو النعمه و المثوبه: و هذه تعنى هدايه الأفراد اللائقين للانتفاع بنتائج أعمالهم الصالحه فى العالم الآخر، و هى هدايه تختصّ بالمؤمنين الصالحين. يقول القرآن: سَيَهْدِيَهُمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٤).

هذه الآيه جاءت بعد ذكر تضحيه الشهداء فى سبيل الله. واضح أنّ هذا النوع من الهدايه ترتبط بتمتّع هؤلاء بثمار أعمالهم فى الآخره.

الواقع أنّ هذه الأنواع الأربعة من الهدايه تشكّل مراحل مختلفه متواليه

ص: ٣٢٥

١-١ (١) - طه: ٥٠.

٢-٢ (٢) - البقره: ٢.

٣-٣ (٣) - العنكبوت: ٦٩.

٤-٤ (٤) - محمّد: ٥.

لحقيقه واحده. ففي البدايه تكون الهدايه التكوينيّه التي يهدى بها الله مخلوقاته و منها الإنسان الذي أودع فيه العقل و الفكر و القوى الأخرى.

يلي تلك الهدايه هدايه الأنبياء و الرسل الذين يهدون الناس إلى طريق الحقّ.

و الهدايه هنا بمعنى الإرشاد و التبليغ.

ثم تأتي مرحله العمل فيشمل الله مخلوقاته بتوفيقه فتتمهد لهم سبل و طرائق تسير عليها نحو التكامل. و هذه هي هدايه التوفيق.

و في العالم الآخر ينالون جزاء أعمالهم الصالحات.

هدايه الإرشاد و الدعوه التي تشكّل واحدا من أنواع الهدايه الأربعة هي من واجبات الأنبياء و الأئمّه، و قسم منها ممّا يتناول تمهيد الطرق، يدخل معظمه ضمن واجبات الحكومات الإلهيه للأنبياء و الأئمّه، و الباقي يختصّ بالله تعالى.

و عليه حيثما نجد في القرآن سلب الهدايه عن أنبياء، فذلك لا يخصّ النوعين الأوّلين.

وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

و هي هدايه لا تأتي ارتباطا بدون حكمه و لا حساب، أي أنّه لا يمكن أن يهدى بهذا و يحرم ذاك بغير سبب، فعلى الإنسان أن يكون جدير بالهدايه لكي ينالها و يستفيد منها.

نستخلص من هذه الآيه حقيقه أخرى، و هي أنّه يخاطب نيّته قائلا: إذا ظهر بين المسلمين -بعد كلّ ذلك التحذير من الإنفاق المصحوب بالرياء و المنّ و الأذى- أفراد ما يزالون يلوّثون إنفاقهم بهذه الأمور، فلا يسؤك ذلك، إنّ واجبك هو بيان الأحكام و تهيئه المناخ الاجتماعيّ السليم، و ليس من واجبك أبدا أن تجبرهم على تجنّب هذه الأمور، و هذا التفسير لا يتنافى مع التفسير السابق، فكلاهما محتملان.

نلاحظ في جملة و <sup>□</sup> تَنْفَقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلْأَنْفُسِكُمْ أَنَّ فوائد الإنفاق تعود على المنفقين أنفسهم، وبهذا تدفعهم نحو هذا العمل الإنساني، و طبعى أَنَّ الإنسان يزداد حماسا لممارسه علمه حين يعلم أَنَّ منافع هذا العمل تعود إليه.

قد يبدو للوهلة الأولى أَنَّ المنافع التي تعود على المنفق من إنفاقه هي ما يناله من ثواب في الآخرة، هذا بالطبع صحيح، و لكن لا ينبغي أن يتصور أَنَّ نتائج الإنفاق أخرويه فحسب، بل أَنَّ له منافع في هذه الدنيا أيضا مادّيه و معنويه.

ففائدته المعنويه هي أَنَّ روح البذل و الإنسانيه و التضحيه و الأخوّه تتربى في المنفق. و هذه في الواقع وسيله مؤثره في تكامل شخصيه الإنسان و تربيته.

أمّا فائدته المادّيه فَإِنَّ وجود أناس معدمين فقراء في مجتمع ما يكون سببا في أزمات اجتماعيه خطره قد تبطلع مبدأ الملكيه نفسه في ثورتها، فلا تبقى و لا تذر.

الإنفاق يقلل من الفواصل الطبقيّه و يزل هذا الخطر الذي يهدّد الأفراد الأثرياء في المجتمع، فالإنفاق يطفى ليهب غضب الطبقات المحرومه و يقضى على روح الانتقام في نفوسهم.

من هنا فالإنفاق لصالح المنفقين من حيث الأهميه الاجتماعيه و السلامه الاقتصاديه و الجوانب المختلفه المادّيه و المعنويه.

٤- ما معنى وَجِهَ اللّٰهُ؟ «وجه» بالإضافة إلى معناها المعروف قد تستعمل بمعنى ذات، و عندئذ وَجِهَ اللّٰهُ تعنى ذات اللّٰه التي يجب أن يتوجه إليها المنفقون في إنفاقهم، و عليه فَإِنَّ ورود كلمه «وجه» في هذه الآيه و في غيرها إنّما يقصد به التوكيد، فمن

الواضح أنّ قولنا «لوجه الله» أو «لذات الله» أكثر تأكيداً من قولنا «الله». فيكون المعنى أنّ الإنفاق لله حتماً لا لغير الله.

ثمّ إنّ الوجه أشرف جزء من أجزاء الجسم الظاهره، ففيه أهمّ أعضاء الإنسان كالبصر و السمع و النطق. و لهذا حيثما استعملت كلمه «الوجه» كان القصد إيصال معانى الشرف و الأهميّه، و استعمالها هنا استعمال كناية يفهم منه الاحترام و الأهميّه، و إلاّ فإنّ الله منزّه عن الصوره الجسديه.

ص: ٣٢٨

اشاره

لِّلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْيَاءً مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ  
النَّاسَ الْخَافًا وَلَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)

سبب النزول

نقل عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: إن هذه الآية نزلت في أصحاب «الصفه».

وهم جمع نحو أربعمائه شخص من مسلمي مكّه و أطراف المدينة ممن لم يكن لهم مأوى يأوون إليه في المدينة، و لا قريب يؤويهم في منزله، فاتخذوا من مسجد النبي منزلاً معلنين استعدادهم للذهاب إلى ميادين الجهاد دائماً، و لكن بما أنّ بقاءهم في المسجد لم يكن ينسجم مع شؤونه فقد أمروا بالانتقال إلى «صفه» دكّه عريضه كانت خارج المسجد. و نزلت الآية تحت المسلمين أن يغدقوا مساعداتهم على إخوانهم هؤلاء فأعانوهم (١).

ص: ٣٢٩

١- ١) - مجمع البيان، أبو الفتوح الرازي، البحر المحيط، القرطبي، روح المعاني، و تفاسير اخرى و مع تفاوت في العبارات.



صَرَّحَ بعضُ المفسِّرين: «لقد كان هذا الوصف الموحى ينطبق على جماعه من المهاجرين، تركوا وراءهم أموالهم وأهليهم؛ وأقاموا في المدينة ووقفوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، وحراسه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كأهل الصفه الذين كانوا بالمسجد حرساً لبيوت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لا يخلص إليها من دونهم عدو...» (١)

## التفسير

## إشاره

## خير مواضع الإنفاق:

يبين الله في هذه الآيه أفضل مواضع الإنفاق، وهي التي تتصف بالصفات التاليه:

١- لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَي الَّذِينَ شغلتهم الأعمال الهامه كالجهاد و محاربه العدو، و تعليم فنون الحرب، و تحصيل العلوم الأخرى، عن العمل في سبيل الحصول على لقمه العيش كأصحاب الصفه الذين كانوا خير مصداق لهذا الوصف (٢).

ثم للتأكيد تضيف الآيه: لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ أَي الذين لا يقدرّون على الترحال لكسب العيش بالسفر إلى القرى و المدن الاخرى حيث تتوفر نعم الله تعالى. و عليه فإنّ القادرين على كسب معيشتهم يجب أن يتحمّلوا عناء السفر في سبيل ذلك و أن لا يستفيدوا من ثمار أتعاب الآخرين إلا إذا كانوا منشغلين بعمل أهمّ من كسب العيش كالجهاد في سبيل الله.

٢- الَّذِينَ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ هَؤُلَاءِ الذين لا يعرف الآخرون شيئاً عن بواطن أمورهم، و لكنهم -لما فيهم من عفه النفس و الكرامه-

ص: ٣٣٠

١- ١) -في ظلال القرآن: ذيل الآيه المبحوثة.

٢- ٢) -«حصر» بمعنى الحبس و المنع و التضيق و جاءت هنا بمعنى جميع الأمور التي تمنع الإنسان من تأمين معاشه.

يظنون أنهم من الأغنياء.

و لكن هذا لا يعنى أنهم غير معروفين.لذا تضيف الآية تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ .

السيماء:العلامه (١). فهؤلاء وإن لم يفصحوا بشيء عن حالهم، فإن على وجوههم علامات تنطق بما يعانون يدرکها العارفون، فلون و جناتهم ينبئ عما خفى من أسرارهم.

٣-و الثالث من صفات هؤلاء أنهم لا يصرون في الطلب و السؤال: لا يَسْئَلُونَ الدَّاسِ إِحْفَافاً (٢) أى أنهم لا يشبهون الفقراء الشحاذين الذين يلحون في الطلب من الناس، فهم يمتنعون عن السؤال فضلا عن الإلحاف، فالإلحاح في السؤال شيمه ذوى الحاجات العاديين، و هؤلاء ليسوا عاديين. و قول القرآن إنهم لا يلحفون في السؤال لا يعنى أنهم يسألون بدون إلحاف، بل يعنى أنهم ليسوا من الفقراء العاديين حتى يسألوا، و لذلك لا تتعارض هذه فقره من الآية مع قوله تعالى: تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَأَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ بالسؤال.

ثمّه احتمال آخر في تفسير الآية، و هو أنهم إذا اضطرتهم الحاله إلى إظهار عوزهم فإنهم لا يلحفون في السؤال أبدا، بل يكشفون عن حاجتهم بأسلوب مؤدب أمام إخوانهم المسلمين.

وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ

في هذه الآية حث على الإنفاق، و على الأخص الإنفاق على ذوى النفوس العزيزه الأبيه، لأن المنفقين إذا علموا أن الله عالم بما ينفقون حتى و إن كان سرا و أنه سوف يشيهم على ذلك، فستزداد رغبتهم في هذا العمل الكبير.

ص: ٣٣١

١-١) قيل أنها من ماده «وسم»، و قيل أنها من ماده «سوم».

٢-٢) «الحاف» من ماده «لحاف» بمعنى الغطاء المعروف، و اطلق على الإصرار في السؤال لأنه يغطى قلب الشخص المقابل.

الاستجداء بدون حاجه حرام:

إنَّ أحدَ الذنوبِ الكبيره هو السؤال و الاستجداء و الطلب من الناس من دون حاجه، لذلك و قد ورد في روايات متعدده النهى عن هذا العمل بشده،

ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يقول: «لا تحل الصدقه لغنى».

و ورد في حديث آخر عنه صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: «من سأل و عنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمرة جهنم»

(١)

و كذلك

ورد في الأحاديث الشريفه «أنه لا تقبل شهاده من يسأل الناس بكفّه» (٢).

ص: ٣٣٢

---

١-١ - تفسير المراغى: ج ٣ ص ٥٠.

٢-٢ - وسائل الشيعه: ج ٨ ص ٢٨١ كتاب الشهادات ب ٣٥.

## اشاره

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)

## سبب النزول

ورد في أحاديث كثيره أنّ هذه الآيه الشريفه نزلت في عليّ عليه السّلام لأنّه كان لديه أربعه دراهم فأنفق منها درهما في الليل و آخر في النهار و ثالث علانيه و رابع (١) خفيه، فنزلت هذه الآيه، و لكن من الواضح أنّ نزول الآيه في مورد خاص لا يحدّد مفهوم تلك الآيه و لا ينفي شموليه الحكم لغيره من الموارد.

## التفسير

## اشاره

## الإِنْفَاقُ مَحْمُودٌ بِكُلِّ أَشْكَالِهِ:

في هذه الآيه يدور الحديث أيضا عن مسأله اخرى ممّا يرتبط بالإِنْفَاقِ فِي

ص: ٣٣٣

١ - ١) - نور الثقلين: ج ١ ص ٢٩٠ و ٢٩١. ورد مضمون هذا الحديث في كتب تفسير أهل السنّه أيضا، و ينقله صاحب (الدر المنثور) عن ابن عساكر و الطبراني و أبي حاتم و ابن جرير و غيرهم. و يرى البعض أن علماء الشيعة بالاتفاق و أكثر علماء السنّه ذهبوا إلى أنّ هذه الآيه نزلت في علي بن أبي طالب عليه السّلام و في علماء السنّه، الواحدى، ثعلبى، الخوارزمى، السدى، العكبى، الزمخشرى، الكافى، القشيرى، الحاوردى، ابن المغازلى، ابن أبى الحديد، و غيرهم، و راجع تفسير البرهان.

سبيل الله و هي الكيفيات المتنوعه و المخلفه للإِنفاق فتقول الآيه: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ .

و من الواضح أنّ انتخاب أحد هذه الطرق المختلفه يتم مع رعايه الشرائط الأفضل للإِنفاق، يعنى أنّ المنفق يجب عليه مراعاة الجوانب الأخلاقية و الاجتماعيه فى إنفاقه الليلي أو النهارى العلنى أو السرى، فحين لا- يكون ثمة مبرر لإظهار الإنفاق على المحتاجين فينبغى أن يكون فى الخفاء لحفظ كرامه المحتاجين و تركيزا لإخلاص التيه.

و إذا تطلبت المصلحه إعلان الإنفاق كتعظيم الشعائر الدينيه و الترغيب و الحثّ على الإنفاق دون أن يؤدى ذلك إلى هتك حرمة أحد من المسلمين، فليعلن عنه (كالإنفاق فى الجهاد و المراكز الخيريّه و أمثال ذلك).

و لا- يبعد أن يكون تقديم الليل على النهار و السرّ على العلانيه فى الآيه مورد البحث إشاره إلى أنّ صدقه السرّ أفضل إلا أن يكون هناك موجب لإظهاره رغم أنّه لا ينبغى نسيان الإنفاق على كلّ حال.

و من المسلم أنّ الشىء الذى يكون عند الله (و خاصّه بالنظر إلى صفه الربوبيه الناظره إلى التكامل و النمو) لا يكون شيئا قليلا و غير ذا قيمه، بل يكون متناسبا مع أُلطاف الله تعالى و عناياته التى تتضمن بركات الدنيا و كذلك حسنات الآخره و القرب إلى الله تعالى.

ثمّ تضيف الآيه وَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

إنّ الإنسان يعلم أنّه لكى يدبّر أموره المعاشيه و الحياتيه يحتاج إلى المال و الثروه، فإذا فقد ثروته ينتابه الحزن على ذلك، و يشتدّ به الخوف على مستقبله، لأنّه لا يعلم ما ينتظره فى مقبلات الأيام. هذه الحاله غالبا ما تمنع الإنسان من الإنفاق، إلا الذين يؤمنون من جهه بوعود الله و يعرفون من جهه اخرى آثار

الإففاق الاجتماعيه. فهؤلاء لا- يتابهم الخوف و القلق من الإففاق فى سبيل الله على مستقبلهم و لا يحزنون على نقص أموالهم بالإففاق، لأنهم يعلمون أنهم بإزاء ما أنفقوه سوف ينالون أضعافه من فضل الله و بركات إنفاقهم الفرديه و الاجتماعيه و الأخلاقيه فى الدنيا و الآخره.

ص: ٣٣٥

اشاره

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَحَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ  
وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥)  
يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزْبِئُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا  
الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧)

التفسير

اشاره

الربا في القرآن:

في الآيات التي مضت كان الكلام على الإنفاق و بذل المال لمساعدته المحتاجين و في سبيل رفاة المجتمع. و في هذه الآيات يدور الكلام على الربا الذي يقف في الجبهه المضاده للإنفاق، و الواقع هو أن هذه الآيات تكمل هدف

الآيات السابقة، لأنّ تعاطى الربا يزيد من الفواصل الطبقيه و يركّز الثروه فى أيدي فئه قليله، و يسبب فقر الأكثرية، و الإنفاق سبب طهاره القلوب و النفوس و استقرار المجتمع، و الربا سبب البخل و الحقد و الكراهيه و الدنس.

هذه الآيات شديده و صريحه فى منع الربا، و لكن يبدو منها أنّ موضوع الربا قد سبق التطرّق إليه. فإذا لا حظنا تاريخ نزول هذه الآيات تتضح لنا صحّه ذلك، فبحسب ترتيب نزول القرآن، السوره التى ورد فيها ذكر الربا لأول مرّه هى سوره الروم، و هى السوره الثلاثون التى نزلت فى مكّه، و لا نجد فى غيرها من السور المكيه إشاره إلى الربا.

لكن الحديث عن الربا فى السوره المكيه جاء على شكل نصيحه أخلاقيه و ما آتيتهم من رباً ليؤبوا فى أموال الناس فلا يؤبوا عند الله (١).

أى أنّ قصيرى النظر قد يرون أنّ الثروه تزداد بالربا، و لكنّه لا يزداد عند الله.

ثمّ بعد الهجره، تناول القرآن الربا فى ثلاث سور أخرى من السور التى نزلت فى المدينه و هى بالترتيب: سوره البقره، و سوره آل عمران، و سوره النساء. و على الرغم من أنّ سوره البقره قد نزلت قبل سوره آل عمران، فلا يستبعد أن تكون الآيه ١٣٠ من سوره آل عمران - و هى التى تحرّم الربا تحريماً صريحاً - قد نزلت قبل سوره البقره و الآيات المذكوره أعلاه.

على كلّ حال، هذه الآيه و سائر الآيات التى تخصّ الربا نزلت فى وقت كان فيه تعاطى الربا قد راج بشدّه فى مكّه و المدينه و الجزيره العربيه حتّى غدا عاملاً مهمّاً من عوامل الحياه الطبقيه، و سبباً من أهمّ أسباب ضعف الطبقة الكادحه و طغيان الأرستقراطيه، لذلك فإنّ الحرب التى أعلنها القرآن على الربا تعتبر من

ص: ٣٣٧



أهم الحروب الاجتماعيه التي خاضها الإسلام.

يقول تعالى:

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ (١) الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ

فآليه تشبه المرابي بالمصروع أو المجنون الذي لا يستطيع الاحتفاظ بتوازنه عند السير، فيتخبط في خطواته.

ولعل المقصود هو وصف طريقه «سير المرابين الاجتماعى» فى الدنيا على اعتبار أنهم أشبه بالمجانين فى أعمالهم، فهم يفتقرون إلى التفكير الاجتماعى السليم، بل أنهم لا يشخصون حتى منافعهم الخاصه، و أن مشاعر المواساه و العواطف الإنسانيه و أمثالها لا مفهوم لها فى عقولهم إذ أن عباده المال تسيطر على عقولهم إلى درجه أنها تعميهم عن إدراك ما ستؤدى إليه أعمالهم الجشعه الاستغلاليه من غرس روح الحقد فى قلوب الطبقات المحرومه الكادحه و ما سيعقب ذلك من ثورات و انفجارات اجتماعيه تعرض أساس الملكيه للخطر، و فى مثل هذا المجتمع سينعدم الأمن و الاستقرار، و ستصادر الراحة من جميع الناس بمن فيهم هذا المرابي، و لذلك فإنه يجنى على نفسه أيضا بعمله الجنونى هذا.

و لكن بما أن وضع الإنسان فى العالم الآخر تجسيد لأعماله فى هذا العالم فيحتمل أن تكون الآيه إشاره إلى المعنيين. أى أن الذين يقومون فى الدنيا قياما غير معتقل و غير متوازن يخالطه اكتناز جنونى للثروه سسيحشرون يوم القيامه كالمجانين.

الطريف الروايات و الأحاديث تشير إلى كلا المفهومين. ففى حديث عن

ص: ٣٣٨

١- ١) - «يتخبطه» من ماده «الخبط» هو فقدان توازن الجسم عند المشى أو القيام.

الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير هذه الآيه أنه قال:

«آكل الربا لا يخرج من الدنيا حتّى يتخبّطه الشيطان»

(١)

و

فى روايه أخرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشأن تجسيد حال المرابين الذين لا يهتمهم غير مصالحهم الخاصه، و ما ستجرّه عليهم أموالهم المحرّمه قال: «لما أسرى بى إلى السماء رأيت قوما يريد أحدهم أن يقوم فلا يقدر أن يقوم من عظم بطنه، فقلت: من هؤلاء يا جبرائيل! قال: هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبّطه الشيطان من المس» (٢).

الحديث الأول يبيّن اضطراب الإنسان فى هذه الدنيا، و يعكس الحديث الثانى حال المرابين فى مشهد يوم القيامة، و كلاهما يرتبطان بحقيقته واحده، فكما أنّ الإنسان المبطان الأكل يسمن بإفراط و بغير حساب، كذلك المرابون الذين يسمنون بالمال الحرام لهم حياه اقتصاديه مريضه تكون وبالا عليهم.

سؤال: هل الجنون و الصرع اللذين أشارت إليهما الآيه المذكوره من عمل الشيطان، مع أنّنا نعلم أنّ الصرع و الجنون من الأمراض النفسيه التى لها أسباب معروفه فى الغالب؟ الجواب: يرى بعضهم أنّ تعبير «مسّ الشيطان» كناية عن الأمراض النفسيه و الجنون، و هو تعبير كان شائعا عند العرب، و لا يعنى أنّ للشيطان تأثيرا فعليا فى روح الإنسان.

و لكن مع ذلك لا- يستبعد أن يكون لبعض الأعمال الشيطانيه التى يرتكبها الإنسان دون تروّ أثر يؤدى إلى نوع من الجنون الشيطاني، أى يكون للشيطان على إثر هذه الأعمال فاعليه فى الشخص يسبّب اختلال تعادله النفسى. ثمّ إنّ الأعمال الشيطانيه الخاطئه إذا تكررت و تراكمت يكون أثرها الطبيعى هو أن يفقد

ص: ٣٣٩

١-١) - تفسير العياشى: ج ١ ص ١٥٢ ح ٥٠٣.

٢-٢) - تفسير نور الثقلين: ج ١ ص ٢٩١ ح ١١٥٧.

الإنسان قدرته على تمييز من السقيم من السليم و الصالح من الطالح و التفكير المنطقي من المعوج.

### منطق المرابين:

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا

هذه الآيه تبين منطق المرابين فهم يقولون: ما الفرق بين التجاره و الربا؟ و يقصدون أنّ كليهما يمثلان معامله تبادل بتراضى الطرفين و اختيارهما.

يقول القرآن جوابا على ذلك: وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبَا و لم يزد في ذلك شرحا و تفصيلا، ربما لوضوح الاختلاف:

فأولا: في صفقه البيع و الشراء يكون كلا الطرفين متساويين بإزاء الربح و الخساره، فقد يربح كلاهما، و قد يخسر كلاهما، و مرّه يربح هذا و يخسر ذاك، و مرّه يخسر هذا و يربح ذاك، بينما في المعامله الربويه لا يتحمل المرابي أيّه خساره، فكلّ الخسائر المحتمله يتحمل ثقلها الطرف الآخر، و لذلك نرى المؤسّسات الربويه تتوسّع يوما فيوما، و يكبر رأس مالها بقدر اضمحلال و تلاشي الطبقات الضعيفه.

و ثانيا: في التجاره و البيع و الشراء يسير الطرفان في «الإنتاج و الاستهلاك»، بينما المرابي لا يخطو أيّه خطوه إيجابيه في هذا المجال.

و ثالثا: بشيوع الربا تجرى رؤوس الأموال مجرى غير سليم و تتزعزع قواعد الإقتصاد الذي هو أساس المجتمع، بينما التجاره السليمه تجرى فيها رؤوس الأموال في تداول سليم.

و رابعا: الربا يتسبّب في المخاصمات و المنازعات الطبقيه، بينما التجاره السليمه لا تجرّ المجتمع إلى المشاحنات و الصراع الطبقي.

فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ

تقول الآية إن من بلغته نصيحة الله بتحريم الربا و اتعظ فله الأرباح التي أخذها من قبل «أى أن القانون ليس رجعياً» لأن القوانين الرجعية تولد الكثير من المشاكل و الاضطرابات فى حياة الناس، و لذلك فإن القوانين تنفذ عادة من تاريخ سنّها.

و هذا لا- يعنى بالطبع أنّ للمرايين أن يتقاضوا أكثر من رؤوس أموالهم من المدنيين بعد نزول الآية، بل المقصود إباحه ما جنوه من أرباح قبل نزول الآية.

ثم يقول وَ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ أَى أَنَّ النظر إلى أعمال هؤلاء يوم القيامة يعود إلى الله، و إن كان ظاهر الآية يدلّ على أنّ مستقبل هؤلاء من حيث معاقبتهم أو العفو عنهم غير واضح، و لكن بالتوجه إلى الآية السابقه نفهم أنّ القصد هو العفو. و يظهر من هذا أنّ إثم الربا من الكبر بحيث إنّ حكم العفو عن الذين كانوا يتعاطونه قبل نزول الآية لا يذكر صراحة.

وردت احتمالات اخرى فى معنى هذه الجملة، أعرضنا عن ذكرها كونها خلاف الظاهر (1).

وَ مَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

أى أنّ من يواصل تعاطى الربا على الرغم من كلّ تلك التحذيرات، فعليه أن ينتظر عذاباً أليماً فى النار دائماً.

إنّ العذاب الخالد لا يكون نصيب من آمن بالله. لكن الآية تعد المصّرّين على الربا بالخلود فى النار، ذلك لأنهم بإصرارهم هذا يحاربون قوانين الله، و يلجّون فى ارتكاب الإثم، و هذا دليل على عدم صحّحه إيمانهم، و بالتالى فهم يستحقّون الخلود فى النار.

ص: ٣٤١

١-١) - تفسير القرطبي: ج ٢ ص ١٦٩، هنا ذكر أربع تفاسير، و فى مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث و ذكرت احتمالات عديده اخرى أيضاً.

كما يمكن القول إنّ خلود العذاب هنا كما فى الآيه ٩٣ من سوره النساء، يعنى العذاب المديد الطويل الأمد لا الأبدى الدائم.

ثم أن الآيه التاليه تبين الفرق بين الربا و الصدقه و تقول:

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزْبِي الصَّدَقَاتِ

ثم يضيف: وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ يعنى الذين تركوا ما فى الصدقات من منافع طيبه و التمسوا طريق الربا الذى يوصلهم إلى نار جهنم.

«المحق»النقصان التدريجى. و«الربا»هو النمو التدريجى. فالمرابى بما لديه من رأسمال و ثروه يستحوذ على أتعاب الطبقة الكادحه، و قد يؤدى عمله هذا إلى القضاء عليهم، أو ييذر على الأقل بذور العدا و الحقد فى قلوبهم بحيث يصبحون بالتدريج متعطشين إلى شرب دماء المرابين و يهددون أموالهم و أرواحهم. فالقرآن يقول إنّ الله يسوق رؤوس الأموال الربويه إلى الفناء.

إنّ هذا الفناء التدريجى الذى يحق بالفرد المرابى يحق بالمجتمع المرابى أيضا.

و بالمقابل، فالأشخاص الذين يتقدمون إلى المجتمع بقلوب مليئه بالعواطف الإنسانيه و ينفقون من رؤوس أموالهم و ثروتهم يقضون بها حاجات المحتاجين من الناس يحظون بمحبته الناس و عواطفهم عموما، و أموال هؤلاء فضلا عن عدم تعرّضها لأى خطر تنمو بالتعاون العامّ نموّا طبيعيا، و هذا ما يعنيه القرآن بقوله:

و يُزْبِي الصَّدَقَاتِ

و هذا الحكم يجرى فى الفرد كما يجرى فى المجتمع. فالمجتمع الذى يعنى بالحاجات العامه تتحرّك فيه الطاقات الفكرية و الجسميه للطبقه الكادحه التى تؤلّف أكثرية المجتمع و تبدأ العمل، و على أثر ذلك يظهر إلى حيز الوجود ذلك النظام الاقتصادى القائم على التكافل و تبادل المنافع العامه.

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ

«الكفار» من الكفور، بوزن فجور، وهو المغرق في نكران الجميل و الكفر بالنعمة، و«الأثيم» هو الموغل في ارتكاب الآثام.

هذه فقره من الآيه تشير إلى أنّ المرابين بتركهم الإنفاق و الإقراض و البذل في سبيل رفع الحاجات العامه يكفرون بما أغدق الله عليهم من النعم، بل أكثر من ذلك يسخّرون هذه النعم على طريق الإثم و الظلم و الفساد، و من الطبيعي أنّ الله لا يحبّ أمثال هؤلاء.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

مقابل المرابين الآثمين الكافرين بأنعم الله هناك أناس من المؤمنين تركوا حبّ الذات، و أحيوا عواطفهم الفطريه، و ارتبطوا بالله بإقامه الصلاه، و أسرعوا لمعونه المحتاجين بدفع الزكاه، و بذلك يحولون دون تراكم الثروه و ظهور الاختلاف الطبقي المؤدى إلى الكثير من الجرائم. هؤلاء ثوابهم محفوظ عند الله و يرون نتائج أعمالهم في الدنيا و الآخره.

ثم إنّ هؤلاء لا يعرفون القلق و الحزن، و لا يهددهم الخطر الذي يتوجّه إلى المرابين من قبل ضحاياهم في المجتمع.

و أخيرا فإنهم يعيشون في اطمئنان تام و لا خوف عليهم و لا هم يحزنون .

ص: ٣٤٣

اشاره

يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا اتَّقُوا اللّٰهَ وَ ذُرُوْا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَاۤ اِنَّ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِيْنَ (٢٧٨) فَاِنْ لَّمْ تَفْعَلُوْا فَمَا ذُنُوْبًا بِحَرْبٍ مِّنَ اللّٰهِ وَ رَسُوْلِهِۦ وَ اِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ اَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُوْنَ وَ لَا تُظْلَمُوْنَ (٢٧٩) وَ اِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ اِلَيْهِ مِيسِرَةٌ وَ اَنْ تَصَدَّقُوْا خَيْرٌ لَّكُمْ اِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ (٢٨٠) وَ اتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُوْنَ فِيْهِ اِلَى اللّٰهِ ثُمَّ تُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُوْنَ (٢٨١)

سبب النزول

جاء في تفسير على بن ابراهيم (١) أنه بعد نزول آيات الربا جاء «خالد بن الوليد» إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و قال: كانت لأبي معاملات ربويه مع بنى ثقيف، فمات و لم يتسلم دينه، و قد أوصاني أن أقبض بعض الفوائد التي لم تدفع بعد. فهل يجوز لي ذلك؟ فنزلت الآيات المذكورة تنهى الناس عن ذلك نهياً شديداً.

و في روايه أخرى أنه بعد نزول هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا كلّ ربا

ص: ٣٤٤

من ربا الجاهليه موضوع، و أول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب»

(١)

يتضح من هذا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حملته لإلغاء الديون الربويه في الجاهليه قد بدأ بأقربائه أولاً. وإذا كان بينهم أشخاص أثرياء مثل العباس ممن كانوا مثل غيرهم يتعاطون الربا في الجاهليه، فقد ألغى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأولاً- ربا هؤلاء.

و جاء في الروايات أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد نزول هذه الآيات امر أمير مکه بأنه لو استمر آل المغيره الذين كانوا معروفين بالربا في عملهم فليقاتلهم (٢).

## التفسير

## إشارة

في الآيه الأولى يخاطب الله المؤمنين و يأمرهم بالتقوى ثم يأمرهم أن يتنازعوا عما بقي لهم في ذمه الناس من فوائد ربويه.

يلاحظ أنّ الآيه بدأت بذكر الإيمان بالله و اختتمت بذكره، مما يدلّ بوضوح على عدم انسجام الربا مع الإيمان بالله.

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ

تتغير في هذه الآيه لهجه السياق القرآني، فبعد أن كانت الآيات السابقة تنصح و تعظ، تهاجم هذه الآيه المرابين بكلّ شدة، و تنذرهم بلهجه صارمه أنّهم إذا واصلوا عملهم الربوي و لم يستسلموا لأوامر الله في الحقّ و العدل و استمروا في امتصاص دماء الكادحين المحرومين فلا- يسع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا- أن يتوسّل بالقوّه لإيقافهم عند حدّهم و إخضاعهم للحق، و هذا بمثابة إعلان الحرب عليهم.

ص: ٣٤٥

١-١) -مجمع البيان: ج ١ ص ٣٩٢، و الدر المنثور: ج ٢ ص ١٠٩ مع تفاوت يسير.

٢-٢) -الدر المنثور: ج ٢ ص ١٠٨-١٠٧.



و هي الحرب التي تنطلق من قانون: فَقاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ (١).

لذلك عند ما سمع الإمام الصادق عليه السلام أنّ مرابيا يتعاطى الربا بكلّ صراحه و يستهزئ بحرمته هدّده بالقتل.

و يستفاد من هذا الحديث أن حكم القتل إنّما هو لمنكر تحريم الربا. فَأُذِنُوا مِنْ مَّادِهِ «اذن» و كلما كانت متعدية بالأمر بالمعنى هو السماح و إذا تعدت بالياء فتعنى العلم فعلى هذا يكون قوله فَأُذِنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ (٢) يعنى أعلموا أنّ الله و رسوله سيحاربوكم و هذا فى الحقيقة بمثابة إعلان الحرب على هذه الفئة، فعلى هذا ليس من الصحيح ما ذهب إليه البعض فى معنى هذه الآية بأنه «اسمحوا بإعلان الحرب من الله».

عن أبى بكير قال: بلغ أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن رجل أنّه كان يأكل الربا و يسميه اللبأ.

فقال: لئن أمكننى الله منه لأضربن عنقه (٣).

يتضح من هذا أنّ هذا الحكم يخصّ الذين ينكرون تحريم الربا فى الإسلام.

على كلّ حال يستفاد من هذه الآية أنّ للحكومة الإسلاميه أن تتوسّل بالقوّه لمكافحه الربا (٤).

وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ

أما إذا تبتم و رجعتن عن غيكنم و تركتم تعاطى الربا فلكنم أن تتسلموا من الناس المدينين لكم رؤوس أموالكم فقط «بغير ربح». و هذا قانون عادل تماما،

ص: ٣٤٦

١-١) -الحجرات: ٩.

٢-٣) -وسائل الشيعة: ج ١٢ ص ٤٣٩ باب ثبوت القتل و الكفر باستحلال الربا ح ١.

٣-٤) -فسير «فأذنوا» ب «فاعلموا» غالبا من قبل المفسرين أمثال: الطبرى فى مجمع البيان، أبو الفتوح الرازى، الفخر الرازى، الألوسى فى روح المعانى، العلامة الطباطبائى فى الميزان... وغيرهم.

-٤

لأنه يحول دون أن تظلموا الناس و دون أن يصيبكم ظلم.

إِنَّ تَعْبِيرَ لَا- تَظْلِمُونَ وَ لَا- تُظْلَمُونَ وَ إِن كَانَ قَدْ جَاءَ بِشَأْنِ الْمَرَامِينَ، وَ لَكِنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ شِعَارُ إِسْلَامِي وَاسِعٍ وَ عَمِيقٍ، يَعْنِي أَنَّ الْمُسْلِمِينَ بِقَدْرِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ تَجَنُّبُ الظُّلْمِ، يَجِبُ عَلَيْهِمْ كَذَلِكَ أَنْ لَا يَسْتَسْلِمُوا لِلظُّلْمِ. وَ فِي الْحَقِيقَةِ لَوْ قَلَّ الَّذِينَ يَتَحَمَّلُونَ الظُّلْمَ لَقَلَّ الظَّالِمُونَ أَيْضًا، وَ لَوْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ أَعَدُّوا الْعَدَّةَ الْكَافِيَةَ لِلدَّفَاعِ عَنْ حَقُوقِهِمْ لَمَا تَمَكَّنَ أَحَدٌ أَنْ يَعْتَدِيَ عَلَى تِلْكَ الْحَقُوقِ وَ يَظْلِمَهُمْ. فَاقْبَلْ أَنْ نَقُولَ الظَّالِمَ: لَا تَظْلَمْ، عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ الْمَظْلُومَ: لَا تَسْتَسْلِمَ لِلظُّلْمِ.

وَ إِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَيْنَا مِيسِرَةٌ

(١)

استكمالاً لبيان حقِّ الدائن في الحصول على رأسماله «بدون ربح» تبين الآيه هنا حقاً من حقوق المدين إذا كان عاجزاً عن الدفع، ففضلاً عن عدم جواز الضغط عليه و فرض فائده جديده عليه كما كانت الحال في الجاهليه، فهو حقيق بأن يمهل مزيداً من الوقت لتسديد أصل الدين عند قدره و الاستطاعه.

إِنَّ الْقَوَانِينَ الْإِسْلَامِيَّةَ الَّتِي جَاءَتْ لِتَوْضِيحِ مَفْهُومِ هَذِهِ الْآيَةِ تَمْنَعُ الدَّائِنَ مِنْ اسْتِيْلَاءِ عَلَى دَارِ الْمَدِينِ وَ أَمْتَعْتَهُ الضَّرُورِيَّةَ الْإِلَازِمَةَ لِقَاءِ دِينِهِ، إِنَّمَا لِلدَّائِنِ أَنْ يَأْخُذَ الزَّائِدَ عَلَى ذَلِكَ. وَ هَذَا قَانُونٌ صَرِيحٌ وَ إِنْسَانِيٌّ يَحْمِي حَقُوقَ الطَّبَقَاتِ الْفَقِيرَةِ فِي الْمَجْتَمَعِ.

وَ أَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

و هذه في الواقع خطوه أبعد من المسائل الحقوقيه. أي أنها مسأله أخلاقيه و إنسانيه تكمل البحث الحقوقى المتقدم.

تقول الآيه للدائنين أن الأفضل من كل ما سبق بشأن المدين العاجز عن الدفع هو

ص: ٣٤٧

١ - ١) - يحتمل أن تكون (كان) في الجملة أعلاه تامه حيث لا- تحتاج إلى خبر أو ناقصه و يكون التقدير «إن كان هناك ذو عسره».

ان يخطو الدائن خطوه إنسانيه كبيره فيتنازل للمدين عمّا بقى له بدمته، فهذا خير عمل إنسانى يقوم به، و كل من يدرك منافع هذا الأمر يؤمن بهذه الحقيقه.

من المؤلف فى القرآن أنّه بعد بيان تفاصيل الأحكام و جزئيات الشريعه الإسلاميه يطرح تذكيرا عامّا شاملا يؤكد به ما سبق قوله، لكى تنفذ الأحكام السابقه نفوذا جيدا فى العقل و النفس.

لذلك فإنّه فى هذه الآيه يذكر الناس بيوم القيامه و يوم الحساب و الجزاء، و يحذّرهم من اليوم الذى ينتظرهم حيث يوضع أمام كل امرئ جميع أعماله دون زياده و لا نقصان، و كل ما حفظ فى ملفّ عالم الوجود يسلم إليه دفعه واحده، عندئذ تهوله النتائج التى تنتظره. و لكن ذلك حصيله ما زرعه بنفسه و ما ظلمه فيه أحد، إنّما هو نفسه ظلم نفسه و هم لا يُظلمون .

جدير بالذكر أنّ هذه الآيه من الأدلّه الأخرى على تجسّد أعمال الإنسان فى العالم الآخر.

و مما يلفت النظر أنّ تفسير «الدرّ المنثور» ينقل بطرق عديده أنّ هذه الآيه هى آخر آيه نزلت على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و لا يستبعد هذا إذا أخذنا مضمونها بنظر الاعتبار.

و هذا لا يتناقض مع كون سوره البقره ليست آخر سوره نزلت على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، لأنّ بعض الآيات كما نعلم كانت توضع فى سوره سابقه عليها أو لا حقه لها، و ذلك بأمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم نفسه.

## أضرار الربا

١-الربا يخلّ بالتوازن الاقتصادى فى المجتمع، و يؤدى إلى تراكم الثروه

لدى فئه قليلة، لأنّ هذه الفئه هى وحدها التى تستفيد من الأرباح بينما لا يجنى الآخرون سوى الخسائر و الأضرار و الضغوط.

الربا يشكّل اليوم أهم عوامل اتّساع الهوة المستمر بين الدول الغنيه و الدول الفقيره، و ما يعقب ذلك من حروب دمويه طاحنه.

٢-الربا لون من ألوان التبادل الاقتصادى غير السليم، يضعف العلائق العاطفيه، و يغرس روح الحقد فى القلوب، ذلك لأنّ الربا يقوم فى الواقع على أساس أنّ المرابى لا ينظر إلّا إلى أرباحه، و لا يهتم الضرر الذى يصيب المدّين.

هنا يبدأ المدّين بالاعتقاد بأنّ المرابى يتّخذ من أمواله و سيله لتدمير حياه الآخريين.

٣-صحيح أنّ دافع الربا يرضخ لعمله هذا نتيجة حاجه قد ألجأته إلى ذلك.

و لكنّه لن ينسى هذا الظلم أبداً، و قد يصل به الأمر إلى الإحساس بأصابع المرابى تشدّد من ضغطها على عنقه و تكاد تخنقه. و فى هذه الحاله تبدأ كلّ جوارح المدّين المسكين ترسل اللعنات على المرابى، و يتعطّش لشرب دمه. إنّه يرى بأمّ عينيه كيف أنّ حاصل شقاءه و تعب و ثمن حياته يدخل إلى جيب هذا المرابى، فى مثل هذه الحاله الهائجه ترتكب عشرات الجرائم المرعبه، فقد يقدم المدّين على الانتحار، و قد تدفعه حالته اليائسه إلى أن يقتل المرابى شرّاً قتله، و قد ينفجر الشعب المضطهد انفجاراً عامّاً فى ثوره عارمه.

إنّ انفصام علائق التعاون بين الدول المرابيه و الدول التى تستقرض منها بالربا واضح للعيان أيضاً. إنّ الدول التى تجد ثرواتها تصبّ فى خزائن دوله أخرى باسم الربا تنظر دون شكّ بعين البغض و الحقد إلى الدوله المرابيه، و فى الوقت الذى هى تستقرض منها لحاجتها الماسه فإنّها تتحيّن الفرصه للإعراب عن نقمتها و كرهها بشتّى الوسائل و الطرق.

و هذا هو الذى يحدونا إلى القول بأنّ للربا أثرا أخلاقيا سيئا جدّا فى نفسية المدين و يثير فى قلبه الكره و الضغينه، و يفصم عرى التعاون الاجتماعى بين الأفراد و الملل.

٤- فى الأحاديث الإسلاميه إشاره إلى آثار الربا الأخلاقية السيئه و ردت فى جملة قصيره و لكنها عميقه المعنى. جاء فى كتاب «وسائل الشيعة» عن عله تحريم الربا

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّما حرّم الله عزّ و جلّ الربا لكى لا يمتنع الناس عن اصطناع المعروف»

(١)

ص: ٣٥٠

---

١- ١) - وسائل الشيعة: ج ١٢، أبواب الربا، الباب ١، ص ٤٢٢.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَلَّوْا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

(٢٨٢)

## تدوين الأوراق التجارية:

بعد أن شَنَّ القرآن على الربا و الاحتكار و البخل حربا شعواء، وضع تعليمات دقيقة لتنظيم الروابط التجارية و الاقتصاديه، لكي تنمو رؤوس الأموال نموًا طبيعيًا دون أن تعثرها عوائق أو تتأثرها خلافات و منازعات.

تضع هذه الآيه التي هي أطول آيات القرآن تسعه عشر بندا من التعليمات التي تنظّم الشؤون الماليه، نذكرها على التوالي: (١)

١- إذا أقرض شخص شخصًا أو عقد صفقة، بحيث كان أحدهما مدينا، فلكي لا يقع أي سوء تفاهم و اختلاف في المستقبل، يجب أن يكتب بينهما العقد بتفاصيله <sup>□</sup> يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ .

من الجدير بالذكر أنه يستعمل كلمه «دين» هنا و لا يستعمل كلمه «قرض»، و ذلك لأنَّ القرض هو تبادل شيئين متشابهين كالنقود أو البضاعه التي يقترضها المقرض و يستفيد منها، ثم يعيد نقودا أو بضاعه إلى المقرض مثلا بمثل. أمّا «الدين» فأوسع معنى، فهو يشمل كلَّ تعامل، مثل المصالحة و الإيجار و الشراء و البيع و أمثالها، بحيث إنَّ أحد الطرفين يصبح مدينا للطرف الآخر. و عليه فهذه الآيه تشمل جميع المعاملات التي فيها دين يبقى في ذمه المدين، بما في ذلك القرض.

٢- لكي يطمئن الطرفان على صحه العقد و يأمنوا احتمال تدخل أحدهما فيه، فيجب أن يكون الكاتب شخصا ثالثا و يُكْتُبَ بَيْنَكُمْ <sup>□</sup> كَاتِبٌ .

على الرغم من أن ظاهر الآيه يدل على وجوب كتابه العقد، يتبين من الآيه

ص: ٣٥٢

١- ١) - و طبعًا يستفاد من بعض الأحكام ضمنا «و ليس بالدلاله المطابقه» أنه لو أضيفت تلك الأحكام إلى الأحكام التسعه عشر المذكوره لبلغت أكثر من واحد و عشرين حكما.

التاليه فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ أَنْ لَزُومَ الْكِتَابِهِ يَتَحَقَّقُ إِذَا لَمْ يَطْمِئِنَّ الطَّرْفَانِ أَحَدُهُمَا إِلَى الْآخَرِ وَاحْتِمَلِ  
حصول خلافات فيما بعد.

٣- على كاتب العقد أن يقف إلى جانب الحق، و أن يكتب الحقيقة الواقعه بِالْعَدْلِ .

٤- يجب على كاتب العقد، الذي و هبه الله علما بأحكام كتابه العقود و شروط التعامل، أن لا يمتنع عن كتابه العقد، بل عليه أن  
يساعد طرفي المعامله فى هذا الأمر الاجتماعى وَ لَا يَأْبُ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ .  
إِنَّ تَعْبِيرَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ حَسَبَ التَّفْسِيرِ الْمَذْكُورِ لِلتَّوَكِيدِ وَ لَزِيَادَةِ التَّرْغِيبِ .

و يمكن القول إنه يشير إلى أمر آخر، و هو ضروره التزامه الأمانه، و أن يكتب العقد، كما علمه الله، كتابه متقنه.

بديهي أن قبول الدعوه إلى تنظيم العقود ليست واجبا عينيا، كما يتضح من قوله سبحانه وَ لَا تَسْمُؤُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا .

٥- على أحد الطرفين أن يملأ تفاصيل العقد على الكاتب. و لكن أى الطرفين؟ تقول الآية: المدين الذى عليه الحق: وَ لِيُؤْمِلِلِ الَّذِي  
عَلَيْهِ الْحَقُّ .

من المتفق عليه أن التوقيع المهم فى العقد هو توقيع المدين، و لذلك فإن العقد الذى يكتب بإملائه يعتبر مستمسكا لا يمكنه  
إنكاره (١) .

٦- على المدين عند الإملاء أن يضع الله نصب عينيه، فلا يترك شيئا إلا قاله ليكتبه الكاتب وَ لِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَ لَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا .

٧- إذا كان المدين واحدا ممن تنطبق عليه صفه «السفيه»، و هو الخفيف العقل الذى يعجز عن إداره أمواله و لا يميز بين ضرره و  
منفعته، أو «الضعيف» القاصر فى

ص: ٣٥٣

١- ١) - «و ليملل» من ماده «مله» بمعنى الدين و الأحكام الإلهيه و قال بعض أنها من ماده «ملال» و بما أن فى الملاء هناك تكرار  
مملل أطلقت هذه الكلمه عليه (تاره بصوره إملاء و اخرى بصوره املال).



فكره و الضعيف في عقله المجنون، أو «الأبكم و الأصم» الذي لا يقدر على النطق، فإنّ لولّيه أن يملى العقد فيكتب الكاتب بموجب إملائه فإنّ كان اللّذي عليه الحقّ سفياً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يملّ هو فليملّ وليّه .

٨- على «الولي» في الإملاء و الاعتراف بالدين، أن يلتزم العدل و أن يحافظ على مصلحه موكله، و أن يتجنّب الابتعاد عن الحقّ فليملّ وليّه بالعدل .

٩- بالإضافة إلى كتابه العقد، على الطرفين أن يستشهدا بشاهدين و استشهدوا شهيدين (١) .

١٠ و ١١- يجب أن يكون الشاهدان بالغين و مسلمين و هذا يستفاد من عبارته من رجالكم أي ممّن هم على دينكم.

١٢- يجوز اختيار شاهدين من النساء و شاهد من الرجال فإنّ لم يكونا رجلين فرجل و امرأتان .

١٣- لا بدّ أن يكون الشاهدان موضع ثقة ممّن ترضون من الشهداء . يتبين من هذه الآيه أنّ الشهود يجب أن يكونوا ممّن يطمأن إليهم من جميع الوجوه، و هذه هي «العدالة» التي وردت في الأخبار أيضا.

١٤- و إذا كان الشاهدان من الرجال، فلكلّ منهما أن يشهد منفردا. أمّا إذا كانوا رجلا واحدا و امرأتين، فعلى المرأتين أن تدليا بشهادتهما معا لكي تذكر إحداهما الاخرى إذا نسيت شيئا أو أخطأت فيه.

أمّا سبب اعتبار شهادته امرأتين تعدل شهادته رجل واحد، فهو لأنّ المرأه كائن عاطفي و قد تقع تحت مؤثرات خارجيه، لذلك فوجود امرأه أخرى معها يحول بينها و بين التأثير العاطفي و غيره: أنّ تضلّ إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى .

ص: ٣٥٤

١- ١) - قال بعض ان التفاوت بين «شاهد» و «شهيد» هو أن الشاهد يقال لمن حضر الواقعة حتى يمكنه أن يشهد عليها و الشهيد هو الذي يؤدي الشهاده.

١٥- يجب على الشهود إذا دعوا إلى الشهادة أن يحضروا من غير تأخير ولا عذر كما قال: **وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا**.

و هذا من أهم الأحكام الإسلامية و لا يقوم القسط و العدل إلا به.

١٦- تجب كتابة الدين سواء أ كان الدين صغيراً أو كبيراً، لأن الإسلام يريد أن لا يقع أى نزاع فى الشؤون التجارية، حتى فى العقود الصغيره التى قد تجرّ إلى مشاكل كبيره و **لَا تَشْتُمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ (١)** و السأم هو الملل من أمر لكثره لبثه.

و تشير الآيه هنا إلى فلسفه هذه الأحكام، فتقول **إِنَّ الدَّقَّةَ** فى تنظيم العقود و المستندات تضمن من جهه تحقيق العدالة، كما أنها **تطمئن الشهود** من جهه أخرى عند أداء الشهاده، و تحول من جهه ثالثه دون ظهور سوء الظن بين أفراد المجتمع **ذِكْمٌ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أَقْوَمٌ لِلشَّهَادَةِ وَ أَذْنَبِيٌّ إِلَّا تَزْتَابُوا**.

١٧- إذا كان التعاقد نقداً فلا ضروره للكتابه إلا أن **تَكُونَ تِجَارَةٌ حَاضِرَةٌ تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ إِلَّا تَكْتُبُوهَا**.

«التجاره الحاضره» تعنى التعامل النقدي، و«تديرونها» تعنى الجاريه فى التداول لتوضيح معنى التجاره الحاضره. و تعبير **فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ** يعنى: ليس هناك ما يمنع من كتابه العقود النقديه أيضاً، و هو خير، لأنه يزيل كل خطأ أو اعتراض محتملين فيما بعد.

١٨- فى المعاملات النقديه و إن لم تحتج إلى كتابه عقد، لا بدّ من شهود:

**وَ أَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ**

ص: ٣٥٥

١- ١) - تقديم «الصغير» على «الكبير» من أجل أن الناس عاده يهملون المعاملات الصغيره أو لا يلتزمون بكتابتها و هذا يؤدى إلى التنازع أو أنه يحتمل أن الناس يظنون أن كتابه المعاملات الصغيره دليل على البخل، و لذلك تعرض القرآن لنفيه.

١٩- و آخر حكم تذكره الآيه هو أنه ينبغي ألا يصيب كاتب العقد و لا الشهود أى ضرر بسبب تأييدهم الحقّ و العدالة: وَ لَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَ لَا شَهِيدٌ .

و الفعل «يضارّ» يعنى - كما فسّرناه- أن لا يصيب الكتاب و الشهود ضرر، أى أنه مجهول. و لا حاجة إلى تفسيره بأنّه يعنى أن لا يصدر من الكاتب و الشهود ضرر فى الكتابه و الشهاده، بعبارة أخرى لا حاجة إلى اعتباره فعلا معلوما، لأنّ هذا التأكيد ورد فى فقره سابقه من الآيه.

ثمّ تقول الآيه إنه إذا آذى أحد شاهدا أو كاتباً لقوله الحق فهو إثم و فسوق يخرج المرء من مسيره العباده لله: وَ إِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ .

و فى الختام، و بعد كلّ تلك الأحكام، تدعو الآيه الناس إلى التقوى و امتثال أمر الله: وَ اتَّقُوا اللَّهَ ثُمَّ تَقُولُ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُكُمْ كُلَّ مَا تَحْتَاجُونَهُ فِي حَيَاتِكُمُ الْمَادِيَّةِ وَ الْمَعْنَوِيَّةِ: وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَ هُوَ يَعْلَمُ كُلَّ مَصَالِحِ النَّاسِ وَ مَفَاسِدِهِمْ وَ يَقَرِّرُ مَا هُوَ الصَّالِحُ لَهُمْ: وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

## بحوث

١- إنّ الأحكام الدقيقه المذكوره فى هذه الآيه لتنظيم الأسناد و المعاملات و ذكر الجزئيات أيضا فى جميع المراحل فى أطول آيه من القرآن الكريم يبيّن الاهتمام الكبير الذى يليه القرآن الكريم بالنسبه للأمور الاقتصاديه بين المسلمين و تنظيمها، و خاصه مع الالتفات إلى أنّ هذا الكتاب قد نزل فى مجتمع متخلف إلى درجه أنّ القراءه و الكتابه كانتا سلعه نادره جدّا، و حتّى أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلّم و هو صاحب القرآن لم يكن قد درس شيئا و لم يذهب إلى مدرسه أو مكتب، و هذا بنفسه

دليل على عظمه القرآن من جهه، و أهميه النظام الاقتصادى للمسلمين من جهه اخرى.

يقول (على بن إبراهيم) فى تفسيره المعروف: جاء فى الخبر أنّ فى سوره البقره خمسمائه حكم إسلامى و فى هذه الآيه ورد خمسه عشر حكما (١).

و كما رأينا أنّ عدد أحكام هذه الآيه يصل إلى تسعه عشر حكما، بل أنّنا إذا أخذنا بنظر الاعتبار الأحكام الضمّتيه لها فسيكون عدد الأحكام أكثر إلى حدّ أنّ الفاضل المقداد استفاد منها فى كتابه (كنز العرفان) واحدا و عشرين حكما بالإضافة إلى الفروع المتعدده الاخرى، فعلى هذا يكون قوله بأنّ عدد أحكام هذه الآيه خمسه عشر حكما إنّما هو بسبب إدغام بعض أحكام هذه الآيه بالبعض الآخر.

٢- إنّ جملة وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ جملة وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ رغم أنّها ذكرت فى الآيه بصوره مستقلّه و قد عطف إحداهما على الاخرى، و لكنّ اقترانهما معا إشاره إلى الارتباط الوثيق بينهما، و مفهوم ذلك هو أنّ التقوى و الورع و خشيه الله لها أثر عميق فى معرفه الإنسان و زياده علمه و اطلاعه.

أجل عند ما يتطهر قلب الإنسان من الشوائب بوسيله التقوى فسيغدوا كالمرآه الصافيه تعكس الحقائق الإلهيه، و هذا المعنى لا شكّ فيه و لا إشكال من جانبه المنطقى، لأنّ الصفات الخبيثه و الأعمال الذميه تشكّل حجابا على فكر الإنسان و لا تدعه يرى وجه الحقيقه كما هى عليه، و عند ما يقوم الإنسان بإزاحه هذه الحجب بوسيله التقوى فإنّ وجه الحقّ سيظهر و يتجلّى.

و لكنّ بعض الصوفيّين الجهلاء أسأؤوا الاستفاده من هذا المعنى و جعلوه دليلا على ترك تحصيل العلوم الرسميه فى حين أنّ هذا الكلام يخالف الكثير من آيات

ص: ٣٥٧

القرآن و الروايات الإسلاميه الشريفه.

و الحق أنّ بعض العلوم يجب اكتسابها عن طريق العلم و التعلّم بالشكل السائد و المتعارف، و قسم آخر من العلوم الإلهيّه لا تتحصّل للإنسان إلّا بوسيله تزكيه القلب و تصفيه الباطن بماء المعرفه و التقوى، و هذا هو النور الذى ورد فى الروايات أنّ الله يقذفه فى قلب من يليق بهذه الكرامه

«العلم نور يقذفه الله فى قلب من يشاء».

ص: ٣٥٨

اشاره

وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَليُتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)

التفسير

هذه الآيه تكمل البحث فى الآيه السابقه و تشتمل على احكام اخرى:

١- عند التعامل إذا لم يكن هناك من يكتب لكم عقودكم، كأن يقع ذلك فى سفر، عندئذ على المدين أن يضع شيئاً عند الدائن باسم الرهن لى يطمئن الدائن وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ .

قد يبدو من ظاهر الآيه لأول وهله أنّ تشريع «قانون الرهن» يختصّ بالسفر، و لكن بالنظر إلى الجملة التاليه و هى وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا يتبين أنّ القصد هو بيان نموذج لحاله لا- يمكن الوصول فيها إلى كاتب، و عليه فللطرفين أن يكتفيا بالرهن حتى فى موطنهما. و كذلك وردت الأحاديث عن أهل البيت عليهم السلام. و فى المصادر

الشيعيه و السنيّه أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم رهن درعه فى المدينه عند شخص غير مسلم و اقترض منه مبلغا من المال (١).

٢- يجب أن يبقى الرهن عند الدائن حتى يطمئن فرهاً مقبوضه .

جاء فى تفسير العياشى أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: «لا رهن إلا مقبوضه» (٢).

٣- جميع هذه الأحكام- من كتابه العقد، و استشهاد الشهود، و أخذ الرهن- تكون فى حاله عدم وجود ثقته تامه بين الجانبين، و إلا فلا حاجه إلى كتابه عقد، و على المدين أن يحترم ثقته الدائن به، فيسدّد دينه فى الوقت المعين، و أن لا ينسى تقوى الله فإنّ أمن بعضكم بعضاً فليؤدّد الذى أوّتمن أمانته و ليثق الله ربه .

٤- على الذين لهم علم بما للآخرين من حقوق فى المعاملات أو فى غيرها، إذا دعوا للإدلاء بشهادتهم أن لا- يكتموها، لأنّ كتمان الشهاده من الذنوب الكبيره و لا تكتموا الشهاده و من يكتتمها فإنه آثم قلبه .

طبعي أنّ الشهاده تجب علينا إذا لم يستطع الآخرون إثبات الحقّ بشهادتهم، أمّا إذا ثبت الحقّ فيسقط وجوب الإدلاء بالشهاده عن الآخريين، أى أنّ أداء الشهاده واجب كفاي.

و بما أنّ كتمان الشهاده و الامتناع عن الإدلاء بها يكون من أعمال القلب، فقد نسب هذا الإثم إلى القلب (٣)، فقال: فَإِنَّهُ آثَمُ قَلْبُهُ و مرّه اخرى يؤكّد فى ختام الآيه ضروره ملاحظه الأمانه و حقوق الآخريين: وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ .

ص: ٣٦٠

١-١) - تفسير أبو الفتوح الرازى: ج ٢ ص ٤٢٠، و تفسير المراغى ذيل الآيه المبحوثه.

٢-٢) - نور الثقلين: ج ١ ص ٣٠١.

٣-٣) - لتوضيح معنى القلب انظر الجزء الأول ص ٧٢. (المراد من القلب فى القرآن هو الروح و العقل).

اشاره

لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَ اِنْ تُبَدُّوا مَا فِيْ اَنْفُسِكُمْ اَوْ تُخَفُّوْهُ يَحْسِبْكُمْ بِهٖ اللّٰهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللّٰهُ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ (٢٨٤)

التفسير

اشاره

مالك كل شيء:

هذه في الحقيقة تكمله للجمله الأخيره في الآيه السابقه و تقول: لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ و لهذا السبب فهو يعلم جميع أفعال الإنسان الظاهريه منها و الباطنيه وَ اِنْ تُبَدُّوا مَا فِيْ اَنْفُسِكُمْ اَوْ تُخَفُّوْهُ يَحْسِبْكُمْ بِهٖ اللّٰهُ .

يعنى لا- ينبغي لكم أن تتصوروا أعمالكم الباطنيه مثل كتمان الشهاده و الذنوب القليله الاخرى سوف تخفى على الله تعالى الحاكم على الكون بأجمعه و المالك للسموات و الأرض، فإنه لا يخفى عليه شيء، فلا عجب إذا قيل أن الله تعالى يحاسبكم على ذنوبكم القليله و يجازيكم عليها فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ .

و يحتمل أيضا أن الآيه أعلاه تشير إلى جميع الأحكام المذكوره في الآيات



السابقه من قبيل الإنفاق الخالص و الإنفاق المشوب بالرياء أو المنه و الأذى و كذلك الصلاه و الصوم و سائر الأحكام الشرعيه و العقائد القلبيّه.

□  
في ختام الآيه تقول: وَ اللَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فهو عالم بكل شيء يجرى في هذا العالم، و قادر أيضا على تشخيص اللياقات و الملكات، و قادر أيضا على مجازات المتخلفين.

## ملاحظتان

١- قد يتصور أنّ هذه الآيه مخالفه للأحاديث الكثيره التي تؤكد على التيه المجرّده، و لكنّ الجواب واضح، حيث إنّ تلك الأحاديث تتعلق بالذنوب التي لها تطبيقات خارجيه و عمليه بحيث تكون التيه مقدّمه لها من قبيل الظلم و الكذب و غصب حقوق الآخريين و أمثال ذلك، لا- من قبيل الذنوب التي لها جنبه نفسيه ذاتا و تعتبر من الأعمال القلبيّه مثل (الشرك و الرياء و كتمان الشهاده).

و هناك تفسير آخر لهذه الآيه، و هو أنّه يمكن أن يكون لعمل واحد صور مختلفه، مثلا الإنفاق تاره يكون في سبيل الله، و اخرى يكون للرياء و طلب الشهرة، فالآيه تقول: أنكم إذا أعلنتم نيتكم أو أخفيتموها فإنّ الله تعالى أعلم بها و سيجازيكم عليها، فهي في الحقيقه إشاره إلى مضمون

الحديث الشريف «لا عمل إلاّ بتيه»

(١)

٢- من الواضح أنّ قوله تعالى فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ أنّ إرادته لا- تكون بدون دليل، بل أنّ عفوّه أيضا يرتكز على دليل و مبرّر، و هو لياقه الشخص للعفو الإلهي، و هكذا في عقابه و عدم عفوّه.

ص: ٣٦٢

اشاره

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)

التفسير

اشاره

علائم الإيمان وطريقه:

لقد شرعت سوره البقره ببيان بعض المعارف الإسلاميه و الاعتقادات الحقه و اختتمت بهذه المواضع أيضا كما فى الآيه أعلاه و الآيه التى بعدها، و بهذا تكون بدايتها و نهايتها متوافقه و منسجمه.

و قد ذكر بعض المفسرين فى سبب نزول هذه الآيه أنه حين نزلت الآيه السابقه و أنّ الله تعالى يعلم ما فى أنفسكم و يحاسبكم بما أظهرتم و أخفيتم فى قلوبكم، خاف بعض الصحابه و قالوا: ليس أحد منا إلا و فى قلبه خطرات و وساوس شيطانيه، فعرضوا الأمر على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فنزلت الآيه أعلاه، و بينت طريق الحقّ و الإيمان، و منهج التضرعّ و المناجاه و التسليم لأوامر الله تعالى (١).

ص: ٣٦٣

فى البداهه تقول آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه فهذا المعنى و هذه الخصيصه تعتبر من امتيازات الأنبياء الإلهيين جميعا بأنهم مؤمنون بما جاءوا به إيماناً قاطعاً، فلا شك و لا شبهه فى قلوبهم عن معتقداتهم، فقد آمنوا بها قبل الآخرين و استقاموا و صبروا عليها قبل الآخرين.

و نقرأ فى الآيه ١٥٨ من سوره الأعراف أنّ هذه الخصيصه تعتبر من صفات الرسول الأكرم و من امتيازاته حيث تقول: فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِمَاتِهِ .

ثمّ تصنيف الآيه الكريمه: وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رَسُولِهِ لَّا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رَسُولِهِ (١) و هذه الجمله الأخيره من كلام المؤمنين أنفسهم، حيث يؤمنون بجميع الأنبياء و المرسلين و شرائعهم بخلاف البعض من الناس الذين تقول عنهم الآيه ١٥٠ من سوره النساء وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ (٢).

المؤمنون لا يرون تفاوتاً بين رسل الله من جهة أنهم مرسلون من قبل الله تعالى، و يحترمونها و يقدرسونهم جميعاً. و معلوم أنّ هذا الموضوع لا ينافى مقوله نسخ الشرائع السابقه بواسطه الشريعه البعديه، لأنه كما سبقت الإشاره إليه أنّ تعليمات الأنبياء و شرائعهم من قبيل المراحل الدراسيه المختلفه من الابتدائيه و المتوسطه و الاعداديه و الجامعه، فبالرغم من أنّها تشترك جميعاً فى الأصول و المبادئ الأساسيه، إلاّ أنّها تختلف فى السطوح و التطبيقات المختلفه، فعند ما يرتقى الإنسان إلى مرحله أسمى فإنه يترك البرامج المعده للمرحله السابقه و يأخذ

ص: ٣٦٤

١-١) -جمله «و المؤمنون» يمكن أن تكون جملته مستأنفه كما ذكر فى التفسير أعلاه و يمكن أن تكون معطوفه على (الرسول) و لا يختلف المعنى كثيراً و إن كان المعنى الأول أنسب.

٢-٢) -النساء: ١٥٠.

بالبرامج المعده لهذه المرحله، و مع ذلك يبقى احترامه و تقديسه للمرحله السابقه فى محله.

ثم تضيف الآيه أنّ المؤمنين مضافا إلى إيمانهم الراسخ و الجامع فإنهم فى مقام العمل أيضا كذلك و قالوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا  
غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ .

(سمعنا)وردت فى بعض الموارد بمعنى فهمنا و صدّقنا من قبيل هذه الآيه، أى أنّنا قبلنا دعوه أنبيائك بجميع وجودنا و على استعداد تام للإطاعه و الإتياع.

و لكن يا إلهنا و ربنا نحن بشر و قد تتسلط علينا الغرائز و الأهواء و تجرنا إلى المعصيه أحيانا، و لهذا ننتظر عفوك و نتوقع منك المغفره لأنّ مصيرنا إليك (1).

و بهذا يتناغم الإيمان بالمبدأ و المعاد مع الالتزام العملى بجميع الأحكام الشرعيّه و الدساتير الإلهيه.

ص: ٣٦٥

---

١-١) -ذهب كثير من المفسرين إلى أن فى الجملة الأخيره فعل محذوف و تقديره(نسألك)أو(نريد غفرانك).

اشاره

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)

التفسير

اشاره

عدّه حاجات مهمّه:

كما تقدّم في تفسير الآيه السابقه أنّ هاتين الآيتين تتعلّقان بالأشخاص الذين استوحشوا من تعبير الآيه السابقه في أنّ الله تعالى مطّلع على نياتهم و سيحاسبهم و يجازيهم عليها فقالوا: لا أحد منّا يصفو قلبه عن الوسوسه و الخاطرات القلبيّه.

فالآيه الحاضره تقول: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا .

(الوسع)لغه تعنى القدره و الإستيعاب، و عليه فإنّ الآيه تؤيّد الحقيقه المنطقيّه القائله أنّ التكاليف و الفرائض الإلهيه لا تتجاوز طاقه الأفراد و ميزان تحملهم

إطلاقاً، لذلك يمكن القول بأنّ كلّ الأحكام يمكن تقييدها و تفسيرها بهذه الآية حيث تتحدّد في إطار قدره الإنسان، و من البديهي أنّ المشرّع الحكيم و العادل لا يمكن أن يضع قانوناً على نحو آخر.

كما أنّ الآية تؤكّد أنّ الأحكام الشرعيّة لا تنفصل أبداً عن أحكام العقل و الحكمه، بل هي متواكبه معها في كلّ المراحل.

ثمّ تضيف الآية لها مَا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .

أجل فإنّ كلّ شخص يحصد ما جنته يدها حسناً كان أم سيئاً، و سيواجه في هذا العالم أو في العالم الآخر نتائج و عواقب هذه الأعمال، فالآية تتبه الناس إلى مسؤولياتهم و عواقب أعمالهم، أو تفنّد الأساطير التي تبرئ بعض الناس من عواقب أعمالهم، أو تجعلهم مسؤولين عن أعمال الآخرين دون دليل.

و تجدر الإشارة إلى أنّ الآية تطلق على الأعمال الصالحة اسم «الكسب» و على الأعمال السيئه اسم «الاكتساب». و لعلّ السبب هو أنّ «الكسب» يستعمل بالنسبه إلى الأمور التي يحقّقها المرء برغبه داخلية و بلا- تكليف و هي تناسب فطرته، بينما «الاكتساب» هو النقطه المقابله للكسب، أي الأعمال التي تنافي الفطره و طبيعه الإنسان. يفهم من هذا أنّ الأعمال الصالحة مطابقه لمسيره الفطره و طبيعه الإنسان، بينما أعمال الشرّ تخالف الفطره و الطبيعه.

أمّا الراغب الإصفهاني في «مفرداته» فيرى رأياً غير هذا و جدير بالملاحظه يقول: الكسب ما يتحرّاه الإنسان ممّا فيه اجتلاب نفع و تحصيل حظّ ككسب المال، و يقال فيما أخذه لنفسه و لغيره (كأعمال الخير التي لا تقتصر فائدتها على الفاعل وحده، بل قد تعمّ الأقارب و غيرهم) في حين أنّ الاكتساب لا يقال إلاّ فيما تعود نتائجه على الفاعل نفسه، و هو الذنب. هذه الاختلافات في المعنى تصلح طبعاً عند ما تستعمل الواحد في قبال الأخرى.

لَمَّا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَعْرِفُونَ أَنَّ مَصِيرَهُمْ يَتَحَدَّدُ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ أَوْ سَيِّئَةٍ بِمَوْجِبِ قَانُونِ «لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ» لِذَلِكَ يَتَضَرَّعُونَ وَيَخَاطِبُونَ اللَّهَ بِلَفْظِ «الرَّبِّ» الَّذِي يُوحَى بِمَعَانِي اللَّطْفِ فِي النَّشْأَةِ وَالتَّرْبِيَةِ قَائِلِينَ: إِذَا كُنَّا قَدْ أَذْنَبْنَا بِسَبَبِ النِّسْيَانِ أَوِ الْخَطَا، فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا بِرَحْمَتِكَ الْوَاسِعَةِ وَجَنِّبْنَا الْعِقَابَ.

### العقاب على النسيان و الخطأ:

لماذا الدعاء لأن يغفر الله الذنوب المرتكبه نسيانا أو خطأ؟ فهل الله يعاقب على مثل هذه الذنوب؟ في الجواب لا بد من القول بأن النسيان يكون أحيانا من باب التماهل و التساهل من جانب الإنسان نفسه. بديهى أن هذا النوع من النسيان لا يضع المسئوليه عن الإنسان، كما جاء فى القرآن.

فَدُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا

(١)

و عليه فإن النسيان الناشئ عن التساهل يوجب العقاب.

ثم لا بد من ملاحظه أن هناك فرقا بين النسيان و الخطأ. فالخطأ يقال عادة فى الأمور التى تقع لغفله من الإنسان و عدم انتباه منه، كأن يطلق رصاصه ليصيد صيدا فتصيب رصاصته إنسانا فتجرحه. أما النسيان فهو أن يتجه الإنسان للقيام بعمل ما و لكنه ينسى كيف يقوم بذلك، كأن يعاقب المرء إنسانا برثيا ظنا منه أنه المذنب، لنسيانه مميزات المذنب الحقيقى.

ص: ٣٦٨

رَبِّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِضْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا

«الإضر» عقد الشيء و حبسه. و تطلق على الحمل الثقيل الذى يمنع المرء من الحركة. و كذلك العهد المؤكّد الذى يقيد الإنسان. و لهذا تطلق هذه الكلمه على العقاب أيضا.

و فى هذا المقطع من الآيه يطلب المؤمنون من الله تعالى طلبين: الأول أن يرفع عنهم الفروض الثقيله التى قد تمنع الإنسان من إطاعه الله، و هذا هو ما

ورد على لسان النبى صلى الله عليه و آله و سلم بشأن التعاليم الإسلاميه، إذ قال «بعثت بالشريعة السهله السمره»

(١)

هنا قد يسأل سائل: إذا كانت السهوله و السمره فى الدين جيده، فلما ذا لم يكن للأقوام السابقيه مثلها؟ فى الجواب نقول: تفيد آيات فى القرآن أنّ التكليف الشاقّه لم تكن موجوده فى أصل شرائع الأديان السابقيه، بل فرضت كعقوبات على أثر عصيان تلك الأقوام و عدم إطاعتها، كحرمان بنى إسرائيل من أكل بعض اللحوم المحلّله بسبب عصيانهم المتكرّر (٢).

و فى الطلب الثانى يريدون منه أن يعفيهم من الامتحانات الصعبه و العقوبات التى لا تطاق و لا تُحمّلنا ما لا طاقة لنا به. و نرى فى الفقره السابقيه صيغه لا تَحْمِلْ، و هنا نرى عبارته لا تَحْمِلْ، فالأولى تستعمل عادة فى الأمور الصعبه، و الثانيه فيما لا يطاق.

فاعف عنا و اغفر لنا و ارحمنا.

«عفا» بمعنى أزال آثار الشيء، و أكثر استعمالها مع الذنب بمعنى محو آثار

ص: ٣٦٩

١-١) -بحار الأنوار: ج ٦٥ ص ٣١٩ ط بيروت، و ورد مثله فى فروع الكافى: ج ٥ ص ٤٩٤ باب كراهه الرهبانيه.

٢-٢) -الأنعام: ١٤٦، النساء: ١٦٠.



الإثم، وتشمل الآثار الطبيعية و الآثار الجزائية و العقوبات.

أما «الغفران» فتعنى أن يصون الله العبد من أن يمسه العذاب عقوبه على ذنبه.

و عليه، فإن استعمال الكلمتين يفيد أن المؤمنين طلبوا من الله أن يزيل الآثار التكوينية و الطبيعية لزللهم عن أرواحهم و نفوسهم، لكي لا تصيبهم عواقبها السيئه.

كما أنهم طلبوا منه أن لا يقفوا تحت طائله عقابها. و فى المرحلة الثالثه يطلبون «رحمته الواسعه» التى تشمل كل شىء.

أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ

و فى آخر دعواهم يخاطبون الله على أنه مولاهم الذى يتعهدهم بالرعايه و الترييه و يطلبون منه أن يمنحهم الفوز و الإنتصار على الأعداء.

فى هاتين الآيتين خلاصه لسوره البقره كلها، و هما تهديانا إلى روح التسليم أمام رب العالمين، و تشيران إلى أن المؤمنين إذا أرادوا من الله أن يغفر لهم زلاتهم و أن ينصرهم على الأعداء كافة، فلا بد لهم أن ينفذوا برنامج «سمعنا و أطعنا» أن يقولوا: إننا سمعنا دعوات الداعين و قبلناها بكل جوارحنا و إننا متبعوها، و لن ندخر وسعا فى حث السير على هذا السبيل. و عندئذ لهم أن يطلبوا الإنتصار على الموانع و الأعداء.

إن تكرار كلمه «رب» أى الذى يلف بعباده و يرئهم يكمل هذه الحقيقه.

و لهذا حثنا أئمه الدين فى أحاديثهم على قراءه هاتين الآيتين، و بينوا ما فيهما من أبواب الثواب. فإذا تناغم اللسان و القلب فى تلاوتهما و لم تكن التلاوه مجرد ألفاظ تجرى على اللسان، تغدو حينئذ برنامجا حياتيا، فإن تلاوتهما تربط بين القلب و خالق الكون، و تطفى الصفاء على الروح و تكون عاملا على التحرك و النشاط.

يستفاد جيّدا من هذه الآيه أن (التكليف بما لا يطاق) لا يوجد فى الشريعه المقدسه، لا فى الإسلام و لا فى الأديان الاخرى، و الأصل هو حرّيه الإنسان

و إرادته لأن الآيه تقول: أن كل إنسان يلقى جزاء أعماله الحسنه و السيئه، فما عمله من حسنات فسيعود إليه، و ما ارتكبه من سيئات فعليه، و من هذا المنطلق يكون طلب العفو و المغفره و الصفح.

و هذا المعنى يتطابق تماما مع منطق العقل و مسأله الحسن و القبح، لأن الله تعالى حكيم و لا يمكن أن يكلف العباد بما لا طاقه لهم به، و هذا بنفسه دليل على نفي مسأله الجبر، فكيف يحتمل أن الله تعالى يجبر العباد على ارتكاب الذنب و الإثم و فى نفس الوقت ينهاهم عنه؟! و لكنّ التكاليف الشاقّه و الصعبه ليست بالأمر المحال كما قرأنا عن تكاليف بنى إسرائيل الشاقّه، و هذه التكاليف أيضا ناشئه من أعمالهم و عباره عن عقوبه لما ارتكبوه من آثام.

ص: ٣٧١



## سوره آل عمران

### اشاره

مدنيه و عدد آياتها مائتين آيه

ص: ۳۷۳



### فضيله تلاوه هذه السوره:

ورد في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «من قرأ سورة آل عمران أعطى بكل آية منها أماناً على جسر جهنم»

(١)

و نقرأ

في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «من قرأ البقره وآل عمران جاء يوم القيامة يظلاله على رأسه مثل الغمامتين»

(٢)

### محتوى السوره:

ذهب بعض المفسرين المعروفين أنّ هذه السوره نزلت بين السنه الثانيه و الثالثه للهجره أى بين غزوه بدر و احد فهى تعكس فى طياتها فتره من أشد الفترات حساسيته فى صدر الإسلام (٣).

و على كلّ حال، فإنّ المحاور الأصلية فى أبحاث هذه السوره عباره عن:

١- إنّ قسماً مهمّاً من هذه السوره يرتبط بمسأله التوحيد و صفات الله و المعاد و المعارف الإسلاميه الاخرى.

ص: ٣٧٥

(١-١) -مجمع البيان: ج ١ ص ٤٠٥.

(٢-٢) -نور الثقلين: ج ١ ص ٣٠٩.

٣ - (٣) -تشير الآيه (١٣) إلى «غزوه بدر» و من آيه (١٢١) إلى (١٢٨) تشير إلى غزوه بدر و احد، ثمّ تعقب فى الآيات (١٣٩) إلى (١٤٤) إلى نفس المسأله و كذلك الآيات الاخرى.

٢- وقسم آخر منها يتعلّق بمسأله الجهاد و أحكامه المهمّه و الدقيقه، و كذلك الدروس المستفاده من غزوتى بدر و أحد، و بيان الإمداد الإلهى للمؤمنين، و الحياه الخالده الأخرويه للشهداء فى سبيل الله.

٣- و فى قسم من هذه السوره يدور الحديث حول سلسله من الأحكام الإسلاميه فى ضروره وحده صفوف المسلمين و فريضه الحجّ و بيت الله الحرام و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و التوى و التبرى و مسأله الأمانه و الإنفاق فى سبيل الله و ترك الكذب و ضروره الاستقامه و الصبر فى مقابل الأعداء و المشكلات و الامتحانات الإلهيه المختلفه و ذكر الله على كلّ حال.

٤- و تطرقت هذه السوره إلى تكمله للأبحاث التى تتحدّث عن تاريخ الأنبياء عليهم السلام و منهم آدم و نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و سائر الأنبياء و قصّه مريم و كرامتها و منزلتها عند الله، و كذلك المؤامرات التى كان يحوكلها أتباع الديانه اليهوديه و المسيحيه ضدّ الإسلام و المسلمين.

إنّ مواضيع هذه السوره منسجمه و متناغمه بشكل كأنّها نزلت فى وقت واحد.

إشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤)

سبب النزول

يقول بعض المفسرين: إن ثمانين آية و نيفا من هذه السوره قد نزلت في وفد مسيحيي نجران (١) الذي قدم المدينة للتحقيق في أمر الإسلام.

كان الوفد يتألف من ستين شخصا، فيهم أربعة عشر شخصا من أشرف نجران و شخصياتها. ثلاثة من هؤلاء الأربعة عشر كانت لهم صفة الرئاسة، و إليهم يرجع المسيحيون لحل مشاكلهم. أحدهم يدعى «عاقب» و يسمى «عبد المسيح» أيضا،

ص: ٣٧٧

١ - ١) - «نجران» منطقه في جبال اليمن الشماليه على بعد نحو عشره منازل من صنعاء، و تسكنها قبائل همدان التي كان لها في الجاهليه صنم باسم «يعوق». و يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان: نجران اسم لعدد من المواضع.



كان زعيم قومه المطاع بينهم. والثاني يدعى «السيد» ويسمونه «أيهم» أيضا، وهو المسؤول عن تنظيم برنامج الرحلة و معتمد المسيحيين. والثالث «أبو حارثه» و كان عالما و صاحب نفوذ، و بنيت كنائس عديده باسمه. و حفظ عن ظهر قلب جميع كتب المسيحيين الدينيه.

دخل هؤلاء المدينة و هم بملابس قبيله بنى كعب، و جاؤوا إلى مسجد النبي صلى الله عليه و آله و سلم. كان النبي صلى الله عليه و آله و سلم قد انتهى من صلاه العصر مع المسلمين. و آثار هؤلاء انتباه المسلمين بملابسهم اللامعه الملونه الزاهيه حتى قال بعض صحابه النبي صلى الله عليه و آله و سلم: ما رأينا مبعوثين بهذا الجمال! و عند ما وصلوا إلى المسجد كان موعد صلاتهم قد أزف، ففرعوا نواقيسهم بحسب طقوسهم و اتجهوا نحو الشرق و شرعوا يصلون، فحاول بعض أصحاب النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يمنعهم، إلا أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم طلب من الصحابه أن يتركوهم و شأنهم.

و بعد الصلاه أقبل «عاقب» و «السيد» على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و بدءا يحادثانه، فدعاهم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم إلى الدخول فى الإسلام و الاستسلام لله.

قالا: قد أسلمنا قبلك.

قال: كذبتما يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدا، و عبادتكما الصليب، و أكلكما الخنزير.

قالا: إن لم يكن عيسى ولدا لله فمن أبوه؟ و خاصموه جميعا فى عيسى.

فقال لهم النبي صلى الله عليه و آله و سلم: أستم تعلمون أنه لا يكون ولدا إلا و يشبه أباه؟ قالوا: بلى.

قال: أستم تعلمون أن ربنا حتى لا يموت، و أن عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلى.

قال: أستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء و يحفظه و يرزقه؟

قالوا: بلى.

قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئا؟ قالوا: لا.

قال: ألستم تعلمون أنّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ قالوا: بلى.

قال: فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علم؟ قالوا: لا.

قال: فإنّ ربنا صوّر عيسى في الرحم كيف شاء وربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث.

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أنّ عيسى حملته أمّه كما تحمل المرأة، ثمّ وضعت كما تضع المرأة ولدها، ثمّ غذى كما يغذى الصبي، ثمّ كان يطعم و يشرب و يحدث؟ قالوا: بلى.

قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ فسكتوا فأنزل الله فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آيه (١).

## التفسير

### اشاره

### تفسير الحروف المقطعه بالعقول الإلكترونيه:

فيما يتعلّق بالحروف المقطعه في القرآن، سبق الحديث عنها في بدايه سورة البقره، فلا موجب لتكرار ذلك. و ما ينبغي عرضه هنا هو النظرية المثيره التي تقدّم بها مؤخرا عالم مصرى نورد هنا خلاصه لها لأهميتها، لا شك أنّ الحكم على صحتها أو بطلانها يستلزم بحوثا دقيقه يقع عبؤها على الأجيال القادمه. إنّما

ص: ٣٧٩

نوردها كنظريه لا غير (١).

مجله «آخر ساعه» المصريه المعروفه نشرت تقريراً عن تحقيقات عجيبيه قام بها عالم مصري مسلم بخصوص تفسير بعض آيات القرآن المجيد بوساطه العقول الإلكترونيه أثارت إعجاب الناس في مختلف أنحاء العالم.

تلك التحقيقات التي أجراها الدكتور «رشاد خليفه» العالم الكيماويّ المصري خلال ثلاث سنوات متواصله، أثبتت أنّ هذا الكتاب السماويّ العظيم ليس من نتاج عقل بشري، وأنّ الإنسان غير قادر على الإتيان بمثله.

أجرى الدكتور رشاد تحقيقاته في مدينه «سانت لويس» بمقاطعه «ميسوري» الأمريكيه و استخدم في تحقيقاته العقول الإلكترونيه لفترات طويله مع أنّ أجرتها في كلّ دقيقه ١٠ دولارات تبرّع بها المسلمون المقيمون هناك.

كان كلّ جهد الأستاذ المذكور ينصبّ على معرفه معانى الحروف المقطّعه في القرآن، مثل «ق، الم، يس». لقد استطاع بحسابات معقّده أن يثبت وجود علاقه قويه بين هذين الحروف و السوره التي تقطع في صدرها (فتأمل).

لقد استعان بالعقل الإلكتروني لإجراء تلك الحسابات الخاصّه لمعرفه أعداد حروف السور و نسبه وجود كلّ حرف منها، لا لتفسير القرآن.

و لولا هذه الأجهزه ما استطاع أحد أن يجرى تلك الحسابات على الورق.

و الآين نوجز الاكتشافات الذي توصل إليه العالم المصري: يقول الدكتور رشاد: نعلم أنّ القرآن يضمّ ١١٤ سوره، منها ٨٦ سوره نزلت في مكّه و ٢٨ سوره في المدينه، و من بين مجموع سور القرآن ٢٩ سوره تبدأ بحروف مقطعه.

من الجدير بالذكر أنّ مجموع هذه الحروف يبلغ نصف حروف الهجاء العربيه، و هي (أ-ح-ر-س-ص-ط-ع-ق-ك-ل-م-ن-ه-ي) و قد يصفونها بالحروف التّيره.

ص: ٣٨٠

١ - ١) - مع الأسف أنّ هذا العالم الذي يعيش في أمريكا، وقع تحت تأثير المحيط الفاسد هناك و قد أنكر بصراحه بعض المسائل و الأحكام الإسلاميه المسلمه ما دعا ادعاءات باطله.

يقول الدكتور: منذ سنوات وأنا أحب أن أعرف معنى هذه الحروف التي تبدو في الظاهر أنها مقطعه و تتصدّر بعض السور. و على الرغم من رجوعى إلى تفاسير مشاهير المفسّرين فلم أعثر لديهم على جواب مقنع، فاستنعت بالله و أتكلت عليه و بدأت بحتى:

خطر لى مرّه أنّه ربما تكون هناك علاقته بين هذه الحروف و حروف كلّ سورة تتصدّرها. غير أنّ دراسه الحروف الثّيره الأربعة عشر كلّها ضمن حروف سور القرآن المائه و أربه عشر و استخراج نسبه كلّ حرف و الحسابات الكثيره الأخرى لم تكن من الأمور التى يمكن إجراؤها دون الاستعانه بالعقول الإلكترونيه. لذلك شرعت أولاً بتعيين تلك الحروف منفرده فى جميع سور القرآن، ثمّ تعيين مجموع حروف كلّ سورة، و أعطيتها جميعاً إلى العقل الإلكتروني مع رقم كلّ سورة (لغرض القيام بالحسابات المعقّده المطلوبه فيما بعد). لقد استغرق هذا العمل مع مقدّماته سنتين من الزمان.

ثمّ عملت على العقل الإلكتروني لإجراء تلك الحسابات مدّه سنه كامله.

كانت النتائج لامعه جدّاً، و كشف الستار لأوّل مرّه فى تاريخ الإسلام عن حقائق مذهله أكّدت إعجاز القرآن (إضافه إلى أمور أخرى) من الناحيه الرياضيه و نسبه حروف القرآن.

لقد أوضحت لنا حسابات العقل الإلكتروني نسبه وجود كلّ من الحروف الأربعة عشر فى كلّ سورة من سور القرآن المائه و أربه عشر.

فمثلاً- بالحسابات و جدنا أن نسبه حرف القاف، و هو أحد الحروف النورانيه فى القرآن فى سورة «الفلق» تحوز أعلى نسبه (٦٠٠/٠٠٪) و تحوز المرتبه الأولى بين سور القرآن، طبعاً باستثناء سورة «ق». بعدها تأتي سورة «القيامه» التى يبلغ فيها عدد حروف القاف بالنسبه إلى حروف السوره (٣٠٧/٠٣٪)، ثمّ تأتي سورة «و الشمس» و نسبتها (٣٠٦/٠٣٪).

و نلاحظ من ذلك أنّ الفرق بين سورة «القيامة» و سورة «و الشمس» يبلغ (١٠٠/٠٪).

و هكذا استخراجنا هذه النسبه في ١١٤ سورة لهذا الحرف و لسائر الحروف النورانيه الأخرى، و بذلك ظهرت نسبه مجموعه حروف كلّ سورة إلى كلّ حرف من الحروف النورانيه.

و فيما يلي النتائج المشيره التي توصل إليها التحقيق:

١-نسبه حرف «ق» في سورة «ق» أكثر من نسبتها في أيه سورة أخرى بدون استثناء. أي أنّ الآيات التي نزلت طوال ٢٣ سنه-و هي فتره نزول القرآن، في ١١٣ سورة استعملت فيها القاف بنسبه أقل، إنّه مثير و مدهش أن يكون إنسان قادر على مراقبه تعداد كلّ حرف من الحروف التي يستعملها على مدى ٢٣ سنه، و في الوقت نفسه يعرب بكلّ طلاقه و بدون أي تكلف عمّا يريد بيانه. لا شكّ أنّ أمرا كهذا خارج عن نطاق قدره الإنسان، بل أنّ مجرد حساب ذلك يتعدّد على أعظم العقول الرياضيه بدون الالتجاء إلى العقل الإلكتروني.

و هذا كلّه يدلّ على أنّ سور القرآن و آياته ليست وحدها الموضوعه وفق حساب معين، بل حتّى حروفه موضوعه بحساب و نظام خاصّ لا يقدر عليه سوى الله تعالى.

كذلك دلّت الحسابات على أنّ حرف «ص» في سورة «ص» له هذه الخاصيه نفسها، أي نسبه وجوده في هذه السوره أكثر من نسبه وجوده في أيه سورة أخرى من سورة القرآن.

كما أنّ حرف «ن» في سورة «ن و القلم» يمتاز بنسبه أعلى من وجوده في أيه سورة أخرى.

الاستثناء الوحيد هو سورة «الحجر» التي فيها نسبه الحرف «ن» أكثر من سورة «ن و القلم». و لكن ما يلفت هو أنّ سورة «الحجر» تبدأ بالحروف «الر».

و سنجد أنّ السور التي تبدأ بحروف «الر» يجب أن تعتبر بحكم السوره الواحده.

فإذا فعلنا ذلك نصل إلى النتيجة المطلوبه أى أنّ عدد حرف «ن» في هذه السور سوف يكون أقلّ مما في سوره «ن و القلم».

٢-حروف «المص» في بدايه سوره الأعراف إذا حسبنا حروف الألف و الميم و الصاد في هذه السوره نجدها أكثر ممّا هي في آيه سوره أخرى.

كذلك «المر» في بدايه سوره «الرعد» و «كهيعص» في بدايه سوره «مريم»، إذا حسبت الأحرف الخمس كان عددها في هذه السوره أكثر ممّا هي في السور الأخرى.

و هنا تواجهنا ظاهره جديده، فالحرف الواحد ليس هو وحده الذى يرد بحساب في السور، بل أنّ مجموعات الأحرف أيضا تأتي هكذا بشكل مدهش.

٣- كان الكلام حتّى الآن يدور على الحروف التي تتصدّر سوره واحده من سوره القرآن، أمّا الحروف التي تتصدّر سورا متكرّره، مثل «الر، ألم» فإنّها تتخذ شكلا آخر، فالحسابات الإلكترونيه تقول إنّ مجموع هذه الحروف الثلاث، مثلا «أل م» إذا حسبت في مجموع السور التي تتصدّرها، و تستخرج نسبتها إلى مجموع حروف هذه السور، نجد أنّ هذه النسبه أكبر من نسبه وجودها في السور الأخرى من القرآن.

هنا أيضا تتخذ المسأله شكلا مشيرا و هو أنّ حروف كلّ سوره من سور القرآن ليست هي وحدها التي تقع تحت الضبط و الحساب. بل أنّ مجموع حروف السور المتشابهه تقع تحت حساب متشابه أيضا.

و بهذه المناسبه يتّضح أيضا لماذا تبدأ عدّه سور مختلفه بالحروف «الم» أو «الر» و هذا لم يكن من باب المصادفه و الاتفاق.

يقوم الدكتور رشاد بحسابات أعقد على السور التي تتصدّرها «حم» لا نتطرق إليها اختصارا.

و يصل الأستاذ المذكور من خلال دراساته هذه إلى حقائق واستنتاجات أخرى أيضا نوردتها للقراء الكرام:

### ١- لا بدّ من الإبقاء على إملاء القرآن الأصلي

يقول الدكتور: إنّ هذه الحسابات تصحّ في حالة الإبقاء على الإملاء الأصلي في كتابه القرآن، مثل: اسحق و زكوه و صلوه، فلا نكتبها إسحاق و زكاه و صلاه، وإلا فإنّ الحسابات تختل.

### ٢- دليل على عدم تحريف القرآن

هذه التحقيقات تدلّ على أنّ أيّ تحريف-و لو في كلمه واحده-لم يطرأ على القرآن من حيث الزيادة و النقصان، و إلاّ- لما ظهرت هذه الحسابات على هذه الصوره.

### ٣- إشارات عميقه المعنى

في كثير من السور التي تبدأ بالحروف المقطعه نلاحظ أنّه بعد الحروف تأتي الإشارة إلى صدق القرآن و عظمته، مثل: الم\*  
ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ (١)، و هذه في نفسه إشاره ظريفه إلى علاقه هذه الحروف بإعجاز القرآن.

### نتيجه البحث

نستنتج من هذا البحث أنّ حروف القرآن الكريم الذي نزل على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم على مدى ٢٣ سنه تنتظم في حساب دقيق، فكلّ حرف من حروف الهجاء له مع مجموع حروف كلّ سوره نسبه رياضيه دقيقه بحيث إنّ الحفاظ على هذا التنظيم و الحساب يتعدّد على البشر بدون العقول الإلكترونيه.

لا- شكّ أنّ التحقيقات التي أجرها العالم المذكور ما زالت في بدايه الطريق و لا- تخلو من النقائص. فيجب أن تتظافر جهود الآخرين للتغلب عليها.

ص: ٣٨٤

فى الآيه الثانیه يقول تعالى: **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** .

سبق أن شرحنا هذه الآيه فى سورة البقره فى الآيه ٢٥٥.

الآيه التى تليها تخاطب نبي الإسلام و تقول: **إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ الَّذِي فِيهِ دَلَالٌ الْحَقِّ وَ الْحَقِيقَةُ، وَ هُوَ يَتطابَقُ تَمَامًا مَعَ مَا جَاءَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ وَ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ (التوراه و الإنجيل) الَّتِي بَشَّرْتَ (١) بِهِ وَ قَدْ أَنْزَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى أَيْضًا لِهَدَايَةِ الْبَشَرِ: نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَ أَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ . ثُمَّ تَضِيفُ الْآيَةَ وَ أَنْزَلَ الْفُرْقَانَ .**

و بعد إتمام الحجّه بنزول الآيات الكريمة من الله تعالى و شهاده الفطره و العقل على صدق دعوه الأنبياء، فلا سبيل للمخالفين سوى العقوبه، و لذلك تقول الآيه محلّ البحث بعد ذكر حقائقه الرسول الأكرم و القرآن المجيد: **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ .**

و من أجل أن لا يتوهم أحد أو يشك فى قدره الله تعالى على تنفيذ تهديداته تضيف الآيه و **اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٢) .**

(عزيز) فى اللغه بمعنى كلّ شىء صعب و غير قابل للنفوذ، و لذلك يقال للأرض الصعبه العبور (عزاز) و كذلك يطلق على كلّ أمر يصعب الحصول عليه لقلته و ندرته (عزيز) و كذلك تطلق هذه الكلمه على الشخص القوى و المقتدر الذى يصعب التغلب عليه أو يستحيل التغلب عليه، و كلمّا أطلقت كلمه (عزيز) على الله تعالى يراد بها هذا المعنى، أى أنه لا أحد يقدر على التغلب عليه، و أنّ كلّ المخلوقات خاضعه لمشيئته و إرادته.

و فى الجملة الآنفه الذكر و لكى يعرف الكفار أنّ هذا التهديد جادّ تماما تذكّرهم الآيه بأنّ الله عزيز، أى أنه قاهر و ما من أحد يستطيع أن يقف بوجه تنفيذ

ص: ٣٨٥

١- ١) - انظر الجزء الأول ص ١٤٦ فى تفسير الآيه ٤٠ من سورة البقره، شرح (مصدقًا لما بين يديه).

٢- ٢) - ذكر بعض المفسرين أن «ذو» لها معنا أقوى من «صاحب» و لذلك لا نجد فى صفات الله أنها تذكر معنى كلمه صاحب بل تذكر دائما مع كلمه «ذو» البحر المحيط: ج ٢ ص ٣٧٩.



تهديداته و أنه فى الوقت الذى يكون فيه عفورا رحىما يكون شديد العقاب بالنسبه لمن لا يستحقون هذه الرحمه.

كلمه (الانتقام) تستعمل غالبا فى مفهومنا الحالى فى لجوء شخص لا يستطيع أن يتسامح مع الآخرين و يغفر لهم أخطاءهم إلى عمل مقابل قد يكون عنيفا لا يأخذ حتى مصلحته الخاصه بنظر الإعتبار، و بديهى أن هذه الصفه مذمومه، إذ أن على الإنسان فى كثير من الحالات أن يعفو و يغفر بدلا من الانتقام، و لكنّ (الانتقام) فى اللغه ليس بهذا المعنى بل يعنى إنزال العقاب بالمجرم، و لا شكّ أن معاقبه المجرمين العصاه فضلا عن كونها من الأمور الحسنه فإنه لا يجوز التهاون فيها و إهمالها لأن ذلك يجانب العداله و الحكمه.

هنا لا بدّ من ملاحظه ما يلى:

١- أصل (الحقّ) المطابقه و الموافقه، لذلك يقال لما يطابق الواقع «الحق». كما أن وصف الله بالحقّ ناشئ من كون ذاته القدسيه أعظم واقع غير قابل للإنكار.

و بعباره أخرى «الحق» هو الموضوع الثابت المكين الذى لا باطل فيه.

و الباء فى «الحق» فى هذه الآيه للمصاحبه، أى يا أيها النبى لقد أنزل عليك الله القرآن مصحوبا بدلائل الحقّ.

٢- «التوراه» لفظه عبريه تعنى «الشريعه و القانون»، و أطلقت على الكتاب الذى أنزل الله على موسى بن عمران عليه السلام. و قد تطلق أيضا على مجموعه كتب العهد القديم أو أسفاره الخمسه.

إنّ مجموعه كتب العهد القديم تتألف من التوراه و عدد من الكتب الأخرى.

و التوراه تتألف من خمسه أقسام، كلّ قسم يسمّى «سفرا» و هى: «سفر التكوين» و «سفر الخروج» و «سفر لاوى» و «سفر الاعداد» و «سفر التثنيه». هذه الأقسام من العهد القديم تشرح تكوين العالم و الإنسان و المخلوقات و بعضا من سير الأنبياء السابقين و موسى بن عمران و بنى إسرائيل و الأحكام.

أمّا الكتب الأخرى فهى ما كتبه المؤرّخون بعد موسى عليه السلام فى شرح أحوال

الأنبياء و الملوك و الأقوام التي جاءت بعد موسى بن عمران عليه السّلام.

بديهي أنّ هذه الكتب-عدا الأسفار الخمسه-ليست كتباً سماويه و اليهود أنفسهم لا- يدعون ذلك. و حتّى «زبور» داود الذي يطلقون عليه اسم «المزامير» هو شرح مناجاه داود و مواعظه.

أمّا أسفار التوراه الخمسه ففيها دلائل تشير إلى أنّها ليست من الكتب السماويه، بل هي كتب تاريخيه دوّنت بعد موسى بن عمران عليه السّلام، إذ فيها بيان موت موسى عليه السّلام و مراسيم دفنه، و بعض الحوادث التي وقعت بعده، على الأخصّ الفصل الأخير من سفر التثنيه الذي يثبت أنّ هذا الكتاب قد كتب بعد موت موسى عليه السّلام.

يضاف إلى ذلك أنّ في هذه الكتب الكثير من الخرافات و هي تنسب أموراً فاضحه للأنبياء، و بعض الأقوال الصبيانيه، ممّا يؤكّد زيف هذه الكتب. و الشواهد التاريخيه تؤكّد أنّ التوراه الأصليه قد ضاعت، و أنّ أتباع موسى هم الذين كتبوا هذه الكتب بعده (١).

٣- «الإنجيل» كلمه يونانيه بمعني «البشاره» أو «التعليم الجديد» و تطلق على الكتاب الذي نزل على عيسى بن مريم عليه السّلام. و من الجدير بالتنويه أنّ القرآن كلّما أورد اسم كتاب عيسى عليه السّلام «الإنجيل» جاء به مفرداً و على أنّه قد نزل من الله.

و عليه فإنّ الأناجيل المتداوله بين أيدي المسيحيين، و حتّى الأشهر منها، هي الأناجيل الأربعة «لوقا، و مرقس، و متى، و يوحنا» ليست من الوحي الإلهي، و هذا ما لا ينكره المسيحيون أنفسهم، إذ يقولون إنّ هذه الأناجيل قد كتبت بأيدي تلامذه السيّد المسيح عليه السّلام بعده بمده طويله. و لكنهم يزعمون أنّ أولئك التلامذه قد كتبوا بإلهام من الله.

هنا يحسن بنا أن نتعرّف -و لو بإيجاز- على «العهد الجديد» و الأناجيل و كتابها:

ص: ٣٨٧

إنَّ أهم كتاب ديني عند المسيحيين و الذي يعتمدونه على أنه كتاب سماوي هو المجموعه التي يطلق عليها اسم «العهد الجديد».

«العهد الجديد» الذي يبلغ نحو ثلث «العهد القديم» يتألف من ٢٧ كتابا و رساله تشمل موضوعات عامه متناثره و مختلفه، على النحو التالي:

١- إنجيل متى (١): و هو الإنجيل الذي كتبه «متى» أحد حواربي المسيح عليه السلام الاثني عشر في سنه ٣٨ ميلاديه، و بعض يقول في سنه ٥٠ أو ٦٠ ميلاديه (٢).

٢- إنجيل مرقس (٣): بحسب ما جاء في كتاب «القاموس المقدس» صفحه ٧٩٢، لم يكن مرقس من الحواريين، و لكنّه كتب إنجيله بإشراف «بطرس». قتل مرقس سنه ٦٨ م.

٣- إنجيل لوقا: كان «لوقا» رفيق سفر «بولس» الرسول. كان «بولس» على عهد المسيح يهوديا متعصبا، و لكنه اعتنق المسيحيه بعده. يقال إنه توفي في سنه ٧٠ م، و حسبما يقول مؤلف «القاموس المقدس» ص ٧٧٢: «إنَّ تاريخ كتابه إنجيل لوقا يعود إلى حوالى سنه ٦٣ م».

٤- إنجيل يوحنا: «يوحنا» كان من تلامذه المسيح عليه السلام و من أصحاب «بولس». يقول صاحب القاموس المذكور، اعتمادا على عدد من المحققين: إنه ألف في أواخر القرن الأول الميلادي (٤).

يتضح من محتويات هذه الأناجيل، التي تشرح عموما حكايه صلب المسيح و ما جرى بعد ذلك، أنّ جميع هذه الأناجيل قد كتبت بعد المسيح بسنوات و ليست كتبا سماويه نزلت على المسيح عليه السلام.

٥- أعمال الرسل: «أعمال الحواريين و دعاه الصدر الأول».

ص: ٣٨٨

١- (١) - متى: على وزن حتّى، بمعنى عطاء الله.

٢- (٢) - كتاب القاموس المقدس: ص ٧٨٢.

٣- (٣) - مرقس: على وزن قنفذ، و قيل على وزن أسهم، جمع سهم.

٤- (٤) - القاموس المقدس: ص ٩٦٦.

٦-رسائل بولس الأربعة عشره إلى جهات مختلفه.

٧-رساله يعقوب:«الرساله العشرون من الرسائل السبع و العشرين فى العهد الجديد».

٨-رسالتا بطرس:«الرسالتا ٢١ و ٢٢ من العهد الجديد».

٩-رسائل يوحنا:«الرسائل ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ من العهد الجديد».

١٠-رساله يهودا:«الرساله ٢٦ من العهد الجديد».

١١-مكاشفه يوحنا:«القسم الأخير من العهد الجديد».

استنادا إلى المؤرّخين المسيحيين و حسبما ورد فى هذه الأناجيل و الكتب و الرسائل فى العهد الجديد، فإنّ أيا منها ليس كتابا سماويا، بل هى كتب كتبت بعد المسيح عليه السّلام، و نستنتج من ذلك أنّ الإنجيل الأصيلى السماوى الذى نزل على المسيح عليه السّلام قد فقد و ليس له وجود الآن. إنّما تلامذه المسيح أدرجوا بعضا منه فى أناجيلهم و مزجوه-مع الأسف-بالخرافات.

أمّا القول بأنّ على المسلمين أن لا يشكّوا فى صحّحه الأناجيل و التوراه الموجوده-على اعتبار أنّ القرآن قد صدّقها و شهد لها- فإنّه قول مردود، و قد أجبنا عليه فى المجلّد الأوّل عند تفسير الآيه: وَ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ .

٤-بعد ذكر التوراه و الإنجيل، يشار إلى نزول القرآن، و لكنّه سمّى الفرقان، لأنّ لفظه«الفرقان» تستعمل فى التفريق بين الحقّ و الباطل و كلّ ما يميّز الحقّ عن الباطل يقال له«الفرقان». و لذلك يسمّى القرآن حرب بدر«يوم الفرقان» (١)، ففى ذلك اليوم انتصر فريق صغير مفتقر لكلّ أنواع المعدّات الحربيّه على جيش كبير مسلّح و متفوّق تفوّقا كبيرا. و كذلك يطلق على معجزات موسى عليه السّلام العشر اسم «الفرقان» أيضا (٢) .

ص: ٣٨٩

١- (١) - الأنفال: ٤١.

٢- (٢) - البقره: ٥٣.

اشاره

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦)

التفسير

اشاره

علم الله و قدرته المطلقة:

هاتان الآيتان تكملان الآيات السابقة التي قرأنا فيها أنّ الله تعالى حيّ و قيوم و هو مدبّر الكون بأجمعه و سيعاقب الكافرين المعاندين (حتّى لو لم يظهروا كفرهم و عنادهم) و من البديهي أنّ هذه الإحاطه و القدره لتدبير العالم بحاجه إلى علم غير محدود و قدره مطلقه، و لهذا أشارت الآيه الأولى إلى علم الله تعالى، و في الآيه الثانيه إلى قدرته المطلقة.

في البدايه تقول الآيه الشريفه إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ .

فكيف يمكن أن يخفى عن أنظاره شيء من الأشياء في حين أنّه حاضر و ناظر في كلّ مكان، فلا يخلو منه مكان، و بما أنّ وجوده غير محدود، فلا يخلو منه

مكان معين، و لهذا فهو أقرب إلينا من كل شيء حتى من أنفسنا، و في نفس الوقت الذي يتنزّه فيه الله تعالى عن المكان و المحل، فإنّه محيط بكل شيء، و هذه الإحاطة و الحضور الإلهي بالنسبة لجميع المخلوقات بمعنى (العلم الحضوري) لا (العلم الحصولي) (1).

ثمّ تبين الآيه التاليه واحده من علم و قدره الله تعالى الرائعه، بل هي في الحقيقه إحدى روائع عالم الخلقه و مظهر بارز لعلم الله و قدرته المطلقه حيث تقول الآيه هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ثُمَّ تَصِيفُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

إنّه لأمر عجيب و محير حقاً أن يصوّر الله الإنسان و هو في رحم أمه صوراً جميله و متنوّعه في أشكالها و مواهبها و صفاتها و غرائزها.

و هذه الآيه تؤكّد أنّ المعبود الحقيقي ليس سوى الله القادر الحكيم الذي يستحقّ العباده، فلما ذا إذن يختارون مخلوقات كالمسيح عليه السلام و يعبدونها، و لعلّ هذه العبارة إشاره إلى سبب النزول المتقدّم في بدايه السوره من أنّ المسيحيين أنفسهم يوافقون على أنّ المسيح كان جنيناً في بطن أمه مريم، ثمّ تولّد منها، إذن فهو مخلوق و ليس بخالق فكيف يكون معبوداً؟!

**بحوث**

**إشارة**

### 1- مراحل تطوّر الجنين من روائع الخلق

إنّ عظمه مفهوم هذه الآيه تجلّت اليوم أكثر من ذي قبل نتيجة للتقدّم الكبير

ص: ٣٩١

1-1) العلم الحضوري: يعني أن يكون المعلوم ذاته حاضراً عند العلم. أمّا في العلم الحصولي فإنّ الحاضر عند العالم هو صورته المعلوم و رسمه، فمثلاً أنّ علمي بنفسى علم حضوري لأنّ نفسى ذاتها حاضره في نفسى، أمّا بالنسبة للموجودات الأخرى فعلمنا بها حصولي، لأنّ صورتها فقط هي الحاضره في أذهاننا.

فى علم الأجنه.فهذا الجنين يبدأ بخليه،لا شكل لها ولا هيكل ولا أعضاء ولا أجهزه.و لكنها تتخذ أشكالا مختلفه كل يوم و هى فى الرحم،و كأنّ هناك فريقا من الرسامين المهرة يحيطون بها و يشتغلون عليها-ليل نهار و بسرعه عجيبه-ليصنعوا من هذه الذره الصغيره و فى وقت قصير إنسانا سويا فى الظاهر،و فى جوفه أجهزه دقيقه رقيقه متعقده و محيره.لو أنّ فيلما صور مراحل تطوّر الجنين-و قد صور فعلا-و شاهده الإنسان يمرّ من أمام عينيه لأدرك بأجلى صورته عظمه الخلق و قدره الخالق.

و العجيب فى الأمر أنّ كلّ هذا الرسم يتمّ على الماء الذى يضرب به المثل فى عدم احتفاظه بما يرسم عليه.

من الجدير بالذكر أنّه عند ما يتمّ اللقاح و يخلق الجنين للمرّه الأولى يسرع بالانقسام التصادى على هيئه ثمرة التوت التى تكون حبّاتها متلاصقه،و يطلق عليه اسم«مرولا».و فى غضون هذا التقدّم تخلق«المشيمه»و تتكامل،و تتصل من جهه قلب الأم بوساطه شريانين و وريد واحد،و من الجهه الأخرى تتصل بسرّه الجنين الذى يتغذى على الدم القادم إلى المشيمه.

و بالتدريج و على أثر التغذية و التطور و اتجاه الخلايا نحو الخارج يتجوّف باطن«المولا»،و عندئذ يطلق عليه اسم«البلاستولا»،و لا تلبث هذه حتى يتكاثر عدد خلاياها،مؤلفه كيسا ذا جدارين،ثمّ يحدث فيه انخفاض يقسم الجنين إلى قسمى الصدر و البطن.

إلى هنا تكون جميع الخلايا متشابهه و لا اختلاف بينها فى الظاهر.و لكن بعد هذه المرحله يبدأ الجنين بالتصوّر،و تتشكّل أجزاءه بأشكال مختلفه بحسب وظيفتها المستقبلية،و تتكون الأنسجه و الأجهزه،و تقوم كلّ مجموعه من الخلايا ببناء أحد أجهزه الجسم و صياغته،كالجهاز العصبى و جهاز الدوره الدمويه،

و جهاز الهضم، و غيرها من الأجهزة، حتّى يصبح الجنين بعد هذه المراحل من التطور فى مخبئه الخفى فى رحم أمّه إنسانا كامل الصورة. و سوف ندرج-بمشيئه الله- شرحا كاملا لتطور الجنين و مراحل تكامله فى تفسير الآيه ١٢ من سوره «المؤمنون».

٢- (أرحام) جمع (رحم) يعنى فى الأصل محل نموّ الجنين فى بطن الأمّ، ثم أطلق على جميع الأقرباء الذين يشتركون فى أمّ واحده المتولّدون من أمّ واحده، و بما أنّ حاله من المحبّه و العطف و الحنان ترتبط بين هؤلاء الأفراد أطلقت هذه المفرده على كلّ عطف و حنان (رحمه)، و يرى البعض أنّ المفهوم من هذه الكلمه بالعكس، أى أنّ المفهوم الأصلي لها هو رقه القلب و العطف و المحبّه، و لكن بما أنّ الأقرباء و الأرحام يشتركون فى هذه الصفه فيما بينهم أطلق على المكان الذى تولّدوا منه كلمه (رحم).



اشاره

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ  
إِغْتَاءَ الْفِتْنَةِ وَإِغْتَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَنْ يَعْلَمْ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو  
الْأَلْبَابِ (٧)

سبب النزول

جاء في تفسير «نور الثقلين» (١) نقلا عن كتاب «معاني الأخبار» حديث عن الإمام الباقر عليه السلام ما مضمونه: أن نفرا من اليهود  
و معهم «حى بن أخطب» و أخوه، جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و احتجوا بالحروف المقطعه «الم» و  
قالوا: بموجب حساب الحروف الأبجديه، فإن الألف في الحساب الأبجدي تساوى الواحد، و اللام تساوى ٣٠، و الميم تساوى  
٤٠، و بهذه فإن فتره بقاء أمتك لا تزيد على

ص: ٣٩٤

إحدى و سبعين سنة! و من أجل أن يلجمهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم تساءل و قال ما معناه:

لماذا حسبتم «ألم» و حدها؟ ألم تروا أنّ فى القرآن «المص» و «الر» و نظائرها من الحروف المقطّعه، فإذا كانت هذه الحروف تدلّ على مدّه بقاء أمتى، فلما ذا لا تحسبونها كلّها؟ (مع أنّ القصد من هذه الحروف أمر آخر) و عندئذ نزلت هذه الآية.

فى تفسير «فى ظلال القرآن» سبب نزول آخر ينسجم من حيث النتيجة مع سبب النزول المذكور، و هو أنّ جمعا من نصارى نجران جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم متذرعين بقول القرآن «كلمه الله و روحه» بشأن المسيح عليه السلام فى محاوله منهم لاستغلالها بخصوص مسأله «التثليث» و «ألوهية» المسيح، متجاهلين كلّ الآيات الأخرى الصريحة فى عدم وجود شريك أو شبيه لله إطلاقا، فنزلت الآية المذكوره تردّ عليهم.

## التفسير

## اشاره

## المحكم و المتشابه فى القرآن:

تقدّم فى الآيات السابقه الحديث عن نزول القرآن بعنوان أحد الدلائل الواضحه و المعجزات البينه لنبوّه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، وفى هذه الآية تذكر أحد مختصات القرآن و كيفيه بيان هذا الكتاب السماوى العظيم للمواضيع و المطالب فيقول فى البدايه: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ .

أى آيات صريحه و واضحه و التى تعتبر الأساس و الأصل لهذا الكتاب السماوى هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ، ثم أنّ هناك آيات أخرى غامضه بسبب علوّ مفاهيمها و عمق معارفها أو لجهات أخرى و أُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ .

هذه الآيات المتشابهه إنّما ذكرت لاختبار العلماء الحقيقيين و تميزهم عن الأشخاص المعاندين اللجوجين الذين يطلبون الفتنة، فلذلك تضيف الآية:

فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ

يفسِّرون هذه الآيات المتشابهة وفقا لأهوائهم كيما يضلُّوا الناس و يسبِّهوا عليهم فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ (١) فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ .

ثم تصيف الآية: أن هؤلاء أي الراسخون في العلم بسبب دركهم الصحيح لمعنى المحكمات و المتشابهات يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا أَجَلٌ وَ مَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ .

## بحوث

## إشارة

في هذه الآية مباحث مهمّة ينبغي بحثها بشكل مستقل كل على حده:

### ١- ما المقصود بالآيات المحكمه و المتشابهه؟

«المحكم» من «الإحكام» و هو المنع. و لهذا يقال للمواضيع الثابتة القويّه «محكمه» أي أنها تمنع عن نفسها عوامل الزوال. كما أن كل قول واضح و صريح لا يعتوره أي احتمال للخلاف يقال له «قول محكم».

و عليه فإن الآيات المحكمات هي الآيات ذات المفاهيم الواضحة التي لا مجال للجدل و الخلاف بشأنها، كآية: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (٢) و لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (٣) و اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٤) و لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ (٥) و آلاف أخرى

ص: ٣٩٦

١- ١) - «زيغ» في الأصل. بمعنى الانحراف عن الخط المستقيم و التمايل إلى جهه، و الزيغ في القلب بمعنى الانحراف العقائدى عن صراط المستقيم.

٢- ٢) - سورة الإخلاص: ١.

٣- ٣) - الشورى: ١١.

٤- ٤) - الزمر: ٢٦.

٥- ٥) - النساء: ١١.

مثلها ممّا تتعلّق بالعقائد و الأحكام و المواعظ و التواريخ، فهي كلّها من «المحكّمات».

هذه الآيات المحكّمات تسمّى في القرآن «أم الكتاب» أي هي الأصل و المرجع و المفسّره و الموضّحه للآيات الأخرى.

و«المتشابه» هو ما تتشابه أجزاءه المختلفه. و لذلك فالجمل و الكلمات التي تكون معانيها معقّده و تنطوي على احتمالات مختلفه، توصف بأنّها «متشابهه».

و هذا هو المقصود من وصف بعض آيات القرآن بأنّها «متشابهات»، أي الآيات التي تبدو معانيها لأوّل وهله معقّده و ذات احتمالات متعدّده، و لكنّها تتّضح معانيها بعرضها على الآيات المحكّمات.

و على الرغم من أنّ المفسّرين أوردوا احتمالات متعدّده في تفسير «المحكّم» و«المتشابه» (1)، و لكن الذي قلناه يناسب المعنى الأصلي لهذين المصطلحين كما يتّفق مع سبب نزول الآيه، و كذلك مع الأحاديث الواردة في تفسير هذه الآيه، و مع الآيه نفسها، لأننا نقرأ بعد ذلك أن المغرضين يتّخذون من الآيات المتشابهات وسيله لإثارة الفتنة. و هم بالطبع يبحثون لهذا الغرض عن الآيات التي لها تفسيرات متعدّده. و هذا نفسه يدلّ على أن معنى «المتشابه» هو ما قلناه.

و يمكن إدراج بعض الآيات التي تخصّ صفات الله و المعاد كنماذج من الآيات المتشابهات، مثل **يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** (2) بشأن قدره الله، و **اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** (3) بشأن علم الله، و **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ** (4) بشأن طريقه حساب الأعمال.

بديهي أنّ الله لا يد له «بمعنى العضو» و لا أذن «بالمعنى نفسه» و لا ميزان مثل

ص: ٣٩٧

١ - ١) - ذكر «الطبرسي» في مجمع البيان خمسه تفاسير لذلك، و ذكر «الفخر الرازي» أربعة أقوال و«العلامة» في الميزان ستة عشر قولاً و في «البحر المحيط» عشرين قولاً تقريباً عن تفسيرها.

٢ - ٢) - الفتح: ١٠٠.

٣ - ٣) - البقره: ٢٢٤.

٤ - ٤) - الأنبياء: ٤٧.

موازينا يزن بها الأعمال. هذه كنايات عن مفاهيم كليّة لقدره الله و علمه و ميزانه.

و لا بدّ من الإشاره إلى أنّ كلمتي «المحكم و المتشابه» قد وردتا في القرآن بمعنى آخر. ففي أوّل سورة هود نقراً: **كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ** فهنا أشير إلى أنّ جميع آيات القرآن محكمات، و القصد هو قوّه الترابط و التماسك بينها. و في الآية ٢٣ من سورة الزمر نقراً: **كِتَاباً مُّتَشَابِهاً** أى الكتاب الذى كلّ آياته متشابهات، و هى هنا بمعنى التماثل من حيث صحتّها و حقيقتها.

يتّضح ممّا قلنا بشأن المحكم و المتشابه أنّ الإنسان الواقعيّ الباحث عن الحقيقة لا بدّ له لفهم كلام الله أن يضع الآيات جنباً إلى جنب ثم يستخرج منها الحقيقة. فإذا لاحظ في ظاهر بعض الآيات إبهاماً و تعقيداً، فعليه أن يرجع إلى آيات أخر لرفع ذلك الإبهام و التعقيد ليصل إلى كنهها.

تعتبر الآيات المحكمات في الواقع أشبه بالشارع الرئيسيّ، و المتشابهات أشبه بالشوارع الفرعيه، لا شكّ أنّ المرء إذا تاه في شارع فرعى سعى للوصول إلى الشارع الرئيسيّ ليتبيّن طريقه الصحيح فيسلكه.

إنّ التعبير عن المحكمات بأمر الكتاب يؤيّد هذه الحقيقة أيضاً، إذ أنّ لفظه «أم» في اللغة تعنى الأصل و الأساس، و إطلاق الكلمه على «الأم» أى الوالده لأنّها أصل الأسره و العائله و الملجأ الذى يفرع إليه أبناؤها لحلّ مشاكلهم. و على هذا فالمحكمات هى الأساس و الجذر و الأم بالنسبه للآيات الأخرى.

## ٢- لماذا تشابهت بعض آيات القرآن؟

إنّ القرآن جاء نورا لهدايه عموم الناس، فما سبب احتوائه على آيات متشابهات فيها إبهام و تعقيد بحيث يستغلّها المفسدون لاثاره الفتنه؟ هذا موضوع

مهمّ جدير بالبحث و التدقيق. و على العموم يمكن أن تكون النقاط التاليه هي السرّ في وجود المتشابهات في القرآن:

أولاً: إنّ الألفاظ و الكلمات التي يستعملها الإنسان للحوار هي لرفع حاجته اليوميه في التفاهم. و لكن ما إن نخرج عن نطاق حياتنا الماديّه و حدودها، كأن نتحدّث عن الخالق الذي لا يحده أيّ لون من الحدود، نجد بوضوح أنّ ألفاظنا تلك لا تستوعب هذه المعاني، فنضطر إلى استخدام ألفاظ أخرى و إن تكن قاصره لا تفي بالغرض تماما من مختلف الجهات. و هذا القصور في الألفاظ هو منشأ الكثير من متشابهات القرآن. إنّ آيات مثل **يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ (١)** أو **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٢)** أو **إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٣)** التي سوف يأتي تفسيرها في موضعه، تعتبر من هذه النماذج. و هناك أيضا تعبيرات مثل «سميع» و «بصير»، و لكن بالرجوع إلى الآيات المحكمات يمكن تفسيرها بوضوح.

ثانياً: كثير من الحقائق تختصّ بالعالم الآخر، أو بعالم ما وراء الطبيعه ممّا هو بعيد عن أفق تفكيرنا، و إنّنا-بحكم وجودنا ضمن حدود سجن الزمان و المكان، غير قادرين على إدراك كنهها العميق. قصور أفق تفكيرنا من جهة، و سَمَوِ تلك المعاني من جهة أخرى، سبب آخر من أسباب التشابه في بعض الآيات، كالتى تتعلّق بيوم القيامة مثلاً.

و هذا أشبه بالذى يريد أن يشرح لجنين في بطن أمّه مسائل هذا العالم الذى لم يره بعد، فهو إذا لم يقل شيئاً يكون مقصراً، و إذا قال كان لا بدّ له أن يتحدّث بأسلوب يتناسب مع إدراكه.

ص: ٣٩٩

١-١) -الفتح: ١٠.

٢-٢) -طه: ٥.

٣-٣) -القيامة: ٣.

ثالثا: من أسرار وجود المتشابهات فى القرآن إثارة الحركة فى الأفكار و العقول و إيجاد نهضة فكرية بين الناس. و هذا أشبه بالمسائل الفكرية المعقّده التى يعالجها العلماء لتقوية أفكارهم و لتعميق دقّتهم فى المسائل.

رابعا: النقطة الأخرى التى ترد بشأن وجود المتشابهات فى القرآن، و تؤيّدُها أخبار أهل البيت عليهم السّلام، هى أنّ وجود هذه الآيات فى القرآن يصعّد حاجه الناس إلى القاده الإلهيين و النّبىّ صلى الله عليه و آله و سلّم و الأوصياء، فتكون سببا يدعو الناس إلى البحث عن هؤلاء و اعتراف بقيادتهم عمليا و الاستفادة من علومهم الأخرى أيضا. و هذا أشبه ببعض الكتب المدرسيه التى أنيط فيها شرح بعض المواضيع إلى المدرّس نفسه، لكى لا تنقطع علاقه التلاميذ بأستاذهم، و لكى يستمرّوا-بسبب حاجتهم هذه- فى التزوّد منه على مختلف الأصعدة.

و هذا أيضا مصداق وصيّهِ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم حين

قال: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله و أهل بيتي و أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»

(١)

### ٣- ما التّأويل؟

الكلام كثير بشأن معنى «التأويل»، و الأقرب إلى الحقيقة هو أنّ «التأويل» من «الأول» أى الرجوع إلى الأصل، و هو إيصال العمل أو الكلام إلى الهدف النهائى المراد منه. فإذا أقدم أحد على عمل و لم يكن هدفه من هذا العلم واضحا، ثم يتوضّح ذلك فى النهايه، فهذا هو التأويل، كالذى نقرأه فى حكاية موسى عليه السّلام مع الحكيم الذى كان يقوم بأعمال غامضه الأهداف «مثل تحطيم السفينه» فكان هذا مدعاه لانزعاج موسى، و لكن عند ما شرح له الحكيم فى نهايه المطاف و عند

ص: ٤٠٠

الفراق أهداف تلك الأعمال، وأنه قصد إلى تخليص السفينه من الوقوع في يد سلطان غاصب و ظالم، ختم شرحه بقوله: **ذَلِكَ تَأْوِيلٌ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (١)**.

كذلك إذا رأى الإنسان رؤيا لا- توضح له نيتها، ثم تبين له تعبيرها بمراجعته شخص أو مشاهدته واقعه، فذلك هو تأويل الرؤيا، مثل يوسف عليه السلام الذى قال حين تحققت رؤياه الشهيره عمليا، أو بعبارة اخرى حين وصلت مرحلتها النهائيه **هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ (٢)**.

و هكذا إذا صدر عن الإنسان كلام فيه مفاهيم و أسرار خاصه تشكل الهدف النهائى لذلك الكلام، فذلك هو التأويل.

هذا هو معنى التأويل فى الآيه. أى أن فى القرآن آيات ذات أسرار و معان عميقه غير أن ذوى الأفكار المنحرفه و المقاصد الفاسده يضعون من عندهم تفسيراً لا أساس له من الصّحه و يستندون إليه لخداع أنفسهم أو غيرهم.

و عليه، فإن المقصود من **إِتِّغَاءِ تَأْوِيلِهِ** هو أن هؤلاء يريدون أن يؤولوا الآيات بصورة تخالف حقيقتها، أى ابتغاء تأويله على خلاف الحق.

و كما قرأنا فى سبب نزول هذه الآيه أن بعض اليهود أولوا تلك الحروف المقطعه فى القرآن تأويلاً لا يتفق مع الحقيقة، فقالوا إنها تحدّد عمر الإسلام. و هكذا المسيحيون أسأوا تأويل «روح منه» ليشبوا ألوهية المسيح عليه السلام. هذه كلها من قبيل «التأويل بخلاف الحق»، و إرجاعها إلى مقاصد بعيده عن الحقيقة.

#### ٤- من هم الراسخون فى العلم؟

هذا التعبير القرآنى ورد فى موضعين. هذا أحدهما هنا و الآخر فى سوره

ص: ٤٠١

١- ١) - سوره الكهف: ٨٢.

٢- ٢) - سوره يوسف: ١٠٠.



النساء، إذ يقول: لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ (١).

و بحسب المعنى اللغوي لهذه الكلمه، فإنها تعنى الذين لهم قدم ثابتة فى العلم و المعرفه.

طبيعى أن يكون معنى الكلمه واسعا يضم جميع العلماء و المفكرين، إلا- أن بين هؤلاء أفرادا متميزين لهم مكانتهم الخاصه، و يأتون على رأس مصاديق الراسخين فى العلم و تنصرف إليهم الأذهان عند استعمال هذه الكلمه قبل غيرهم.

و هذا هو الذى تقول به بعض الأحاديث التى تفسر الراسخين فى العلم بأنهم النبى صلى الله عليه و آله و سلم و أئمه الهدى عليهم السلام، فقد سبق أن قلنا إن لكلمات القرآن و مفاهيمه معانى واسعه، و من مصاديقها البارزه الشخصيات النموذجيه الساميه التى تذكر أحيانا وحدها فى تفسير تلك الكلمات و المفاهيم.

عن بريد بن معاويه قال: قلت لأبى جعفر «الباقر» عليه السلام: قول الله وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ قَالَ: «يعنى تأويل القرآن كله، إلا الله و الراسخون فى العلم، فرسول الله أفضل الراسخين، و قد علمه جميع ما أنزل عليه من التنزيل و التأويل، و ما كان الله منزلا عليه شيئا لم يعلمه تأويله و أوصياؤه من بعده يعلمونه كله» (٢).

و هناك أحاديث كثيره أخرى فى أصول الكافى (٣) و سائر كتب الحديث بهذا الشأن، جمعها صاحبنا تفسيرا «نور الثقلين» و تفسيرا «البرهان» فى ذيل هذه الآيه.

و كما قلنا فإن تفسير الراسخين بالعلم بأنهم النبى صلى الله عليه و آله و سلم و أئمه الهدى عليهم السلام

ص: ٤٠٢

١-١ - النساء: ١٦٢.

٢-٢ - تفسير العياشى: ج ١ ص ١٦٤.

٣-٣ - أصول الكافى: ج ١ ص ٢١٣.

لا يتعارض مع المفهوم الواسع الذى يشمل هذا التعبير، فقد نقل عن ابن عباس أنه قال «أنا أيضا من الراسخين فى العلم» إلا أن كل امرئ يتعرف على أسرار تأويل آيات القرآن بقدر سعته العلميه، فالذين يصدر عن علمهم عن علم الله اللامتناهى لا شك أعلم بأسرار تأويل القرآن، والآخرون يعلمون جزءا من تلك الأسرار.

## ٥- الراسخون فى العلم يعرفون معنى المشابهات

ثم نقاش هام يدور بين المفسرين والعلماء حول ما إذا كانت عبارة الراسخون فى العلم بدايه جمله مستقله، أم أنها معطوفه على إلا الله. وعبارة أخرى: هل أن معنى الآية و أنه ما يعلم تأويله إلا الله و الراسخون فى العلم؟ أم أنه ما يعلم تأويله إلا الله و الراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا؟ إن لكل فريق من مؤيدي هذين الاتجاهين أدلته و براهينه و شواهد. أما القرائن الموجوده فى الآية و الأحاديث المشهوره المنسجمه معها فتقول إن و الراسخون فى العلم معطوفه على «الله»، و ذلك:

أولا: يستبعد كثيرا أن تكون فى القرآن آيات لا يعلم أسرارها إلا الله وحده.

لم تنزل هذه الآيات لهدايه البشر و تربيتهم؟ فكيف يمكن أن لا يعلم بمعانيها و تأويلها حتى النبى الذى نزلت عليه؟ هذا أشبه بمن يؤلف كتابا لا يفهم معانى بعض أجزائه سواه! و ثانيا: كما يقول المرحوم الطبرسى فى «مجمع البيان»: لم يسبق أن رأينا بين علماء الإسلام و المفسرين من يمتنع عن تفسير آيه بحججه أنها من الآيات التى لا يعرف معناها سوى الله، بل كانوا جميعا يجدون و يجتهدون لكشف أسرار القرآن و معانيه.

و ثالثاً: إذا كان القصد هو أنّ الراسخين فى العلم يسلمون لما لا يعرفونه، لكان الأولى أن يقال: و الراسخون فى الإيمان يقولون آمناً به. لأنّ الرسوخ فى العلم يتناسب مع العلم بتأويل القرآن، و لا يتناسب مع عدم العلم به و التسليم له.

و رابعاً: أنّ الأحاديث الكثيره التى تفسّر هذه الآيه تؤكّد كلّها أنّ الراسخين فى العلم يعلمون تأويله، و عليه فيجب أن تكون معطوفه على «الله». الشىء الوحيد الباقي هو إنّ خطبه «الأشباح» للإمام على عليه السلام فى نهج البلاغه يستفاد منها أنّ الراسخين فى العلم لا يعلمون تأويل الآيات و يعترفون بعجزهم.

«و أعلم أنّ الراسخين فى العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبه دون الغيوب، الإقرار بجمله ما جهلوا تفسيره من الغيب الحجوب»

(١)

و لكن فضلاً عن كون هذه العبارة تناقض بعض الأحاديث المنقوله عنه عليه السلام التى قال فيها: إنّ الراسخين فى العلم معطوفه على «الله» و إنّهم عالمون بتأويل القرآن، فإنّها لا تنسجم أيضاً مع الأدلّه التى سبق ذكرها (٢). و عليه فيلزم تفسير هذه الجملة من خطبه «الأشباح» بما يتفق و الأساتيد الأخرى التى بين أيدينا.

## ٦- نتیجه الكلام فى تفسير الآيه

من كلّ ما مرّ قوله تفسيراً لهذه الآيه نستنتج أنّ آيات القرآن قسماً: قسم معانيها واضحه جدّاً بحيث لا يمكن إنكارها و لا إساءة تأويلها و تفسيرها، و هذه هى الآيات «المحكّمات». و قسم آخر مواضعها رفيعة المستوى، أو أنّها تدور حول عوالم بعيدة عن متناول أيدينا، كعلم الغيب، و عالم يوم القيامة، و صفات الله، بحيث إنّ معرفه معانيها النهائيه و إدراك كنه أسرارها يستلزم مستوى عالياً من

ص: ٤٠٤

١- ١) - نهج البلاغه: الخطبه ٩١.

٢- ٢) - انظر تفسير نور الثقلين: ج ١ ص ٣١٥.

العلم، وهذه هي الآيات «المتشابهات».

المنحرفون والشواذ من الناس يسعون لاستخدام إبهام هذه الآيات لتفسيرها بحسب أهوائهم و بخلاف الحق، لكي يثيروا الفتنة بين الناس و يضلّوهم عن الطريق المستقيم. بيد أنّ الله و الراسخين في العلم يعرفون أسرار هذه الآيات و يشرحونها للناس، فهم بعلمهم الواسع يفهمون المتشابهات كما يفهمون المحكمات، و لذلك فإنّهم يسلمون بها قائلين إنّها جميعا من عند الله: يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا .

و على هذا يكون الرسوخ في العلم سببا في أن يزداد الإنسان معرفه بأسرار القرآن. و لا شك أنّ الذين رسخوا في العلم أكثر من غيرهم- كالنبيّ صلى الله عليه و آله و سلّم و أئمّه الهدى- يعلمون جميع أسرار القرآن، بينما الآخرون يعلمون منها كلّ بقدر سعه علمه. و هذه الحقيقه هي التي تدفع الناس، و حتّى العلماء منهم، للبحث عن المعلمين الإلهيين ليتعلّموا منهم أسرار القرآن.

## ٧- وَ مَا يَذَكِّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ .

تشير هذه الجملة في ختام الآية إلى أنّ هذه الحقائق يعرفها المفكّرون و حدهم، فهم الذين يدركون لماذا ينبغي أن يكون في القرآن «محكمات» و «متشابهات»، و هم الذين يعلمون أنّه يجب وضع المتشابهات إلى جانب المحكمات لكشفها. لذلك فقد نقل

عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام أنه قال:

«من ردّ متشابه القرآن إلى محكمه هدى إلى صراط مستقيم»

(١)

ص: ٤٠٥

(١-١) - تفسير الصافي في تفسير الآية.

اشاره

رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا بَعِيدًا إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩)

التفسير

اشاره

النجاه من الزيغ:

بالنظر لاحتمال أن تكون الآيات المتشابهات و أسرارها موضع زلل الناس، فإنّ الراسخين في العلم المؤمنين يلجأون إلى ربهم إضافة إلى استعمال أسمالهم العلمى فى إدراك حقيقه الآيات. و هذا ما تبينه هاتان الآيتان على لسان الراسخين فى العلم، و تقولان إنّ الراسخين فى العلم و المفكرين من ذوى البصيره لا- يفتأون يراقبون أرواحهم و قلوبهم لئلاّ- ينحرفوا نحو الطرق الملتويه، فيطلبون لذلك العون من الله. فالغرور العلمى يخرج بعض العلماء عن مسيرهم إلى متاهات الضلال، لأنهم يلتفتون إلى عظمه الخلق و الخالق و تفاهه ما عندهم من علم، فيحرمون من هدايه الله. أمّا العلماء المؤمنون فيقولون: رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا... .

و ليس أشدّ تأثيراً في السيطره على الميول و الأفكار من الاعتقاد بيوم القيامة و المعاد. إنّ الراسخين في العلم يصحّحون أفكارهم عن طريق الاعتقاد بالمبدأ و المعاد، و يحولون دون التأثير بالميل و الأحاسيس المتطرّفه التي تؤدّي إلى الزلل، و نتيجة لذلك يستقيمون على الصراط المستقيم بأفكار سليمة و دون عائق.

نعم هؤلاء هم القادرون على الاستفادة من آيات الله كلّ الاستفادة.

في الحقيقة تشير الآية الأولى إلى إيمان هؤلاء الكامل «بالمبدأ»، و تشير الآية الثانية إلى إيمانهم الراسخ «بالمعاد».

ص: ٤٠٧

إشارة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١)

التفسير

بعد بيان مواقف الكفار والمنافقين و المؤمنين من الآيات «المحكمات» و«المتشابهات» في الآيات السابقة، تقول هذه الآية: إذا كان الكفار المعاندون يحسبون أنهم بثرواتهم و أبنائهم قادرون على الدفاع عن أنفسهم في الآخرة فهم على خطأ كبير، فهذه الوسائل قد يكون لها تأثيرها المؤقت في هذه الدنيا، ولكنها عند الله لن يكون لها أى تأثير، لا في هذه الدنيا و لا في الآخرة. لذلك ينبغي ألا يغتر الإنسان بهذه الأمور فتحمله على ارتكاب الإثم، وإلا فإنه يصلى نارا سيكون هو حطبها.

يفيد هذا التعبير أنّ نار الجحيم مستعره بوجود المذنبين، وهؤلاء المذنبون هم الذين يديمون أوارها و لهيبها. نعم ثمّة آيات تقول إنّ الحجارة أيضا تكون وقود نار جهنم بالإضافة إلى المذنبين. ولكن - كما قلنا في تفسير الآية ٢٤ من سورة البقره في الجزء الأول - يمكن أن تكون هذه الحجارة هي الأصنام التي كانوا ينحتونها من الحجر. و عليه فإنّ نار جهنم تستعر بأعمال المذنبين و بمعبوداتهم الباطله.

ثمّ تشير الآية إلى نموذج من الأمم السالفه التي كانت قد أوتيت الثروه الإنسانيه و الماديه الكثيره، و لم تستطيع هذه الثروه أن تكون مانع من هلاكهم.

كَذَّبَ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ

«الدأب» إدامه السير، و العاده المستمرّه دائما على حاله واحده. فهذه الآية تشبه حال الكفّار المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم بما كان آل فرعون قد اعتادوا عليه - و كذلك الأقسام السابقه - من تكذيب آيات الله، فأخذهم الله بذنبهم و أنزل بهم عقابه الصارم في هذه الدنيا.

هذا في الواقع إنذار للكافرين المعاندين على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم لكي يعتبروا بمصير الفراعنه و الأقسام السالفه، و يصححوا أعمالهم.

صحيح أنّ الله «أرحم الراحمين» و لكنه في المواضع و من أجل تربيته عبيده «شديد العقاب» أيضا، و لا ينبغي أن يغترّ العبيد برحمه مولاهم الواسعه أبدا.

يستفاد أيضا من «الدأب» أنّ هذه الاتجاه الخاطئ - أي العناد إزاء الحقيقه



و تكذيب آيات الله-أصبح عادة ثابتة فيهم،و لهذا يهددهم بعذاب شديد،و ذلك لأنه ما دام الإثم لم يصبح عادة و نهجا في الحياه فإن الرجوع عنه ميسور و عقابه خفيف،و لكنه إذا نفذ إلى داخل أعماق الإنسان فالرجوع عنه متعذراً،و العقاب عليه شديد.فخير للكافرين أن ينتهزوا الفرصه قبل فوات الأوان و يرجعوا عن طريق الضلال.

ص :٤١٠

اشاره

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتُّغْلِبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَ بئسَ الْمِهَادُ (١٢)

سبب النزول

بعد حرب بدر و انتصار المسلمين قال فريق من اليهود: إِنَّ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي بَشَرْنَا بِهِ مُوسَى، وَ نَجَدَهُ فِي كِتَابِنَا بِنَعْتِهِ وَ صِفَتِهِ، وَ أَنَّهُ لَا تَرَدُّ لَهُ رَايَةٌ، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَا تَعْجَلُوا حَتَّىٰ تَنْظُرُوا إِلَىٰ وَاقِعِهِ أُخْرَىٰ.

فلَمَّا كَانَ يَوْمَ أَحَدٍ، وَ نَكَبَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ، شَكُّوا وَ قَالُوا: لَا وَ اللَّهُ مَا هُوَ بِهِ، فَغَلَبَ عَلَيْهِمُ الشَّقَاءُ فَلَمْ يَسْلَمُوا. وَ قَدْ كَانَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ عَهْدٌ إِلَىٰ مَدَّةٍ لَمْ تَنْقُضْ، فَانْقَضُوا ذَلِكَ الْعَهْدَ قَبْلَ أَجَلِهِ، وَ انْطَلَقَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ إِلَىٰ مَكَّةَ فِي سَتِينَ رَاكِبًا، فَوَاقَفُوهُمْ وَ اجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمٍ، لِتَكُونَ كَلِمَتَنَا وَاحِدَةً، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَىٰ الْمَدِينَةِ. عِنْدَئِذٍ نَزَلَتِ الْآيَةُ الْمَذْكُورَةُ تَقُولُ لَهُمْ إِنَّ الْحِسَابَ قَرِيبٌ وَ أَنْكُمْ جَمِيعًا سَتَكُونُونَ عَمَّا قَرِيبٍ مِنَ الْمَغْلُوبِينَ (١).

ص: ٤١١

مع ما تقدّم فى سبب النزول يتضح أن الكفار المغرورين بأموالهم و أولادهم، و عددهم و عدّتهم يتوقعون هزيمه الإسلام، و لكن القرآن الكريم يصرح فى هذه الآيه بأنهم سيغلبون، و يخاطب النبى صلى الله عليه و آله و سلّم بأن يخبرهم بذلك و أن عاقبتهم فى الدنيا و الآخره ليست سوى الهزيمه و الذلّ و العذاب الأليم: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَيِّئَاتٌ وَأَسَاءَاتٌ لِّمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمِهَادُ (١).

تنبؤ صريح هناك أخبار غيبه كثيره فى القرآن الكريم تعتبر من أدله عظيمته و إعجازه.

و الآيه أعلاه واحده من هذه الأخبار الغيبه.

و فى هذه الآيه يبشّر الله نبىه صلى الله عليه و آله و سلّم بالانتصار على جميع الأعداء، و ينذر الكافرين بأنهم فضلا عن اندحارهم فى هذه الدنيا، فإنّ لهم فى الآخره شرّ مصير.

إذا لا حظنا سبب نزول الآيه، و كونها نزلت بعد فشل المسلمين فى أحد، و ظهور ضعفهم الظاهرى، و ازدياد قوه الأعداء باتّحادهم و تكاتفهم فإنّ هذا التنبؤ الصريح و على الأخصّ عن المستقبل القريب: سَيُغْلَبُونَ يكون أمرا مثيرا للانتباه. و من هنا يمكن اعتبار هذه الآيه من آيات إعجاز القرآن، لوجود هذا التنبؤ عن المستقبل فيه، فى الوقت الذى لا تشير فيه الظواهر إلى احتمال انتصار المسلمين على الكفار و اليهود.

و لم تمض فتره طويله حتّى تحققت نبوءه الآيه و هزم يهود المدينه «بنو قريظه، و بنو النضير»، و فى خير-أهم معقل من معاقلم- اندحروا و تلاشت قواهم. كما هزم المشركون فى فتح مكّه هزيمه نكراء.

ص: ٤١٢

اشاره

قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)

سبب النزول

نزلت هذه الآيه بشأن حرب «بدر». يقول المفسرون إن عدد المسلمين يوم بدر كان ٣١٣ شخصا، منهم ٧٧ من المهاجرين و ٢٣٦ من الأنصار. كان لواء المهاجرين بيد علي عليه السلام، وكان سعد بن عباده صاحب لواء الأنصار. وكانت عدتهم لا تتجاوز ٧٠ بعيرا، و فرسين، و سته دروع، و ثمانية سيوف، خاضوا بها تلك الحرب الكبيره، في وجه عدو يزيد عدده على الألف، مع الكثير من السلاح و مائه فرس. و مع ذلك فقد انتصر المسلمون بتقديم ٢٢ شهيدا «١٤ من المهاجرين و ٨ من الأنصار»، في مقابل ٧٠ قتيلًا و ٧٠ أسيرا من الأعداء، و عادوا إلى المدينه تزيينهم أكاليل النصر. و هذه الآيه تحكى جانبا من معركة بدر (١).

ص: ٤١٣

١ - ١) - ما ذكر أعلاه ورد في مجمع البيان و لكن ورد في «الكامل» لابن الأثير: ج ٣ ص ١٣٦ أنه «و كان جميع من قتل من المسلمين ببدر أربعة عشر رجلا سته من المهاجرين و ثمانية من الأنصار».

## معركة بدر و التأييد الإلهي:

تعقيا على الآيات السابقة التي حذّر القرآن فيها الكافرين من الاغترار بالمال و الأبناء و الأتباع، جاءت هذه الآية شاهدا حيا على هذا الأمر، فتدعوهم إلى الاعتبار بما جرى في معركة بدر التاريخيه.

قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا

كيف لا- تكون لهم عبره، و هم يرون أنّ جيشا صغيرا لا- يملك شيئا من العده، سوى الإيمان الراسخ، ينتصر على جيش يفوقه أضعافا في العدد و العده. فلو كان المال و العدد- بغير إيمان- قادرين على شيء لظهر مفعولهما في معركة بدر، و لكن النتيجة كانت معكوسه.

يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ

تقول الآية: إنّ الكفار كانوا يرون جند المسلمين ضعف عددهم. أي أنّهم إذا كانوا ٣١٣ شخصا كان الكفار يرونهم أكثر من ٦٠٠ شخص (١). ليزيد من خوفهم، و كان هذا أحد أسباب هزيمه الكفار.

و هذا- فضلا عن كونه إمدادا غيبيا من الله انتصر به المسلمون، لأنّ الله يمدّ عباده المجاهدين المؤمنين بمختلف السبل- كان أمرا طبيعيا من حيث جانبه الظاهري، و ذلك لأنّ الضربات الشديده التي أنزلها المسلمون- بقوه إيمانهم و تربيتهم الإسلاميه- على الأعداء، أثارت فيهم الرعب و الهلع فظنّوا أنّ هناك قوه

ص: ٤١٤

١- ١) - هذا التفسير يعتمد على إرجاع الضمير في «يرون» إلى الكفار، و الضمير «هم» إلى المسلمين. و هذا أوضح التفاسير العديده للآيه. و سنشرح معركة بدر شرحا وافيا عند تفسير الآيات ٤١-٤٥ من سورة الأنفال.

أخرى التحقت بالمسلمين، و لذلك ظنوا أنّ المسلمين يحاربون بضعف قوتهم الأولى و يسيطرون على ميدان الحرب سيطره تامه، مع أنهم قبل الدخول لم يكن يخطر لهم ذلك أبداً، بل كانوا يرون المسلمين أقلّ ممّا كانوا عليه. في الآية ٤٤ من سوره الأنفال إشاره إلى ذلك أيضا و إذ يُرِيكُمُوهُمُ إِذِ التَّقِيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا .

تذكروا يوم لقائكم بهم في ميدان الحرب، فقد أظهرناكم في أعينهم قلّه لكي لا- يتجنّبوا حرباً ستؤدّي إلى هزيمتهم- كما أظهرناهم في أعينكم قلّه لكي لا- تضعف معنوياتكم في حرب مصيره-. و ما أن بدأ الحرب حتّى تبدّلت المشاهد، و ظهر المسلمون في أعين الأعداء بأعداد مضاعفه، فكان هذا واحداً من أسباب هزيمتهم.

و جاء في بعض الروايات أن أحد المسلمين قال: قبل نشوب القتال في بدر قلت لرفيق لي: ألاّ- تظن أن عدد الكفّار سبعون نفراً؟ فقال: إنى احسبهم مائه نفر، و لكن عند ما انتصرنا في الحرب و أسرنا منهم عدداً غفيرا سمعنا أن عددهم ألف نفر (١).

وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ

تشير الآية إلى حقيقه أنّ الله ينصر من يشاء. لقد سبق أن قلنا إنّ مشيئه الله و إرادته لا تكون بغير حساب، بل هي تكون بموجب حكمته و في حدود لياقه الأفراد، أي أنّ الله يؤيد الذين يستحقّون ذلك.

جدير بالذكر أنّ النصر الإلهي للمسلمين في الحادته التاريخيه كان ذا جانبين، فقد كان «نصراً عسكرياً» و «نصراً منطقياً». فمن الناحيه العسكريه:

ص: ٤١٥

انتصر جيش صغير مفتقر إلى المعينات الحربية على جيش يبلغ أضعافه عددا وإمكانات. و من الناحية المنطقية: فإنَّ الله كان قد أخبر المسلمين صراحة بهذا النصر قبل بدء الحرب.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ

فى ختام الآيه يؤكّد سبحانه أنّ الذين وهبوا البصيره بحيث يرون الحقائق كما هى، يعتبرون بهذا الانتصار الذى أحرزه أناس مؤمنون، و يدركون أنّ أساس هذا الانتصار هو الإيمان...الإيمان وحده (١).

ص: ٤١٦

---

١- ١) - «عبره» فى الأصل من ماده «عبور» بمعنى الانتقال من مرحله إلى اخرى أو من مكان إلى آخر و يقال لدمع العين «عبره» على وزن «حسره» لأنه يعبر من العين، و يقال للكلمات التى تمر من خلال اللسان و الاذن «عبارات» أيضا و كذلك يقال للحوادث «عبره» لأجل أن الإنسان عند ما يراها يعلم بمخلفاتها من الحقائق.

اشاره

زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاَبِ (١٤)

التفسير

اشاره

جاذبيه المتاع الدنيوى:

تعقيبا على الآيات السابقة التى اعتبرت الإيمان رأس المال الحقيقى للإنسان-لا المال و البنين و الأنصار-تشير هذه الآيه إلى حقيقه أنّ الزوجه و الأبناء و الأموال إنّما هى ثروات تنفع فى الحياه الماديه هذه، و لكنّها لا يمكن أن تشكّل هدف الإنسان الأصيل. صحيح أنّه بغير هذه الوسائل لا يمكن السير فى طريق السعاده و التكامل المعنوى، إلا أنّ الاستفاده منها فى هذا السبيل شىء و حبّها و عبادتها-بغير أن تكون مجرد وسيله يستفاد منها-شىء آخر.

فى هذه الآيه بضع نقاط ينبغى الالتفات إليها:



## ١- من الذى جعل الماديات زينه؟

فى تعبير زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ... (١) جاء الفعل مبتدأ للمجهول، أى أَنَّ الفاعل المجهول قد زَيْنَ للناس حُبَّ الزوجه و الأولاد و الأموال. فى هذه الحاله يخطر للمرء هذا السؤال: ترى من هو الذى زَيْنَ هذه الأمور للناس؟ بعض المفسرين يرون أَنَّ هذه المشتهايات من عمل الشيطان الذى يزِينُها فى أعين الناس، و يستدلون على ذلك بالآيه ٢٤ من سوره النمل: وَ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمُ و أمثالها. إلا- أَنَّ هذا الاستدلال لا- يبدو صحيحا، لأنَّ الكلام فى الآيه التى نبحت فيها لا تتكلم عن «الأعمال»، بل عن الأموال و النساء و الأبناء.

إنَّ التفسير الذى يبدو صحيحا هو أَنَّ الله هو الذى زَيْنَ للناس ذلك عن طريق الخلق و الفطره و الطبيعه الإنسانيه.

إنَّ الله هو الذى جعل حُبَّ الأبناء و الثروه فى جبله الإنسان لكى يختبره و يسير به فى طريق التريه و التكامل، كما يقول القرآن  
إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٢).

مِمَّا يثير الالتفات فى الآيه أَنَّ الزوجه أو المرأه قد وردت أولا، و هذا هو ما يقول به علماء النفس اليوم، بأنَّ الغريزه الجنسيه من أقوى الغرائز فى الإنسان، كما أَنَّ التاريخ المعاصر و القديم يؤيد أَنَّ كثيرا من الحوادث الاجتماعيه ناشئه عن طغيان هذه الغريزه.

و ينبغى القول أيضا إنَّ هذه الآيه و الآيات المشابهه لا تدمِّمُ العلائق المعتدله مع المرأه و الأولاد و المال، لأنَّ التقدّم نحو الأهداف المعنويه غير ممكن بدون الوسائل الماديه، و هى لا تتعارض مع نواميس الخلق الطبيعيه. إنَّما المذموم هو

ص: ٤١٨

١- ١) -الشهوات: جمع شهوه، أى حُبَّ شىء من الأشياء حبا شديدا، و لكنها فى هذه الآيه بمعنى المشتهايات.

٢- ٢) -الكهف: ٧.

الإفراط في هذه العلائق، وعبارة أخرى: المذموم هو عباده هذه الأمور.

## ٢- ما هي «القناطير المقنطرة» و«الخيال المسؤمه»؟

«قناطير» جمع قنطار، وهو الشيء المحكم، ثم أطلق على المال الكثير.

و إطلاق «القنطرة» على الجسر، و«القنطر» على الشخص الذكي إنما هو لإحكام البناء أو الفكر. و«المقنطرة» اسم مفعول يدل على الكثيره و المضاعفه، و ذكرهما متتالين يعنى التوكيد، كقولنا «آلاف مؤلفه» و نقصد به الكثيره الكاثره.

هناك من حدّد وزن القنطار بأنّه يساوى سبعين ألف دينار ذهباً، و قال بعض إنّه مائه ألف دينار، و قال آخرون إنّه يساوى اثني عشر ألف درهم، و يقول بعض إنّ القنطار كيس مملوء ذهباً أو فضه.

و

في روايه عن الإمام الباقر و الإمام الصادق عليهما السّلام أنّ القنطار مقدار من الذهب الذى يملأ جلد بقره. إلا أنّ كلّ هذه تشير إلى المال الوفير.

«الخيال» اسم جمع للفرس، و تطلق على الفرسان أيضاً. و المقصود فى الآيه هو المعنى الأول طبعاً.

و«المسؤمه» بمعنى المعلّمه أى ذات العلامه، فقد تعلّم الخيل لإبراز جمال هيكلها و رشاقته، أو لمعرفة أنّها مدرّبه و معدّه للركوب فى ميادين القتال.

و عليه، فإنّ الآيه تعدّد سته من ثروات الحياه و هى: المرأه، و الولد، و المال، و الخيول الأصيله، و المواشى و الإبل، و الزراعه، و هى أركان الحياه المادّيه.

## ٣- ما هو المراد ب «مَناعُ الحَياهِ الدُّنيا» ؟

«المتاع» هو الانتفاع بالشيء بعض الوقت. و الحياه الدنيا هى الحياه الواطئه الحقيه. فيكون معنى الآيه: إذا عشق أحد هذه الأشياء السته و حدها باعتبارها الهدف النهائى للحياه، و لم يستفد منها كسّلم للصعود فى مسيره حياته، يكون قد اختار لنفسه حياه منحطه.

ص: ٤١٩

و فى الحقيقه أنّ تعبير «الحياه الدنيا» إشاره إلى سير الحياه التكاملى، إذ أنّ هذه الحياه الدنيا تعتبر المرحله الأولى فى ذلك السير. لذلك تشير الآيه فى النهايه إلى الحياه الساميه التى تنتظر الإنسان فتقول: وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ .

٤- كما تقدم فى تفسير الآيه، فقد اشارت الآيه إلى النساء من بين النعم الماديه و قدّمته على الجميع، لأنها بالقياس الى النعم الاخرى أقوى تأثيراً و اشدّ جاذبيه لأهل الدنيا و قد تدعوهم إلى ارتكاب أعظم الجنايات فى هذا السبيل.

ص : ٤٢٠

إشاره

قُلْ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِنَّا لَنَاقِلُونَ (١٦) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِنَّا لَنَاقِلُونَ (١٧)

التفسير

إشاره

هذه الآيه توضّح الخطّ البياني الصاعد لتكامل الحياه الإنسانيه الذي أشير إليه في الآيه السابقه. تقول الآيه: هل أخبركم بحياه أرفع وأسمى من هذه الحياه المادّيه المحدوده في الدنيا، تلك الحياه فيها كلّ ما في هذه الحياه من النعم لكنّها صورتها الكامله الخاليه من أى نقص و عيب خاصه بالمتقين.

بساتينها، لا كبساتين الدنيا، لا ينقطع الماء عن الجريان بجوار أشجارها:

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

و نعمها دائمه أبدية، لا كنعم الدنيا السريعه الزوال: خَالِدِينَ فِيهَا .

نساؤها خلافا لكثير من غوانى هذه الدنيا، ليس فى أجسامهنّ و لا أرواحهنّ نقطه ظلام و خبث: وَ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ .

كلّ هذا بانتظار المتقين. و أسمى من ذلك كله، النعم المعنويه التى تفوق كلّ تصوّر و هى رِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ .

نلاحظ أنّ الآيه تبدأ بجمله: «أ أنبؤكم» الاستفهاميه الموجهه إلى الفطره الإنسانيه الواعيه لكى تكون أنفذ فى السامع و أعمق، ثمّ إنّ الاستفهام ينصّ على «الإنباء» التى تستعمل للأداء بخبر مهمّ جدير بالاستيعاب.

و تخبر الآيه المؤمنين أنّهم إذا امتنعوا عن اللذائذ غير المشروعه و الأهواء الطاغيه الممزوجه بالمعصيه، فإنّهم سيفوزون فى الآخره بلذائذ مشابهه و لكن بمستوى أرفع و خاليه من كلّ نقص و عيب. إلاّ أنّ هذا لا يعنى حرمان النفس من لذائذ الحياه الدنيا التى لهم أن يتمتّعوا بها بصوره مشروعه.

### هل فى الجنّه لذائذ مادّيه أيضا؟

يظنّ بعضهم أنّ اللذائذ المادّيه مقتصره على الحياه الدنيا، و أنّ الحياه الأخرى خاليه منها، و أنّ جميع ما جاء فى القرآن عن الجنّات و الفواكه و المياه الجاريه و الأزواج الطاهره إنّما هى كناية عن مقامات و نعم معنويه من باب «كلم الناس على قدر عقولهم».

و لكننا ينبغى أن نقول: إنّنا بعد أن قبلنا بالمعاد الجسمانى استنادا إلى الكثير من آيات القرآن الصريحه، فلا بدّ من وجود نعم تناسب الجسم و الروح و بمستوى أرفع و أعلى. و فى هذه الآيه إشارة إلى كليهما: ما يناسب المعاد الجسمانى، و ما يناسب المعاد الروحى.

فى الواقع، إنَّ الذين يعتبرون نعم الآخرة المادّيه كناية عن نعم معنويه، إنّما يؤوّلون ظاهر آيات القرآن دون سبب، كما أنّهم ينسون المعاد الجسمانى و ما يقتضيه.

و لعلّ جملة وَ اللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ التى جاءت فى آخر الآيه إشاره إلى هذه الحقيقة، أى أنّه يعلم ما يحتاجه الجسم و الروح فى العالم الآخر، و ما هى متطلّبات كلّ منهما و هو يضمن إشباع هذه الحاجات على أحسن وجه.

اللَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا...

فى هذه الآيه و الآيه التى بعدها نتعرّف على المتّقين الذين كانوا فى الآيه السابقيه مشمولين بنعم اللّٰه العظيمه فى العالم الآخر، فتعددان ستّ صفات من صفاتهم الممتازه.

١- إنّهم يتوجّهون إلى اللّٰه بكلّ جوارحهم، و الإيمان يضىء قلوبهم، و لذلك يحسّون بمسؤوليه كبيره فى كلّ أعمالهم، و يخشون عقاب أعمالهم خشيه شديد، فيطلبون مغفرته و النجاه من النار: فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَ فِئَا عَذَابِ النَّارِ .

٢- مثابرون صابرون ذوو همّة، و مقاومون عند مواجهتهم الحوادث فى مسيره إطاعتهم لله و تجنّبهم المعاصى، و عند ابتلائهم بالشدائد الفرديه و الاجتماعيه الصّابرين .

٣- صادقون و مستقيمون، و ما يعتقدون به فى الباطن يعملون به فى الظاهر، و يتجنّبون النفاق و الكذب و الخيانه و التلوّث وَ الصّادقين .

٤- فى طريق العبوديه لله خاضعون و متواضعون و مواظبون على ذلك وَ الْقَانِتِينَ (١) .

٥- لا ينفقون من أموالهم فحسب، بل ينفقون من جميع ما لديهم من النعم المادّيه و المعنويه فى سبيل اللّٰه، فيعالجون بذلك أدواء المجتمع وَ الْمُتَفَقِّينَ .

ص: ٤٢٣

(١ - ١) - «قانتين» من ماده «قنوت» بمعنى الخضوع امام الله و أيضا بمعنى المداومه على الطاعه و العبوديه.

٦- فى أواخر الليل و عند السحر، أى عند ما يسود الهدوء و الصفاء و حين يغط الغافلون فى نوم عميق و تهدأ ضوضاء العالم المادى، يقوم ذوو القلوب الحية اليقظه، و يذكرون الله و يطلبون المغفره منه و هم ذائبون فى نور الله و جلاله، و تلهج كل ذره من وجودهم بتوحيده سبحانه وَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ .

## بحوث

١- فى تفسير هذه الآيه،

روى عن الصادق عليه السلام أنه قال: «من قال فى آخر صلاه الوتر فى السحر» استغفر الله و أتوب إليه» سبعين مره، و دوام على ذلك سنه كتبه الله من المستغفرين بالأسحار» (١).

٢- «السحر» فى أصل اللغه هو «التغطية و الإخفاء». و لما كانت ساعات الليل الأخيره تغطى كل شىء بستر خاص، فقد سميت بالسحر. و «السحر» -بكسر السين- من الماده نفسها، لأن الساحر يقوم بأعمال تخفى أسرارها على الآخرين.

و قد يطلق العرب اسم «السحر» -بوزن البشر- على الرئه لاختفاء ما فيها.

لما ذا يشار إلى السحر من بين جميع ساعات الليل و النهار، مع أن الاستغفار و ذكر الله مطلوبان فى كل وقت؟ السبب هو ما تتميز به ساعات السحر من هدوء و سكون و ابتعاد عن الأعمال الماديه، و للنشاط الذى يشعر به المرء بعد استراحتة و نومه، فيكون أكثر استعدادا للتوجه إلى الله. و هذا ما يسهل دركه بالتجربه، حتى أن بعض العلماء يستثمرون وقت السحر لحل المسائل العلميه، إذا أن سراج الفكر و روح الإنسان أكثر تألؤا و سطوعا فى ذلك الوقت من أى وقت آخر. و لما كانت روح العباده و الاستغفار هى التوجه و حضور القلب، فإن العباده و الاستغفار فى هذا الوقت أسمى من أى وقت آخر.

ص: ٢٢٤

(١-١) -تفسير البرهان: ج ١ ص ٢٧٣.

اشاره

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)

التفسير

اشاره

الجميع يشهد بالوحدانيه:

تعقيبا على البحث في الآيات السابقه حول المؤمنين الحقيقيين، تشير هذه الآيه إلى بعض أدله التوحيد و معرفه الله فتقول بأن الله تعالى يشهد بوحدانيته (من خلال إيجاد النظام الكونى العجيب)، كما تشهد الملائكه، و يشهد بعد ذلك العلماء و الذين ينظرون إلى حقائق العالم بنور العلم و المعرفه شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ .

بحوث

اشاره

١- كيف يشهد الله على وحدانيته؟

المقصود من شهادة الله هنا هو الشهاده العمليه و العقلية، لا الشهاده اللفظية.



أى أنّ الله بخلقه عالم المخلوقات الذى يسوده نظام موحد، و تتشابه قوانينه فى كل مكان، و تجرى وفق برنامج واحد، لتكوّن «وحده واحده» و «نظاما واحدا»، قد أظهر عمليا أنّ الخالق و المعبود فى العالم ليس أكثر من واحد، و أنّ كل شىء ينطلق من ينبوع واحد. و عليه فإنّ خلق هذا النظام الواحد شهادة و دليل على وحدانيته.

أمّا شهادة الملائكة و العلماء، فهى شهادة لفظيه، فهم بالتعبير اللفظى الذى يناسبهم يعترفون بهذه الحقيقه. إنّ هذا اللون من التفكيك فى الآيات القرآنيه كثير فى الآيه إنّ الله و ملائكته يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ (١)، لا شك أنّ صلاه الله على النبى صلى الله عليه و آله و سلم غير صلاه الملائكه عليه، فصلاه الله هى إرسال الرحمه، و صلاه الملائكه هى طلب الرحمه.

بديهى أنّ لشهاده الملائكه و العلماء جانبها العملى أيضا، ذلك لأنهم لا يعبدون سواه، و لا يخضعون لمعبود غيره.

## ٢- ما القيام بالقسط؟

إنّ عبارته قائماً بالقسط حال من فاعل «شهد» و هو «الله». أى أنّ الله يشهد بوحدانيته فى حاله كونه قائماً بالعداله فى عالم الوجود. و هذا فى الحقيقه دليل على شهادته، لأنّ العداله هى إختيار الطريق الوسط و المستقيم، بمعزل عن كل إفراط و تفريط و انحراف. و نعلم أنّ الطريق الوسط المستقيم لا بدّ أن يكون طريقا واحدا، كما نقرأ فى الآيه ١٥٣ من سوره الأنعام و أنّ هذا صراطى مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ .

تقول هذه الآيه إنّ طريق الله واحد، بينما طرق المنحرفين و البعيدين عن الله

ص: ٤٢٦

متعدّده و متناثره، و ذلك لورود الصراط المستقيم بصيغه المفرد، و سبل المنحرفين بصيغه الجمع.

النتيجه هي أن «العدالة» تصاحب «النظام الواحد»، و النظام الواحد دليل على «المبدأ الواحد». و بناء على ذلك فإنّ العدالة بمعناها الحقيقي في عالم الخلق دليل على وحدانيه الخالق، فتأمل.

### ٣- أهميه العلماء

العلماء في هذه الآيه وضعوا إلى جانب الملائكه، و هذا بذاته تمييز للعلماء على غيرهم. كما يستفاد من الآيه أنّ العلماء إنّما امتازوا على غيرهم لأنّهم بعلمهم توصلوا إلى معرفه الحقائق، و على رأسها معرفه وحدانيه الله.

من الواضح أنّ الآيه تشمل جميع العلماء، أمّا قول بعض المفسرين بأنّ أولّوا العِلْمِ هم الأئمّه الأطهار عليهم السّلام فلأنّ الأئمّه من اظهر مصاديق ذلك.

ينقل المرحوم الطبرسي في «مجمع البيان» ضمن تفسير هذه الآيه،

عن جابر بن عبد الله الأنصاري، عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: «ساعه من عالم يتكئ على فراشه ينظر في علمه خير من عبادته العابد سبعين عاما».

يتكرّر تعبير لا إله إلا هو في نهايه الآيه، و لعلّ التكرار إشاره إلى أنّه ما جاءت في البدايه شهاده الله و الملائكه و العلماء، كذلك على من يسمع هذه الشهادات أن يردّها هو أيضا معهم، و يشهد على وحدانيه المعبود.

و لما كان قوله لا إله إلا هو تعظيما و إظهارا لوحديته، فقد اختتم بالصفتين «العزیز» و «الحكيم» لأنّ القيام بالقسط يتطلّب القدره و الحكمه، و أنّ الله القادر

على كل شيء، والعليم بكل شيء هو وحده القادر على إجراء العدالة في عالم الوجود.

هذه الآيه من الآيات التي كانت موضع اهتمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دائما و كان يرددها في مواضع مختلفه.

و روى عن الزبير بن العوام قال: قلت لأدنون هذه العشيّه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و هي عشيّه عرفه، حتّى أسمع ما يقول...، فسمعتّه يقول: شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْآيَهُ، فما زال يرددّها حتّى رفع (١).

ص: ٤٢٨

---

(١ - ١) - مجمع البيان: ج ٢ ص ٤٢١.

اشاره

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩)

التفسير

اشاره

روح الدين التسليم للحق:

«الدين» فى الأصل بمعنى الجزاء و الثواب، و يطلق على «الطاعة» و الانقياد للأوامر، و «الدين» فى الاصطلاح: مجموعه العقائد و القواعد و الآداب التى يستطيع الإنسان بها بلوغ السعادة فى الدنيا، و أن يخطو فى المسير الصحيح من حيث التربيه و الأخلاق الفرديه و الجماعيه.

«الإسلام» يعنى التسليم، و هو هنا التسليم لله. و على ذلك، فإن معنى إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ: إِنَّ الدين الحقيقى عند الله هو التسليم لأوامره و للحقيقه.

فى الواقع لم تكن روح الدين فى كل الأزمنه سوى الخضوع و التسليم للحقيقه.

و إنما أطلق اسم «الإسلام» على الدين الذى جاء به الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم لأنه أرفع الأديان.

وقد أوضح الإمام على عليه السّلام هذا المعنى فى بيان عميق فقال: «لأنّسبَ الإسلام نسبه لم ينسبها أحد قبلى: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل»

(١)

فالإمام فى كلمته هذه يضع للاسم ستّ مراحل، وأولها التسليم أمام الحقيقه، ثمّ يقول إنّ التسليم بغير يقين غير ممكن (إذ أنّ التسليم بغير يقين يعنى الاستسلام الأعمى، لا التسليم الواعى). ثمّ يقول إنّ اليقين هو التصديق (أى أنّ العلم وحده لا يكفى، بل لا بدّ من الاعتقاد والتصديق القلبيين) والتصديق هو الإقرار (أى لا يكفى أن يكون الإيمان قلبياً فحسب، بل يجب إظهاره بشجاعه و قوّه)، ثمّ يقول إنّ الإقرار هو الأداء (أى أنّ الإقرار لا يكون بمجرد القول باللسان، بل هو التزام بالمسؤوليه). وأخيراً يقول إنّ الأداء هو العمل (أى إطاعه أوامر الله و تنفيذ البرامج الإلهيه) لأنّ الالتزام و تحمّل المسؤوليه لا يعنيان سوى العمل. أمّا الذين يسخّرون كلّ قواهم و طاقاتهم فى عقد الجلسات تلو الجلسات و تقديم الاقتراحات و ما إلى ذلك من الأمور التى لا تتطلّب سوى الكلام فلا هم تحمّلوا التزاما و لا مسؤوليه، و لا هم وعوا روح الإسلام حقاً.

هذا أجلى تفسير للإسلام من جميع جوانبه، ثمّ إنّ الآيه تذكر علّه الاختلاف الدينى على الرغم من الوحده الحقيقه للدين الإلهى و تقول:

وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ

فعلى هذا إن الاختلاف ظهر أولاً بعد العلم و الاطلاع على الحقائق. و ثانياً كانت الدوافع لذلك هى الظلم و الطغيان و الحسد. فاليهود اختلفوا فى خليفه موسى ابن عمران عليه السّلام و اقتتلوا بينهم، و المسيحيون اختلفوا فى أمر التوحيد حيث خلطوه

ص: ٤٣٠

بالشرك و التثليث، وقد اختلف كلٌّ منهما في أمر الإسلام و دلائل صدق النبي صلى الله عليه و آله و سلم الواردة في كتبهم، فقبل بعضهم و أنكر آخرون.

و الخلاصه إنّ لكلّ دين سماوى دلائله الواضحه التى لا تترك إبهاما أمام الباحث عن الحقيقه. فالنبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم مثلا-بالإضافه إلى أنّ المعجزات و الدلائل الواضحه فى نصوص دينه تؤكّد صدقه-وردت أوصافه و علاماته فى الكتب السماويه السابقه التى بقى قسم منها فى أيدي اليهود و النصرى، و لذلك بشر علماءهم بظهوره قبل ظهوره، و لكنهم بعد أن بعث رأوا مصالحتهم فى خطر، فأنكروا كلّ ذلك، يحدوهم الظلم و الحسد و الطغيان.

وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ

هذا بيان لمصير أمثال هؤلاء الذين لا يعترفون بآيات الله. إنهم سوف يتلقون نتائج عملهم هذا، فالله سريع فى تدقيق حساباتهم [\(١\)](#).

المراد من «آيات الله» فى هذه الآيه ما يشمل جميع آياته و براهينه و كتبه السماويه، و لعلها تشمل أيضا الآيات التكوينية فى عالم الوجود، و ما ذكره بعض المفسرين من أنها تعنى آيات التوراه و الإنجيل خاصه، لا دليل عليه.

**ملاحظه**

**اشاره**

**منشأ الاختلافات الدينيه**

مما يلفت النظر فى هذه الآيه هو أنّ سبب الاختلافات الدينيه ليس الجهل و عدم المعرفه دائما، بل هو على الأكثر الظلم و الطغيان و الانحراف عن الحقّ

ص: ٤٣١

(١-١) -انظر تفسير الآيه ٢٠٢ من سوره البقره بشأن معنى «سريع الحساب».

و أتباع و جهات النظر الخاصه، فلو تخلى الناس -و على الأخص العلماء منهم- عن التعصب، و الحقد، و ضيق النظر، و المصالح الخاصه، و تجاوز الحدود، و الاعتداء على الحقوق، و تعمقوا فى دراسه أحكام الله بنظره واقعيه و بروح من العداله، فسيرون محجّه الحق منيره و سيستطيعون حلّ الاختلافات بسرعه.

و هذه الآيه فى الواقع ردّ دافع على الذين يقولون: «إنّ الدين هو سبب الخلافات إراقه الدماء بين البشر على امتداد التاريخ».

هؤلاء يخلطون بين «الدين» و «التعصب الدينى» و الانحرافات الفكرية.

فنحن إذا درسنا تعاليم الأديان السماويه نجد أنّها جميعا تسعى لتحقيق هدف واحد، و كلّها جاءت من أجل سعادته الإنسان، و إن كان قد تكاملت تدريجيا على مرور الزمن.

الأديان السماويه أشبه فى الواقع بقطرات المطر النازله من السماء حيث تكمن فيها الحياه، و لكنّها إذا نزلت على الأراضى السبخه، كالأرض المالحة، اكتسبت صبغه هذه الأرض. فهذه الاختلافات ليست من قطرات المطر، بل هى من تلك الأراضى. و لكن من حيث مبدأ التكامل، فإنّ الله آخر تلك الأديان يكون أكملها.

اشاره

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠)

التفسير

«المحاجّه» أن يسعى كل واحد في ردّ الآخر عن حجّته و محجّته دفاعا عن عقيدته.

من الطبيعي أن يقوم اتباع كل دين بالدفاع عن دينهم، ويرون أنّ الحقّ بجانبهم. لذلك يخاطب القرآن رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم قائلا: قد يحاورك أهل الكتاب (اليهود و النصارى...) فيقولون إنّهم قد أسلموا بمعنى أنّهم قد استسلموا للحق، و ربّما هم يصرون على ذلك، كما فعل مسيحيو نجران مع رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم.

فالآيه لا تطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم أن يتجنّب محاورتهم و محاججتهم، بل تأمره أن يسلك سبيلا آخر، و ذلك عند ما يبلغ الحوار منتهاه، فعليه لكي يهديهم و يقطع الجدل و الخصام أن يقول لهم: إنّني و أتباعي قد أسلمنا لله و اتبعنا الحقّ



فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ

ثمَّ يسأل أهل الكتاب و المشركين إن كانوا هم أيضا قد أسلموا لله و اتبعوا الحقَّ فعليهم أن يخضعوا للمنطق و قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ الْمُؤْمِنِينَ أَشْهَلْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا فَإِذَا لَمْ يَسْتَسْلِمُوا لِلْحَقِّقَةِ الْمَعْرُوضَةِ أَمَامِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ قَدْ أَسْلَمُوا لِلَّهِ. عندئذ لا تمضى فى مجادلتهم، لأنَّ الكلام فى هذه الحالة لا تأثير له، و ما عليك إلا أن تبَّلع الرساله لا غير و إن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ .

و من الواضح أن المراد ليس هو التسليم اللسانى و الادعائى، بل التسليم الحقيقى و العملى فى مقابل الحق، فلو أنهم خضعوا حقيقه للكلام الحق، فلا بد أن يؤمنوا بدعوتك القائمه على المنطق و الدليل الواضح، و إلا فإنهم غير مستسلمين للحق.

و الخلاصه: إن وظيفتك هى إبلاغ الرساله المشفوعه بالدليل و البرهان، فلو كانت لديهم روحيه البحث عن الحقيقه فسوف يؤمنون حتما، و إلا فإنك قد أدت واجبك تجاههم.

و فى الختام يقول: وَ اللَّهُ بِصَتِيرٍ بِالْعِبَادِ فَهُوَ سَبْحَانَهُ يَعْلَمُ الْمَدْعَى مِنَ الصَّادِقِ وَ كَذَلِكَ أَغْرَاضُ وَ دَوَافِعُ الْمُتَحَاجِّينَ، و يرى أعمالهم الحسنه و القبيحه و يجازى كلَّ شخص بعمله.

## بحوث

١- استفاد من الآيه ضميتا لزوم تجنّب مجادله المعاندين الذين لا يخضعون للمنطق السليم.

٢- المقصود بالأُميين في هذه الآية هم المشركون، والسبب في وصف المشركين بالأُميين في قبال أهل الكتاب-اليهود و النصارى- هو أنّ المشركين لا يملكون كتابا سماويا حتى يكون حافظا لهم على تعلّم القراءه و الكتابه.

٣- يتّضح من هذه الآية بكلّ جلاء أنّ أسلوب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم لم يكن أسلوب فرض الفكره و العقيده، بل كان أسلوبه السعى إلى توضيح الحقائق أمام الناس، ثم يتركهم و شأنهم لكي يتّخذوا قرارهم في اتباع الحقّ بأنفسهم.

ص: ٤٣٥

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِالْآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١)  
أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢)

التفسير

اشاره

علامات الطغيان:

تعقيبا للآيه السابقه التي تضمنت أنّ اليهود و النصارى و المشركين كانوا يجادلون رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و لا يستسلمون للحق، ففي الآيه الاولى اشاره إلى بعض علامات هذا الأمر حيث تقول الآيه: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ.... .

و تشير هذه الآيه فى البدايه إلى ثلاث ذنوب كبيره و هى الكفر بآيات الله و قتل الأنبياء بغير الحق و قتل الذين يدعون إلى العداله و يدافعون عن أهداف الأنبياء، و كل واحد من هذه الذنوب يكفى لوحده لجعل الإنسان معاندا و متصلبا بكفره و عدم تسليمه للحق، بل يسعى لخنق كل صوت يدعو إلى الحق.

التعبير ب يَكْفُرُونَ و يَقْتُلُونَ جاء بصيغه الفعل المضارع و هو اشاره إلى

أن كفرهم و قتلهم الأنبياء و الأمرين بالقسط كان من جمله برنامجهم فى الحياه فيرتكبون هذه الأعمال بصوره دائمه و مستمره (لأن الفعل المضارع يدل على الاستمراريه).

و بطبيعته الحال إن هذه الأعمال كانت تصدر عاده من اليهود حيث نلحظ استمرارهم بهذه الأعمال فى زماننا الحاضر بشكل آخر، و لكن هذه لا يمنع من عموميه مفهوم الآيه أيضا.

ثم أن الآيه تشير إلى ثلاثه عقوبات مترتبه على ارتكاب هذه الذنوب، وفى البدايه تشير الآيه فَبَشَّرَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

ثم تقول: أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلَوْ فَرَضَ أَنَّهُمْ عَمِلُوا بِعُضِّ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَإِنَّهَا سَتَمَحَى وَ تَزُولُ بسبب الذنوب الكبيره التى يرتكبونها.

و الثالث أن الآيه تقول: وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ فلا أحد يحميهم من العقوبات الإلهيه التى تنتظرهم و لا أحد يشفع لهم فى ذلك اليوم.

و سبق و أن قلنا فى تفسير الآيه ٦١ من سوره البقره أن هذه الآيه تشير إلى تاريخ اليهود المضطرب، فهم فضلا عن إنكارهم آيات الله تجرؤا على قتل الأنبياء، كما كانوا يقتلون أتباع الأنبياء من المجاهدين، و لكن هذا العمل لا يختص بهم و حدهم، بل يصح بالنسبه إلى جميع الأقوام التى فعلت و تفعل فعلهم.

## بحوث

١- وضعت الآيه الداعين إلى العداله و الأمرين بالمعروف فى مصافف الأنبياء. و ترى الكفر بآيات الله، و قتل الأنبياء، و قتل هؤلاء، على مستوى واحد، و هذا منتهى اهتمام الإسلام بنشر العداله فى المجتمع.

و يتبين من الآيه الثانيه شدّه العقوبات التي ستنزل بالذين يقتلون أمثال هؤلاء الرجال الصالحين. وقد سبق أن قلنا إنّ «الحبط» لا يشمل جميع الذنوب، بل للذنوب الكبيره التي تذهب بآثار الأعمال الصالحه (١) و أخيرا عدم قبول أيّ شفاعه بحقهم، كدليل على عظم ذنوبهم.

٢- المقصود من بغيرِ حَقِّ ليس إمكان جواز قتلهم بحق، بل المقصود هو القول بأنّ قتل الأنبياء كان دائما ظلما و بغير حق. فعبارته «بغير حق» قيد توضيحي للتوكيد.

٣- يستفاد من عبارته فَبَشَّرَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ أنّها تشمل الكفار المعاصرين للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أيضا، مع أنّنا نعلم أنّ هؤلاء لم يقتلوا أحدا من الأنبياء. وقد أشرنا من قبل إلى السبب و قلنا إذا رضى أحد بفعال قوم و سلوكهم و أفكارهم، فإنّه يكون شريكا لهم في أعمالهم الخيره و السيئه. و لَمَّا كانت هذه الجماعه المعاصره للنبي من الكفار - و خاصه اليهود - تؤيّد أعمال أسلافهم و جرائمهم، فهم يشاركونهم فيما ينتظرهم من العقاب أيضا.

٤- «البشاره» هي إخبار الرجل خيرا سارًا ييسط أسارير وجهه. و استعمال هذه الكلمه في الإخبار بالعذاب في هذه الآيه و في غيرها إنّما هو نوع من التهديد و الاستهزاء بأفكار المذنبين. و هذا أشبه بما هو متداول بيننا اليوم، إذ نقول - مستهزئين - لمن أساء الفعل: حسنا، سوف نكافؤك على ذلك.

-٥-

ورد في حديث عن أبي عبيده الجراح أنّه قال سألت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عن أيّ الناس أشدّ عذابا في الآخره؟ فقال: رجل قتل نبيا أو رجلا أمر بالمعروف أو نهى عن منكر ثمّ قرأ

ص: ٤٣٨

(١ - ١) - انظر تفسير الآيه ٢١٧ من سوره البقره بخصوص «حبط».

وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ

ثم قال: يا أبا عبيده قتلت بنو إسرائيل ثلاثة و أربعين نبيا من أول النهار فى ساعه واحده، فقام مائه رجل و اثنا عشر رجلا من عباد بنى إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف و نهوهم عن المنكر فقتلوا جميعا من آخر النهار فى ذلك اليوم، و هو الذى ذكره الله تعالى:

فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ

(١)

ص: ٤٣٩

---

(١-١) - مجمع البيان: ج ١ و ج ٢ ص ٤٢٣.

إشارة

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْنَا لَهُمْ لَيُّومٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥)

سبب النزول

جاء في تفسير «مجمع البيان» عن ابن عباس أنه حدث على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن ارتكب يهودى الزنا مع امرأة محصنه، على الرغم من أن ما جاء فى التوراه يقضى بالرجم على أمثال هؤلاء، فإنهما لم ينالا عقابا لأنهما كانا من الأشراف، واتفقا على الرجوع إلى رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم ليكون هو الحكم، آملين أن ينالا عقابا أخف.

غير أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيد العقاب المعين لهما، فاعترض بعض كبار اليهود

على حكم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأنكروا أن يكون في اليهود مثل هذا العقاب.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «بيني وبينكم التوراه» فوافقوا، واستدعوا «ابن صوريا» أحد علمائهم، من فدك إلى المدينة، وعند وصوله عرفه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسأله: أنت ابن صوريا؟ قال: نعم. فقال: أنت أعلم علماء اليهود؟ قال: هكذا يحسبونني، فأمر رسول الله أن يفتحوا أمامه التوراه حيث ذكر الرجم ليقراه، ولكنه لما كان مطلعاً على تفاصيل الحادث قرأ جانباً من التوراه، وعند ما وصل إلى عبارة الرجم وضع يده عليها وتخطأها ولم يقرأها وقرأ ما بعدها. فأدرك «عبد الله بن سلام» -الذي كان من علماء اليهود ثم أسلم- مكر ابن صوريا وقام إليه ورفع يده عن الآية وقرأ ما كان قد أخفاه بيده، قائلاً: تقول التوراه: على اليهود، إذا ثبت زنا المحصن بالمحصنه رجماً. فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن ينفذ العقاب بحقهما بموجب شريعتهم. فغضب بعض اليهود، فنزلت هذه الآية بحقهم (1).

## التفسير

### إشارة

هذه الآيات تصرّح ببعض تحريفات أهل الكتاب الذين كانوا يتوسّلون بالتبريرات والأسباب الواهية لتفادي إجراء حدود الله، مع أنّ كتابهم كان صريحاً في بيان حكم الله بغير إبهام، وقد دعوا للخضوع للحكم الموجود في كتابهم أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ .

و لكن عصيانهم كان ظاهراً و مصحوباً بالإعراض و الطغيان و اتّخاذ موقف المعارض لأحكام الله: ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيْقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُّعْرِضُونَ .

ص: ٤٤١

١- ١) - في التوراه الموجوده حالياً، في سفر اللاويين في الفصل العشرين، الجملة العاشره نقرأ ما يلي: «إذا زنا أحد بامرأه غيره، أى بامرأه جاره (مثلاً) يجب قتل الزانى و الزانيه». على الرغم من أنّ الرجم نفسه لم يرد، فقد ورد العقاب بالموت، و ربما يكون التصريح بالرجم قد ورد في النسخه التى كانت موجوده على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.



يمكن الاستنتاج من أوْتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ أَنْ ما كان بين أيدي اليهود و النصارى من التوراه و الإنجيل لم يكن كاملاً، بل كان قسم منهما بين أيديهم، بينما كان القسم الأعظم من هذين الكتابين السماويين قد ضاع أو حُرّف.

هذه الآيه تؤيدها آيات أخرى فى القرآن، كما أنّ هناك شواهد و دلائل تاريخيه تؤكد ما ذهبنا إليه.

و فى الآيه الثانيه شرح سبب عصيانهم و تمرّدهم، و هو أنّهم كانوا يحملون فكره خاطئه عن كونهم من عنصر ممتاز، و هم اليوم أيضا يحملون هذه الفكره الباطله الواضحه فى كتاباتهم الداله على الاستعلاء العنصرى.

كانوا يظنون أنّ لهم علاقته خاصه بالله سبحانه، حتّى أنّهم سَمَوْا أنفسهم «أبناء الله» كما ينقل القرآن ذلك على لسان اليهود و النصارى فى الآيه ١٨ من سوره المائده قولهم: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّواؤُهُ. و بناء على ذلك كانوا يرون لأنفسهم حصانه تجاه العقوبات الرّيانيه، و كانوا ينسبون ذلك إلى الله نفسه. لذلك كانوا يعتقدون أنّهم لن يعاقبوا على ذنوبهم يوم القيامه إلاّ لأيام معدودات: قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ .

و لعلّ القصد من «الأيام المعدودات» هى الأربعون يوماً التى عبدوا فيها العجل فى غياب موسى عليه السّلام، و كان هذا ذنباً لم يكونوا هم أنفسهم قادرين على إنكاره.

أو لعلّها أيام قليله من أعمارهم ارتكبوا فيها ذنوباً كبيره غير قابله للإنكار، و لم يستطيعوا حتّى على إخفائها.

هذه الامتيازات الكاذبه المصطنعه، التى أسبغوها على أنفسهم و نسبوها إلى الله، صارت شيئاً فشيئاً جزءاً من معتقداتهم بحيث إنّهم اغتروا بها و راحوا يخالفون أحكام الله و يخرقون قوانينه مجترئين عليها جرأه لا مزيد عليها و غرّهم

و تدحض الآيه الثالثه كل هذه الخيالات الباطله و تقول: لا شك أنّ هؤلاء سوف يلاقون يوما يجتمع فيه البشر أمام محكمه العدل الإلهي فيتسلّم كل فرد قائمه أعماله، و يحصدون ناتج ما زرعه، و مهما يكن عقابهم فهم لا يظلمون لأنّ ذلك هو حاصل أعمالهم فكيف إذا جمّعناهم ليوم لا ريب فيه و وقيت كل نفس ما كسبت و هم لا يظلمون .

يتضح من ما كسبت أنّ عقاب المرء و ثوابه يوم القيامة و فوزه و خذلانه في العالم الآخر إنّما يرتبط بأعماله هو، و لا يؤثر فيه شيء آخر. هذه حقيقه أشير إليها في كثير من الآيات الكريمه.

### سؤالان

١- يمكن للإنسان أن يخلق كذبا أو افتراء و ينسبه إلى الله، ثم يتأثر به هو و يعتوره الغرور إلى تلك الدرجه التي أشار إليها القرآن في الآيات السابقه بالنسبه لليهود؟ ليس من العسير الردّ على هذا السؤال، و ذلك لأنّ قضيه خداع النفس من القضايا التي يعترف بها علم النفس المعاصر. إنّ العقل الإنسانى يسعى أحيانا إلى استغفال الضمير بأنّ يغيّر وجه الحقيقه في عين ضميره. كثيرا ما نشاهد أناسا ملوثين بالذنوب الكبيره، كالقتل و السرقة و أمثالها، على الرغم من إدراكهم تماما قبح تلك الأعمال يسعون لإظهار ضحاياهم بأنهم كانوا يستحقّون ما أصابهم لكي يسبغوا هدوءا كاذبا على ضمائرهم، و كثيرا ما نرى المدمنين على المخدّرات يبرّون فعالهم بأنهم يستهدفون الفرار من مصائب الدنيا و مشاكلها.

ثم إنّ هذه الأكاذيب و الافتراءات عن تفوّقهم العنصرى التي حاكتها الأجيال

السابقه من أهل الكتاب وصلت بالتدرّيج إلى الأجيال التاليه التي لم تكن تعرف الكثير عن هذا الموضوع-و لم تعن بالبحث عن الحقيقه-بصوره عقائد مسلم بها.

٢-يمكن أن يقال إنّ الاعتقاد«بالعذاب لأيام معدودات»منتشر بيننا نحن المسلمين أيضا،لأننا نعتقد أنّ المسلمين لا يخلّدون في العذاب الإلهي، إذ أنّ إيمانهم سوف ينجيهم أخيرا من العذاب.

و لكن ينبغي التوكيد هنا أنّنا لا يمكن أن نعتقد بأنّ المسلم المذنب و الملوّث بأنواع الآثام يعذب بضعه أيام فقط،بل أنّنا نعتقد أنّ عذاب هؤلاء يطول لسنوات و سنوات لا- يعرف مداها إلا-الله،إلا- أنّ عذابهم لا- يكون أبديا خالدا.و إذا وجد حقا بين المسلمين من يحسبون أنّهم بالاحتماء بالإسلام و الإيمان و النبي صلى الله عليه و آله و سلّم و الأئمّه الأطهار يجوز لهم أن يرتكبوا ما يشاءون من الذنوب،ثم لا- يصيبهم من العقاب سوى بضعه أيام من العذاب،فإنّهم على خطأ كبير و يجهلون تعاليم الإسلام و روح تشريعاته.

ثمّ إنّنا لا- نعترف بأيّ امتياز خاصّ للمسلمين،بل نعتقد أنّ كلّ أمّه اتّبعت نبيّها في زمانها ثمّ أذنبت مشموله بهذا القانون أيضا،بغضّ النظر عن عنصرها.أمّا اليهود فيخصّون أنفسهم بهذا الامتياز دون غيرهم بزعم تفوّقهم العنصرى.و قد ردّ عليهم القرآن زعمهم الكاذب هذا فى الآيه ١٨ من سوره المائده: بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ .

اشاره

قُلْ اَللّٰهُمَّ مَا لِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ اِنَّكَ عَلِيٌّ  
كُلُّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ (٢٦) تُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ  
تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)

سبب النزول

يذكر المفسر المعروف «الطبرسي» في «مجمع البيان» سببين لنزول هاتين الآيتين يتناولان حقيقه واحده.

١- عند ما فتحت مكه، بشّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين بأنّ دوله الفرس و دوله الروم سرعان ما ستتضويان تحت لواء الإسلام. غير أنّ المنافقين الذين لم تكن قلوبهم قد استنارت بنور الإيمان و لم يدركوا روح الإسلام، اعتبروا ذلك مبالغه، و قالوا بدهشه: لم يقنع محمّد صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينه و مكه، و هو يطمع الآن بفتح فارس و الروم، فنزلت الآيه المذكوره.

٢- كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و المسلمون مشغولون بحفر الخندق في أطراف المدينة، و انتظم المسلمون في جماعات يحفرون بسرعه و جدّ لكي ينجزوا هذا الحصن الدفاعى قبل وصول جيش الأعداء. و فجأه ظهرت صخره كبيره بيضاء صلده وسط الخندق عجز المسلمون عن كسرها أو تحريكها. فجاء «سلمان» إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعرض عليه الأمر. فنزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الخندق و تناول المعول من سلمان و أنزل ضربه شديده بالصخره، فانبعث منها الشرر، فصاح المعول من سلمان و أنزل ضربه شديده بالصخره، فانبعث منها الشرر، فصاح النبي صلى الله عليه وآله وسلم مكبرا تكبيره الإنتصار، فردّد المسلمون التكبير و راح صوتهم يدوى في كلّ مكان. و مرّه أخرى أنزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آله و سلم معوله على الصخره، فانبعث الشرر و كسرت قطعه منها، و ارتفع صوت تكبير الإنتصار من النبي صلى الله عليه وآله وسلم و المسلممين بعده. و للمرّه الثالثه ارتفع معول النبي صلى الله عليه وآله وسلم و سلم و نزل على الصخره، و للمرّه الثالثه انبعث الشرر من الضربه و أضاء ما حولها، و تحطمت الصخره، و ارتفع صوت التكبير بين جنبات الخندق.

فقال سلمان: بأبى أنت و أمى يا رسول الله، لقد رأيت شيئا ما رأيت منك قط.

فالتفت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى القوم و قال: رأيتم ما يقول سلمان؟ قالوا: نعم يا رسول الله. قال: ضربت ضربتى الأولى فبرق الذى رأيتم أضاءت لى منها قصور الحيره و مدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب، فأخبرنى جبرئيل أنّ أمتى ظاهره عليها، ثمّ ضربت ضربتى الثانيه فبرق الذى رأيتم أضاءت لى منها قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب، و أخبرنى جبرئيل أنّ أمتى ظاهره عليها، ثمّ ضربت ضربتى الثالثه فبرق الذى رأيتم أضاءت لى قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب، و أخبرنى جبرئيل أنّ أمتى ظاهره عليها. فابشروا، فاستبشر المسلمون و حمدوا الله. أمّا المنافقون فقد عبسوا و قالوا بلهجه المعترض: أمل باطل و وعد مستحيل! هؤلاء يحفرون الخنادق خوفا على أرواحهم من جيش صغير يخشون

مواجهته، ثم يحلمون فتح أعظم دول العالم. وعندئذ نزلت الآيات المذكورة.

## التفسير

### إشاره

#### بيده كل شيء:

دار الكلام فى الآيات السابقه حول المشركين و أهل الكتاب الذين كانوا يخصون أنفسهم بالعزه و بالملك، و كيف أنهم كانوا يرون أنفسهم فى غنى عن الإسلام. فنزلت هاتان الآيتان تفنيدان مزاعمهم الباطله يقول تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ مَا لِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ .

إن المالك الحقيقى للأشياء هو خالقها. و هو الذى يعطى لمن يشاء الملك و السلطان، أو يسلبهما ممن يشاء، فهو الذى يعز، و هو الذى يذل، و هو القادر على كل هذه الأمور، وَ تُعْزُّ مَنْ تَشَاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِبَيْدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

و لا- حاجه للقول بأن مشيئه الله فى هذه الآيات لا- تعنى أنه يعطى بدون حساب و لا- موجب، أو يأخذ بدون حساب و لا موجب، بل أن مشيئته مبنيه على الحكمه و النظام و مصلحه عالم الخلق و عالم الإنسانيه عموما. و بناء على ذلك فإن أى عمل يقوم به إنما هو خير عمل و أصحّه.

#### بَيْدِكَ الْخَيْرُ

«خير» صيغه تفضيل يقصد بها تفضيل شىء على شىء، و الكلمه تطلق أيضا على كل شىء حسن. بدون مفهوم التفضيل، و الظاهر من الآيه مورد البحث أنها جاءت بالمعنى الثانى هذا، أى إن مصدر كل خير بيده و منه سبحانه.

و عبارته بَيْدِكَ الْخَيْرُ تحصر كل الخير بيد الله من جهتين:

١- الألف و اللام في «الخير» هما للاستغراق.

٢- أنّ تقديم الخبر «بيدك» و تأخير المبتدأ «الخير» دليل على الحصر كما هو معلوم. فيكون المعنى: «كلّ الخير بيدك و حدك لا بيد غيرك».

كذلك يستفاد من «بيدك الخير» أنّ الله هو منبع كلّ خير و سعادته فإذا أعزّ أحدا أو أذلّه، أو أعطى السلطنة و الحكم لأحد الناس أو سلبها منه فذلك قائم على العدل، و لا شرّ فيه. فالخير للأشرار أن يكونوا في السجن، و الخير للأخيار أن يكونوا أحرارا.

و بعبارة اخرى: أنه لا وجود للشر في العالم، و نحن الذين نقلب الخيرات إلى شرور، فعند ما تحصر الآية الخير بيده تعالى و لا تتحدث عن الشر إنما هو بسبب ان الشر لا يصدر من ذاته المقدسه إطلاقا.

إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

هذه الآية جاءت دليلا على الآية السابقة. أى ما دام الله ذا قدره مطلقه، فليس ثمّ ما يمنع أن يكون كلّ خير خاضعا لمشيئته.

الحكومات الصالحة و غير الصالحة:

يطرح هنا سؤال هام يقول: قد يستنتج بعضهم من هذه الآية أنّ من يصل إلى مركز الحكم، أو يسقط منه، فذلك بمشيئه الله. و من هنا فلا بدّ من قبول حكومات الجبارين و الظالمين في التاريخ مثل حكومات جنكيزخان و هتلر و غيرهما. بل أنّنا نقرأ في التاريخ أنّ «يزيد بن معاوية»-تبريرا لحكمه الشائن الظالم- استشهد بهذه الآية (١). لذلك نرى في كتب التفسير توضيحات مختلفه بشأن هذه الشبهه. من

ص: ٤٤٨

١- (١) - إرشاد المفيد: نقلا عن تفسير الميزان.

ذلك أنّ الآيه تختصّ بالحكومات الإلهيه، أو أنّها تقتصر على حكومه رسول الله صلى الله عليه وآله و سلمّ التي أنهت حكم جبارى قريش.

و لكن الآيه تطرح فى الواقع مفهوما عاميا يقضى أنّ جميع الحكومات الصالحه و غير الصالحه مؤطره بقانون مشيئه الله، و لكن ينبغى أن نعلم أنّ الله قد أوجد مجموعه من الأسباب للتقدّم و النجاح فى العالم، و أنّ الاستفاده من تلك الأسباب هى نفسها مشيئه الله. و عليه فإنّ مشيئه الله هى الآثار المخلوقه فى تلك الأسباب و العوامل. فإذا قام ظلمه و طغاه-مثل جنكيز و يزيد و فرعون-باستغلال أسباب النجاح، و خضعت لهم شعوب ضعيفه و جبانه، و تحمّلت حكمهم الشائن، فذلك من نتائج أعمال تلك الشعوب و قد قيل: كيفما كنتم يولّى عليكم.

و لكن إذا كانت هذه الشعوب و اعيه، و انتزعت تلك الأسباب و العوامل من أيدي الجبابره و أعطتها بيد الصلحاء، و أقامت حكومات عادله، فإن ذلك أيضا نتيجة لأعمالها و لطريقه استفادتها من تلك العوامل و الأسباب الإلهيه.

فى الواقع، أنّ الآيه دعوه للأفراد و المجتمعات إلى اليقظه الدائمه و الوعى و استفاده من عوامل النجاح و النصر، لكى يشغلوا المواقع الحساسه قبل أن يستولى عليها أناس غير صالحين.

خلاصه القول: إنّ مشيئه الله هى نفسها عالم الأسباب، إنّما الاختلاف فى كيفيه استفادتنا من عالم الأسباب هذا.

فى الآيه التاليه و لتأكيد حاكميه الله المطلقه على جميع الكائنات تضيف الآيه:

١- تُؤلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ تُؤلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ... .

و بهذا تذكر الآيه بعض المصاديق البارزه على قدره الله تعالى، و منها مسأله التغيير التدريجى لليل و النهار، بمعنى أن الليل يقصر مدّته فى نصف من السنه، و هو



ما عبّر عنه بدخوله في النهار، بينما يطول الليل و يقصر النهار في النصف الثاني من السنه، و هو دخول و ولوج النهار في الليل. و كذلك إخراج الموجودات الحيه من الميّه و بالعكس، و كذلك الرزق الكثير الذي يكون من نصيب بعض الأشخاص دون بعض، كلّها من علائم قدرته المطلقه.

## بحوث

«الولوج» بمعنى الدخول. و القصد من الآيه هو هذا التغيير التدريجي الذي نراه بين الليل و النهار طوال السنه. هذا التغيير ناشئ عن انحراف محور الأرض عن مدارها بنحو ٢٣ درجه و اختلاف زاويه سقوط أشعّه الشمس عليها. لذلك نرى الشتاء في النصف الشمالي من خطّ الإستواء تطول أيامه تدريجيا، و تقصر لياليه تدريجيا، حتّى أوائل الصيف، حيث ينعكس التغيير فتقصر أيامه و تطول لياليه حتّى أوائل الشتاء. أمّا في جنوب خطّ الإستواء فالتناظر يكون معكوسا.

و بناء على ذلك فإنّ الله يدخل الليل في النهار، و يدخل النهار في الليل، دائما، أي أنّه ينقص هذا ليزيد ذاك و بالعكس.

قد يقول قائل إنّ الليل و النهار في خطّ الإستواء الحقيقي و في نقطتي القطبين في الشمال و الجنوب متساويان و ليس ثمّه أيّ تغيير فيهما، فالليل و النهار في خطّ الإستواء متساويان و يمتدّ كلّ منهما اثنتي عشره ساعه على امتداد السنه، و في القطبين يمتدّ الليل ستة أشهر و مثله النهار، لذلك فإنّ الآيه ليست عامه.

في الجواب على هذا التساؤل نقول: إنّ خطّ الإستواء الحقيقي خطّ و همي، و الناس عاده يعيشون على طرفي الخط. كذلك الحال في القطبين فهما نقطتان وهميتان، و سكّان القطبين- إن كان فيهما سكّان- يعيشون في مناطق أوسع طبعا

من نقطه القطب الحقيقه، و عليه فالاختلاف موجود فى كلّ الحالات.

و قد يكون للآيه معنى آخر بالإضافة إلى ما ذكر، و هو أنّ الليل و النهار لا يحدثان فجأه فى الكره الأرضيه بسبب وجود طبقات «الجو» حولها. فالنهار يبدأ بالتدرّج من الفجر و ينتشر، و يبدأ الليل من حمرة الأفق الغربى و الغسق، ثمّ ينتشر الظلام حتّى يعمّ جميع الأرجاء.

إنّ للتدرّج فى تغيير الليل و النهار -بأى معنى كان- آثارا مفيده فى حياه الإنسان و الكائنات الأخرى على الأرض. لأنّ نموّ النباتات و كثير من الحيوانات يتمّ فى إطار نور الشمس و حرارتها التدرّجيه. فمن بدايه الربيع حيث يزداد بالتدرّج نور الشمس و حراراتها، تطوى النباتات و كثير من الحيوانات كلّ يوم مرحله جديده من تكاملها. و لمّا كانت هذه الموجودات تحتاج بمرور الأيام إلى مزيد من النور و الحراره، فإنّ حاجتها هذه تلبى عن طريق التغييرات التدرّجيه لليل و النهار، لتصل إلى نقطه تكاملها النهائيه.

فلو كان الليل و النهار كما هو دائما، لاختلّ نموّ كثير من النباتات و الحيوانات، و لاختفت الفصول الأربعة التى تنشأ من اختلاف الليل و النهار و من مقدار زاويه سقوط نور الشمس، و لخسر الإنسان فوائد ذلك.

كذلك هى الحال إذا أخذنا بنظر الإعتبار المعنى الثانى فى تفسير الآيه أى أنّ حلول الليل و النهار تدرّجى، لا فجائى، و أنّ هناك فتره بين الطلوعين تفصل بينهما، فمن ذلك يتّضح أنّ هذا التدرّج فى حلول الليل و النهار نعمه كبرى لسكنه الأرض، لأنّهم يتعرّفون بالتدرّج على الظلام أو الضياء، و بذلك تتطابق قواهم الجسميه و حياتهم الاجتماعيه مع هذا التغيير، و إلّا حدثت حتما مشاكل لهم.

٢- وَ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ .

إنّ معنى خروج «الحيّ» من «الميت» هو ظهور الحياه من كائنات عديمه

الحياه. فنحن نعلم أنه في اليوم الذي استعدت فيه الأرض لاستقبال الحياه، ظهرت كائنات حيّه من كائنات عديمه الحياه. أضف إلى ذلك أن مواد لا حياه فيها تصبح باستمرار أجزاء من خلايانا الحيّه و خلايا جميع الكائنات الحيّه في العالم، و تتبدل إلى مواد حيّه.

أمّا خروج «الميت» من «الحيّ» فهو دائم الحدوث أمام أنظارنا.

إنّ الآيه- في الواقع- إشاره إلى قانون التبادل الدائم بين الحياه و الموت، و هو أعمّ القوانين التي تحكمنا و أعقدها، كما أنه أروعهما في الوقت نفسه.

لهذه الآيه تفسير آخر أيضا- لا يتعارض مع التفسير السابق- و هو مسأله الحياه و الموت المعنويين. فنحن كثيرا ما نرى أن بعض المؤمنين- و هم الاحياء الحقيقيون- يخرجون من بعض الكافرين- و هم الأموات الحقيقيون-. و قد يحدث العكس، حين يخرج الكفار من المؤمن.

إنّ القرآن يعبر عن الحياه و الموت المعنويين بالإيمان الكفر في كثير من آياته.

و بموجب هذا التفسير يكون القرآن قد ألغى قانون الوراثة الذي يعتبره بعض العلماء من قوانين الطبيعه الثابته. فالإنسان يتميز بحريّه الاراده و ليس مثل الكائنات غير الحيّه في الطبيعه التي تقع تحت تأثير مختلف العوامل وقوعا إجباريا. و هذا بذاته مظهر من مظاهر قدره الله التي تغسل آثار الكفر في نفوس أبناء الكافرين- أولئك الذين يريدون حقًا أن يكونوا مؤمنين- و يغسل آثار الإيمان من أبناء المؤمنين- الذين يريدون حقًا أن يكونوا كافرين-. و هذا الاستقلال في الإراده، القادر على الإنتصار، حتّى في ظروف غير مؤاتيه، من مظاهر قدره الله أيضا.

هذا المعنى يرد

في حديث عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم، كما جاء في تفسير «الدرّ

المنثور» عن سلمان الفارسي أنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسر الآية يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ... فقال: أى أنه يخرج المؤمن من صلب الكافر، والكافر من صلب المؤمن.

٣- وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

هذه الآية تعتبر من باب ذكر «العام» بعد «الخاص»، إذ الآيات السابقة قد ذكرت نماذج من الرزق الإلهي، أما هنا فالآية تشير إلى جميع النعم على وجه العموم، أى أن العزّة والحكم والحياه والموت ليست هى وحدها بيد الله، بل بيده كلّ أنواع الرزق والنعم أيضا.

وتعبير بِغَيْرِ حِسَابٍ يشير إلى أن بحر النعم الإلهيه من السعه والكبير بحيث إنه مهما اعطى منه فلن ينقص منه شيء ولا حاجة به لضبط الحسابات. فالتسجيل فى دفاتر الحساب من عادة ذوى الثروات الصغيره المحدوده التى يخشى عليها من النفاذ والنقصان. فهؤلاء هم الذين يحسبون حسابهم قبل أن يهبوا لأحد شيئا، لئلا تتبددا ثرواتهم. أما الله فلا يخشى النقص فيما عنده، ولا أحد يحاسبه، ولا حاجة له بالحساب.

يتضح ممّا قلنا أنّ هذه الآية لا تتعارض مع الآيات التى تبين التقدير الإلهي وتطرح موضوع لياقه الأفراد وقابليتهم ومسأله التدبير فى الخلقه.

٤- ليس فى الأمر إجبار و هنا يطرح سؤال آخر وهو: إننا نعلم أنّ الإنسان حرّ فى كسب رزقه بغير إجبار، وذلك بموجب قانون الخلق وحكم العقل ودعوه الأنبياء، فكيف تقول هذه الآية أنّ كلّ هذه الأمور بيد الله؟ فى الجواب نقول: إن المصدر الأوّل لعالم الخلق وجميع العطايا والإمكانات الموجوده عند الناس هو الله، فهو الذى وضع جميع الوسائل فى متناول الناس

لبلوغ العزّه و السعاده. و هو الذى وضع فى الكون تلك القوانين التى إذا لم يلتزمها الناس انحدروا إلى الذلّ و التعاسه. و على هذا الأساس يمكن إرجاع كلّ تلك الأمور إليه، و ليس فى ذلك أىّ تعارض مع حرّيه إرادته البشر، لأنّ الإنسان هو الذى يتصرّف بهذه القوانين و المواهب و القوى و الطاقات تصرّفًا صحيحًا أو خاطئًا.

ص: ٤٥٤

اشاره

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاهُ وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨)

التفسير

اشاره

العلاقة مع الأجنبي:

ذكرت الآيات السابقة أن العزّه والذلّه وجميع الخيرات بيد الله تعالى. وبهذه المناسبه فإنّ هذه الآيه تحذّر المؤمنين من مصادقه الكافرين و تنهاهم بشدّه من موالاته الكفّار، لأنّه إذا كانت هذه الصداقه والولاء من أجل العزّه والقدرة والثروه.

فإنها جميعا بيد الله عزّ وجلّ. ولذلك تقول الآيه:

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ

ولو ارتكب أحد المؤمنين ذلك فإنه يقطع ارتباطه مع الله تماما وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ وقد نزلت هذه الآيه في وقت كانت هناك روابط بين المسلمين والمشرّكين مع اليهود والنصارى.

وهذه الآيه درس سياسيّ واجتماعيّ مهمّ للمسلمين، فتحذّرهم من اتّخاذ الأجنبيّ صديقا أو حاميا أو عوناً ورفيقاً، في أيّ عمل من أعمالهم، ومن الانخداع

بكلامه المعسول و عروضه الجذابه و تظاهره بالمحبه الحميمه، لأنّ التاريخ قد أثبت بأنّ أقسى الضربات التي تلقاها المؤمنون جاءت من هذا الطريق.

لو أننا طالعنا تاريخ الاستعمار للاحظنا أنّ المستعمرين جاؤوا دائما في لبوس الصداقه و الترحم و حبّ الإعمار و البناء فتغلغلوا بين طبقات المجتمع.

إنّ كلمه «استعمار» التي تعنى الإعمار و البناء دليل على هذا الخداع، فهم بعد أن يتمكنوا من إنشأب مخالبيهم فى جذور المجتمع المستعمر، يبدأون بامتصاص دمائه بكلّ قسوه و بغير رحمه.

مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ

إشاره إلى أنّ الناس فى حياتهم الاجتماعيه لا بدّ لهم من اتّخاذ الأولياء و الأصدقاء، فعلى المؤمنين أن يختاروا أولياءهم من بين المؤمنين، لا من بين الكافرين.

□  
فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ

تقول الآيه: إن الذين يعقدون أواصر صداقتهم و ولاءهم مع أعداء الله، ليسوا من الله فى أىّ شىء من الأشياء، أى أنّهم يكونون قد تخلّوا عن إطاعه أوامر الله و قطعوا علاقتهم بالجماعه المؤمنه الموحده، و انقطعت ارتباطاتهم من جميع الجهات.

□  
إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاءً

هذا استثناء من الحكم المذكور، و هو أنّه إذا اقتضت الظروف-التقيه- فللمسلمين أن يظهروا الصداقه لغير المؤمنين الذين يخشون منهم على حياتهم.

□ □  
و لكن الآيه تعود فى الختام لتؤكد الحكم الأول فتقول: يُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ فالله ينذر الناس أولا بغضب منه و بعقاب شديد، ثمّ إنّ مرجع الناس جميعا إلى الله. و إن تولّوا أعداء الله نالوا عاجلا نتيجه أعمالهم.

## ١- التقيه أو الدرع الواقى

صحيح أن الإنسان قد يضحي حتى بحياته من أجل هدف كبير و لصيانه الشرف و نصره الحق و قمع الباطل، و لكن هل يجيز عاقل لنفسه أن تتعرض للخطر دون أن يكون أمامه هدف هام؟ الإسلام يجيز الإنسان صراحه أن يمتنع عن إعلان الحق مؤقتا و أن يؤدى واجبه فى الخفاء حين يعرضه ذلك لخطر فى النفس و المال و العرض و حين لا يكون للإعلان نتيجة مهمه و فائده كبيره. كما جاء فى هذه الآيه، و كما جاء فى الآيه ١٠٦ من سوره النحل حيث يقول: **إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ .**

إن كتب التاريخ و الحديث الإسلامى ما زالت تحفظ حكاية «عمّار» و أبيه و أمه إذ وقعوا فى قبضه عبده الأصنام الذين راحوا يعدّونهم لكى يرتدوا عن الإسلام. فرفض والدا عمّار ذلك فقتلها المشركون. غير أن عمّارا قال بلسانه ما أرادوا أن يقوله، ثم هرع باكيا إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم خوفا من الله،

فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: **«إن عادوا لك فعد لهم»** أى إذا قبضوا عليك مره أخرى و طلبوا منك أن تقول شيئا فقله، و بهذا هدأ روعه و زال عنه خوفه.

لا بدّ من الإشارة إلى أن حكم التقيه يختلف باختلاف الظروف، فهى قد تكون واجبه، و قد تكون حراما، و قد تكون مباحه.

تجب التقيه حيثما تتعرض حياه الإنسان للخطر دونما فائده تذكر. أما إذا كانت التقيه سببا فى ترويح الباطل و ضلاله الناس و إسناد الظالم فهى هنا حرام.

و هذا جواب لجميع الاعتراضات التى ترد بهذا الشأن. لو أن المعترضين دققوا فى البحث لأدركوا أن الشيعة ليسوا منفردين بهذا الاعتقاد، بل أن التقيه فى موضعها حكم عقلى قاطع و يتفق مع الفطره الإنسانيه.



فجميع عقلاء العالم-حين يرون أنفسهم أمام طريقتين:إمّا الإعلان عن عقيدتهم و المخاطره بالنفس و المال و الكرامه،أو إخفاء معتقداتهم-يمعنون النظر فى الظروف القائمه.فإن كان الإعلان عن العقيدته يستحقّ كلّ هذه التضحيه بالنفس و المال و الكرامه اعتبروا إعلانها عملاً صحيحاً،و إن لم يكن للإعلان نتيجته تذكر تركوا ذلك.

## ٢-التقيه أو تغيير أسلوب النضال:

فى تاريخ النضالات الدينيه و الاجتماعيه و السياسيه حالات إذا أراد فيها المدافعون عن الحقّ أن يناضلوا علانيه،فإنهم يتعرّضون للإياده هم و مبادؤهم أو يواجهون الخطر على الأقلّ،مثل الحاله التى مرّ بها شيعة على عليه السّلام على عهد بنى أميه.فى مثل هذه الحاله يكون الطريق الصحيح و المعقول هو أن لا يبدّدوا قواهم، و أن يواصلوا نضالهم غير المباشر فى الخفاء.التقيه فى مثل هذه الحالات أشبه بتغيير أسلوب النضال الذى يجتّبهم الفناء و يحقق لهم النصر فى الكفاح.إنّ الذين يرفضون التقيه كليّه و يفتون ببطلانها لا ندرى ما الذى يقترحونه فى مثل هذه الحالات؟أ يرون الفناء خيراً،أم استمرار النضال بشكل صحيح و منطقي؟ هذا الطريق الثانى هو التقيه،و أمّا الطريق الأوّل فليس بمقدور أحد أن يجيزه.

و يتضح ممّا تقدّم أن التقيه هى أصل قرآنى مسلّم،و لكنّها تكون مشروعه فى موارد معينه و وفق ضوابط خاصّه.و ما نرى من بعض الجهلاء أنّهم تصوّروا أن التقيه من اختلاقات أتباع أهل البيت عليهم السّلام فهو دليل على عدم اطلاعهم على القرآن بصوره كافيه.

اشاره

قُلْ إِن تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩)

التفسير

اشاره

العالم بأسراركم:

نهت الآيه السابقه عن الصداقه و التعاون مع الكافرين و الاعتماد عليهم نهيا شديدا، و استثنت من ذلك حاله «التقيه».

إلا أن بعضهم قد يتخذ من «التقيه» في غير محلها ذريعه لمد يد الصداقه إلى الكفار أو الخضوع لولايتهم و سيطرتهم. و بعبارة اخرى أنهم قد يستغلون «التقيه» و يتخذونها مبررا لعقد أو اصر العلاقات مع أعداء الإسلام. فهذه الآيه تحذّر أمثال هؤلاء و تأمرهم أن يضعوا نصب أعينهم علم الله المحيط بأسرار القلوب و العالم بما ظهر و ما خفي و تقول قُلْ إِن تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ وَ لَا يَقْتَصِرُ عِلْمُ اللَّهِ الْوَاسِعَ عَلَىٰ ذَلِكَ بَلْ: وَ يُعَلِّمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ .

فِي الْوَاقِعِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَكِي تَتَّبِعَهُ النَّاسُ إِلَى إِحْاطَةِ اللَّهِ بِأَسْرَارِهِمُ الْخَفِيَّةِ، تَشِيرُ إِلَى أَنَّ مَعْرِفَةَ اللَّهِ بِأَسْرَارِهِمْ إِنَّمَا هِيَ جَانِبٌ صَغِيرٌ مِنْ مَدَى عِلْمِهِ الْوَالْمَحْدُودِ الَّذِي يَسِعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ. وَهُوَ إِضَافَةٌ إِلَى عِلْمِهِ الْوَاسِعِ قَادِرٌ عَلَى مَعَاqِبِهِ الْمَذْنُونِ: وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

ص : ٤٦٠

اشاره

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحِذُّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠)

التفسير

اشاره

حضور الأعمال يوم القيامة:

تشير هذه الآيه إلى حضور الأعمال الصالحه و السيئه يوم القيامة، فيرى كل امرئ ما عمل من خير و ما عمل من شرّ حاضرا أمامه. فالذين يشاهدون أعمالهم الصالحه يفرحون و يستبشرون، و الذين يشاهدون أعمالهم السيئه يستولى عليهم الرعب و يتمنون لو أنهم استطاعوا أن يتعدوا عنها تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا فالآيه لم تقل أنه يتمنى فناء عمله و سيئاته، لأنه يعلم أن كل شيء في العالم لا يفنى فلذلك يتمنى أن يتعد عنه كثيرا.

«الأمد» في اللغة الزمان المحدود، و«الأبد» اللامحدود، و الأمد يقصد من استعماله غالبا انتهاء الزمان، و إن استعمل أحيانا أيضا في مطلق الزمان المحدود.

بناء على ذلك، فإنّ المذنبين- كما تقول الآية- يتمنون أنّ يمتدّ الفاصل الزماني بينهم و بين ذنوبهم طويلا، و هو تعبير عن ذروه ما يشعرون به من تعاسه جزاء أعمالهم السيئه، لأنّ طلب البعد الزماني أبلغ في التعبير عن هذا الاستيلاء من طلب البعد المكاني، فاحتمال الحضور موجود في الفاصل المكاني، بينما ينتفى هذا الاحتمال تماما في الفاصل الزماني.

فإذا عاش أحد- مثلا- في فترة الحرب العالميه، شمله القلق و الاضطراب و إن ابتعد مكانيا عن منطقته الحرب، لكن الشخص الذي يعيش في فترة زمنيّه بعيده عن الحرب لا يشعر بذلك القلق.

هذا مع أن بعض المفسرين احتملوا أن يكون للفظه «الأمد» معنى البعد المكاني أيضا (كما ورد في مجمع البيان نقلا عن بعض المفسرين)، غير أن هذا لم يرد في اللغة على الظاهر.

وَ يُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ

في الجزء الأول من هذه العبارة يحذّر الله الناس من عصيان أوامره، و في الجزء الثاني يذكّرهم برأفته. و يبدو أنّ هذين الجزئين هما- على عاده القرآن- مزيج من الوعد و الوعيد. و من المحتمل أن يكون الجزء الثاني وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ توكيدا للجزء الأول وَ يُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ، و هذا أشبه بمن يقول لك: إنّي أحذرك من هذا العمل الخطر، و إنّ تحذيري إياك دليل على رأفتي بك، إذ لو لا حبي لك لما حذرتك.

## القرآن و تجسّد الأعمال و حضورها

هذه الآية تبين بكل وضوح تجسّد الأعمال و حضورها يوم القيامة. كلمه

«تجد» من الوجود ضدّ العدم. و لفظتا «خير» و «سوء» وردتا نكرتين لتفيدا العموم.

أى أنّ الإنسان يجد أعماله الحسنه و القبيحه يوم القيامة مهما تكن قليله.

بعضهم أوّل هذه الآيه و أشباهها و قال إنّ القصد من حضور الأعمال هو حضور ثوابها أو عقابها، أو حضور سجلّ الأعمال الذى دوّنت فيه الأعمال كلّها.

و لكن من الجلى أنّ ذلك لا ينسجم و ظاهر الآيه، لأنّ الآيه تقول بوضوح إنّ الإنسان يوم القيامة «يجد» عمله. و تقول: إنّ المسىء يودّ لو أنّ بينه و بين «عمله» القبيح فواصل مديده. فهنا «العمل» نفسه هو الذى يدور حوله الكلام. لا سجلّ الأعمال، و لا الثواب و العقاب.

كذلك نقرأ فى الآيه أنّ المسىء يودّ لو بعد عنه عمله، و لكنّه لا- يتمنى زوال عمله إطلاقاً. و هذا يعنى أنّ زوال الأعمال غير ممكن، و لذلك فهو لا يتمناه.

هناك آيات كثيره أخرى تؤيد هذا الأمر، كآيه ٤٩ من سوره الكهف.

وَ وَجِدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۚ وَ لَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۗ وَ الْآيَاتُ ٧ وَ ٨ مِنْ سُوْرَةِ الزَّلْزَالِ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ \* وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ .

سبق أن قلنا إنّ بعض المفسرين يرون أنّ لفظ «الجزاء» مقدرّ و هذا خلاف ظاهر الآيه.

يستفاد من بعض الآيات أنّ الدنيا مزرعه الآخره، و أنّ عمل الإنسان أشبه بالحبّ الذى يزرع فى التربه، فتنمو تلك الحبّه، ثمّ يحصد الإنسان معها حبًا كثيرًا.

كذلك هى أعمال الإنسان التى تجرى عليها تبدّلات و تغيّرات تناسب يوم القيامة، ثمّ تعود إلى الإنسان نفسه، كما جاء فى الآيه ٢٠ من سوره الشورى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ .

و يستفاد من آيات أخرى أنّ الأعمال الصالحه فى هذه الدنيا تأتى فى الآخره بصوره نور و ضياء، فيطلبه المنافقون من المؤمنين: أَنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ

فيقال لهم: اِرْجِعُوا وِرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا (١).

هذه الآيات و غيرها العشرات تدلّ على أننا يوم القيامة نجد العمل عينه بشكل أكمل، و هذا هو تجسيد الأعمال الذي يقول به علماء الإسلام.

هناك روايات كثيرة أيضا عن أئمة الإسلام تؤكّد هذا المعنى، من ذلك:

قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم لمن طلب أن يعظه:

«لا بدّ لك يا قيس من قرين يدفن معك و هو حيّ، و تدفن معه و أنت ميت، فإن كان كريما أكرمك، و إن كان لعينا أسلمك، لا يحشر إلاّ معك و لا تحشر إلاّ معه، و لا تسأل إلاّ عنه، و لا تبعث إلاّ معه، فلا تجعله إلاّ صالحا، فإنّه إن كان صالحا لم تستأنس إلاّ به، و إن كان فاحشا لا تستوحش إلاّ منه، و هو عملك»

(٢)

و لإلقاء الضوء على هذا البحث لا بدّ من معرفه كيفية الإثابه و العقاب على الأعمال.

### رأى العلماء فى الثواب و العقاب

للعلماء آراء مختلفه فى الثواب و العقاب:

١- يعتقد البعض أن جزاء الأعمال الاخرى أمر اعتبارى، مثل المكافأه و العقوبه فى هذه الدنيا، أى كما أنّ هناك فى هذه الدنيا عقابا على كلّ عمل سيّء أقرّه القانون الوضعى، كذلك وضع الله لكّل عمل ثوابا أو عقابا معيّنين. و هذه هى نظره الأجر المعين و الجزاء القانونى.

٢- ثمّه آخرون يعتقدون أنّ النفس البشريه تخلق الثواب و العقاب، فالنفس تخلق ذلك فى العالم الآخر دون إختيار، أى أنّ الأعمال الحسنه و الأعمال السيّئه

ص: ٤٦٤

١- (١) - الحديد: ١٣.

٢- (٢) - البحار: طبعه كمباني: ج ٣ ص ٢٥٧.

فى هذا العالم تخلق فى النفس صفات حسنة أو سيئة، وهذه الصفات تصيح جزءا متمكنا من ذات الإنسان، و تبدأ هذه بإيجاد صوره تناسبها من السعاده أو العذاب.

فذو الباطن الحسن فى هذا العالم يتعامل مع مجموعه من الأفكار و التصورات الحسنه، و الأشرار و الخبثاء مشغولون بأفكارهم الباطله و تصوراتهم الدينيه فى نومهم و يقظتهم.

و فى يوم القيامه تقوم هذه الصفات نفسها بخلق السكينه و العذاب أو الشقاء و السعاده. و عباره أخرى أنّ ما نقرأه عن نعم الجنّه و عذاب جهنّم ليس سوى ما تخلقه هذه الصفات الحسنه أو السيئه فى الإنسان.

٣-فريق ثالث من كبار علماء الإسلام اتّخذوا سبيلا- آخر دعموه بكثير من الآيات و الأحاديث. يقول هؤلاء: إنّ لكلّ عمل من أعمالنا-حسنا كان أم سيئا- صوره دنيويه هى التى نراها، و صوره أخرويه كامنه فى باطن ذلك العمل. و فى يوم القيامه، و بعد أن تكون قد طرأت عليه تحولات كثيره، يفقد صورته الدنيويه و يظهر بصورته الأخرويه فيبعث على راحه فاعله و سكينته، أو شقائه و عذابه.

هذه النظره، من بين النظرات الأخرى، تتفق مع كثير من آيات القرآن، و بناء على ذلك، فإنّ أعمال الإنسان-و هى مظاهر مختلفه من الطاقه-لا- تفنى بموجب قانون بقاء«الماده/الطاقه» و تبقى أبدا فى هذه الدنيا، على الرغم من أنّ الناظر السطحى يظنّها قد تلاشت.

إنّ بقاء هذه الأعمال بقاء أبديا يتيح من جهه أن يراها الإنسان عند محاسبته يوم القيامه و لا يبقى له مجال للإنكار، كما يتيح للإنسان من جهه أخرى أن يعيش يوم القيامه بين أعماله، فيشقى أو يسعد. و على الرغم من أنّ علم الإنسان لم يبلغ بعد مرحله اكتشاف الماضى، إلاّ للحظات قليله سابقه (١)، فمما لا شكّ فيه أنّه لو تمّ

ص: ٤٦٥

(١-١) -اكتشف العلماء جهاز تصوير يعمل بالأشعه ما تحت الحمراء تستطيع أن تصوّر حدثا لم يمض عليه أكثر من



صنع جهاز أدقّ و أكمل، أو لو كانت لنا «رؤيه» و «إدراك» أكمل لاستطعنا أن نرى و ندرك كلّ ما حدث في الماضي. (ليس هناك ما يمنع أن يكون جانب من الثواب و العقاب ذا طابع توافقي).

## العلم و تجسيد الأعمال

لإثبات إمكان تجسيد الأعمال الماضيه، يمكن الاستناد إلى مبادئ الفيزياء الثابته اليوم، فقوانين الفيزياء تقول إنّ الماده تتحوّل إلى طاقه، و ذلك لأنّ «الماده» و «الطاقه» مظهران لحقيقه واحده، كما تقول أحدث النظريات بهذا الخصوص، و أنّ الماده طاقه متراكمه مضغوطة تتحوّل إلى طاقه في ظروف معينه. و قد تكون الطاقه الكامنه في غرام واحد من الماده تعادل في قوه انفجارها أكثر من ثلاثين ألف طن من الديناميت.

ملخص القول: إنّ الماده و الطاقه مظهران لحقيقه واحده، و بالنظر لعدم فناء الطاقه و الماده، فليس هناك ما يحول دون تراكم الطاقات المنتشره مرّه أخرى و تتخذ صوره ماده أو جسم، فإذا كانت نتيجة الأعمال صالحه ظهرت بصوره نعم مادّيه جميله، و إذا كانت شرًا و سيئه فإنّها تتجسد في وسائل عذاب و عقاب.

(1)

بضع لحظات، إنّ الجهاز يعمل وفق نظام حرارى يجتذب الأمواج الصادره عن الأجسام، و يحوّلها بوساطه جهاز يدعى «ترموجرام» إلى سالب و موجب، ثمّ يصوّرها بالأسود و الأبيض - كما ذكرت وسائل الإعلام - و بهذا يمكن - أن نعرف كيفيه وقوع جريمه و تصوير أعمال المجرمين السابقه ثمّ عرضها عليهم و كشف كذبهم.

ص: ٤٦٦

إشاره

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)

سبب النزول

لهاتين الآيتين روايتان في سبب نزولهما: إحداهما في تفسير «مجمع البيان» و الأخرى في تفسير «المنار».

الأولى تقول: ادعى جمع من الحاضرين في مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنهم يحبون الله، مع أن العمل بتعاليم الله كان أقل ظهوراً في أعمالهم. فنزلت هاتان الآيتان بشأنهم.

و تقول الأخرى: حضر فريق من مسيحيي نجران مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وزعموا في حديثهم أن مبالغتهم في تقديس المسيح عليه السلام إنما ينطلق من حبهم لله.

فنزلت الآيتان تردان عليهم.

## الحب الحقيقي:

تقول الآية الأولى إِنَّ الْحَبَّ لَيْسَ بِالعَلاقَةِ القَلْبِيَةِ فَحَسَب، بل يجب أن تظهر آثاره في عمل الإنسان. إِنَّ من يدعى حَبَّ الله، فعليه أولاً اتِّباعَ رسوله: إِنَّ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي .

في الواقع أَنَّ من آثار الحَبِّ الطَّبِيعِيَةِ انجذاب المحبِّ نحو المحبوب و الاستجابة له. صحيح أَنَّ هناك حَبًّا ضعيفا لا تتجاوز أشعته جدران القلب، إلاَّ أَنَّ هذا من التفاهة بحيث لا يمكن اعتباره حَبًّا. لا شكَّ أَنَّ للحَبِّ الحقيقي آثارا عمليه تربط المحبَّ بالحبيب و تدفعه للسعى في تحقيق طلباته.

و الدليل على ذلك واضح، فحَبُّ المرء شيئا لا بدَّ أن يكون بسبب عثوره على أحد الكمالات فيه. لا يمكن أَنَّ يحبَّ الإنسان مخلوقا ليس فيه شيء من قوه الجذب، و عليه فإنَّ حَبَّ الإنسان لله ناشئ من كونه منبع جميع الكمالات و أصلها. إِنَّ محبوبا هذا شأنه لا بدَّ أن تكون أوامره كامله أيضا، فكيف يمكن لإنسان يعشق الكمال المطلق أن يعصى أوامر الحبيب و تعاليمه، فإن عصى فذلك دليل على أَنَّ حَبَّهُ غير حقيقي.

هذه الآية لا تقتصر في ردِّها على مسيحيي نجران و الذين ادَّعوا حَبَّ الله على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلَّم، بل هذا الردُّ أصيل و عامٌّ في منطق الإسلام موجَّه إلى جميع العصور و القرون. إِنَّ الذين لا يفتأون-ليل نهار- يتحدَّثون عن حَبِّهم لله و لأئمَّه الإسلام و للمجاهدين في سبيل الله و للصالحين و الأخيار، و لكنَّهم لا يشبهون أولئك في العمل، هم كاذبون.

أولئك الغارقون في الذنوب من قمة الرأس حتَّى أخمص القدم، و مع ذلك فهم يرون أن قلوبهم مليئه بحبِّ الله و رسوله و أمير المؤمنين و الأئمَّه العظام، أو الذين

يعتقدون أنّ الإيمان و الحبّ و المحبّه قلبيه فحسب،هم غرباء على منطق الإسلام تماما.

جاء في «معانى الأخبار» عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ما أحبّ الله من عساه». ثم قرأ الأبيات:

تعصى الإله و أنت تظهر حبه

هذا لعمر ك فى الفعال بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته

إنّ المحبّ لمن يحبّ مطيع

يُحِبُّكُمْ اللَّهُ وَ يُعْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

تقول هذه الآيه: إذا كنتم تحبون الله، و بدت آثار ذلك فى أعمالكم و حياتكم، فإنّ الله سيحبّكم أيضا، و سوف تظهر آثار حبه أنه سيغفر لكم ذنوبكم، و يشملكم برحمته.

و الدليل على هذا الحبّ المتقابل من قبل الله واضح أيضا، لأنّه سبحانه موجود كامل و لا متناه من كلّ الجهات، و سيرتبط-على أثر السنخيه- بكل موجود يقطع خطوات على طريق التكامل برباط الحبّ.

يتبين من هذه الآيه أن ليس هناك حبّ من طرف واحد، لأنّ الحبّ يدفع المحبّ إلى أن يحقّق عمليا رغبات حبيبه. و فى هذه الحالة لا يمكن للمحبيب إلا أن يرتبط بالمحبّ.

قد يسأل سائل: إذا كان المحبّ دائم الإطاعه لأوامر المحبوب، فلا يبقى له ذنب فيغفر له، و لذلك فإنّ جملة وَ يُعْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ليست ذات موضوع.

فى الجواب نقول: أوّلا يمكن أن تعنى هذه الجملة غفران الذنوب السابقه.

و ثانيا أنّ المحبّ لا يستمرّ فى عصيان المحبوب، و لكن قد يزلّ أحيانا بسبب طغيان الشهوات، و هذا هو الذى يغفره الله سبحانه.

جاء فى كثير من الأحاديث أنّ أئمة الإسلام كانوا يقولون: ما الدين إلا الحب. و من ذلك ما

□  
جاء فى «الخصال» و «الكافى» عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «و هل الدين إلا الحب؟» ثم تلا هذه الآية إن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِيْ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ تَرِيدُ أَنْ تَبَيِّنَ أَنَّ حَقِيقَةَ الدِّينِ وَ رُوحَهُ هِيَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَ حُبُّهُ، ذَلِكَ الْإِيمَانُ وَ الْعَشْقُ لِلَّذِينَ يَعْمُ نُورَهُمَا كُلُّ الْوُجُودِ الْإِنْسَانِيَّ وَ يَضِيئَانِهِ، وَ تَتَأَثَّرُ بِهِمَا الْأَعْضَاءُ وَ الْجَوَارِحُ، وَ يَظْهَرُ أَثْرُهُمَا فِي اتِّبَاعِ أَوْامِرِ اللَّهِ.

□  
قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ

هذه الآية تتابع حديث الآية السابقة، و تقول: ما دتم تدعون الحب لله، إذا اتبعوا أمر الله و رسوله، و إن لم تفعلوا فلستم تحبون الله، و الله لا يحب هؤلاء فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين .

□  
و يستفاد من أطيعوا الله و الرسول أنّ إطاعه الله و إطاعه رسوله لا تنفصلان، و أنّ إطاعه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم هى إطاعه الله، و إطاعه الله هى إطاعه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، لذلك فالآية السابقة تحدت عن إطاعه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فقط، و هنا دار الكلام على إطاعتهما كليهما.

إشارة

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّتَهُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)

التفسير

إشارة

فى مبتدأ هذه الآيه يشرع القرآن بسرد حكاية مريم و أجدادها و مقامهم، فهم النموذج الكامل لحب الله الحقيقى و ظهور آثار هذا الحب فى مقام العمل و الذى أشارت إليه الآيات السابقة.

«اصطفى» من الصفو، و هو خلوص الشىء من الشوائب، و منه «الصفاء» للحجاره الصافيه. و عليه فالاصطفاء هو تناول صفو الشىء.

تقول الآيه: إِنَّ اللَّهَ اخْتَارَ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ جَمِيعًا. هذا الاختيار قد يكون «تكوينيا» و قد يكون «تشريعيا» أى أَنَّ اللَّهَ قَدْ خَلَقَ هَؤُلَاءِ مِنْذُ الْبَدْءِ خَلْقًا مُمَيِّزًا، و إن لم يكن فى هذا الامتياز ما يجبرهم على إختيار طريق الحق، بل أنهم بملء اختيارهم و حرّيه إرادتهم اختاروه. غير أَنَّ ذَلِكَ التَّمَيِّزَ أَعَدَّهُمْ لِلْقِيَامِ بِهَدَايَةِ الْبَشَرِ ثُمَّ عَلَىٰ أَثَرِ إِطَاعَتِهِمْ أَوْامِرَ اللَّهِ، وَالتَّقْوَىٰ وَالسَّعْيَ فِي

سبيل هدايه الناس نالوا نوعا من التميّز الاكتسابى، الذى امتزج بتميّزهم الذاتى، فكانوا من المصطفين.

ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ

(١)

تشير هذه الآيه إلى أنّ هؤلاء المصطفين كانوا-من حيث الإسلام و الطهاره و التقوى و الجهاد فى سبيل هدايه البشر- متشابهين، بمثل تشابه نسخ عدّه من كتاب واحد، يقتبس كلّ من الآخر: بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ .

وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

فى النهايه تشير الآيه إلى حقيقه أنّ الله كان يراقب مساعيهم و نشاطهم، و يسمع أقوالهم، و يعلم أعمالهم. و فى هذا إشاره أيضا إلى مسئوليات المصطفين الثقيله نحو الله و مخلوقات الله.

فى هذه الآيه إشاره إلى جميع الأنبياء من أولى العزم، فبعد نوح الذى صرّح باسمه، يأتى آل إبراهيم الذين يضمّون نوحا نفسه و موسى و عيسى و نبى الإسلام.

و ذكر آل عمران تكرر للإشاره إلى السيده مريم و المسيح، بالنظر لكون هذه الآيه مقدّمه لبيان حالهما.

### ١- امتياز الأنبياء:

هنا يبرز هذا السؤال: على الرغم من أنّ هذا التميّز لم يجبر الأنبياء على السير فى طريق الحقّ، و أنّه لا يتعارض مع حرّيه الإراده و الإختيار، و لكن ألا يعتبر نوعا من التفضيل؟

ص: ٤٧٢

١ - ١) - «الذريه» أصلها الصغار من الأولاد. و قد يشمل الأبناء الصغار و الكبار أيضا بلا- واسطه أو مع الواسطه، و الكلمه من (الذره)، بمعنى الخلق و الإيجاد.

فى الجواب نقول: إنَّ خلقا مصحوبا بنظام سليم يستتبع بالضرورة مثل هذا التفاضل، فتأمل جسم الإنسان-مثلا-مخلوق منظم، و للحفاظ على هذا التنظيم لا- بدّ من الاعتراف بالتفاضل بين عضو و عضو، إذ لو كانت جميع الخلايا فى جسم الإنسان تشبه فى لطافتها خلايا شبكيه العين، أو تشبه فى صلابتها وقوتها خلايا عظام الساق، أو تشبه خلايا الدماغ فى حساسيتها، أو تشبه خلايا القلب فى حركتها، لا- ختلّ حتما نظام الجسم. ذا لا بدّ من جود خلايا مثل خلايا الدماغ لكى تتولّى إداره سائر أعضاء الجسم و عضلاته، و خلايا العظام المتينه لتحفظ استقامه الجسم و خلايا الأعصاب الحساسه للتسلّم أبسط الإيعازات، و الخلايا المتحرّكه لتخلق الحركه فى الجسم.

ما من أحد يستطيع أن يقول لماذا ليس الجسم كلّه دماغا؟ أو فى النباتات، لماذا لا- تكون الخلايا كلّها بلطافه خلايا أوراق الورد؟ إنَّ حاله كهذه ستهدم بناء النبات و تعرضه للفناء.

النقطه المهمّه هى أنّ هذا التميّز الذاتى الضرورى لإيجاد بناء منظم ليس بسيطا، بل هو مصحوب بمسؤوليه عظيمه، هذا «الامتياز» و هذه المسؤوليه الثقيله نفسها تحفظ توازن كفتى ميزان الخلق. أى أن نسبه تميّز الأنبياء على سائر البشر تتناسب مع أهميه المسؤوليه التى يضطلعون بها. كما أنّ الاختلاف فى تميّز الآخرين يتناسب مع مسؤولياتهم.

فضلا عن ذلك فإنّ التميّز الذاتى لا يكفى للاقتراب من الله، بل لا بدّ معه من التميّز المكتسب.

فى الآيه بعض النقاط ينبغى ذكرها:

١- ليست الآيه بصدد ذكر جميع الذين اصطفاهم الله، بل تعدّد بعضا منهم، فإذا لم يكن بعض الأنبياء من بين هؤلاء، فلا يعنى ذلك أنهم ليسوا مصطفين. ثمّ إنّ



«آل إبراهيم» يشمل موسى بن عمران و نبيّ الإسلام و المصطفين من أهل أيضا لأنهم جمعا من «آل إبراهيم».

٢- يرى «الراغب» في كتابه «المفردات» إن «الآل» من «الأهل»، و لكنّه خصّ بالإضافه إلى أقرباء العظماء من الناس و الأشراف و دون الأزمنه و الأمكنه.

و لكن «الأهل» يضاف إلى الكلّ، كالزمان و المكان و غير ذلك، فيقال: أهل المدينه الفلانيه، و لكن لا يقال: آل المدينه الفلانيه.

٣- غنى عن القول أنّ اصطفاء آل إبراهيم و آل عمران لا- يعنى اصطفاء جميع أبناء إبراهيم و عمران، إذ يحتمل أن يكون بينهم حتى من الكفار، إنّما المقصود هو «بعض» من آل إبراهيم و آل عمران.

٤- «عمران» في هذه الآيه هو أبو مريم، لا أبو موسى، إذ كلما ورد في القرآن اسم عمران كان المعنى به هو أبو مريم، كما يستدلّ على ذلك أيضا من الآيات التاليه التي تخصّ شرح حال مريم.

٥- في الأحاديث العديده عن أهل البيت عليهم السّلام اعتبرت هذه الآيه دليلا على عصمه الأنبياء و الأئمه، و ذلك لأنّ الله لا يمكن أن يصطفى المذنبين الملوّثين بالشرك و الكفر و الفسق. بل لا بدّ أن يقع إختياره على المطهّرين المعصومين.

(يستدلّ كذلك من الآيه أنّ هناك مراتب للعصمه).

٦- يستدلّ بعض الكتّاب المحدثين بهذه الآيه على نظريه النشو و الارتقاء، معتقدين أنّ الآيه تدلّ على أنّ «آدم» لم يكن هو الإنسان الأوّل، بل كان هناك أناس كثيرون فاصطفى الله من بينهم آدم الذي خلف نسلا متميّزا من أبنائه، و أنّ تعبير «آدم» على ذلك. يقول هؤلاء: كان في عصر آدم مجتمع إنساني، و لذلك فليس ثمّه ما يمنع من أن يكون الإنسان الأوّل- الذي وجد قبل ذلك بملايين السنين- قد نشأ و تطوّر من حيوانات أخرى متطوّره، و يكون «آدم»

و لكن فى مقابل هذا الرأى يمكن القول أن ليس هناك أى دليل على أنّ «عالمين» هم أناس عاصروا آدم، بل قد يكون القصد هو مجموع المجتمعات البشريه على امتداد التاريخ. و على هذا يكون معنى الآية: إنّ الله اصطفى من بين جميع المجتمعات البشريه على امتداد التاريخ أفراد كان أولهم آدم، فنوحاً، فآل إبراهيم، فآل عمران. و بما أنّ كلّ واحد من هؤلاء كان يعيش فى عصر غير عصر الآخر نفهم من ذلك أنّ القصد من «عالمين» هو البشر عموماً على اختلاف عصورهم و أزمانهم. لذلك ليس ثمه ما يدعونا إلى الاعتقاد بأنّ آدم كان يعاصره أناس آخرون فاصطفاه الله من بينهم، فتأمل.

إشارة

إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْمُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦)

التفسير

إشارة

كيفيه ولاده مريم:

تعقيبا على ما جاء في الآيه السابقه من إشاره إلى آل عمران، تشرع هاتان الآيتان بالكلام على مريم بنت عمران و كيفيه ولادتها و تربيتها و ما جرى لهذه السيده العظيمه.

جاء في التواريخ و الأخبار الإسلاميه و أقوال المفسرين أن «حنه» و «أشباع» كانتا أختين، تزوجت الأولى «عمران» (١) أحد زعماء بني إسرائيل،

ص: ٤٧٤

١- ١) -تفيد بعض الأحاديث أن «عمران» كان نبيا و يوحى إليه. و عمران هذا غير عمران والد موسى، إذ بينهما ١٨٠٠ سنه من الزمان. (مجمع البيان- و تفسير المراعى، ذيل الآيه مورد البحث).

و تزوّجت الأخرى «زكريّا» النبيّ.

مضت سنوات على زواج «حنه» بغير أن ترزق مولودا. و في أحد الأيام بينما هي جالسه تحت شجره، رأت طائرا يطعم فراخه. فأشعل هذا المشهد نار حبّ الأمومه في قلبها، فتوجّهت إلى الله بمجامع قلبها طالبه منه أن يرزقها مولودا، فاستجاب الله دعاءها الخالص، و لم تمض مدّه طويله حتّى حملت.

ورد في الأحاديث أنّ الله قد أوحى إلى «عمران» أنّه سيهبه ولدا مباركا يشفى المرضى الميؤوس من شفائهم، و يحيى الموتى بإذن الله، و سوف يرسله نبيا إلى بني إسرائيل. فأخبر عمران زوجته «حنه» بذلك. لذلك عند ما حملت ظنّت أنّ ما تحمله في بطنها هو الابن الموعود، دون أن تعلم أنّ ما في بطنها أم الابن الموعود «مريم» فنذرت ما في بطنها للخدمه في بيت الله «بيت المقدس». و لكنّها إذ رأتها أنثى ارتبكت و لم تدر ما تعمل، إذ أنّ الخدمه في بيت الله كانت مقصوره على الذكور، و لم يسبق أن خدمت فيه أنثى.

و الآن نباشر بالتفسير من خلاله نتعرّف على تتمّه الأحداث:

إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ...

هذه إشارة إلى النذر الذي نذرته امرأه عمران و هي حامل بأنّها تهب ابنها خادما في بيت المقدس، لأنّها كانت تظنّه ذكرا بموجب البشاره التي أتاها بها زوجها، و لذلك قالت «محزّرا» و لم تقل «محزّره» و دعت الله أن يتقبل نذرها:

فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

«المحرّر» من التحرير، و كانت تطلق في ذلك الزمان على الأبناء المعيّنين للخدمه في المعبد ليتولّوا تنظيفه و خدماته، و ليؤدّوا عباداتهم فيه وقت فراغهم. و لذلك سمّى الواحد منهم «المحرّر»، إذ هو محرّر من خدمه الأبوين،

و كان ذلك مدعاه لافتخارهم.

قيل إنّ الصبيان القادرين على هذه الخدمه كانوا يقومون بها بإشراف الأبوين إلى سنّ البلوغ، و من ثمّ كان الأمر يوكل إليهم، إن شأؤوا بقوا، و إن شأؤوا تركوا الخدمه.

و يرى البعض أن إقدام امرأه عمران على النذر دليل على أن عمران توفى أيام حمل زوجته، و إلاّ كان من البعيد أن تستقل الام بهذا النذر.

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ

هذه الآيه تشرح حال أم مريم بعد ولادتها، فقد أزعجها أن تلد أنثى، و راحت تخاطب الله قائلة: إنّها أنثى، و أنت تعلم أنّ الذكر ليس كالأنثى في تحقيق النذر، فالأنثى لا تستطيع أن تؤدّى واجبها في الخدمه كما يفعل الذكر فالبنت بعد البلوغ لها عاده شهريه و لا يمكنها دخول المسجد، مضافا إلى أن قواها البدنيه ضعيفه، و كذلك المسائل المربوطه بالحجاب و الحمل و غير ذلك. وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ .

و يظهر من القرائن في الآيه و الأحاديث الوارده في التفاسير أنّ هذا القول وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ قول أمّ مريم، لا قول الله كما ذهب إلى ذلك بعض المفسّرين. و لكن كان ينبغي أن تقول «و ليست الأنثى كالذكر» باعتبارها قد ولدت أنثى لا ذكرا. لذلك يمكن أن يكون في الجملة تقديم و تأخير، كما نلاحظه في كلام العرب و غير العرب. و لعلّ ما انتهابها من الكدر و الحزن لوضعها أنثى جعلها تنطق بهذا الشكل، إذ كانت شديده الاعتقاد بأنّ ما ستلده ذكر و أنّها ستفى بنذرها في جعله خادما في بيت المقدس. و هذا الاعتقاد و التوقع جعلها تقدّم الذكر على الأنثى، على الرغم من أنّ أصول تركيب الجمل و جنس المولود يقتضيان تقديم الأنثى.

و الجمله المعترضه وَ اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ مِنْ قَوْلِ اللّهِ.أى لم يكن يلزم أن تقول إنها ولدت أنشى،لأنّ الله كان أعلم منها بمولودها منذ انعقاد نطفته و تعاقب مراحل تصوّره فى الرحم.

وَ إِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ...

يُتَّضَح من هذه الجملة أنّ أم مريم هى التى سَمَّيْتُهَا بهذا الاسم عند ولادتها.و «مريم»بلغتها تعنى «العابده».و فى هذا يظهر منتهى اشتياق هذه الأمّ الطاهره لوقف وليدها على خدمه الله.لذلك طلبت من الله-بعد أن سَمَّيْتُهَا-أن يحفظها و نسلها من وسوسه الشياطين،و أن يرعاهم بحمايته و لطفه وَ إِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَ ذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ .

ص: ٤٧٩

اشاره

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسِينًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)

التفسير

تواصل هذه الآيه سرد حكاية مريم. لقد أشرنا من قبل أنّ أمّ مريم لم تكن تصدّق إمكان قبول الأنثى خادمه في بيت الله، لذلك كانت تتمنى أن تلد مولودا ذكرا، إذ لم يسبق أن اختيرت أنثى لهذا العمل. ولكن الآيه تقول إنّ الله قد قبل قيام هذه الأنثى الطاهره بهذه الخدمه الروحيه و المعنويه، لأوّل مرّه.

يقول بعض المفسرين: إنّ دليل قبولها لهذه الخدمه أنّها لم تكن ترى العاده الشهرية أثناء خدمتها في بيت المقدس لكي لا تضطرّ إلى ترك الخدمه، أو أن حضور طعامها من الجنّه إلى محرابها دليل على قبولها. وقد يكون قبول النذر و قبول مريم قد أبلغ للأّم عن طريق الإلهام.

و كلمه «أنبثها» إشاره إلى تكامل مريم أخلاقيا و روحيا. كما أنه يتضمّن نكته لطيفه هي أنّ عمل الله هو «الإنبات» و الإنماء. أى كما أنّ بذور النباتات تنطوى على استعدادات كامنه تظهر و تنمو عند ما يتعهدها المزارع، كذلك توجد فى الإنسان كلّ أنواع الاستعدادات الساميه الإنسانيه التى تنمو و تتكامل بسرعه إن خضعت لمنهج المرّيين الإلهيين و لمزارعى بستان الإنسانيه الكبير، و يتحقّق الإنبات بمعناه الحقيقى.

وَ كَفَّلَهَا زَكَرِيَّا

«الكفاله» ضمّ شىء إلى آخر. لذلك يطلق على من يلتزم رعايه شؤون أحد الأطفال اسم «الكافل» أو «الكفيل»، أى أنه يضمّ الطفل إليه. إذا استعملت الكلمه ثلاثيه مجزّده كانت فعلا- لازما، و تعدّى بنقلها إلى باب الثلاثى المزيد «كفّل» أى انتخاب الكفيل لشخص آخر.

فى هذه الآيه يقول القرآن: اختار الله زكريّا كى يتكفّل مريم، إذ أنّ أباه عمران قد ودّع الحياه قبل ولادتها، فجاءت بها أمّها إلى بيت المقدس و قدّمته لعلماء اليهود و قالت: هذه البنت هديّه لبيت المقدس، فليتعهدّها أحدكم، فكثّر الكلام بين علماء اليهود، و كان كلّ منهم يريد أن يحظى بهذا الفخر، و فى احتفال خاص -سيأتى شرحه فى تفسير الآيه ٤٤ من هذه السوره- اختير زكريّا ليكفلها.

و كلّما شبّت و تقدّم بها العمر ظهرت آثار العظمه و الجلال عليها أكثر إلى حدّ يقول القرآن عنها:

كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا

«المحراب» هو الموضع الذى يخصّص فى المعبد لإمام المعبد أو لأفراد من النخبه. و ذكروا فى سبب تسميته بهذا الاسم أوجه كثيره، أو جهها ثلاثه: أحدها: إنّ



المحراب من «الحرب» سُمي بذلك لأنه موضع محاربه الشيطان و الأهواء.

و الآخر: إنّ المحراب صدر المجلس، ثم أطلق أيضا على صدر المعبد. (كان بناء المحراب عند اليهود يختلف عن بنائه عندنا، فأولئك كانوا يبنون المحراب مرتفعا عن سطح الأرض بعدّه درجات بين حائطين مرتفعين يحفظانه، بحيث كانت تصعب رؤيه من بداخل المحراب من الخارج).

و الثالث: انه يطلق على كلّ المعبد، و هو المكان الذي يخصّص للعباده و مجاهدته النفس و الشيطان.

كبرت مريم تحت رعايه زكريّا، و كانت غارقه في العباده و التعبّد. بحيث إنّها - كما يقول ابن عباس - عند ما بلغت التاسعه من عمرها كانت تصوم النهار و تقوم الليل بالعباده، و كانت على درجه كبيره من التقوى و معرفه الله حتّى أنّها فاقت الأحبار و العلماء في زمانها (1). و عند ما كان زكريّا يزورها في المحراب يجد عندها طعاما خاصّا، فيأخذه العجب من ذلك. سألتها يوما: يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا .

فقلت: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

الآيه لا تذكر شيئا عن ماهيته هذا الطعام و من أين جاء، لكنّ بعض الأحاديث الواردة في تفسير العياشي و غيره من كتب الشيعة و السنّه تفيد أنّه كان فاكهه من الجنّه في غير فصلها تحضر بأمر الله إلى المحراب. و ليس ما يدعو إلى العجب في أن يستضيف الله عبدا تقيا.

كما أنّ اعتبار «الرزق» طعاما من الجنّه يتبيّن من القرائن التي نراها في ثنايا الآيه. فأولا - كلمه «رزقا» النكره دليل على أنّ زكريّا لم يعرف نوع هذا الرزق.

و ثانيا جواب مريم التي قالت «من عند الله» دليل آخر. و ثالثا انفعال زكريّا و طلبه

ص: ٤٨٢

ولدا من الله- كما نقرأ في الآيه التاليه- دليل ثالث على ذلك.

بيد أنّ بعض المفسّرين- مثل صاحب المنار- يرون أنّ «رزقا» تعنى هذا الطعام الدنيويّ المألوف. يقول ابن جرير: إنّ قحطا أصاب بنى إسرائيل يومئذ، و لم يعد زكريّا قادرا على سدّ جوعه مريم. لذلك اقترعوا فكانت من نصيب رجل نجار، فأخذ هذا يقتطع من كسبه الطيب الحلال ليهيئ الطعام لها، فكان هذا هو الطعام الذي يراه زكريّا في محرابها و يعجب من وجوده في تلك الظروف الصعبة و كان جواب مريم يعنى أنّ الله قد سخر لى مؤمنا فأحبّ القيام بهذه الخدمه الشاقّه.

و لكن- كما قلنا- هذا التفسير لا يتسق مع القرائن الموجوده فى الآيه، و لا مع الأحاديث الوارده فى تفسيرها، و منها ما

ورد فى تفسير العياشى عن الإمام الباقر عليه السّلام ما ملخصه أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم دخل يوما على ابنته فاطمه عليها السّلام و هو يعلم أنّها لم تكن تملك طعاما يذكر منذ أيّام، فوجد عندها طعاما و افرا خاصا، فسألها عنه، فقالت: هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب. فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم لعليّ عليه السّلام: ألا أحدثك بمثلك و مثلها؟ قال: بلى، قال: مثل زكريّا إذ دخل على مريم المحراب فوجد عندها رزقا، قال: يا مريم أنّى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله، إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب... (1).

و فيما يتعلّق بعبارته «بغير حساب» فقد شرحنا ذلك فى تفسير الآيه ٢٠٢ من سوره البقره، و الآيه ٢٧ من هذه السوره.

ص: ٤٨٣

(١-١) - تفسير العياشى: ج ١ ص ١٧٢.

اشاره

هَذَاكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبُّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَذَاتَهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنْى يُكُونُ لى غُلامٌ وَ قَدْ بَلَغَنِى الْكِبَرُ وَ إِمْرَأَتى عاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠)

التفسير

قلنا إنَّ زوجه زكريا و أمّ مريم كانتا أختين، و كانتا عاقرين، و عند ما رزقت أمّ مريم بلطف من الله هذه الذرية الصالحة، و رأى زكريا خصائصها العجيبه، تمنى أن يرزق هو أيضا ذرية صالحه و طاهره و تقية مثل مريم، بحيث تكون آيه على عظمه الله و توحيده. و على الرغم من كبر سن زكريا و زوجته، و بعدهما من الناحية الطبيعیه عن أن يرزقا طفلا، فإنَّ حبَّ الله و مشاهدته الفواكه الطرية فى غير وقتها فى محراب عباده مريم، أترعا قلبه أملا بإمكان حصوله فى فصل شيخوخته على

ثمره الأبوه، لذلك راح يتضرع إلى الله قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ .

لم يمض وقت طويل حتى أجاب الله دعاء زكريا.

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ

و فيما كان يعبد الله في محرابه، نادته ملائكة الله و قالت له إِنَّ اللَّهَ يَبَشِّرُكَ بِمَوْلُودٍ اسْمُهُ يُحْيَىٰ بَلْ أَنَّهُمْ لَمْ يَكْتَفُوا بِهَذِهِ الْبَشَارَةِ حَتَّىٰ ذَكَرُوا لِلْمَوْلُودِ خَمْسَ صِفَاتٍ:

أولاً: سوف يؤمن بالمسيح و يشدُّ أزره بهذا الإيمان: مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ و «كلمه الله» هنا و في مواضع أخرى من القرآن سيرد شرحها-تعني المسيح عليه السلام-و قد جاء في التاريخ أن يحيى كان يكبر عيسى سته أشهر، و كان أول من آمن به. و إذا كان قد اشتهر بين الناس بالطهر و الزهد، فقد كان لإيمانه هذا بالمسيح تأثير كبير على الناس، في توجيههم و حثهم على الإيمان به.

و ثانياً: سيكون من حيث العلم و العمل قائداً للناس و سَيِّدًا، كما أنه سيحفظ نفسه عن الشهوات الجامحة و عن التلوث بحب الدنيا.

وَ حَضُورًا

«الحضور» من الحصر، أى الذى يضع نفسه موضع المحاصره، أو الذى يمتنع عن الزواج، و إلى هذا ذهب بعض المفسرين، كما أشير إليه في بعض الأحاديث.

و الرابعه و الخامسه من مميّزاته أيضا أنه سيكون «نبيا» (و جاءت هذه الكلمه بصيغه النكره لدلاله على العظمه) و أنه من الصالحين.

فلما سمع زكريا بهذه البشاره غرق فرحاً و سروراً، و لم يمتلك نفسه في إخفاء تعجبه من ذلك، فقال رَبِّ أُنِّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَ قَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَ امْرَأَتِي عَاقِرٌ

ص: ٤٨٥

فأجابه الله تعالى قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ فلما سمع زكريا هذا الجواب الموجز الذى يشير إلى نفوذ إرادته تعالى و مشيئته، قنع بذلك.

## بحوث

## أشاره

### ١- هل العزوبه فضيله؟

هنا يتبادر إلى الذهن سؤال يقول: إذا كان «الحصر» هو العزوف عن الزواج، فهل هذا محمده يمتاز بها الإنسان، بحيث يوصف بها يحيى؟ فى الجواب نقول: ليس هناك ما يدل على أن «الحصر» المذكور فى الآية يقصد به العزوف عن الزواج، فالحديث المنقول بهذا الخصوص ليس موثوقا به من حيث أسانيده. فلا يستبعد أن يكون المعنى هو العزوف عن الشهوات و الأهواء و حبّ الدنيا، و فى صفات الزاهدين.

ثانيا: من المحتمل أن يكون يحيى-مثل عيسى- قد عاش فى ظروف خاصه اضطرته إلى الترحال من أجل تبليغ رسالته، فاضطرّ إلى حياه العزوبه. و هذا لا يمكن أن يكون قانونا عاما للناس. فإذا مدحه الله لهذه الصفه فذلك لأنه تحت ضغط ظروفه عزف عن الزواج، و لكنّه استطاع فى الوقت نفسه أن يحصن نفسه من الزلل و أن يحافظ على طهارته من التلوّث. إنّ قانون الزواج قانون فطرى، فلا يمكن فى أى دين أن يشرع قانون ضده. و عليه فالعزوبه ليست صفه محموده، لا فى الإسلام و لا فى الأديان الاخرى.

### ٢- يحيى و عيسى

«يحيى» من الحياه و تعنى البقاء حيا، و قد اختيرت هذه الكلمه اسما لهذا النبى

العظيم، و المقصود بالحياه هنا هي الحياه الماديه و الحياه المعنويه في نور الإيمان و مقام النبوه و الارتباط بالله. هذا الاسم قد اختاره الله له قبل أن يولد، كما جاء في الآيه ٧ من سوره مريم يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا و من هذا يتبين أيضا أن أحدا لم يسبق أن سمي بهذا الاسم.

قلنا فيما سبق أن زكريا طلب من ربه الذريه بعد أن شاهد ما نالته مريم من عطاء معنوي سريع. و على أثر ذلك وهب الله له ولدا شبيها بعيسى بن مريم في كثير من الصفات: في النبوه و هما صغيران، و في معنى اسميهما (عيسى و يحيى كلاهما بمعنى البقاء حيا)، و في تحيه و سلام الله عليهما في المراحل الثلاث: الولاده، و الموت، و الحشر و جهات اخرى.

٣- في هذه الآيه يصف زكريا شيخوخته بقوله وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ و لكنه في الآيه ٩ من سوره مريم يقول وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا. فالعباره الأولى تعني أن الكبر قد وصلني و الثانيه تعني أنني وصلت الكبر، و لعل هذا الاختلاف في التعبير يعود إلى أن الإنسان - كلما تقدّم نحو الكبر - يتقدّم الكبر و الموت نحوه أيضا. كما

قال علي عليه السلام «إذا كنت في إدبار و الموت في إقبال فما أسرع الملتقى»

(١)

٤- «الغلام» الفتى الذي طرّ شاربه. و «عافر» من «عقر» بمعنى الأصل و الأساس. أو بمعنى الحبس. و وصف المرأه التي لا تلد بأنّها عافر يعنى أنّها وصلت إلى عقرها و انتهت، أو أنّها حبست عن الولاده.

و قد يسأل سائل: لماذا استولى العجب على زكريا مع أنه عالم بقدره الله التي لا تنتهى؟ يتّضح الجواب بالرجوع إلى الآيات الأخرى. كان يريد أن يعرف كيف يمكن لامرأه عافر - خلفت وراءها سنوات عديده بعد سنه اليأس - أن تحمل و تلد؟

ص: ٤٨٧

(١ - ١) - نهج البلاغه: الكلمات القصار: ٢٨.

ما الذى يتغير فيها؟ أ ترجع إليها العاده الشهريه كسائر النساء المتوسّطات العمر؟ أم أنّها ستحمل بصورة اخرى؟ ثمّ إنّ الإيمان بقدره الله غير «الشهود و المشاهده». زكريّا كان يريد أن يبلغ إيمانه مبلغ الشهود، مثل إبراهيم الذى كان مؤمنا بالمعاد، ولكنّه طلب المشاهده.

كان يريد أن يصل إلى هذه المرحله من الإيمان. و أنّه لأمر طبيعى أن يفكّر الإنسان، إذا ما صادفه أمر خارق للقوانين الطبيعى فى كيفيه حصول ذلك، و يودّ لو أنّه رأى دليلا حسيّا على ذلك.

ص: ٤٨٨

اشاره

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَ أذْكَرُ رَبِّكَ كَثِيرًا وَ سَخِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١)

التفسير

هنا يطلب زكريا من الله إماره على بشارته بمجىء يحيى. إن إظهار دهشته - كما قلنا - وكذلك طلب علامه من الله، لا يعينان أبدا أنه لا يثق بوعد الله، خاصه و أن ذلك الوعد قد تؤكد بقوله: كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ. إنما كان يريد زكريا أن يتحول إيمانه بهذا إيمانا شهوديا. كان يريد أن يمتلى قلبه بالاطمئنان، كما كان إبراهيم يبحث عن اطمئنان القلب و الهدوء الناشئين عن الشهود الحسى.

قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا

«الرمز» إشاره بالشفه، و الصوت الخفى. ثم اتسع المعنى فى الحوار العادى، فأطلق على كل كلام و إشاره غير صريحه إلى أمر من الأمور.

أجاب الله طلب زكريا هذا أيضا، و عين له علامه، و هى أن لسانه كف عن الكلام مدّه ثلاثه أيام بغير أى نقص طبيعى، فلم يكن قادرا على المحادثه العاديه.



و لكن لسانه كان ينطلق إذا ما شرع يسبح الله و يذكره. هذه الحالة العجيبه كانت علامه على قدره الله على كل شىء. فالله القادر على فكّ لجام اللسان عند المباشره بذكره، قادر على أن يفكّ عقم رحم امرأه فيخرج منه ولدا مؤمنا هو مظهر ذكر الله. و هكذا تتضح العلاقه بين هذه العلامه و ما كان يريد زكريا.

هذا المضمون يرد فى الآيات الأولى من سوره مريم أيضا.

و فى الوقت نفسه يمكن أن تحمل هذه العلامه معنى آخر فى طياتها، و هو أن إلحاح زكريا على طلب العلامه و الآيه- و إن لم يكن أمرا محرّما و لا- مكروها- كان من نوع «ترك الأولى». لذلك قرّر له علامه، إضافة إلى ما فيها من بيان لقدرة الله، طافحه بالإشاره إلى تركه للأولى.

يتبادر هنا للذهن سؤال: أ يتسق بكم نبىّ مع مقام النبوه و واجب الدعوه و التبليغ؟ ليس من الصعب الإجابة على هذا السؤال، إذ أن هذه الحاله لا تتسق مع مقام النبوه عند استمرارها مدّه طويله. أما حدوثها لفته قصيره يستطيع النبىّ خلالها اعتزال الناس و التوجّه إلى عبادته الله، فلا- مانع فيه، كما أنه خلال هذه المدّه يستطيع أن يخاطب الناس بالإيماء فى الأمور الضروريه، أو بتلاوه آيات الله، التى تعتبر ذكرا لله، و تبليغا للرساله الإلهيه. و هذا ما قام به فعلا، إذ كان يدعو الناس إلى ذكر الله بالإشاره.

وَ اذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَ سَبِّحْ بِالعَشِيِّ وَ الْاِبْكَارِ

«العشى» تطلق عاده على أوائل ساعات الليل، كما يقال «الإبكار» للساعات الأولى من النهار. و قيل إن «العشى» هو من زوال الشمس حتى غروبها، و «الإبكار» من طلوع الفجر حتى الظهر.

و الراغب الاصفهاني يقول في «المفردات»: إنَّ «العشى» من زوال الشمس حتى الصباح، و«الإبكار» أوائل النهار.

و في الآيه يأمر الله زكريا بالتسبيح. إنَّ هذا التسبيح و الذكر على لسان لا ينطق موقتا دليل على قدره الله على فتح المغلق، و كذلك هو أداء لفريضة الشكر لله الذي أنعم عليه بهذه النعمة الكبرى.

من الآيات الأولى لسوره مريم يستفاد أنَّ زكريا لم ينفذ هذا البرنامج وحده، بل طلب من الناس إيماء أن يسبحوا الله صباح مساء شكرا على ما أنعم عليهم من موهبه ترتبط بمصير مجتمعهم و من قائد كفوء مثل يحيى. و أوضحت هذه الأيام أيام شكر و تسبيح عام.

اشاره

وَ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَ أَشْجِدِي وَ  
إِرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)

التفسير

اشاره

الانتخاب الإلهي لمریم:

بعد الإشارات العابره إلى مریم فی الآيات السابقه التي دارت حول عمران و زوجته، هذه الآيه تتحدّث بالتفصيل عن مریم.

تقول الآيه إِنَّ الْمَلَائِكَةَ كَانُوا يَكْلَمُونَ مَرْيَمَ: وَ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ....

ما أعظم هذا الافتخار بأن يتحدّث الإنسان مع الملائكه و يحدثونه. و خاصه إذا كانت المحادثه بالبشاره من الله تعالى باختياره و تفضيله. كما فی مورد مریم بنت عمران. فقد بشرتها الملائكه بأنّ الله تعالى قد اختارها من بين جميع نساء العالم و طهرها و فضلها بسبب تقواها و إيمانها و عبادتها.

و الجدير بالذكر أن كلمه «اصطفاك» تكررت مرتين في هذه الآيه، ففي المره

الأولى كانت لبيان الاصطفاء المطلق، وفي الثانية إشارة إلى افضليتها على سائر نساء العالم المعاصره لها.

هذا يعنى أن مريم كانت أعظم نساء زمانها، وهو لا يتعارض مع كون سيده الإسلام فاطمه الزهراء عليها السلام سيده نساء العالمين،

فقد جاء فى أحاديث متعدده عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والإمام الصادق عليه السلام قولهما:

«أما مريم فكانت سيده نساء زمانها. أما فاطمه فهى سيده نساء العالمين من الأولين والآخرين»

(١)

كما أن كلمه «العالمين» لا تتعارض مع هذا الكلام أيضا، فقد وردت هذه الكلمه فى القرآن و فى الكلام العام بمعنى الناس الذين يعيشون فى عصر واحد، كما جاء بشأن بنى إسرائيل وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢). فلا شك أن تفضيل مؤمنى بنى إسرائيل كان على أهل زمانهم.

يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ

هذه الآيه تكمله لكلام الملائكه مع مريم. فبعد أن بشرها بأن الله قد اصطفاها، قالوا لها: الآن اشكرى الله بالركوع و السجود و الخضوع له اعترافا بهذه النعمه العظمى.

نلاحظ هنا أن الملائكه يصدرون إلى مريم ثلاثه أوامر:

الأول: القنوت أمام الله. و الكلمه - كما سبق أن قلنا - تعنى الخضوع و دوام الطاعه.

الثانى: السجود، الذى هو أيضا دليل الخضوع الكامل أمام الله.

ص: ٤٩٣

١- (١) - نور الثقلين: ج ١ ص ٣٣٦، والبحار: ج ١٠ ص ٢٤.

٢- (٢) - البقره: ٤٧.

و الثالث: الركوع، و هو أيضا خضوع و تواضع.

أمّا القول: وَ ارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ فقد يكون إشاره إلى صلاه الجماعة، أو طلب التحاقها بجموع المصلين الراكعين أمام الله. أى اركعى مع عباد الله المخلصين الذين يركعون لله.

فى هذه الآيه، الإشاره إلى السجود تسبق الإشاره إلى الركوع، و ليس معنى هذا أنّ سجودهم قبل ركوعهم فى صلاتهم، بل المقصود هو أداء العبادتين دون أن يكون القصد ذكر ترتيبهما، كما لو كنّا نطلب من أحدهم أن يصلّى، و أن يتوضّأ، و أن يتطهّر، إذ يكون قصدنا أن يقوم بكلّ هذه الأمور. إنّ العطف بالواو لا- يقتضى الترتيب. ثمّ إنّ الركوع و السجود أصلا بمعنى التواضع و الخضوع، و ما حرّكتا الركوع و السجود المألوفان سوى بعض مصاديق ذلك.

ص: ٤٩٤

اشاره

ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَهْمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)

التفسير

اشاره

كفاله مريم:

هذه الآيه تشير إلى جانب آخر من قصه مريم و تقول بأن ما تقدم من قصه مريم و ذكرها إنما هو من أخبار الغيب ذلك من آيات الغيب نُوحِيهِ إِلَيْكَ لأن هذه القصة بشكلها الصحيح و الخالي من شوائب الخرافه لا توجد في أى من الكتب السابقه. مضافا إلى أن سند هذه القصة هو وحى السماء.

ثم تضيف الآيه: وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَهْمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ أى أنك لم تكن حاضرا حينذاك. بل جاءك الخبر عن طريق الوحي.

سبق أن قلنا إن أم مريم بعد أن وضعتها لفتها فى قطعه قماش و أتت بها إلى المعبد و خاطبت علماء بنى إسرائيل و أشرفهم بقولها: هذه المولوده قد نذرت

لخدمه بيت الله، فليتعهّد أحدكم بتربيتها. ولما كانت مريم من أسره معروفه «آل عمران»، أخذ علماء بنى إسرائيل يتنافسون فى الفوز بتعهّد تربيتها. وأخيرا اتّفقوا على إجراء القرعه بينهم، فجاءوا إلى شاطئ نهر و أحضروا معهم أقلامهم و عصيهم التى كانوا يقتربون بها. كتب كل واحد منهم اسمه على قلم من الأقلام، و ألقوها فى الماء، فكلّ قلم غطس فى الماء خسر صاحبه، و الراح يكون من يطفو قلمه على الماء: غطس القلم الذى كتب عليه اسم زكريا، ثم عاد و طفا على سطحه، و بذلك أصبحت مريم فى كفالتة، و قد كان فى الحقيقه أجدرهم بذلك، فهو نبى و زوج خاله مريم.

### الاقتراع الحلّ الأخير:

يستفاد من هذه الآيه و الآيات الأخرى الخاصه بيونس فى سوره الصافات أنّ من الممكن اللجوء إلى القرعه لحلّ النزاع و الخصام الذى يصل إلى طريق مسدود بحيث لا يكون هناك أى حلّ مقبول من أطراف النزاع. هذه الآيه بالإضافة إلى الأحاديث الواردة عن أئمّه الإسلام كانت سببا فى اعتبار القرعه قاعده فقهيه يجرى بحثها فى الكتب الإسلاميه. و لكن شرط الالتجاء إلى القرعه هو الوصول إلى طريق مسدود تماما، كما قلنا: لذلك إذا كان من الممكن العثور على طريق لحلّ مشكله ما فلا يجوز اللجوء إلى القرعه.

ليس للاقتراع طريقه خاصه فى الإسلام، فيجوز اتّخاذ العصى، أو الحصى، أو الورق و غير ذلك وسيله له، على أن لا يكون فيه أى تواطؤ.

من الواضح أنّ الإسلام لا- يجيز الربح و الخساره عن طريق القرعه، لأنّ الربح و الخساره ليسا من المشاكل التى يستعصى حلّها ليلجأ فيها إلى القرعه. لذلك فالربح الناشئ عن القرعه غير مشروع فى الإسلام.

لا- بدّ من الإشارة أيضا إلى أنّ القرعه لا- تقتصر على حلّ المنازعات و الاختلافات بين الناس، بل يمكن بها حلّ المشاكل المستعصية الأخرى أيضا.

فمثلا، كما جاء في الأحاديث: وطأ شخص شاه، ثمّ أطلقها بين الغنم بحيث لا يمكن التعرّف عليها، فيجب عندئذ إخراج واحده منها بطريق القرعه و الامتناع عن أكل لحمها، و ذلك لأنّ الامتناع عن أكل لحمها جميعا يشكل ضررا كبيرا، كما أنّ أكل لحومها جميعا غير جائز. فهنا تحلّ القرعه المشكله.

ص: ٤٩٧



اشاره

إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥)  
وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦)

التفسير

هذه الآيه تبين حادث ولاده المسيح الذي يبدأ بتقديم الملائكه البشاره لمريم بأمر من الله قائلين لها إن الله سوف يهب لك ولدا اسمه المسيح عيسى بن مريم، وسيكون له مقام مرموق في الدنيا والآخرة، وهو مقرب عند الله.

إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

و لا بد من الإشاره هنا إلى بضع مسائل:

١- في هذه الآيه و في آيتين أخريين يوصف المسيح بأنه «الكلمه» و هو تعبير موجود في كتب العهد الجديد أيضا.

كلام المفسرين كثير في بيان سبب إطلاق هذه الكلمه على المسيح. إلا أن أقربها إلى الذهن هو ولاده المسيح الخارقه للعادة و التي تقع ضمن: **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١)**.

أو لأنّ البشاره بولادته قد جاءت في كلمه إلى أمّه.

كما أن لفظه «الكلمه» وردت في القرآن بمعنى «المخلوق»: **قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (٢)**.

ففي هذه الآيه «كلمات ربي» هي مخلوقات الله. ولما كان المسيح أحد مخلوقات الله العظيمه فقد سمى بالكلمه، وهذا يتضمن أيضا ردًا على الذين يقولون بالوهيئه المسيح عليه السلام.

٢- «المسيح» بمعنى الماسح أو الممسوح. وإطلاقها على عيسى إما لأنه كان يمسح بيده على المرضى الميؤوس منهم فيشفهم بإذن الله، إذ كانت هذه الموهبه قد خصصت له منذ البدايه، و لذلك أطلق الله عليه اسم المسيح قبل ولادته.

أو لأنّ الله قد مسح عند الدنس والإثم و طهره.

٣- يصرح القرآن في هذه الآيه بأنّ عيسى هو ابن مريم، وهو تصريح يدحض مفتريات المفترين عن الوهيئه المسيح. إذ أن من يولد من امرأه و تطراً عليه جميع التحوّلات التي تطراً على الجنين البشرى و الكائن المادى لا يمكن أن يكون إلهاً، ذلك الإله المنزه عن كل أنواع التغيّرات و التحوّلات.

تشير الآيه التي بعدها إلى إحدى فضائل و معاجز عيسى عليه السلام و هي تكلمه في المهد و **يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا وَ مِنْ الصَّغِيرِينَ**. فقد جاء في سوره مريم أنّه لدفع التهمه عن أمّه تكلم في المهد كلاماً فصيحاً أعرب فيه عن عبوديته لله، و عن كونه نبياً.

ص: ٤٩٩

١-١) -يس: ٨٢.

٢-٢) -الكهف: ١٠٩.

و لما لم يكن من الممكن أن يولد نبى في رحم غير طاهره، فإنه يؤكد بهذا الإعجاز طهاره أمه.

«المهد» هو كل مكان يعدّ لنوم المولود حديثاً، سواء أ كان متحرّكاً أم ثابتاً و الظاهر من آيات سوره مريم أنه عليه السّلام تكلم منذ بدايه تولده ممّا يستحيل على كل طفل أن يقوم به فى هذا العمر عاده، و بهذا كان كلامه فى المهد معجزه كبيره. و لكن الكلام فى مرحله الكهوله (1). امر عادى. و لعلّ ذكره فى الآيه أعلاه مقارنا للحديث فى المهد إشاره أن كلامه فى المهد مثل كلامه فى الكهوله و الكمال لم يجانب الصواب و الحقّ و الحكم.

و تشير الآيه كذلك إلى أنّ المسيح لا ينطق إلاّ بالحقّ منذ ولادته حتّى كهولته، و أنّه يواصل الدعوه إلى الله و إرشاد الناس و لا يفتر عن ذلك لحظه واحده.

و لعلّ إيراد هذا التعبير عن المسيح ضرب من التنبؤ بعوده المسيح إلى الدنيا، إذ أنّنا نعلم من كتب التاريخ أنّ عيسى عليه السّلام قد رفع من بين الناس إلى السماء و هو فى الثالثه و الثلاثين من عمره. و هذا يتفق مع كثير من الأحاديث الوارده عن عوده المسيح فى عهد الإمام المهدي عليه السّلام و يعيش معه بين الناس و يؤيّده.

و بعد ذكر مناقب المسيح المختلفه يضيف إليها وَ مَن الصّٰلِحِينَ . و من هذا يتّضح أنّ الصّلاح من أعظم دواعى الفخر و الاعتراز، و تنضمّ تحت لوائه القيم الإنسانيه الأخرى.

ص : ٥٠٠

---

١ - ١) - «الكهوله» هى متوسط العمر، و قيل إنّها الفتره ما بين السنه الرابعه و الثلاثين حتّى الحاديه و الخمسين، و ما قبلها «شاب» و ما بعدها «شيخ».

اشاره

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧)

التفسير

إننا نعلم أن هذه الدنيا هي دنيا العلل والأسباب، وأن الله قد دبر أمر الخلق بحيث إن خلق كل كائن يتم ضمن سلسله من العوامل. فلكى يولد إنسان قرّر الله أن يكون ذلك عن طريق الاتصال الجنسي، و نفوذ الحيمن فى البويضه. لذلك حق لمريم أن تصيها الدهشه و أن تتقدم بسؤالها: كيف يمكن أن تحمل و تلد و يكون لها ولد بغير أن يكون لها أى اتصال جنسى مع أى بشر؟ قالت ربّ أنى يكون لى ولد و لم يمسنى بشر .

فجاءتها الملائكه بأمر ربها تخبرها بأن الله يخلق ما يشاء و كيفما يشاء، فنظام الطبيعه هذا من خلق الله و هو يأتمر بأمره، و الله قادر على تغيير هذا النظام وقتما يشاء، فيخلق وفق أسباب و عوامل أخرى غير عاديه ما يشاء: كذلك الله يخلق ما يشاء .

ثم لتوكيد هذا الأمر و إنهائه يقول إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

إنَّ تعبير «كن فيكون» إشاره إلى سرعه الخلق.

بديهي أن لفظه «كن» تشير في الحقيقة إلى إرادة الله الحاسمه التي لا يعتورها الأخذ و الرد. أي أنه ما إن يشاء أمرا و يصدر أمره بالخلق حتى تتحقق مشيئته في عالم الوجود.

من الجدير بالالتفات أنه بشأن خلق عيسى قال: «يخلق» و لكنه بشأن خلق يحيى قبل بضع آيات قال: «يفعل». و لعل هذا الاختلاف في التعبير ناشئ من اختلاف طريقه خلق هذين النبيين، فأحدهما خلق بطريقه طبيعيه، و الآخر خلق بطريقه خارقه للطبيعه. و هناك ملاحظه اخرى و هي أن هذه الآيات تذكر في بدايتها محادثه الملائكه مع مريم. و هنا محادثتها مع الله عزّ و جلّ، و كأنها بلغ بها الوجد و الجذبه الإلهيه أن زالت الوسائط و اتّصلت مع مبدأ العزه، فأخذت تحدثه و تسمع منه مباشره. (و طبعا لا إشكال في تكلم غير الأنبياء مع الله تعالى إذا لم يكن بصوره الوحي).

ص: ٥٠٢

اشاره

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبْرِئُ الْمَأْكُمَةَ وَ الْمَأْبْرَصَ وَ أَحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ لَمَّا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩)

التفسير

اشاره

بقية امتيازات المسيح عليه السلام:

بعد أن ذكرت الآيات السابقة أربع صفات للمسيح عليه السلام (وجيها في الدنيا و الآخرة و من المقربين و يكلم الناس في المهدي، و من الصالحين) شرعت هاتان الآيتان بذكر صفتين أخريين من صفات هذا النبي العظيم، فالأولى تقول:

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ

ففي البدايه تشير إلى تعليمه الحكمة و العلم بشكل عام، ثم تبين مصداقين من مصدايق الكتاب و الحكمة، و هما التوراه و الإنجيل.

إن الذين يختارهم الله لقياده الناس و هدايتهم، لا بد أن يكونوا في أعلى درجه من العلم و المعرفة و أن يقدموا أسمى التعاليم و القوانين البناء، ثم بعد ذلك عليهم أن يظهروا أدله و اوضحه على علاقتهم بالله، لتوكيد مهمتهم. و بهذين الوسيلتين تكتمل عمليه هدايه الناس، و فى الآيات أعلاه تمت الإشاره إلى هذين الأمرين. ففى الأولى كان الكلام عن علم المسيح و كتبه السماويه. و فى الآيه الثانيه إشاره إلى معجزاته العديده. ثم تبين الهدف من كل ذلك و هو هدايه بنى إسرائيل المنحرفين و رسولا إلى بنى إسرائيل.

من الجدير بالذكر أن الآيه تفيد أن رساله عيسى كانت موجّهه إلى بنى إسرائيل فقط. و هذا لا يتنافى مع كونه من أولى العزم، لأن أولى العزم هم الأنبياء الذين جاؤوا بدين جديد، حتى و إن لم يكن عالمى الرساله. و قد جاء فى تفسير «نور الثقلين» حديث عن اقتصار رساله عيسى على بنى إسرائيل (١).

إلا أن بعض المفسرين يرون احتمال عالميه رساله المسيح، و أنها لم تكن محصوره ببنى إسرائيل، على الرغم من أن بنى إسرائيل كانوا على رأس الذين أرسل إليهم لهدايتهم. يورد المرحوم العلامة المجلسى فى «بحار الأنوار» أخبارا عن أولى العزم من الأنبياء تؤيد أنها كانت رسالات عالميه (٢).

ثم تضيف الآيه أنى قد جئتكم بآيه من ربكم و ليست آيه واحده، بل آيات عديده (لأن التتوين جاء هنا لبيان عظمه هذه الآيه، لا لبيان وحدتها).

و لما كانت دعوه الأنبياء فى الحقيقه دعوه إلى حياه حقيقه، فإن هذه الآيه -عند بيان معجزات السيد المسيح عليه السلام- تبدأ بذكر بث الحياه فى الأموات بإذن الله، و تقول على لسان المسيح عليه السلام أنى أخلق لكم من الطين كهيئه الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله.

ص: ٥٠٤

١-١) -نور الثقلين: ج ١ ص ٣٤٣.

٢-٢) -بحار الأنوار: ج ١١ ص ٣٢ الطبعة الجديده.

إنّ قضيه إحياء الموتى التدريجي بإذن الله ليست عويصه، لأننا نعلم أنّ جميع الكائنات الحيّه مخلوقه من التراب و الماء، إلا أنّ المعجزه فى أن هذا الخلق الذى تحقّق على امتداد سنوات طويله. فما الذى يمنع من أن يكثف الله تلك العوامل و الأسباب بحيث تتمّ مراحل الخلق بسرعه فائقه، و يتحوّل الطين إلى كائن حيّ؟ بديهى أنّ تحقّق هذا الأمر فى ذلك المحيط، و فى أى محيط آخر، سند حيّ؟ و دليل واضح على علاقه صاحب المعجزه بعالم ما وراء الطبيعیه، و على قدره الله اللامتناهيه.

ثمّ تشير إلى معالجه الأمراض الصعبه العلاج أو التى لا علاج لها، و تقول على لسانه: وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ (١) وَ أُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ. لا- شكّ أنّ القيام بكلّ هذه الأعمال و خاصّه لدى علماء الطبّ فى ذلك الزمان كان من المعجزات التى لا يمكن إنكارها.

بعد ذلك تشير إلى إخباره عن أسرار الناس الخافيه، فلكلّ امرئ فى حياته بعض الأسرار التى لا يعرف الآخرون شيئاً عنها. فإذا جاء من يخبرهم بما أكلوه، أو ما ادّخروه، فهذا يعنى أنّه يستقى معلوماته من مصدر غيبى: وَ أُبَيِّنُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ وَ أُخِيرًا يَقُولُ إِنَّ هَذِهِ كُلُّهَا دَلَالٌ صَادِقَةٌ لِلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ مِنْكُمْ: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

## بحوث

## اشاره

### ١- أ كانت معجزات المسيح عجيبه؟

يصرّ بعض المفسّرين-مثل صاحب المنار-على تأويل المعجزات التى ذكرها القرآن للمسيح بشكل من الأشكال. من ذلك قولهم إنّ المسيح اكتفى بمجرّد

ص: ٥٠٥

١- (١) -«أكمه» قيل أنه يعنى أعمى، و ذهب بعض إلى أنه العشو الليلي، و لكن اغلب المفسّرين و أرباب اللغه ذهبوا إلى أنه يعنى الأعمى منذ الولاده. و بعض ذهب إلى أكثر من ذلك بأن المراد هو عدم وجود أصل العين.



الادعاء بأنه يفعل كذا و كذا بإذن الله، ولكنه لم يفعل منها شيئاً أبداً! فإذا كان هذا الرأي قابلاً للنقاش هنا، فإن ما جاء في الآيه ١١٠ من سورة المائدة لا مجال فيه لأى نقاش: وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ... لأن الآيه تقول صراحه إن واحده من نعم الله عليك أنك كنت تصنع من الطين طيراً حياً بإذن الله.

إن الإصرار على أمثال هذه التأويلات لا- موجب له أبداً. لأنه إذا كان الهدف إنكار أعمال الأنبياء الخارقة للعادة، فإن القرآن يصرح بها فى كثير من المواضع، فإذا استطعنا-فرضاً- أن نؤول المعجزات فكيف بسائر المعجزات التى لا يمكن تأويلها؟ ثم إننا إذا كنا نقول إن الله هو الذى يحكم قوانين الطبيعه، وليست هى التى تحكمه، فما الذى يمنع هذه القوانين لطبيعه أن تتغير بأمر منه فى ظروف استثنائية فتظهر حوادث بطرق غير طبيعه.

أما إذا تصوّر هؤلاء أن ذلك يتعارض مع وحده أفعال الله و خالقيته و كونه لا شريك له، فإن القرآن قد أجاب على هذا. ففوق هذه الحوادث أينما وقعت مشروط بأمر الله، أى أن أحدا بقواه الخاصه غير قادر على القيام بأمثال هذه الأعمال إلا إذا شاء، و بإمداد من قدرته اللامتناهيه و هذا هو التوحيد عينه، لا الشرك.

## ٢-الولاية التكوينية

تفيد هذه الآيه و آيات أخرى سوف نتطرق إليها-إن شاء الله- أن رسل الله و أوليائه يستطيعون بإذن منه و بأمره-إذا اقتضى الأمر- أن يتدخلوا فى عالم الخلق و التكوين، و أن يحدثوا ما يعتبر خارقاً للقوانين الطبيعه. فاستعمال أفعال مثل «أبرى» و «أحى الموتى» و بضمير المتكلم تدل على أن هذه الأفعال من عمل الأنبياء أنفسهم، و أن القول بأن هذه الأفعال كانت تقع بسبب دعائهم فقط هو

قول لا يقوم عليه دليل، بل أنّ ظاهر الآيات يدلّ على أنّهم كانوا يتصرفون بعالم التكوين و يقومون بتلك الأفعال.

و لكن لكي لا- يتصوّر أحد أنّ الأنبياء و الأولياء كان لهم استقلال في العمل، و أنّهم أقاموا جهازا للخلق في مقابل جهاز خلق الله، و كذلك لكي لا- يكون هناك أيّ احتمال للشرك و للعبادة المزدوجه، تكرر قول «ياذن الله»، (تكرر في هذه الآية مرّتين، و في الآية ١١٠ من سورة المائدة أربع مرّات).

و ما الولاية التكوينية إلاّ القول بأنّ الأنبياء و الأئمّة يستطيعون- إذا لزم الأمر- أن يتصرّفوا في عالم الخلق ياذن الله. و هذا مقام أرفع من مقام الولاية التشريعية، أي إدارة الناس و حكمهم و نشر قوانين الشريعة بينهم و دعوتهم إلى الله و هدايتهم إلى الصراط المستقيم.

و بذلك يتضح جواب الذين ينكرون ولاية أهل الله التكوينية يعتبرونها ضربا من الشرك. فما من أحد يقول بأنّ للأنبياء و الأئمّة جهازا للخلق مستقلا في قبال الله. إنّما هم يفعلون ما يفعلون ياذن الله و بأمر منه. غير أنّ منكرى الولاية التكوينية يقولون إنّ مهمّة الأنبياء تنحصر في الدعوه إلى الله و إبلاغ رسالته و أحكامه، و قد يتوسّلون أحيانا بالدعاء إلى الله في بعض الأمور التكوينية، و أنّ هذا هو كلّ ما يقدرون عليه، مع أنّ هذه الآية و الآيات الأخرى تفيد غير ذلك.

كما يستنتج من هذه الآية أنّ كثيرا من معجزاتهم- على الأقل- قد فعلوها بأنفسهم، و إن كان ذلك ياذن الله و بعون من قدره الإلهية. في الواقع يمكن القول بأنّ المعجزه من عمل الأنبياء- لأنّهم هم الذين يقومون بها- كما هي من عمل الله لأنّها تتمّ ياذنه و بالاستعانه بقدرته.

٣- الجدير بالالتفات هنا إنّ تكرار القول «ياذن الله» و الاعتماد على مشيئته في هذه الآية من أجل أن لا يبقى عذر لمدعى الوهية المسيح، و لكيلا يعتبره الناس ربّا، أما عدم تكرارها في الأخبار بالغيب لوضوح الأمر.

إشاره

وَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَ لِأَجَلٍ لَّكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١)

التفسير

هذه الآيه جاءت على لسان المسيح عليه السلام و لبيان بعض اهداف النبوه حيث يقول:جئت أوكد لكم التوراه و أثبت أصولها و مبادئها وَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ كما جئت لأرفع الحظر الذي فرض عليكم،بالنسبه لبعض الأشياء،فى دين موسى بسبب عصيانكم-مثل منع لحم الأباعر،و بعض شحوم الحيوانات، و بعض الطيور،و الأسماك- وَ لِأَجَلٍ لَّكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ .

و سوف نجد فى تفسير الآيه ١٦٠ من سوره النساء أنه بسبب عناد بعض جماعات اليهود و طغيانهم حرّم الله عليهم بعض الطيبات من النعم: فَبُظِّلِمِ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ .

إلا أنّ هذه المحظورات أحلت لهم مرّه أخرى ببركه ظهور المسيح عليه السلام هذا النبى العظيم.

ثم مره أخرى تتكرر الجملة التي قرأنا على لسان المسيح في الآية السابقة:

وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ

و في الآية الثانية تؤكد على لسان السيد المسيح عليه السلام عبوديه المسيح لرفع كل إبهام و ريب قد ينشأ من كيفية ولادته التي قد يتشبث بها البعض لإثبات ألوهيته و تقول: إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِدْقٌ مُشْتَقِيمٌ يتضح من هذه الآية و من آيات أخرى أن السيد المسيح، لكي يزيل كل إبهام و خطأ فيما يتعلق بولادته الخارقه للعاده، و لكي لا يتخذونها ذريعه لتأليهه، كثيرا ما يكرر القول إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ و إِنَّي عَبْدُ اللَّهِ اتَّانِي الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا (١)، بخلاف ما نراه في الأناجيل المحرّفة الموجوده التي تنقل عن المسيح أنه كان يستعمل «الأب» في كلامه عن الله. إن القرآن يذكر «الرب» بدلا من ذلك: إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ. و هذا أكثر ما يمكن أن يقوم به المسيح في محاربه من يدعى بالوهيته. بل لكي يكون التوكيد على ذلك أقوى يقول للناس فاعْبُدُوهُ أَى اعبدوا الله و لا تعبدونى.

و لذلك نجد أنه لم يكن أحد من الناس يتجرأ فى حياه السيد المسيح عليه السلام أن يدعى ألوهيته أو أنه أحد الإلهه، و حتى بعد عروجه بقرنين من الزمان لم تخالط تعليماته فى التوحيد شوائب الشرك، إلاّ أن التثليث باعتراف أرباب الكنيسه ظهر فى القرن الثالث للميلاد (و سيأتى تفصيل ذلك فى ذيل الآية ١٧١ من سوره النساء).

ص: ٥٠٩

اشاره

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَإِشْهَدُ بِأَنَا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا  
آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)

التفسير

اشاره

استقامه الحواريين:

كان اليهود ينتظرون مجيء المسيح بموجب ما بشرهم به موسى، قبل أن يولد. ولكنه عند ما ظهر، وتعرضت مصالح جمع من الظالمين و المنحرفين من بنى إسرائيل للخطر، لم يبق معه إلا نفر قليل، بينما تركه الذين احتملوا أن يؤدي قبولهم دعوه المسيح و التقيد بالقوانين الإلهيه إلى ضياع مصالحهم.

بعد أن أعلن عيسى دعوته و أثبتها بالأدله الكافيه، أدرك أن جمعا من بنى إسرائيل يصرون على المعارضه و العصيان و لا يتركون المعانده و الانحراف فلما

فنادى فى أصحابه وقال مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ فاستجاب لندائه نفر قليل. كانوا أطهارا سمّاهم القرآن بـ«الحواريين». لبوا نداء المسيح و لم يبخلوا بشيء فى سبيل نشر أهدافه المقدّسه.

أعلن الحواريون استعدادهم لتقديم كلّ عون للمسيح، وقالوا: نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ أَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ .

لاحظ أنّ الحواريين لم يقولوا: نحن أنصارك بل لكى يعربوا عن منتهى إيمانهم بالتوحيد و ليؤكدوا إخلاصهم، و لكن لا يشمّ من كلامهم أى رائحة للشرك، قالوا: نحن أنصار الله، ننصر دينه، و نريدك شاهدا على هذه الحقيقة، لعلهم قد شمّوا منذ ذلك اليوم رائحة الانحراف فى المستقبل و أنّ هناك من يستدعى الوهية عيسى من بعده، فسعوا ألا يكون فى كلامهم ما يمكن أن يتذرّعوا به. ضمنا نلاحظ أنّ الحواريين عبّروا فى كلامهم عن كونهم مسلمين، و هذا يدلّ على أنّ الإسلام هو دين جميع الأنبياء عليهم السّلام.

و هنا ميّز المسيح عليه السّلام أتباعه المخلصين من الأعداء و المنافقين كيما يضع لدعوته برنامجا دقيقا و خطه مدروسه كما صنع نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلّم ذلك فى بيعه العقبة.

و بعد أن قبل الحواريون دعوته المسيح إلى التعاون معه و اتّخذه شاهدا عليهم فى إيمانهم، اتّجهوا إلى الله يعرضون عليه إيمانهم قائلين: رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ .

و لكن لَمَّا كانت دعوى الإيمان لا- تكفى وحدها، فقد اتّبعوها ذلك بقيامهم بتنفيذ أوامر الله و اتّباع رسوله المسيح، و قالوا مؤكدين: وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ .

ص: ٥١١

١ - (١) -التعبير بـ«أحسّ» مع أنّ الكفر أمر باطنى لا يدرك بالحواس قد يكون أنّ إصرارهم على الكفر بلغ مرتبه من الشدّه و كأنه أصبح محسوسا(الميزان- ذيل الآيه مورد البحث).

عند ما يتغلغل الإيمان في روح الإنسان لا بدّ أن ينعكس ذلك على عمله، فبدون العمل يكون ادّعاؤه الإيمان تقوّلًا، لا إيمانًا حقيقيًا.

بعد ذلك طلبوا من الله قائلين فَأَكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ. و الشاهدون هم أولئك الذين لهم صفة قياده الأمم، و يوم القيامة يشهدون على أعمال الناس الحسنه و السيئه.

و بعد أن انتهى الحواريون من شرح إيمانهم، أشاروا إلى خطط اليهود الشيطانية، و قالوا: إنّ هؤلاء-لكي يقضوا على المسيح، و على دعوته، و يصدّوا انتشار دينه-وضعوا الخطط الماكره. إلا أن ما رسمه الله من مكر فاق مكرهم و كان أشدّ تأثيرًا و مَكْرًا و مَكْرَ اللَّهِ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ .

## بحوث

## اشاره

### ١- من هم الحواريون؟

«حواريّون» جمع حورى من ماده «حور» بمعنى الغسل و التبييض، و قد تطلق على الشىء الأبيض. لذلك يطلق العرب على الطعام الأبيض «الحوارى».

و «حور» جمع حوراء و هى البيضاء البشره.

أمّا سبب تسميه تلامذه المسيح بالحواريين فقد ذكرت له احتمالات كثيره، و لكن الأقرب إلى الذهن، و هو الوارد فى أحاديث أئمّه الدين، هو لأنهم فضلوا عن طهاره قلوبهم و صفاء أرواحهم، كانوا دائبى السعى فى تطهير الناس و تنوير أفكارهم و غسلهم من أدران الذنوب.

و هذا ما أكده حديث عن الإمام الرضا عليه السّلام فى «عيون أخبار الرضا»...؟!!

## ٢- الحواريون في القرآن و الإنجيل

تكلم القرآن على الحواريين في سورة الصف، الآية ١٤، مشيراً إلى إيمانهم.

و لكن يتبين ممّا نقرأه في الإنجيل بشأن الحواريين أنّهم جميعاً ارتكبوا بعض الزلل بالنسبة للمسيح.

أمّا أسماؤهم كما جاءت في إنجيل متى و لوقا، الباب السادس، فهي:

١- بطرس، ٢- اندرياس، ٣- يعقوب، ٤- يوحنا، ٥- فيلبس، ٦- برتولولما، ٧- توما، ٨- متى، ٩- يعقوب بن حلفا، ١٠- شمعون «الغيور»، ١١- يهوذا أخو يعقوب، ١٢- يهوذا الاسخريوطى الذى خان المسيح.

يذكر المفسّر المعروف المرحوم الطبرسى في «مجمع البيان» أنّ الحواريين كانوا يرافقون المسيح في رحلاته. كلّما عطشوا أو جاعوا رأوا الماء و الطعام مهياً أمامهم بأمر الله، فكانوا يرون في ذلك فخراً لهم أى فخر، و سألوا المسيح: أهناك من هو أفضل منا؟ فقال: نعم، أفضل منكم من يعمل بيده و يأكل من كسبه.

و على أثر ذلك اشتغلوا بغسل الملابس للناس لقاء أجر، و انشغلوا بذلك؛ فكان ذلك درسا عملياً للناس بأنّ العمل ليس عيباً أو عاراً.

## ٣- ما المراد بالمكر الإلهي

في القرآن آيات مشابهة لهذه ينسب فيها المكر إلى الله (١). كلمة «المكر» بالمصطلح المعاصر تختلف كثيراً عن معناها اللغوي. فالمكر بالمعنى المعاصر هو وضع الخطط الشيطانية الضارّة. و لكن معناها بلغة العرب هو البحث عن العلاج لأمر ما، و قد يكون حسناً أو سيئاً.

ص: ٥١٣

(١-١) - انظر الآية ٣٠ من سورة الأنفال، أو الآية ٥٠ من سورة النمل و غيرهما.



فى كتاب «المفردات» للراغب نقرأ: المكر: صرف الغير عمًا يقصد-خيرًا كان أم شرًا-.

و فى القرآن وردت كلمه «المكر» مقرونه بكلمه «الخير»، إذ يقول وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ، كما وردت مع «السيئ»: وَ لَا يَحِيْقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ (١).

و عليه يكون المقصود من الآيه هو أنّ أعداء المسيح وضعوا الخطط الشيطانيه للوقوف بوجه هذه الدعوه الإلهيه. و لكن الله لكى يحفظ حياه نبيه و يصون الدعوه مكر أيضا فأحبط كل ما مكروه.

ص: ٥١٤

١-١ - فاطر: ٤٣.

اشاره

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْجُومَ بَرَأْتُكِ مِنَ الذَّنْبِ كَفَرُوا وَاجْعَلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ  
الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥)

التفسير

قلنا إن اليهود-بالتعاون مع بعض المسيحيين الخونه-قزروا قتل السيد المسيح، فأحبط الله مكرهم، ونجى نبيه منهم. في هذه الآية يذكر الله نعمته على المسيح قبل وقوع الحادثه، قائلا: إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ .

من المعروف عند المفسرين، بالاستناد إلى الآية ١٥٧ من سوره النساء، أن السيد المسيح لم يقتل، وأن الله رفعه إلى السماء. غير أن المسيحيين يقولون إنه قتل و دفن، ثم قام من بين الأموات و بقي لفترة قصيره على الأرض ثم صعد إلى السماء (١).

ص: ٥١٥

و لكن الذى لا- بدّ من قوله الآن هو أنّ هذه الآيه ليس فيها دليل على موت عيسى، على الرغم من أنّ بعضهم تصوّر أنّ كلمه «متوفيك» من «الوفاه».

و على ذلك فإنهم يرون أنّ هذا الموضوع يتعارض مع الرأى السائد بين المسلمين، و الذى تؤيّداه الأحاديث، من أنّ عيسى لم يمت و أنّه حى. و لكن الأمر ليس كذلك.

«الفوت» هو بعد الشىء عن الإنسان بحيث يتعدّر إدراكه. و «الوافى» الذى بلغ التمام، و وفى بعهدة إذا أتمّه و لم ينقضه. و إذا استوفى أحد دينه من المدين قيل «توفى دينه».

و فى القرآن وردت «توفى» كرارا: وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ (١). فهنا عبّر عن النوم بكلمه «يتوفاكم».

هذا المعنى نفسه يرد فى الآيه ٤٢ من سوره الزمر، كما ترد كلمه «توفى» فى آيات أخرى بمعنى الأخذ.

صحيح أنّ «توفى» قد تأتى أحيانا بمعنى الموت، و لكنّها حتّى فى تلك المواضع لا- تعنى الموت حقّا، بل بمعنى قبض الروح. و الواقع أنّ مادّه «فوت» و مادّه «و فى» منفصلتان تماما.

مما تقدّم يكون تفسير الآيه واضحا.

يقول الله: يا عيسى إنّنى سوف استوفيك و أرفعك إلىّ. و هذا يعنى حياه عيسى، لا موته (و طبعا إذا كانت كلمه «توفى» بمعنى قبض الروح فقط. فإن لازم ذلك هو الموت).

ثمّ تضيف الآيه وَ مُطَهَّرْكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا .

ص: ٥١٦

هذا جانب آخر من خطاب الله إلى المسيح. و القصد من التطهير هنا هو إنقاذه من الكفار الخبثاء البعيدين عن الحق و الحقيقة الذين كانوا يوجهون إليه التهم الباطله، و يحوكون حوله المؤامرات ساعين إلى تلويث سمعته، فنصر الله دينه، و طهره من تلك التهم، بمثل ما نقرأه عن نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم في أول سورة الفتح **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ**. أى أننا هيأنا لك نصرا واضحا كى يغفر لك الله ذنوبك السابقه و اللاحقه (و يطهرك من التهم التى ألصقوها بك على شكل ذنوب).

كما يحتمل أن يعنى التطهير إخراج المسيح من ذلك المحيط الملوث. و هذا يناسب الآيه السابقه.

**وَ لَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**

و هذه بشاره يبشّر بها الله المسيح و أتباعه لتشجيعهم على المضى فى الطريق الذى اختاروه. و الواقع أنّ هذه واحده من آيات الإعجاز و من تنبؤات القرآن الغيبه التى تقول إنّ أتباع المسيح سوف يسيطرون دائما على اليهود الذين عادوا المسيح.

و ها نحن اليوم نرى هذه الحقيقه رأى العين، فاليهود الصهاينه،-بغير الاستناد إلى المسيحين-غير قادرين على إدامه حياتهم السياسيه و الاجتماعيه يوما واحدا. بديهى أنّ «الكافرين» هنا هم اليهود الذين كفروا بالمسيح.

و فى ختام الآيه يقول تعالى: **ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ فِي مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** و يعنى أن ما تقدم من الانتصارات و البشائر يتعلق بالحياه الدنيا، أما المحكمه النهائيه و نيل الجزاء الكامل فسيكون فى الآخره.

**هل الديانتان اليهوديه و المسيحيه باقيتان؟**

هنا يتبادر سؤال إلى الذهن، و هو أنّ اليهود و النصارى-بموجب هذه الآيه- سيبقون في الدنيا حتّى يوم القيامه، و أنّ أتباع هاتين الديانتين سيبقون أيضاً، مع أنّ الأخبار الخاصه بظهور المهدي عليه السلام تبين أنّه يخضع جميع الأديان و يحكم العالم كلّه.

يتّضح جواب هذا السؤال بالتدقيق في الأحاديث. فنحن نقرأ في الأحاديث عن المهدي عليه السلام أنّه لا يبقى بيت في البدو و لا في الحضر إلّا و يدخله التوحيد، أي أنّ الإسلام سيكون الدين الرسمي في العالم كلّه، و تكون الحكومه حكومه إسلاميه، و لا يحكم العالم سوى القوانين الإسلاميه. و لكن هذا لا يمنع من وجود أقلّيه من اليهود و النصارى تعيش تحت ظلّ حكومه المهديّ عليه السلام وفق شروط «أهل الذّمّه».

إنّنا نعلم أنّ حكومه المهديّ عليه السلام لا تجبر الناس على اعتناق الإسلام، بل تتقدّم بالمنطق. أمّا التوسل بالقوّه العسكريه فلبسط العداله، و للإطاحه بالحكومات الظالمه، و لانسواء العالم تحت لواء الإسلام، لا لإجبار الناس على قبول الإسلام، و إلّا فلن يكون هناك أي معنى لحريه الإراده و الاختيار.

اشاره

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)

التفسير

اشاره

عاقبه أنصار و أعداء المسيح عليه السلام:

الآيه الاولى و الثانيه تتابعان الخطاب للسيد المسيح و حال أتباعه و أعدائه، بينما الآيه الثالثه فتخاطب نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم.

و بعد ذكر رجوع الناس إلى الله و محاكمتهم في الآيه السابقه-يأتى فى هذه الآيه ذكر نتيجته تلك المحاكمه.فالكافرون و المعارضون للحق و العدالة سيلاقون فى الآخره من العذاب الأليم مثل ما يلاقون فى الدنيا، و لن يكون لأى منهم حام و لا نصير،  
فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي

و من الإشارة في هذه الآية إلى عذاب الدنيا نفهم أنّ الكافرين-و هم هنا اليهود-لا ينجون من العذاب. و هذا ما يؤكده تاريخ اليهود، و من ذلك تفوّق الآخرين عليهم كما جاء في الآيات السابقة.

ثمّ أشاء القرآن الكريم إلى الفئه الثانيه و قال وَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ. ثمّ يؤكد القول: وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .

تقديم مصير الكافرين على المؤمنين من أجل أن الكافرين بنوّه المسيح عليه السلام كانوا يشكلون الأغلبيه.

و الملفت للنظر أن الآية الاولى اكتفت بذكر الكفر فقط. أمّا الآية الثانيه فقرنت الإيمان بالعمل الصالح، و هذا إشارة إلى أن الكفر لوحده يكون سببا للعذاب الإلهي. و لكن الإيمان لوحده لا يكفي للنجاه، بل لا بدّ و أن يقترن بالعمل الصالح.

و جمله وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ لعلها ناظره إلى أن جميع معاني الكفر و الأعمال السيئه داخله في مفهوم الظلم بمعناه الواسع. و من الواضح أن الله لا يحب الظالمين و لا يقدم على ظلم عباده بل يوفيههم أجورهم بالكامل.

و بعد ذكر تاريخ المسيح و بعض ما جرى له، يتّجه الخطاب إلى رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلّم فيقول: كلّ هذا الذي سردناه عليكم دلائل صدق لدعوتك و رسالتك، و كان تذكيرا حكيما جاء بصوره آيات قرآنيه نزلت عليك، تبين الحقائق في بيان محكم و خال من كلّ هزل و باطل و خرافه.

## إشارة

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠)

## سبب النزول

قلنا في بدايه هذه السوره أنّ الكثير من آياتها كانت ردًا على محاورات مسيحيي نجران الذين جاؤوا في وفد مؤلف من ٦٠ شخصا و فيهم عدد من زعمائهم بقصد التحاور مع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم.

من بين المواضيع التي طرحت في ذلك الاجتماع مسألة الوهيته المسيح التي رفضها رسول الله و استدلل بأنّ المسيح ولد و عاش كبقية الناس و لا يمكن أن يكون إلهًا، لكنهم استدلوا على الوهيته بولادته من غير أب، فنزلت الآية ردًا عليهم، و لما رفضوا ذلك دعاهم إلى المباهله، و سوف يأتي ذكرها قريبًا إن شاء الله.

## التفسير

## إشارة

### نفي الوهيته المسيح:

الآية الأولى تورد استدلالا قصيرا و واضحا في الرد على مسيحيي نجران



بشأن الوهيه المسيح: إن ولاده المسيح من غير أب لا يمكن أن تكون دليلاً على أنه ابن الله أو أنه الله بعينه، لأن هذه الولادة قد جرت لآدم بصورة أعجب فهو قد ولد من غير أب ولا أم. و عليه، فكما أن خلق آدم من تراب لا يستدعي التعجب، لأن الله قادر على كل شيء، و لأن «فعله» و «إرادته» متناسقان فإذا أراد شيئاً يقول له: كن فيكون، كذلك ولاده عيسى من أم و بغير أب، ليست مستحيله.

و أساساً، فإن الميسور و المعسور يتحققان بالنسبه لمن كانت قدرته محدوده كما في المخلوقات، أمّا من كانت قدرته مطلقه فلا مفهوم للصعب و السهل بالنسبه له. فخلق ورقه واحده تتساوى بالنسبه له مع خلق غابه من آلاف الكيلومترات، و خلق ذره واحده كخلق المنظومه الشمسيه لديه.

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ

هذه الآيه تؤكّد الموضوع و تقول: إن ما أنزلنا عليك بشأن المسيح أمر حقيقي من الله و لا يعتوره الشكّ، فلا تتردّد في قبوله.

في تفسير الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ للمفسّرين رأيان: الرأي الأول يقول: إنّ الجملة مبتدأ و خبر، و بذلك يكون المعنى: الحقّ دائماً من ربّك، و ذلك لأنّ الحقّ هو الحقيقه، و الحقيقه هو الوجود، و كلّ وجود ناشئ من وجوده. لذلك فكلّ باطل عدم، و العدم غريب على ذاته.

الرأي الثاني يقول: إنّ الجملة خبر لمبتدأ محذوف تقديره «تلك الأخبار».

أى تلك الأخبار التي أنزلناها عليك حقائق من الله. و كلّ من التفسيرين ينسجم مع الآيه.

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١)

### سبب النزول

قيل نزلت الآيات في وفد نجران العاقب و السيد و من معهما قالوا لرسول الله:

هل رأيت ولدا من غير ذكر فنزلت: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ... الآيات فقرأها عليهم، فلما دعاهم رسول الله إلى المباهله (١) استنظروه إلى صبيحه غد من يومهم ذلك، فلما رجعوا إلى رجالهم قال لهم الأسقف: انظروا محمداً في غد فإن

ص: ٥٢٣

١ - ١) - «مباهله» في الأصل من ماده «بهل» (على وزن اهل) بمعنى اطلاق و فك القيد عن الشيء و بذلك يقال للحيوان الطلق حيث لا- توضع محالبها في كيس كى يستطيع وليدها أن يرضع بسهولة يقال له: «باهل»، و «ابتهال» في الدعاء بمعنى التضرع و تفويض الأمر إلى الله. و إذا فسروها بمعنى الهلاك و اللعن و البعد عن الله كذلك بسبب ترك العبد طلقاً و حراً في كل شيء تترتب عليه هذه النتائج، هذا معنى «المباهله» لغه. اما مفهومها ما هو المعروف نزول هذه الآيه، بمعنى الملاعنه بين الشخصين، و لذا يجتمع أفراد للحوار حول مسأله دينيه مهمه في مكان واحد و يتضرعون لله أن يفضح الكاذب و يعاقبه.

غدا بولده و أهله فاحذروا مباهلتته، و إن غدا بأصحابه فباهلوه فإنه على غير شيء.

فلما كان الغد جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم آخذاً بيدي علي بن أبي طالب عليه السلام و الحسن عليه السلام و الحسين عليه السلام بين يديه يمشيان و فاطمه عليها السلام تمشي خلفه، و خرج النصارى يتقدمهم أسقفهم. فلما رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أقبل بمن معه فسأل عنهم فقيل له: هذا ابن عمه و زوج ابنته و أحب الخلق إليه، و هذان ابنا بنته من علي و هذه الجارية بنته فاطمه أعز الناس عليه و أقربهم إلى قلبه، و تقدّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجثا على ركبتيه.

قال أبو حارثه الأسقف جثا و الله كما جثا الأنبياء للمباهله.

فرجع و لم يقدم على المباهله، فقال السيد: أذن يا أبا حارثه للمباهله! فقال:

لا- إنى لأرى رجلا- جريئاً على المباهله و أنا أخاف أن يكون صادقاً و لئن كان صادقاً لم يحل و الله علينا حول و فى الدنيا نصرانى يطعم الماء.

فقال الأسقف: يا أبا القاسم! إننا لا نباهلك و لكن نصالحك فصالحنا على ما ينهض به، فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الفى حله من حلال الاوقى قسمه كل حله أربعون درهما فما زاد أو نقص فعلى حساب ذلك أو على عاريه ثلاثين درعا و ثلاثين رمى و ثلاثين فرسا إن كان باليمن كيد، و رسول الله ضامن حتى يؤديها و كتب لهم بذلك كتاباً.

و روى أن الأسقف قال لهم: إنى لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لازاله، فلا تبتهلوا فتهلكوا و لا يبقى على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة (١).

ص: ٥٢٤

---

١- ١) -مجمع البيان، ورد سبب نزول هذه الآيات فى تفاسير اخرى مع تفاوت يسير مثل: تفسير أبو الفتوح الرازى و تفسير الكبير و غيرها، و ادعى الفخر الرازى أن هذه الروايات متفق عليها عند علماء التفسير و الحديث.

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ...

بعد الآيات التي استدلَّ فيها على بطلان القول بالوهية عيسى بن مريم، يأمر الله نبيه بالمباهلة إذا جاءه من يجادله من بعد ما جاء من العلم و المعرفة. و أمره ان يقول لهم: إنى سادعو أبنائى، و أنتم ادعوا أبناءكم، و ادعو نسائى، و أنتم ادعوا نساءكم، و ادعو نفسى، و تدعون أنتم أنفسكم، و عندئذ ندعو الله أن ينزل لعنته على الكاذب مَنَّا فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ ابْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ .

و لا- حاجه للقول بأنَّ القصد من المباهله لم يكن إحضار جمع من الناس للعن، ثم ليتفرقوا كل إلى سبيله، لأنَّ عملا كهذا لن يكون له أى تأثير، بل كان المنتظر أن يكون لهذا الدعاء و اللعن أثر مشهود عيانا فيحقيق بالكاذب عذاب فورى.

و بعبارة أخرى: فإنَّ المباهله-و إن لم يكن فى الآيه ما يشير إلى تأثيرها- كانت بمثابة «السهم الأخير» بعد أن لم ينفع المنطق و الاستدلال، فإنَّ الدعاء وحده لم يكن المقصود بها، بل كان المقصود منها هو «أثرها الخارجى».

## بحوث

## إشارة

### ١- المباهله دليل قاطع على أحقيه نبي الإسلام:

لعلَّ قضيه المباهله بهذا الشكل لم تكن معروفة عند العرب، بل كانت أسلوبا يبيّن صدق النبى و إيمانه بشكل قاطع. إذ يكف يمكن لمن لا يؤمن كل الإيمان

بعلاقته بالله أن يدخل هذا الميدان، فيطلب من معارضييه ان يتقدّموا معه إلى الله يدعونه أن ينزل لعناته على الكاذب، و أن يروا سرعه ما يحلّ بالكاذب من عقاب؟ لا شكّ أنّ دخول هذا الميدان خطر جدًّا، لأنّ المبتهل إذا لم يجد استجابته لدعائه و لم يظهر أى أثر لعقاب الله على معارضييه، فلن تكون النتيجة سوى فضيحه المبتهل. فكيف يمكن لإنسان عاقل و مدارك أن يخطو مثل هذه الخطوه دون أن يكون مطمئنًا إلى أنّ النتيجة فى صالحه؟ لهذا قيل إنّ دعوه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم إلى المباهله تعتبر واحدا من الأدلّه على صدق دعوته و إيمانه الراسخ بها، بصرف النظر عن النتائج التى كانت ستكشف عنها المباهله.

تقول الروايات الإسلاميه: عند عرض هذا الاقتراح للمباهله، طلب ممثلو مسيحيي نجران من رسول الله أن يمهلهم بعض الوقت ليتبادلوا الرأى مع شيوخهم.

فكان لهم ما أرادوا. و كانت نتيجة مشاورتهم- التى تعتمد على ناحيه نفسيه- هى أنّهم أمروا رجالهم بالدخول فى المباهله دون خوف إذا رأوا محمّدا قد حضر فى أكثر من الناس و وسط جلبيه و ضوضاء، إذ أنّ هذا يعنى أنّه بهذا يريد بثّ الرعب و الخوف فى النفوس و ليس فى أمره حقيقه. أمّا إذا رأوه قادمًا فى بضعه أنفار من أهله و صغار أطفاله إلى الموعد، فليعلموا أنّه نبيّ الله حقًّا، و ليتجنّبوا مباحلته.

و قد حضر المسيحيون إلى المكان المعين، ثمّ رأوا أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم أقبل يحمل الحسين على يد و يمسك الحسن باليد الأخرى و من خلفه على و فاطمه، و هو يطلب منهم أن يؤمنوا على دعائه عند المباهله. و إذ رأى المسيحيون هذا المشهد استولى عليهم الفزع، و رفضوا الدخول فى المباهله، و قبلوا التعامل معه بشروط أهل الذمّه.

## ٢- أحد أدله عظمه أهل البيت:

يصرّح المفسّرون من الشيعة و السنّه أنّ آيه المباهله قد نزلت بحقّ أهل بيت

النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأن الذين اصطحبهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم معه للمباهلة بهم هم: الحسن والحسين وفاطمة وعلي عليهم السلام. وعليه، فإن «أبناءنا» الواردة في الآيه ينحصر مفهومها في الحسن والحسين عليهم السلام، ومفهوم «نساءنا» ينحصر في فاطمة عليها السلام، ومفهوم «أنفسنا» ينحصر في علي عليه السلام. وهناك أحاديث كثيرة بهذا الخصوص.

حاول بعض أهل السنّة أن ينكر وجود أحاديث في هذا الموضوع، فصاحب تفسير المنار يقول في تفسير الآيه:

الروايات متّفقه على أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم اختار للمباهلة عليّاً وفاطمة ولديهما ويحملون كلمة «نساءنا» على فاطمة وكلمة «أنفسنا» على عليّ فقط، ومصادر هذه الروايات شيعية، ومقصدهم منها معروف، وقد اجتهدوا في ترويجها ما استطاعوا حتّى راجت على كثير من أهل السنّة. ولكن بالرجوع إلى مصادر أهل السنّة الأصليه يتّضح أنّ الكثير من تلك الطرق لا تنتهى بالشيعه و بكتب الشيعة، وإنكار هذه الأحاديث الواردة بطريق أهل السنّة، يسقط سائر أحاديثهم و كتبهم من الإعتبار.

لكي نلقى الضوء على هذه الحقيقة، نورد هنا بعضاً من رواياتهم ومصادرهم:

القاضي نور اللّٰمه الشوشترى في المجلّد الثالث من كتابه النفيس «إحقاق الحقّ»، الطبعه الجديده، ص ٤٦، يتحدّث عن اتّفاق المفسيّرين في أنّ «أبناءنا» في هذه الآيه إشارة إلى الحسن والحسين، و«نساءنا» إشارة إلى فاطمة، و«أنفسنا» إشارة إلى عليّ عليه السلام.

ثمّ يشير في هامش الكتاب إلى نحو ستين من كبار أهل السنّة من الذين قالوا إنّ آيه المباهله نزلت في أهل البيت، ويذكر أسماء هؤلاء العلماء بالتفصيل في الصفحات ٤٦-٧٦.

ومن المشاهير الذين نقل عنهم هذا التصريح:

ص: ٥٢٧

١-مسلم بن الحجاج النيسابورى، صاحب أحد الصحاح الستة المعروفه التى يعتمدها أهل السنّه.المجلّد ٧ ص ١٢٠(طبعه محمّد على صبيح-مصر).

٢-أحمد بن حنبل فى كتابه«المسند»ج ١ ص ١٨٥(طبعه مصر).

٣-الطبرى فى تفسيره المعروف:ج ٣ ص ١٩٢(المطبعه اليمينيّه-مصر).

٤-الحاكم فى كتابه«المستدرک»ج ٣ ص ١٥٠(طبعه حيدرآباد الدكن).

٥-الحافظ أبو نعيم الأصفهاني فى كتابه«دلائل النبوه»ص ٢٩٧(طبعه حيدرآباد).

٦-الواحدى النيسابورى فى كتابه«أسباب النزول»ص ٧٤(المطبعه الهنديه-مصر).

٧-الفخر الرازى فى تفسيره المعروف،ج ٨ ص ٨٥(المطبعه البهيّه-مصر).

٨-ابن الأثير فى كتابه«جامع الأصول»ج ٩ ص ٤٧٠(مطبعه السنّه المحمديّه-مصر).

٩-ابن الجوزى فى كتابه«تذكره الخواص»ص ١٧(طبعه النجف).

١٠-القاضى البيضاوى فى تفسيره ج ٢ ص ٢٢(مطبعه مصطفى محمّد-مصر).

١١-الآلوسى فى تفسيره«روح المعانى»ج ٣ ص ١٦٧(المطبعه المنيريّه-مصر).

١٢-الطنطاوى فى تفسيره المعروف«الجواهر»ج ٢ ص ١٢٠(مطبعه مصطفى البابى الحلبيّ-مصر).

١٣-الزمخشريّ فى تفسيره«الكشّاف»ج ١ ص ١٩٣(مطبعه مصطفى محمّد).

١٤-الحافظ أحمد بن حجر العسقلانيّ فى كتابه«الإصابه»ج ٢ ص ٥٠٣

١٥- ابن الصبّاغ في كتابه «الفصول المهمّة» ص ١٠٨ (طبعة النجف).

١٦- العلّامة القرطبي في كتابه «الجامع لأحكام القرآن» ج ٣ ص ١٠٤ (طبعة مصر سنة ١٩٣٦).

جاء في كتاب «غاية المرام» عن صحيح مسلم في باب (فضائل علي بن أبي طالب) أنّ معاوية قال يوما لسعد بن أبي وقاص: لم لا تسبّ أبا تراب (علي عليه السّلام)؟! فقال: «تركت سبّه منذ أن تذكّرت الأشياء الثلاثة التي قالها رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم في حقّ علي عليه السّلام (وأحدها) عند ما نزلت آية المباهلة لم يدع النبيّ صلى الله عليه وآله و سلم سوى فاطمه و الحسن و الحسين و علي، و قال: اللهم هؤلاء أهلي.

صاحب «الكشاف» و هو من كبار علماء أهل السنّة، يذهب إلى أنّ هذه الآية أقوى دليل على فضيله أهل الكساء.

يتفق المفسّرون و المحدثون و المؤرّخون الشيعة أيضا أنّ هذه الآية قد نزلت في أهل البيت، و قد أورد صاحب تفسير «نور الثقلين» روايات كثيرة بهذا الشأن.

من ذلك أيضا ما جاء في كتاب «عيون أخبار الرضا» عن المجلس الذي عقده المؤمنون في قصره للبحث العلمي. و

جاء فيه عن الإمام الرضا عليه السّلام قوله: ...مميّز الله الطاهرين من خلقه، فأمر نبيّه صلى الله عليه وآله و سلم بالمباهلة بهم في آية الابتهاال. فقال عزّ و جلّ: يا محمّد (فمنّ حاجك فيه... الآية. فأبرز النبيّ صلى الله عليه وآله و سلم عليّا و الحسن و الحسين و فاطمه صلوات الله عليهم....

و

قال عليه السّلام: فهذه خصوصيه لا يتقدّمهم فيها أحد، و فضل لا يلحقهم فيه بشر، و شرف لا يسبقهم إليه خلق (١).

ص: ٥٢٩

---

١- ١) - نور الثقلين: ج ١ ص ٣٤٩، البرهان: ج ١ ص ٢٩٠، تفسير العيّاشي: ج ١ ص ١٧٧، البحار: ج ٢٠ ص ٥٢ و ج ٦ ص ٦٥٢ الطبعة الجديدة.



كذلك وردت روايات بهذا المضمون في تفسير البرهان و بحار الأنوار و تفسير العياشي، و كلها تقول إن الآيه قد نزلت في أهل البيت.

### ٣-اعتراض و جوابه:

هنا اعتراض مشهور أورده الفخر الرازي و آخرون على نزول هذه الآيه في أهل البيت. يقول هؤلاء: كيف يمكن أن نعتبر أن القصد من «أبناءنا» هو الحسن و الحسين عليهما السّلام مع أن «أبناء» جمع و لا تطلق على الاثنين؟ و كذلك «نساءنا» جمع، فكيف تطلق على سيده الإسلام فاطمه عليها السّلام وحدها؟ و إذا كان القصد من «أنفسنا» عليا عليه السّلام وحده فلما ذا جاء بصيغته الجمع؟ الجواب أولا: كما سبق أن شرحنا بإسهاب، أن هناك أحاديث كثيره في كثير من المصادر الإسلاميه الموثوق بها-شيعيه و سنيّه- تؤكد نزول هذه الآيه في أهل البيت، و هي كلها تقول إن النبي صلى الله عليه و آله و سلم لم يدع للمباهله غير علي و فاطمه و الحسن و الحسين عليهم السّلام، هذا بذاته قرينه واضحه لتفسير الآيه، إذ أن من القرائن التي تساعد على تفسير القرآن هي السنّه و ما ثبت من أسباب النزول.

و عليه، فإنّ الاعتراض المذكور ليس موجها للشيعه فقط، بل أن على جميع علماء الإسلام أن يجيبوا عليه، بموجب ما ذكرناه آنفا.

ثانيا: إطلاق صيغه الجمع على المفرد أو المثني ليس أمرا جديدا فهو كثير الورد في القرآن و في غير القرآن من الأدب العربي، و حتى غير العربي.

من ذلك مثلا- أنه عند وضع قانون، أو إعداد اتّفاقيه، تستعمل صيغه الجمع على وجه العموم. فمثلا- قد يقال في اتّفاقيه: إنّ المسؤولين عند تنفيذها هم الموقعون عليها و أبناؤهم. في الوقت الذي يمكن أن يكون لأحد الأطراف ولد واحد أو

اثنين. فلا- يكون في هذا أى تعارض مع تنظيم الاتفاقية بصيغته الجمع. و ذلك لأن هناك مرحلتين، مرحله «الاتفاق» و مرحله «التنفيذ». ففي المرحلة الأولى قد تأتي الألفاظ بصيغته الجمع لكي تنطبق على جميع الحالات. و لكن في مرحلة التنفيذ قد تنحصر الحالة في فرد واحد، و هذا لا يتنافى مع عموميه المسأله.

و بعبارة أخرى: كان على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بموجب اتفاه مع مسيحيي نجران، أن يدعو للمباهله جميع أبناءه و خاصه نسائه و جميع من كانوا بمثابة نفسه. إلا أن مصداق الاتفاق لم ينطبق إلا على ابنين و امرأه و رجل (فتأمل!).

في القرآن مواضع متعدده ترد فيها العبارة بصيغته الجمع، إلا أن مصداقها لا ينطبق إلا على فرد واحد. فمثلا نقرا: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ (١) المقصود من «الناس» في هذه الآية هو «نعيم بن مسعود» حسب قول فريق من المفسرين، لأن هذا كان قد أخذ أموالا من أبى سفيان في مقابل إخافه المسلمين من قوه المشركين.

و أيضا نقرا: لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِيَاءُ (٢). فهنا المقصود ب«الذين» في هذه الآية، على رأى كثير من المفسرين، هو «حى بن أخطب» أو «فناص».

و قد يطلق الجمع على المفرد للتكريم، كما جاء عن إبراهيم: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ (٣). فهنا أطلقت كلمه «أمه» و هى اسم جمع، على مفرد.

٤- كما أن آيه المباهله تفيد بأن أبناء البنت يعتبرون أبناء أبيها أيضا، بخلاف ما كان سائدا في الجاهليه في اعتبار أبناء الابن فقط هم أبناء الجد، إذ

ص: ٥٣١

١-١) - آل عمران: ١٧٣.

٢-٢) - آل عمران: ١٨١.

٣-٣) - النحل: ١٢٠.

كانوا يقولون:

بنونا بنو أبناتنا و بناتنا

بنوهنّ أبناء الرجال الأبعد

هذا اللون من التفكير كان من بقايا التقاليد الجاهليه الخاطئه التي لم تكن ترى المرأه عضوا من أعضاء المجتمع، بل كانت تنظر إليها على أنّها و وعاء لنموّ الأبناء فقط، و ترى أنّ النسب يلحق بالأباء لا غير. يقول شاعرهم:

و إنّما أمّهات الناس أوعيه

مستودعات و للأنساب آباء

غير أنّ الإسلام قضى على هذا اللون من التفكير، و ساوى بين أبناء الابن و أبناء البنت.

نقرأ فى الآيه ٨٤ و ٨٥ من سوره الأنعام بشأن أبناء إبراهيم: **مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُليْمَانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسَى وَ هَارُونَ وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ\* وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيَى وَ عِيسَى وَ إِبْرَاهِيمَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ .**

فالمسيح عيسى بن مريم عدّ هنا من أبناء إبراهيم مع أنّه كان ابنا من جهه البنت.

الأحاديث و الروايات الوارده عن طريق الشيعة و السنّه بشأن الحسن و الحسين عليهما السّلام تشير إلى كلّ منهما ب«ابن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم» كرارا.

و فى الآيات التي تحرّم الزواج ببعض النساء نقرأ: **وَ حَلَائِلُ أَبْتِائِكُمُ** . يتفق علماء الإسلام على أن الرجل يحرم عليه الزواج من زوجه ابنه و زوجه حفيده سواء أ كان من جهه الابن أم البنت، باعتبار شمولهم بالآيه المذكوره.

٥- هل المباهله تشريع عام؟ لا شك أنّ هذه الآيه ليست دعوه عامّه للمسلمين للمباهله، إذ أنّ الخطاب موجّه إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم وحده. و لكن هذا لا يمنع من أن تكون المباهله مع المعارضين حكما عامّا، و أنّ الأتقياء من المؤمنين الذين يخشون الله، لهم أن

ص: ٥٣٢

يطلبوا من الذين لم ينفع فيهم المنطق و الاستدلال التقدّم للمباهله.

و تظهر عموميه هذا الحكم فى بعض الروايات الإسلاميه، فقد جاء فى تفسير نور الثقلين، ج ١ ص ٣٥١

عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: إذا كان كذلك (أى إذا لم يقبل المعاند الحق) فادعهم إلى المباهله... أصلح نفسك ثلاثاً... و أبرز أنت و هو إلى الجبان (الصحراء) فشبك أصابعك من يدك اليمنى فى أصابعه، ثم أنصفه و ابدأ بنفسك و قل: اللهم ربّ السماوات السبع و ربّ الأرضين السبع عالم الغيب و الشهاده الرحمن الرحيم إن كان (فلانا) جحد حقاً و ادعى باطلا فأنزل عليه حسابنا (بلاء) من السماء و عذاباً أليماً. ثم ردّد الدعوه عليه... فإنك لا تلبث أن ترى ذلك فيه.

و يتضح أيضاً من هذه الآيه أنه -خلافاً للحملات التى يشنّها الزاعمون أنّ الإسلام دين الرجال و ليس للمرأة فيه أى حساب- قد ساهمت المرأة المسلمه مع الرجل خلال اللحظات الحساسه فى تحقيق الأهداف الإسلاميه و وقفت معه ضدّ الأعداء. إنّ الصفحات المشرقه التى تمثّل سيره سيده الإسلام فاطمه الزهراء عليها السلام و ابنتها السيده زينب الكبرى و غيرها من نساء الإسلام اللاتى سرن على طريقهما دليل على هذه الحقيقه.

ص: ٥٣٣

إشارة

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣)

التفسير

تقول الآيه-بعد شرح حياه المسيح عليه السلام:-إن ما قصصناه عليك من قصه عيسى حقيقه أنزلها الله عليك. و عليه، فإن المزاعم الباطله القائله بالوهيه المسيح، أو اعتباره ابن الله، أو بعكس ذلك اعتباره لقيطا، كلها خرافات باطله إن هذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ .

ثم تضيف للتوكيد: إن الذى يليق للعباده هو الله وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وحده، و أن اتّخاذ معبود آخر دونه عمل بعيد عن الحق و الحقيقه وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فهو قادر على أن يخلق ولدا بدون أب، و ذلك على الله يسير.

«القصص» مفرد، تعنى القصصه، و هى فى الأصل من «القص» بمعنى تعقّب الأثر. فى موضع آخر من القرآن قالت أم موسى لابنتها «قصيه» أى عقيبه و ابحتى عنه وَ قَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ (١) و قولهم لثأر الدم «القصاص» لأنه

ص: ٥٣٤

تتبع لحقوق أصحاب الدم.

و«القصة» تعنى بتاريخ القدامى و البحث فى سير حياتهم و من ذلك يعلم أن المشار إليه فى (هذا) هو قصة حياه المسيح لا القرآن الكريم و لا قصص الأنبياء.

الآيه الثانيه تهدد من لم يستسلم هؤلاء للحقّ بعد الاستدلالات المنطقيه فى القرآن بشأن المسيح عليه السلام، و كذلك إذا لم يخضعوا للمباهله و استمرّوا فى عنادهم و تعصّيه بهم، لأن ذلك دليل على أنّهم ليسوا طلاب حقّ، بل هم مقيدون بأغلال تعصّيه بهم المجحف، و أهوائهم الجامحه، و تقاليدهم المتحجره، و بذلك يكونون من المفسدين فى المجتمع: فَإِنَّ تَوَلَّوْا فَيَأْتِ اللّٰهَ عَلَيْهِم بِالْمُفْسِدِينَ .

لأن هدفهم تخدير الناس و إفساد العقائد السليمه لأفراد المجتمع، و من المعلوم أن الله تعالى يعرف هؤلاء، و يعلم بنياتهم و سيجازيهم فى الوقت المناسب.

ص: ٥٣٥

اشاره

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا إِشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)

التفسير

اشاره

الدعوة إلى الأتحد:

بدأ القرآن في الآيات السابقة بدعوة المسيحيين إلى الاستدلال المنطقي، و إذ رفضوا، دعاهم إلى المباهله، فكان لهذا أثره في نفوسهم، فرفضوها و لكنهم رضخوا لشروط اعتبارهم ذميين. فانتهز القرآن هذه الفرصه من استعدادهم النفسى، و عاد إلى طريقه الاستدلال.

غير أن الاستدلال هذه المره يختلف عن الاستدلال السابق اختلافا كبيرا.

في الآيات السابقه كانت الدعوه إلى الإسلام (بكل تفاصيله). و لكن الدعوه هذه المره تتجه إلى النقاط المشتركه بين الإسلام و أهل الكتاب. و بهذا يعلمنا القرآن درسا، مفاده: أنكم إذا لم توفقوا في حمل الآخرين على التعاون معكم في

جميع أهدافكم، فلا- ينبغي أن يقعد بكم اليأس عن العمل، بل اسعوا لإقناعهم بالتعاون معكم في تحقيق الأهداف المشتركة بينكم، كقاعده للانطلاق إلى تحقيق سائر أهدافكم المقدسه قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا .

هذه الآيه تعتبر نداء «الوحده و الاتحاد» إلى أهل الكتاب، فهي تقول لهم:

إنكم تزعمون- بل تعتقدون- أن التثليث (أى الاعتقاد بالآلهه الثلاثه) لا ينافى التوحيد، لذلك تقولون بالوحده فى التثليث. و هكذا اليهود يدعون التوحيد و هم يتكلمون بكلام فيه شرك و يعتبرون «العزير» ابن الله.

يقول لهم القرآن: إنكم جميعا ترون التوحيد مشتركا، فتعالوا نضع يدا بيد لنحى هذا المبدأ المشترك بدون لف أو دوران، و نتجنب كل تفسير يؤدى إلى الشرك و الابتعاد عن التوحيد.

و الملفت للنظر أن الآيه الشريفه تؤكد موضوع التوحيد فى ثلاث تعابير مختلفه، فأولا ذكرت أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ و فى الجمله الثانيه وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا و فى المره الثالثه قالت وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ .

و لعل فى هذه الجمله الأخيره إشاره إلى أحد موضوعين:

«الأول»: أنه لا يجوز تأليه المسيح، و هو بشر مثلنا و من أبناء نوعنا.

«و الثانى»: أنه لا يجوز الاعتراف بالعلماء المنحرفين الذين يستغلون مكانتهم و يغيرون حلال الله و حرامه كيفما يحلو لهم، و لا يجوز اتباع هؤلاء.

و يتضح ممّا سبق من الآيات القرآنيه أنه كان هناك بين علماء أهل الكتاب جماعات يحرفون أحكام الله بحسب «مصالحهم» أو «تعصيه بهم». إن الإسلام يرى أن من يتبع أمثال هؤلاء دون قيد أو شرط و هو يعلم بهم، إنما هو يعبدهم بالمعنى الواسع لكلمه العباده.



إن سبب هذا الحكم واضح، فإن حق وضع القوانين و التشريعات يعود إلى الله، فإذا قرّر أحد هذا الحق لغير الله فقد أشرك.

يقول المفسيرون في ذيل تفسير هذه الآية إن «عدى بن حاتم» الذى كان نصرانيا ثم أسلم، عند ما سمع هذه الآية، فهم من كلمه «أرباب» أن القرآن يقول إن أهل الكتاب يعبدون بعض علمائهم. فقال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أما كانوا يحلون لكم و يحرمون فتأخذون بقولهم؟ فقال: نعم.

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: هو ذاك (١).

فى الواقع يعتبر الإسلام الرق و الاستعمار الفكرى نوعا من العبوديه و العباده لغير الله، و هو كما يحارب الشرك و عباده الأصنام، يحارب كذلك الاستعمار الفكرى الذى هو أشبه بعباده الأصنام.

و لا بد من الإشارة إلى أن «أرباب» جمع، لذلك لا يمكن أن نقول إن المقصود هو النهى عن عباده عيسى وحده. و لعل النهى يشمل عباده عيسى و عباده العلماء المنحرفين.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ

لو أنهم- بعد دعوتهم دعوه منطقيه إلى نقطه التوحيد المشتركه- أصرّوا على الاعتراض، فلا بد أن يقال لهم: اشهدوا أننا قد أسلمنا للحق، و لم تسلّموا، و بعبارة اخرى: فاعلموا من يطلب الحق، و من يتعصب و يعاند. ثم قولوا لهم اشهدوا أننا مسلمون فلا- تأثير لعنادكم و عصيانكم و ابتعادكم عن الحق فى أنفسنا، و إننا ما زلنا على طريقنا- طريق الإسلام- سائرون، لا نعبد إلا الله، و لا نلتزم إلا شريعته

ص: ٥٣٨

### رسائل النبي إلى رؤساء العالم:

يقول التاريخ: عند ما استقرّ الإسلام نسيبًا في الحجاز، أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رسائل إلى عدد من كبار رؤساء العالم في ذلك العصر. في بعض هذه الرسائل استند إلى هذه الآيه الداعيه إلى التوحيد-المبدأ المشترك بين الأديان السماويه-.

ولأهميته الموضوع ندرج بعضا من تلك الرسائل:

### ١-رساله إلى المقوقس

١-رساله إلى المقوقس (١)

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من أتبع الهدى. أمّا بعد فإنّي أدعوك بدعايه الإسلام، أسلم تسلم، يؤتكَ الله أجرَكَ مَرْتين، فإن تولّيت فإنما عليك إثم القبط (٢). يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمه سواء بيننا و بينكم أن لا نعبد إلاّ الله و لا نشرك به شيئا و لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»

(٣)

حمل «حاطب بن أبي بلتعنه» رساله النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المقوقس حاكم مصر، فوجده قد رحل إلى الإسكندريه، فركب إليه، و سلّمه الرساله، ثمّ قال لحاطب:

ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه و أخرجه من بلده إلى غيرها أن يسلط عليهم؟

ص: ٥٣٩

١-١) -المقوقس: حاكم مصر من قبل هرقل ملك الروم، و كان نصرانيا.

٢-٢) -الأقباط: أقوام كانت تقطن مصر.

٣-٣) -مكاتيب الرسول: ج ١ ص ٩٧.

فقال له حاطب: أ لست تشهد أنّ عيسى بن مريم رسول الله؟ فماله حيث أخذه قومه، فأرادوا أن يقتلوه، أن لا يكون دعا عليهم، أن يهلكهم الله تعالى، حتى رفعه الله إليه؟ قال: أحسنت أنت حكيم من عند حكيم.

ثم قال له حاطب: إنّه كان قبلك من يزعم أنّه الربّ الأعلى-يعنى فرعون- فأخذه الله نكال الآخرة و الأولى فانتقم به، ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، و لا يعتبر بغيرك بك.

إنّ هذا النبيّ دعا الناس، فكان أشدّهم عليه قريش، و أعداهم له اليهود، و أقربهم منه النصارى، و لعمري، ما بشاره موسى بعيسى عليهما الصلاه و السلام، إلّا كبشاره عيسى بمحمّد صلى الله عليه و آله و سلّم، و ما دعاؤنا إيّاك إلى القرآن، إلّا كدعائك أهل التوراه إلى الإنجيل، و كلّ نبيّ أدرك قوما فهم أمته، فالحقّ عليهم أن يطيعوه، فأنت ممّن أدرك هذا النبيّ، و لسنا ننهاك عن دين المسيح بل نأمرك به.

بقى حاطب بن أبى بلتعه أيّاما ينتظر جواب المقوقس على رساله رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم، و بعدها استدعاه المقوقس إلى قصره و استزاده معرفه بالإسلام و قال له:

إلى ما يدعو محمّد؟ قال حاطب: إلى أن نعبد الله وحده، و يأمر بالصلاه، خمس صلوات فى اليوم و الليله، و يأمر بصيام رمضان، و حجّ البيت، و الوفاء بالعهد، و ينهى عن أكل الميته، و الدم... ثمّ شرح له بعض جوانب حياه النبيّ صلى الله عليه و آله و سلّم.

فقال المقوقس: هذه صفته، و كنت أعلم أنّ نبيّا قد بقى، و كنت أظنّ أنّ مخرجه بالشام، و هناك كانت تخرج الأنبياء من قبله، فأراه قد خرج من أرض العرب.

ثمّ دعا كاتبه الذى يكتب له بالعربيه فكتب إلى النبيّ صلى الله عليه و آله و سلّم:

«بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمّد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام

عليك. أمّا بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه و ما تدعو إليه، وقد علمت أنّ نبيا قد بقى، وقد كنت أظنّ أنّه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك...» ثمّ عدّد له الهدايا التي بعثها إليه و ختم رسالته بعبارة «و السلام عليك» (١).

تقول كتب التاريخ إنّ المقوقس أرسل نحو أحد عشر نوعا من الهدايا و بينها طيب أرسله لمعالجه مرضى المسلمين.

فقبل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم الهدايا، لكنّه أرجع الطيب قائلا: «إنّا قوم لا نأكل حتّى نجوع، و إذا أكلنا لا نشبع» مشيرا بذلك إلى أنّ هذه القاعده فى تناول الطعام كافيه لحفظ صحّه المسلمين (و لعلّه -إضافه إلى هذه القاعده الصحّيه العظيمة- لم يكن يأمن جانب الطيب الذى كان مسيحيا و ربما كان الطيب متعصبا أيضا، فلم يشأ أن يترك أرواح المسلمين بين يديه).

إن إكرام المقوقس سفير النبى صلى الله عليه و آله و سلّم، و الهدايا التى أرسلها إليه، و تقديم اسم محمّد صلى الله عليه و آله و سلّم على اسمه، تدلّ كلّها على أنّه كان قد قبل دعوه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فى قراره نفسه، أو أنّه على الأقل -مال إلى الإسلام. و لكنّه لكى لا يهتّر مركزه امتنع عن إظهار ذلك علنا.

## ٢- رساله إلى قيصر الروم

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمّد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من أتبع الهدى. أمّا بعد، فإنّى أدعوك بدعايه الإسلام. أسلم تسلم يؤتلك الله أجره مرّتين فإن تولّيت فإنّما عليك إثم الأريسيين (٢). يا اهل الكتاب تعالوا إلى كلمه سواء بيننا و بينكم ألا نعبد إلا الله و لا نشرك به شيئا و لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأننا مسلمون».

كان حامل رساله رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم إلى القيصر رجل اسمه «دحيه الكلبي».

ص: ٥٤١

١- (١) -مكاتب الرسول: ج ١ ص ١٠٠.

٢- (٢) -الأريسيون: هم العنصر الرومى و العمال.

و تهيأ السفير للانطلاق نحو أرض الروم. و لكنّه قبل أن يصل القسطنطينيه، عاصمه القيصر، علم أنّ القيصر قد يّم شرط بيت المقدس للزياره. فاتّصل بحاكم «بصرى» الحارث بن أبى شمر و كشف له عن مهمّته. و يبدو أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم كان قد أجاز دفع الرساله إلى حاكم (بصرى) ليوصلها هذا إلى القيصر.

بعد أن اطّلع الحاكم على الأمر، استدعى عدى بن حاتم و كلفه أن يسافر مع دحيه إلى بيت المقدس ليوصل الرساله إلى القيصر. التقى السفير قيصر فى حمص.

و كانت الحاشيه قبل ذلك قد أفهموا دحيه أنّ عليه أن يسجد أمام القيصر، و أن لا يرفع رأسه أبدا حتّى يأذن له. فقال دحيه: لا أفعل هذا أبدا، و لا أسجد لغير الله.

فأعجبوا بمنطقه المتين. و قال له أحد رجال البلاط: إذا لك أن تضع الرساله تجاه منبر قيصر و تنصرف، إنّ أحدا غير القيصر لا يمّسها. فشكره دحيه على ذلك، و ترك الرساله فى ذلك المكان، و انصرف.

فتح قيصر الرساله، و جلب انتباهه افتتاحها باسم الله، و قال: أنا لم أر رساله مثل هذه غير رساله سليمان. ثمّ طلب مترجمه ليقرأ له الرساله و يترجمها. احتمل قيصر أن يكون كاتب الرساله هو النبى الموعود فى التوراه و الإنجيل. فعزم على معرفه دقائق حياه هذا النبى. فأمر بالبحث فى الشام لعلّهم يعثرون على من يعرف شيئا عن محمّد صلى الله عليه و آله و سلّم. و اتّفق أن كان أبو سفيان و جمع من قريش قد قدموا إلى الشام-التي كانت الجناح الشرقى للروم-للتجاره، فاتّصل بهم رجال القيصر و أخذوهم إلى بيت المقدس، فسألهم القيصر: أيّكم أقرب نسبا من هذا الرجل الذى يزعم أنّه نبى؟ فقال أبو سفيان: أنا.

ثمّ قال القيصر للقريشيين-على طريق ترجمانه-: إنى سائل (أبا سفيان) عن هذا الرجل الذى يزعم أنّه نبى. فإن كذبنى فكذبوه. فقال أبو سفيان: و ايم الله لولا مخافه أن يؤثّر على الكذب لكذبت.

١- ثم قال لترجمانه: سله كيف حسبه فيكم؟ أبو سفيان: هو فينا ذو حسب.

٢- القيصر: هل كان من آباءه ملكك؟ أبو سفيان: لا.

٣- القيصر: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ أبو سفيان: لا.

٤- القيصر: من يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ أبو سفيان: بل ضعفاؤهم.

٥- القيصر: أ يزيدون أم ينقصون؟ أبو سفيان: بل يزيدون.

٦- القيصر: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطه له؟ أبو سفيان: لا.

ثم استمرّ الحوار بين الاثنين عن موقف قريش من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم وعن سجاياه ثم قال القيصر:

إن يكن ما تقول حقًا فإنه نبيّ، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، ولو أعلم أنّي أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت قدميه - حسب تقاليد الاحترام يومئذ - و ليلغن ملكه ما تحت قدمي، ثم دعا بكتاب رسول الله فقرأه و دعا دحيه و احترامه و كتب جواب الرساله و ضمّنها بهديه و أرسلها الى الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم و أظهر في جواب الرساله ولاءه و محبته إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم.

إشاره

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجُّونَ فِي مَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِي مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)

سبب النزول

ورد في الروايات الشريفه أن علماء اليهود و نصارى نجران جاءوا إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأخذوا يجادلونه في إبراهيم، فقالت اليهود: أنه كان يهودياً، وقالت النصارى: أنه كان نصرانياً (و هكذا كل يدعى إبراهيم لنفسه لتكون له الغلبه و الافتخار على خصمه. لأن إبراهيم عليه السلام كان نبيا عظيماً لدى جميع الأديان و المذاهب) فنزلت الآيات أعلاه لتبين كذب هذه الادعاءات.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ...

هذه الآية تردّ على مزاعم اليهود النصارى، وتقول: إنّ جدلكم بشأن إبراهيم النبيّ المجاهد في سبيل الله جدلٌ عقيم، لأنّه كان قبل موسى و المسيح بسنوات كثيرة، و التوراه و الإنجيل نزلا بعده بسنوات كثيرة و ما أنزلت التوراه و الإنجيل إلا من بعده أ يعقل أن يدين نبيّ سابق بدين لاحق؟ أ فلا تغفلون؟ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاججون فيما ليس لكم به علم .

هنا يوبّخهم الله قائلاً إنّكم قد بحثتم فيما يتعلّق بدينكم الذي تعرفونه (و شاهدتم كيف أنكم حتى في بحث ما تعرفونه قد وقعتم في أخطاء كبيره و كم بعدتم عن الحقيقه، فقد كان علمكم، في الواقع، جهلاً- مركّباً)، فكيف تريدون أن تجادلوا في أمر لا علم لكم به، ثمّ تدعون ما لا- يتفق مع أيّ تاريخ؟ و في نهايه الآية يقول: و الله يعلم و أنتم لا- تعلمون توكيدا للموضوع السابق، و تمهيدا لبحث الآية التاليه.

أجل، إنه يعلم متى بعث إبراهيم عليه السلام بالرساله لا أنتم الذين جئتم بعد ذلك بزمن طويل و تحكمون في هذه المسأله بدون دليل.

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا

و هذا ردّ صريح على هذه المزاعم يقول إنّ إبراهيم لم يكن من اليهود و لا من المسيحيين، و إنّما كان موحدًا طاهرًا مخلصًا أسلم لله و لم يشرك به أبدا.

«الحنيف» من الحنف، و هو الميل من شيء إلى شيء، و هو في لغة القرآن ميل عن الضلال إلى الاستقامه.

يصف القرآن إبراهيم أنّه كان حنيفاً لأنّه شقّ حجب التعصّب و التقليد الأعمى،



و فى عصر كان غارقا فى عباده الأصنام، نبذ هو عباده الأصنام و لم يطأ طيء لها رأسا.

إلا- أنّ العرب الذين كانوا يعبدون الأصنام فى العصر الجاهلى كانوا يعتبرون أنفسهم حنفاء على دين إبراهيم. وقد شاع هذا شيوعا حذا بأهل الكتاب إلى أن يطلقوا عليهم اسم «الحنفاء». و بهذا اتّخذت لفظه «الحنيف» معنى معاكسا تماما لمعناها الأصلي، غدت ترادف عباده الأصنام. لذلك فإنّ القرآن بعد أن وصف إبراهيم بأنّه كان حَنِيفاً أضاف مُسْلِماً ثمّ أردف ذلك بقوله وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لإبعاد احتمال آخر.

### كيف كان إبراهيم مسلما؟

قد يسأل سائل: إذا لم نكن نعتبر إبراهيم من أتباع موسى و لا- من أتباع عيسى فنحن بطريق أولى لا نستطيع أن نعتبره مسلما أيضا، لأنّه كان قبل كلّ هذه الأديان.

فكيف يصفه القرآن بأنّه كان مسلما؟ جواب هذا السؤال هو أنّ «الإسلام» فى القرآن لا يعنى إتباع رسول الإسلام فقط، بل الكلمه بالمعنى الأوسع تعنى التسليم المطلق لأمر الله لتوحيد الكامل الخالص من كلّ شرك و وثنويه، و كان إبراهيم حامل لواء ذلك الإسلام.

و ممّا تقدّم يتّضح أن إبراهيم عليه السّلام لم يكن تابعا لهذه الأديان. و لكن يبقى شيء واحد، و هو من هم الذين يحقّ لهم ادعاء العلاقه و الارتباط بالدين الإبراهيمى و بعبارة اخرى كيف يمكننا اتباع هذا النّبى العظيم الذى يفتخر بأتباعه جميع أتباع الأديان السماويه؟ آخر آيه من الآيات مورد البحث توضح هذا المطلب و تقول:

ص: ٥٤٦

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ...

لوضع حدّ لجدل أهل الكتاب حول إبراهيم، نبيّ الله العظيم، الذي كانت كلّ جهة تدّعي أنّه منها، وكانوا يستندون غالباً إلى قرابتهم منه، أو اشتراكهم معه في العنصر، أعاد القرآن مبدأ رئيساً إلى الأذهان وهو أنّ الارتباط بالأنبياء والولاء لهم إنّما يكون عن طريق الإيمان واتباعهم فقط. وبناء على ذلك، فإنّ أقرب الناس لإبراهيم هم الذين يتبعون مدرسته و يلتزمون أهدافه، سواء بالنسبة للذين عاصروه للذين اتبعوه أو الذين بقوا بعده أوفياء لمدرسته وأهدافه، مثل نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم و أتباعه وهذا النبيّ و الذين آمنوا .

و السبب واضح، فاحترام الأنبياء إنّما هو لمدرستهم، لا- لعنصرهم و قبيلتهم و نسبهم. و عليه، إذا كان أهل الكتاب بعقائدهم المشركه قد انحرفوا عن أهم مبدأ من مبادئ دعوه إبراهيم، فقد بقى رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم و المسلمون- بالاستناد إلى هذا المبدأ نفسه و تعميمه على جميع أصول الإسلام و فروعها- من أوفى الأوفياء له، فلا بدّ أن نعترف بأنّ هؤلاء هم الأقربون إلى إبراهيم، لا أولئك.

و فى ختام الآيه يبشر الله تعالى الذين يتبعون رساله الأنبياء حقيقه و يقول:

□  
وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ

ملاحظه

اشاره

**الارتباط الدينى أوثق الروابط:**

ترى هذه الآيه أنّ الرابط الوحيد الذى يربط الناس بالأنبياء هو اتباع مدرستهم و أهدافهم، ليس غير.

لذلك نجد أنّ النصوص المرويّه عن أئمة الإسلام تؤكّد هذا الموضوع بصراحه

ص: ٥٤٧

تأمه. من ذلك أنه جاء في تفسير مجمع البيان و نور الثقلين، نقلا

عن الإمام علي عليه السلام أنه قال:

«إن أولى الناس بالأنبياء أعملهم بما جاؤوا به- ثم تلا الآية المذكوره ثم قال:- إن ولي محمد من أطاع الله و إن بعدت لحمته، و إن عدو محمد من عصى الله و إن قربت قرابته».

ص: ٥٤٨

اشاره

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩)

سبب النزول

يقول بعض المفسرين إن فريقا من اليهود سعوا أن يستميلوا إلى اليهوديه بعض الشخصيات الإسلاميه المجاهده، «معاذ» و«عمار» وغيرهما مستعينين بالسواوس الشيطانيه و غير ذلك. فنزلت هذه الآيه تنذر المسلمين مّا يبيت لهم اليهود.

التفسير

وَدَّتْ طَائِفَةٌ (١) مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ

(٢)

سعى أعداء الإسلام، و على الأخص اليهود، كما جاء في سبب النزول أن

ص: ٥٤٩

١ - ١) - «طائفه» من ماده الطواف. بمعنى الحركه حول الشىء. و بما أن الناس كانوا فى السابق يسافرون بشكل جماعات لاحتراز الأمان أطلقت هذه الكلمه عليها، ثم استعملت فى كل فئه و جماعه.

٢ - ٢) - «لو» فى جمله (لو يضلونكم) بمعنى (أن) المصدريه، و بما أن (لو) تعطى معنى التمنى جاءت فى هذه جمله بدل (أن) ليكون التعبير أبلغ.

يباعدوا بين المسلمين و الإسلام، و لم يتوانوا فى سبيل ذلك فى بذل كلّ جهد، حتّى أنّهم طمعوا فى إغراء أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم المقرّبين لعلّهم يستطيعون صرفهم عن الإسلام. و لا شكّ أنّهم لو نجحوا فى التأثير على عدد منهم، أو حتّى على فرد واحد منهم، لكان ذلك ضربه شديده على الإسلام تمهّد الطريق لتضليل الآخرين أيضا.

هذه الآيه تكشف خطّه الأعداء، و تنذرهم بالكفّ عن محاولاتهم العقيمه استنادا إلى التريه التى نشأ عليها هذا الفريق من المسلمين فى مدرسه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم بحيث لا يمكن أن يكون هناك أى احتمال لارتدادهم. إنّ هؤلاء قد اعتنقوا الإسلام بكلّ وجودهم، و لذلك فإنّهم يعشقون هذه المدرسه الإنسانيه بمجامع قلوبهم و يؤمنون بها. و بناء على ذلك لا سبيل للأعداء إلى تضليلهم، بل أنّهم إنّما يضلّون أنفسهم.

وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

و ذلك لأنّهم باللقاء الشبهات حول الإسلام و على رسول الإسلام و اتّهامهما بشتّى التهم، إنّما يربّون فى أنفسهم روح سوء الظن. و بعبارة أوضح: إن العيّاب الذى يتصيّد الهفوات يعمى عن رؤيه نقاط القوّه، أو بسبب تعصّبه و عناده يرى النقاط المضيئه الإيجابيه نقاطا مظلمه سلبيه، و كلّما ازداد إصرارا على هذا، ازداد بعدا عن الحقّ.

و لعلّ تعبير و مَا يَشْعُرُونَ إشاره إلى هذه الحاله النفسيه، و هى أنّ الإنسان يقع دون و عى منه تحت تأثير أقواله هو أيضا، و فى الوقت الذى يحاول فيه بالسفسطه و الكذب و الافتراء أن يضلّ الآخرين، لا يكون هو نفسه بمنأى عن التأثير بأكاذيبه، ففروح هذه الاختلافات تؤثّر بالتدرّج فى روحه و تتمكّن فيه بعد فتره و جيزه بصوره عقيدته راسخه، فيصلّدقها و يضلّ نفسه بها.

اشاره

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١)

التفسير

اشاره

كتمان الحقّ لما ذا؟

تعقيبا للحديث عن الأعمال التخريبية لأهل الكتاب الواردة في الآيه السابقه، توجه هاتان الآيتان الخطاب لأهل الكتاب و تلومهم على كتمانهم للحقائق و عدم التسليم لها. فتقول:

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ

(١)

السؤال هنا أيضا موجه إلى أهل الكتاب عما يدعوهم إلى العناد و اللجاجه

ص: ٥٥١

١- ١) -جملة «تشهدون» تعنى العلم و المعرفه وفقا للتفسير أعلاه، كما ورد في مجمع البيان و غيره- وهذا العلم ناشئ من اطلاعهم على أوصاف النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم الواردة في التوراه و الإنجيل، و لكن البعض يرى أن المراد بالعلم هنا هو كفايه المعجزات لإثبات نبوه نبي الإسلام. و ذهب آخرون إلى أن المراد تنكرون بها في الظاهر، و لكن في جلساتكم الخاصيه تشهدون بصدق دعوه نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم و حقانيته.

و الإصرار عليهما بعد أن قرءوا علامات نبي الإسلام فى التوراه و الإنجيل و يعلمون ما فيهما، فلما ذا ينكرونها؟ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ .

مره اخرى يستنكر القرآن قيامهم بالخلط بين الحق و الباطل، و إخفاءهم الحق مع علمهم به، فهم على علمهم بالأمارات الوارده فى التوراه و الإنجيل عن رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم يخفونها.

إنه يوبخهم أولاً على انحرافهم عن طريق الحق مع علمهم به، ثم يوبخهم فى الآيه الثانيه على تضليلهم الآخرين (١).

ص: ٥٥٢

---

(١ - ١) - فى تفسير الآيه ٤٢ من سوره البقره المشابهه لهذه الآيه تحدّثنا عن هذا الموضوع - انظر الجزء الأول -.

إشاره

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفِرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلَا تَتُومِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤)

سبب النزول

يقول بعض المفسرين القدامى إن اثني عشر من يهود خيبر وغيرهما وضعوا خطه ذكيه لزعزعه إيمان بعض المؤمنين، فتعاهدوا فيما بينهم أن يصبحوا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويتظاهروا باعتناق الإسلام، ثم عند المساء يرتدون عن إسلامهم، فإذا سئلوا لماذا فعلوا هذا، يقولون: لقد راقبنا أخلاق محمد عن قرب، ثم عند ما رجعنا إلى كتبنا و إلى أحبارنا رأينا أن ما رأينا من صفاته و سلوكه لا يتفق مع ما هو موجود في كتبنا، لذلك ارتدنا. إن هذا سيحمل بعضهم على القول بأن



هؤلاء قد رجعوا إلى كتبهم السماويه التي هم أعلم منّا بها، إذا لا بدّ أن يكون ما يقولونه صحيحا. و بهذا تتزعزع عقيدتهم.

هناك سبب نزول آخر، إلا أنّ ما ذكرناه أقرب إلى معنى الآية.

## التفسير

### إشارة

### مؤامره خطيره:

تكشف هذه الآية عن خطئه هدامه أخرى من خطط اليهود، و تقول إنّ هؤلاء لكي يزلزلوا بنيه الإيمان الإسلامي توسّلوا بكلّ وسيله ممكنه. من ذلك أنّ طائفة من أهل الكتاب اتفقوا أن يؤمنوا بما أنزل على المسلمين في أوّل النهار و يرتدّوا عنه في آخره آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَ أَكْفَرُوا آخِرَهُ .

لعلّ المقصود من أوّل النهار و آخره قصر المده بين إيمانهم و ارتدادهم، سواء أ كان ذلك في أوّل النهار حقّا أم في أيّ وقت آخر. إنّما قصر هذه المده يوحى إلى الآخرين أن يظنّوا أنّ هؤلاء كانوا يرون الإسلام شيئا عظيما قبل الدخول فيه، و لكنّهم بعد أن أسلموا وجدوه شيئا آخر قد خيب آمالهم، فارتدّوا عنه.

لا شكّ أن مثل هذه المؤامره كانت ستؤثّر في نفوس ضعفاء الإيمان، خاصّه و أنّ أولئك اليهود كانوا من الأخبار العلماء، و كان الجميع يعرفون عنهم أنّهم عالمون بالكتب السماويه و بعلائم خاتم الأنبياء. فإيمانهم ثمّ كفرهم كان قادرا على أن يزلزل إيمان المسلمين الجديد. لذلك كانوا يعتمدون كثيرا على خطّتهم الماهره هذه، و قوله: لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ دليل على أملهم هذا.

و كانت خطّتهم تقتضى أن يكون إيمانهم بالإسلام ظاهريا، و أن يبقى ارتباطهم باتّباع دينهم.

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ

و يستفاد من بعض التفاسير أنّ يهود خيبر أوصوا يهود المدينة بذلك لئلا يقع القرييون من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحت تأثيره فيؤمنوا به حقًا، لأنهم كانوا يعتقدون أنّ النبوة يجب أن تكون في العنصر اليهودي، فإذا ظهر نبيّ فلا بدّ أن يكون يهوديًا.

يرى بعض المفسرين أنّ جملة لا تُؤْمِنُوا من الإيمان الذي يعنى «الوثوق و الاطمئنان» كما هو أصل الكلمة اللغوي. و بناء على ذلك يكون المعنى: هذه المؤامرة يجب أن تبقى مكتومه و سرّيه، و أن لا يعلم بها أحد من غير اليهود، حتى المشركين، لئلا تنكشف و تحبط، ففضح الله هذه المؤامرة في هذه الآيات و فضحهم، ليكون ذلك درس عبره للمؤمنين، و درس هدايه للمعاندین.

قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ

هذه جملة معترضه جاءت ضمن كلام على لسان اليهود في ما قبلها و ما بعدها من الآيات.

في هذه الآيه التي تقع بين كلام اليهود، يرّد الله عليهم ردًا قصيرا و لكنه عميق المعنى. فأولاً: الهدايه مصدرها الله، و لا تختص بعنصر أو قوم بذاته، فلا ضروره في أن يجيء النبي من اليهود فقط. و ثانياً: إنّ الذين شملهم الله بهدايته الواسعه لا ترزعهم هذه المؤامرات و لا تؤثر فيهم هذه الخطط.

أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيَتْمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ

(١)

هذه الآيه استمرار لأقوال اليهود، بتقدير عبارته و لا تصدقوا قبلها.

و على ذلك يصبح معنى الآيه هكذا: «لا تصدقوا أن ينال أحد ما نلتم من الفخر و ما نزل عليكم من الكتب السماويه، و كذلك لا تصدقوا أن يستطيع أحد أن

ص: ٥٥٥

يجادلکم يوم القيامة أمام الله و يدينکم، لأنکم خير عنصر و قوم فى العالم، و أنتم أصحاب النبوه و العقل و العلم و المنطق و الاستدلال!».

بهذا المنطق الواهى كان اليهود يسعون لنيل ميزه يتميزون بها، من حيث علاقتهم بالله، و من حيث العلم و المنطق و الاستدلال، على الأقسام الأخرى. لذلك يردهم الله فى الآيه التاليه بقوله:

قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ

أى: قل لهم إن المواهب و النعم، سواء أ كانت النبوه و الاستدلالات العقلية المنطقية، أم المفاخر الأخرى، هى جميعا من الله، يسبغها على من يشاء من المؤهلين اللائقين الجديرين بها. إن أحدا لم يأخذ عليه عهدا و وعدا، و لا لأحد قرابه معه. إن جوده و عفوه و اسعان، و هو عليم بمن يستحقهما.

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

(١)

هذا توكيد لما سبق أيضا: إن الله يخص من عباده من يراه جديرا برحمته - بما فى ذلك مقام النبوه و القيادة - دون أن يستطيع أحد تحديده فهو صاحب الأفضال و النعم العظيمه.

و يستفاد ضمنا من هذه الآيه الكريمه أن الفضل الإلهي إذا شمل بعض الناس دون بعض، فليس ذلك المحدوديه الفضل الإلهي، بل بسبب تفاوت القابليات فيهم.

### خطط قديمه

تعتبر هذه الآيات، فى الواقع، من آيات إعجاز القرآن، لأنها تكشف أسرار

ص: ٥٥٦

١ - ١) - «فضل» بمعنى كل شىء زاد عن المقدار اللازم من المواهب و النعم، و هو معنى إيجابى و ممدوح. و لكن تاره يستبطن معنى مدموما و سلبيا، و ذلك عند ما يأتى بمعنى الخروج عن حد الاعتدال. و الميل إلى الإفراط، و يأتى غالبا بصيغه (فضول) جمع (فضل) كما فى قولهم (فضول الكلام).

اليهود و أعداء الإسلام و تفضح خططهم لزعهه مسلمى الصدر الأوّل،فتيقظ المسلمون ببركتها،و عوا وساوس الأعداء المغريه.و لكننا لو دققنا النظر لأدر كنا أنّ تلك الخطط تجرى فى عصرنا الحاضر أيضا بطرق مختلفه. إنّ وسائل إعلام الأعداء القويه المتطوره مستخدمه الآن للغرض نفسه،فهم يحاولون هدم أركان العقيدته الإسلاميه فى عقول المسلمين،و بخاصه الجيل الشاب. و هم فى هذا السبيل لا يتورعون عن كلّ فريه،و يلجأون إلى كلّ السبل و يتلبسون بلبوس العالم و المستشرق و المؤرّخ و عالم الطبيعيات و الصحفى،بل حتّى الممثل السينمائى.

إنّهم يصرّحون أنّ هدفهم ليس التبشير بالمسيحيه و حمل المسلمين على اعتناقها،و لا اعتناق اليهوديه،بل هدفهم هو هدم أسس المعتقدات الإسلاميه فى أفكار الشباب،و جعلهم غير مهتمين بدينهم و تراثهم. إنّ القرآن اليوم يحذّر المسلمين من هذه الخطط كما حذّرهم فى القديم.

إشاره

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ فَإِنَّمَا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦)

سبب النزول

نزلت هذه الآيه بشأن يهوديين أحدهما أمين و صادق، والآخر و خائن منحط.

الأول هو «عبد الله بن سلام» الذي أودع عنده رجل ١٢٠٠ أوقيه (١) من الذهب أمانه. ثم عند ما استعادها ردّها إليه. و الله يشنى عليه في هذه الآيه لأمانته.

و اليهودي الثاني هو «فحاص بن عازورا» ائتمنه رجل من قريش بدينار، فخانته فيه. و الله يذمه في هذه الآيه لخيانته الأمانه.

و قيل إنّ القسم الأول من الآيه يقصد جمعا من النصارى، و أمّا الذين خانوا

ص: ٥٥٨

١-١) -الأوقيه تساوى ١٢/١ من الرطل و يساوى ٧ مثاقيل، جمعها: أواق.

الأمانه فهم جمع من اليهود. وقد تشير الآيه إلى الحالتين، إذ أننا نعلم أنّ الآيات -و إن كان لبعضها سبب نزول خاص- لها طابع عامّ و سبب النزول لا يخصّصها.

## التفسير

ترسم الآيه ملامح أخرى لأهل الكتاب. كان جمع من اليهود يعتقدون أنّهم لا يكونون مسئولين عن حفظ أمانات الناس، بل لهم الحقّ في تملكك أماناتهم! كانوا يقولون: إنّنا أهل الكتاب، و أن النبيّ و الكتاب السماوى نزلا بين ظهرانينا، لذلك فأموال الآخرين غير محترمه عندنا. لقد تغلغت فيهم هذه الفكره بحيث غدت عقيدته دينيه راسخه. و هذا ما يعبر عنه القرآن بقوله يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ قال اليهود: إنّ لنا حقّ التصرف بأموال العرب و اغتصابها لأنهم مشركون و لا يتبعون دين موسى.

و قيل أيضا إن اليهود كانت لهم مع العرب اتفاقات اقتصاديه و تجاريه و عند ما أسلم العرب، امتنع اليهود عن ردّ حقوقهم، قائلين: إنكم عند عقد الاتفاق لم تكونوا من مخالفيها. أما و قد أخذتم دينا جديدا فقد سقط حقكم.

من الجدير بالذكر أنّ هذه الآيه تعلن أنّ أهل الكتاب لم يكونوا جميعا يتهجون هذا الطراز من التفكير غير الإنساني، بل كان فيهم جماعه ترى أنّ من واجبها أن تؤدى حقّ الآخرين. و لذلك فإنّ القرآن لم يدينهم جميعا و لم يلق تبعه أخطاء بعضهم على الجميع، و لذلك يقول و مَنْ أَهْلِلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِقِنطَارٍ (١) يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا .

إنّ تعبير إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا أى واقفا و مسيطرا، يشير إلى مبدأ أصيل فى

ص: ٥٥٩

نفسية اليهود، فكثير منهم لا يجدون أنفسهم ملزمين بردّ حقّ إلا بالقوّه. ليس أمام المسلمين لاسترجاع حقوقهم منهم سوى هذا السبيل، سبيل السعى للحصول على القوّه التي تجعلهم يردّون حقوقهم.

إنّ الحوادث التي جرت في الشرق الأوسط خلال السنوات الأخيره أثبتت بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّ القرارات الدوليه و الرأى العام العالمى، و قضايا الحقّ و العداله و أمثالها، لا قيمه لها في نظر الصهاينه و لا معنى، و ما من شىء يحملهم على الخضوع للحقّ سوى القوّه. و هذه من المسائل التي تتبأ بها القرآن.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ

هذه الآيه تبين منطقهم في أكل أموال الناس، و هو قولهم بأنّ «لأهل الكتاب» أفضلية على «الأميين» أى على المشركين و العرب الذين كانوا أميين غالباً أو أن المقصود كلّ من ليس له نصيب من قراءه التوراه و الإنجيل، لذلك يحقّ لهم أن يستولوا على أموال الآخرين، و ليس لأحد الحقّ أن يؤاخذهم على ذلك، حتّى أنّهم ينسبون إلى الله تقرير التفوق الكاذب.

لا شكّ أنّ هذا المنطق كان أخطر بكثير من مجردّ خيانه الأمانه، لأنّهم كانوا يرون هذا حقّاً من حقوقهم، فيشير القرآن إلى هذا قائلاً:

وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

هؤلاء يعلمون أنّه ليس في كتبهم السماويه أى شىء من هذا القبيل بحيث يجوز لهم خيانه الناس في أموالهم، و لكنّهم لتسويغ أعمالهم القبيحه راحوا يخلقون الأكاذيب و ينسبونها إلى الله.

الآيه التاليه تنفى مقوله اليهود لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ التي قرّروا فيها

لأنفسهم حرّيه العمل، فاستندوا إلى هذا الزعم المزيف للاعتداء على حقوق الآخرين بدون حقّ. حيث يتلاعبون بمصائر شعوب العالم، ولا يتورّعون عن ارتكاب كلّ اعتداء على حقوق الإنسان، ويرون القوانين مجرد العوبه بيدهم لتحقيق مصالحهم، فتقول: **بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ .**

تقرر هذه الآيه أنّ مقياس الشخصيه و القيمه الإنسانيه و محبه الله يتمثل في الوفاء بالعهد و في عدم خيانه الأمانه خاصه، و في التقوى بشكل عامّ، إن الله يحب هؤلاء، لا الخوانه الكذابين الذين يبيحون لأنفسهم غضب حقوق الآخرين و يتجرءون كذلك على نسبتها إلى الله تعالى.

## بحث

## اشاره

### ١-اعتراض:

قد يقول قائل إنّ الإسلام قرّر أيضا مثل هذا الحكم بالنسبه لأموال الأجانب، إذ أنّه يجيز الاستيلاء على أموالهم.

### الجواب:

إنّ اتّهام الإسلام بهذا افتراء لا شكّ فيه، إذ أنّ من أحكام الإسلام القاطعه الوارده في كثير من الأحاديث، هو «ليس من الجائر خيانه الأمانه سواء أ كانت الأمانه تخصّ مسلما أم غير مسلم، و حتّى المشرك و عابد الأصنام».

في حديث معروف عن الإمام السجاد عليه السلام قال: «عليكم بأداء الأمانه، فوالذي بعث محمّدا بالحقّ نبيا لو أنّ قاتل أبي الحسين بن علي بن أبي طالب ائتمنى على السيف الذي قتله به لأدّيته إليه» (١).

ص: ٥٦١



و فى روايه اخرى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا قَطُّ إِلَّا بِصَدَقِ الْحَدِيثِ وَ أَدَاءِ الْأَمَانَةِ مُؤَدَّاهُ إِلَى الْبِرِّ وَ الْفَاجِرِ»

(١)

بناء على ذلك فإن ما جاء فى هذه الآيه عن اليهود و خيانتهم الأمانه و منطقتهم فى تسويغ تلك الخيانه لم يسمح به الإسلام بأى شكل من الأشكال، فالمسلمون مكلفون أن لا يخونوا الأمانه فى جميع الأحوال.

٢- كلمه «بلى» تستعمل فى اللغة العربيه ردًا على النفي أو جوابا على استفهام مقترن بالنفي، كقوله تعالى: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بلى (٢) و نَعَمْ جوابا للاستفهام المثبت، مثل فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ (٣).

ص: ٥٦٢

١-١) -مشكاه الأنوار: عن سفينه البحار.

٢-٢) -الأعراف: ١٧٢.

٣-٣) -الأعراف: ٤٤.

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَا لَهُمْ عَذَابٌ (٧٧)

سبب النزول

جمع من أحبار اليهود و علمائهم مثل «أبي رافع» و «حى بن أخطب» و «كعب بن أشرف» حين لاحظوا أنّ مراكزهم الاجتماعيه بين اليهود معرّضه للخطر، عمدوا إلى العلامات الموجوده فى التوراه بشأن خاتم الأنبياء و التى كانوا هم أنفسهم قد دُونوها بأيديهم فى نسخ التوراه، فحرّفوها و أقسموا على أنّ تلك الكتابات المحرّفه من الله. لذلك نزلت هذه الآيه و فيها إنذار شديد لهم.

و هناك مفسّرون آخرون ذهبوا إلى أنّ هذه الآيه نزلت فى «أشعث بن قيس» الذى كان يريد استملاك أرض لغيره عن طريق الكذب و التزوير. و عند ما تهياً لأداء اليمين لتوثيق ادّعائه نزلت الآيه، فاستولى الخوف على أشعث و اعترف بالحقّ و أعاد الأرض لصاحبها.

## المحرفون للحقائق:

تشير الآيه إلى جانب آخر من آثام اليهود و أهل الكتاب. و لكونها وردت بصيغه عامه، فإنها تشمل كل من تنطبق عليه هذه الصفات.

تقول الآيه: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أَى الَّذِينَ يجعلون عهودهم مع الله و القسم باسمه المقدس موضع بيع و شراء لقاء مبالغ ماديه، سيكون جزاءهم خمس عقوبات:

أحدها: أنهم سوف يحرمون من نعم الله التى لا نهايه لها فى الآخره أولئك لا خلاق (١) لهم .

ثم إن الله يوم القيامة يكلم المؤمنين و لكته لا يكلم أمثال هؤلاء و لا يكلمهم الله .

كما إن الله سوف لا- ينظر إليهم بنظر الرحمه و اللطف يوم القيامة و لا ينظر إليهم يوم القيامة . و من ذلك يعلم أن الله تعالى فى ذلك اليوم يتكلم مع عباده المؤمنين (سواء مباشره أو بتوسط الملائكه) مما يجلب لهم السرور و الفرح و يكون دليلا على عنايته بهم و رعايته لهم، و كذلك النظر إليهم، فهو إشاره إلى العنايه الخاصه بهم، و ليس المقصود انظر الجسمانى كما توهم بعض الجهلاء.

أما الأشخاص الذين باعوا آيات الله بثمان مادی فلا يشملهم الله تعالى بعنايته، و لا بمحادثته.

و لا يطهرهم من ذنوبهم و لا يزكّيهم .

ص: ٥٦٤

١- ١) -«خلاق» من ماده «خلق» بمعنى النصيب و الفائدة. و ذلك لأن الإنسان يحصل عليها بواسطه أخلاقه (و هو إشاره إلى أنهم يفتقدون الأخلاق الحميده التى تؤهلهم للانتفاع فى ذلك اليوم).

و أخيرا سيعذبهم عذابا شديدا وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

و ليس المقصود من «الثلث القليل» أن الإنسان إذا باع العهد الإلهي بثمن كثير فيجوز له ذلك، بل المقصود أى ثمن مادى يعطى مقابل ارتكاب هذه الذنوب الكبيره، حتى و إن كان هذا الثمن يتمثل فى رئاسات كبيره و واسعه، فهى مع ذلك قليله.

بديهى أن كلام الله ليس نطق اللسان، لأن الله منزّه عن التجسّد، إنّما الكلام عن طريق الإلهام القلبي، أو عن طريق إحداث أمواج صوتيه فى الفضاء، كالكلام الذى سمعه موسى عليه السلام من شجره الطور.

### ملاحظه

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ هذه العواقب الخمس المترتبه على «نقض العهد» و «الأيمان الكاذبه» المذكوره فى هذه الآيه ربّما تكون إشاره إلى مراحل «القرب و البعد» من الله.

إنّ من يقترب من الله و يدنو من ساحه قربه تشمله مجموعه من النعم الإلهيه المعنويه، فإذا ازداد اقتربا كلمه الله، و إن دنا أكثر نظر إليه الله نظره الرحمه، و إن اقترب أكثر طهره الله من آثار ذنوبه، و أخيرا ينجو من العذاب الأليم و تغمره نعم الله، أمّا الذين يسرون فى طريق نقض العهود و استغلال اسم الله بشكل غير مشروع، فيحرمون من كلّ تلك النعم و يتراجعون مرحله بعد مرحله. فى تفسير الآيه ١٧٤ من سوره البقره، المشابهه لهذه الآيه، شرح أوفى للموضوع.

ص: ٥٦٥

اشاره

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤْنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)

التفسير

هذه الآيه التي تؤكد ما بحثته الآيات السابقه بشأن خيانه بعض علماء أهل الكتاب و تقول: إن فريقا من هؤلاء يلوون ألسنتهم عند تلاوتهم الكتاب. وهذا كناية عن تحريفهم كلام الله. و«يلون» من ماده (لئ) على وزن حئ، وهو الإماله، وهو تعبير بليغ عن تحريف كلام الله، وكانهم حين تلاوتهم للتوراه و عند ما يصلون إلى الآيات التي فيها صفات رسول الله و البشاره بظهوره يغيرون لحن كلامهم.

و تضيف: إنهم في تحريفهم هذا من المهارة بحيث إنكم تحسبون ما يقرءونه آيات أنزلها الله، وهو ليس كذلك لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ .

ولكنهم لا يقنعون بذلك، بل يشهدون علانيه بأنه من كتاب الله، وهو ليس كذلك وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .

مرّه أخرى يقول القرآن: إنهم فى عملهم هذا ليسوا ضحيه خطأ، بل هم يكذبون على الله بوعى وبتقصّد، و ينسبون إليه هذه التهم الكبيره و هم عالمون بما يفعلون و يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ .

ص: ٥٦٧

اشاره

مَا كَانَ لِيَشْرَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠)

سبب النزول

فى سبب نزول هذه الآيه روايتان:

الأولى- أن رجلا قال: يا رسول الله نحن نسلّم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، ألا نسجد لك؟ قال: لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله، و لكن أكرموا نبيكم و اعرفوا الحقّ لأهله، فأنزل الله الآيه.

الثانيه- أن أبا رافع من اليهود و معه رئيس وفد نجران قالا للنبيّ: أ تريد أن نعبدك و نتخذك إلها؟

و لعلهم ظنوا أن مخالفه الرسول صلى الله عليه وآله و سلم لالوهيه المسيح عليه السلام لأنه ليس له نصيب من ذلك، فلو أنهم رفعوا منزلته إلى مستوى الإله كما هو الحال بالنسبه إلى المسيح عليه السلام لترك الخلاف معهم، و لعل هذا الاقتراح يستبطن مؤامره دبّرت لتلوّث سمعه النبي صلى الله عليه وآله و سلم و دفع الأنظار عنه) و لكن

النبي صلى الله عليه وآله و سلم قال: معاذ الله أن أعبد غير الله أو آمر بعباده غير الله، ما بذلك بعثني، و لا بذلك أمرني، فأنزل الله الآية.

## التفسير

### إشارة

### الدعوة إلى عبادة غير الله مستحيله:

سبق أن قلنا إنّ واحده من عادات أهل الكتاب القبيحه-اليهود و النصارى- كانت تزييف الحقائق. من ذلك قولهم بألوهيه عيسى، زاعمين أنه هو الذى أمرهم بذلك، و كان هذا ما يريد بعضهم أن يحقّقه بشأن رسول الإسلام أيضا، للأسباب التى ذكرناها فى نزول الآية.

إنّ الآية ردّ حاسم على جميع الذين كانوا يقترحون عبادة الأنبياء. تقول الآية: ليس لكم أن تعبدوا نبى الإسلام و لا أى نبى آخر و لا الملائكة. و يخطئ من يقول إنّ عيسى قد دعاهم إلى عبادته.

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤَيِّتَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَ التُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ

الآيه تنفى نفيا مطلقا هذا الأمر. أى أنّ الذين أرسلهم الله و أتاهم العلم و الحكمة لا يمكن فى أيه مرحله من المراحل-أن يتعدوا حدود العبوديه لله. بل إنّ رسل الله هم أسرع خضوعا له من سائر الناس، لذلك فهم لا يمكن أن يخرجوا عن طريق العبوديه و التوحيد و يجزوا الناس إلى هوه الشرك.



وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّائِينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ

«الرَّبَّائِينَ» هو الذى أحكم ارتباطه بالله. ولما كانت الكلمه مشتقّه من «رَبِّ» فهى تطلق أيضا على من يقوم بتربيته الآخرين و تدبير أمورهم و إصلاحهم.

و على هذا يكون المراد من هذه الآية: إنَّ هذا العمل (دعوه الأنبياء الناس إلى عبادتهم) لا يليق بهم، إنَّ ما يليق بهم هو أن يجعلوا الناس علماء إلهيين فى ضوء تعليم آيات الله و تدريس حقائق الدين، و يصيروا منهم أفرادا لا يعبدون غير الله و لا يدعون إلا إلى العلم و المعرفة.

يتضح من ذلك أنّ هدف الأنبياء لم يكن تربيته الناس فحسب، بل استهدفوا أكثر من ذلك تربيته المعلمين و المرّيين و قاده الجماعه، أى تربيته أفراد يستطيع كلّ منهم أن يضيء بعلمه و إيمانه و معرفته محيطا و اسعا من حوله.

تبدأ الآية بذكر «التعليم» أولا- ثمّ «التدريس». تختلف الكلمتان من حيث اتّساع المعنى، فالتعليم أوسع و يشمل كلّ أنواع التعليم، بالقول و بالعمل، للمتعلمين و للأمتيين. أمّا التدريس فيكون من خلال الكتابه و النظر إلى الكتاب، فهو أخصّ و التعليم أعمّ.

وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا

هذه تكلمه لما بحث فى الآية السابقيه، فكما أنّ الأنبياء لا يدعون الناس إلى عبادتهم، فإنّهم كذلك لا يدعونهم إلى عباده الملائكه و سائر الأنبياء. و فى هذا جواب لمشركى العرب الذين كانوا يعتقدون أنّ الملائكه هم بنات الله، و بذلك يسبغون عليهم نوعا من الالهيه، و مع ذلك كانوا يعتبرون أنفسهم من أتباع دين إبراهيم. كذلك هو جواب للصابئه الذين يقولون إنّهم أتباع «يحيى»، و كانوا يرفعون مقام الملائكه إلى حدّ عبادتهم. و هو أيضا ردّ على اليهود الذين قالوا إنّ «عزيرا»

ابن الله، أو النصارى الذين قالوا إن «المسيح» ابن الله، و أضفوا عليه طابعا من الربوبية، فالآيه تردّ هؤلاء جميعا و تقول إنّه لا يليق بالأنبياء أن يدعو الناس إلى عباده غير الله.

و فى الختام تقول الآيه أ يَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . أ يمكن أن يدعوكم النبىّ إلى الكفر بعد أن اخترتم الإسلام دينا؟ واضح أن «الإسلام» هنا يقصد به معناه الأوسع، كما هى الحال فى مواضع كثيره من القرآن، و هو التسليم لأمر الله و الإيمان و التوحيد. أى كيف يمكن لنبىّ أن يدعو الناس أولا إلى الإيمان و التوحيد، ثم يدلّهم على طريق الشرك؟ أو كيف يمكن لنبىّ أن يهدم ما بناه الأنبياء فى دعوتهم الناس إلى الإسلام. فيدعوهم إلى الكفر و الشرك؟ تنوّه الآيه ضميتا بعصمه الأنبياء و عدم انحرافهم عن مسير إطاعه الله (1).

## ملاحظه

## اشاره

## منع عباده البشر:

تدين هذه الآيات بصراحه كلّ عباده، و خاصّه عباده البشر، سوى عباده الله، و تربّى فى الإنسان روح الحرّيه و استقلال الشخصيه، تلك الروح التى لا يكون بدونها جديرا بحمل اسم إنسان.

نعرف من خلال التاريخ العديد من الأشخاص الذين كانوا، قبل الوصول إلى السلطه، يتميّزون بالبراءه و يدعون الناس إلى الحقّ و العداله و الحرّيه و الإيمان.

ص: ٥٧١

---

١ - ١) فى القراءه المعروفه التى اعتمدها طبعه القرآن السائده، تأتى «و لا- يأمركم» فى حاله نصب-بفتح الراء- و هى معطوفه على «أى يؤتية الله» فى الآيه السابقه. و «لا» تؤكد ل«ما» النافيه فى الآيه السابقه. و عليه تكون الآيه بهذا المعنى: و ما كان لبشر أن يأمركم أن تتخذوا الملائكه و النبيين أربابا.

و لكنهم ما أن صعدوا عروش السلطه و الهيمنه على المجتمع غيروا سيرتهم شيئاً فشيئاً و انحازوا إلى فكره عباده الشخصيه و دعوا الناس إلى عبادتهم.

في الواقع، أنّ من أساليب تمييز «دعاه الحق» عن «دعاه الباطل» هو هذا.

فدعاه الحق -و على رأسهم الأنبياء و الأئمه- كانوا و هم في قمه السلطه، كما كانوا قبل أن تكون لهم أيه سلطه، يدعون إلى الأهداف الدينيه المقدسه و الإنسانيه و التوحيد و الحرّيه. أمّا دعاه الباطل، فإنّ أول ما يبادرون إليه عند وصولهم السلطه هو الدعوه لأنفسهم و حتّ الناس على نوع من عبادتهم، نتيجه تملق الناس الضعفاء المحيطين بهم، و كذلك نتيجه ضيق أفقهم و غرورهم.

هناك حديث عن الإمام علي عليه السلام تظهر من خلاله شخصيته الكبيره الفذه، و يعتبر دليلاً و شاهداً على هذا البحث.

عند وصول الإمام عليه السلام إلى أرض الأنبار -إحدى مدن العراق الحدوديه- خرّ جمع من الدهاقين ساجدين أمامه، بحسب التقاليد التي اعتادوا عليها، فغضب الإمام من فعلتهم هذه و صرخ فيهم:

«ما هذا الذي صنعتموه؟ فقالوا: خلق منا نعظم به أمراءنا. فقال: و الله ما ينتفع بهذا أمراؤكم، و أنكم لتشقون على أنفسكم في دنياكم و تشقون به في آخرتكم، و ما أخسر المشقه وراءها العقاب، و أريح الدعاه معها الأمان من النار».

اشاره

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضُكُمْ  
وَأَخَذْتُمْ عَلَيَّ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَفَرَزْنَا قَالَ فَأَشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ  
(٨٢)

التفسير

اشاره

الميثاق المقدس:

بعد أن أشارت الآيات السابقة الى وجود علائم لنبي الإسلام في كتب الأنبياء السابقين، أشارت هذه الآية إلى مبدأ عام، وهو أن الأنبياء السابقين و أتباعهم قد أبرموا مع الله ميثاقاً بالتسليم للأنبياء الذين يأتون بعدهم، و بالإضافة إلى الإيمان بهم، لا يبخلون عليهم بشيء في مساعدتهم على تحقيق أهدافهم. تقول الآية:

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ...

في الواقع، مثلما أن الأنبياء و الأمم التاليه تحترم الأنبياء السابقين و دياناتهم،

فإنّ الأنبياء السابقين و الأمم السابقه كانوا يحترمون الأنبياء الذين يأتون بعدهم.

و فى القرآن إشارات كثيره على وحده الهدف عند أنبياء الله. و هذه الآيه نموذج حى على ذلك.

و«الميثاق» من «الوثوق»، أى ما يدعو إلى الاطمئنان به و الاعتماد عليه. و «الميثاق» هو الاتفاق المؤكّد. و أخذ الميثاق من الأنبياء مصحوب بأخذ الميثاق من أتباعهم أيضا. كان موضوع هذا الميثاق هو أنه إذا جاء نبىّ تنسجم دعوته مع دعوتهم (و هذا ما يثبت صدق دعوته) فيجب الإيمان به و نصرته.

ثم لتوكيد هذا الموضوع جاءت الآيه:

قَالَ أَ أَفْرَزْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَيَّ ذَلِكَمِ إِصْرِي

(١)

هل اعترفتم بهذا الميثاق و قبلتم عهدى و أخذتم من أتباعكم عهدا بهذا الموضوع؟ و جوابا على ذلك قالوا أَفْرَزْنَا .

ثم لتوكيد هذا الأمر المهمّ و تثبيته يقول الله: كونوا شهداء على هذا الأمر و أنا شاهد عليكم و على أتباعكم قال فاشهدوا و أنا معكم من الشاهدين .

و فى الآيه الأخيره يذم و يهدد القرآن الكريم ناقضى العهود و يقول:

فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ

فلو أن أحدا بعد كلّ هذا التأكيد على أخذ المواثيق و العهود المؤكّده-أعرض عن الإيمان بنبيّ كنبىّ الإسلام الذى بشرت به الكتب القديمه و ذكرت علائمه، فهو فاسق و خارج على أمر الله تعالى. و نعلم أن الله لا يهدى الفاسقين المعاندين، كما

ص: ٥٧٤

(١- ١) -الإصر:العهد المؤكّد الذى يستوجب نقضه العقاب الشديد.

مرّ في الآية ٨٠ من سورة التوبة: وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ، و من لا يكون له نصيب من الهدايه الإلهيّه، فإن مصيره إلى النار.

هنا ثلاث نقاط لا بدّ أن نتنبه لها:

١- هل هذه الآية مقصوره على بشاره الأنبياء السابقين و ميثاقهم بالنسبه لنبيّ الإسلام صلى الله عليه و آله و سلّم، أم أنّها تشمل كلّ نبيّ يبعث بعد نبيّ قبله؟ يظهر من الآية أنّها تعبّر عن مسأله عامّه، و إن كان خاتم الأنبياء مصداقها البارز. كما أنّ هذا المعنى الواسع يتّسق مع روح مفاهيم القرآن. لذلك إذا ما رأينا في بعض الأخبار أنّ المقصود هو نبيّ الإسلام الكريم، فما ذلك إلاّ من قبيل تفسير الآية و تطبيقها على أجليّ مصاديقها، و ليس لأنّ المعنى جاء على سبيل الحصر.

ينقل الفخر الرازي في تفسيره عن الإمام علي عليه السّلام قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَا بَعَثَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامَ وَ مِنْ بَعْدِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ لئِنْ بَعَثَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ وَ هُوَ حَيٌّ، لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَ لِيَنْصُرَنَّهُ» (١).

٢- بعد أخذ مضمون الآية بنظر الإعتبار، يبرز هذا السؤال: أ يمكن أن يظهر نبيّ من أولى العزم في زمان نبيّ آخر من أولى العزم حتّى يتبعه؟ يمكن القول في جواب هذا السؤال: إنّ الميثاق لم يؤخذ من الأنبياء و حدهم، بل و من أتباعهم أيضا، كما قلنا في تفسير الآية، و الواقع أنّ القصد من أخذ الميثاق من الأنبياء و أخذه من أممهم و الأجيال التي تولد بعدهم و تدرك عصر النبيّ التالي. كما أنّ الأنبياء أنفسهم يؤمنون أيضا إذا أدركوا-فرضا- عهد الأنبياء التاليين. أي أنّ أنبياء الله لا-ينفصلون إطلاقا في أهدافهم و في دعوتهم و لا صراع أو خلاف بينهم.

ص: ٥٧٥

٣- والقول الأخير بشأن هذه الآية هو أنها و إن تكن بخصوص الأنبياء، فهي تصدق طبعاً بحق خلفائهم أيضاً، إذ أنّ خلفائهم الصادقين لا ينفكون عنهم، وهم جميعاً يسعون لتحقيق هدف واحد. ولذلك كان الأنبياء يعينون خلفائهم، ويبشرون الناس بهم و يدعونهم إلى الإيمان بهم و شدّ أزرهم.

و لئن وجدنا بعض الروايات الواردة في تفاسيرنا لهذه الآية و كتب أحاديثنا بشأن نزول عبارته «و لتنصرته» في على عليه السلام و أنها تشمل قضية الولاية، إنّما هو إشاره إلى هذا المعنى.

و لا بدّ أن نشير إلى أنّ هذه الآية-من حيث تركيبها النحوي- كانت موضع بحث بين المفسرين و رجال الأدب (١).

٤- التعصّب المقيت يحدثنا التاريخ أنّ أتباع دين من الأديان لا يتخلّون بسهولة عن دينهم و لا يستسلمون للأنبياء الجدد المبعوثين من قبل الله، بل يتمسّكون بدينهم القديم تمسّكاً جافاً جامداً، و يدافعون عنه كأنه جزء من وجودهم، و يرون تركه إبادة لقوميتهم.

لذلك يشقّ عليهم القبول بالدين الجديد. إنّ منشأ الكثير من الحروب الدينيه التي وقعت على امتداد التاريخ-و هي من أفظع حوادث التاريخ- هو هذا التعصّب الجاف و الجمود على الأديان القديمه.

غير أنّ قانون الارتقاء و التكامل يقول: هذه الأديان يجب أن تأتي الواحد تلو الآخر، و تتقدّم بالبشرية في سيرها نحو معرفه الله و الحقّ و العدالة و الإيمان و الأخلاق و الإنسانيه و الفضيله، حتّى تصل إلى الدين النهائي، خاتم الأديان،

ص: ٥٧٤

---

١- (١) -في «لما آتيتكم» يعتبر بعضهم «ما» موصوله و مبتدأ، و اللام موطنه للقسم، و جمله «لتؤمننّ به» خبر. و قال فريق آخر «ما» شرطيه زمانيه و جزاؤها «لتؤمننّ به و لتنصرته». و هذا الاحتمال الثاني أقرب إلى معنى الآية.

كالطفل الذى يتدرّج فى مراحل الدراسه و يطويها الواحده بعد الأخرى حتى يتخرّج من الكليّه و الجامعه.

فإذا أحبّ التلاميذ جوّ مدرستهم الابتدائيه ذلك الحبّ الذى يربطهم بمدرستهم إلى درجه أنّهم يرفضون الانتقال إلى المدرسه الثانويه، فبديهيّ أنّ لا يكون نصيب هؤلاء سوى التخلف عن ركب السائرين نحو التقدّم و الارتقاء.

إنّ إصرار الآيه على أخذ الميثاق و العهد المؤكّد من الأنبياء و الأمم الماضيه نحو الأنبياء التاليين لهم قد يكون من أجل اجتناب أمثال هذا التعصّب و الجمود و العناد.

و لكنّ الذى يؤسف له أنّنا-بعد كلّ هذا التأكيد- ما زلنا نرى أتباع الأديان القديمه لا- يسلمون بسهوله أمام الحقائق الجديده. سوف نشرح إن شاء الله فى تفسير الآيه ٤٠ من سوره الأحزاب كيف يكون الإسلام آخر الأديان و خاتمها و لماذا؟

ص: ٥٧٧



اشاره

أَفَغَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَ مَا أُنزِلَ عَلَيَّ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٤) وَ مَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)

التفسير

اشاره

الإسلام أفضل الأديان الإلهية:

مرّت بنا حتّى الآن بحوث مسهبه فى الآيات السابقه عن الأديان الماضيه.

و ابتداء من هذه الآيه يدور البحث حول الإسلام و فيها إلفات لأنظار أهل الكتاب و أتباع الأديان السابقه إلى الإسلام.

تبدأ الآيه بالتساؤل: أَفَغَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ أ يريد هؤلاء دينا غير دين الله؟

و ما دين الله سوى التسليم للشرائع الإلهيه،هى كلها قد جمعت بصورتها الكامله الشامله فى دين نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم. فإذا كان هؤلاء يبحثون عن الدين الحقيقى فعليهم أن يسلموا.

و لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ

يبدأ القرآن بتفسير الإسلام بمعناه الأوسع، فيقول: كل من فى السماوات و الأرض، أو جميع الكائنات فى السماوات و الأرض، مسلمون خاضعون لأوامره طوعاً و كرهاً. هذا الاستسلام و الخضوع يكون «طوعاً» أو اختيارياً أحياناً، إزاء «القوانين التشريعيه»، و يكون «كرهاً» أو إجبارياً أحياناً أخرى، إزاء «القوانين التكوينيّه».

و لتوضيح ذلك نقول: إنَّ لله نوعين من الأمر فى عالم الوجود. فبعض أوامره يكون بشكل (قوانين طبيعيه و ما وراء طبيعيه) تحكم على مختلف كائنات هذا العالم، فهى خاضعه لها خضوع إكراه و ليس لها أن تخالفها لحظه واحده، فإن فعلت -فرضاً- يكتب لها الفناء و الزوال. هذا نوع من «الإسلام و التسليم» أمام أمر الله.

و بناء على هذا فإنَّ أشعه الشمس التى تسطع على البحار، و بخار الماء الذى يتصاعد منها، و قطع السحاب التى تتواصل، و قطرات المطر التى تنزل من السماء و النباتات التى تنمو بها، و الزهور التى تتفتح لها، جميعها مسلمه، لأنَّ كلاً منها قد أسلم للقوانين التى فرضها عليها قانون الخلقه.

و النوع الآخر من أوامر الله هى «الأوامر التشريعيه» و هى القوانين التى ترد فى الشرائع السماويه و تعاليم الأنبياء. إنَّ التسليم أمامها تسليم «طوعى» أو اختيارى. فالمؤمنون الذين يسلمون لها إنما هم و حدهم المسلمون. إنَّ مخالفه هذه القوانين و الشرائع لا تقل -على كل حال- عن مخالفه القوانين التكوينيّه، لأنَّ مخالفتها تبعث على الانحطاط و التخلف و العدم.

و لما كانت «أسلم» مستعمله في هذه الآيه بالمعنى الأوسع للإسلام، أى المعنى الذى يشمل النوعين من أوامر الله، لذلك فهى تقول إن فريقا يسلم طوعا - كالمؤمنين - وفريقا يسلم كرها - كالكافرين - أمام القوانين التكوينية. وهكذا نجد أن الكافرين الذين يمتنعون عن التسليم أمام بعض أوامر الله مجبرين على التسليم أمام بعض آخر من أوامر الله. فلما ذا إذا لا يسلمون لجميع قوانين الله ودين الحق؟ هناك احتمال آخر فى تفسير هذه الآيه ذكره كثير من المفسرين، وإن لم يتعارض مع ما قلناه آنفا، وهو: أن المؤمنين و هم فى حال من الرفاه و الهدوء يسرون نحو الله بملء اختيارهم. أما غير المؤمنين فلا يسرون نحو الله إلا عند ما تحيق بهم البلايا و المشكلات التى لا تطاق، فيدعون و يتوسلون إليه، فمع أنهم فى الظروف العادية يشركون به، فإنهم فى الشدائد و الملمات لا يتوجهون إلا إليه.

و يتضح مما تقدم أن «من» فى جملة مَنْ فى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ تشمل الموجودات العاقله و غير العاقله، وبالرغم من كونها تستعمل عادة للعقلاء، إلا أنها قد تكون عامه للتغليب. و «طوعا» إشاره إلى الموجودات العاقله المؤمنه، و «كرها» إشاره إلى الكفار و غير العقلاء.

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنزِلَ عَلَيْنَا...

فى هذه الآيه يأمر الله النبى و المسلمين بأنهم، فضلا عن إيمانهم بما أنزل على رسول الإسلام، عليهم أن يظهروا إيمانهم بكل الآيات و التعليمات التى نزلت على الأنبياء السابقين، و أن يقولوا: إننا لا نفرق بينهم من حيث صدقهم و علاقتهم بالله.

إننا نعترف بالجميع، فهم جميعا كانوا قادة إلهيين، و هم جميعا بعثوا لهدايه الناس.

إننا نسلم بأمر الله من جميع النواحي، و بذلك نقطع أيدي المفرقين.

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ

«يتبع» من «الابتغاء» بمعنى الطلب و السعى، و يكون في الأمور المحموده و في الأمور المذمومه. هنا يختتم البحث المذكور باستنتاج نتيجة كليته، و هي أنّ الدين الحقيقي هو الإسلام، أى التسليم لأمر الله بمعناه العام، و أمّا بمفهومه الخاصّ فهو الانتقال إلى الدين الإسلامى الذى هو أكمل الأديان، فتقول الآية: أنه لا يقبل من أحد سوى الإسلام مع الأخذ بنظر الاعتبار احترام سائر الشرايع الإلهيه المقدسه. فكما أن طلاب الجامعه فى نفس الوقت الذى يحترمون فيه الكتب الدراسيه للمراحل السابقه من الابتدائيه و المتوسطه و الإعداديه، فإنه لا يقبل منهم سوى دراسه الكتب و الدروس المقرره للمرحله النهائيه، فكذلك الإسلام. و أمّا الذين يتخذون غير هذه الحقيقه ديناً، فلن يقبل منهم هذا أبداً، و لهم على ذلك عقاب شديد و هو فى الآخره من الخاسرين ذلك لأنه تاجر بثروه وجوده مقابل بضع خرافات و تقاليد باليه، و عصبيات جاهليه و عنصريه، و لا شك أنه هو الخاسر فى هذه الصفقه. و إذا ما خسر الإنسان ثروه وجوده، و وجد نتيجة ذلك حرماناً و عذاباً و عقاباً يوم القيامه.

و ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية نزلت فى اثني عشر من المنافقين الذين أظهروا الإيمان، ثم ارتدوا، و خرجوا من المدينه إلى مكه، فنزلت الآية و أُنذرتهم بأنه من اعتنق غير الإسلام فهو من الخاسرين.

و فى الدرّ المنثور فى قوله تعالى: وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا الْآيَه

أخرج أحمد و الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريره قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: تجيء الأعمال يوم القيامه فتجىء الصلاه فتقول: يا ربّ أنا الصلاه فيقول: إنك على خير، و تجىء الصدقه فتقول يا ربّ أنا الصدقه فيقول: إنك على خير، ثمّ يجىء الصيام فيقول: أنا الصيام فيقول: إنك على خير، ثمّ تجىء الأعمال كلّ ذلك يقول

اللّٰهُ: إِنَّكَ عَلَىٰ خَيْرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ الْإِسْلَامَ فَيَقُولُ: يَا رَبُّ أَنْتَ السَّلَامُ وَ أَنَا الْإِسْلَامُ فَيَقُولُ اللّٰهُ: إِنَّكَ عَلَىٰ خَيْرٍ، بِكَ الْيَوْمَ آخِذٌ، وَ بِكَ أُعْطِيَ. قَالَ اللّٰهُ فِي كِتَابِهِ: وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١).

فيما يتعلّق باختلاف «الإسلام» عن «الإيمان» سوف يأتي شرحه في تفسير الآية ١٤ من سورة الحجرات إن شاء اللّٰهُ.

ص: ٥٨٢

---

١-١) - تفسير الدر المنثور: ج ٢ ص ٤٨، نقلا عن معجم الأوسط: ج ٨ ص ٢٩٦ حديث ٧٦٠٧.

إشارة

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩)

سبب النزول

كان «الحارث بن سويد» من الأنصار، ارتكب قتل شخص برىء اسمه «المجذر بن زياد»، فارتد عن الإسلام خوفا من العقاب، و فر من المدينة إلى مكة. و لكنّه في مكة ندم على فعلته، و راح يفكر فيما يصنعه. و أخيرا استقرّ رأيه على أن يبعث بأحد أقاربه في المدينة يسأل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم عمّا إذا كان له سبيل للرجوع. فنزلت هذه الآيات، تعلن قبول توبته بشروط خاصّه. فمثل الحارث بن سويد بين يدي رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم و جدّد إسلامه، و ظلّ ملتزما و فيا لإسلامه حتّى

آخر رفق فيه. غير أنّ أحد عشر شخصا ممّن ارتدّوا عن الإسلام معه بقوا مرتدّين (١).

فى تفسير الدرّ المشور و فى تفاسير أخرى، سبب نزول للآيات المذكوره لا يختلف كثيرا عمّا أوردناه.

## التفسير

### أشاره

كان الكلام فى الآيات السابقه عن أن الدين الوحيد المقبول عند الله هو الإسلام، و فى هذه الآيات يدور الحديث حول من قبلوا الإسلام ثم رفضوه و تركوه، و يسمى مثل هذا الشخص «مرتد» تقول الآيه:

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَ جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ

فآليه تقول: إنّ الله لا يعين أمثال هؤلاء الأشخاص على الاهتداء، لماذا؟ لأن هؤلاء قد عرفوا النبى بدلائل واضحه و قبلوا رسالته، فبعدولهم عن الإسلام أصبحوا من الظالمين و الشخص الذى يظلم عن علم و اطلاع مسبق غير لائق للهدايه الإلهيه: وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

المراد من «البيّنات» فى هذه الآيه القرآن الكريم و سائر معاجز النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم، و المراد من «الظالم» هو من يظلم نفسه بالمرتبه الأولى. و يرتد عن الإسلام و فى المرتبه الثانيه يكون سببا فى إضلال الآخرين. ثم تضيف الآيه:

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَ الْمَلَائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ

عقاب أمثال هؤلاء الأشخاص الذين يعدلون عن الحق بعد معرفتهم له، كما هو مبين فى الآيه، أن تلعنهم الملائكه و أن يلعنهم الناس.

ص: ٥٨٤

«اللعن» في الأصل الطرد و الإبعاد على سبيل السخط، من هنا فلعن الله هو إبعاد الشخص عن رحمته، أما لعن الملائكة و الناس فقد يكون السخط و الطرد المعنوي، و قد يكون الطلب من الله تعالى بإبعادهم عن رحمته. هؤلاء الأشخاص يكونون في الواقع غارقين في الفساد و الإثم إلى درجة أنهم يصبحون مورد استنكار كل عاقل هادف في العالم، من البشر كان أم من الملائكة.

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ

تضيف الآية هنا أنهم فضلا عن كونهم موضع لعن عام، فإنهم سيقون في هذا اللعن إلى الأبد، فهم في الواقع كالشيطان الخالد في اللعن الأبدى.

و لا شك أن نتيجة ذلك هو أن يكونوا في عذاب شديد و دائم بغير تخفيف و لا إمهال.

و في آخر آية تفتح طريق العوده أمام هؤلاء الأفراد، و تدعوهم للتوبه، لأن هدف القرآن هو الإصلاح و التريه، و من أهم الطرق لذلك هو فتح باب العوده للمذنبين و الملوئين كيما تتاح لهم الفرصه لجبران ما فرط منهم، فتقول:

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

إن هذه الآية مثل الكثير من آيات القرآن، و بعد الإشاره إلى التوبه- تشير إلى التكفير عن الذنوب السابقه و بجمله «و أصلحوا» تبين أن التوبه لا تعنى مجرد الندم على ما مضى و العزم على تجنب ارتكاب الذنوب في المستقبل، بل شرط قبولها هو أن يمحو التائب بأعماله الصالحه في المستقبل جميع أعماله القبيحه الماضيه.

لذلك نجد في كثير من الآيات أن التوبه يرافقها العمل الصالح، مثل: **إِلَّا مَنْ تَابَ (و آمنَ) وَ عَمِلَ صَالِحاً (١)** و **إِلَّا فَإِنَّ التوبه لن تكون كامله. فهوؤلاء إن فعلوا ذلك نالوا رحمه الله و مغفرته فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .**

ص: ٥٨٥



بل إنه يستفاد من هذه الآية أن الذنب عبارته عن نقص في الإيمان، وأنه بعد التوبة يقوم الشخص التائب بتجديد الإيمان ليتطهر من هذا النقص.

### هل تقبل توبه المرتد؟

يبدو من الآية أعلاه و من سبب نزولها أن قبول توبه المرتد (و هو الذى أسلم ثم عاد عن إسلامه) يرتبط بنوع الارتداد. فتمه «المرتد الفطرى» و هو المرتد الذى ولد من أبوين مسلمين، أو انعقدت نطفته حين كان أبواه مسلمين، ثم قبل الإسلام و عاد عنه بعد ذلك. و هناك «المرتد الملى» و هو الذى لم يولد من أبوين مسلمين.

توبه المرتد الملى تقبل، و عقوبته فى الواقع خفيفه لأنه ليس مسلما بالمولد، لكن حكم المرتد الفطرى أشد. هذا المرتد - و إن قبلت توبته لدى الله سبحانه - يحكم بالإعدام إن ثبت ارتداده. و توزع أمواله على ورثته المسلمين، و تنفصل عنه زوجته، و لا تحول توبته دون إنزال هذه العقوبه بحقه.

لكن هذه الشده تخص - كما قلنا - المرتد الفطرى، و بشرط أن يكون رجلا.

قد تعجب بعضهم لهذا التشدد، و ربما اعتبر نوعا من الفظاظه القاسيه البعيده عن الرحمه، الأمر الذى لا يتسق مع روح الإسلام.

غير أن لهذا الحكم فلسفه أساسا، و هى حفظه الجبهه الداخليه فى بلاد الإسلام ضد نفوذ المنافقين و الأجانب، و للحيلولة دون تفككها و اضمحلالها إن الارتداد ضرب من التمرد على نظام البلد الإسلامى، و حكمه الإعدام فى أنظمه الكثير من قوانين العالم اليوم. إذ لو أجاز لمن يشاء أن يعتنق الإسلام متى شاء و أن يرتد عنه متى شاء، لتحطمت الجبهه الداخليه سريعا، و لانفتحت أبواب البلد أمام الأعداء و عملائهم، و لساد المجتمع الإسلامى الهرج و المرج. و بناء على ذلك فإن هذا

الحكم حكم سياسى فى الواقع، ولا- بدّ منه لحماية الحكومه الإسلاميه و المجتمع الإسلامى و للضرب على أيدي العملاء و الأجانب.

أضف إلى ذلك أنّ من يتقبّل الإسلام بعد التحقّق و التدقيق، ثمّ يتركه ليعتنق دينا آخر، لا يمتلك دوافع سليمه و منطقيه، و هو بذلك يستحقّ أشدّ العقوبات. أمّا تخفيف هذا الحكم بالنسبه للمرأة، فلاّ أنّ جميع العقوبات تخفّف بشأنها.

ص: ٥٨٧

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ إِزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَآمَنُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١)

سبب النزول

ذكر بعض المفسرين أن الآية الأولى نزلت في أهل الكتاب الذين آمنوا بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم قبل بعثته، ولكنهم بعد البعثة كفروا به. وذهب آخرون إلى أنها نزلت في الحارث بن سويد و أحد عشر آخرين الذين ارتدوا عن الإسلام لأسباب. ثم تاب و عاد إلى الإسلام. أما الآخرون فقد رفضوا دعوته للعودة، وقالوا: سنبقى في مكه و نواصل مناوءه محمّد انتظارات لهزيمته. فإذا تحقّق ذلك فخير، وإلا - فإنّ باب التوبه مفتوح، نتوب وقتما نشاء و نرجع إلى محمّد، و سوف يقبل توبتنا! و عند ما فتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكه اسلم بعضهم و قبلت توبتهم، و أمّا من أصرّ على البقاء على الكفر فقد نزلت الآية الثانيه بشأنهم.

## التوبة الباطلة:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ اذَّاءُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ

كان الكلام فى الآيات السابقة يدور حول الذين يندمون حقًا على انحرافهم عن طريق الحق فيتوبون توبه صادق. فى هذه الآية يدور الكلام على الذين لن تقبل توبتهم، وهم الذين آمنوا أولًا، ثم ارتدوا وكفروا، وأصرّوا على كفرهم، ورفضوا الانصياع لأوامر الله، حتى إذا اشتدّ عليهم الأمر اضطرّوا إلى العوده للإسلام. إنّ الله لن يقبل توبه هؤلاء، لأنهم لن يتخذوا باختيارهم خطوه فى سبيل الله، بل هم مجبرون على إظهار الندم و التوبه بعد رؤيتهم انتصار المسلمين. لذلك فتوبتهم ظاهرية و لن تقبل.

و ثمّه احتمال آخر فى تفسير هذه الآية هو: أنّ أمثال هؤلاء الأشخاص عند ما يرون أنفسهم على أعتاب الموت و نهايه العمر قد يندمون و يتوبون حقًا. غير أنّ توبتهم لن تقبل، لأنّ وقت التوبه يكون قد انتهى، كما سيأتى شرحه. و هذا نظير قوله تعالى فى الآية ١٨ من سوره النساء: **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ .**

و قيل: من المحتمل أن يكون معنى الآية: إنّ التوبه عن الذنوب العاديه فى حال الكفر لن تقبل. أى إذا أصرّ أحدهم على المضى فى طريق الكفر، ثم تاب عن ذنوب معينه كالظلم و الغيبه و أمثالهما، فإنّ توبته هذه لا طائل وراءها و لن تقبل، و ذلك لأنّ غسل التلوّث الظاهر عن الروح و النفس، مع بقاء التلوّث الأعمق فى الباطن، لا فائده منه.

لا بدّ أن نضيف هنا أنّ التفاسير المذكوره آنفا لا تعارض بينها، و قد تشملها

الآيه جميعا، و إن يكن التفسير الأوّل أقرب إلى الآيات السابقه و إلى سبب نزول هذه الآيه.

و فى الآيه الثانيه يقول تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَرًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ

تخصّ الآيه أولئك الذين يقضون أعمارهم كافرين فى هذه الدنيا، ثم يموتون و هم على تلك الحال. يقول القرآن، بعد أن اتّضح لهؤلاء طريق الحقّ، يسيرون فى طريق الطغيان و العصيان، و هم فى الحقيقه ليسوا مسلمين، و لن يقبل منهم كلّ ما ينفقونه، و ليس أمامهم أى طريق للخلاص، حتّى و إن أنفقوا ملء الأرض ذهبا فى سبيل الله.

من الواضح أنّ القصد من القول بإنفاق هذا القدر الكبير من الذهب إنّما هو إشاره إلى بطلان إنفاقهم مهما كثر، لأنّه مقرون بتلوّث القلب و الروح بالعداء لله، و إلّا فمن الواضح أنّ ملء الأرض ذهبا يوم القيامة لا يختلف عن ملئها ترابا. إنّما قصد الآيه هو الكنايه عن أهمّيّه الموضوع.

أمّا بشأن مكان هذا الإنفاق، أفى الدنيا أم فى الآخره؟ فقد ذكر المفسّرون لذلك احتمالين إثنيين، و لكن ظاهر الآيه يدلّ على العالم الآخر، أى كانوا كافرين و ماتوا و هم كُفَرًا، فلو كانوا يملكون ملء الأرض ذهبا، و ظنّوا أنّهم بالاستفاده من هذا المال، كما هى الحال فى الدنيا، يستطيعون أن يدرءوا العقاب عن أنفسهم، فهم على خطأ فاحش، إذ أنّ هذه الغرامه الماليه و الفديه ليست قادره على التأثير فى ما سيواجههم من عقاب. و فى الواقع فان مضمون هذه الآيه يشبه قوله تعالى فى الآيه ١٥ من سوره الحديد: فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا .

و فى الختام یشیر إلى نكته اخرى فى المقام و يقول: أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

لا شكّ فى أنّهم سينالون عقابا شديدا مؤلما، و لن يكون باستطاعه أحد أن ينتصر أو يشفع لهم. لأن الشفاعة لها شرائط، و أهمها الإيمان بالله، و لهذا السبب فلو أن جميع الشفعاء اجتمعوا لإنقاذ أحد الكفّار من عذاب النار لم تقبل شفاعتهم.

و أساسا، بما أن الشفاعة بإذن الله، فإن الشفعاء لا يشفعون أبدا لمثل هؤلاء الأفراد غير اللائقين للشفاعة، لأن الشفاعة تحتاج إلى قابليه المحل، و الإذن الإلهى لا يشمل الأفراد غير اللائقين.

ص: ٥٩١

اشاره

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)

التفسير

اشاره

من علائم الإيمان:

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ

و لفظه «البر» فى أصلها اللغوى تعنى «السعه» و لهذا يقال للصحراء «البر» بفتح الباء، و لهذه الجبهه أيضا يقال للأعمال الصالحه ذات الآثار الواسعه التى تعم الآخرين و تشملهم «البر» بكسر الباء، و الفرق بين البر و الخير من حيث اللغه هو أن البر يراد منه النفع الواصل إلى الآخرين مع القصد إلى ذلك، بينما يطلق الخير على ما وصل نفعه إلى الآخرين حتى لو وقع عن سهو غير قصد.

ماذا يعنى «البر» فى الآيه؟

لقد ذهب المفسرون فى تفسير «البر» فى هذه الآيه إلى مذاهب شتى.

فمنهم من قال: إن المراد به هو «الجنه»، و منهم من قال أن المراد هو «الطاعه

والتقوى» و منهم من فسّره بأن معناه «الأجر الجميل».

غير أن الاستفادة من موارد استعمال هذه اللفظه فى آيات الكتاب العزيز نفسه هو: أن لكلمه «البر» معنى واسعاً يشمل كل أنواع الخير إيماناً كان أو أعمالاً- صالحه، كما أن الاستفادة من الآية ١٧٧ من سورة البقره هو اعتبار «الإيمان بالله و اليوم الآخر، و الأنبياء، و إعانه المحتاجين، و الصلاه، و الصيام، و الوفاء، و الاستقامه فى البأساء و الضراء» جميعها من شعب البر و مصاديقه.

و على هذا فإن للوصول إلى مراتب الأبرار الحقيقيين شروطاً عديده، منها:

لإنفاق ممّا يحبه الإنسان من الأموال، لأن الحبّ الواقعى لله، و التعلّق بالقيم الأخلاقية و الإنسانية إنما يتضح و يثبت إذا انتهى المرء إلى مفترق طريقين، و واجه خيارين لا ثالث لهما، و يقع فى أحد الجانبين الثروه، أو المنصب، و المكانه المحببه لديه، و فى الجانب الآخر رضا الله و الحقيقه و العواطف الإنسانية و فعل الخير، و يتعين عليه أن يختار أحدهما و يضحى بالآخر، و يتغاضى عنه.

فإذا غض نظر عن الأول لحساب الثانى أثبت صدق نيته، و برهن على حبه، و على واقعيته فى ولاءه و انتمائه.

و إذا اقتصر فى هذا السبيل على إنفاق الحقيق القليل، و بذل ما لا يحبه و يهواه، فإنه يكون بذلك قد برهن على قصوره فى الإيمان و المحبه، و التعلّق المعنوى عن تلك المرتبه الساميه، و أنه ليس إلاّ- بنفس الدرجه التى أظهرها فى سلوكه و عطائه لا أكثر، و هذا هو المقياس الطبيعى و المنطقى لتقييم الشخصيه، و معرفه مستوى الإيمان لدى الإنسان، و مدى تجذره فى ضميره.

### تأثير القرآن فى قلوب المسلمين:

لقد كان لآيات الكتاب العزيز تأثير بالغ و نفوذ سريع فى أفئده المسلمين



الأوائل، فما إن سمعوا آيات جديدة النزول، إلا و ظهر هذا التأثير على سلوكهم و مواقفهم و تصرفاتهم، و نذكر من باب المثال ما نقرأه في كتب التفسير و التاريخ الإسلامى مما ورد فى مجال هذه الآيه بالذات.

-١-

كان «أبو طلحه» أكثر أنصارى المدينة نخلا، و كان أحب أمواله إليه بيرحاء، و كانت مستقبلة المسجد، و كان رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يدخلها و يشرب من ماء فيها طيب، فلما أنزلت لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ قَالَ: يا رسول الله إن الله يقول: لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ و أن أحب أموالى إلى بيرحاء، و أنها صدقه لله أرجو برها و ذخرها عند الله، فضعتها يا رسول الله حيث أراك الله. قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: يخ ذلك مال رابح لك و قد سمعت ما قلت و إنى أرى أن تجعلها فى الأقربين. قال أبو طلحه: افعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحه فى أقاربه و بنى عمه (١).

٢- أضاف أبو ذر الغفارى ضيفا، فقال للضيف: إنى مشغول، و أن لى إبلا فاخرج و آتنى بخيرها، فذهب فجاء بناقه مهزوله، فقال أبو ذر: خنتنى بهذه، فقال:

وجدت خير الإبل فحلها فذكرت يوم حاجتكم إليه، فقال أبو ذر: إن يوم حاجتى إليه ليوم أوضع فى حفرتى، مع أن الله يقول:

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ

(٢)

٣- كان لزيده زوجه هارون الرشيد مصحف ثمين جدا، قد زينت غلافه بأغلى أنواع المجوهرات و الأحجار الكريمة و كانت تحبه جدا شديدا و تعتز به أكبر اعتزاز، و فيما هى تتلو القرآن فى ذلك المصحف ذات يوم و إذا بها مرت على قوله

ص: ٥٩٤

١- ١) -مجمع البيان و صحيح مسلم و البخارى كتاب التفسير باب ما جاء فى سورة آل عمران، و يرحاء موضع كان لأبى طلحه بالمدينة.

٢- ٢) -مجمع البيان: ج ٢ ص ٤٧٤.

تعالى: لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ فتأملت فيه، و غاصت في معناه و تأثرت بنداؤه فقالت في نفسها: «إنه ليس هناك ما هو أحب إلى من هذا المصحف المزين الثمين فلأنفقه في سبيل الله»، فأرسلت إلى باعه الجواهر و باعت جواهره و أحجاره الكريمه عليهم ثم هيات بثمانها آبارا و قنوات من الماء في صحراء الحجاز ليشرب منه سكان الصحراء و ينتفع به المسافرون، و يقال أن بقايا هذه الآبار لا تزال باقيه و تدعى (١) باسمها عند الناس.

و حَتَّى يَطْمئنَّ الْمُنْفِقُونَ إِلَى أَنْ أَى شَيْءٍ مِّمَّا يَنْفِقُونَهُ لَنْ يَعْزِبَ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ لَنْ يَضِيعَ، عقب الله على حثه للناس على الإنفاق مما يحبون بقوله: وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ إنه يعلم بما تنفقونه صغيرا أم كبيرا، تحبونه أو لا تحبونه.

ص: ٥٩٥

---

١-١) -راجع تفسير أبي الفتوح الرازى ج ٣ ص ١٥٧ فى تفسير الآيه.

إشاره

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مِمَّا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)

سبب النزول

المستفاد من الروايات الواردة حول هذه الآيات و ما ينقله المفسرون هو: أن اليهود طرحوا إشكالين آخرين على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ضمن جدالهم له، أحدهما:

تحليله لحوم الإبل و ألبانها، و قد كانت حراما في دين إبراهيم عليه السلام و كانوا يقولون:

كلّ شيء نحرمه فهو كان محرما على نوح و إبراهيم، فكيف تحلله و أنت تدعى متابعه إبراهيم و إنك على ملته و دينه؟ و الآخر: صلاته باتجاه الكعبة فكانوا يقولون: كيف تدعى يا محمّد الاقتداء بملّة إبراهيم عليه السلام و النبيين العظام، و قد كان جميع الأنبياء من ولد إسحاق يولون

وجوههم شطر«بيت المقدس»و يصلون باتجاهه و أنت تصلى شطر الكعبه و تعرض عن«بيت المقدس»؟ فجاءت الآيات الثلاثه تردّ على إنكارهم للأمر الأول و تفند زعمهم،بينما تكفلت الآيات القادمه الردّ على اعتراضهم الأخير.

## التفسير

### إشاره

صرحت الآيه الأولى من هذه الآيات الثلاث بتفنيده كلّ المزاعم اليهوديه حولّ تحريم بعض أنواع الطعام الطيب(مثل لحوم الإبل و ألبانها)وردت على هذه الكذبه بقولها: كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِيُنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ (١) عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ .

أما لماذا حرّم يعقوب على نفسه بعض الأَطعمه؟و ما هو نوع الأَطعمه التي حرّمها على نفسه فلم يرد في الآيه أى توضيح بشأنها،بيد أن المستفاد من الروايات الإسلاميه هو أن يعقوب كان-كما قيل-كلّما أكل من لحم الإبل أخذه وجع العرق الذى يقال له عرق النساء (٢) فعزم إن شفاه الله على أن يحرم لحم الإبل على نفسه، فاقتدى به أتباعه فى هذا،حتّى اشتبه الأمر على من أتوا من خلفهم فيما بعد فتصور بعض أنه تحريم إلهى،فاعتبروا ذلك حكما و نسبوه إلى الله، و ادعوا بأنه حرم عليهم لحم الإبل،فنزلت الآيه تفند هذا الزعم ببيان علّه الالتباس،و تصرّح بأن نسبه هذا التحريم إلى الله سبحانه محض اختلاق.

و على هذا فقد كان كلّ الطعام حلالا،و لم يكن شىء من الطيبات منه حراما

ص: ٥٩٧

١- ١) -إسرائيل هو الاسم الآخر ليعقوب.

٢- ٢) -عرق النساء ألم عصبى يمتد على مسار العصب الوركى من الاليه إلى معصم القدم و يشتد هذا الألم جدا إذا ما ثنيت الساق الممتده عند مفصل الحوض(الموسوعه العربيه الميسره).

على بنى إسرائيل قبل نزول التوراه، كما يفيد قوله سبحانه مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ وَإِنْ كَانَ قَدْ حُرِّمَتْ -بعد نزول التوراه و مجيء موسى بن عمران- بعض الأطعمة الطيبه، على اليهود لظلمهم و عصيانهم، تنكيلا بهم، و جزاء لظلمهم.

و تأكيداً لهذه الحقيقه أمر الله نبيه فى هذه الآيه أن يطلب من اليهود بأن يأتوا بالتوراه الموجوده عندهم و يقرءوها ليتبين كذب ما ادعوه، و صدق ما أخبر به الله حول حليه الطعام الطيب كله إذ قال: قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

و لكنهم أعرضوا عن تلييه هذا الطلب لعلمهم بخلو التوراه عن التحريم الذى أدعوه.

و الآن بعد أن تبين كذبهم و افتراءهم على الله لعدم استجابتهم لطلب النبى بإحضار التوراه، فإن عليهم أن يعرفوا بأن كل من افترى على الله الكذب استحق وصف الظلم، لأنه بهذا الافتراء ظلم نفسه بتعرضها للعذاب الإلهى، و ظلم غيره بتحريفه و إضلاله بما افترى، و هذا هو ما يعنيه قوله سبحانه فى ختام هذه الآيه فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

### التوراه الرائجه و تحريم بعض اللحوم:

نقرأ فى الفصل الحادى عشر من سفر اللاولين ضمن استعراض مفصل للحوم المحرّمه و المحللّه: «كل ما شق ظلفاً و قسمه ظلفين و يجتر من البهائم فإياه تأكلون. إلاّ هذه فلا- تأكلوها ممّا يجتر و ممّا يشق الظلف. الجمل لأنه يجتر لكنّه لا يشق ظلفاً فهو نجس لكم».

من هذه العبارات نفهم أن اليهود كانوا يحرمون الإبل و كل ما شق ظلفاً من البهائم، و لكن ذلك لا يدلّ على أنها كانت محرّمه فى شريعته نوح و إبراهيم أيضاً، إذ

يمكن أن يكون هذا التحريم مختصا باليهود عقابا لهم و تنكيلا.

فإذا لم يكن لليهود حجّه على زعمهم، و إذا تبين لهم صدق الرسول الكريم في دعوته، و اتضح لهم أنّه على ملّه إبراهيم، و دينه الحنيف حقًا يوجب عليهم أن يتبعوه قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اتبعوا ملّه إبراهيم الذى كان حنيفا مستقيما لا يميل إلى شىء من الأديان الباطله، و الأهواء الفاسده، بل يسير فى الطريق المستقيم، فلم يكن فى دينه أى حكم منحرف مائل عن الحق و حتّى فى الأَطعمه الطيبه الطاهره لم يكن يحرم شيئا بدون مبرر أو سبب وجيه للتحريم... إنه لم يكن مشركا، فادعاء مشركى العرب بأنهم على ملته محض اختلاق، فأين الوثنيه و أين التوحيد؟ و أين عباده الأصنام، و أين تحطيم الأصنام؟ و الجدير بالذكر أن القرآن الكريم يكرر هذا الوصف وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فى شأن إبراهيم و يؤكد عليه فى مواطن كثيره، و ما ذلك إلا لأن العرب الجاهليين الوثنيين كانوا- كما ألمحنا- ينسبون ديانتهم و عقائدهم الوثنيه إلى الخليل عليه السلام، و يدعون بأنهم على دينه و ملته، و كانوا يصرون على هذا إلى درجه أن الآخريين سموهم بالحنفاء (أى أتباع إبراهيم) و لذلك كرر القرآن نفى الشرك عن الخليل و صرح مرارا و تكرارا بأنه عليه السلام كان حنيفا، و لم يكن من المشركين أبدا (1) ابطلا لذلك الادعاء السخيف، و تنزيها لساحه هذا النبى العظيم من تلك الوصمه المقيته.

ص: ٥٩٩

---

١- ١) -جملة «و ما كان من المشركين» جاءت فى آل عمران ٦٧-٩٥ و الأنعام ١٦١ و النحل ١٢٤ و البقره ١٣٥.

اشاره

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)

أول بيت وضع للناس:

لقد أنكرت اليهود على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمرين كما أسلفنا. وقد رد القرآن على الأمر الأول في الآيات الثلاث المتقدمة، وها هو يرد على الأمر الثاني، وهو:

إنكارهم على النبي اتخاذ الكعبة قبله، وتفضيله لها على «بيت المقدس» بينما كانوا يفضلونه على الكعبة.

يقول سبحانه: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا فَلَا عَجَبَ إِذْ أَنْ تَكُونَ الْكَعْبَةَ قِبْلَةً لِلْمُسْلِمِينَ، فهي أول مركز للتوحيد، وأقدم معبد بنى على الأرض ليعبد فيه الله سبحانه ويوحده، بل لم يسبقه أى معبد آخر قبله، إنه أول بيت وضع للناس و لأجل خير المجتمع الإنساني فى نقطه من الأرض محفوفه

بالبركات، غنيه بالخيرات، وضع ليكون مجتمع الناس، وملتقاهم.

إن المصادر الإسلامية و التاريخيه تحدثنا بأن الكعبه تأسست على يدى «آدم» عليه السّلام ثمّ تهدمت بسبب الطوفان الذى وقع فى عهد النبى «نوح» ثمّ جدد بناءها النبى العظيم «إبراهيم الخليل» عليه السّلام فهى إذن عريقه عراقه التاريخ البشرى (١).

و لا شكّ أن إختيار أعرق بيت أسس للتوحيد من أجل أن يكون قبله للمسلمين، أولى و أفضل من إختيار أيه نقطه أخرى و أى مكان آخر.

هذا و ممّا يجدر الانتباه إليه هو أن «الكعبه» و التى تسمى فى تسميه أخرى ب«بيت الله» و صفت فى هذه الآيه بأنها «بيت للناس»، و هذا التعبير يكشف عن حقيقه هامه و هى: أن كلّ ما يكون باسم الله و يكون له، يجب أن يكون فى خدمه الناس من عباده، و أن كلّ ما يكون لخدمه الناس و خير العباد فهو لله سبحانه.

كما تتضح -ضمن ما نستفيدة من هذه الآيه- قيمه الأسبقية فى مجال العلاقات بين الخلق و الخالق، و لذلك نجد القرآن يشير -فى هذه الآيه- إلى أسبقية الكعبه على جميع الأماكن الأخرى، و إلى تاريخها الطويل الضارب فى أعماق الزمن، معتبرا ذلك أول و أهم ما تتسم به الكعبه من الفضائل و المزايا، و من هنا يتضح أيضا علّه ما للحجر الأسود من الحرمة، و يتبين جواب ما يحوم حوله من سؤال مفاده: ما قيمه قطعه من الحجر و لماذا يندفع و يتدافع لاستلامه ملايين الناس كلّ عام، و يتسابقون -فى عناء بالغ- إليه حتّى أن استلامه يعد من المستحبات المؤكّده فى مناسك الحجّ و برامجه؟ إن تاريخ هذا الحجر يكشف عن ميزه خاصه فى هذا الحجر لا نجدها فى أى

ص: ٦٠١

١-١) - للوقوف على معلومات أكثر حول مصادر و نصوص هذا الموضوع من الآيات و الأحاديث راجع الجزء الأول من هذا التفسير فى ذيل الآيه ١٢٧ من سوره البقره.



حجر آخر غيره فى هذا العالم، و هى أن هذا الحجر أسبق شىء استخدم كماده إنشائه فى أقدم بيت شيد لعباده الله، و تقديسه، و توحيده، فإننا نعلم بأن جميع المعابد حتى الكعبة قد فقدت موادها الإنشائية فى كل عمليه انهدام و تجديد، عدا هذه القطعه من الصخر التى بقيت منذ آلاف السنين، و استخدمت فى بناء هذه البنيه المعظمه على طول التاريخ منذ تأسيسها و إلى الآن. و لا شك أن لهذه الاستمراريه، و تلك الأسبقية فى طريق الله و فى خدمه الناس قيمه و أهميه من شأنها أن تكسب الأشياء و الأشخاص ميزه لا يمكن تجاهلها.

كلّ هذا مضافا إلى أن هذه الصخره ليست إلا تاريخ صامت لأجيال كثيره من المؤمنين فى الأعصر المختلفه، فهى تحيى ذكرى استلام الأنبياء العظام و عباد الله البرره لها، و عبادتهم، و تضرعهم إلى الله فى جوارها عبر آلاف السنين و مئات من القرون و الأحقاب.

على أن ثمّه أمرا آخر ينبغى الانتباه إليه و هو: أن الآيه المبحوثة هنا تصرح بأن الكعبة هى أول بيت وضع للناس، و من المعلوم أنه وضع لغرض العباده فهو أول بيت وضع للعباده إذن، و هو أمر لا- يمنع من أن يكون قد شيدت فى الأرض قبل الكعبة بيوت للسكن.

و هذا التعبير رد واضح على كلّ أولئك (1) الذين يدعون أن النبى إبراهيم عليه السّلام هو أول من أسس الكعبة المشرفه، و يعتبرون بناءها على يدى آدم عليه السّلام من قبيل الأساطير، فى حين أن من المسلم وجود بيوت للعباده فى العالم قبل إبراهيم عليه السّلام كان يتعبد فيها من سبقه من الأنبياء مثل نوح عليه السّلام فكيف تكون الكعبة التى هى أول بيت وضع للعباده فى العالم قد أسست على يدى إبراهيم عليه السّلام؟

ص: ٦٠٢

«بكه» مأخوذه أصلا من «البك» و هو الزحم، و بكه أى زحمه، و تباك الناس أى ازدحموا، و إنما يقال للكعبه أو الأرض التى عليها تلك البنيه المعظمه بكه لازدحام الناس هناك، و لا يستبعد أن هذه التسميه أطلقت عليها بعد أن اتخذت صفه المعبد رسميا لا قبل ذلك.

و

فى روايه عن أبى عبد الله (الصادق) عليه السلام قال: «موضع البيت بكه، و القرية مكه».

و قد احتمل بعض المفسرين أيضا أن تكون «بكه» هى «مكه» أبدل ميمها باء، نظير «لازب» و «لازم» اللتين تعنيان شيئا واحدا فى لغه العرب.

و قد ذكر فى عله تسميه «الكعبه» و موضعها ببكه وجه آخر أيضا هو أنها سميت «بكه» لأنها تبك أعناق الجبابره، و تحطم غرورهم و نخوتهم، لأن البك هو دق العنق، فعند الكعبه تتساقط و تزول كل الفوارق المصطنعه، و يعود المتكبرون و المغرورون كبقية الناس، عليهم أن يخضعوا لله، و يتضرعوا إليه شأنهم شأن الآخرين، و بهذا يتحطم غرورهم.

## بحث تاريخي

### إشارة

### توسيع المسجد الحرام:

منذ العهد النبوى أخذ عدد المسلمين فى الإزدياد، و على أثر ذلك كان يتزايد عدد الحجاج و الوافدين إلى البيت الحرام، و لهذا كان المسجد الحرام يتعرض للتوسعه المستمره على أيدي الخلفاء فى العصور المختلفه،

فقد جاء فى تفسير العياشى أن أبا جعفر (المنصور) طلب أن يشتري من أهل مكه بيوتهم ليزيدها فى

المسجد، فأبوا فأرغبهم، فامتنعوا فضاق بذلك، فأتى أبا عبد الله (الصادق) عليه السلام فقال له: إني سألت هؤلاء شيئا من منازلهم، و أفيتهم لتزيد في المسجد، وقد منعوني ذلك فقد غمى غما شديدا، فقال أبو عبد الله عليه السلام: أ يغمك ذلك و حجتك عليهم فيه ظاهره؟ فقال: و بما أحتج عليهم؟ فقال: بكتاب الله، فقال: فى أى موضع؟ فقال:

قول الله عزّ و جلّ: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِنَكَّةٍ قد أخبرك الله أن أول بيت وضع للناس هو الذى ببكة، فإن كانوا هم تولوا قبل البيت فلهم أفيتهم، و إن كان البيت قبلهم فله فناءه، فدعاهم أبو جعفر (المنصور) فاحتج عليهم بهذا فقالوا له أصنع ما أحببت.

و

قد جاء فى ذلك التفسير أيضا أن المهدي (العباسي) لما بنى فى المسجد الحرام بقية دار احتج إليها فى ترييع المسجد، فطلبها من أربابها فامتنعوا فسأل عن ذلك الفقهاء فكلّ قال له: إنه لا ينبغي أن يدخل شيئا فى المسجد الحرام غصبا، فقال له على بن يقطين: يا أمير المؤمنين لو أنك كتبت إلى موسى بن جعفر عليه السلام لأخبرك بوجه الأمر فى ذلك، فكتب إلى و إلى المدينة أن يسئل موسى بن جعفر عليه السلام عن دار أردنا أن ندخلها فى المسجد الحرام فامتنع علينا صاحبها فكيف المخرج من ذلك؟ فقال: ذلك لأبى الحسن عليه السلام: فقال أبو الحسن عليه السلام: و لا بدّ من الجواب فى هذا؟ فقال له: الأمر لا بدّ منه، فقال له: اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم إن كانت الكعبة هى النازله بالناس فالناس أولى بفنائها، و إن كان الناس هم النازلون بفناء الكعبة فالكعبة أولى بفنائها» فلما أتى الكتاب إلى المهدي أخذ الكتاب فقبله (لفرحه الشديد)، ثم أمر بهدم الدار فأتى أهل الدار أبا الحسن عليه السلام فسألوه أن يكتب لهم إلى المهدي كتابا فى ثمن دورهم فكتب إليه أن ارضخ لهم شيئا فأرضاهم.

إن فى هاتين الروايتين استدلالا لطيفا يتفق تماما مع المقاييس و الموازين

القانونيه المعمول بها أيضا، فإن الاستدلال يقول؛ إن لمعبد تقصده الجماهير كالكعبه، قد بنى يوم بنى على أرض لا أحد فيها، الحق والأولويه فى تلك الأرض بقدر حاجته و حيث إن الحاجه يوم أسس لم تكن تدعو إلى أكثر من تلك المساحه التى أقيم عليها أول مره كان للناس أن يسكنوا فى حريم الكعبه، أما الآن وقد اشتدت الحاجه إلى مساحه أوسع كما كانت عليه لتسع الحجيج، فإن للكعبه الحق فى أن تستخدم أولويتها بالأرض.

### مزايا الكعبه و فضائلها:

لقد ذكرت فى هاتين الآيتين -مضافا إلى الميزتين اللتين مرّ شرحهما- أربع مزايا اخرى هى:

١-مباركا:

«المبارك» يعنى كثير الخير و البركه، و إنما كانت الكعبه المعظمه مباركه لأنها تعتبر بحق واحده من أكثر نقاط الأرض بركه و خيرا، سواء الخير المادى، أو المعنوى.

و أما البركات المعنويه التى تتحلّى بها هذه الأرض و هذه المنطقه من اجتماع الحجيج فيها، و ما ينجم عن ذلك من حركه و تفاعل و وحده، و ما يصحبه من جاذبيه ربانيه تحيى الأنفس و القلوب و خاصه فى موسم الحج فمما لا يخفى على أحد.

و لو أن المسلمين لم يقصروا اهتمامهم فى موسم الحج على الجانب الصورى لهذه الفريضة بل أحيوا روحها، و التفتوا إلى فلسفتها، لاتضح

ص: ٦٠٥

-حينذاك-البركات المعنويه،و تجلت للعيان أكثر فأكثر.

هذا من الناحيه المعنويه.

و أما من الناحيه الماديه فإن هذه المدينه رغم أنها أقيمت فى أرض قاحله لا ماء فيها و لا عشب،و لا صلاحيه فيها للزراعه و الرعى بقيت على طول التاريخ واحده من أكثر المدن عمراناً و حركه،و كانت دائماً من المناطق المؤهله-خير تأهيل-للحياه،بل و للتجاره أيضاً.

٢-هدى للعالمين:

أجل،إن الكعبه هدى للعالمين فهى تجتذب الملايين من الناس الذين يقطعون إليها البحار و الوهاد،و يقصدونها من كل فج عميق ليجمعوا فى هذا الملتقى العبادى العظيم و هم بذلك يقيمون هذه الفريضه فريضه الحجّ التى لم تزل تؤدى بجلال عظيم منذ عهد الخليل عليه السلام.

و لقد كانت هذه البنيه معظمه أبدا حتى من قبل العرب الجاهليين،فهم كانوا يحجون إليها و إن مزجوا مناسك الحجّ ببعض خرافاتهم و عقائدهم الباطله،إلا- أنهم ظلوا أوفياء لهذه المناسك على أنها دين إبراهيم،و قد كان لهذه المناسك و المراسم الناقصه،و الخليطه أحيانا بالخرافات الجاهليه،أثرها فى سلوكهم،حيث كانوا يرتدعون بسببها عن بعض المفسدات بعض الوقت،و هكذا كانت الكعبه سبباً للهدايه حتى للوثنيين...

إن لهذا البيت من الجواذب المعنويه ما لا يستطيع أى أحد أن يقاومها و يصمد أمام تأثيرها الأخاذ.

٣- فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ :

إن فى هذا البيت معالم واضحه و علائم ساطعه لعباده الله و توحيده،و فى تلك

ص: ٦٠٦

النقطة المباركه من الآثار المعنويه ما يبهر العيون و يأخذ بمجامع القلوب. و إن بقاء هذه الآثار و المعالم رغم كيد الكائدين و إفساد المفسدين الذين كانوا يسعون إلى إزالتها و محوها لمن تلك الآيات التي يتحدث عنها القرآن في هذا الكلام العلوى.

فها هي آثار جليله من إبراهيم عليه السلام لا تزال باقيه عند هذا البيت مثل: زمزم و الصفا و المروه، و الركن (1)، و الحطيم (2)، و الحجر الأسود، و حجر إسماعيل (3) الذى يعتبر كل واحد منها تجسيدا حيا لتاريخ طويل، و ذكريات عظيمه خالده.

و لقد خصّ «مقام إبراهيم» بالذكر من بين كل هذه الآثار و الآيات لأنه المحل الذى كان قد وقف فيه الخليل عليه السلام لبناء الكعبه، أو لإتيان مناسك الحجّ، أو لإطلاق الدعوه العامه التى وجهها إلى البشرىه كافه، و الأذان بهم ليحجوا هذا البيت، و يلتقوا فى هذا الملتقى العبادى التوحيدى العظيم.

و على كل حال فإن هذا المقام لمن أهم الآيات التى مر ذكرها، و أنها لمن أوضح الدلائل و أقوى البراهين على ما شهدته هذه النقطة من العالم من التضحيات و الذكريات، و الاجتماعات و الحوادث، البالغه الأهميه.

يبقى أن نعرف أن ثمة خلافا بين المفسّرين فى أن المراد بمقام إبراهيم هل هو خصوص النقطة التى توجد فيها الصخره التى لا تزال تحمل أثر قدمه الشريف، أو أنه الحرم المكى، أو أنه جميع المواقف التى ترتبط بمناسك الحجّ، و لكن فى الروايه المنقوله عن الإمام الصادق عليه السلام فى كتاب الكافى (4) إشاره إلى الاحتمال الأول.

ص: ٦٠٧

١-١) - كل زاويه من زوايا الكعبه-الأربعه يسمى ركنا.

٢-٢) -يقع الحطيم بين الحجر الأسود و باب الكعبه المعظمه، و إنما سمي بالحطيم إما لكثره ازدحام الناس و الطائفين فيها، و هو موضع توبه آدم، و إما لكونه موضع غفران الذنوب، و غفرانها بمنزله تحطيمها.

٣-٣) -حجر إسماعيل هو محل بنى فيه جدار هلالى الشكل عند الضلع الشمالى الغربى من الكعبه.

٤-٤) -راجع كتاب فروع الكافى كتاب الحجّ باب حد موضع الطواف.

لقد طلب إبراهيم عليه السلام من ربه بعد الانتهاء من بناء الكعبة، أن يجعل بلد مكة آمنا إذ قال رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا (١) ، فاستجاب الله له، وجعل مكة بلدا آمنا، ففيه أمن للنفوس والأرواح، وفيه أمن للجموع البشرية التي تفتد إليه و تستلهم المعنويات السامية منه، وفيه أمن من جهة القوانين الدينية، فإن الأمن في هذا البلد قد بلغ من الاهتمام به و احترامه أن منع فيه القتال منعا باتا، و أكيدا.

و قد جعلت الكعبة بالذات مأمنا و ملجأ في الإسلام لا يجوز التعرض لمن لجأ إليها أبدا، و هو أمر يشمل الحيوانات أيضا إذ يجب أن تكون في أمان من الأذى و المزاحمة إذا هي التجأت إلى هذه النقطة من الأرض.

فإذا التجأ إنسان إلى الكعبة لم يجز التعرض له حتى لو كان قاتلا- جانيا، بيد أنه حتى لا- تستغل حرمة هذا البيت و قدسيتها الخاصة، و حتى لا- تضيع حقوق المظلومين سمح الإسلام بالتضييق في المطعم و المشرب على الجناه أو القتل اللاجئين إليه ليضطروا إلى مغادرته ثم ينالوا جزاءهم العادل.

و بعد أن استعرض القرآن الكريم فضائل هذا البيت و عدد مزاياه، أمر الناس بأن يحجوا إليه-دون استثناء- و عبر عن ذلك بلفظ مشعر بأن مثل هذا الحج هو في الحقيقة دين لله على الناس، فيتوجب عليهم أن يؤدوه و يفرغوا ذمهم منه إذ قال وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ .

و تعنى لفظه «الحج» أصلا القصد، و لهذا سميت الجاده بالمحجه (على وزن موده) لأنها توصل سالكها إلى المقصد، كما أن لهذا السبب نفسه سمي الدليل ب«الحجه» لأنه يوضح المقصود.

أما وجه تسميه هذه الزيارة وهذه المناسك الخاصه بالحجّ فلأن قاصد الحجّ إنّما يخرج و هو «يقصد زياره بيت الله» و لهذا أضيفت لفظه الحجّ إلى البيت فقال تعالى حجّ البيت .

ثم إننا قد أشرنا سابقا إلى أن مراسم الحج هذه قد سنت و أسست منذ عهد إبراهيم عليه السلام ثم استمرت حتى العهد الجاهلي حيث كان العرب الجاهليون يمارسونها و يؤدونها، و لكنها شرعت في الإسلام في صوره أكمل، و كيفية خاليه عن الخرافات التي لصقت بها من العهد الجاهلي (1) و لكن الاستفادة من الخطبه القاصعه في نهج البلاغه و بعض الأحاديث و الروايات أن فريضة الحج شرعت أول مرّه في زمن آدم عليه السلام إلا أن اتخاذها الصغه الرسميه يرتبط-في الأغلب-بزمن الخليل عليه السلام.

إن الحجّ يجب على كلّ إنسان مستطيع، في العمر مرّه واحده، و لا يستفاد من الآيه المبحوثه هنا أكثر من ذلك، لأن الحكم فيها مطلق، و هو يحصل بالامتثال مرّه واحده.

إن الشرط الوحيد الذي ذكرته الآيه الحاضره لوجوب الحجّ و استقراره هو «الاستطاعه» المعبر عنها بقوله سبحانه من استطاع إليه سبيلاً .

نعم، قد فسرت الاستطاعه في الأحاديث الإسلاميه و الكتب الفقيهيه ب«الزاد و الراحله (أى الإمكانيه الماليه لنفقات سفر الحجّ ذهابا و إيابا) و القدره الجسدديه و التمكن من الإنفاق على نفسه و عائلته بعد العوده من الحجّ» و الحقّ أن جميع هذه الأمور موجوده في الآيه، إذ لفظه «استطاع» التي تعنى القدره و الإمكانيه تشمل كلّ هذه المعاني و الجهات.

ص: ٦٠٩

١ - ١) - استفاد من بعض الروايات أن تشريع هذه الفريضة في الإسلام كان في السنه العاشره من الهجره و أن النبي صلى الله عليه و آله و سلّم أمر جماعه-في تلك السنه-أن يؤذّنوا في الناس بالحجّ، و يهيئوا الناس لأداء هذه الفريضة، و إن كان النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلّم و جماعه من صحبه قد سبق لهم أن أتوا بالعمره قبل ذلك أيضا.



ثم إنه يستفاد من هذه الآيه أن هذا القانون-مثل بقية القوانين الإسلاميه- لا يختصّ بالمسلمين، فعلى الجميع أن يقوموا بفريضه الحجّ مسلمين و غير مسلمين، و تؤيد ذلك القاعده المعروفه: «الكفّار مكلفون بالفروع كما أنهم مكلفون بالأصول». و إن كانت صحّه هذه المناسك و أمثالها من العبادات مشروطه بقبولهم للإسلام و اعتناقهم إياه، ثم أدائها بعد ذلك، و لكن لا بدّ أن يعلم بأن عدم قبولهم للإسلام لا يسقط عنهم التكليف، و لا يحررهم من هذه المسؤوليه.

و ما قلناه في هذه الآيه في هذا المجال جار في أمثالها أيضا.

هذا و قد بحثنا باسهاب حول أهميه الحجّ و فلسفته و آثاره الفرديه و الاجتماعيه عند الحديث عن الآيات ١٩٦ إلى ٢٠٣ من سوره البقره.

### أهميه الحجّ

و للتأكيد على أهميه الحجّ قال سبحانه في ذيل الآيه الحاضره وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ أَي أن الذين يتجاهلون هذا النداء، و يتنكرون لهذه الفريضه، و يخالفونها لا يضرّون بذلك إلا أنفسهم لأن الله غنى عن العالمين، فلا يصيبه شىء بسبب اعراضهم و نكرانهم و تركهم لهذه الفريضه.

إن لفظه «كفر» تعنى في الأصل الستر و الإخفاء و أما في المصطلح الدينى فتعطى معنى أوسع، فهى تعنى كلّ مخالفه للحقّ و كل جحد و عصيان سواء في الأصول و الاعتقاد، أو في الفروع و العمل، فلا تدلّ كثرة استعمالها في الجحود الاعتقادى على انحصار معناه في ذلك، و لهذا استعملت في «ترك الحجّ».

و لذلك فسّر الكفر في هذه الآيه عن الإمام الصادق عليه السلام بترك الحجّ (١).

و بعبارة اخرى أن للكفر و الابتعاد عن الحق-تماما مثل الإيمان و التقرب إلى

ص: ٦١٠

(١-١) -التهذيب بناء على نقل تفسير الصافى في ذيل هذه الآيه.

الحقّ-مراحل و درجات،و لكلّ واحده من هذه المراحل و الدرجات أحكام خاصه بها،و فى ضوء هذه الحقيقه يتضح الحال بالنسبه لجميع الموارد التى استعملت فيها لفظه الكفر و الإيمان فى الكتاب العزيز.

فإذا وجدنا القرآن يستعمل وصف الكفر فى شأن آكل الربا(كما فى الآيه ٢٧٥ من سوره البقره)و كذا فى شأن السحره(كما فى الآيه ١٠٢ من نفس السوره) و يعبر عنهما بالكافر،كان المراد هو ما ذكرناه،أى أن الربا و السحر ابتعاد عن الحقّ فى مرحله العمل.

و على كلّ حال فإنه يستفاد من هذه الآيه أمران:

الأول:الأهميه الفائقه لفريضه الحجّ،إلى درجه ان القرآن عبر عن تركها بالكفر.و يؤيد ذلك ما

رواه الصدوق فى كتاب«من لا يحضره الفقيه»من أن النبى صلى الله عليه و آله و سلّم قال لعلى عليه السلام:

«يا على إن تارك الحجّ و هو مستطيع كافر يقول الله تبارك و تعالى: **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**؛ يا على؛ من سوف الحجّ حتى يموت بعثه الله يوم القيامه يهوديا،أو نصرانيا»(١).

الثانى:إن هذه الفريضه الإلهيه المهمه-مثل بقيه الفرائض و الأحكام الدينيه الأخرى-شرعت لصالح الناس،و فرضت لفرض تربيتهم،و إصلاح أمرهم و بالهم أنفسهم فلا يعود شىء منها إلى الله سبحانه أبدا،فهو الغنى عنهم جميعا.

ص: ٦١١

إشاره

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِالآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعِيدَ إِيْمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَد هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١)

سبب النزول

يستفاد من مؤلفات الشيعة و السنه و ما ذكروه في سبب نزول هذه الآيه أن «شأس بن قيس» و كان شيخا من اليهود (قد أسن)، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، مرّ ذات يوم على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم من الأوس و الخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاضه ما رأى من ألفتهم و جماعتهم و صلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوه في

الجاهلية فقال: قد اجتمع ملأ- بنى قيله بهذه البلاد، لا- و الله ما لنا معهم- إذا اجتمع ملؤهم بها- من قرار، فأمر شابا من يهود كان معه، فقال: اعتمد إليهم فاجلس معهم، ثم أذكر يوم «بعث» و ما كان قبله، و أنشدهم بعض ما كانوا ما يتناولون فيه من الأشعار.

و كان يوم «بعث» يوما اقتتل فيه الأوس و الخزرج، و كان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج، و كان يرأس الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشهلي أبو أسيد بن حضير، و يرأس الخزرج يومئذ عمرو النعمان البياضى، فقتلا جميعا.

ففعل ذلك الشاب ما أراه «شأس» فتكلم القوم عند ذلك، و تنازعوا و تفاخروا حتى تواتب رجلان من الحيين، و تقاولا، و راح أحدهما يهدد الآخر، و كادت نيران الاقتتال تتأجج بينهم من جديد.

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، و قال: «يا معشر المسلمين الله الله، أ بدعوى الجاهلية و أنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، و أكرمكم به، و قطع به عنكم أمر الجاهلية، و استنقذكم به من الكفر، و ألف به بين قلوبكم»؟ فعرف القوم أنها نزعه من الشيطان و كيد من عدوهم، فبكوا و عانق الرجال من الأوس و الخزرج بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله «شأس بن قيس»، فأنزل الله تعالى هذه الآيات الأربع، الأوليان فى شأس بن قيس و ما صنع. و الآخرين لانذار المسلمين و تحذيرهم.

## التفسير

### إشارة

### مفروقو الصفوف و مشيرو الخلاف:

بعد أن فعل بعض العناصر اليهودية الحاقده فعلتها و كادت أن تشعل نيران العداوة بين المسلمين نزل- كما عرفت فى سبب النزول- قوله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ

الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ

و المخاطب فى هذه الآيه هم أهل الكتاب و يقصد منهم هنا اليهود، فالله سبحانه يأمر نبيه فى هذه الآيه أن يسألهم معاتبا عن عله كفرهم بآيات الله فى حين أن الله يعلم بأعمالهم.

و المراد من آيات الله المذكوره فى هذا المقام إما الآيات الوارده فى التوراه حول الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم و علائم نبوته، أو مجموعه الآيات و المعجزات التى نزلت على نبي الإسلام، و تحققت على يديه، و كشفت عن حقانيته، و صدق دعوته، و صحه نبوته.

ثم جاءت الآيه الثانيه تلومهم قائله قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ، تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ أَى قُل يَا رسول الله لهم لائما و منددا: إذا كنتم غير مستعدين للقبول بالحق، فلما ذا تصرون على صرف الآخرين عنه، و صدهم عن سبيل الله، و إظهار هذا الطريق المستقيم فى صورته السبيل الأ-عوج بما تدخلون من الشبهه على الناس، فى حين ينبغى -بل يتعين- أن تكونوا أول جماعه تبادر إلى تليبه هذا النداء الإلهى، لما وجدتموه من البشائر بظهور هذا النبى فى كتبكم و تشهدون عليه.

فإذا كان الأمر كذلك فلم هذه الوسوس و المحاولات لإلقاء الفرقه و إضلال الناس، و إزاحتهم عن سمت الحق، و صدهم عن السبيل الإلهى القويم؟ و لم تحملون أثقالا إلى أثقالكم، و تتحملون إلى إثم الضلال جريمه الإضلال؟، لماذا؟ هل تتصورون أن كل ما تفعلونه سيخفى علينا؟ كلا... وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ إنه تهديد بعد تنديد، و إنه إنذار بعد لوم شديد.

و لعل وصفه سبحانه بعدم الغفله فى هذا المقام لأجل أن اليهود كانوا- لإنجاح محاولاتهم- يتكتمون و يتسترون، و يعمدون إلى حبك المؤامرات فى الخفاء، لينجحوا فى التأثير على المغفلين و البسطاء بنحو أفضل، و ليجنوا المزيد من الثمار،

ولهذا قال لهم سبحانه إذا كان بعض الناس ينخدعون بوساوسكم و مؤامراتكم لغفلتهم فإن الله يعلم بأسراركم، وخفايا أعمالكم، وما هو بغافل عما تعملون، فعلمه محيط بكم، وعقابه الأليم ينتظركم.

وبعد أن ينتهى هذا التقرير والتديد، والإنذار والتهديد لمشعلى الفتن، الصادين عن سبيل الله القويم، المستفيدين من غفله بعض المسلمين يتوجه سبحانه بالخطاب إلى هؤلاء المخدوعين من المسلمين، يحذرهم من مغبه الانخداع بوساوس الأعداء، والوقوع تحت تأثيرهم، والسماح لعناصرهم بالتسلل إلى جماعتهم، وترتيب الأثر على تحريكاتهم و تسويلا تهم، وأن نتيجة كل ذلك هو الابتعاد عن الإيمان، والوقوع فى أحضان الكفر، إذ يقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ .

أجل إن نتيجة الانصياع لمقاصد هؤلاء الأعداء هو الرجوع إلى الكفر لأن العدو يسعى فى المرحلة الاولى إلى أن يشعل بينكم نيران العداوه والافتتال، ولكنه لن يكتفى بهذا القدر منكم، بل سيستمر فى وساوسه الخبيثه حتى يخرجكم عن الإسلام مزه واحده، ويعيدكم إلى الكفر تاره اخرى.

من هذا البيان اتضح أن المراد من الرجوع إلى الكفر فى الآية-هو«الكفر الحقيقى، والانفصال الكامل عن الإسلام» كما ويمكن أن يكون المراد من ذلك هى تلك العداوات الجاهليه التى تعتبر-فى حد ذاتها-شعبه من شعب الكفر، و علامه من علامته، و أثرا من آثاره، لأن الإيمان لا يصدر منه إلا المحبه و الموده و التآلف، و أما الكفر فلا يصدر منه إلا التقاتل و العداوه و التنافر.

ثم يتساءل-فى عجب و استغراب- وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ أَى كيف يمكن أن تسلكوا سبيل الكفر، و ترجعوا كفارا و النبى صلى الله عليه و آله و سلم بين ظهرانيكم، و آيات الله البينات تقرأ على أسماعكم، و تشع أنوار

الوحى على قلوبكم و تهطل عليكم أمطاره المحييه؟ إن هذه العبارة ما هي-فى الحقيقة-إلاّ الإشاره إلى أنه لا عجب إذا ضل الآخرون و انحرفوا،و لكن العجب ممّن لا- يزمون الرسول و يرونه فيما بينهم،و لهم مع عالم الوحى اتصال دائم...و مع آياته صحبه دائمه،إن العجب إنما هو-فى الحقيقة-من هؤلاء كيف يضلون و كيف ينحرفون؟ إنه حقًا يدعو إلى الدهشه و الاستغراب و يبعث على العجب أن يضل مثل هؤلاء الذين يعيشون فى بحبوحه النور،و لا شكّ أنهم أنفسهم يتحملون إثم هذا الضلال-إن ضلوا-لأنهم لم يضلوا إلاّ عن بينه،و لم ينحرفوا إلاّ بعد بصيره...و لا شكّ أن عذابهم سيكون شديدًا جدًا لذلك.

ثمّ فى ختام هذه الآيات يوصى القرآن الكريم المسلمين-إن أرادوا الخلاص من وساوس الأعداء،و أرادوا الاهتداء إلى الصراط المستقيم-أن يعتصموا بالله و يلوذوا بلطفه و يتمسكوا بهداياته و آياته،و يقول لهم بصراحه تامه وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

هذا و من النقاط المهمه التى تلفت النظر فى هذه الآيات هو أن الخطاب الإلهى فى الآيتين الأوليين من هذه الآيات موجهه إلى اليهود بالواسطه،لأن الله سبحانه يأمر نبيه الكريم أن يبلغ هذه المواضيع لليهود عن لسانه فيقول تعالى له قُلْ و لكنه عند ما يوجه الخطاب إلى المسلمين فى الآيتين الأخريين يخاطبهم بصوره مباشره و دون واسطه فلا يشرع خطابه لهم بلفظه قُلْ و هذا يكشف عن منتهى عنايه الله و لطفه بالمؤمنين،و أنهم-دون غيرهم-لا يثقون بأن يخاطبهم الله مباشره،و أن يوجه إليهم الكلام دون أن يوسط بينه و بينهم أحدا.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَ لَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَ لَا تَفَرَّقُوا وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَ كُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)

سبب النزول

كانت بين «الأوس» و«الخزرج» القبيلتين الكبيرتين القاطنتين في يثرب حروب طويلة داميه و منازعات استمرت ما يقرب من مائه عام، و كانت المعارك و المناوشات تنشب بينهم بين فتره و اخرى و تكلف الجانبين خسائر جسميه في الأموال و الأرواح.

كل ذلك كان أيام الجاهليه قبل بزوغ الإسلام و طلوع شمسهِ على تلك الربع.



وقد كان ممّا وفق له الرسول و نجح فيه أكبر نجاح-بعد هجرته إلى المدينة(يثرب)-هو تمكنه من وضع حد لتلك المعارك و المناوشات و تلك المذابح و المجازر،و إقرار الإخاء مكان العدا و إحلال السلام محل الحروب،و تشكيل جبهه متحده متراصه الصفوف،قويه البنيان و الأركان فى المدينة المنوره.

و لكن حيث أن جذور النزاع كانت قويه و عديده جدا،كان ذلك الاتحاد يتعرض أحيانا لبعض الهزات بسبب بعض الاختلافات المنسيه التى كانت تطفو على السطح أحيانا فتشتعل نيران النزاع بعد غياب،و لكن سرعان ما كانت تختفى مرّه اخرى بفضل تعليمات النبى العظيم صلى الله عليه و آله و سلم و حكمته،و تديره.

و قد لاحظنا فى الآيات السابقه نموذجا من تلك الاختلافات المتجدده التى كانت تبرز على أثر التحريكات التى كان يقوم بها الأعداء الأذكياء،و لكن هذه الآيات تشير إلى نوع آخر من الاختلافات التى كان يسببها الأصدقاء الجاهلون، و العصبية العمياء و الحمقاء.

يقال:افتخر رجلان من الأوس و الخزرج هما«ثعلبه بن غنم»و«أسعد بن زراره»فقال ثعلبه:منا خزيمه بن ثابت ذو الشهادتين،و منا حنظله غسيل الملائكه و منا عاصم بن ثابت بن أفلح حمى الدين،و منا سعد بن معاذ الذى رضى الله بحكمه فى بنى قريظه،و قال أسعد منا أربعة أحكموا القرآن:أبى بن كعب و معاذ بن جبل و زيد بن ثابت و أبو زيد و منا سعد بن عباده خطيب الأنصار و رئيسهم:

فجرى الحديث بينهما فغضبا و تفاخرا و ناديا فجاء الأوس إلى الأوسى،و الخزرج إلى الخزرجى و معهم السلاح،فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه و آله و سلم فركب حمارا و أتاهم،فأنزل الله هذه الآيات فقرأها عليهم فاصطلحوا.

## الدعوة إلى التقوى:

فى الآيه الأولى من هاتين الآيتين دعوه إلى التقوى لتكون التقوى مقدمه للاتحاد و التآخى.

و فى الحقيقة أن الدعوه إلى الاتحاد دون أن تستعين هذه الدعوه و تتبع من الجذور الخلقية و الاعتقادية، دعوه قليلة الأثر، إن لم تكن عديمه الأثر بالمره، و لهذا يركز الاهتمام فى هذه الآيه على معالجه جذور الاختلاف، و إضعاف العوامل المسببه للتنازع فى ضوء الإيمان و التقوى، و لهذا توجه القرآن بالخطاب إلى المؤمنين فقال **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ** .

يبقى أن نعرف أنه قد وقع كلام كثير بين المفسرين حول المراد من قوله تعالى **حَقَّ تَقَاتِهِ** و لكن مِمَّا لا شك فيه أن «حق التقوى» يعد من أسمى درجات التقوى و أفضلها لأنه يشمل اجتناب كل إثم و معصيه، و كل تجاوز و عدوان، و انحراف عن الحق.

ولذا

نقل عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم كما فى تفسير الدر المنثور، و عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام كما فى تفسير العياشى و معانى الأخبار - فى تفسير قوله: **حَقَّ تَقَاتِهِ** أنهما قالا: «أن يطاع فلا يعصى، و يذكر فلا ينسى (و يشكر فلا يكفر)».

و من البديهي أن القيام بهذا الأمر كغيره من الأوامر الإلهية، يرتبط بمدى قدره الإنسان و استطاعته و لهذا لا تنافى بين هذه الآيه التى تطلب حق التقوى و أسمى درجاته و الآيه ١٦ من سورة التغابن التى تقول: **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتِطَعْتُمْ** فالكلام حول المنافاه بين الآيتين و ادعاء نسخ إحداهما بالأخرى ممَّا لا أساس له مطلقا، و لا داعى له أبدا.

على أنه ليس من شكّ في أن الآيه الثانيه تعتبر تخصيصاً-في الحقيقه-لمفاد الآيه الأولى و تقييدا بالاستطاعه و القدره،و حيث أن لفظه النسخ كانت-عند القدماء-تطلق على التخصيص،لذلك من الممكن أن يكون المراد من قول القائل بأن الآيه الثانيه ناسخه للأولى هو كونها مخصصه للأولى لا غير.

ثمّ إنه بعد أن أوصى جميع المؤمنين بملازمه أعلى درجات التقوى انتهت الآيه بما يعتبر تحذيراً-في حقيقته-للأوس و الخزرج و غيرهم من المسلمين في العالم،تحذيراً مفاده:أن مجرد اعتناق الإسلام و الانضمام إلى هذا الدين لا يكفي، إنما المهم أن يحافظ المرء على إسلامه و إيمانه و اعتقاده إلى اللحظه الأخيره من عمره و حياته،فلا يبدد هذا الإيمان بإشعال الفتن و إثارة نيران البغضاء أو بالانسياق وراء العصبيات الجاهليه الحمقاء،و الضغائن المندثره فتكون عاقبته الخسران،و ضياع كلّ شيء و لهذا قال سبحانه وَ لَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ .

### الدعوه إلى الاتحاد

بعد أن أوصت الآيه السابقه كلّ المؤمنين بملازمه أعلى درجات التقوى و مهدت بذلك النفوس و هيأتها،جاءت «الآيه الثانيه»تدعوهم بصراحه إلى مسأله الاتحاد،و الوقوف في وجه كلّ ممارسات التجزئه و إيجاد الفرقة،فقال سبحانه في هذه الآيه وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لَا تَفَرَّقُوا .

و لكن ما المقصود من «حبل الله»في هذه الآيه؟فقد ذهب المفسّرون فيه إلى احتمالات مختلفه،فمنهم من قال بأنه القرآن،و منهم من قال:بأنه الإسلام،و منهم من قال بأنهم الأئمه المعصومون من آل الرسول و أهل بيته المطهرين.

وقد وردت كل هذه المعاني في روايات منقوله عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة من أهل بيته عليهم السلام.

ففي تفسير «الدر المنثور» عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وفي كتاب «معاني الأخبار» عن الإمام السجاد أنهما قالوا: «كتاب الله جبل ممدود من السماء».

و

روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «آل محمد عليهم السلام هم جبل الله الذي أمرنا بالاعتصام به فقال: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا .

ولكنه ليس هناك في الحقيقة-أى اختلاف و تضارب بين تلك الأقوال والأحاديث لأن المراد من الحبل الإلهي هو كل وسيله للارتباط بالله تعالى سواء كانت هذه الوسيله هي الإسلام، أم القرآن الكريم، أم النبي و أهل بيته الطاهرين.

و بعبارة اخرى فإن كل ما قيل يدخل بأجمعه في مفهوم ما يحقق «الارتباط بالله» سبحانه-الواسع-والذي يستفاد من معنى حبل الله.

### التعبير ب«حبل الله» لماذا؟

إن النقطة الجديده بالاهتمام في هذه الآيه هو التعبير عن هذه الأمور بحبل الله، فهو إشاره إلى حقيقه لطيفه و هامه، و هي أن الإنسان سيقى في حضيض الجهل، و الغفله، و في قاع الغرائز الجامحه إذا لم تتوفر له شروط الهدايه، و لم يتهياً له الهادى و المربى الصالح فلا بدّ للخروج من هذا القاع، و الارتفاع من هذا الحضيض من حبل متين يتمسك به ليخرجه من بئر الماديه و الجهل و الغفله، و ينقذه من أسر الطبيعه، و هذا الحبل ليس إلا حبل الله المتين، و هو الارتباط بالله عن طريق الأخذ بتعاليم القرآن الكريم و القاده الهداه الحقيقين، التي ترتفع بالناس من حضيض الحضيض إلى أعلى الذرى في سماء التكامل المادى و المعنوى.

ص: ٦٢١

ثم إن القرآن بعد كل هذا يعطى مثالا حيا من واقع الأمة الإسلاميه لأثر الارتباط بالله و هو يذكر فى نفس الوقت-بنعمه الاتحاد و الأخوه-تلك النعمه الكبرى-و يدعو المسلمين إلى مراجعه الماضى المؤسف، ومقارنه ذلك الاختلاف و التمزق بهذه الوحده القويه الصلبه و يقول: وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ اِذْ كُنْتُمْ اَعْدَاءً فَآلَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ اِخْوَانًا .

و الملفت للنظر هو تكرار كلمه نعمه فى هذه الآيه مرتين و هو إشعار بأهميه الوحده هذه الموهبه الإلهيه التى لا تحقّق إلا فى ظل التعاليم الإسلاميه و الاعتصام بحبل الله.

و النقطه الأخرى الجديره بالاهتمام أيضا هى أن الله نسب تأليف قلوب المؤمنين إلى نفسه فقال فَآلَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ أى أن الله ألف بين قلوبكم، و بهذا التعبير يشير القرآن الكريم إلى معجزه اجتماعيه عظيمه للإسلام، لأننا لو لاحظنا ما كان عليه العرب و المجتمع الجاهلى من عداوات و اختلافات و ما كان يكمن فى القلوب من أحقاد طويله عميقه و ما تراكم فيها من ضغائن مستحكمه، و كيف أن أقل شراره صغيره أو مسأله جزئيه كانت تكفى لتفجير الحروب، و اندلاع القتال فى ذلك المجتمع المشحون بالأحقاد، و خاصه بالنظر إلى تفشى الأميه و الجهل الملازم عاده للإصابه باللجاج و العناد و العصبيه، فإن أفرادا من هذا النوع من الصعب أن يتناسوا أبسط أمورهم فكيف بالأحداث الداميه الكبرى؟ و من هنا تتجلى أهميه المعجزه الاجتماعيه التى حققها الإسلام حيث و حد الصفوف، و ألف بين القلوب، و أنسى الأحقاد، تلك المعجزه التى أثبتت أن تحقيق مثل هذه الوحده و تأليف تلك القلوب المتنافره المتباغضه، و إيجاد أمه واحده متآخيه من ذلك

الشعب الممزق الجاهل ما كان ليتيسر في سنوات قليلة بالطرق و الوسائل العاديه.

### اعتراف العلماء و المؤرخين:

و قد كانت أهميه هذا الموضوع (أى وحده القبائل العربيه المتباغضه بفضل الإسلام) إلى درجه أنها لم تخف على العلماء و المؤرخين، حتى غير المسلمين منهم، فقد اتفق الجميع في الإعجاب بهذه المسأله، و إظهارها في كتاباتهم، و ها نحن نذكر نماذج من ذلك:

يقول «جان ديون پورت» العالم الإنجليزى المشهور: «لقد حول محمّد العربى البسيط، القبائل المتفرقه و الجائعه، الفقيره فى بلده إلى مجتمع متماسك منظم، امتازت، فيما بعد- بين جميع شعوب الأرض بصفات و أخلاق عظيمه و جديده، و استطاع فى أقل من ثلاثين عاما و بهذا الطريق أن يتغلب على الامبراطوريه الرومانيه، و يقضى على ملوك إيران، و يستولى على سوريا و بلاد ما بين النهرين، و تمتد فتوحاته إلى المحيط الأطلسى و شواطئ بحر الخزر و حتى نهر سيحان (فى جنوب شرقى آسيا الوسطى) (١).

و يقول توماس كارليل: «لقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور و أحيى به منها أمه خامله لا يسمع لها صوت و لا يحس فيها حركه حتى صار الخمول شهره، و الغموض نباهه، و الضعه رفعه، و الضعف قوه، و الشراره حريقا، و شمل نوره الأنحاء، و عم ضوءه الأرجاء و ما هو إلا قرن بعد إعلان هذا الدين حتى أصبح له قدم فى الهند، و أخرى فى الأندلس، و عم نوره و نبهه و هداه نصف المعموره» (٢).

ص: ٦٢٣

١-١) - من كتاب عذر تقصير به پیشگاه محمّد و قرآن (بالفارسيه) ص ٧٧.

٢-٢) - الإسلام و العلم الحديث ص ٣٣، و المخططات الاستعماريه لمكافحه الإسلام للصوف ص ٣٨.

و يقول الدكتور «غوستاف لوبون»: معترفاً بهذه الحقيقة: «...و إلى زمان وقوع هذه الحادثة المدهشه (يعنى الإسلام) الذى أبرز العربى فجأه فى لباس الفاتحين، و صانعى الفكر و الثقافه لم يكن يعد أن جزء من أرض الحجاز من التاريخ الحضارى و لا أنه كان يتراءى فيها للناظر أى شىء أو علامه للعلم و المعرفه، أو الدين» (١).

و يكتب «نهر» العالم و السياسى الهندى الراحل فى هذا الصدد قائلاً:

«إن قصه انتشار العرب فى آسيا و أوروبا و أفريقيا و الحضاره الراقية و المدنيه الزاهره التى قدموها للعالم أعجوبه من أعجوبات التاريخ، و لقد كان محمّد و اتقا بنفسه و رسالته، و قد هيا بهذه الثقه و هذا الإيمان لأمته أسباب القوّه و العزّه و المنعه» (٢).

لقد كان وضع العرب سيئاً إلى أبعد الحدود حتّى أن القرآن يصف تلك الحاله بأنهم كانوا على حافه الانهيار و السقوط إذ يقول: وَ كُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا .

و تعنى «شفا» فى اللغه حافه الهاويه و طرف الحفره أو الخندق و ما شابه ذلك، و من ذلك «الشفه»، كما و تستعمل لفظه «شفا» هذه فى البرء من المرض، لأن الإنسان بسببه يكون على حافه السلامه و العافيه.

و يريد سبحانه من قوله هذا: أنكم كنتم على حافه السقوط و الانهيار فى الهاويه، و أن سقوطكم كان محتملاً فى كلّ آن و متوقعا فى كلّ لحظه، لتصبحوا بعد السقوط رمادا، و خيرا بعد أثر، و لكن الله نجاكم من ذلك السقوط المرتقب، و أبدلكم بعد الخوف أمناً، و بدل الانهيار اعتلاء و مجداً، و هداكم إلى حيث الأمن

ص: ٦٢٤

١-١) - حضاره العرب لغوستاف لوبون.

٢-٢) - لمحات من تاريخ العالم ص ٢٣-٢٤.

و الأمان فى رحاب الأخوه و المحبه.

و النار فى هذه الآيه: هل هى نار الجحيم، أو نيران هذه الدنيا؟ فيها خلاف بين المفسرين، و لكن النظر فى مجموع الآيه يهدى إلى أن النار كناية عن نيران الحروب و المنازعات التى كانت تتأجج كل لحظة بين العرب فى العهد الجاهلى بحجج واهيه، و لأسباب طفيفه.

فإن القرآن يصور بهذه العبارة الوضع الجاهلى المتأزم و يصور أخطار الحروب المدمره التى كانت تتهدد حياه الناس فى كل لحظة بالفناء و الدمار و الانهيار، و ما من به الله سبحانه عليهم من النجاه و الخلاص من ذلك الوضع فى ظل الإسلام و بفضل تعاليمه، و الذى بسببه تخلّص المسلمون أيضا من نار جهنم، و عذابه الأليم.

و لمزيد من التأكيد على ضروره الاعتصام بحبل الله مع الإعتبار بالماضى و الحاضر، يختم سبحانه الآيه بقوله كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

إذن فالهدف الأساسى هو خلاصكم و نجاتكم و هدايتكم إلى سبل الأمن و السلام، و حيث إن فى ذلك مصلحتكم فإن عليكم أن تعيروا ما بيناه لكم مزيدا من الاهتمام، و مزيدا من العنايه.

### دور الاتحاد فى بقاء الأمم

رغم كل ما قيل عن أهميه الاتحاد و آثاره العظيمه فى التقدّم الاجتماعى عند الشعوب و الأمم فإن من الممكن القول و الادعاء بأن الآثار الواقعيه لهذه المسأله لا تزال مجهوله، و غير معروفه كما ينبغى.

إن العالم يشهد اليوم سدودا كثيره و كبيره أقيمت فى مختلف المناطق، و قد أصبحت منشأ لإنتاج أضخم القوى الصناعيه، فقد استطاعت هذه السدود بفضل ما



أنتجت من طاقات و حفظت من مياه كانت تذهب قبل ذلك هدرا، أن تغطي مساحات كبيره شاسعه بالرى و الإضاءه.

فلو أننا فكرنا قليلا لوجدنا أن هذه القوه العظيمه لم تنشأ إلا من تجمع القوى الصغيره، الجزئيه-أى تجمع قطرات المطر، و حبات الغيث الحقيقه-و من هنا تدرك أهميه اجتماع القوى البشريه و تلاحم الطاقات الإنسانيه، و تجمعها، و ما يرافقها من جهود جماعيه.

و لقد عبرت النصوص و الأحاديث المأثوره عن النبى الكريم و أهل بيته الطاهرين-عليهم صلوات الله أجمعين-عن أهميه الاتحاد و الاجتماع بعبارات متنوعه مختلفه.

فتاره

يقول النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» و شبك بين أصابعه (١).

و اخرى

يقول صلى الله عليه و آله و سلم «المؤمنون كالنفس الواحد» (٢).

و ثالثه

يقول صلى الله عليه و آله و سلم «مثل المؤمنين فى توادهم و تراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى بعضه تداعى سائره بالسهر و الحمى» (٣).

ص: ٦٢٦

---

١-١) -تفسير أبو الفتوح الرازى ج ٢ ص ٤٥٠ نقلا عن البخارى كتاب المظالم باب ٥.

٢-٢) -المصدر السابق.

٣-٣) -المصدر السابق.

اشاره

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)

التفسير

اشاره

الدعوة إلى الحقّ ومكافحه الفساد:

بعد الآيات السابقة التي حثت على الأخوة و الاتحاد جاءت الإشارة- في الآية الأولى من الآيتين الحاضرتين- إلى مسألة «الأمر بالمعروف» و«النهي عن المنكر» اللذين هما- في الحقيقة- بمثابة غطاء وقائي اجتماعي لحماية الجماعة و صيانتها، إذ تقول وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

لأن فقدان «الأمر بالمعروف» و«النهي عن المنكر» يفسح المجال للعوامل المعادية للوحدة الاجتماعية بأن تنخرها من الداخل، و تأتي على كلّ جذورها

كما تفعل الأرضه، و أن تمزق وحده الأممه و تفرق جمعها، و لهذا فلا بدّ من مراقبه مستمره و رعايه دائمه لهذه الوحده، و لا يتم ذلك إلا بالأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر.

و هذه الآيه تتضمن دستوراً أكيدا للأممه الإسلاميه بأن تقوم بهاتين الفريضتين دائماً، و أن تكون أمه أمره بالمعروف ناهيه عن المنكر أبداً لأن فلاحها رهن بذلك:

وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

يبقى أن نعرف أن «الأمه» مأخوذه لغه من «الأم» و هو كلّ ما انضم إليه الأشياء الأخرى، أو كلّ شيء ضم إليه سائر ما يليه، و الأممه كلّ جماعه يجمعهم أمر جامع إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد لهذا لا تطلق لفظه الأممه على الأفراد المتفرقين، و الأشخاص الذين لا يربطهم رباط واحد.

### سؤال

و هنا يطرح سؤال و هو: أن الظاهر من جمله «منكم أمه» هو جماعه من المسلمين لا- كافه المسلمين، و بهذا لا- يكون الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر واجبا عامًا، بل وظيفه دينيه تختص بفريق من المسلمين، و إن كان انتخاب هذا الفريق الخاص من مسئوليّه المسلمين جميعاً.

و بعباره أخرى أن جمله «منكم أمه» ظاهره في أن هذين الأمرين، واجبان كفائيان لا عينيان.

في حين أن آيات أخرى تفيد بأنهما عامان غير خاصين بجماعه دون أخرى، كما في آيه لا حقه و هي قوله سبحانه كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ .

أو ما جاء في سوره «العصر»:

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ فَإِنْ

الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر في هذه الآيات و ما شابهها عامه غير خاصه.

## و الجواب:

إن الإمعان في مجموعه هذه الآيات يوضح لنا الجواب، فإنه يستفاد منها أن «الأمر بالمعروف» و«النهي عن المنكر» مرحلتين: «المرحلة الفرديه» التي يجب على كل واحد القيام بها بمفرده، إذ يجب عليه أن يراقب تصرفات الآخرين، و«المرحلة الجماعيه» و هي التي تعتبر من مسئوليه الأمة بما هي أمه، حيث يجب عليها أن تقوم بمعالجه كل الاعوجاجات و الانحرافات الاجتماعيه، و تضع حدًا لها، بالتعاون بين أفرادها و أعضائها كافه.

و يعتبر القسم الأول من وظيفه الأفراد، فردا فردا، و حيث إن إمكانات الفرد و قدراته محدوده، و لذلك فإن إطار هذا القسم يتحدد بمقدار هذه الإمكانيات.

و أمّا القسم الثاني فإنه يعتبر واجبا كفاثيا، و حيث إنه من واجب الأمة بما هي أمه فإن حدوده يتسع و لهذا يكون من واجبات الحكومه الإسلاميه، و شؤونها بطبيعه الحال.

إن وجود هذين النوعين من مكافحه الفساد، و الدعوه إلى الحق يعتبران - بحق - من أهم التعاليم التي تتوج القوانين الإسلاميه، كما و يكشف عن سياسه تقسيم الواجبات و الوظائف و توزيع الأدوار في الدوله الإسلاميه، و عن لزوم تأسيس «فريق المراقبه» للنظاره على الأوضاع الاجتماعيه و المؤسسات المختلفه في النظام الإسلامى.

و قد جرت العاده فيما سبق بوجود أجهزه خاصه تقوم بمهمه الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر في المستوى الاجتماعى في البلاد الإسلاميه، و قد كانت تسمى هذه الأجهزه تاره باسم «دائرته الحسبه» و يسمى موظفوها بالمحتسبين، و تاره

باسم الآمرين بالمعروف،.و قد كانت هذه الأجهزة بسبب موظفيها تقوم بمكافحه كل فساد فى المجتمع،أو كل فساد و ظلم فى أجهزة الدوله،إلى جانب ما تقوم به من تشجيع الناس على الخير و الحث على المعروف.

و مع وجود مثل هذه الجماعه بما لها من القوه الواسعه لا يوجد أى تناف بين شمول فريضه الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر عليها و على الفرد بما له من القدره المحدوده.إذ يكون الأمر و النهى الواسعان من واجب الدوله الإسلاميه لا الفرد.

و حيث إن هذا البحث يعتبر من أهم الأبحاث القرآنيه و قد أشارت إليه آيات كثيره فى الكتاب العزيز لذلك يلزم أن نذكر أموراً فى هذا المجال:

١- ما هو «المعروف» و ما هو «المنكر»؟ «المعروف» هو كل ما يعرف و هو مشتق من عرف، و«المنكر» كل ما ينكر و هو مشتق من الإنكار، و بهذا النحو و صفت الأعمال الصالحه بأنها امور معروفه، و الأعمال السيئه و القبيحه امور منكره، لأن الفطره الإنسانيه الطاهره تعرف القسم الأول و تنكر القسم الثانى.

٢- هل الأمر بالمعروف واجب عقلى أو تعبدى؟ يعتقد جماعه من علماء المسلمين أن وجوب هاتين الفريضتين لم يثبت إلا بالدليل النقلى، و أن العقل لا يحكم بوجوب النهى عن منكر لا يتعدى ضرره إلى غير فاعله.

و لكن نظراً إلى العلاقات الاجتماعيه، و ما للمنكر من الآثار السيئه التى لا- تنحصر فى نقطه وقوعها، بل تتعداها إلى العلاقات الاجتماعيه إذ يمكن سرايه شرارته إلى كل نواحى المجتمع تتضح الأهميه العقليه لهاتين الوظيفتين.

و بعباره أخرى: ليس هناك فى المجتمع ما يكون «ضرراً فردياً» ينحصر

نطاقه على الفرد خاصة، بل كل ضرر فردى يمكن أن ينقلب إلى «ضرر اجتماعى» و لهذا يؤكد العقل و المنطق السليم لأفراد المجتمع بأن لا يألوا جهدا فى الإبقاء على سلامة البيئه الاجتماعيه و طهارتها من كل دنس.

و قد أشير إلى هذا فى بعض الأحاديث.

فعن النبى صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: «مثل القائم على حدود الله و المرهن فيها كمثل قوم استهتوا على سفينه فى البحر فأصاب بعضهم أعلاها و أصاب بعضهم أسفلها... فقال الذين فى أسفلها: إننا ننقها من أسفلها فتستقى، فإن أخذوا على أيدهم فمنعوهم نجوا جميعا، و إن تركوهم غرقوا جميعا» (١).

و لقد جسد النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم -بهذا المثال الرائع- موضوعيه الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و منطقيه هاتين الفريضتين بغض النظر عن أمر الشارع بهما، و بذلك قرر حق الفرد فى النظاره على المجتمع على أساس أنه حق طبيعى ناشئ من اتحاد المصائر فى المجتمع، و ارتباط بعضها ببعض.

٣- أهميه الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر هناك علاوه على الآيات القرآنيه الكثيره، أحاديث مستفيضه فى المصادر الإسلاميه المعتمره تتحدث عن أهميه هاتين الفريضتين الاجتماعيتين الكبيرتين، قد أشير فيها إلى العواقب الخطيره المترتبه على تجاهل و ترك هاتين الوظيفتين فى المجتمع، نذكر من باب المثال طائفه منها:

-١

عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فريضه عظيمه بها تقام الفرائض، و تأمن المذاهب، و تحل المكاسب، و ترد المظالم، و تعمر الأرض و ينتصف من الأعداء، و يستقيم الأمر» (٢).

ص: ٦٣١

١-١) -راجع سنن الترمذى: ج ٤ كتاب الفتن الباب ١٢ و مسند أحمد: ج ٤ ص ٢٦٨.

٢-٢) -وسائل الشيعه: ج ١١ كتاب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر ص ٣٩٥.

قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه، وخليفه رسول الله وخليفه كتابه» (١).

جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو على المنبر فقال: يا رسول الله من خير الناس؟ قال: «آمرهم بالمعروف، وأنهم عن المنكر وأتقاهم لله وأرضاهم» (٢).

في حديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لأمر بالمعروف، وتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم سلطانا ظالما لا يجلب كبيركم ولا يرحم صغيركم، وتدعو خياركم فلا يستجاب لهم، وتستنصرون فلا تنصرون، وتستغيثون فلا تغاثون، وتستغفرون فلا تغفرون» (٣).

هذه الأمور كلها هي الآثار الطبيعية لموقف المجتمع الذي يعطل هاتين الوظيفتين الاجتماعيتين العظيمتين، لأن ترك النظارة العامة على ما يجري في المجتمع يلازم خروج الأمور من قبضه الصالحين، والإفساح للأشرار بأن يتسلموا أزمه الأمور ومقدرات المجتمع ويحكموا فيه بأهوائهم، فيقع ما يقع من المآسى وتصاب الجماعة بما ذكره الحديث المتقدم من التبعات والمفاسد.

وما ذكر في الحديث من عدم قبول توبتهم أيضا لأنه لا معنى لقبول التوبة مع استمرارهم على السكوت اللهم إلا أن يعيدوا النظر في سلوكهم.

عن علي عليه السلام: «وما أعمال البر كلها والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفته في بحر لجي» (٤).

كل هذه التأكيدات هي لكون هاتين الوظيفتين العظيمتين خير ضمان لإجراء وتنفيذ بقيه الوظائف الفردية والاجتماعية، ولأنهما بمثابة الروح لها، فبتركهما

١- (١، ٢، ٣) - مجمع البيان في تفسير الآيه.

٢- (٤) - نهج البلاغه قصار الكلم، الكلمه رقم ٣٧٤.





تدرس كل الأحكام والقيم الأخلاقية و تفقد قيمتها و تختفى من حياه المجتمع.

٤-هل الأمر بالمعروف يوجب سلب الحريات؟ فى الإجابة على هذا السؤال لا بدّ من القول بأن النمط الجماعى للحياه و إن كان-بلا ريب-ينطوى على فوائد كثيره لأفراد البشر،بل إن هذه المزايا هى التى دفعت الإنسان ليختار الحياه الاجتماعيه،إلا أنه ينطوى فى مقابل ذلك على بعض التقييدات لحريات الأفراد،و لكن بما أن ضرر هذه التقييدات الجزئيه ضئيل تجاه الفوائد الجمه التى تنطوى عليها الحياه الاجتماعيه اختار الإنسان النمط الاجتماعى منذ الأيام الأولى من حياته على هذا الكوكب متحملاً كل التقييدات.

و حيث إن مصائر الأفراد ترتبط ببعضها فى الحياه الاجتماعيه،و يؤثر بعضها فى بعض بمعنى أن الجميع فى الحياه الاجتماعيه يشتركون فى مصير واحد،لذلك كان حقّ نظاره على تصرفات الآخرين و سلوكهم حقاً طبيعياً تقتضيه الحياه الجماعيه،كما جاء ذلك فى الحديث الرائع الذى نقلناه آنفا عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم فى هذا المجال.

و على هذا فإن الأمر بالمعروف لا- ينافى الحريات الفرديه فحسب،بل هو وظيفه كلّ فرد تجاه الفرد الآخر،لأن من شأنه الإبقاء على سلامه الآخرين و استقامه أمورهم،و من ثمّ سلامه الفرد نفسه و استقامه أمره.

٥-ألا- يلازم الأمر بالمعروف الفوضى الاجتماعيه؟ هناك سؤال آخر يطرح نفسه فى هذا المجال و هو إذا سمحنا للناس بأن يتدخلوا فى شؤون الآخرين و تكون لهم النظاره على أعمالهم و تصرفاتهم،فإن ذلك يوجب وقوع الفوضى فى المجتمع،إذ تحصل بسببه المصادمات بين الأفراد، و لأنه يخالف مبدأ توزيع الواجبات و المسؤوليات فى الحياه الاجتماعيه فما هو الجواب؟

فى الإجابة على هذا السؤال لا- بدّ من القول: بأن الأبحاث السابقة قد أوضحت أن لوظيفة الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر مرحلتين: المرحلة الأولى: و هى المرحلة العموميه، و هى ذات إطار محدود لا يتجاوز التذكير، و العظه، و الاعتراض، و النقد و ما شابه ذلك، و لا شكّ أن المجتمع إذا أراد أن يكون حيّا لا بدّ أن يشعر أفراده جميعا بمثل هذه المسؤوليه تجاه المفساد، و بمثل هذا الشعور تجاه المنكرات.

و أما المرحلة الثانيه التى تختص بجماعه معيّنه و خاصه، و تكون من شؤون الحكومه الإسلاميه فهى أوسع إطارا، و أكبر مسئوليه، و أكثر قوه، بمعنى أن الأمر إذا تطلب استخدام القوه، و حتى إجراء القصاص و إجراء الحدود كان من صلاحيات هذه الجماعه أن تقوم به تحت نظر الحاكم الشرعى، و مسئولى الحكومه الإسلاميه، و هذا القسم هو الذى يقع بسببه الهرج و المرج لو أنيط إلى كلّ من هب و دب، دون القسم الأول الذى لا يتجاوز النصح و التذكير، و الاعتراض و الإعراض.

إذن فبملاحظه المراحل المختلفه فى هذه الوظيفه الدينيه، و ما لكلّ واحده منها من الحدود و الأبعاد، فإن القيام بهذه الوظيفه لا يستوجب الهرج و المرج فى المجتمع، بل يخرج المجتمع من صورته الجماعه الميته الخامده، إلى صورته المجتمع الحى النابض، و الجماعه المتحركه الصاعده.

٦- الأمر بالمعروف غير العنف فى ختام هذا البحث لا بدّ من التذكير بهذه الحقيقه و هى أنّه لا بدّ فى القيام بهذه الفريضه الإلهيه الساميه و الدعوه إلى الحقّ و مكافحه الفساد من حسن النيه، و سلامه الهدف، و الشعور بالمسئوليه، كما يجب أن يتم بالطرق السلميه، و من هنا لا يمكن اعتباره عملا خشنا ملازما للعنف إلاّ فى بعض الموارد الضروريه.

بيد أن البعض-مع الأسف-يستخدم العنف و الخشونه لدى القيام بهذا الواجب المقدس فى غير الموارد الضروريه التى تستدعى مثل ذلك،و ربما توسل بالسب و الشتم، و لهذا نرى أن مثل هذه الممارسات لا تترك أثرا ايجابيا،بل تعطى فى الأغلب نتائجها العكسيه،و ثمارها السليبه،فى حين ترينا سيره الرسول الأ-كرم صلى الله عليه و آله و سلم و الأئمه الهداه من أهل بيته عليهم السلام غير ذلك،فهم كانوا يستعملون-فى هذه الوظيفه المقدسه-منتهى اللطف و المحبه،و غايه الأدب و الاتزان،و لهذا كانوا يؤثرون غايه التأثير،و يتركون أفضل النتائج حتى أنهم كانوا يطوعون بذلك النهج أعتى الأفراد،و أكثرهم عنادا و جفافا-.

جاء فى تفسير«المنار»فى معرض الحديث عن هذه الآيه: أن غلاما شابا أتى النبى صلى الله عليه و آله و سلم فقال:أ تأذن لى فى الزنا؟ فصاح الناس به فقال النبى صلى الله عليه و آله و سلم:قربوه ادن،فدنا حتى جلس بين يديه فقال النبى صلى الله عليه و آله و سلم أ تحبه لأمتك؟ قال لا،جعلنى الله فداءك.

قال:كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم،أ تحبه لابنتك؟ قال:لا،جعلنى الله فداءك.

قال:كذلك لا يحبونه لبناتهم،أ تحبه لأختك؟ قال:لا،جعلنى الله فداءك.

فوضع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يده-على صدره و قال:

«اللهم طهر قلبه،و اغفر ذنبه،و حصن فرجه».

فلم يكن شىء أبغض إليه من الزنا (1).

ص: ٦٣٥

و كان هذا هو الأثر الطبيعي للأسلوب اللين في النهى عن المنكر.

### الفرقه بعد الاتحاد من شيم النصارى و اليهود:

تقتضى أهميه الوحده أن يركز القرآن الكريم و يؤكد عليها مرّه بعد أخرى، و لذا يذكر بأهميه الاتحاد، و يحذر من تبعات الفرقة و النفاق و آثارها المشؤومه، بقوله **وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ .**

إن هذه الآيه تحذر المسلمين من أن يتبعوا-كالأقوام السابقه مثل اليهود و النصارى-سبيل الفرقة و الاختلاف بعد أن جاءتهم البيّنات و توحدت صفوفهم عليها، فيكسبوا بذلك العذاب الأليم.

إنه في الحقيقه يدعو المسلمين إلى أن يعتبروا بالماضى، و يتأملوا في حياه السابقين، و ما آلوا إليه من المصير المؤلم، بسبب الاختلاف و التشتت.

إنها لفته تاريخيه من شأنها أن توقفنا على ما ينتظر كلّ أمه من سوء العواقب إذا هي سلكت سبيل النفاق، و تفرقت بعد ما توحدت، و تشتتت بعد ما تجمعت.

إن إصرار القرآن الكريم في هذه الآيات على اجتناب الفرقة و النفاق إنما هو تلميح إلى أن هذا الأمر سيقع في المجتمع الإسلامى مستقبلا، لأن القرآن لم يحذّر من شيء أو يصر على شيء إلا و كان ذلك إشاره على وقوعه في المستقبل.

و لقد تنبأ الرسول الأكرم بهذه الحقيقه و أخبر المسلمين عنها، بصراحه إذ قال:

«إن أمه موسى افتترقت بعده على إحدى و سبعين فرقه، و افتترقت أمه عيسى بعده على اثنتين و سبعين فرقه، و أن أمتى ستفتترق بعدى على ثلاث و سبعين فرقه» (١).

ص: ٦٣٦

---

(١-١) -نقلت هذه الروايه بطرق مختلفه عن الشيعه و السنه و أما كتب الشيعه التى نقلت هذه الروايه فهى:

و الظاهر أن عدد(٧٠)إشاره إلى الكثره فهو عدد تكثيرى،لا- عدد إحصائي، فالروايه تعنى ان فرقه واحده فقط بين اليهود و النصرارى هى المحقّه الناجيه، و فرقا كثيره فى النار،و هكذا الحال فى المسلمين و ربّما يزداد عدد اختلافات المسلمين على ذلك.

و لذا أشار القرآن الكريم بما أخبر الرسول الأ-كرم صلى الله عليه و آله و سلّم أيضا إلى ما يقع بين المسلمين بعد وفاته من الاختلاف و الفرقة،و الخروج عن الطريق المستقيم الذى لا- يكون إلا- طريقا واحدا،و الانحراف عن جاده الحقّ فى العقائد الدينيه،بل و يذهب المسلمون-فى هذا الاختلاف-إلى حد تكفير بعضهم بعضا،و شهر السيوف،و التلاعن و التشاتم،و هدر النفوس،و استحلال الدماء و الأموال،بل و يبلغ الاختلاف بينهم أن يلجأ بعض المسلمين إلى الكفّار،و إلى مقاتله الأخ أخاه.

و بهذا تتبدل الوحده التى كانت من أسباب تفوق المسلمين السابقين و نجاحهم إلى النفاق و الاختلاف و التشرذم و التمزق،و تنقل حياتهم السعيده إلى حياه شقيه،و تحلّ الذله محلّ العزّه،و الضعف مكان القوه و تتبدد العظمه الساميه، و ينتهى المجد العظيم.

أجل إن الذين يسلكون سبيل الاختلاف بعد الوحده،و الفرقة بعد الاتحاد سيكون لهم عذاب أليم.

أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

إنّه ليس من شكّ فى أن نتيجه الاختلاف و الفرقة لن تكون سوى الذله و الانكسار،فذلك هو سر سقوط الأمم و ذلتها،إنه الاختلاف و التشتت،و النفاق و التدابر.

(١)

الخصال،و معانى الأخبار،و الإحتجاج،و أمالى الصدوق،و أصل سليم بن قيس،و تفسير العياشى،و أما الكتب السنيه فهى الدرّ المنثور،و جامع الأصول،و الملل و النحل.

ص: ٦٣٧

إن المجتمع الذى تحطمت وحدته بسبب الفرقة، و تفتت تماسكه بسبب الاختلاف، سيتعرض -لا محاله- لغزو الطامعين، و ستكون حياته عرضه لأطماع المستعمرين، بل و مسرحا لتجاوزاتهم، و ما أشد هذا العذاب، و ما أقسى هذه العاقبه؟ أجل تلك هى عاقبه النفاق و الاختلاف فى الدنيا.

و أما عذاب الآخرة فهو- كما وصفه الله تعالى فى القرآن الكريم- أشد و أحرى. فذلك هو ما ينتظر المفترقين المختلفين، و ذلك هو ما يجب أن يتوقعه كل من حذ النفاق على الاتفاق، و التدابر على التآلف، و التشتت على الاجتماع...

خزى فى الدنيا، و عذاب أخزى فى الآخرة.

ص: ٦٣٨

اشاره

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا  
الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)

التفسير

اشاره

الوجوه المبيضة و الوجوه المسوده:

في تعقيب التحذيرات القويه التي تضمنتها الآيات السابقه بشأن التفرقه و النفاق و العوده إلى عادات الكفر و نعرات الجاهليه، جاءت الآيتان الحاضرتان تشيران إلى النتائج النهائيه لهذا الارتداد المشؤوم إلى خلق الجاهليه و عاداتها، و تصرحان بأن الكفر و النفاق و التنازع و العوده إلى الجاهليه توجب سواد الوجه، فيما يوجب الثبات على طريق الإيمان و الاتحاد، و المحبه و التآلف، بياض الوجوه، فتقول يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ففي يوم القيامة تجد بعض الناس و جوههم مظلمه سوداء، و البعض الآخر و جوههم نقيه بياض و نورانيه فَأَمَّا

الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ

فلما ذا اخترتم طريق النفاق و الفرقة و الجاهليه على الاتحاد فى ظلّ الإسلام، فذوقوا جزاءكم العادل، و أما المؤمنون فغارقون فى رحمته الله و أما الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

إن هاتين الآيتين تصرحان بأن المنافقين و المتفرقين بعد ما جاءتهم البينات هم المسوده و جوههم الذائقون للعذاب الأليم بسبب كفرهم، و أما المؤمنون المتآلفون المتحابون المتحدون فهم فى رحمه الله و رضوانه مبيضه و جوههم.

و لقد قلنا مرارا أن ما يلاقيه الإنسان من الأوضاع و الحالات، و من الثواب و العقاب فى الحياه الآخره ليس فى الحقيقه سوى أفكاره و أعماله و تصرفاته المجسمه التى قام بها فى هذه الحياه الدنيا، فهما و جهان لعمله واحده، إنه تجسم صادق و دقيق لما كان ينويه أو يعمله هنا ليس إلا.

و بعبارة أخرى: أن لكل ما يفعله الإنسان فى هذه الحياه آثارا و اسعه تبقى فى روحه، و قد لا تدرك فى هذه الحياه، و لكنها تتجلى -بعد سلسله من التحولات- فى الآخره، فتظهر بحقائقها الواقعيه، و حيث إن جانب الروح يكون أقوى فى الآخره، إذ تشتد حاكميتها و سيادتها على الجانب الآخر من الكيان البشرى من هنا يكون لتلك الآثار انعكاساتها حتى على الجسد، فتبدو الآثار المعنويه للأعمال محسوسه كما يكون الجسد محسوسا لكل أحد.

فكما ان الإيمان و الاتحاد يوجبان الرفعه و بياض الوجوه فى هذا العالم، و يوجب العكس العكس، أى أن الكفر و الاختلاف يوجبان للأمه الكافره المتفرقه سواد الوجه و الذله، فإن هذا البياض و السواد (المجازيين) فى الدنيا يظهران فى الآخره بصوره حقيقه حيث يحشر المؤمنون المتحدون المتآلفون بيض الوجوه،



بينما يحشر الكافرون المتفرون المتخاصمون سود الوجوه.

و تلك حقيقه أشارت إليها آيات اخرى فى القرآن الكريم فى شأن من يتمادى فى المعصيه و يأتى بالذنب تلو الذنب، و الإثم بعد الإثم إذ يقول سبحانه: كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا (١).

و يقول فى شأن الذين يفترون على الله الكذب وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ (٢).

و كل هذه الأمور هى المردودات و الآثار الطبيعى لما يأتى الإنسان فى عالم الدنيا من الأعمال.

ص: ٦٤١

---

١-١) - يونس: ٢٧.

٢-٢) - الزمر: ٦٠.

إشاره

تَلَمَّكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتَلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩)

التفسير

هذه الآيه إشاره إلى ما تعرضت الآيات السابقه له حول الإيمان و الكفر، و الإتحاد، و الاختلاف، و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و آثارها و عواقبها، إذ تقول: تَلَمَّكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتَلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ فكل هذه الآيات تحذيرات عن تلك العواقب السيئه التي تترتب على أفعال الناس أنفسهم وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ و إنما هي آثار سيئه يجنيها الناس بأيديهم.

و يدل على ذلك أن الله لا يحتاج إلى ظلم أحد، كيف و هو القوى المالك لكل شيء و إنما يحتاج إلى الظلم الضعيف، و إلى هذا يشير قوله سبحانه وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

فالآيه- في الحقيقة- تشتمل على دليلين على عدم صدور الظلم منه سبحانه:

الأول: إن الله مالك الوجود كله فله ما في السماوات و ما في الأرض، فلا

معنى للظلم ولا موجب له عنده، وإنما يظلم الآخرين و يعتدى عليهم من يفقد شيئاً، و إلى هذا يشير المقطع الأول من الآية و هو قوله تعالى: **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** .

الثانى: إن الظلم يمكن صدوره ممن تقع الأمور دون إرادته و رضاه، أما من ترجع إليه الأمور جميعاً، و ليس لأحد أن يعمل شيئاً بدون إذنه فلا يمكن صدور الظلم منه، و إلى هذا يشير قوله سبحانه: **وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ** .

ص: ٦٤٣

اشاره

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلدَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ  
الْمُؤْمِنُونَ وَ أَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)

التفسير

اشاره

مكافحه الفساد و الدعوه إلى الحق أيضا:

في هذه الآيه تطرح مرّه أخرى مسأله «الأمر بالمعروف» و«النهي عن المنكر»، و تعتبر الآيه الحاضره هاتين المسألتين واجبين عموميين كما مرّ في تفسير الآيه (١٠٤)، بينما تبين الآيه السابقه مرحله خاصه، و هي مرحله الوجوب الكفائي أى الخاصّ بجماعه معينه، كما مرّ تفصيله.

فالآيه السابقه تشير إلى القسم الخاصّ، و هذه الآيه تشير إلى القسم العام من هاتين الفريضتين.

و الجدير بالذكر أن القرآن الكريم يصف المسلمين في هذه الآيه- بأنهم خير أمه هيئت و عبثت لخدمه المجتمع الإنساني، و الدليل على أن هذه الأمه خير أمه

رشحت لهذه المهمة الكبرى هو «قيامها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإيمانها بالله» وهذا يفيد أن إصلاح المجتمع البشرى لا يمكن بدون الإيمان بالله و الدعوه إلى الحق، ومكافحه الفساد، كما و يستفاد من ذلك أن هاتين الوظيفتين مع ما هما عليه من السعه فى الإسلام ممّا تفرد بهما هذا الدين من دون بقية الشرائع السابقه.

أما لماذا يجب أن تكون هذه الأمه خير الأمم، فسببه واضح كذلك. لأنها تختص بآخر الأديان الإلهيه و الشرائع السماويه، و لا شك أن هذا يقتضى أن يكون أكمل الشرائع و أتمها فى سلم الأديان.

### وقفان عند هذه الآيه:

ثم إنه يتعين علينا أن ننتبه إلى نقطتين أخريين فى هذه الآيه و هما:

الأولى: التعبير بلفظ الماضى «كنتم» يعنى أنكم كنتم كذلك فى السابق، و مفهوم هذا التعبير و إن كان موضع احتمالات كثيره بين المفسرين، إلا أن ما يترجح عند النظر هو أن التعبير بالماضى إنما هو لأجل التأكيد، و التلويح بأن الشىء محقق الوقوع، و لذلك نظائر كثيره فى الكتاب العزيز حيث عبّر عن القضايا المحققه الوقوع بصيغه الفعل الماضى، لإفاده أن ذلك ممّا يقع حتما حتى أنه نزل منزله الماضى الذى قد تحقق فعلا.

الثانيه: أن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر قدّما- فى هذه الآيه- على الإيمان بالله، و ذلك خير شاهد على أهميه هاتين الفريضتين الإلهيتين - و خطورتهم- مضافا إلى أن القيام بهذين الواجبين المقدسين ممّا يوجب انتشار الإيمان، و اتساع رقعته، و تعميق جذوره فى النفوس، و تنفيذ كلّ القوانين الفرديه و الاجتماعيه، و لا ريب أن ما يضمن تنفيذ القانون و تطبيقه مقدّم على نفس القانون.

بل إن تعطيل هذين الواجبين يوجب ضعف العقائد في القلوب، وانهيار قواعد الإيمان في النفوس، و لهذا كله كان طبيعياً أن يقدم على الإيمان.

من هذا البيان يتضح أن المسلمين «خير أمه» ما داموا يدعون إلى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر، فإذا نسوا هاتين الفريضتين و أهملوهما لم يعودوا خير أمه، كما لم يعودوا في خدمه المجتمع البشرى أبداً.

على أن المخاطب في هذه الآيه هم عموم المسلمين في جميع العصور كما هو الحال في كل الخطابات القرآنيه، فما احتمله البعض من أنه خاص بالمهاجرين أو المسلمين الأوائل لا دليل عليه، بل الدليل على خلافه.

ثم إن الآيه تشير إلى أن ديننا يمثل هذا الوضوح، و تشريعاً يمثل هذه العظمه، و تعاليم تنطوي على مثل هذه الفوائد التي لا تنكر، ينبغي أن يؤمن به أهل الكتاب من اليهود و النصارى لأن في ذلك صلاحهم، و خيرهم إذ يقول سبحانه: **وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ**.

و لكن -و للأسف- لم يؤمن به إلا -قله ممن نبذ التعصب الأعمى، و اعتنق الإسلام برغبه صادقه، و استقبل هذا الدين برحابه صدر، فيما أعرض الأكثرون منهم، و فضلوا البقاء على ما هم عليه من الكفر و العصبية على إتباع هذا الأمر الإلهي، متجاهلين حتى تلك البشائر التي نطقت بها كتبهم حول هذا الدين و إلى هذا يشير سبحانه بقوله **مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَ أَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ** الخارجون عن هذا الأمر الإلهي.

اشاره

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُواكُمْ أَلَدَّبَارَ ثُمَّ لَا يُنصِرُونَ (١١١) ضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ أَيْنَ مَا تَقَفُوا إِلَّا بِحِجْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حِجْلٍ مِنَ النَّاسِ وَ بِأَوْ بَغْضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ ضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الْمَسِيكَةَ ذَلِكَ بَأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)

سبب النزول

عند ما أقدم بعض ذوى الضمائر المستيقظه من كبار اليهود مثل عبد الله ابن سلام على ترك دينهم و اعتناق الإسلام عمد جمع من رؤوس اليهود إليهم و أنبؤهم لإسلامهم، بل و هددوهم لتركهم دين الآباء، و اعتناق الإسلام، فنزلت هذه الآيات لتثبتهم، و تبشيرهم و تبشير المسلمين بالظفر.

التفسير

اشاره

تبشر الآيه الأولى المسلمين الذين يواجهون ضغوطا شديده و تهديدات

أحيانا من جانب قومهم الكافرين بسبب اعتناق الإسلام، تبشرهم و تعدهم بأنهم منصورون، و أن أهل الكتاب لا يقدرّون عليهم و لا- تنالهم من جهتهم مضره، و أن ما سيلحقهم من الأذى من جانبهم لن يكون إلا- طفيفا و عابرا: لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَ إِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوكُمُ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ .

إن هاتين الآيتين تحتويان-في الحقيقة-على عدّه أخبار غيبية، و بشائر مهمه للمسلمين قد تحقق جميعها في زمن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلّم و حياته الشريفه و هي:

١- إن أهل الكتاب لا يقدرّون على إلحاق أى ضرر مهم بالمسلمين، و أن ما يلحقونه بهم لن يكون إلا أضرارا بسيطه، و عابره لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى .

٢- إنهم لن يثبتوا-في القتال-أمام المسلمين، بل ينهزمون و يكون الظفر للمسلمين، و لا يجدون ناصرا و لا معينا: وَ إِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوكُمُ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ .

٣- إنهم لن يستطيعوا الوقوف على أقدامهم و لن يتمكنوا من العيش مستقلين، بل سيقون أذلاء دائما، إلا أن يعيدوا النظر في سلوكهم، و يسلكوا طريق الله، أو أن يعتمدوا على الآخرين و يستعينوا بقوتهم إلى حين: ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَنْ مَاتُوا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ .

و لم يمض على هذه الوعود الإلهيه و البشائر المساويه زمن حتّى تحققت برمتها في حياه الرسول صلى الله عليه و آله و سلّم و خاصّه بالنسبه إلى اليهود القاطنين في الحجاز (بنى قريظه، و بنى النضير، و بنى قينقاع، و يهود خيبر و بنى المصطلق)الذين آل أمرهم إلى الهزيمه في جميع ميادين القتال و الاندحار أمام القوى الإسلاميه بعد أن اقترفوا سلسله من التحرشات و المؤامرات ضد الإسلام و المسلمين.



إن الآيات المذكوره و إن لم تصرح باسم اليهود و لكن بقريته القرائن الموجوده فى هذه الآيه و الآيات السابقه و كذا بقريته الآيه ٦١ من سورہ البقره و نظائرها مما صرح فيه باسم اليهود يستفاد أن قوله تعالى: ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقُّوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ يَرْتَبُطُ بِالْيَهُودِ، و يعينهم.

ففى هذا المقطع من الآيه يقول سبحانه: أن أمام اليهود طريقين يستطيعون بهما أن يتخلصوا من لباس الذله:

إما أن يعودوا إلى الله، و يعقدوا حبلهم بحبله، و إما أن يتمسكوا بحبل من الناس، و يعتمدوا على هذا و ذاك، و يعيشوا ذيو لا و أتباعا للآخرين.

و تعنى لفظه «ثقفوا» المأخوذه من «ثقف» على وزن «سقف». الحذق فى إدراك الشىء، و الظفر به بمهاره.

و يقصد القرآن من ذلك: أن اليهود أينما وجدوا فإنهم يوجدون و قد ختموا بخاتم الذله على جباههم مهما حاولوا إخفاء ذلك - و كان ذلك هى الصفه البارزه لهم بسبب مواقفهم المشينه من تعاليم السماء، و رسالات الأنبياء العظام، إلا إذا عادوا إلى منهج السماء، أو استعانوا بهذا أو ذاك من الناس لتخليصهم من هذا الذل.

و إنقاذهم من هذا الهوان.

و أما التعبير بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ و إن ذهب المفسرون فيه إلى احتمالات عديده، بيد أن ما قد ذكر قريبا يمكن أن يقال بأنه أنسب إلى الآيه من بقيه الاحتمالات، لأنه عند ما يوضع «حبل الله» فى قبال «حبل من الناس» يتبين أن هناك معنى متقابلا متفاوتا لهما لا أن الأول بمعنى الإيمان بالله، و الثانى بمعنى العهد المعطى لهم من جانب المسلمين على وجه الأمان و الذمه.

و على هذا تكون خلاصه المفهوم من هذه الآيه هي: إن على اليهود أن يعيدوا النظر فى برنامج حياتهم، و يعودوا إلى الله، و يمسخوا عن أدمغتهم كل الأفكار الشيطانيه، و كل النوايا الشريره، و يطرحوا النفاق و البغضاء للمسلمين جانبا، أو أن يستمروا فى حياتهم النكده المزيجه بالنفاق، مستعينين بهذا أو ذاك. فأما الإيمان بالله و الدخول تحت مظله و فى حصنه الحصين، و أما الاعتماد على معونه الناس الواهيه. و الاستمرار فى الحياه التعسه.

### اليهود و المسكنه الدائمه:

لقد كان أمام اليهود طريقان: إما أن يعودوا إلى منهج الله، و إما أن يبقوا على سلوكهم فيعيشوا أذلاء ما داموا، و لكنهم اختاروا الثانى و لهذا لزمتهم الذله و **بِأُوْبِعَضِبِ مِنَ اللَّهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ** .

و لفظه «باءوا» تعنى فى الأصل المراجعه و اتخاذ السكنى، و قد استخدمت هنا للكنايه عن الاستحقاق فيكون المعنى: أن اليهود بسبب إقامتهم على المعاصى استحقوا الجزاء الإلهى، و اختاروا غضب الله كما يختار الإنسان مسكنا و منزلا للإقامه.

و أما لفظه «مسكنه» فتعنى الذله و الانقطاع الشديد الذى لا تكون معه حيله أبدا، و هى مأخوذه من السكون أصلا، لأن المساكين لشده ما بهم من الفقر و الضعف لا يقدرّون على أيه حركه، بل هم سكون و جمود.

ثم إنه لا بدّ من الالتفات إلى أن المسكين لا يعنى المحتاج و المعدم من الناحيه الماليه خاصه، بل يشمل هذا الوصف كلّ من عدم الحيله و القدره على جميع الأصعده، فيدخل فيه كلّ ضعف و عجز و افتقار شديد.

و يرى البعض أن الفرق بين الذله و المسكنه هو أن الذله ما كان مفروضاً على الإنسان من غيره، بينما تكون المسكنه ناشئه من عقده الحقاره و ازدراء الذات، أى أن المسكين هو من يستهين بشخصيته و مواهبه و ذاته، فتكون المسكنه نابعه من داخله، بينما تكون الذله مفروضه من الخارج.

و على هذا الأساس يكون مفاد قوله تعالى وَبِأُوْغُظِّبِ مِنَ اللّٰهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسِيْكَةُ هو: أن اليهود بسبب إقامتهم على المعاصى و تماديهم فى الذنوب أصيبوا بأمرين: أولاً: طردوا من جانب المجتمع و حل عليهم غضب الله سبحانه، و ثانياً: إن هذه الحاله «أى الذله» أصبحت تدريجاً صفة ذاتيه لازمه لهم حتى أنهم رغم كل ما يملكون من امكانيات و قدرات ماليه و سياسيه، يشعرون بحقاره ذاتيه، و صغار باطنى، و لهذا لا نجد أى استثناء فى ذيل هذه الجملة من الآيه.

و هذا هو ما يشير إليه قوله سبحانه إذ يقول: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّٰهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ و بذلك يشير سبحانه إلى عله هذا المصير الأسود الذى يلازم اليهود، و لا يفارقهم.

إنهم لم يصابوا بما أصيبوا به من ذله و مسكنه، و حقاره و صغار لأسباب قوميه عنصرية أو ما شابه ذلك، بل لما كانوا يرتكبونه من الأعمال فهم:

أولاً: كانوا ينكرون آيات الله و يكذبون بها.

ثانياً: يصرون على قتل الأنبياء الهداه الذين ما كانوا يريدون سوى إنقاذ الناس من الجهل و الخرافه، و تخليصهم من الشقاء و العناء.

ثالثاً: إنهم كانوا يرتكبون كل فعل قبيح، و يقتربون كل جريمه نكراء، و يمارسون كل ظلم فظيع، و تجاوز على حقوق الآخرين، و لا شك أن أى قوم يرتكبون مثل هذه الأمور يصابون بمثل ما أصيب به اليهود، و يستحقون ما

استحقوه من العذاب الأليم و المصير الأسود.

### مصير اليهود المظلم:

إن التاريخ اليهودى الزاخر بالأحداث و الوقائع يؤيد ما ذكرته الآيات السابقة تأييدا كاملا، كما أن وضعهم الحاضر هو الآخر خير دليل على هذه الحقيقة، أى أن الذلة اللازمه لليهود و الصغار الملتصق بهم أينما حلوا و نزلوا، ليس حكما تشريعا كما قال بعض المفسيّرين، بل هو قضاء تكوينى، و هو حكم التاريخ الصارم الذى يقضى بأن يلازم الذلة، و يصاب بالصغار كل قوم يتمادون فى الطغيان، و يغرقون فى الآثام، و يتجاوزون على حقوق الآخرين و حدودهم، و يسعون فى إبادة القاده المصلحين و الهداه المنقذين، إلا أن يعيد هؤلاء القوم النظر فى سلوكهم، و يغيروا منهجهم و طريقتهم، و يرجعوا و يعودوا إلى الله، أو يربطوا مصيرهم بالآخرين ليعيشوا بعض الأيام فى ظل هذا أو ذاك كما هى حال الصهيونيه اليوم.

فإن الصهيونيه التى تعادى المسلمين اليوم و تحارب الإسلام نجدها لا تستطيع الوقوف أمام الأخطار التى تهددها إلا بالاعتماد على الآخرين، و حمايتهم رغم كل ما تملك من الثروات و القدرات الذاتيه، و كل هذا يؤكد و يؤيد ما ذكرته هذه الآيات و ما يستفاد منها من الحقائق، و لا شك أن هذا الوضع سيستمر بالنسبه إلى اليهود إلا- إذا تخلوا عن سلوكهم العدوانى و أعادوا الحقوق إلى أهلها، و عاشوا إلى جانب الآخرين على أساس من الوفاق لا الغضب و العدوان و الاحتلال.

ص: ٦٥٢

اشاره

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنْاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْتَفْهِمُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)

سبب النزول

يقال: لما أسلم «عبد الله بن سلام» وهو من علماء اليهود وجماعه منهم، انزعجت اليهود، وبخاصه أحبارهم من هذا الحادث، و صاروا بصدد اتهامهم بالخيانة، و عيبهم بالشر فقال أحبارهم: «ما آمن بمحمد إلا شرارنا» و هم بذلك يهدفون إلى إسقاطهم من أعين اليهود حتى لا يقتدى بهم الآخرون. فنزلت الآيات أعلاه للدفاع عن هذه الفئة المؤمنه.

التفسير

اشاره

الإسلام و خصيصه البحث عن الحق:

بعد كل ذلك الذم لليهود،الذى تضمنته الآيات السابقه بسبب مواقفهم المشينه

و أفعالهم الذميمة نجد القرآن- كما هو شأنه دائما- يراعى جانب العدل و الإنصاف، فيحترم كل من تنزه عن ذلك السلوك الذميمة الذى سار عليه اليهود، و يعلن بصراحه أنه لا- يعمم ذلك الحكم، و إنه لا- يمكن النظر إلى الجميع بنظره واحده دون التفريق بين من أقام على تلك الفعال، و بين من غادرها و طلب الحق، و لهذا يقول:

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْجُدُونَ

(١)

أجل ليس أهل الكتاب سواء، فهناك جماعه تطيع الله و تخافه، و تؤمن به و تهابه، و تؤمن بالآخره و تعمل لها، و تقوم بواجب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر.

و بهذا يتورع القرآن الكريم عن إدانه العنصر اليهودى كافه، بل يركز على أفعالهم و أعمالهم و ممارساتهم، و يحترم و يمدح كل من انفصل عن أكثريتهم الفاسده، و خضع للحق و الإيمان، و هذا هو أسلوب الإسلام الذى لا يعادى أحدا على أساس اللون و العنصر، بل إنما يعاديه على أساس اعتقادى محض، و يكافحه إذا كانت أعماله لا تنطبق مع الحق و العدل و الخير، لا غير.

ثم إنه يستفاد من بعض الأحاديث أن الممدوحين فى هذه الآيه لم ينحصروا فى «عبد الله بن سلام» و جماعته الذين أسلموا معه، بل شمل هذا المدح (٤٠) من نصارى نجران و (٣٢) من نصارى الحبشه و (٨) أشخاص من أهل الروم كانوا قد أسلموا قبل ذلك، و يدل على ذلك أن الآيه استخدمت لفظه «أهل الكتاب» و هو كما نعرف تعبير يعم اليهود و غيرهم.

ثم إنه سبحانه قال: **وَ مَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ** معقبا بذلك على العبارات السابقه و مكملا للآيه، و يعنى بقوله أن هؤلاء الذين أسلموا و اتخذوا

ص: ٦٥٤

١- ١) -الآناء جمع أنا(على وزن وفا) و أنا(على وزن غنا)بمعنى الأوقات.

مواقعهم فى صفوف المتقين لن يضيع الله لهم عملا، و إن كانوا قد ارتكبوا فى سابق حالهم ما ارتكبه من الآثام، و ما اقترفوه من المعاصى، ذلك لأنهم قد أعادوا النظر فى سلوكهم و أصلحوا مسارهم، و غيروا موقفهم.

و المراد من كلمه «الكفر» هنا هو ما يقابل الشكر، لأن الشكر يعنى أصلا الاعتراف بالنعمة و الجميل، و الكفر يعنى إنكار ذلك، فيكون المراد فى هذه الآيه هو أن الله لن ينكر أعمالهم الصالحه، و لن يتنكر لها.

□  
كيف وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ وَ كأن هذه العبارة التى يختم بها سبحانه الآيه الحاضره تشير إلى حقيقه من الحقائق الهامه و هى: أن المتقين و إن كانوا قله قليله فى الأغلب، و خاصه فى جماعه اليهود الذين عاصروا النبى صلى الله عليه و آله و سلم حيث كان المسلمون المهتدون منهم قله ضعيفه، و من شأن ذلك أن لا تلفت كميتهم النظر، و لكنهم مع ذلك يعلمهم الله بعلمه الذى لا يعزب عنه شىء، فلا موجب للقلق، و لا داعى للاضطراب ما دام سبحانه يعلم بالمتقين على قلتهم، و يعلم بأعمالهم، فلا يضيعها أبدا قليه كانت أو كثيره.

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)

التفسير

اشاره

في مقابل العناصر التي تبحث عن الحق، و تؤمن به من الذين وصفتهم الآيه السابقه، هناك عناصر كافره ظالمه و صفهم الله سبحانه في هاتين الآيتين بقوله:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا

لأنه لا ينفع في الآخره سوى العمل الصالح و الإيمان الخالص لا الامتيازات الماديه، في هذه الحياه: يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (١).

يبقى أن نعرف لما ذا أشير في هذه الآيه إلى الثروه و الأولاد من بين بقيه

ص: ٦٥٦



الإمكانات؟ وجه ذلك أن أهم الإمكانيات الماديه تنحصر فى أمرين:

الأول: الطاقه البشريه و قد ذكرت الأولاد كأفضل نموذج لها.

الثانى: الثروه الاقتصاديه.

و أما بقيه الإمكانيات الماديه الاخرى فتتفرع من هاتين.

إن القرآن ينادى بصراحه بأن الامتيازات المالىه و القدره البشريه الجماعيه لا تعد امتيازاً فى ميزان الله، و أن الاعتماد عليها وحدها هو الخطأ الجسيم إلا إذا قرنت بالإيمان و العمل الصالح، و استخدمت فى سبيلهما، و إلا فستؤول بأصحابها إلى الجحيم و عذابها الخالد. **أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .**

و لما كان الكلام عن الثروه و المال كان لا بدّ من الإشاره إلى مسأله الإنفاق فيقول سبحانه: **مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ .**

و«الصِرٌّ» مأخوذ من «الإصرار» لغه، و تعنى الشد بقوّه و شدّه، و المراد بها هنا هى الريح الشديده سواء كانت مصحوبه بالبرد القارص، أو الحر اللافتح.

### إنفاق الكفار:

و فى هذه الآيه إشاره إلى كيفيه إنفاق الكفار و بذلهم المصحوب بالرياء، ضمن إعطاء مثل رائع يجسد مصير هذا الإنفاق و البذل، و يصوره فى أبلغ تصوير.

القرآن يمثّل إنفاق الكفار بالريح الشديده الباردة أو اللافتحه جدّاً التى إذا هبت على الزرع لا تبقى منه شيئاً و لا تذر، بل تترك الزرع حطاماً و الأرض بلاقع.

إنه لا- شكّ أن النسائم الخفيفه تنعش الزرع و تحيى الطبيعه، فنسائم الربيع تفتح الأزهار، و تصب فى عروق الأشجار و النباتات روحاً جديده و حياه و نشاطاً، و تساعد على لقاحها، و كذلك يكون الإنفاق الصحيح و البذل الذى ينبع

من الإخلاص و الإيمان. إنه يعالج مشاكل المجتمع كما يكون له أثر حسن و عميق فى نفس الباذل المنفق، لأنه يرسخ فيها السجايا الإنسانية و يعمق مشاعر العطف و اللطف و الرفق و الحبّ بما يستشعره من آثار إيجابيه لإنفاقه، و بما يسببه الإنفاق فى رفع الآلام الاجتماعيه، و توفير السعاده للآخرين.

أما إذا تبدلت هذه النسائم الرقيقه إلى رياح عاصفه لافحه، أو زوبعه شديده البروده، فسوف تؤدى إلى إحراق جميع النباتات و الأزهار أو تجميدها.

و هذا هو حال غير المؤمن فى إنفاقه، فإنه لا ينفق ماله بدافع صحيح، بل ينفقه رياء و سمعه و أهواء و أهداف شريره، و بذلك يكون كالرياح العاتيه، اللافحه أو الباردة، تأتي على كلّ ما أنفقه كما تأتي على الزرع، فتصيبه بالجفاف و الفناء، و الدمار و الهلاك.

إن مثل هذا الإنفاق لا يعالج أيه مشكله اجتماعيه (لأنه صرف للمال فى غير محله فى الأغلب) كما لا ينطوى على أى أثر أخلاقى و نفسى للمنفق الباذل.

و الذى يلفت النظر أن القرآن الكريم يقول فى هذه الآيه حَرَتْ قَوْمٌ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ و هو يشير إلى أن هؤلاء المزارعين تعرضوا لما تعرضوا له لأنهم تساهلوا فى إختيار مكان الزرع و زمانه، و لأنهم زرعوا فى أرض معرضه للرياح الشديده، أو أنهم اختاروا للزرع وقتا يكثر فيه هبوب رياح السموم، و بهذا ظلموا أنفسهم، و كذلك حال غير المؤمن فى إنفاقه، فإنه ظلم نفسه بإنفاقه غير الصحيح و غير المناسب من حيث الزمان و المكان و الهدف، و بهذا عرض أمواله و ثرواته للرياح.

من كلّ ما أشرنا إليه، و بملاحظه القرائن الموجوده فى الآيه تبين أن هذا التمثيل لإنفاق الكفّار بالزرع الذى أهلكته الرياح العاصفه تمثيل به من ناحيتين:

الأولى: تشبيه لإنفاق الكافر بالزرع فى غير محله و موسمه المناسب.

الثانيه: تشبيه لنواياه و أهدافه من الإنفاق بالرياح العاصفه الباردة أو

السموم، و لهذا فإن المقام لا يخلو عن تقدير شىء محذوف و أن معنى قوله: **مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ** أن مثل نوايا الكافر فى الإنفاق مثل الرياح الباردة أو السموم التى تهب على الزرع فتفنيه.

قال جماعه من المفسرين: إن هذه الآيه إشاره إلى الأموال التى يستخدمها الكفار للإيقاع بالإسلام و صد حركته، و التى يحركون بها الأعداء ضد النبى الكريم صلى الله عليه و آله و سلم. أو الأموال التى يعطيها اليهود لأخبارهم ليحرفوا آيات الله عن مواضعها و يزيّدوا أو ينقصوا فى الكتب السماويه.

و لكن من الواضح جدّا أن هذه الآيه تنطوى على معنى واسع يشمل هذا الرأى و غيره.

ثم إنه سبحانه يعقب على ما قال بشأن إنفاق الكفار الذى لا يعود عليهم إلا بالوبال و الويل بقوله: **وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ**.

أجل، إن العمل الفاسد لا يجر على صاحبه إلا النتيجة الفاسده، فما يحصده الكفار من إنفاقهم من الوبال و البطلان، إنما هو بسبب نواياهم الباطله الفاسده من هذا الإنفاق.

إشارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مَنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونُكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ  
أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا  
آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بِعَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَ  
إِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)

سبب النزول

عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت عند ما أقدم بعض المسلمين -بسبب ما كان بينهم وبين اليهود من الصداقه أو القرابه أو الجوار أو الحلف أو الرضاع- على

ذكر أسرار المسلمين عندهم، وبهذا كان اليهود الذين يتظاهرون بالموودة للمسلمين - وهم ألد أعداء الإسلام في باطنهم - يطلعون على أسرار المسلمين، فنزلت هذه الآيات تحذر أولئك الرجال من المسلمين من مغبه هذه الصداقات والعلاقات، و توصيهم بأن لا يتخذوا اليهود بطانه يسرون إليهم بأسرارهم، لأنهم لا يتورعون عن استخدام كل وسيلة ممكنه - حتى هذه الأسرار - لإلحاق الأذى والضرر بكم، لأنهم يهملهم - دائما - أن تكونوا في نصب و تعب و محن و مشاكل، و عناء و شقاء.

## التفسير

### إشاره

#### لا تتخذوا الأعداء بطانه:

هذه الآيه التي جاءت بعد الآيات السابقه التي تعرضت لمسأله العلاقات بين المسلمين و الكفار، تشير إلى قضايا حساسه بالغه الأهميه، و تحذر المؤمنين - ضمن تمثيل لطيف - بأن لا يتخذوا من الذين يفارقونهم في الدين و المسلك أصدقاء يسرون إليهم و يخبرونهم بأسرارهم، و أن لا يطلعوا الأجنب على ما تحتفظ به صدورهم و ما خفى من نواياهم و أفكارهم الخاصه بهم، قال سبحانه:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً (١) مِنْ دُونِكُمْ...

و هذا يعنى أن الكفار لا يصلحون لمواصله المسلمين و مصادقتهم، كما لا يصلحون بأن يكونوا أصحاب سر لهم، و ذلك لأنهم لا يتورعون عن الكيد و الإيقاع بهم ما استطاعوا: لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا (٢).

ص: ٦٦١

١ - ١) - «البطانه» مأخوذه من بطانه الثوب، و هى الوجه الذى يلى البدن لقربه منه، و نقيضها «الظهاره» و البطانه فى المقام كناية عن خاصه الرجل الذين يستبطنون أمره و يطلعون على أسرارهم.

٢ - ٢) - «الخبال» فى الأصل بمعنى ذهاب شىء، و هى تطلق فى الأغلِب على الأضرار التى تؤثر على عقل الإنسان و تلحق به الضرر.

فليست الصداقات والعلاقات بقادره على أن تمنع أولئك الكفار-بسبب ما يفارقون به المسلمين في العقيدة و المسلك-من إضمار الشر للمسلمين، و تمنى الشقاء و العناء لهم و دُوا ما عَنَّتُمْ أى أحبوا في ضمائرهم و دخائل نفوسهم لو أصابكم العنت و العناء.

إنهم-لإخفاء ما يضمرونه تجاهكم-يحاولون دائما أن يراقبوا تصرفاتهم، و أحاديثهم كيلا- يظهر ما يبطنونه من شر و بغض لكم، بيد أن آثار ذلك العدا و البغض تظهر أحيانا في أحاديثهم و كلماتهم، عند ما تففز منهم كلمة أو أخرى تكشف عن الحقد الدفين و الحق المستكن في صدورهم: قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .

و تلك حقيقه من حقائق النفس يذكرها الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام في إحدى كلماته إذ

يقول:

«ما أضمر أحد شيئا إلا ظهر في فلتات لسانه و صفحات وجهه» (١).

إنه لا بد أن يرشح شيء إلى الخارج إذا ما امتلأ الداخل، كما يطفح الكيل فتنفضح السرائر، و تبدو الدخائل.

و قد أوضح الله سبحانه في هذه الآية إحدى سبل التعرف على بواطن الأعداء و دخائل نفوسهم، ثم إنه سبحانه يقول: وَ مَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ أَى أن ما يبدو من أفواههم ما هي إلا شراره تحكى عن تلك النار القويه الكامنه في صدورهم.

ثم إنه تعالى يضيف قائلا: قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ أى أن ما ذكرناه من الوسيله للتعرف على العدو أمر في غاية الأهميه لو كنتم تتدبرون فيه، فهو يوقفكم على وسيله جدا فعاله لمعرفة ما يكنه الآخرون و يضمرونه تجاهكم، و هو أمر في غاية الخطوره بالنسبه لأنكم و حياتكم و برامجكم.

ص: ٦٦٢

يحسب بعض المسلمين أن في مقدورهم أن يكسبوا حبّ الأعداء والأجانب إذا أعطوهم حبههم وودهم، وهو خطأ فظيع، و تصور باطل، يقول سبحانه: هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ .

إنه سبحانه يخاطب هذا الفريق من المسلمين و يقول لهم: إنكم تحبون من يفارقكم في الدين لما بينكم من الصداقه أو القرابه أو الجوار، و تظهرون لهم الموده و المحبه، و الحال أنهم لا يحبونكم أبدا، و تؤمنون بكتبهم و كتابكم المنزل من السماء-على السواء-في حين أنهم لا يؤمنون بكتابكم و لا يعترفون بأنه منزل من السماء.

إن هذا الفريق من أهل الكتاب ينافقون و يخادعون و إِذَا لَقُّوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَ إِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ .

و لا شك أن هذا الغيظ لن يضر المسلمين في الواقع، إذن فقل لهم يا رسول الله:

قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ

و استمروا على هذا الحنق فإنه لن يفارقكم حتى تموتوا.

هذه هي حقيقه الكفار التي غفلتم عنها، و لم يغفل عنها سبحانه: إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

ثم إن الله يذكر علامه اخرى من علائم العداوه الكامنه في صدور الكفار إذ يقول إن تَمَسَّسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَ إِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا .

و لكن هل تضر هذه العداوه و ما يلحقها من ممارسات و محاولات شريره بالمسلمين؟ هذا ما يجيب عنه ذيل الآيه الحاضره حيث يقول سبحانه: وَ إِنْ تَصَبَّرُوا وَ تَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ .

و على هذا استفاد من ذيل هذه الآيه أن أمن المسلمين، و سلامه حوزتهم من

كيد الأعداء، يتوقف على استقامه المسلمين و حذرهم و تقواهم، ففي مثل هذه الحاله فقط يمكنهم أن يضمنوا أمنهم و سلامتهم من كيد الكائدين.

### تحذير إلى المسلمين:

حذر الله سبحانه المسلمين في هذه الآيه من أن يتخذوا أعداءهم بطانه يسرون إليهم بأسرارهم و أمورهم و هو تحذير عام لا يختص بزمان دون زمان، و لا بمكان دون مكان، و لا بطائفه من المسلمين دون طائفه.

فلا بدّ أن يحذر المسلمون من هذا العمل في جميع الأزمنه و الأمكنه، حفاظا على أمن المسلمين و كيانهم.

و لكننا مع الأسف نجد الكثيرين من أتباع القرآن قد غفلوا عن هذا التحذير الإلهي المهم، فتعرضوا لتبعات هذا العمل و آثاره السلبيه.

فها نحن نجد أعداء كثيرين يحيطون بالمسلمين من كلّ جانب، يتظاهرون بمحبه المسلمين و صداقتهم، و ربّما أعلنوا تأييدهم في بعض الأمور، و لكنهم بما يظهرون- في بعض الأحيان- من مواقف عدائيه يكشفون عن كذبهم، و مع ذلك ينخدع المسلمون بما يتظاهر هؤلاء الأعداء به من صداقه و حب و تأييد، و يعتمدون عليهم أكثر ممّا يعتمدون على إخوانهم من المسلمين المشاركين لهم في العقيدته و المصير. في حين أن الأعداء و الأجانب لا يريدون للأمة الإسلاميه إلاّ الشقاء و التأخر، و إلاّ الهلاك و الدمار، و لا يألون جهدا في إثارة المشاكل في وجه المسلمين و إيجاد الصعوبات في حياتهم.

و لا نذهب بعيدا، فإنّ الأعوام الأخيره شهدت حربين بين المسلمين و أعدائهم الصهاينه، ففي الحرب الاولى (حرب حزيران) تحمل المسلمون هزيمه ساحقه و نكسه قاطمه، في حين أنهم في حربهم الثانيه (حرب رمضان) استطاعوا



تحقيق انتصارات باهره على الأعداء و تغيرت خارطه السياسيه لصالحهم.

و تمكنوا من دفن اسطوره الجيش الإسرائيلى و الرعب و الخوف فى صحراء «سيناء» و هضبه «الجولان» منذ الأيام الاولى للحرب، و ذاق المسلمون أخيرا طعم النصر لأول مره فى العقود الأخيره.

ماذا حصل فى هذه المدّه القصيره التى شهدت هذا التحول الكبير؟ الجواب بحاجه إلى بحث طويل، و لكن من المتيقن أن أحد الأسباب المؤثره فى تلك الهزيمة و هذا النصر هو أن الأجانب و الذين كانوا يظهرون الود و الصداقه للمسلمين كانوا على علم بأمر الحرب و تفاصيلها. و لكن فى الحرب الثانيه لم يطلع على أسرار الحرب سوى اثنان أو ثلاثه من رؤساء البلدان الإسلاميه، و هذا هو أحد عوامل النصر، و شاهد حى على عظمه هذا الدستور السماوى و القرآنى.

ص: ٦٦٥

اشاره

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَ  
عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)

التفسير

اشاره

من هنا تبدأ الآيات التي نزلت حول واحده من أهم الأحداث الإسلاميه ألا و هي معركة «أحد» لأن القرائن التي توجد في الآيتين الحاضرتين يستفاد منها أن هاتين الآيتين نزلتا بعد معركة أحد، و تشير إلى بعض وقائعها المرعبه، و على هذا أكثر المفسرين.

في البدء تشير الآيه الأولى إلى خروج النبي صلى الله عليه و آله و سلم من المدينه لاختيار المحل الذي يعسكر فيه عند «أحد» و تقول وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ .

أى و اذكر عند ما خرجت غدوه من المدينه تهيئ للمؤمنين مواطن للقتال لغزوه «أحد».

و لقد كانت بين المسلمين فى ذلك اليوم آراء مختلفه و كثيره- كما ستعرفها قريبا- حول الموطن الذى ينبغى أن يعسكر فيه المسلمون، بل و كيفية مقابله الأعداء القادمين، و أنه يتعين عليهم أن يتحصنوا بالمدينه، أم يخرجوا إليهم و يحاربوهم خارجها.

و لقد كان هناك خلاف شديد فى الرأى بين المسلمين فى هذه الأمور، فاختار النبى صلى الله عليه و آله و سلم بعد المشاوره رأى الأغلبيه، و التى كانت تتألف- فى الأ- كثر من الشباب المتحمسين، و هو الخروج من المدينه و مقاتله العدو خارجها، بعد الاستقرار عند جبل «أحد».

و من الطبيعى أن يكون هناك بين المسلمين من كان يخفى أشياء و أمورا يحجم عن الإفصاح بها لعل خاصه، و من الممكن أن تكون عبارته وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ناظره إلى هذه الأمور المكنونه، فهو سبحانه سميع لما يقولون، عليم بما يضمرون.

ثم إن الآيه الثانيه تشير إلى زاويه أخرى من هذا الحدث إذ تقول: إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنَكَ أَنْ تَفْشَا وَ اللَّهُ وَ إِلَيْهِمَا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

و الطائفتان كما يذكر المؤرخون هما «بنو سلمه» من الأوس و «بنو حارثه» من الخزرج.

فقد صممت هاتان الطائفتان على التساهل فى أمر هذه المعركه و الرجوع إلى المدينه، و همتا بذلك.

و قد كان سبب هذا الموقف المتخاذل هو أنهما كانتا ممن يؤيد فكره البقاء فى المدينه و مقاتله الأعداء داخلها بدل الخروج منها و القتال خارجها، و قد خالف النبى هذا الرأى، مضافا إلى أن «عبد الله بن أبى سلول» الذى التحق بالمسلمين

على رأس ثلاثائه من اليهود عاد هو وجماعته إلى المدينة، لأن النبي عارض بقاءهم في عسكر المسلمين، وقد تسبب هذا في أن تتراجع الطائفتان المذكورتان عن الخروج مع النبي و تعزما على العوده إلى المدينة من منتصف الطريق.

و لكن يستفاد من ذيل الآيه أن هاتين الطائفتين عدلتا عن هذا القرار، و استمرتتا في التعاون مع بقيه المسلمين، و لهذا قال سبحانه وَ اللَّهُ وَبِهِمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ يعنى أن الله ناصرهما فليس لهما أن تفشلا إذا كانتا تتوكلان على الله بالإضافة إلى تأييده سبحانه للمؤمنين.

ثم لا بدّ من التنبيه إلى نقطه هامه و هى أن ذكر هذه المقاطع من غزوه «أحد» بعد الآيات السابقه التى تحدثت عن لزوم عدم الوثوق بالكفار، إشاره إلى نموذج واحد من هذه الحقيقه، لأن النبي - كما أسلفنا و كما سيأتى تفصيله - لم يسمح ببقاء اليهود- الذين تظاهروا بمساعدته المسلمين- فى المعسكر الإسلامى، لأنهم كانوا أجانب على كلّ حال، و لا يمكن السماح لهم بأن يبقوا بين صفوف المسلمين فيطلعوا على أسرارهم فى تلك اللحظات الخطيره، و أن يكونوا موضع اعتماد المسلمين فى تلك المرحله الحساسه.

## غزوه أحد

### إشاره

### سبب هذه الغزوه:

هنا لا- بدّ من الإشاره- قبل أى شىء- إلى مجموعه الحوادث التى وقعت فى هذه الغزوه، فإنه يستفاد من الروايات و النصوص التاريخيه الإسلاميه، أن قريشا لما رجعت من بدر إلى مكه و قد أصابهم ما أصابهم من القتل و الأسر، لأنه قتل منهم سبعون شخصا و أسر سبعون شخصا، و قال أبو سفيان يا معشر قريش لا تدعوا

نساء كم يبكين على قتلاكم فإن الدمعه إذا خرجت أذهبت الحزن و العداوه لمحمد صلى الله عليه و آله و سلم و أخذ أبو سفيان على نفسه العهد على أن لا يقرب فراش زوجته ما لم ينتقم لقتلى بدر.

و هكذا ألبت قريش الناس على المسلمين و حركتهم لمقاتلتهم و سرت نداءات «الانتقام الانتقام» فى كل نواحي مكّه.

و فى السنه الثالثه للهجره عزمت قريش على غزو النبى، و خرجوا من مكّه فى ثلاث آلاف فارس و ألفى راجل، مجهزين بكل ما يحتاجه القتال الحاسم، و أخرجوا معهم النساء و الأطفال و الأصنام، ليشبتوا فى ساحات القتال.

### **العباس يرفع تقريراً إلى النبى:**

لم يكن العباس عمّ النبى قد أسلم إلى تلك الساعه، بل كان باقياً على دين قريش، و لكنه كان يحب ابن أخيه غايه الحب، و لهذا فإنه عند ما عرف بتعبئه قريش و عزمهم الأكيد على غزو المدينه و مقاتله النبى، بادر إلى إخبار النبى، محملاً غفارياً (من بنى غفار) رساله عاجله يذكر فيها الموقف فى مكّه و عزم قريش. و كان الغفارى يسرع نحو المدينه، حتّى أبلغ النبى رساله عمه العباس، و لما عرف صلى الله عليه و آله و سلم بالخبر التقى سعد بن أبى و أخبره بما ذكره له عمه، و طلب منه أن يكتّم ذلك بعض الوقت.

### **النبى يشاور المسلمين**

عمد النبى -بعد أن بلغته رساله عمه العباس- إلى بعث رجلين من المسلمين إلى طرق مكّه و المدينه للتجسس على قريش، و تحصيل المعلومات الممكنه عن تحركاتها.

و لم يمض وقت طويل حتى عاد الرجلان و أخبرا النبي بما حصل عليه حول قوات قريش و أن هذه القوات الكبيره يقودها أبو سفيان.

و بعد أيام استدعى النبي صلى الله عليه و آله و سلم جميع أصحابه و أهل المدينه لدراسه الموقف، و ما يمكن أو يجب اتخاذه للدفاع، و بحث معهم فى أمر البقاء فى المدينه و محاربه الأعداء الغزاه فى داخلها، أو الخروج منها و مقاتلتهم خارجها. فاقترح جماعه قائلين «لا نخرج من المدينه حتى نقاتل فى أزقتها فيقاتل الرجل الضعيف و المرأه و العبد و الأمه على أفواه السكك و على السطوح، فما أرادنا قوم قط فظفروا بنا و نحن فى حصوننا و دروبنا و ما خرجنا إلى عدو لنا قط إلا كان الظفر لهم علينا، و كان هذا هو ما قاله «عبد الله بن أبى».

و قد كان النبي صلى الله عليه و آله و سلم يميل إلى هذا الرأى نظرا لوضع المدينه يومذاك، فهو كان صلى الله عليه و آله و سلم يرغب فى البقاء فى المدينه و مقاتله العدو فى داخلها، إلا أن فريقا من الشباب الأحداث الذين رغبوا فى الشهاده و أحبوا لقاء العدو، خالفوا هذا الرأى الذى كان عليه الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقالوا: اخرج بنا إلى عدونا، و قام سعد بن معاذ و غيره من الأوس فقالوا: يا رسول الله ما طمع فىنا أحد من العرب و نحن مشركون نعبد الأصنام فكيف يطمعون فىنا و أنت فىنا، لا حتى نخرج إليهم فنقاتلهم فمن قتل منا كان شهيدا، و من نجا منا كان قد جاهد فى سبيل الله، و قال مثلها الآخرون.

و هكذا تزايدت الطلبات بالخروج من المدينه و مقابله العدو خارجها حتى أصبح المقترحون بالبقاء أقلية.

فوافقهم النبي -رغم أنه كان يميل إلى البقاء فى المدينه- احتراماً لمشورتهم، ثم خرج مع أحد أصحابه ليرتب مواضع استقرار المقاتلين المسلمين خارج المدينه و اختار الشعب من «أحد» لاستقرار الجيش الإسلامى باعتباره

أفضل مكان من الناحية العسكريه و الدفاعيه.

## المسلمون يتهيئون للدفاع:

لقد استشار النبي أصحابه في هذه المسأله يوم الجمعة، و لذلك فإنه بعد انتهاء المشاوره قام يخطب لصلاه الجمعة و قال بعد حمد الله و الثناء عليه:

«انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه، امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم».

ثم تولى صلى الله عليه و آله و سلم بنفسه قياده المقاتلين و قد أمر بأن تعقد ثلاث ألويه، دفع واحد منها للمهاجرين، و اثنين منها للأنصار، ثم إن النبي قطع المسافه بين المدينه و «أحد» مشيا على الأقدام، و كان يستعرض جيشه طوال الطريق، و يرتب صفوفهم، يقول المؤرخ المعروف الحلبي في سيرته:

و

سار إلى أن وصل «رأس الثنيه» و عندها وجد كتبيه كبيره فقال صلى الله عليه و آله و سلم ما هذا؟ قالوا: هؤلاء خلفاء عبد الله بن أبي اليهودى فقال صلى الله عليه و آله و سلم: أسلموا؟ فقل: لا، فقال صلى الله عليه و آله و سلم: «انا لا تنتصر بأهل الكفر على أهل الشرك» فردهم، و رجع عبد الله بن أبي اليهودى و من معه من أهل النفاق و هم ثلاثه مائه رجل (١).

و لكن المفسرين كتبوا أن «عبد الله بن أبي» رجع من أثناء الطريق مع جماعه من أعوانه، يبلغون ثلاثمائه رجل، لأنه لم يؤخذ برأيه فى الشورى.

و على أى حال فإن النبي صلى الله عليه و آله و سلم بعد أن أجرى التصفيه اللازمه فى صفوف جيشه و استغنى عن بعض أهل الريب و الشك و النفاق استقر عند الشعب من «أحد» فى عدوه الوادى إلى الجبل و جعل «أحدا» خلف ظهره و استقبل المدينه.

و بعد أن صلى بالمسلمين الصبح صف صفوفهم و تعبأ للقتال.

فأمر على الرماه «عبد الله بن جبير» و الرماه خمسون رجلا جعلهم صلى الله عليه و آله و سلم على

ص: ٦٧١

الجيل خلف المسلمين و أوعز إليهم قائلا:

«إن رأيتمونا قد هزمناهم حتى أدخلناهم مكة فلا تبرحوا من هذا المكان، وإن رأيتموهم قد هزمونا حتى أدخلونا المدينة فلا تبرحوا و أزموا مراكزكم».

و من جانب آخر، وضع أبو سفيان «خالد بن الوليد» في مأتى فارس كميناً يتحينون الفرصه للتسلل من ذلك الشعب و مباغته المسلمين من ورائهم و قالوا:

«إذا رأيتمونا قد اختلطنا فاخرجوا عليهم من هذا الشعب حتى تكونوا ورائهم».

### بدء القتال:

ثم اصطف الجيشان للحرب، و راح كل واحد منهما يشجع رجاله على القتال بشكل من الأشكال و يحرضهم على الجهاد بما لديه من وسيله.

و قد كان أبو سفيان يحرض رجاله باسم الأصنام و يغريهم بالنساء الجميلات.

و أما النبي صلى الله عليه و آله و سلم فقد كان يحث المسلمين على الصمود و الاستقامه، مذكرا إياهم بالنصر الإلهي و التأييدات الربانيه.

ها هي تكبيرات المسلمين و نداءات «الله أكبر، الله أكبر» تدوى في جنبات ذلك المكان، و تملأ شعاب «أحد» و سهولها، بينما تحرض هند و النسوة اللاتي معها من نساء قريش و بناتها الرجال و يضربن بالدفوف و يقرأن الأشعار المثيره.

و بدأ القتال و حمل المسلمون على المشركين حمله شديده هزمتهم شر هزيمه، و ألجأتهم إلى الفرار و راح المسلمون يتعقبونهم و يلاحقون فلو لهم.

و لما علم «خالد» بهزيمه المشركين و أراد أن يتسلل من خلف الجبل ليهجم على المسلمين من الخلف شقه الرماه بنالهم، و حالوا بينه و بين نيته.

هذه الهزيمه القبيحه التي لحقت بالمشركين دفعت ببعض المسلمين الجديدي العهد بالإسلام إلى التفكير في جمع الغنائم و الانصراف عن الحرب، بظن أن



المشركين هزموا هزيمة كاملة، حتى أن بعض الرماة تركوا مواقعهم في الجبل متجاهلين تذكير قائدهم «عبد الله بن جبير» إياهم بما أوصاهم به النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يبق معه إلا قليل ظلوا يحافظون على تلك الثغرة الخطره في الجبل محافظه على المسلمين.

فتنبه «خالد بن الوليد» إلى قله الرماة في ذلك المكان، فكر راجعا بالخيل (و عدددهم مائتا رجل كانوا معه في الكمين) فحملوا على «عبد الله بن جبير» و من بقى معه من الرماة و قتلوهم بأجمعهم، ثم هجموا على المسلمين من خلفهم.

و فجأه وجد المسلمون أنفسهم و قد أحاط بهم العدو بسيوفهم، و داخلهم الرعب، فاختل نظامهم، و أكثر المشركون من قتل المسلمين فاستشهد في هذه الكره - «حمزه» سيد الشهداء و طائفه من أصحاب النبي الشجعان، و فر بعضهم خوفا، و لم يبق حول النبي سوى نفر قليل جدا يدافعون عنه و يردون عنه عاديه الأعداء، و كان أكثرهم دفاعا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورد الهجمات العدو، و فداء بنفسه هو «الإمام على بن أبي طالب» عليه السلام الذي كان يذب عن النبي الطاهر ببسالة منقطعه النظر، حتى أنه تكسر سيفه فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سيفه المسمى بذي الفقار، ثم ترس النبي بمكان، و بقى على عليه السلام يدافع عنه حتى لحقه - حسب ما ذكره المؤرخون - ما يزيد عن ستين جراحه في رأسه و وجهه، و يديه و كل جسمه المبارك، و

في هذه اللحظة قال جبرائيل «إن هذه لهي المواساه يا محمدا» فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «إنه منى و أنا منه» فقال جبرائيل: «و أنا منكما».

قال الإمام الصادق عليه السلام: نظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى جبرائيل بين السماء و الأرض و هو يقول: «لا سيف إلا ذو الفقار و لا فتى إلا على» (١).

و في هذه اللحظة صاح صائح: قتل محمد.

ص: ٦٧٣

يذهب بعض المؤرخين إلى أن «ابن قمئه» الذي قتل الجندي الإسلامي البطل «مصعب بن عمير» وهو يظن أنه النبي، هو الذي صاح «و اللات و العزى: لقد قتل محمد».

و سواء كانت هذه الشائعه من جانب المسلمين، أو العدو فإنها-و لا ريب- كانت فى صالح الإسلام و المسلمين لأنها جعلت العدو يترك ساحه القتال و يتجه إلى مكّه بظنه أن النبي قد قتل و انتهى الأمر، و لو لا ذلك لكان جيش قريش الفاتح الغالب لا يترك المسلمين حتى يأتى على آخرهم لما كانوا يحملونه من غيظ و حنق على النبي، بل و لما كانوا يتركون ساحه القتال حتى يقتلوا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لأنهم لم يحيئوا إلى «أحد» إلا لهذه الغايه.

لم يرد ذلك الجيش الذى كان قوامه ما يقارب خمسه آلاف-و بعد تلك الانتصارات- أن يبقى و لو لحظه واحده فى ساحه القتال، و لذلك غادرها فى نفس الليله إلى مكّه، و قبل أن يندلع لسان الصباح.

إلا أن شائعه مقتل النبي صلى الله عليه و آله و سلم أوجدت زلزالا كبيرا فى نفوس بعض المسلمين، و لذلك فر هؤلاء من ساحه المعركه.

و أما من بقى من المسلمين فى الساحه فقد عمدوا-بهدف الحفاظ على البقيه من التفرق و إزاله الخوف و الرعب عنهم- إلى أخذ النبي صلى الله عليه و آله و سلم إلى الشعب من «أحد» ليطلع المسلمون على وجوده الشريف و يطمئنوا إلى حياته، و هكذا كان، فإنهم لما عرفوا رسول الله عاد الفارون و آب المنهزمون و اجتمعوا حول الرسول و لا مهم النبي صلى الله عليه و آله و سلم على فرارهم فى تلك الساعه الخطيره، فقالوا يا رسول الله أتانا الخبر بأنك قتلت فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين.

و هكذا لحقت بالمسلمين- فى معركه أحد- خسائر كبيره فى الأموال

و النفوس، فقد قتل منهم فى هذه الموقعه اثنان و سبعون من المسلمين فى ميدان القتال، كما جرح جماعه كبيره، و لكنهم أخذوا من هذه الهزيمه و النكسه درسا كبيرا ضمن انتصاراتهم فى المعارك القادمه، و سوف نعرض بتفصيل عند دراسه الآيات القادمه لآثار هذه الحادثه الكبرى بإذن الله سبحانه.

ص: ٦٧٥

اشاره

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ  
آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ  
مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَبَهُمُ فَيَنْقَلِبُوا حَائِبِينَ (١٢٧)

التفسير

اشاره

المرحلة الخطيره من الحرب:

بعد انتهاء معركة «أحد» عاد المشركون المنتصرون إلى مكة بسرعه، ولكنهم بدا لهم في أثناء الطريق أن لا يتركوا هذا الانتصار دون أن يكملوه و يجعلوه ساحقا، أليس من الأحسن أن يعودوا إلى المدينة، و ينهبوها و يلحقوا بالمسلمين

مزيدا من الضربات القاضيه و أن يقتلوا محمدا صلى الله عليه و آله و سلم إذا كان لا يزال حيًا ليتخلصوا من الإسلام و المسلمين و يطمئن بالهم من ناحيتهم بالمره.

لهذا صدر قرار بالعوده إلى المدينه، و لا ريب أنه كان أخطر مراحل معركه «أحد» بالنظر إلى ما كان قد لحق بالمسلمين من القتل و الجراحه و الخسائر، الذي كان قد سلب منهم كل طاقه للدخول في معركه جديده أو لاستئناف القتال، فيما كان العدو في ذروه القوه و الروحيه العسكريه التي كانت تمكن العدو من تحقيق انتصارات جديده، و إحراز النتيجة لصالحه، فنهايه هذه العوده و نتيجتها كانت معروفه سلفا.

و قد بلغ خبر العوده هذه إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و لو لا شهامته البالغه، و قدرته المكتسبه من الوحي على الأخذ بزمام المبادره لانتهى تاريخ الإسلام و حياته عند تلك النقطه.

في هذه المرحله الحساسه بالذات نزلت الآيات الحاضره لتقوى روحيه المسلمين و تصعد من معنوياتهم، و في أعقاب ذلك صدر أمر من النبي إلى المسلمين بالتهيؤ لمقابله المشركين، فاستعد جميع المسلمين حتى المجروحين (و منهم الإمام على عليه السلام الذي كان يحمل في جسمه أكثر من ستين جراحه) لمقابله المشركين، و خرجوا بأجمعهم من المدينه لذلك.

فبلغ هذا الخبر مسامع زعماء قريش فأرعبتهم هذه المعنويه العاليه التي يتمتع بها المسلمون و ظنوا أن عناصر جديده التحقت بالمسلمين و إن هذا يمكن أن يغير نتائج المواجهه الجديده لصالح المسلمين، و لذلك فكروا في العدول عن قرارهم بمهاجمه المدينه، حفاظا على قواهم، و هكذا قفلوا راجعين إلى مكه بسرعه، و انتهت القضيه عند هذا الحد.

و إليك شرحا للآيات التي نزلت لتقوى روحيه المسلمين، و تجبر ما نزل بهم من هزيمه في هذه المعركه.

فقد بدأت هذه الآيات بتذكير المسلمين بما تحقق لهم من نصر ساحق بتأييد الله لهم في «بدر» (١) إذ قال سبحانه وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ وَ قَدْ كَانَ الْهَدَفُ مِنْ هَذَا التَّذْكِيرِ هُوَ شَدَّ عِزَائِمِ الْمُسْلِمِينَ وَ زَرَعَ الثَّقَةَ فِي نَفُوسِهِمْ وَ الْإِطْمِنَانَ إِلَى قُدْرَاتِهِمْ، وَ الْأَمَلَ بِالْمُسْتَقْبَلِ، فَقَدْ نَصَرَهُمُ اللَّهُ وَ هُمْ عَلَى دَرَجَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الضَّعْفِ، وَ قَلَهُ الْعَدَدُ وَ ضَالَه الْعَدَهُ (حيث كان عددهم ٣١٣ مع امكانيات بسيطة قليلة، و كان عدد المشركين يفوق ألف مقاتل مع امكانيات كبيرة).

فإذا كان الأمر كذلك فليتقوا الله، و ليجنبوا مخالفه أوامر النبي صلى الله عليه و آله و سلم ليكونوا بذلك قد أدوا شكر المواهب الإلهية فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

ثم تتعرض الآية اللاحقه لذكر بعض التفاصيل حول ما جرى في «بدر» إذ قالت: إِذِ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ كُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ أَى اذكروا و اذكر أيها النبي يوم كنت تقول للمسلمين الضعفاء آنذاك اخرجوا و سيمدكم الله بالملائكة ألا يكفيكم ذلك لتحقيق النصر الساحق على جحافل المشركين المدججين بالسلاح؟ نعم أيها المسلمون لقد تحقق لكم ذلك في «بدر» نتيجة صبركم و استقامتكم، و اليوم يتحقق لكم ذلك أيضا إذا أطعتم أوامر النبي، و سرتم وفق تعليماته و صبرتم:

بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُواكُمْ مِنْ قُدْرِهِمْ (٢) هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ

على أن نزول الملائكة هذا لن يكون هو العامل الأساسى لتحقيق هذا الانتصار لكم بل النص من عند الله، و ليس نزول الملائكة إلا لتطمئن قلوبكم و ما جعله الله إلا بشرى لكم و لتطمئن قلوبكم به و ما النص إلا من عند الله العزيز الحكيم

ص: ٦٧٨

١ - ١) - «بدر» سميت بدر لأن الماء كان لرجل من جهينه اسمه بدر (مجمع البحرين). و بدر من حيث اللغه يعنى الممتلى الكامل. و لهذا سمي القمر إذا امتلأ: بدرًا.

٢ - ٢) - «الفور» السرعة التى تقلب المعادلات كما يفور القدر و تتقلب محتوياتها بسرعة.

فهو العالم بسبل النصر و مفاتيح الظفر، و هو القادر على تحقيقه.

ثم إنه سبحانه عقب هذه الآيات بقوله: لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ .

و هذه الآيه و إن ذهب المفسرون فى تفسيرها مذاهب مختلفه، إلاّ أنها- فى ضوء ما ذكرناه فى تفسير الآيات السابقه بمعونه الآيات نفسها و بمعونه الشواهد التاريخيه- واضحه المراد بيّنه المقصود كذلك. فهى تقصد أن تأيد الله للمسلمين بإنزال الملائكه عليهم إنما هو لأجل القضاء على جانب من قوّه العدو العسكريه، و إلحاق الذله بهم.

يبقى أن نعرف أن «طرف» الشىء يعنى جانبه و قطعه منه. و أمّا «يكبتهم» فيعنى الرد بعنف و إذلال.

ثم إن هاهنا أسئله تطرح نفسها حول كيفيه نصره الملائكه للمسلمين و مساعدتهم على تحقيق الانتصار فسنجيب عليها- بإذن الله- لدى تفسير الآيات ٧-١٢ من سوره الأنفال.

ص: ٦٧٩

اشاره

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)

التفسير

اشاره

وقع بين المفسرين فى تفسير هذه الآيه كلام كثير، إلا أن ما هو مسلّم تقريبا هو أن الآيه الحاضره نزلت بعد «معركه أحد» و هى ترتبط بأحداث تلك المعركه، و الآيات السابقه تؤيد هذه الحقيقه أيضا.

ثم إن هناك معنيين يلفتان النظر من بين المعانى المذكوره فى تفسير هذه الآيه و هما:

أولا: إن هذه الآيه تشكل جمله مستقله، و على هذا تكون جمله أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ بمعنى «إلا أن يتوب عليهم» و يكون معنى مجموع الآيه كالتالى: ليس لك حول مصيرهم شىء، فإنهم قد استحقوا العذاب بما فعلوه، بل ذلك إلى الله، يعفو عنهم إن شاء أو يأخذهم بظلمهم، و المراد بالضمير «هم» إما الكفار الذين ألحقوا بالمسلمين ضربات مؤلمه، حتى أنهم كسروا رباعيه النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و شجوا جبينه



المبارك، وأما المسلمون الذين فروا من ساحه المعركة، ثم ندموا على ذلك بعد أن وضعت الحرب أوزارها و اعتذروا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم و طلبوا منه العفو.

فآية تقول: إن العفو عنهم، أو معاقبتهم على ما فعلوا، أمر يعود إلى الله تعالى، و أن النبي لن يفعل شيئاً بدون إذنه سبحانه.

و هناك تفسير آخر، و هو أن يعتبر قوله لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ جملة اعتراضيه، و تكون جملة أو يُتُوبَ عَلَيْهِمْ جملة معطوفه على أو يُكْتَبَتْهُمْ و تعتبر هذه الآية متصله بالآيه السابقه.

و على هذا يكون المراد من مجموع الآيتين، السابقه و الحاضره هو: إن الله سيمكنكم من وسائل النصر و يصيب الكفار بإحدى امور أربعة: إما أن يقطع طرفاً من جيش المشركين، أو يردهم على أعقابهم خائبين مخزيين، أو يتوب عليهم إذا أصلحوا، أو يعذبهم بظلمهم، و على كل حال فإنه سيعامل كل طائفه وفق ما تقتضيه الحكمة و العداله، و ليس لك أن تتخذ أى موقف من عندك إذ كل ذلك إلى الله تعالى.

و لقد نقلت فى سبب نزول هذه الآية روايات عديده منها أنه لما كان من المشركين يوم «أحد» ما كان من كسر رباعيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم و شججه حتى جرى الدم على وجهه الشريف، و لحق بالمسلمين ما لحق من الخسائر فى الأرواح و الإصابات فى الأبدان قلق النبي على مصير أولئك القوم، و فكر فى نفسه، كيف يمكن أن تهتدى تلك الجماعه المتماديه فى غيرها و عنادها و

قال: «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم و هو يدعوهم إلى ربهم؟» فنزلت الآية و أخبره تعالى فيها أنه ليس إليه إلا ما امر به من تبليغ الرساله و دعائهم إلى الهدى، فهو ليس مسئولاً عن هدايتهم إن لم يهتدوا و لم يستجيبوا لندائه.

### تصحيح خطأ:

لا بدّ هنا من الانتباه إلى نقطتين:

١- إن المفسّر المعروف صاحب تفسير «المنار» يعتقد أن هذه الآية تعلم المسلمين درسا كبيرا في مجال الاستفادة من الوسائل و الأسباب الطبيعيه للنصر، و إن وعد الله لهم بإنزال النصر عليهم، ليس بمعنى أن للمسلمين أن يتجاهلوا الوسائل الحريه، و التخطيط العسكري، و ما شاكل ذلك من الأسباب الماديه اللازمه للقتال و لتحقيق الإنتصار، و انتظار أن يدعو لهم النبي لينزل عليهم النصر الالهى، دون الأخذ بالأسباب القتاليه المتعارفه، و لهذا جاءت الآية تخاطب النبي قائله لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ بِمعنى أن أمر النصر لم يوكل إليك، بل هو إلى الله، و قد جعل الله لتحقيقه سننا و نواميس يجب أن يستخدمها الناس حتى يتحقّق لهم النصر و الغلبه (و بالتالى فإن دعاء النبي و إن كان مؤثرا و مفيدا، إلا أن له موارد استثنائيه خاصه).

و هذا الكلام و إن كان منطقيا في حد ذاته، إلا أنه لا يلائم ما جاء في ذيل الآية إذ يقول سبحانه: أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، أَوْ يُعَذِّبَهُمْ و لهذا لا يمكن تفسير الآية بما قاله هذا الكاتب.

٢- إن هذه الآية و إن كانت تنفى أن يكون للنبي الحقّ في أن يغفر للكفار و المشركين أو يعذبهم، إلا أنها لا تتعارض مع ما يستفاد من الآيات الاخرى من تأثير دعائه صلى الله عليه و آله و سلّم و عفوه و شفاعته، لأن المقصود في الآية الحاضر هو نفى أن يكون للنبي كلّ ذلك على نحو الاستقلال، و على هذا لا ينافي أن يكون له كلّ ذلك (من العفو أو المجازاه) بإذن الله سبحانه.

فله بالتالى أن يعفو- بإذن الله- لمن أراد، أو يجازى حيث تصح المجازاه، كما أن له أن يهيب عوامل النصر و أسباب الظفر، بل و له- بإذن الله- أن يحيى الموتى كما كان يفعل المسيح عليه السلام بإذنه سبحانه.

إن الذين تمسكوا بقوله تعالى: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ لِنفى و إنكار قدره

الرسول على هذا الأمر نسوا-في الحقيقة-آيات القرآن الأخرى في هذا المجال.

فإن القرآن الكريم يقول في سورة النساء الآية ٦٤ وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا .

فاستغفار النبي صلى الله عليه وآله وسلم عد-طبق هذه الآية-من العوامل المؤثرة لمغفره الذنوب، و سوف نوضح هذه الحقيقة في أبحاثنا القادمة عند تفسير الآيات المناسبه إن شاء الله.

ص: ٦٨٣

إشاره

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢٩)

التفسير

هذه الآيه-في الحقيقه-تأكيد لمفاد الآيه السابقه، فيكون المعنى هو: أن العفو أو المجازاه ليس بيد النبي، بل هو الله الذي بيده كل ما في السماوات و كل ما في الأرض، فهو الحاكم المطلق لأنه هو الخالق، فله الملك و له التدبير، و على هذا الأساس فإن له أن يغفر لمن يشاء من المذنبين، أو يعذب، حسب ما تقتضيه الحكمه، لأن مشيئته تطابق الحكمه: وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ .

ثم إنه سبحانه يختم الآيه بقوله: وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ تنبيها إلى أنه و إن كان شديد العذاب، إلا أن رحمته سبقت غضبه، فهو غفور رحيم قبل أن يكون شديد العقاب و العذاب.

و هنا يحسن بنا أن نشير إلى ما ذكره أحد كبار العلماء المفسرين الإسلاميين

و هو العلامه الطبرسى من سؤال و جواب حول هذه الآيه، لكونه على اختصاره فى غاية الأهميه من الناحيه الاعتقاديّه، فقد ذكر فى ذيل هذه الآيه أنه: سئل بعض العلماء: كيف يعذب الله عباده بذنوبهم مع سعه رحمته؟ فقال: «رحمته لا تغلب حكمته، إذ لا تكون رحمته برقه القلب كما تكون الرحمه منا».

بمعنى أن الرحمه الإلهيه لا تكون على أساس عاطفى كما هو الحال فينا، بل إن رحمته ممتزجه دائماً مع حكمته، و حكمته توجب عقوبه المذنبين (إلا فى موارد خاصّه).

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَ  
أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)

التفسير

اشاره

حول الارتباط بين الآيات القرآنية:

الآيات السابقة- كما عرفت- تحدثت حول معركة «أحد» وحوادثها ووقائعها، والدروس و العبر المختلفه التي تعلمها منها المسلمون، غير أن هذه الآيات الثلاث، والآيات الست اللاحقه بها تحتوى على سلسله من البرامج الاقتصادية، والاجتماعيه، و التربويه، ثم يستأنف القرآن بعد هذه الآيات التسع، حديثه حول معركة «أحد» ووقائعها.

و يمكن أن يكون هذا النوع من الحديث و البيان مبعث استغراب و دهشه للبعض، إلا أن الانتباه إلى مبدء أساسى يوضح حقيقه هذا الأمر، و يكشف الغطاء عن سر هذا الأسلوب. و ذلك المبدأ هو:

إن القرآن ليس كتاباً كبقية الكتب ذات النمط الكلاسيكي الذي يعتمد نظام الفصول و الأبواب الخاصة، بل هو كتاب نزل «نجوماً» وبصوره تدريجيه طوال ثلاثه و عشرين عاماً، و ذلك طبقاً للاحتياجات التربويه المختلفه، و في أماكن و أزمته مختلفه، فيوم حدثت معركه أحد و وقائعها نزلت الآيات التي تتحدث عمّا يرتبط بهذه المعركه من برامج و قضايا حربه، و يوم كانت الحاجه تتطلب بيان بعض البرامج و التعاليم الاقتصاديه كالموقف من الربا، أو بعض المسائل الحقوقيه كأحكام الزوجيه أو بعض القضايا التربويه و الأخلاقيه كالتوبه كانت تنزل الآيات التي تتناول هذه الأمور.

فيستنتج من هذا أنه قد لا يوجد أى ارتباط خاص بين بعض الآيات و بين ما قبلها أو ما بعدها، و ليس من الضروري أن نبحث عن مثل هذا الارتباط - كما يحاول بعض المفسرين ذلك - أو أن نتكلف افتعال ذلك بين قضايا لم يرد الله سبحانه الاتصال و الارتباط بينها، لأن مثل هذا العمل لا يتفق مع روح القرآن و كيفيه نزوله في الحوادث المختلفه، و المناسبات المتنوعه و حسب الاحتياجات و الظروف المنفصله.

على أنه لا ريب في أن جميع السور و الآيات القرآنيه مرتبطه و مترابطه - على وجه - هو أن جميعها تؤلف برنامجاً كاملاً و منهاجاً متكاملماً مترابطاً لصنع الإنسان و صياغته، و تربيته بأفضل تربيه و صياغه و أسماها، كما أنها بمجموعها نزلت لإيجاد مجتمع فاضل، و اع متقدم في جميع الأبعاد و الجوانب الماديه و المعنويه.

و بما قلناه يعلل عدم ارتباط الآيات التسع التي أشرنا إليها مع ما تقدمها أو يلحقها من الآيات في هذه السوره المباركه.

كلنا يعرف أن أسلوب القرآن في مكافحه الانحرافات الاجتماعيه المتجذره في حياه الناس يعتمد معالجه الأمور خطوه فخطوه، فهو أولا- يهيئ الأرضيه المناسبه، و يطلع الرأى العام على مفاسد ما يطلب محاربتة و مكافحتة، ثم بعد أن تنهيا النفوس لتقبل التحريم النهائى يعلن عن التحريم فى صيغته القانونيه النهائيه (و يتبع هذا الأسلوب خاصه إذا كان ذلك الأمر الفاسد ممّا استشرى فى المجتمع، و كانت رقعه انتشاره واسعه).

كما أننا نعلم أيضا أن المجتمع العربى فى العهد الجاهلى كان مصابا- بشده- بداء الربا، حيث كانت الساحه العربيه (و خاصه مكه) مسرحا للمرايين. و قد كان هذا الأمر مبعثا للكثير من المآسى الاجتماعيه، و لهذا استخدم القرآن فى تحريم هذه الفعله النكراء أسلوب المراحل، فحرم الربا فى مراحل أربع:

١- يكتفى فى الآيه ٣٩ من سوره الروم بتوجيه نصح أخلاقى حول الربا إذ قال سبحانه و تعالى: **وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيَرْبُؤَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُؤُوا عِنْدَ اللَّهِ وَ مَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ .**

بهذا يكشف عن خطأ الذين يتصورون أن الربا يزيد من ثروتهم، فى حين أن إعطاء الزكاه و الإنفاق فى سبيل الله هو الذى يضاعف الثروه.

٢- يشير- ضمن انتقاد عادات اليهود و تقاليدهم الخاطئه الفاسده- إلى الربا كعاده سيئه من تلك العادات، إذ يقول فى الآيه ١٦١ من سوره النساء: **وَ أَخَذِهِمُ الرِّبَا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ .**

٣- يذكر فى الآيه الحاضره- كما سيأتى تفسيرها المفصل- حكم التحريم بصراحه، و لكنه يشير إلى نوع واحد من أنواع الربا، و هو النوع الشديد و الفاحش منه فقط.



٤- وأخيراً أعلن في الآيات ٢٧٥ إلى ٢٧٩ من سورة البقره عن المنع الشامل و الشديده عن جميع أنواع الربا، و اعتباره بمنزله إعلان الحرب على الله سبحانه.

### التحريم فى الآيه الحاضره:

#### اشاره

قلنا إن الآيه الحاضره إشاره إلى الربا الفاحش معبره عن ذلك بقوله **أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً** .

و المراد من «الربا الفاحش» هو أن تكون الزيادة الربويه تصاعديه، بمعنى أن تضم الزيادة المفروضه أولاً على رأس المال ثم يصبح المجموع موردا للربا، بمعنى أن الزيادة ثانيا تقاس بمجموع المبلغ (الذى هو عبارته عن رأس المال و الزيادة المفروضه فى المره الأولى) ثم تضم الزيادة المفروضه ثانيا إلى ذلك المبلغ، و تفرض زياده ثالثه بالنسبه إلى المجموع (١).

و هكذا يصبح مجموع رأس المال و الزيادة فى كل مره رأس مال جديد تضاف عليه زياده جديده بالنسبه، و بهذا يبلغ الدين أضعاف المبلغ الأصلي المدفوع إلى المديون حتى يستغرق كل ماله.

و لهذا قال القرآن الكريم: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً** .

و يستفاد من الأخبار و الروايات أن الرجل فى الجاهليه- إذا كان يتخلف عن أداء دينه عند الموعد المقرر طلب من الدائن أن يضيف الزيادة على المبلغ ثم يؤخره إلى أجل آخر، و هكذا حتى يستغرق بالشئ الطفيف مال المديون.

ص: ٦٨٩

١ - ١) - فإذا كان أصل المبلغ المدفوع إلى المديون أول مره هو (١٠٠) و الزيادة المفروضه (١٠) فإذا تخلف عن الأداء ضمت الزيادة (١٠) إلى المبلغ (١٠٠) فيكون رأس المال (١١٠) و أضيفت إلى المجموع زياده بنسبه (١١٪) فإذا تخلف عن الأداء ثانيا، ضمت الزيادة (١١) إلى (١١٠) فكان المجموع (١٢١) و هكذا فصاعدا.

و هذا هو السائد بعينه في عصرنا الحاضر و يفعله المرابون الكبار دون رحمه.

و لا شك أن مثل هذا الفعل يدر على أصحاب الأموال مبالغ ضخمة دون عناء، فلا يمكن الارتداع عنه إلا بتقوى الله، و لهذا عقب سبحانه نهيه عن مثل هذا الربا الظالم بقوله: وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

و لكن هل يكفي الأمر بتقوى الله و الترغيب في الفلاح في صورته ترك الربا؟ أم لا بدّ من التلويح بالعذاب الأخرى للمرابين؟ و لهذا قال سبحانه في الآية الثانية وَ اتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ فهذه الآية تأكيد لحكم التقوى الذي مرّ في الآية السابقة.

و يوحى التعبير ب«الكافرين» أن أخذ الربا لا يتفق أساسا مع روح الإيمان، و لهذا ينتظر المرابين ما ينتظر الكافرين من النار و العذاب.

كما يستفاد من ذلك أن النار أعدت أساسا للكافرين، و ينال العصاة و المذنبون من هذه النار بقدر شباهتهم بالكفار، و تعاونهم معهم.

ثم إنه سبحانه يمزج ذلك التهديد بشيء من التشجيع و الترغيب للمطيعين و الممثلين لأوامره تعالى إذ يقول: وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

اشاره

وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاءُ هُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)

التفسير

اشاره

السباق في مضمار السعادة:

بعد أن هددت الآيات السابقة العصاة و توعدهم بالعذاب و الجحيم، و بشرت الأبرار المطيعين بالرحمة الإلهية و شوقتهم إليها جاءت الآيه الأولى من هذه الآيات تشبه سعي المطيعين و اجتهادهم بالسباق، و المسابقه المعنويه التي تهدف

الوصول إلى الرحمة الإلهية، و النعم و العطايا الربانية الخالده و سَارِعُوا إِلَيَّ مَغْفِرَةً مِنْ رَبِّكُمْ .

و سَارِعُوا

تعنى تسابق اثنين أو أكثر للوصول إلى هدف معين فيحاول كل واحد-باستخدام المزيد من السرعة- أن يسبق صاحبه و منافسه و هو أمر مندوب فى الأعمال و الأخلاق الصالحه، و مقبوح مذموم فى الأفعال السيئه و الأخلاق القبيحه.

إن القرآن الكريم يستفيد هنا-فى الحقيقه- من نقطه نفسيه هى أن الإنسان لا- يودى عمله بسرعه فائقه إذا كان بمفرده، و كان العمل من النوع الروتينى، أما إذا اتخذ العمل طابع المسابقه و التنافس الذى يستعقب جائزه قيمه و مكافأه ثمينه نجده يستخدم كل طاقاته، و يزيد من سرعته لبلوغ ذلك الهدف، و نيل تلك الجائزه.

ثم إذا كان الهدف المجمعول فى هذه الآيه هو «المغفره» فى الدرجه الأولى فلأمن الوصول إلى أى مقام معنوى لا يتأتى بدون المغفره و التطهر من أدران الذنوب، فلا- بدّ إذن من تطهير النفس من الذنوب أولاً- ثم المدخول فى رحاب القرب الإلهى، و نيل الزلفى لديه.

هذا هو الهدف أول.

و أما الهدف الثانى لهذا السباق المعنوى العظيم فهو «الجنه» التى يصرح القرآن الكريم أن سعتها سعه السماوات و الأرض و جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ .

ثم إن هناك تفاوتاً قليلاً- بين هذه الآيه و بين الآيه ٢١ من سوره الحديد سَابِقُوا إِلَيَّ مَغْفِرَةً مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ .

ففى هذه الآيه ذكرت لفظه «المسابقه» مكان «المسارعه» كما ذكرت السماء بصوره المفرد المصدر بألف و لام الجنس الذى يفيد العموم.

ص: ٦٩٢

كما استعمل هنا كاف التشبيه فيكون معنى هذه الآية هو أن سعة الجنة مثل سعة السماء والأرض، ومعنى الآية المبحوثة هنا هو أن سعة الجنة هي سعة السماوات والأرض فيكون المعنيان سواء.

ثم إنه سبحانه يختم الآية الحاضره بقوله أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ فهذه الجنة العظيمه الموصوفه بتلك السعه قد هيئت للذين يتقون الله و يخشونه و يجتنبون معاصيه و يمتثلون أوامره.

و ينبغي أن نعلم أن المراد بالعرض هنا ليس هو الطول و العرض الهندسي بل المراد- كما عليه اهل اللغه- هو السعه.

## و هنا سؤالان:

أولاً: هل الجنة و النار مخلوقتان و موجودتان بالفعل، أم أنهما توجدان فيما بعد على أثر أعمال الناس؟ ثانياً: إذا كانت الجنة و النار موجودتين فعلاً فأين تقعان، و قد قال سبحانه بأن عرض الجنة عرض السماوات و الأرض.

## هل الجنة و النار موجودتان الآن؟

يعتقد أكثر العلماء المسلمين أن للجنة و النار وجوداً خارجياً و فعلياً، و أن ظواهر الآيات القرآنيه تؤيد هذه النظرية نذكر من باب النموذج ما يلي:

١- ذكرت في الآية الحاضره و آيات قرآنيه اخرى لفظه «أعدت» و ما شابه ذلك من ماده هذه اللفظه، و قد استعملت تاره بشأن الجنة و تاره بشأن النار (١).

فيستفاد من هذه الآيات أن الجنة و النار معدتان فعلاً، و إن كانتا تتوسعان فيما

ص: ٦٩٣

---

١-١) - راجع الآيات التاليه: التوبه: ٨٩، التوبه: ١٠٠، الفتح: ٦، البقره: ٢٤، آل عمران: ١٣١، آل عمران: ١٣٣، الحديد: ٢١.

بعد على أثر أعمال الناس. (تأمل).

٢- نقرأ في الآيات ١٣ و ١٤ و ١٥ المرتبطه بالمعراج فى سورة «و النجم» قوله سبحانه: وَ لَقَدْ رَأَاهُ نَزَّلَهُ أُخْرَى\* عِنْدَ سِدْرِهِ الْمُنْتَهَى\*  
عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى\* وهذا يشهد مره أخرى بأن الجنة موجوده فعلا.

٣- يقول سبحانه فى سورة «التكاثر» الآيه ٥ و ٦ و ٧ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ .

أى لو كان لديكم علم يقينى لشاهدتم الجحيم، بل لرأيتموها رأى العين.

ثم إن هناك روايات ترتبط بالمعراج، و روايات أخرى تحمل شواهد على هذه المسأله (١).

### أين تقع الجنة و النار؟

إذا ثبت أن الجنة و النار موجودتان بالفعل يطرح سؤال آخر هو: أين تقعان إذن؟ و يمكن الإجابة على هذا السؤال على نحوين:

الأول: إن الجنة و النار تقعان فى باطن هذا العالم و لا غرابه فى هذا، فإننا نرى السماء و الأرض و الكواكب بأعيننا، و لكننا لا نرى العوالم التى توجد فى باطن هذا العالم، و لو أننا ملكنا وسيله اخرى للإدراك و العلم لأدركنا تلك العوالم أيضا، و لو قفنا على موجودات اخرى لا تخضع أمامها لرؤيه البصر، و لا تدخل ضمن نطاق حواسنا الفعلية.

و الآيه المنقوله عن سورة «التكاثر» و هى قوله سبحانه:

ص: ٦٩٤

(١ - ١) - لا بد من الانتباه إلى أن الجنة المبحوث عنها هنا و التى ترتبط بالعالم الآخر هى غير الجنة التى أسكن آدم و حواء فيها و كانت قبل خلقهما.

كَأَلَّا لَوْ تَعَلَّمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ \* لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْآخِرَى شَاهِدَهُ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةَ وَ مُؤَيِّدَهُ لِهَذَا الرَّأْيِ.

كما و يستفاد من بعض الأحاديث أيضا أنه كان بين الأتقياء و الأولياء من قد زودوا ببصيره ثاقبه، و رؤيه نفاذه استطاعوا بها أن يشاهدوا الجنة و النار مشاهده حقيقه.

و يمكن التمثيل لهذا الموضوع بالمثل الآتى:

لنفترض أن هناك فى مكان ما من الأرض جهازا قويا للإرسال الإذاعى يث فى العالم-و بمعونه الأقمار الفضائيه و الأمواج الصوتيه-تلاوات شيقه لآيات القرآن الكريم.بينما يقوم جهاز قوى إذاعى آخر يث أصوات مزعجه و صاحبه بنفس القوه.

لا شك أننا لا نملك القدره على إدراك هذين النوعين من البث بحواسنا العاديه،و لا أن نعلم بوجودهما إلا إذا استعنا بجهاز استقبال فإننا حينما ندير المؤشر على الموج المختص بكل واحد من هذين البثين نستطيع فورا أن نلتقط ما بثته كل واحد من تينك الإذاعتين و نستطيع أن نميز بينهما بجلاء،و دون عناء.

و هذا المثل و إن لم يكن كاملا من جميع الجهات إلا أنه يصور لنا حقيقه هامه،و هى أنه قد توجد الجنة و النار فى باطن هذا العالم غير أننا لا نملك إدراكها بحواسنا،بينما يدركها من يملك الحاسه النفاذه المناسبه.

الثانى:إن عالم الآخره و الجنة و النار عالم محيط بهذا الكون،و بعباره اخرى:

إن كوننا هذا يقع فى دائره ذلك العالم،تماما كما يقع عالم الجنين ضمن عالم الدنيا، إذ كلنا يعلم أن عالم الجنين عالم مستقل له قوانينه و أوضاعه و لكنه مع ذلك غير منفصل عن هذا العالم الذى نحن فيه،بل يقطع فى ضمنه و فى محيطه و نطاقه،و هكذا الحال فى عالم الدنيا بالنسبه إلى عالم الآخره.

و إذا وجدنا القرآن يقول:بأن سعه الجنة سعه السماوات و الأرض فإنما هو

لأجل أن الإنسان لا يعرف شيئاً أوسع من السماوات و الأرض ليقس به سعه الجنه، و لهذا يصور القرآن عظمه الجنه و سعتها و عرضها بأنها كعرض السماوات و الأرض، و لم يكن بد من هذا، فكما لو أننا أردنا أن نصور للجنين-فيما لو عقل- حجم الدنيا التي سينزل إليها، لم يكن لنا مناص من التحدث إليه بالمنطق الذي يدركه و هو في ذلك المحيط.

ثم إنه تبين من ما مرّ الجواب على السؤال الآخر، و هو إذا كانت الجنه عرضها السماوات و الأرض فأين تكون النار؟ لأنه حسب الجواب الأول يتضح أن النار هي الأخرى تقع في باطن هذا العالم، و لا ينافى وجودها فيه وجود الجنه فيه أيضاً (كما تبين من مثال جهازى الإرسال).

و أما حسب الجواب الثانى (و هو كون عالم الجنه و النار محيطا بهذا العالم الذى نعيش فيه) فيكون الجواب على هذا السؤال أوضح لأنه يمكن أن تكون النار محيطه بهذا العالم، و تكون الجنه محيطه بها فتكون النتيجة أن تكون الجنه أوسع من النار.

### سيما المتقين:

لما صرّح فى الآيه السابقه بأن الجنه أعدت للمتقين، تعرضت الآيه التاليه لذكر مواصفات المتقين فذكرت خمسا من صفاتهم الإنسانية الساميه هي:

١- إنهم ينفقون أموالهم فى جميع الأحوال، فى الشده و الرخاء، فى السراء و الضراء الذين يُنْفِقُونَ فى السَّراءِ وَ الضَّرَّاءِ .

و هم بهذا العمل يثبتون روح التعاطف مع الآخرين، و حب الخير الذى تغلغل فى نفوسهم، و لهذا فهم يقدمون على هذا العمل الصالح و الخطوه الإنسانية



فى جميع الظروف و الأحوال.

و لا شك أن الإنفاق فى حال الرخاء فقط لا يدل على التغلغل الكامل للصفات الإنسانيه فى أعماق الروح و إنما يدل على ذلك إذا أقدم الإنسان على الإنفاق و البذل فى مختلف الظروف و فى جميع الأحوال، فإن ذلك ممّا يدل على تجذر تلك الصفه فى النفوس.

يمكن أن يقال: و كيف يمكن للإنسان أن ينفق عند ما يكون فقيرا؟ و الجواب واضح تمام الوضوح:

أولا: لأن الفقراء يمكنهم إنفاق ما يستطيعون عليه، فليس للإنفاق حدّ معين لا فى القله و لا فى الكثره.

و ثانيا: لأن الإنفاق لا ينحصر فى بذل المال و الثروه فحسب، إذ للإنسان أن ينفق من كلّ ما وهبه الله، ثروه كان أو علما أو جاها أو غير ذلك من المواهب الإلهيه الاخرى.

و بهذا يريد الله سبحانه أن يركز روح التضحيه و العطاء، و البذل و السخاء حتّى فى نفوس الفقراء و المققلين حتّى يبقوا -بذلك- فى منأى عن الرذائل الأخلاقيه التى تنشأ من «البخل».

إن الذين يستصغرون الإنفاقات القليله فى سبيل الله و يحتقرونها إنما يذهبون هذا المذهب، لأنهم حسبوا لكلّ واحد منها حسابا مستقلا و خاصا، و لو أنهم ضموا هذه الإنفاقات الجزئيه بعضها إلى بعض، و درسوها مجتمعه لتغيرت نظرهم هذه.

فلو أن كلّ واحد من أهل قطر من الأقطار -فقراء و أغنياء- قدم مبلغا صغيرا لمساعدته الآخرين من عباد الله، و لتقدم الأهداف و المشاريع الاجتماعيه، لاستطاعوا أن يقوموا بأعمال ضخمه و كبيره، مضافا إلى ما يجنونه من هذا العمل من آثار معنويه لا ترتبط بحجم الإنفاق، و تعود إلى المنفق فى كلّ حال.

ص: ٦٩٧

و الملفت للنظر هو أن أول صفه ذكرت للمتقين هنا هو «الإنفاق» لأن هذه الآيات تذكر- في الحقيقة- ما يقابل الصفات التي ذكرت للمرابين و المستغلبين في الآيات السابقه. هذا مضافا إلى أن غض النظر عن المال و الثروه في السراء و الضراء من أبرز علائم التقوى.

٢- أنهم قادرون على السيطرة على غضبهم: وَ الْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ .

و لفظه «الكظم» تعنى فى اللغة شد رأس القربه عند ملئها، فيقول كظمت القربه إذا ملأتها ماء ثم شددت رأسها، و قد استعملت كناية عن يمتلى غضبا و لكنه لا ينتقم.

و أما لفظه «الغيظ» فتكون بمعنى شدّ الغضب و التوتر و الهيجان الروحى الشديد الحاصل للإنسان عند ما يرى ما يكره.

و حالات الغيظ و الغضب من أخطر الحالات التى تعرى الإنسان، و لو تركت و شأنها دون كبح لتحولت إلى نوع من الجنون الذى يفقد الإنسان معه السيطرة على أعصابه و تصرفاته و ردود فعله.

و لهذا فإن أكثر ما يقترفه الإنسان من جرائم و أخطاء و أخطرها على حياته هى التى تحصل فى هذه الحالة، و لهذا تجعل الآية «كظم الغيظ» و «كبح جماح الغضب» الصفه البارزه الثانيه من صفات المتقين.

قال النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم «من كظم غيظا و هو قادر على إنفاذه ملأه الله أمانة و إيمانا».

و هذا الحديث يفيد أن كظم الغيظ له أثر كبير فى تكامل الإنسان معنويا، و فى تقويه روح الإيمان لديه.

٣- أنهم يصلحون عن ظلمهم و العافين عن الناس .

إن كظم الغيظ أمر حسن جدا، إلا أنه غير كاف لوحده، إذ من الممكن أن

لا- يقلع ذلك جذور العدا من قلب المرء، فلا- بدّ للتخلص من هذه الجذور و الرواسب أن يقرن «كظم الغيظ» بخطوه أخرى و هي «العفو و الصفح» و لهذا أردفت صفه «الكظم للغيظ» التي هي بدورها من أنبل الصفات بمسأله العفو.

ثم إنّ المراد هو العفو و الصفح عن من يستحقون العفو، لا- الأعداء المجرمون الذين يحملهم العفو و الصفح على مزيد من الإجرام، و ينتهى بهم إلى الجراه أكثر.

□  
٤- أنهم محسنون: وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

و هنا إشاره إلى مرحله أعلى من «العفو و الصفح» و بهذا يرتقى المتقون من درجه إلى أعلى في سلّم التكامل المعنوى.

و هذه السلسله التكاملية هي أن لا يكتفى الإنسان تجاه الإساءه إليه بكظم الغيظ بل يعفو و يصفح عن المسيء ليغسل بذلك آثار العدا عن قلبه، بل يعمد إلى القضاء على جذور العدا في فؤاد خصمه المسيء إليه أيضاً، و ذلك بالإحسان إليه، و بذلك يكسب وده و حبه، و يمنع من تكرار الإساءه إليه في مستقبل الزمان.

و خلاصه القول أن القرآن يأمر المسلم بأن يكظم غيظه أولاً- ثم يطهر قلبه بالعفو عنه، ثم يطهر فؤاد خصمه من كلّ رواسب الضغينه و بقايا العدا بالإحسان إليه.

إنه تدرج عظيم من صفه إنسانيه خيره إلى صفه إنسانيه أعلى هي قمه الخلق و ذروه الكمال المعنوى.

و لقد روى في المصادر الشيعيه و السنيه في ذيل هذه الآيه أن جاريه لعلى بن الحسين جعلت تسكب عليه الماء ليتهياً للصلاه، فسقط الإبريق من يدها فشجه، فرفع رأسه إليها فقالت له الجاربه: إن الله تعالى يقول: وَ الْكَاطِمِينَ الْعَيْظَ فَقَالَ لَهَا: قَدْ كَظَمْتُ غَيْظِي. قَالَتْ: وَ الْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ قَالَ: «قَدْ عَفَوْتُ وَ قَدْ عَفَى اللَّهُ

عنك» قالت: وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ قال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله (١).

إن هذا الحديث شاهد حي بأن كل مرحلة متأخرة من تلك المراحل أفضل من المرحلة المتقدمة.

٥- إنهم لا يصرون على ذنب: وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً، أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ .

و«الفاحشه» مشتقه أصلا من الفحش، وهو كل ما اشتد قبحه من الذنوب، ولا يختص بالزنا خاصة، لأن الفحش في الأصل - يعنى «تجاوز الحد» الذى يشمل كل ذنب.

هذا وفي الآيه أعلاه إشاره إلى إحدى صفات المتقين، فالمتقون مضافا إلى الاتصاف بما ذكر من الصفات الإيجابية، إذا اقترفوا ذنبا، ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ، وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا .

يستفاد من هذه الآيه أن الإنسان لا يذنب ما دام يتذكر الله، فهو إنما يذنب إذا نسى الله تماما و اعترته الغفله، ولكن لا يلبث هذا النسيان و هذه الغفله - لدى المتقين - حتى تزول عنهم سريعا و يذكرون الله، فيتداركون ما فات منهم، و يصلحون ما أفسدوه.

إن المتقين يحسون إحساسا عميقا بأنه لا ملجأ لهم إلا الله، فلا بد أن يطلبوا منه المغفره لذنوبهم دون سواه وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ .

و ينبغي أن نعلم أن القرآن ذكر مضافا إلى «الفاحشه» «ظلم النفس» أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ و يمكن أن يكون الفرق بين هذين هو أن الفاحشه إشاره إلى الذنوب الكبيره، و«ظلم النفس» إشاره إلى الذنوب الصغيره.

ثم إنه سبحانه تأكيداً لهذه الصفة قال: وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ .

ص: ٧٠٠

١-١) -راجع تفسير الدر المنثور، و نور الثقلين في ذيل هذه الآيه.

و قد نقل عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «الإصرار: أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله، ولا يحدث نفسه بتوبه، فذلك الإصرار» (١).

و

فى أمالى الصدوق بإسناده إلى الإمام الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام قال: «لما نزلت هذه الآية إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاشْتَبَهَتْ تَعَفُّرُوا لِذُنُوبِهِمْ صعد إبليس جبلا بمكة يقال له ثور، فصرخ بأعلى صوته بعفاريته، فاجتمعوا إليه فقالوا يا سيدنا لم دعوتنا؟ قال: نزلت هذه الآية فمن لها؟ فقام عفريت من الشياطين.

فقال: أنا لها بكذا و كذا.

قال: لست لها فقام آخر فقال مثل ذلك.

فقال: لست لها.

فقال: الوسواس الخناس أنا لها.

قال: بماذا؟ قال: أعدهم و امنهم حتى يواقعوا الخطيئة فإذا واقعوا الخطيئة أنسيتهم الاستغفار.

فقال: أنت لها، فوكله بها إلى يوم القيامة» (٢).

و من الواضح أن النسيان ناشئ من التساهل، و الوسواس الشيطانيه، و إنما يبتلى بها من سلم نفسه لها، و خضع لتأثيرها، و تعاون مع الوسواس الخناس و استجاب له.

و لكن اليقظين المؤمنين تجدهم فى أعلى درجه من مراقبه النفس، فكلما صدرت منهم خطيئة أو بدر ذنب، بادروا فى أقرب فرصه- إلى غسل ما ران على قلوبهم و نفوسهم من درن المعصيه، و أغلقوا منافذ أفئدتهم على جنود الشيطان الذين لا يستطيعون النفوذ إلى القلوب من الأبواب المؤصده.

ص: ٧٠١

١-٢-١) - تفسير العياشى فى ذيل الآيه.

-٢

هذه هي أبرز صفات المتقين و أقوى المعالم في سلوكهم و خلقهم،قد تعرضت لذكرها الآيات السابقه.

و الآن جاء الدور ليذكر القرآن الكريم ما ينتظر هذا الفريق من الثواب و الجزاء اللائق.

و كان ذلك إذ قال سبحانه: **أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ\*وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا .**

لقد ذكر في هذه الآيه جزاء المتقين الذين تعرضت الآيات السابقه لذكر أوصافهم و أبرز صفاتهم،و هذا الجزاء عباره عن:مغفره ربانيه،و جنات خالديات تجرى من تحتها الأنهار بدون انقطاع أبدا.

و الحقيقه أن الإشاره هنا كانت إلى المواهب المعنويه(و هي المغفره و الطهاره الروحيه و التكامل المعنوى)أولا،ثم إلى المواهب الماديه.

ثم إنه سبحانه يعقب ما قال عن الجزاء بقوله: **وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** أى ما أروع هذا الجزاء الذى يعطى للعالمين لا للكسالى،الذين يتهربون من مسئولياتهم،و يتملصون من التزاماتهم.

ص: ٧٠٢

اشاره

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (137) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (138)

التفسير

اشاره

النظر في تاريخ الماضين و آثارهم:

يعتبر القرآن الكريم ربط الماضي بالحاضر و الحاضر بالماضي أمرا ضروريا لفهم الحقائق، لأن الارتباط بين هذين الزمانين (الماضي و الحاضر) يكشف عن مسئولية الأجيال القادمة، و يوقفها على واجبها، و لهذا قال سبحانه: قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ .

و هذا يعنى أن لله فى الأمم سننا لا تختص بهم، بل هى قوانين و سنن عامه فى الحياه تجرى على الحاضرين كما جرت على الماضين سواء بسواء، و هى سنن للتقدم و البقاء و سنن للتدهور و الاندحار، التقدم للمؤمنين المجاهدين المتحدين الواعين، و التدهور و الاندحار للأمم المتفرقه المتشتته الكافره الغارقه فى الذنوب و الآثام.

أجل إن للتاريخ أهميه حيويه لكل أمه من الأمم، لأن التاريخ يعكس الخصوصيات الأخلاقيه و الأعمال الصالحه و غير الصالحه، و الأفكار التي كانت سائده في الأجيال السابقه، كما يكشف عن علل سقوط المجتمعات أو سعادتها، و نجاحها و فشلها في العصور الغابره المختلفه.

و بكلمه واحده: إن التاريخ مرآه الحياه الروحيه و المعنويه للمجتمعات البشريه و هو لذلك خير مرشد محذر للأجيال القادمه. و لهذا نجد القرآن الكريم يدعو المسلمين إلى السير في الأرض و النظر بامعان و تدبر في آثار الأمم و الشعوب التي سادت ثم بادت إذ يقول: **فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ .**

إن آثار الماضين خير عبره للقادمين، و بالنظر فيها و الإعتبار بها يمكن للناس أن يعرفوا المسير الصحيح للسلوك و الحياه.

### **السياحه و السير في الأرض:**

إن الآثار المتبقيه في مختلف بلدان العالم من الأمم و العهود السابقه ما هي - في الحقيقه- إلا و تائق التاريخ الحيه و الناطقه. بل هي قادره على أن تعطينا من الحقائق و الأسرار أكثر مما يعطينا التاريخ المدون.

إن الآثار الباقيه من العصور السالفه بما فيها من أشكال و صور و نقوش و كيفيات تدلنا على ما كانت تتمتع به الأمم البائده من روح و فكر، و ثقافات و مبادئ، و عظمه أو صغار، في حين لا يجسد التاريخ المدون سوى الحوادث الواقعه و سوى صور حاويه عنها.

أجل، إن خرائب قصور الطغاه و بقايا آثار عظيمه مثل الأهرام، و برج بابل، و قصور كسرى، و آثار الحضاره المندثره لقوم سبأ، و مئات من نظائرها الاخرى



من هذه الآثار المنتشرة في شتى أنحاء هذا الكوكب تنطوي-رغم صمتها-على ألف حديث و حديث،و ألف كلمه و كلمه.

ولهذا عمد كبار الشعراء إلى الاستلهام من هذه الأطلال و الآثار و استوحوا منها الدروس و العبر و العظات،و نقلوا إلى الآخرين عبر قصائدهم ما كان يجيش في صدورهم،و ينقدح في نفوسهم من المشاعر و الأحاسيس المختلفه،تجاه ما تحكيه هذه الأطلال و الآثار من معاني و تعطيه من دلالات.

و لقد لخص أحد الأدباء هذه الحقيقه في بيت شعري إذ قال:

ان آثارنا تدل علينا

فانظروا بعدنا إلى الآثار

إن مطالعه سطر واحد من هذه التواريخ الحيه الناطقه تعادل-في الحقيقه- مطالعه كتاب ضخيم في مجال التاريخ،و أن ما تبعثه تلك المطالعه في النفس و الروح البشريه لا يقاس به شيء مهما عظم.

ذلك لأننا عند ما نقف أمام آثار الماضين تتمثل أمامنا تلك الآثار و كأنها قد استعادت حياتها،و دب فيها الروح،و كأن العظام النخره قد خرجت من تحت الأرض حيه،و كأن كل شيء قد عاد إلى سيرته الأولى،و كأن جميع الأشياء تنطق و تتحدث،ثم إذا أعدنا النظر وجدناها صامته ميتة منسيه، و هذه المقايسه بين هاتين الحالتين ترينا غباء أولئك المستبدون الذين يرتكبون آلاف الجرائم،و أفزع الجنائيات للوصول إلى الشهوات العابره،و اللذائذ الخاطفه.

ولهذا يحث القرآن المسلمين على السير في الأرض،و النظر إلى آثار الماضين المدفونه تحت التراب أو الباقية على ظهر الأرض بأم أعينهم،و أن يتخذوا من كل ذلك العظه و العبره و ما أكثر العبر.

أجل،إن الإسلام يقر مسأله السياحه و السير في الأرض،و يوليها أهميه كبرى،لكن لا كما يريد السياح و طلاب اللذه و الهوى،بل الدراسه آثار الأمم

الماضيهِ و التدبِر فيها، و الإعتبار بها، و الوقوف على آثار العظمه الإلهيه فى شتى نقاط العالم و هذا هو ما يسميه القرآن الكريم بالسير فى الأرض، و الذى تأمر به الآيات العديده و من ذلك:

١- قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (١).

٢- أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا (٢) و آيات اخرى...

٣- قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ (٣).

إن هذه الآيه تقول بأن السير فى الأرض و النظر فى آثار الماضيين يفتح العقول و العيون، و ينير القلوب و الأفئده، و يخلص الإنسان من الجمود و الركود.

و قد أشار الإمام على أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذه الحقيقه فى كلمات و خطب عديده منها

قوله:

«فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله و صولاته، و وقائعه و مثلاته و اتعضوا بمثاوى حدودهم، و مصارع جنوبهم و استعينوا بالله من لواقع الكبر كما تستعينونه من طوارق الدهر...

و احذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال، و ذميم الأعمال، فتذكروا فى الخير و الشرّ أحوالهم، و احذروا أن تكونوا أمثالهم فإذا تفكرتم فى تفاوت حالهم فالزموا كلّ أمر لزم العزه به شأنهم و زاحت الأعداء له عنهم، و مدت العافيه به عليهم، و انقادت النعمه له معهم، و وصلت الكرامه عليه جبلهم من الاجتناب للفرقه و اللزوم للألفه و التحاض عليها، و التواصى بها، و اجتنبوا كلّ أمر كسر فقرتهم و أوهن متنتهم، من تضاعن القلوب، و تشاحن الصدور

ص: ٧٠٦

١-١ (١) - النمل: ٧١.

٢-٢ (٢) - الحج: ٤٦.

٣-٣ (٣) - العنكبوت: ٢٠.

و تدابر النفوس، و تخاذل الأيدي...» (١).

و لكن هذا التعليم الإسلامى الحى قد نسى-مع الأسف- كبقية التعاليم الإسلاميه و لم يلتفت إليه المسلمون، بل إنّ بعض العلماء و المفكرين الإسلاميين حصروا الزمان و المكان فى فكرهم، فعاشوا فى عالم غير عالم الحياه هذا، و بقوا فى معزل عن التحولات الاجتماعيه، و أشغلوا أنفسهم بأمر حقيقه و قضايا جزئيه قليله الأثر بالقياس إلى الأعمال الجوهريه و القضايا الأساسيه.

ففى عالم نجد فيه البابوات و القساوسه المسيحيين الذين طال ما حبسوا أنفسهم بين جدران الكنائس قد خرجوا من تلك العزله الطويله و الانقطاع عن الحياه الاجتماعيه إلى العالم الخارجى و راحوا يسيحون فى الأرض، و يقيمون الجسور و العلاقات مع الأمم و الشعوب ليزدادوا خبره بالعصر، و يقفوا على متطلباته و مستجداته و متغيراته الكثيره، أ فلا يجدر بالمسلمين أن يعملوا بهذا التعليم الإسلامى الصريح، و يخرجوا من النطاق الفكرى الضيق الذى هم فيه حتّى يتحقق التحول المطلوب فى حياه الأمم الإسلاميه، و تحل الحركه الصاعده محل الجمود و التقهقر، و التقدّم المطرد مكان التخلف و التراجع.

و لما كان التعليم الإلهى العظيم-رغم كونه موجها إلى عامه المخاطبين- لا ينتفع به و لا يستلهمه إلا المتقون قال سبحانه تعقيا على الآيه السابقه هذا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدًى وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ .

أجل، إن المتقين الهادين هم الذين يتعظون بهذه الأمور لأنهم يبحثون عن كلّ ما يعمق روح التقوى فى نفوسهم، و يزيد بصيرتهم بالحقّ.

ص: ٧٠٧

اشاره

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَلْهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيَمَّحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣)

سبب النزول

لقد وردت في سبب نزول هذه الآيات روايات مختلفه،و لكن يستفاد من مجموعها أن هذه الآيات تتبع الآيات السابقه التي كانت تدور حول غزوه «أحد».

و في الحقيقه تعتبر هذه الآيات تحليلا و دراسه لنتائج غزوه «أحد» و أسبابها

لكونها تمثل دروساً كبيرة للمسلمين، وهي في نفس الوقت تسليه للمؤمنين و تقويه لقلوبهم و تثبت لأفئدتهم، لأن هذه الغزوه- كما أسلفنا- انتهت بسبب تجاهل بعض الرماه لأوامر النبي المشدده بالبقاء في الثغره، بنكسه المسلمين، و استشهاد ثله كبيره من أعيانهم و أبطال الإسلام البارزين، و من جملتهم «حمزه» عم النبي صلى الله عليه و آله و سلم.

فقد حضر النبي مع جماعه من أصحابه في تلك الليله، عند القتلى، و جلس عند كل واحد من الشهداء كرامه له و بكى عنده و استغفر له، ثم دفن جميع الشهداء عند «أحد» في جو من الحزن العميق، فكان المسلمون بحاجة- في هذه اللحظات- إلى ما يمسح عنهم كآبه العزيمه و مراره الانكسار، و يقوى قلوبهم و يفيدهم درساً في نفس الوقت من نتائج النكسه و عبرها- فنزلت الآيات المذكوره هنا.

## التفسير

### إشاره

#### دراسه نتائج غزوه أحد:

في الآيه الأولى من هذه الآيات حذر المسلمون من أن يعتريهم اليأس و الفتور بسبب النكسه في معركة واحده، و أن يتملكهم الحزن و ييأسوا من النصر النهائي، قال سبحانه: **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**.

أجل، لا يحسن بهم أن يشعروا بالوهن أو يتملكهم الحزن لما حدث، فالرجال الواعون هم الذين يستفيدون الدروس من الهزائم كما يستفيدونها من الانتصارات و هم الذين يتعرفون في ضوء النكسات على نقاط الضعف في أنفسهم أو مخططاتهم، و يقفون على مصدر الخطأ و الهزيمه، و يسعون لتحقيق النصر النهائي بالقضاء على تلك الثغرات و النواقص و الوهن المذكور في الآيه، هو- كما في

اللغه- كل ضعف يصيب الجسم أو الروح أو يصيب الإرادة و الإيمان.

على أن عبارته وَ أَنْتُمْ الْمَاعْلُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ عبارته غنيه بالمعاني حريه بالنظر و التأمل. إذ هي تعني أن هزيمتكم إنما كانت بسبب فقدانكم لروح الإيمان و آثارها، فلو أنكم لم تتجاهلوا أوامر الله سبحانه لم يصيبكم ما أصابكم، و لم يلحقكم ما لحقكم، و لكن لا- تحزنوا مع ذلك، فإنكم إذا ثبتتم على طريق الإيمان كان النصر النهائي حليفكم، و الهزيمة في معركة واحده لا- تعني الهزيمة النهائيه.

ثم إنه سبحانه يقول: إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ و بذلك يعطى للمسلمين درسا آخر للوصول إلى النصر النهائي.

و«القرح» جرح يصيب البدن بسبب اصطدامه بشيء خارجي.

فيكون معنى الآية أن هزيمتكم لا- ينبغي أن تكون أقل من عزيمة الأعداء، فهم رغم ما لحقهم من خسائر فادحة في الأرواح و الأموال- في بدر- حيث قتل منهم سبعون، و جرح و أسر كثير، فإنهم لم يقعدوا عن منابذتكم و مقاتلتكم، و لم يصرفهم ذلك عن الخروج إلى محاربتكم، بل تلافوا في هذه المعركة ما فاتهم، و تداركوا هزيمتهم، فإذا أصبتم في هذه المعركة بهزيمة شديده فإن عليكم أن لا تقعدوا حتى تلافوا ما فاتكم ف إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، فلما ذا الوهن و لماذا الحزن إذن؟ و يذهب بعض المفسرين إلى أن الآية تشير إلى الجراح التي لحقت بالكفار في أحد، و لكن هذا لا يستقيم لأن الجراح التي لحقت بالكفار في أحد لم تكن مثل الجراح التي لحقت بالمسلمين، هذا أولاً، و كذلك لا- يتناسب مع الجملة اللاحقه التي سيأتي تفسيرها فيما بعد ثانياً، ألا و هي قوله سبحانه: وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ .

ففي هذا القسم يشير سبحانه إلى واحده من السنن الإلهيه و هي أنه قد تحدث

فى حياه البشر حوادث حلوه أو مرّه و لكنها غير باقيه و لا- ثابتة مطلقا، فالانتصارات و الهزائم، و الغاليه و المغلوبه، و القوّه و الضعف كلّ ذلك يتغير و يتحول، و كلّ ذلك يزول و يتبدل، فلا ثبات و لا دوام لشيء منها، فيجب أن لا يتصور أحد أن الهزيمة فى معركة واحده و ما يتبعها من الآثار امور دائمه ثابتة باقيه، بل لا بدّ من الانتفاع بسنه التحول، و ذلك بتقييم أسباب الهزيمة و عواملها و تلافيتها، و تحويل الهزيمة إلى انتصار، فالحياء صعود و نزول، و أحداثها فى تحول مستمر، و تبدل دائم و لا ثبات لشيء من أوضاعها و أحوالها. وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ (١) نُدَاوِلُهَا يَبَيِّنُ النَّاسَ لَتَتَّضِحَ سِنُهُ التَّكَامِلِ مِنْ خِلَالِ ذَلِكَ.

ثمّ إنه سبحانه يشير إلى نتيجة هذه الحوادث المؤلمة فيقول: وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا أَى أَنْ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ لِأَجْلِ أَنْ يَتَمَيَّزَ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا عَنْ أَدْعِيَاءِ الْإِيمَانِ.

و بعبارة أخرى: إذا لم تحدث الحوادث المؤلمة فى حياه أمه من الأمم و تاريخها لم تتميز الصفوف و لم يتبين الخبيث و الطيب، لأن الانتصارات وحدها تخدع و تغرى، و تصيب المنتصرين بالغفلة بينما تشكل الهزائم عامل يقظه للمستعدين المتهيين، و توجب ظهور القيم، و تعرف بها حقائق الرجال.

ثمّ إنه فى قوله: وَ يَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ يشير إلى إحدى نتائج هذه الهزيمة المؤلمة، بأن هذه النتيجة كانت هى تقديمكم بعض الشهداء فى هذه المعركة، فيجب أن تعلموا أن هذا الدين لم يصل إليكم بالهين، فلا يفلت منكم كذلك فى المستقبل.

إن الأمه التى لا تضحى فى سبيل أهدافها المقدسه لا تعير تلك الأهداف أهميتها، و لا تعطىها قيمتها اللائقة، أما إذا ضحت فى سبيل أهدافها فإنها هى

ص: ٧١١

---

١ - ١) - «الأيام» جمع يوم يعبر به عن وقت طلوع الشمس إلى غروبها، و قد يطلق على فترات الانتصارات الكبرى فى حياه الشعوب، و «نداؤها» من المداولة بمعنى إذا صار الشيء من بعض القوم إلى البعض الآخر.

و أجيالها القادمة كذلك ستعطى لتلك الأهداف الأهميه و القيمه اللازمه و ستنظر إليها بعين الاحترام و الإكبار.

و يمكن أن يكون المراد من «الشهداء» هنا هم الذين يشهدون، فيكون معنى قوله وَ يَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ أَي أن يتخذ منكم بوقوع هذه الحادثه فى حياتكم -شهودا- لتعرفوا كيف أن عدم الانضباط و عدم التقيد بالأوامر يؤدي إلى الهزيمه، و ينتهى إلى النكسه المؤلمه.

و إن هؤلاء الشهود سيعلمون الأجيال اللاحقه دروس الانتصار و الهزيمه حتى لا يكرروا الأخطاء، و لا تقع حوادث مشابهه.

ثم إنه تعالى يختم هذا الاستعراض للسنن و الدروس و النتائج بقوله: وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ فهو لا ينصرهم و لا يدافع عنهم، و لا يمكنهم من المؤمنين الصالحين العاملين بتعاليم السماء الآخذين بسنن الله فى الكون و الحياه.

### الحوادث المره ميدان تربيته:

أجل، إن لمعركه «أحد» و ما لحق بالمسلمين فيها من هزيمه نتائج و آثارا، و من نتائجها و آثارها الطبيعيه أنها كشفت عن نقاط الضعف فى الجماعه و الثغرات الموجوده فى كيانها، و هى وسيله فعاله و مفيده لغسل تلك العيوب و التخلص من تلك النواقص و الثغرات، و لهذا قال سبحانه: وَ لِيُمَحِّصَ (١) اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا أَي أن الله أراد- فى هذه الواقعه- أن يتخلص المؤمنون من العيوب و يريهم ما هم مبتلون به من نقاط الضعف. إذ يجب لتحقيق الانتصارات فى المستقبل أن يمتحنوا فى بوتقه الاختبار، و يزنوا فيها أنفسهم كما-

قال الإمام على عليه السلام: «فى تقلب الأحوال علم جواهر الرجال».

ص: ٧١٢



ولهذا قد يكون لبعض الهزائم و النكسات من الأثر فى صياغه المجتمعات الإنسانيه و تربيتها ما يفوق أثر الانتصارات الظاهريه.

و الجدير بالذكر أن مؤلف تفسير المنار نقل عن استاذة مفتى مصر الأكبر الشيخ محمد عبده أنه رأى النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى المنام فقال له: «رأيت النبى صلى الله عليه و آله و سلم ليله الخميس الماضيه (غره ذى القعدة سنه ١٣٢٠) فى الرؤيا منصرفا مع أصحابه من أحد و هو يقول: «لو خيَّرت بين النصر و الهزيمة لاخترت الهزيمة» أى لما فى الهزيمة من التأديب الإلهى للمؤمنين و تعليمهم أن يأخذوا بالاحتياط و لا يغتروا بشيء يشغلهم عن الاستعداد و تسديد النظر (١).

و أما نتيجة هذه التربيه و الصياغه التى يتلقاها المؤمنون فى خضم المحن و المصائب و اتون الحوادث المره فهو حصول القدره الكافيه لدحر الشرك و الكفر دحرا ساحقا و كاملا. و إلى هذا أشار بقوله: وَ يَمْحَقَ (٢) الْكَافِرِينَ .

فإن المؤمنين بعد أن تخلصوا-فى دوامه الحوادث-من الشوائب يحصلون على القدره الكافيه للقضاء التدريجى على الشرك و الكفر، و تطهير مجتمعهم من هذه الأقدار و الشوائب، و هذا يعنى أنه لا بدّ أولا من تطهير النفس ثم تطهير الغير.

أى التطهر ثم التطهير.

و فى الحقيقه كما أن القمر-مع ما هو عليه من النور و البهاء الخاصين به-يفقد نوره شيئا فشيئا أمام وهج الشمس و بياض النهار حتى يغيب فى ظلمه المحاق فلا يعود يرى إلا عند ما تنسحب الشمس من الأفق، كذلك يأفل نجم الشرك و أهله و تتضاءل قوه الكفر و أشياعه كلما ازداد صفاء المسلمين المؤمنين، و خلصوا من رواسب الضعف و الاعوجاج و الانحراف.

ص: ٧١٣

(١-١) -المنار: ج ٤ ص ٤٦.

(٢-٢) -المحق: النقصان و منه المحاق لآخر الشهر إذا انمحق الهلال و امتحق و قل ضياؤه.

فهناك علاقته متقابلة بين تمحيص المؤمنين و ارتقائهم في مدارج الخلوص و الطهر، و مراتب الصفاء و التقوى، و بين انزياح الكفر و الشرك و اندثار معالمها و آثارهما عن ساحه الحياه الاجتماعيه.

هذه هي الحقيقه الكبرى و الخالده التي يلخصها القرآن في هاتين الجملتين اللتين تشكل الأولى منها المقدمه و الثانيه النتيجة.

ثم إنه يفيدنا القرآن درسا من واقعه «أحد» في تصحيح خطأ فكري وقع فيه المسلمون فيقول: **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهِدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ** أي هل تظنون أنكم تنالون أوج السعاده المعنويه بمجرد اختياركم لاسم المسلم، أو بمجرد أنكم حملتم العقيدته الإسلاميه في الفكر دون أن تطبقوا ما يتبعها من التعاليم؟ لو كان الأمر كذلك لكان هينا جدا، و لكن ليس كذلك حتما، فإنه ما لم تطبق التعاليم التي تتبع تلك المعتقدات، في واقع الحياه العمليه لم ينل أحد من تلك السعاده العظمى شيئا.

و هنا بالذات يجب أن تتميز الصفوف، و يعرف المجاهدون الصابرون عن غيرهم.

### مزاعم جوفاء

ثم إنه كان هناك جماعه من المسلمين -بعد معركة «بدر» و استشهاد فريق من أبطال الإسلام- يتمنون الموت في أحاديثهم و مجالسهم و يقولون: ليتنا نلنا الشهاده في «بدر»، و من الطبيعي أن يكون بعض تلك الجماعه صادقين في تمنيههم و البعض الآخرون كاذبين يتظاهرون بهذه الأمنيه، أو يجهلون حقيقه أنفسهم، و لكن لم يلبث هذا الوضع طويلا، فسرعان ما وقعت معركة أحد الرهيبه المؤلمه،

فقاتل المجاهدون الصادقون بشهامه و بساله و صدق و كرعوا كؤوس الشهاده، و حققوا أمانيتهم، و لكن الذين كانوا يتمنونها كذبا و تظاهرا ما إن رأوا علائم الهزيمة التي لحقت بالجيش الإسلامى فى تلك الواقعة حتى فروا خوفا و جينا، و ظنا بنفوسهم و أرواحهم، تاركين الساحه للعدو الغاشم، فنزلت هذه الآيه توبيخهم و تعاتبهم إذ تقول: **وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ، فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ** فلما ذا فررتم و هربتم من الشىء الذى كنتم تتمنونه طويلا و كيف يفر المرء من محبوبه، و هو يراه و ينظر إليه؟

### دراسه سريعه لعلل الهزيمة فى «أحد»:

لقد مررنا فى الآيات السابقه فى هذا المقطع من الحديث على عبارات تكشف كل واحد منها القناع عن واحده من أسرار الهزيمة التى وقعت فى معركة أحد، و ها نحن نشير إلى أهم و أبرز هذه العوامل التى تعاضدت فأدت إلى هذه النكسه المره، و الحاويه لكثير من العبر فى نفس الوقت، و هذه العوامل هى:

١- الخطأ فى المحاسبه عند بعض المسلمين الحديثى العهد بالإسلام فى فهم مفاهيمه و تعاليمه، حيث إنهم تصوروا أن إظهار الإيمان وحده يكفى لتحقيق الانتصار، و إن الله-لذلك سينزل عليهم نصره، و يمددهم بالقوى الغيبية فى جميع الميادين، و لهذا تناسوا و تجاهلوا السنن الإلهيه فى مجال الأسباب الطبيعيه للانتصار من إختيار الخطه الصحيحه، و الإعداد القوى اللازمه، و اليقظه القتاليه.

٢- عدم الانضباط العسكرى و مخالفه أوامر النبى القائد المشدده للرمه بالبقاء فى الثغر من الجبل، و الذب عن ظهور المسلمين و قد كان هذا هو العامل الحقيقى المؤثر للهزيمة.

٣- حب الدنيا و الحرص على الحطام الذى دفع بعض المسلمين الحديثى

العهد بالإسلام إلى الانصراف إلى جمع الغنائم، و ترك ملاحقه العدو، و وضع الأسلحه حتّى لا يتأخروا عن الآخرين فى حيازه الغنائم، و كان هذا هو العامل الثالث لتلك النكسه الداميه التى علمتهم أن الجهاد فى سبيل الله يستدعى نسيان جميع هذه الأمور و التوجه بالكامل إلى الهدف.

٤- الغرور الناشئ عن الإنتصار الساحق و اللامع فى معركة بدر إلى درجه أنه أنسى بعض المسلمين قوه العدو، و جعلهم يحتقرون تجهيزاته و طاقاته، و يستصغرون شأنه.

هذه هى بعض نقاط الضعف التى ينبغى أن تزول فى مياه هذه النكسه المؤلمه الساخنه، و تتبخر فى أتونها.

اشاره

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)

سبب النزول

إن الآيه الأولى من هاتين الآيتين ناظره أيضا إلى حادثه أخرى من حوادث معركة «أحد» وهى الصيحه التى ارتفعت فجأه فى ذروه القتال بين المسلمين و الوثنيين أن محمدا قد قتل.

و لقد قارنت هذه الصيحه نفس اللحظة التى رمى فيها «عمرو بن قمنه الحارثى» النبى صلى الله عليه و آله و سلم بحجر فكسر به رباعيته و شجه فى وجهه، فسأل الدم، و غطى

وجهه الشريف (١) فقد كان العدو يريد في هذه اللحظة أن يقضى على رسول الله، ولكن «مصعب بن عمير» وهو من حملة الرايات في الجيش الإسلامي ذب عنه حتى قتل دون النبي، فتوهم العدو أن النبي قد قتل، ولهذا صاح: «إلا أن محمداً قد قتل، ليخبر الناس بذلك الأمر».

وقد كان لانتشار هذا الخبر أثره الإيجابي في معنويات الوثنيين بقدر ما ترك من الأثر السيء في نفوس المسلمين حيث تزعزعت روحيتهم وزلزلوا زلزالاً شديداً، فاضطرب جمع كبير منهم كانوا يشكلون أغلبية الجيش الإسلامي، وأسرعوا في الخروج من ميدان القتال، بل وفكر بعضهم أن يرتد عن الإسلام وأبو دجانه وطلحه وآخرون، يصرون على الثبات والمقاومة ويدعون الناس إليه.

فقد جاء أنس بن النضر إلى ذلك الفريق الذي كان يفكر في الفرار وقال لهم:

«يا قوم إن كان قد قتل محمد فرب محمد لم يقتل فقاتلوا على ما قاتل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وموتوا على ما مات عليه» ثم شد بسيفه وحمل على الكفار وقاتل حتى قتل، ثم لم يمض وقت طويل حتى تبين أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم على قيد الحياة، وتبين على أثره خطأ ذلك الخبر أو كذبه، فنزلت الآية الأولى - من الآيتين الحاضرتين - توبخ الذين لاذوا بالفرار بشده.

## التفسير

### إشاره

#### لا لعباده الشخصيه و تقديس الفرد:

تعلم الآية الأولى من هاتين الآيتين حقيقه أخرى للمسلمين استلهاما من

ص: ٧١٨

---

١- ١) - ولقد جاء في بعض كتب التاريخ أن هذه الإصابات لحقت بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم من جراء هجمات أفراد عديدين من العدو.

أحداث معركة «أحد» إذ تقول: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ هِيَ أَنَّ الْإِسْلَامَ لَيْسَ عِبَادَةَ الشَّخْصِيَّةِ حَتَّىٰ إِذَا قَتَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ وَ نَالَ الشَّهَادَةَ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ - افْتِرَاضًا - يَنْتَهَى كُلُّ شَيْءٍ وَ يَسْقُطُ وَاجِبُ الْجِهَادِ وَ النُّضَالِ عَنِ كَاهِلِ الْمُسْلِمِينَ، بَلْ إِنْ هَذَا الْوَاجِبُ مُسْتَمِرٌّ، وَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُوَاصِلُوهُ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ لَا يَنْتَهَى بِمَوْتِ النَّبِيِّ أَوْ اسْتِشْهَادِهِ، وَ هُوَ الدِّينُ الْحَقُّ الَّذِي أَنْزَلَ لِيُقَيِّ خَالِدًا إِلَى الْأَبَدِ.

إِنْ عِبَادَةُ الشَّخْصِيَّةِ وَ تَقْدِيسُ الْفَرْدِ مِنْ أخطر مَا يَصِيبُ أَيَّ حَرَكَةٍ جِهَادِيَّةٍ وَ يَهْدِدُهَا بِالسَّقُوطِ وَ الْإِنْتِهَاءِ، فَإِنْ ارْتَبَطَ الْحَرَكَةُ أَوْ الدِّينُ بِشَخْصٍ مَعِينٍ حَتَّىٰ لَوْ كَانَ ذَلِكَ هُوَ النَّبِيُّ الْخَاتَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ مَعْنَاهُ تَوْقِفُ كُلِّ الْفَعَالِيَّاتِ وَ كُلِّ تَقَدُّمٍ بِفَقْدَانِهِ وَ غِيَابِهِ عَنِ السَّاحَةِ، وَ هَذَا النَّوْعُ مِنَ الْارْتِبَاطِ هُوَ أَحَدُ عِلَاقَاتِ النِّقْصِ فِي الرِّشْدِ الْاجْتِمَاعِيِّ.

إِنَّ تَرْكِيزَ النَّبِيِّ وَ إِصْرَارَهُ عَلَى مَكَافَحَةِ تَقْدِيسِ الْفَرْدِ وَ عِبَادَةِ الشَّخْصِيَّةِ أَيَّ أُخْرَى مِنْ آيَاتِ صَدَقَتِهِ، وَ دَلِيلًا - آخِرَ يَدِلُّ عَلَى حَقَائِقِهِ، لِأَنَّ قِيَامَهُ وَ دَعْوَتَهُ لَوْ كَانَ لِنَفْسِهِ وَ بِهَدَفِ تَحْقِيقِ مَصَالِحِهِ الشَّخْصِيَّةِ لِلزَّمِّ أَنْ يعمقَ فِي الْأَذْهَانِ وَ الْقُلُوبِ هَذِهِ الْفِكْرَةَ، وَ يَزِيدُ مِنْ تَوْجِيهِ الْأَنْظَارِ إِلَى نَفْسِهِ وَ أَنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ فِي هَذَا الدِّينِ مَرْتَبَةٌ بِشَخْصِهِ بِحَيْثُ إِذَا غَابَ عَنْهُمْ ذَهَبَ وَ انْتَهَى كُلُّ شَيْءٍ، وَ لَكِنِ الْقَادَةَ الصَّادِقِينَ كَالنَّبِيِّ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ لَا يَفْعَلُونَ مِثْلَ هَذَا أَبَدًا، وَ لَا يَشْجَعُونَ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْأَفْكَارِ، بَلْ يَكْفَحُونَهَا بِقُوَّتِهِ، وَ يَقُولُونَ: إِنْ أَهْدَانَا أَعْلَى مِنْ أَشْخَاصِنَا وَ هِيَ لَا تَنْتَهَى بِمَوْتِنَا وَ بَغْيَانَا، وَ لِهَذَا يَقُولُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ؟ وَ هُوَ بِذَلِكَ يَسْتَنْكِرُ مَا دَارَ فِي خَلْدِ الْبَعْضِ أَوْ قَدْ يَدُورُ مِنْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي هَذَا الدِّينِ يَنْتَهَى بِغِيَابِ النَّبِيِّ - الْقَائِدِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ.

و الجدير بالذكر أن القرآن استخدم للتعبير عن الرده إلى الجاهليه كلمه **إِنْقَلَبْتُمْ عَلَيَّ** **أَعْقَابِكُمْ** و«الأعقاب» جمع عقب(وزان خشن)بمعنى مؤخره القدم،فهو تعبير موح يصور التراجع إلى الوراء و الارتداد الواقعي،و هو أكثر إيحاء و أقوى تصويرا من لفظه الرده و الرجوع و العوده،لأنه بمعنى السير القهقري.

□  
ثم إنه سبحانه يقول: **وَمِنْ يَنْقَلِبْ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا** يعني أن العوده إلى الكفر و الوثنيه تضرّكم أنتم دون الله سبحانه،لأن أمثال هذا التراجع لا يعنى سوى توقفكم فى طريق الخير و السعى نحو السعاده الكامله،بل فقدان كلّ ما حصلتموه من العزّه و الكرامه و المجد بسرعه.

ثمّ إنه لما كان هناك-فى معركة أحد-أقلية استمرت على جهادها رغم الصعوبات،و انتشار الخبر المفجع عن مقتل الرسول،كان من الطبيعى أن ينال صمودهم هذا و ثباتهم التقدير اللائق،و لهذا قال سبحانه: **وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** و بذلك مدح القرآن الكريم استقامتهم و صمودهم،و وصفهم بالشاكرين لأنهم أحسنوا الاستفاده و الانتفاع بالنعم فى سبيل الله،و هذا أفضل مصاديق الشكر.

إن الدرس الذى تعطيه هذه الآيه فى مكافحه عباده الشخصيه و تقديس الفرد هو أبلغ و أفضل درس لجميع المسلمين فى جميع العصور و الأزمنه،فعلينهم جميعا أن يتعلموا من القرآن أن لا-يربطوا القضايا الإستراتيجيه و الأهداف العليا و المصيريه بالأشخاص،بل لا بدّ أن يلتفتوا حول الأسس و المبادئ الخالده التى لا تفنى و لا تتغير،و لا تتأثر بتغير الأشخاص أو غيابهم عن الساحة بسبب الموت أو القتل حتّى لو كان ذلك هو النبىّ الأكرم،لكيلا تتوقف عجله المسيره عن الحركه، و لا يتعطل دولا ب العمل عن الدوران،بل إن ذلك هو رمز الخلود فى أى مبدأ و حركه أساسا.



و على هذا الأساس فإن جميع البرامج و التشكيلات المرتبطه بالأشخاص و القائمه بوجودهم الشخصى هى فى الحقيقه برامج و تشكيلات غير سليمه و لا طبيعيه، و هى معرضه للزوال و الفناء فى آيه لحظه.

و ممّا يؤسف له أن يكون أغلب التشكيلات الإسلاميه اليوم من هذا القبيل، أى أنها قائمه بالأشخاص، و لذلك فهى سرعان ما تزول و تتهاوى و تتلاشى عند ما يغيب الأشخاص بذواتهم عن الساحه.

إن على المسلمين أن يستلهموا من هذه الآيه فيقيموا مؤسساتهم المتنوعه المختلفه بنحو يستفاد فيها من مواهب الأشخاص اللاتقنين الموهوبين دون أن يكون مصيرها مرتبطا بمصيرهم حتى لا تندثر بتغيرهم أو غيابهم.

ثم إن جماعه كثيره من المسلمين اربعوا و زلزلوا لشائعه مقتل النبى فى أحد - كما أسلفنا - إلى درجه أنهم تركوا ساحه المعركه، و فروا بأنفسهم من الموت و حتى أن بعضهم فكر فى الرده عن الإسلام فكان قوله سبحانه: **وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا** - و هو يكرر توبيخهم، و تنبيههم إلى أن الموت بيد الله، و الفرار لا ينفع فى الخلاص من الأجل الإلهى، فإذا صح أن النبى قتل فى المعركه و نال الشهاده لم يكن ذلك إلا تحقيقا لسنه إلهيه، فلما ذا خاف المسلمون و كفوا عن القتال؟؟ و من ناحيه أخرى أن الفرار من المعركه لا يدفع الأجل كما أن مواصله القتال و البقاء فى المعركه لا يقرب هو الآخر أجلا، فالفرار من ميدان الجهاد حفاظا على النفس لغو لا فائده فيه.

و هناك بحث حول معنى الأجل، و أن منه حتميا، و منه معلقا، و الفرق بين النوعين سنوافيك به فى تفسير الآيه الثانيه من سوره الأنعام بإذن الله تعالى.

و بعد عرض هذه الحقائق يعقب سبحانه على ما قال بقوله: **وَ مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ**

الدُّلْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا\* وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا

أى أن ما عمله الإنسان لا يضيع أبدا، فإن كان هدفه دنيويا ماديا كما كان عليه بعض المقاتلين في «أحد» فإنه سيحصل على ما يسعى إليه و يناله.

و أما إذا كان هدفه أسمى من ذلك، و صب جهوده في سبيل الحصول على الحياه الخالده و الفضائل الإنسانيه بلغ إلى هدفه حتما و أوتى ثواب الآخره الذى هو أعظم من كل ثواب و أسمى من كل نتيجة، فلما ذا إذن لا يصرف الإنسان جهوده، و يوظف ما أوتى من طاقات معنويه و ماديه فى الطريق الثانى و هو الطريق الخالد السامى؟ و تأكيدا لهذه الحقيقه قال سبحانه: مره أخرى وَ سَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ .

و الجدير بالتأمل أن الفعل فى هذه العبارة جاء فى الآيه السابقه، بصيغه الغائب سَيَجْزِي و جاء هنا فى صوره المتكلم «سنجزى» هذا يفيد غايه التأكيد للوعد الإلهى بإعطاء الثواب لهم، فهو تدرج من الوعد العادى إلى الوعد المؤكد، فكأنَّ الله يريد أن يقول- و ببساطه- أنا ضامن لجزائهم و ثوابهم.

ثم إنه

جاء فى تفسير «مجمع البيان» فى ذيل هذه الآيه عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: إنه أصاب عليا عليه السلام يوم «أحد» إحدى و ستون جراحه، و أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم أمر أم سليم و أم عطيه أن تداوياه، فقالتا إنا لا نعالج منه مكانا إلا انفتق مكان آخر، و قد خفنا عليه، فدخل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و المسلمون يعودونه و هو قرحه واحده فجعل يمسحه بيده، و يقول: «إن رجلا لقى هذا فى الله فقد أبلى و أعذر» و كان القرح الذى يمسحه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يلتئم، و

قال على عليه السلام: «الحمد لله إذ لم أفر و لم أول الدبر» فشكر الله له ذلك فى موضعين من القرآن و هو قوله تعالى: وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ و قوله تعالى: وَ سَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ .

ص: ٧٢٢

اشاره

وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرًا مِمَّا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَ  
مَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ  
ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)

التفسير

اشاره

المجاهدون السابقون:

بعد استعراض حوادث معركة «أحد» في الآيات السابقة، جاءت الآيات الحاضرة لتحث المسلمين على التضحية و الثبات و تشجعهم و تثبتهم بذكر تضحيات من سبقوهم من أصحاب الرسل الماضيين و أتباعهم المؤمنين الصادقين الأبطال، و توبخ ضمنا أولئك الذين فروا في «أحد» و حدثوا أنفسهم بما حدثوا إذ

يقول سبحانه: في الآيه الأولى من هذه الآيات: وَ كَأَيِّن (١) مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِئِيُونَ (٢) كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَنصَارَ الْأَنْبِيَاءِ إِذَا وَاجَهُوا الْمِصَاعِبَ وَ الْجِرَاحَاتِ وَ الشَّدَائِدَ فِي قِتَالِهِمُ الْأَعْدَاءَ لَمْ يَشْعُرُوا بِالضَّعْفِ وَ الْهَوَانِ أَبَدًا، وَ لَمْ يَخْضَعُوا لِلْعَدُوِّ أَوْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ، وَ مِنْ الْبِدِيهِ أَنْ اللَّهُ تَعَالَى يَحِبُّ مِثْلَ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يَثْبُتُونَ وَ يَصْبِرُونَ فِي الْقِتَالِ وَ مَا ضَعُفُوا وَ مَا اسْتَكَانُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ .

فهؤلاء عند ما كانوا يواجهون المشاكل بسبب بعض الأخطاء أو العثرات و عدم الانضباط لم يفكروا في الاستسلام للأمر الواقع، أو يحدثوا أنفسهم بالفرار أو الارتداد عن الدين و العقيدة بل كانوا يتضرعون إلى الله يطلبون منه الصبر و الثبات، و العون و المدد و يقولون رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَ إِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا\* وَ تَبَّتْ أَعْدَامُنَا وَ أَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

إنهم بمثل هذا التفكير الصحيح و العمل الصالح كانوا يحصلون على ثوابهم دون تأخير، و هو ثواب مزدوج، أما في الدنيا فالنصر و الفتح، و أما في الآخرة فما أعد الله للمؤمنين المجاهدين الصادقين: فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَ حُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ .

ثم إنه سبحانه يعد هؤلاء في نهايه هذه الآيه- من المحسنين إذ يقول:

وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

و بهذا النحو يبين القرآن درسا حيا للمسلمين الحديثي العهد بالإسلام، من

ص: ٧٢٤

١- ١) - «كأين» أي ما أكثر، و يقال أنها اسم مركب-أصلا- من كاف التشبيه و أي الاستفهاميه فظهرتا في صورته الكلمه الواحده التي فقد عندها معنيا الجزئين، و اكتسبت معني جديدًا هو «ما أكثر».

٢- ٢) - «ريون» جمع «ربي» و«زان» «على» يطلق على من اشتد ارتباطه بالله عزّ و جلّ، و يكون مؤمنا عالما، صامدا مخلصا.

حياه الأمم السابقه و سلوكهم مع أنبيائهم، و كيفيه تعاملهم مع المشكلات الطارئه، و كيفيه التغلب عليها، و هو درس من شأنه أن يريهم و يعدهم للحوادث المستقبليه، و المعارك القادمه.

## وقفات اخرى عند هذه الآيات

ثم إن هناك فى هذه الآيات نقاطا هامه أخرى جديره بالتوجه و الالتفات نشير إليها فيما يلى:

١-الصبر- كما أشرنا إليه سابقا-يعنى الثبات و الصمود، و لهذا جاء فى هذه الآيه فى مقابل «الضعف و الاستكانه» كما و يدل على ذلك كون الصابرين فى رديف المحسنين إذ قال فى الآيه الأولى: **وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** و قال فى الآيه الثالثه **وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** و هو إشعار بأن الإحسان لا يمكن إلا بالثبات و الصمود و الصبر، لأن المحسن تواجهه آلاف المشاكل، فإذا لم يكن مزودا بالصمود و الصبر و الثبات و الاستقامه لم يمكنه الاستمرار فى عمله، بل سرعان ما يتركه فى خضم المشكلات.

٢-إن المجاهدين الحقيقيين هم الذين لا- ينسبون الهزيمه إلى غيرهم، أو يسندونها إلى عوامل و أسباب خياليه و وهميه، بل يبحثون عنها فى نفوسهم و ذواتهم، و يحاولون- بصدق- التخلص منها من خلال تصحيح الأخطاء، و ترميم الثغرات، بل لا يتلفظون بكلمه الهزيمه، إنما يعبرون عنها بالإسراف، و الإفراط غير المبرر، تماما على العكس منا اليوم حيث نسعى غالبا لأن نتجاهل هزائمنا بالمره، و أن ننسبها إلى عوامل خارجيه لا تمت إلى ذواتنا بصله، و لا ترتبط بسلوكنا و أفكارنا، و لهذا فإننا لا نفكر فى إصلاح الأخطاء، و إزاله نقاط ضعفنا.

٣-لقد عبرت الآيه الثالثه عن الجزاء الدينوى بثواب الدنيا، و لكنها عبرت

عن الجزء الأخرى بحسن ثواب الآخرة، وهذه إشارة إلى أن ثواب الآخرة يختلف عن ثواب الدنيا اختلافاً كلياً، لأن ثواب الدنيا مهما يكن فهو ممزوج بالفناء والعدم، ويقترب ببعض المنغصات والمكروهات الذي هو من طبيعته الحياه الدنيا، في حين أن ثواب الآخرة حسن كله، إنه خير خالص لا فناء فيه ولا عناء، ولا انقطاع فيه ولا انتهاء، ولا كدورات فيه ولا منغصات، ولا متاعب ولا مزعجات.

ص: ٧٢٤

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) يَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَ مَا وَاهُمُ النَّارُ وَ بئسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)

التفسير

اشاره

تحذيرات مكرره:

هذه الآيات -كسابقاتها- نزلت بعد معركة «أحد» و بهدف تقويم و تحليل الحوادث التي وقعت أو لا بست تلكم المعركة، و يشهد بهذا وضع هذه الآيات و الآيات السابقة.

إن ما يبدو للنظر هو أن أعداء الإسلام أخذوا-بعد معركة أحد- يسعون في إلقاء الفرقة في صفوف المسلمين بيث سلسله من الدعايات المسمومه، و المغلفه أحيانا بلباس النصيحه، و التحرق على ما آل إليه المسلمون، و كانوا بالاستفاده من

الأوضاع النفسيه المترديه التى كان يمر بها جماعه من المسلمين،يحاولون زرع بذور النفور من الإسلام بينهم.

و لا يستبعد أن يكون اليهود و النصارى قد ساعدوا المنافقين فى هذه الخطة الحاقده،كما حدث فى المعركه نفسها حيث كان لهم حظ فى الترويج للشائعه التى أطلقت حول مقتل النبى صلى الله عليه و آله و سلم بهدف إضعاف معنويات المقاتلين المسلمين.

الآيه الأولى من هذه الآيات تقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَزِدُّوكُمْ عَلَىٰ أَغْقَابِكُمْ فَتَنَقَّبُوا خَاسِرِينَ فهى تحذر المسلمين من إطاعه الكفار و تقول:إن إطاعه الكفار تعنى العوده إلى الجاهليه بعد تلك الرحله العظيمه فى طريق التكامل المعنوى و المادى فى ظل التعاليم الإسلاميه.

إن إطاعه الكفار فى وساوسهم و تلقيناتهم،و الإصغاء إلى دعاياتهم تعنى العوده إلى النقطة الأولى ألا و هى الكفر و الفساد و السقوط فى حضيض الانحطاط، و فى هذه الصوره يكونون قد ارتكبوا إثما كبيرا ستلازمهم تبعاته،و آثاره الشريره، فأيه خساره أكبر من أن يستبدل الإنسان الإيمان بالكفر،و النور بالظلام،و الهدى بالضلال و السعاده بالشقاء؟! ثم إنه سبحانه يؤكد بأن لهم خير ناصر و ولى و هو الله: بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَ هُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ .

إنه الناصر الذى لا يغلب،بل لا تساوى قدرته أية قدره،فى حين ينهزم غيره من الموالى،و يندحر غيره من الأسياد.

ثم إنه سبحانه يشير إلى نموذج من نماذج التأييد الإلهى للمسلمين فى أخرج الظروف،و أحلك المراحل إذ يقول: سَيَنْلِقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ .

ففى هذا المنقطع من الآيه يشير إلى نجاه المسلمين بعد معركه أحد،و خلاصهم بأعجوبه،و هو بذلك-كما أسلفنا-يشير إلى واحد من موارد حمايه الله للمسلمين



و غضبه على الكفار، و يطمئن المسلمين إلى المستقبل و يزيد من ثقتهم بأنفسهم، و يؤملهم في التأييدات الإلهية القادمة.

فالوثنيون المكيون- كما سبق أن قلنا في قصه معركة أحد- مع أنهم أحرزوا في تلك المعركة انتصارا ملفتا للنظر، و استطاعوا أن يبددوا الجيش الإسلامي و لو ظاهرا، رأوا أن يعودوا إلى ساحة المعركة، و يأتوا على البقيه الباقية من القوه الإسلاميه، بل و لم يترددوا مطلقا في إغاره على المدينه المنوره، و القضاء على شخص النبي الكريم صلى الله عليه و آله و سلم الذي كان قد بلغهم عدم صحه الخبر بمقتله في تلك المعركة.

إلا أن الله سبحانه قد ألقى في قلوبهم رعبا عجيبا، و خوفا بالغاً صرفهم عن نيتهم تلك.

على أن هذا الخوف الذي لم يكن له ما يبره أبدا سوى أنه من خواص الكفر و الوثنيه و الاعتقاد بالخرافه قد شمل وجودهم كله حتى أنهم- كما نقرأ ذلك في الأحاديث- كانوا عند عودتهم من «أحد» و اقترابهم من مكه أشبه ما يكونون بجيش منهزم مندحر، رغم ما قد حققوه من انتصار شبه ساحق.

و هذا هو ما تلخصه الآيه إذ تقول: سَيُنْزِلُ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ أَي أَنَّا كَمَا أَلْقَيْنَا الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ الْكُفَّارِ فِي أَعْقَابِ مَعْرَكَةِ «أَحَدٍ» وَ رَأَيْتُمْ نُمُودَ جَا مِنْهُ بِأَمْ أَعْيُنِكُمْ، سنلقى مثله في قلوب الذين كفروا فيما بعد، و لهذا ينبغي أن تطمئنوا إلى المستقبل، و لا تأخذكم في الله لومه لائم، و لا تهزكم و لا ترزعركم شماته شامت و وسوسه موسوس.

و الجدير بالذكر أن الآيه تعلق نشأه هذا الرعب الواقع في قلوب الكفار كالتالي: بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا .

لقد كانوا قوما أهل خرافه، لا يتبعون دليلا، و لا يلتمسون برهانا، و لهذا كثيرا

ما كانت المحقرات من الأشياء تعظم في عيونهم و أفكارهم، فيتخذون الحجر و المدر و الخشب معبودات و آلهه لهم، يضعفون أمام الحوادث ضعفا عجيبا و يستكينون لها استكانه مذلله لأنهم سرعان ما يخطئون في حساباتهم و تقديراتهم، فإذا ما حدث حادث طفيف في حياتهم- كما لو سمعوا مثلا- بأن المسلمين المهزومين عادوا مع جراحاتهم و جرحاهم إلى ساحه المعركه لملاحقه الأعداء، عظم ذلك في عيونهم و كبر في نظرهم، و حسبوا له أعظم حساب، و خافوا من ذلك أشد الخوف، و هي بعينها الحاله التي يعانى منها المستكبرون في عالمنا الراهن و عصرنا الحاضر، حيث إننا نشاهد كيف يخافون من أصغر حادث، فيتصورون الذره جبلا و الحبه قبه، و ذلك لأنهم لا يركنون إلى ركن و ثيق، و لم يختاروا لأنفسهم كهفا حصينا، من إيمان صحيح و عقيدته مستقيمه.

لقد ظلم هؤلاء الكافرون أنفسهم و ظلموا مجتمعاتهم ف: مَاؤَاهُمْ النَّارُ وَ بئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ و ما أسوأه من مَثْوَى و مآل.

### الإنتصار بسبب خوف العدو:

تفيد روايات كثيره أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم كان يمتاز في جملة ما يمتاز به أنه كان ينتصر على أعدائه بسبب خوفهم و إلقاء الرعب في قلوبهم (١).

إن هذا الموضوع يشير في نفس الوقت- إلى أحد عوامل الإنتصار في المعارك و الحروب و خاصه في مثل هذا اليوم الذى تعتبر فيه معنويات المقاتلين من أهم الأمور العسكريه، و من أهم القضايا في شؤون التكتيك الحربى.

و لهذا فإن لمعنويه المقاتلين المرتفعه من التأثير في تحقيق النصر ما ليس

ص: ٧٣٠

للسلاح من حيث الكميّه و الكيفيه.

من هنا بالغ الإسلام في رفع معنويات المقاتلين، فمضى يقوى فيهم روح الإيمان و الحبّ للجهاد، و الاعتزاز بالشهاده، و الاتكال على الله القادر المنان و بهذا بلغ بالمجاهدين المسلمين أعلى قمم الاستقامه و الثبات، و الشجاعه و البساله في حين كان المشركون و عبده الأوثان، الذين لم يكونوا يعتقدون إلاّ بأصنام صم بكم لا تضر و لا تنفع، و لا يؤمنون بمعاد و قيامه و حياه بعد الموت، كانوا يعانون من نفسيه ضعيفه منهزمه مهزوزه، فكان هذا التفاوت بين النفسيتين هو أحد العوامل المؤثره لانتصار المسلمين عليهم.

ص: ٧٣١

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعِيدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَدَقَكُمُ عَنْهُمْ لَيْبَتِكُمْ وَ لَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تَضَعُونَ وَلَا تَلُودُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لَكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)

## الهزيمة بعد الانتصار:

قاتل المسلمون في المرحلة الأولى من معركة «أحد» بشجاعه خاصه، و وقفوا وقفه رجل واحد فأحرزوا انتصارا سريعا، و بددوا جيش العدو في أقرب وقت، فدب السرور و الفرح في المعسكر الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه كما أسلفنا، إلا أن تجاهل فريق من الرماه لأوامر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم المشدده بالبقاء عند ثغر الجبل و المحافظه عليه سبب في أن تنقلب الآية.

فقد أقدم ذلك الفريق من الرماه الذين كلفهم النبى القائد صلى الله عليه و آله و سلم بحراسه الثغر الموجود فى جبل «عينين» بقياده «عبد الله بن جبير» على ترك موقعهم المهم جدا عند ما عرفوا بهزيمة قريش، و اشتغال المسلمين بجمع الغنائم، و فسح هذا الأمر المجال لكمين من قريش فى أن يهاجموا المسلمين من الخلف فيتحمل الجيش الإسلامى ضربه نكراء.

و عند ما عاد المسلمون بعد تحمل خسائر عظيمه إلى المدينه كان يسأل أحدهم رفيقه: ألم يعدنا الله سبحانه بالفتح و النصر، فلما ذا هزمنا فى هذه المعركة؟ فكانت الآيات الحاضره جوابا على هذا السؤال، و توضيحا للعلل الحقيقيه التى سببت تلك الهزيمة، و إليك فيما يلى تفسير جزئيات هذه الآيات و تفاصيلها:

قال سبحانه: **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ (١) بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا (٢) فَشِلْتُمْ .**

ففى هذه العبارة يشير القرآن الكريم بل و يصرح بأن الله قد صدق وعده و أنزل النصر على المسلمين فى بدايه تلك المعركة، فقتلوا العدو، و فرقوا جمعهم

ص: ٧٣٣

١-١) - «الحس» القتل على وجه الاستئصال، و سمي القتل حسا لأنه يبطل الحس.

٢-٢) - «إذا» ليست هنا شرطيه، بل بمعنى «حين».

و مزقوا شملهم ما داموا كانوا يتبعون تعاليم النبي صلى الله عليه و آله و سلم و يتقيدون بأوامره، و ما داموا كانوا يتحلون بالثبات و الاستقامه، فلم تلحق بهم الهزيمه إلا عند ما وهنوا و تجاهلوا أوامر القيادة النبويه الدقيقه. و هذا يعنى أن عليهم أن لا يتوهموا بأن الوعد بالتأييد و النصر مطلق لا قيد له و لا شرط، بل كل الوعود الإلهيه بالنصر مقيده باتباع تعاليم الله بحذافيرها، و التمسك بأهدافها.

أما متى وعد الله المسلمين بالنصر فى هذه المعركه، فهناك احتمالان:

الأول: أن يكون المراد هو تلك الوعود العامه التى يعد الله بها المؤمنين دائما حيث يخبرهم بأنه سبحانه ينصرهم على الكافرين و الأعداء.

الآخر: أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم قد وعد المسلمين بصراحه قبل أن يخوضوا معركه «أحد» بأنهم منتصرون فى تلك المعركه، و وعد النبي هو الوعد الإلهي بلا ريب.

ثم إنه سبحانه يقول: بعد بيان هذه الحقيقه حول النصر الإلهي وَ تَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ .

و من هذه العبارة التى هى إشاره إلى ما طرأ على وضع الرماه فى جبل «عينين» استفاد بوضوح بأن الرماه الذين كلفوا بحراسه الثغر قد اختلفوا فيما بينهم فى ترك ذلك الثغر و مغادره ذلك الموقع فى الجبل فعصى فريق كبير منهم، (و هذا قد استفاد من لفظه عصيتم التى تفيد أن الأغلبيه و الأكثريه من الرماه قد عصت و تجاهلت تأكيدات النبي بالبقاء هناك).

و لهذا يقول القرآن الكريم بأنكم عصيتم من بعد ما أراكم النصر الساحق الذى كنتم تحبون، أى أنكم بذلتم غايه الجهد لتحقيق النصر، و لكنكم وهنتم فى حفظه، و تلك حقيقه ثابتة أبدا أن الحفاظ على الانتصارات أصعب بكثير من تحقيقها.

أجل لقد اختلفتم فيما بينكم و تنازعتم فى تلك اللحظات الحساسه البالغه الأهميه منكم من يريد الدنيا و منكم من يريد الآخرة .

ففى الوقت الذى كان البعض (و هم الأ-غلب كما قلنا) يفكرون فى الغنائم و قد سال لعابهم لها حتى أنهم تركوا موقعهم الخطير فى الجبل، بينما بقيت جماعه أخرى قليله مثل «عبد الله بن جبير» و بعض الرماه ثابتين فى مكانهم يذبون عنه الأعداء و يطلبون الآخره و الثواب الإلهى العظيم.

و هنا تغير مجرى الأمور، و انعكست القضييه فبدل الله الإنتصار إلى الهزيمة ليمتحنكم و يتبهمكم، و يرئىكم: ثُمَّ صَيَّرَ فِكْمَ عَنْهُمْ لِيَتَّبِعِكُمْ .

ثم إن سبحانه غفر لكم كل ما صدر و بدر عنكم من عصيان و تجاهل لأوامر الرسول و ما ترتب على ذلك من التبعات فى حين كنتم تستحقون العقاب، و ما ذلك إلا لأن الله لا يرضى بنعمه على المؤمنين، و لا يبخل عليهم بموهبه و لَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ، وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .

أجل، إنه تعالى يحب المؤمنين، و لا يتركهم و شأنهم و لا يكلهم إلى أنفسهم إلا فى بعض الأحيان ليتنبهوا، و يثوبوا إلى رشدهم فيزدادوا التصاقا بالشريعة، و اهتماما بالمسؤوليات، و يقظه و إحساسا.

ثم إنه سبحانه يذكر المسلمين بموقفهم فى نهايه معركة «أحد» فيقول: إِذْ تُصْعِدُونَ (١) وَ لَا تَلُودُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ (٢) أى تذكروا إذ فررتم من المعركه، و رحتم تلودون بالجبل أو تنتشرون فى السهل، تاركين رسول الله وحده بين المهاجمين المباغتين من المشركين و هو يدعوكم من ورائكم و يناديكم قائلا: «إلى عباد الله- إلى عباد الله فإنى رسول الله» و أنتم لا تلتفتون إلى الورااء أبدا، و لا تلبون نداء النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

ص: ٧٣٥

١- ١) -«تصعدون» من الإصعاد و هو- كما فى المفردات للراغب- الأبعاد و المشى فى الأرض سواء كان ذلك فى صعود أو حدود فى حين أن الصعود يعنى الذهاب فى المكان العالى، و لعل استعمال الإصعاد فى الآيه بدل الصعود لأن جماعه من الفارين صعدوا الجبل، و جماعه آخريين انتشروا فى الصحراء.

٢- ٢) -«أخراكم» بمعنى «ورائكم».

و فى ذلك الوقت أخذت الهموم و الأحزان تترى عليكم فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمِّ ، لما أصابكم من النكسه و لفقدان مجموعه كبيره من خيار فرسانكم و جنودكم و لما أصاب جماعه منكم من الجراحات و الإصابات و لما بلغكم من شائعه قتل النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

و لقد كان كل ذلك من نتائج مخالفتكم لأوامر القيادة النبويه، و تجاهلكم لتأكيداتها بالمحافظه على المواقع المناطه لكم.

و لقد كان هجوم تلك الغموم عليكم من أجل أن لا- تحزنوا على ما فاتكم من غنائم الحرب، و ما أصابكم من الجراحات فى ساحه المعركه فى سبيل تحقيق الإنتصار لكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَ لَا مَا أَصَابَكُمْ .

وَ اللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ

فهو يعرف جيداً من ثبت منكم و أطاع، و كان مجاهداً واقعيًا، و من هرب و عصى، و على ذلك فليس لأحد أن يخذع نفسه، فيدعى خلاف ما صدر منه فى تلك الحادثه، فإذا كنتم من الفريق الأول بحق و صدق فاشكروه سبحانه، و إن لم تكونوا كذلك فتوبوا إليه و استغفروه من ذنوبكم.

### وساوس الجاهليه:

اتسمت الليله التى تلت معركه «أحد» بالقلق و الاضطراب الشديدين، فقد كان المسلمون يتوقعون أن يعود جنود قريش الفاتحون المنتصرون إلى المدينه مره أخرى لاجتياح البقيه الباقيه من القوه الإسلاميه، و القضاء على من تبقى من المقاتلين المسلمين، و لعل بعض الأخبار كان قد نم إلى المسلمين عن اعتزام المشركين و نيتهم فى العوده إلى ساحه القتال.

و لا شك أنهم لو عادوا لكان المسلمون يواجهون أحلك الظروف فى تلك الموقعه.



بيد أنه كان هناك بين المسلمين ثلثه من المجاهدين الصادقين الذين ندموا على الفرار من الميدان في «أحد» فتأبوا إلى الله، وطمأنوا إلى وعود النبي الكريم حول المستقبل، قد أخذهم نوم مريح، و غلبهم نعاس هائى و لذيذ و هم فى عده الحرب، فى الوقت الذى كان فيه المنافقون و ضعاف الإيمان، و الجبناء يعانون من كابوس الأوهام و الوسواس طوال الليل، و لم يذوقوا لذه النوم، فكانوا- من حيث لا- يشعرون و لا- يقصدون- يحرسون المؤمنين الحقيقيين الذين كانوا يستريحون فى تلك النومه الطارئه اللذيذه. و إلى هذا كله يشير الكتاب العزيز فى الآيه الحاضره إذ يقول: **ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً <sup>□</sup> (١) نَعَّاسًا <sup>□</sup> يَغْشَى <sup>□</sup> طَائِفَةً <sup>□</sup> مِنْكُمْ، وَ طَائِفَةٌ <sup>□</sup> قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ .**

أجل، إن المنافقين و الجبناء و ضعاف النفوس و الإيمان لم يزرهم النوم و لا حتى النعاس فى تلك الليله خوفا على نفوسهم، و على أرواحهم، و جريا وراء الوسواس الشيطانيه، و المخاوف التى هى من طبيعه و لوازم النفاق و ضعف اليقين و وهن الإيمان، فيما ان المؤمنون الصادقون يستريحون فى ذلك النعاس اللذيذ، و تلك النومه الطارئه الهائيه، و هذا هو أحد آثار الإيمان و ثماره المهمه البارزه، فإن المؤمن يحظى بالراحه و الطمأنينه حتى فى هذه الدنيا، على العكس من غير المؤمنين من الكفار أو المنافقين أو ضعاف الإيمان، فإنهم محرومون من الطمأنينه و الراحة اللذيذه تلك.

ثم إن القرآن الكريم يعمد إلى بيان و استعراض طبيعه ما كان يدور بين أولئك المنافقين و ضعاف الإيمان من أحاديث و حوار، و ما كان يدور فى خلداهم من ظنون و أفكار، إذ يقول: **يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ <sup>□</sup> الْجَاهِلِيَّةِ .**

إنهم كانوا يظنون بالله ما كانوا يظنونه به أيام كانوا يعيشون فى الجاهليه، و قبل

ص: ٧٣٧

أن تبتغ عليهم شمس الإسلام، فقد كانوا يتصورون أن الله سيكذبهم وعده، و يظنون أن وعود النبي غير محققه و لا صادقاه، و كان يقول بعضهم للآخر: هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ أَي هل سيصينا النصر و نحن فى هذه الحاله من السقوط و الهزيمة، و المحنه و البليه؟ إنهم كانوا يستبعدون أن ينزل عليهم نصر من الله بعد ما لقوا، أو كانوا يرون ذلك محالا.

و لكن القرآن يجيبهم قائلا قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ أَي كيف تستبعدون ذلك أو ترونه محالا و الأمر كله بيد الله، و هو قادر أن ينزل عليكم النصر متى وجدكم أهلا لذلك.

على أنهم لم يظهروا كل ما كان يدور فى خلداهم من ظنون و أوهام و هواجس خوفا من أن يعدوا فى صفوف الكفار: يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ .

و كأنهم كانوا يتصورون أن الهزيمة فى «أحد» من العلائم الداله على بطلان الإسلام، و لذا كانوا يقولون: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا أَي لو كنا على حق لكسبنا المعركه، و لم نخسر كل هذه الأرواح و النفوس.

و لكن الله تعالى أجابه و هو يشير فى هذه الإجابة إلى مطلبين.

الأول: إن عليكم أن لا تتوهموا بأن الفرار من ساحه المعركه، و تجنب الصعاب يمكنه أن ينقذكم من الموت الذى هو قدر لكل إنسان و لهذا يقول سبحانه:

قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَيْكُمْ مَضْجِعِهِمْ

فإن الذين جاء أجلهم، و حان حين موتهم لا بد أن يموتوا و لا محاله هم مقتولون حتى لو كانوا فى مضاجعهم.

و فى الأساس فإن كل أمه استحقت الهزيمة لوهن أكثريتها، لا بد أن تذوق الموت، و لا محاله يصيبها القتل، فالأجدر بها أن تموت فى ساحات المعارك، و تحت ضربات السيوف، و هى تسطر ملاحم البطوله، و تخط أسطر البساله، لا أن

تموت خانعه، أو تقتل ذليله على فراشها، و ما أروع ما قاله الإمام على إذ قال عليه السلام:

«لألف ضربه بالسيف أحب إليّ من ميتة على فراش».

و الثاني: إن هذه الحوادث لا بدّ أن تقع حتّى يبدى كلّ واحد مكنون صدره، و مكتوم قلبه، فتتشخص الصفوف، و تتميز جواهر الرجال، هذا مضافا إلى أن هذه الحوادث سبب لتربية الأشخاص شيئا فشيئا، و لتخليص نياتهم، و تقوية إيمانهم، و تطهير قلوبهم وَ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ .

ثمّ يقول سبحانه: في ختام هذه الآية وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ و لذلك فهو لا ينظر إلى أعمال الناس بل يمتحن قلوبهم، ليطهرها من كلّ ما تعلق بالنفوس و الأفئدة من شوائب الشرك و النفاق، و الشك و التردد.

ص: ٧٣٩

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)

التفسير

اشاره

الذنب ينتج ذنبا آخر:

هذه الآيه ناظره أيضا إلى وقائع معركة «أحد»، وتقرر حقيقه أخرى للمسلمين، وهى أن الذنوب و الانحرافات التى تصدر من الإنسان بسبب من وساوس الشيطان، تفرز آثاما و ذنوبا اخرى بسبب وجود القابليه الحاصله فى النفس الإنسانيه نتيجة الذنوب السابقه، و التى تمهد لذنوب مماثله و آثام أخرى و إلا فإن القلوب و النفوس التى خلت و طهرت من آثار الذنوب السالفه لا تؤثر فيها الوسوس الشيطان، و لا تتأثر بها، و لهذا قال سبحانه:

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ

و هكذا يعلمهم القرآن أن عليهم أن يضاعفوا الجهد فى تربيه نفوسهم و تطهير قلوبهم لتحقيق الإنتصار فى المستقبل.

و يمكن أن يكون المقصود من الذنب الذى كسبوا هو حب الدنيا و جمع الغنائم، و مخالفه الرسول، و تجاهل أوامره فى بحبوحه المعركه، أو ذنوب أخرى كانوا قد اقترفوها قبل معركه «أحد» أضعفت من طاقتهم الإيمانيه، و أضرت بالجانب المعنوى فيهم.

و قد نقل العلامه الطبرسى عن أبى القاسم البلخى أنه لم يبق مع النبى صلى الله عليه و آله و سلم يوم «أحد» إلا ثلاث عشره نفسا (فيكون عددهم مع النبى ١٤) خمسه من المهاجرين و ثمانيه من الأنصار و قد اختلف فى الجميع إلا فى على و طلحه فإنهما ثبتا و لم يفرا باتفاق الجميع.

ص: ٧٤١

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)

التفسير

اشاره

استغلال المنافقين:

كانت حادثه «أحد» تحظى بأهميه كبيره من وجهه نظر المسلمين و ذلك من جهتين:

أولاً: لأنها كانت تعتبر خير مرآه تعكس حقيقه المسلمين في تلك المرحله، و تساعدهم على رؤيه نقاط ضعفهم، فإصلاحها و إزالتها، و لهذا السبب ركز القرآن على أحداث هذه الوقعه و ملاساتها و قضاياها ذلك التركيز الكبير و أولها ذلكم

الاهتمام البالغ، فنحن نرى كيف نستفيد منها دروسا و عبرا كثيره و كبيره، في الآيات القادمه كما في الآيات السابقه.

و من جهه أخرى هيأت أحداث هذه الواقعه أرضيه و فرصه مناسبه للمنافقين بأن يقوموا بمحاولاتهم التشويشيه، و من أجل هذا نزلت آيات عديده لإبطال مفعول هذه المحاولات و تفشيل هذه المساعي الماكره، من جملتها الآيات المذكوره أعلاه.

فهذه الآيات تتوجه بالخطاب أولا إلى المؤمنين بهدف تحطيم جهود المنافقين و محاولاتهم التخريبيه، و تحذير المسلمين منهم فتقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ، أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا .

هذه الكلمات و إن كانوا يطلقونها في ستار من التعاطف و تحت قناع الإشفاق، إلا أنهم لم يكونوا في الحقيقه- يقصدون منها إلا تسميم روحه المسلمين، و إضعاف معنوياتهم، و زعزع إيمانهم، فينبغي ألا تقفوا تحت تأثيرها، و تكررنا نظائرها من العبارات.

لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ

أنكم أيها المؤمنون إذا وقعتم تحت تأثير هذه الكلمات المضله الغاويه، و كررتم نظائرها ستضعف روحيتكم أيضا، و ستمتنعون أيضا عن الخروج إلى ميادين الجهاد و السفر و الرحيل من أجل الله و في سبيله، و حينئذ سيتحقق للمنافقين ما يصبون إليه، و لكن لا- تفعلوا ذلك، و تقدموا إلى سوح الجهاد و ميادين القتال بمعنويه عاليه، و عزم أكيد و دون تردد و لا كلل، ليجعل الله ذلك حسره في قلوب المنافقين المخذلين، أبدا.

ثم إن القرآن الكريم يرد على خبث المنافقين و تسويلاتهم و تشويشاتهم

بثالث أجوبه منطقيه هي:

١- إن الموت و الحياه بيد الله على كل حال،و أن الخروج و الحضور فى ميدان القتال لا يغير من هذا الواقع شيئاً،و أن الله يعلم بأعمال عباده جميعها:

وَ اللَّهُ يُخَبِّرُ وَ يُمِيتُ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

٢- ثم إنكم حتى إذا متم أو قتلتم،و بلغكم الموت المعجل- كما يحسب المنافقون- فإنكم لم تخسروا شيئاً،لأن رحمه الله و غفرانه أعظم و أعلى من كل ما تجمعته أيديكم أو يجمعه المنافقون مع الاستمرار فى الحياه من الأموال و الثروات وَ لَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ .

و أساسا لا تصح المقارنه بين هذين الأمرين فأين الثرى من الثرايا،و لكنه أمر لا مفر منه عند مخاطبه تلك العقول المنحطه التى تفضل أياما معدوده من الحياه الفانيه و جفنه من الثروه الزائله على عزه الجهاد و فخر الشهاده.

إنه ليس من سبيل أمام هؤلاء إلا أن يقال لهم:إن ما يحصل عليه المؤمنون عن طريق الشهاده أو الموت فى سبيل الله،أفضل من كل ما يجمعه الكفار من طريق حياتهم الموبوءه،المزيجه بالشهوات الرخيصه و عباده المال و الدنيا.

٣-و بغض النظر عن كل ذلك فإن الموت لا- يعنى الفناء و العدم حتى يخشى منه هذه الخشيهِ و يخاف منه هذا الخوف،و يستوحش منه هذا الاستيحاش،إنه نقله من حياه إلى حياه أوسع و أعلى و أجل و أفضل،حياه مزيجه بالخلود موصوفه بالبقاء وَ لَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ .

إن الجدير بالملاحظه فى هذه الآيات هو جعل الموت فى أثناء السفر،فى مصاف الشهاده فى سبيل الله،لأن المراد بالسفر هنا هى تلك الأسفار التى يقوم بها الإنسان فى سبيل الله و لأجل الله كالسفر و شد الرحال إلى ميادين القتال أو للعمل التبليغى،و ذلك لأن الأسفار فى تلك العصور كانت محفوفه بالمشاكل،و مقترنه



بالمصاعب و المتاعب، و كانت تلازم فى الأءلب الأمراض التى تؤدى فى أكثر الأحيان إلى الموت، و لذلك لم يكن ذلك الموت بأقل فضلا من القتل و الشهاده فى ميادين الجهاد و سوح النضال.

و أما ما احتمله بعض المفسرين من أن الأسفار المذكوره فى هذه الآيه هى الأسفار التجاربه فهو بعيد جدا عن معنى الآيه، لأن الكفار لم يتأسفوا قط لهذا الأمر بل كان هذا هو نفسه و سيله من وسائل الحصول على الثروه و تكريسها، هذا مضافا إلى أن هذا الموضوع لم يكن له أى تأثير فى إضعاف روحه المسلمين بعد معركة أحد، كما و ان عدم تنسيق المسلمين مع الكفار فى هذا المورد لم يوجد و لم يسبب أى حسره للكفار، و لهذا فإن الظاهر هو أن المراد من الموت فى أثناء السفر فى هذه الآيه هو الموت فى السفر الذى يكون بهدف الجهاد فى سبيل الله، أو لغرض القيام بغير ذلك من البرامج الإسلاميه.

اشاره

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِنَّ يَنْصُرُكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)

التفسير

اشاره

الأمر بالعفو العام:

هذه الآية و إن كانت تتضمن سلسله من التعاليم الكليه الموجهه إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و تشمل من حيث المحتوى على برامج كليه و أساسيه، و لكنها من حيث النزول ترتبط بواقعه «أحد» لأنه بعد رجوع المسلمين من «أحد» أحاط الأشخاص الذين فروا من المعركه برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و أظهروا له الندامه من فعلتهم و موقفهم، و طلبوا منه العفو.

فأصدر الله سبحانه إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أمره بأن يعفو عنهم، ويتجاوز عن سيئهم و يستقبل المخطئين التائبين منهم بصدر رحب.

إذ قال تعالى: **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** و لقد أشير في هذه الآية-قبل أى شىء-إلى واحده من المزايا الأخلاقية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ألا وهى اللين مع الناس و الرحمه بهم، و خلوه من الفظاظه و الخشونه.

«الفظ»-فى اللغة-هو الغليظ الجافى الخشن الكلام، و«غليظ القلب»هو قاسى الفؤاد الذى لا تلمس منه رحمه، و لا يحس منه لين.

و هاتان الكلمتان و ان كانتا بمعنى واحد هو الخشونه، إلا أن الغالب استعمال الأولى فى الخشونه الكلاميه، و استعمال الثانيه فى الخشونه العمليه و السلوكيه، و بهذا يشير سبحانه إلى ما كان يتحلى به الرسول الأعظم من لين و لطف تجاه المذنبين و الجاهلين. ثم إنه سبحانه يأمر نبيه بأن يعفو عنهم إذ يقول: **فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ**.

و هذا الكلام يعنى أنه سبحانه يطلب منه صلى الله عليه وآله وسلم أن يتنازل عن حقه لهم إذ تفرقوا عنه فى أحلك الظروف، و سبوا له تلك المصائب و المتاعب فى تلك المعركه، و أنه يشفع لهم لدى نبيه بأن يتجاوز عنهم، و أن يشفع هو بدوره لهم عند الله و يطلب المغفره لهم منه سبحانه.

و بتعبير آخر أنه سبحانه يطلب من نبيه أن يعفو عنهم فيما بينه و بينهم، و أما ما بين الله و بينهم فهو سبحانه يغفر لهم ذلك. و قد فعل الرسول الكريم ما أمره به ربه و عفى عنهم جميعا.

و من الواضح أن هذا المقام كان من الموارد التى تتطلب حتما العفو و المغفره، و اللطف و اللين، و لو أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فعل غير ذلك لكان يؤدى ذلك إلى انفضاض

الناس من حوله، و تفرقهم عنه، إذ أن الجماعه رغم أنها أصيبت بالهزيمة النكراء، و تحملت ما تحملت من القتلى و الجرحى، و كانوا هم السبب فى ذلك، إلا- أنهم أحوج ما يكونون إلى العطف و اللطف و إلى اللين و العفو، و إلى البلاسم التى تبل جراحاتهم، و إلى المراهم التى تهدئ خواطرهم، حتى يتهيئوا بعد شفائها و استعادته معنوياتهم إلى مواجهه أحداث المستقبل، و تحمل المسؤوليات القادمه.

إن فى هذه الآيه إشاره صريحه إلى إحدى أهم الصفات التى يجب توفرها فى أيه قياده، ألا و هى العفو و اللين تجاه المتخلفين الثائبين، و العصاه النادمين، و المتمردين العائدين، و من البديهى أن الذى يتصدى للقياده لو خلى عن هذه الخصله الهامه، و افتقر إلى روح السماحه، و افتقد صفه اللين، و عامل من حوله بالخشونه و العنف و الفظاظه فسرعان ما يواجه الهزيمة، و سرعان ما تصاب مشاريعه و برامجيه بنكسات ماحقه، تبدد جهوده، و تدرى مساعيه أدراج الرياح، إذ يتفرق الناس من حوله، فلا يمكنه القيام بمهام القياده و مسئولياتها الجسميه، و لهذا قال الإمام أمير المؤمنين مشيرا إلى هذه الخصله القياديه الحساسه «آله الرياسه سعه الصدر».

### الأمر بالمشاوره:

بعد إصدار الأمر بالعفو العام يأمر الله نبيه صلى الله عليه و آله و سلم بأن يشاور المسلمين فى الأمر و يقف على و جهات نظرهم، و ذلك إحياء لشخصيتهم، و لبث الروح الجديده فى كيانهم الفكرى و الروحى اللذين أصابهما الفتور بعد الذى حدث.

على أن هذا الأمر للنبي بمشاوره المسلمين إنما هو لأجل أنه صلى الله عليه و آله و سلم- كما أسلفنا- قد استشار المسلمين قبل الدخول فى معركة «أحد» فى كيفيه مواجهه العدو و استقر رأى الأغلبيه منهم على التعسكر عند جبل «أحد» فكان ما كان من

المكروه و وقع ما وقع من البلاء، و هنا كان كثيرون يتصورون بأن على النبي أن لا يشاور بعد ذلك أحدا، و أن عليه أن يتصرف كما يرى هو، و لكن القرآن الكريم جاء يرد على هذا التصور، و يجب على هذا النوع من التفكير و يأمر النبي بأن يعيد المشاوره إذ يقول: **وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** لأن المشاوره و إن لم تنفع في بعض المواضع، فإنها نافعه على العموم، بل إن نتائج المفيده الكثيره لو قيست إلى بعض النتائج السلبيه و غير المفيده تبدو أكثر أضعافا كما و أن أثرها في صياغه الأفراد و الجماعات و إنماء شخصيتهم من الأهميه بحيث يغطي على نقاط ضعفها، بل هو أبرز آثارها و أهم فوائدها الذي لا يمكن و لا يجوز التغاضي عنه.

و الآن نرى في أى المواضيع كان يشاور الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم أصحابه؟ صحيح أن كلمه «الأمر» في قوله تعالى **وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** ذات مفهوم واسع يشمل جميع الأمور، و لكن من المسلم أيضا أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم لم يشاور الناس في الأحكام الإلهيه مطلقا، بل كان في هذا المجال يتبع الوحي فقط.

و على هذا الأساس كانت المشاوره في كيفية تنفيذ التعاليم و الأحكام الإلهيه على أرض الواقع.

و بعبارة أخرى: إن النبي لم يشاور أحدا في التقنين، بل كان يشاور في كيفية التطبيق و يطلب وجهه نظر المسلمين في ذلك.

و لهذا عند ما كان يقترح النبي صلى الله عليه و آله و سلم أمرا-أحيانا-بإدراكه المسلمون بهذا السؤال: هل هذا حكم إلهي لا يجوز إبداء الرأي فيه، أو أنه يرتبط بكيفية التطبيق و التنفيذ؟ فإذا كان من النوع الثاني، أدلى الناس فيه بأرائهم، و أما إذا كان من النوع الأول لم يكن منهم تجاهه سوى التسليم و التفويض.

ففي يوم بدر جاء النبي صلى الله عليه و آله و سلم أدنى ماء من بدر فنزل عنده، فقال «الحباب ابن المنذر»: يا رسول الله أ رأيت هذا المنزل، أنزله الله ليس لنا أن نتقدمه و لا

نتأخر عنه أم هو الرأى و الحرب و المكيده؟ فقال: «بل هو الرأى و الحرب و المكيده» فقال: يا رسول الله ليس هذا بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه إلى آخر ما قال... فقال له النبي صلى الله عليه و آله و سلم: «لقد أشرت بالرأى» و عمل برأيه (١).

### أهميه المشاوره فى نظر الإسلام:

لقد حظيت مسأله المشاوره بأهميه خاصه فى نظر الإسلام، فالنبي صلى الله عليه و آله و سلم رغم أنه كان يملك -بغض النظر عن الوحي الإلهي- قدره فكريه كبيره تؤهله لتسيير الأمور و تصريفها دون حاجه إلى مشاوره أحد، إلا أنه صلى الله عليه و آله و سلم كما يشعر المسلمون بأهميه المشاوره و فوائدها حتى يتخذوها ركنا أساسيا فى برامجهم و حتى ينمى فيهم قواهم العقليه و الفكرية نجده يشاور أصحابه فى أمور المسلمين العامه التى تتعلق بتنفيذ القوانين و الأحكام الإلهيه (لا أصل الأحكام و التشريعات التى مدارها الوحي) و يقيم لآراء مشيريه أهميه خاصه و يعطيها قيمتها اللائقه بها، حتى أنه كان -أحيانا- ينصرف عن الأخذ برأى نفسه احتراماً لهم و لآرائهم كما فعل ذلك فى «أحد»، و يمكن القول بأن هذا الأمر بالذات كان أحد العوامل المؤثره وراء نجاح الرسول الأكرم فى تحقيق أهدافه الإسلاميه العليا.

و الحق أن أیه أمه أقامت إداره شؤونها على أساس من الشورى و المشاوره، قل خطأها، و ندر عثارها، على العكس من الأفراد الذين يعانون من استبداد الرأى، و يرون أنفسهم فى غنى عن نصح الناصحين و رأى الآخرين فإنهم إلى العثار أقرب، و من الصواب و الرشاد أبعد، مهما تمتعوا بسديد الرأى، و قوى التفكير، هذا مضافاً إلى أن الاستبداد فى الرأى يقضى على الشخصيه فى الجمهور،

ص: ٧٥٠

و يوقف حركه الفكر و تقدمه، و يميت المواهب المستعده بل يأتى عليها، و بهذا الطريق تهدر أعظم طاقات الأمه الإنسانيه.

و مضافا أيضا إلى أن الذى يشاور الآخرين فى أموره و أعماله إذا حقق نجاحا قل أن يتعرض لحسد الحاسدين، لأن الآخرين يرون أنفسهم شركاء فى تحقيق ذلك الإنتصار و النجاح، و ليس من المتعارف أن يحسد الإنسان نفسه على نجاح حقيقه، أو انتصار أحرزه.

و أما إذا أصابته نكسه لم تلمه ألسن الناس، و لم يتعرض لسهام نقدهم و اعتراضهم، لأن الإنسان لا يعترض على عمل نفسه، و لا ينقد فعل ذاته، بل سيشاطرونه الألم، و يتعاطفون معه، و يشاركونه فى التبعات.

كل ذلك لأنهم شاركوه فى رأى و شاطروه فى التخطيط، و لم يكن متفردا فى العمل، و لا مستبدا فى رأى.

ثم إن هناك فائده أخرى للمشاورة و هى أن المشاورة خير محك لمعرفة الآخرين، و التعرف على ما يكونه للمستشير من حب أو كراهيه، و ولاء أو عدا، و لا ريب فى أن هذه المعرفه ممّا يمهد سبيل النجاح، و لعلّ استشارات النبى الأكرم -مع ما كان يتمتع به من قوه فكريه و عقليه جباره- كانت لهذه الأسباب مجتمعه.

لقد ورد حث شديد و تأكيد ليس فوqe تأكيد على سنه المشاورة، و فى الأحاديث و الأخبار الإسلاميه ففى حديث منقول

عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال:

«ما شقى عبد قط بمشوره و لا سعد باستغناء رأى» (١).

كما و نقرأ

فى كلمات الإمام على عليه السلام قوله:

«من استبد برأيه هلك، و من شاور الرجال شاركها فى عقولها» (٢).

ص: ٧٥١

(١-١) - تفسير أبى الفتوح الرازى.

(٢-٢) - نهج البلاغه-الحكمه ١٦١.

نقل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أيضا أنه قال:

«إذا كان امرؤكم خياركم، وأغنياؤكم سمحاًؤكم وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان امرؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاًؤكم، ولم يكن أمركم شورى بينكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها» (١).

### مع من تشاور؟

من المسلم أن للمشورة أهلاً، فلا يصح أن يستشار كل من هب و دب، فرب مشيرين يعانون من نقاط ضعف، توجب مشورتهم فساد الأمر، و ضياع الجهود، و فشل العمل، و التأخر و السقوط.

فعن علي عليه السلام أنه قال في هذا الصدد «لا تدخلن في مشورتك»:

١- بخيلاً يعدل بك عن الفضل و يعدك بالفقر.

٢- و لا جباناً يضعفك عن الأمور.

٣- و لا حريصاً يزين لك الشره بالجور (٢).

### وظيفة المشير:

كما تأكد الحث في الإسلام على المشاورة فقد أكدت النصوص على المشيرين أيضاً بأن لا يألوا جهداً في النصح، و لا يدخروا في هذا السبيل خيراً، و تعتبر خيانه المشير للمستشير من الذنوب الكبيرة، بل و تذهب أبعد من ذلك حيث لا تفرق في هذا الحكم بين المسلم و الكافر، يعنى أنه لا يحق لمن تكفل تقديم النصح و المشورة أن يخون من استشاره، فلا يدلله على ما هو الصحيح في

ص: ٧٥٢

١- ١) - تفسير أبي الفتوح الرازي.

٢- ٢) - نهج البلاغه كتابه عليه السلام و عهده لمالك الأشر.



نظره، مسلماً كان ذلك المستشار أو كافراً.

فى رساله الحقوق عن الإمام زين العابدين على بن الحسين عليهما السلام أنه قال:

«و حق المستشار إن علمت له رأياً أشرت عليه، وإن لم تعلم أرشدته إلى من يعلم، و حق المشير عليك أن لا تتهمه فى لا يوافقك من رأيه» (١).

### شورى عمر بن الخطاب

عند ما بلغ جماعه من علماء أهل السنه و مفسريهم إلى هذه الآيه (آيه الشورى) أشاروا إلى شورى عمر السداسيه لاختيار الخليفه الثالث، و حاولوا عبر بيان مفصل تطبيق مفاد هذه الآيه و روايات المشاوره على تلك العمليه و الفكره.

و الكلام المفصل حول هذه المسأله و إن كان من مهمه الكتب الاعتقاديه، إلا أنه لا بدّ من الإشاره هنا إلى بعض النقاط بصوره مختصره و سريعه:

أولاً: إن انتخاب الخليفه للنبي صلى الله عليه و آله و سلّم يجب أن يكون فقط من جانب الله، لأن الخليفه يجب أن يتمتع على غرار النبي -بصفات و مؤهلات كالعصمه و ما شاكل ذلك و هى أمور لا يمكن الوقوف و الاطلاع عليها إلا من قبل الله سبحانه.

و بتعبير آخر: كما أن تعيين النبي لا يمكن أن يكون بالمشاوره و الشورى فكذلك انتخاب الإمام لا يمكن أن يكون بالشورى.

ثانياً: إن الشورى السداسيه المذكوره لم تنطبق بالمره على معايير الشورى و موازين المشاوره، لأن الشورى التى ذهب إليها عمر إن كان المراد منها مشاوره المسلمين عامه، فما ذا يعنى تخصيصها بسته أنفار؟ و إن كان الهدف منها مشاوره العقلاء و المفكرين و أهل الرأى من الأمة فهم لا ينحصرون فى هؤلاء الستة، إذ هناك شخصيات ناضجه أمثال سلمان الذى كان

ص: ٧٥٣

مستشارا شخصيا للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم و مثل أبي ذر و المقداد و ابن عباس، و غيرهم ممن قد نحا عن هذه الشورى.

و على هذا الأساس فإن حصر هذه الشورى بالأنفار الستة المعينين يجعل هذا الاجتماع و الشورى أقرب إلى التحزب السياسى منه إلى التجمع الشورى.

و أما إذا كان المراد من حصر المشيرين فى هؤلاء الستة هو جعلها فى أصحاب الكلمه و النفوذ حتى تنفذ قراراتهم و لا يخالفها أحد من الأئمه، و لا يتمرد عليها أحد من الناس فإنه لم يكن موقفا صائبا أيضا، لأن ثمة شخصيات من أصحاب الكلمه و النفوذ أمثال سعد بن عباده الذى كان يرأس فى حينه الأنصار بدون منازع، و أبى ذر الغفارى أكبر شخصيه مسموعه الكلمه فى قبيله «غفار»، قد أقصيت من حله الشورى؟ ثالثا: نحن نعلم أنه قد اشترط فى هذه الشورى شروط صعبه و قاسيه إلى درجه أنه هدد المخالفون و المعارضون بالموت، فى حين لا يوجد لمثل هذه الشروط فى سنه الشورى التى سنها الإسلام أى مكان، و لا أى أثر، فكيف تنطبق على هذه الشورى؟

### مرحله القرار الأخير!

بقدر ما يجب على المستشار أن يتخذ جانب الرفق و اللين فى المشوره مع مستشاريه، يجب عليه أن يكون حاسما و حازما فى اتخاذ القرار الأخير.

و على هذا يجب التخلص من أى تردد، أو استماع إلى الآراء المتشكته بعد استكمال مراحل المشاوره و اتضاح نتيجهها، و يجب اتخاذ القرار الأخير بصرامه و حسم، و هذا هو ما يعبر عنه بالعزم فى قوله سبحانه فى هذا السياق إذ يقول:

فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

إن الجدير بالتأمل هو أن مسأله المشاوره ذكرت فى الآيه الحاضره بصيغه الجمع «و شاورهم» و لكن اتخاذ القرار الأخير جعل من وظيفه الرسول الكريم خاصه إذا جاء بصيغه المفرد «عزمت».

إن الاختلاف فى التعبير إشاره إلى نكته مهمه و هى أن تقليب وجوه الأمر، و دراسه القضيه الاجتماعيه من جميع جوانبها و أطرافها يجب أن تتم بصوره جماعيه، و أما عند ما يتم التصديق على شىء فإن إجراءه و إبرازه فى صوره القرار القطعى يجب أن يوكل إلى إرادته واحده، و إلا وقع الهرج و المرج، و دبت الفوضى فى الأمه لأن التنفيذ بوساطه قاده متعددين من دون الانطلاق من قياده واحده متمركزه سيواجه الاختلاف، و يؤول إلى النكسه و الهزيمه، و لهذا تتم المشاورات فى عالمنا الراهن بصوره جماعيه، و لكن إجراء نتائجها تناط إلى الدول و الأجهزة التى تدار و تعمل تحت إشراف شخص واحد، و فرد معنى لا متعددين.

و الموضوع المهم الآخر الذى تشير إليه الجملة السابقه فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ هو أن اتخاذ القرار الأخير يجب أن يقترن بالتوكل على الله، بمعنى أن عليكم أن تستمدوا العون من الله القادر المطلق و لا- تنسوه فى الوقت الذى تهيئون فيه الأسباب العاديه و الوسائل الماديه للأمر.

على أن التوكل لا- يعنى بالمره أن يتجاهل الإنسان الأسباب الماديه و الوسائل العاديه للنصر و التى جعلها الله سبحانه فى عالم الماده، و مكن الإنسان الأخذ بها،

فقد روى فى حديث أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم قال لأعرابى حضر عند النبى و قد ترك ناقته سادره فى الصحراء دون أن يعقلها حتى لا تفر أو تضل، ظنا بأن هذا من التوكل على الله «أعقلها و توكل».

أجل ليس المراد من التوكل هو هذا المفهوم الخاطى، بل المراد منه هو أن لا ينحصر الإنسان فى حصار هذا العالم المادى، و فى حدود قدرته الضيقه،

فلا ينطلق قدما إلى الأمام، بل يعلّق أمله-إلى جانب الأخذ بالأسباب-على عناية الله و حمايته و لطفه و منّه.

ولا-ريب أن مثل هذه الالتفاتة تهب للإنسان استقرار نفسيا عاليا، و طاقه روحيه فعاله، و معنويه تتضائل أمامها كلّ الصعاب و المشاق، و تتحطم عندها كلّ أمواج المشكلات العاتيه، أو تنزاح أمامها كلّ الأهوال (و سوف نشرح بإسهاب إن شاء الله مسأله التوكل و كيفيه العلاقه بينها و بين الاستفاده من وسائل العالم المادى فى ذيل قوله تعالى وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (١)).

ثمّ إنه سبحانه و تعالى يأمر المؤمنين فى ختام الآيه أن يتوكلوا على الله فحسب لألنه تعالى يحب المتوكلين إذ يقول: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ .

هذا و استفاد من هذه الآيه أن التوكل يجب أن يكون بعد التشاور، و بعد الأخذ و الاستفاده من جميع الإمكانيات المتاحة للإنسان حتما.

### نتيجه التوكل و ثمرته:

بعد أن يحث البارى سبحانه و تعالى عباده على أن يتوكلوا عليه، يبين فى هذه الآيه-التي هى مكمله للآيه السابقه-نتيجه التوكل و ثمرته و فائدته العظمى فيقول: إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ بِهَذَا يَشِيرُ إِلَى أَنْ قَدَرَهُ اللَّهُ فَوْقَ كُلِّ الْقُدْرَاتِ، فإذا أراد بعبد خيرا و أراد نصره و تأييده و الدفاع عنه لم يكن فى مقدور أية قوه فى الأرض- مهما عظمت- أن تتغلب عليه، فمن كان-هكذا-منبع كلّ الانتصارات، و جب التوكل عليه، و استمداد العون منه.

فهذه الآيه تتضمن ترغيبا للمؤمنين بأن يتكلموا على الله و قدرته التى لا تقهر،

ص: ٧٥٦

مضافا إلى تهيئه كل الوسائل الظاهريه، و الأسباب العاديه.

و الكلام فى الآيه السابقه موجه إلى شخص النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم و أمر له فى الحقيقه و لكنه فى هذه الآيه موجه إلى جميع المؤمنين و كأنها تقول لهم: إن عليهم أن يتوكلوا على الله كما يفعل النبى، و لهذا يختم هذه الآيه بقوله: وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

و لا يخفى أن تأييد الله للمؤمنين أو عدم تأييده ليس من غير حساب، فهو يتم بناء على أهليتهم لذلك.

فمن أعرض عن تعاليم الله، و غفل عن تحصيل المقومات الماديه و المعنويه و تقاعس عن إعداد القوى العاديه اللزمه لم يشمله التأييد الإلهى مطلقا، على العكس من الذين استعدوا لمواجهة الأعداء بصفوف متراصه و نيات خالصه و عزائم راسخه، مهيبين كل الوسائل اللزمه للمواجهه، فإن تأييد الله سيشمل هؤلاء، و ستكون يد الله معهم حتى تحقيق الإنتصار.

ص: ٧٥٧

اشاره

وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغْلَ وَ مَنْ يُغْلَلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١)

التفسير

اشاره

الخيانه ممنوعه مطلقا:

بالنظر إلى الآيه السابقه التي نزلت بعد الآيات المتعلقة بوقعه «أحد» و بالنظر إلى روايه نقلها جمع من مفسرى الصدر الأول، تعتبر هذه الآيه ردا على بعض التعللات الواهيه التي تمسك بها بعض المقاتلين، و توضيح ذلك هو: إن بعض الرماه عند ما أرادوا ترك مواقعهم الحساسه فى الجبل لغرض جمع الغنائم، أمرهم قائدهم بالبقاء فيها، لأن الرسول لن يحرمهم من الغنائم، و لكن تلك الجماعه الطامعه فى حطام الدنيا اعتذرت لذلك بعذر يخفى حقيقتهم الواقعيه، إذ قالوا:

نخشى أن يتجاهلنا النبى عند تقسيم الغنائم فلا يقسم لنا، قالوا هذا و أقبلوا على جمع الغنائم تاركين مواقعهم التي كلفهم الرسول بحراستها فوق ما وقع من عظام الأمور و جلائل المصائب.

فجاء القرآن يرد على زعمهم و تصورهم هذا فقال: **وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغْلَ (١)** أى أنكم تصورهم و ظننتم أن النبي يخونكم، و الحال أنه ليس لنبي أن يغل و يخون أحدا.

إن الله سبحانه ينزهه فى هذه الآيه جميع الأنبياء و الرسل من الخيانه، و يقول إن هذا الأمر لا يصلح-أساسا-للأنبياء، و لا يتناسب أساسا مع مقامهم العظيم.

يعنى أن الخيانه لا تتناسب مع النبوه، فإذا كان النبي خائنا لم يمكن الوثوق به فى أداء رساله و تبليغ الأحكام الإلهيه.

و غير خفى أن هذه الآيه تنفى عن الأنبياء مطلق الخيانه سواء الخيانه فى قسمه الغنائم أو حفظ أمانات الناس و ودائعهم، أو أخذ الوحي و تبليغه للعباد.

و من العجيب أن يثق أحد بأمانه النبي فى الحفاظ على وحي الله، و تبليغه و أدائه، ثم يحتمل-و العياذ بالله-أن يخون النبي فى غنائم الحرب، أو يقضى بما ليس بحق، و يحكم بما ليس بعدل، و يحرم أهلها منها من غير سبب.

إن من الواضح بمكان أن الخيانه محظوره على كل أحد، نبيا كان أو غير نبي، و لكن حيث إن الكلام هنا يدور حول اعتذار تلك الجماعه المتمرده و تصوراتهم الخاطئه حول النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم لذلك تتحدث الآيه عن الأنبياء أولا، ثم تقول:

**وَمَنْ يُغْلُ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**

أى أن كل من يخون سيأتى يوم القيامه و هو يحمل على كتفه و ثيقه خيانه، أو يصحبه معه إلى المحشر، و هكذا يفتضح أمام الجميع، و تنكشف أوراقه و تعرف خيانه.

قال بعض المفسرين أن المراد من حمل الخيانه على الظهر أو استصحاب ما

ص: ٧٥٩

١-١) -الغلل: تعنى الخيانه، و أصله تدرع الشىء و توسطه و منه الغلل للماء الجارى بين الشجر، و هو الماء الذى يتسلل و يتسرب فيما بين الشجر و يدخل فيه، و يطلق الغليل على ما يقاسيه الإنسان فى داخله من العطش و من شده الوجد و الغيظ، لهذا السبب.

غُلَّ يوم القيامة ليس هو أنه يحمل كل ذلك حملاً- أو يستصعبه استصحاباً حقيقياً معه يوم القيامة، بل المراد هو أنه يتحمل مسئوليته ذلك، ولكن بالنظر إلى مسأله «تجسم الأعمال» في يوم القيامة لا يبقى أى مبرر ولا أى داع لهذا التفسير، بل -و كما يدل عليه ظاهر الآيه و يشهد به- يأتى الخائن و هو يحمل عين ما غل كوثيقه حيه تشهد على خيانه و غلوله، أو يستصحبها معه.

ثُمَّ تُوفَى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ

يعنى أن الناس يجدون عين أعمالهم هناك، و لهذا فهم لا يظلمون لأنه يصل إلى كل أحد نفس ما كسبه خيراً كان أو شراً.

و لقد أثرت الآيه السابقه، و الأحاديث التى صدرت عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم و هى تدم الخيانه و الغلول فى نفوس المسلمين و خلقهم تأثيراً عجبياً حتى أنهم-نتيجة لهذه التريبه-لم يصدر عنهم أقل خيانه و لا أدنى غلول فى غنائم الحرب أو الأموال العامه، إلى درجه أنهم كانوا يأتون بالغنائم الغاليه الثمن الصغيره الحجم التى كان من السهل إخفاؤها إلى النبى، أو القاده من بعده دون أى تصرف فيها، الأمر الذى يدعو إلى الدهشه و الإكبار و العجب.

فقد كان هؤلاء نفس أولئك العرب القساء، الجفاه، المغيرون، السلابون قطاع الطرق فى الجاهليه، و قد أصبحوا الآن-فى ظل التريبه الإسلاميه-فى قمه الصلاح و الأمانه، و فى ذروه الاستقامه و الطهر، و التقى و كأنهم يرون مشاهد القيامة بأب أعينهم، كيف يقدم الخائنون فى الأموال و الأمانات إلى المحشر و هم يحملون على أكتافهم و ظهورهم ما غلوه و خانوه.

أجل لقد كان هذا الإيمان يحذرهم من الخيانه، بل يصرفهم حتى عن التفكير فيها.

كتب الطبرى فى تاريخه أنه لما هبط المسلمون بالمدائن، و جمعوا الأقباض



(الغنائم) أقبل رجل بحق معه فدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال الذين معه: ما رأينا مثل هذا قط ما يعد له ما عندنا ولا يقاربه فقالوا: هل أخذت منه شيئاً؟ فقال:

«أما والله لو لا الله ما آتيتكم به فعرفوا أن للرجل شأنًا، فقالوا من أنت؟ فقال: والله لا أخبركم لتحمدوني، ولا غيركم ليقرظوني و لكنى أحمد الله و أرضى بثوابه» (١).

ص: ٧٤١

---

١-١) -تاريخ الطبرى: ج ٣ ص ١٢٨.

إشاره

أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ  
(١٦٣)

التفسير

إشاره

المتخلفون عن الجهاد:

تضمنت الآيات السابقة الحديث عن شتى جوانب معركة «أحد» وملابساتها ونتائجها، وقد جاء الآن دور المنافقين وضعاف الإيمان من المسلمين الذين تقاعسوا عن الحضور في «أحد» تبعاً للمنافقين، لأننا نقرأ في الأحاديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند ما أمر بالتحرك إلى «أحد» تخلف جماعه من المنافقين عن التوجه إلى الميدان بحجة أنه لن يقع قتال، وتبعهم في ذلك بعض المسلمين من ضعاف الإيمان، فنزل قوله تعالى أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ وَ لَبِيَ نداء النبي و اتبع أمره بالخروج كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ .

ثم يقول تعالى: هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ أَي أَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ دَرَجَةٌ بِنَفْسِهِ وَ مَكَانُهُ عِنْدَ اللَّهِ، وَ هُوَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَا يَخْتَلِفُ الْمُنَافِقُونَ عَنِ الْمَجَاهِدِينَ فَقَطْ، بَلْ إِنَّ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ هَذَيْنِ الطَّائِفَتَيْنِ دَرَجَةٌ خَاصَةٌ تَنَاسَبُ مَدَى تَضَحِيَّتِهِ وَ تَفَانِيهِ

فى سبيل الله أو مدى نفاقه و عدائه لله تعالى، و تبدأ هذه الدرجات من الصفر و تستمر إلى خارج حدود التصور.

هذا و قد نقل فى روايه عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: «الدرجة ما بين السماء و الأرض» (١).

و

جاء فى حديث آخر «إن أهل الجنة ليرون أهل عليين كما يرى النجم فى أفق السماء» (٢) بيد أننا يجب أن نعلم أن «الدرجة» تطلق عادة على تلك الوسيله التى يرتقى بها الإنسان و يصعد إلى مكان مرتفع، فى حين أن الدرجات التى يستخدمها الإنسان للنزول من مكان مرتفع إلى مكان منخفض تسمى «دركا» و لهذا جاء فى شأن الأنبياء عليهم السلام فى سورة البقره الآيه ٢٥٣ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَ جاء فى حق المنافقين فى سورة النساء الآيه ١٤٥ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَ لكن حيث كان البحث فى الآيه الحاضره حول كلا الفريقين غلب جانب المؤمنين، فكان التعبير بالدرجة دون غيرها إذ قيل هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ .

ثم يقول سبحانه فى ختام هذه الآيه وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ أى أنه سبحانه عالم بأعمالهم جميعا فهم يعلم جيدا من يستحق أى درجه من الدرجات، بحيث تليق بنيته و إيمانه و علمه.

### مع أسلوب تربوى قرآنى مؤثر

هناك الكثير من الحقائق المتعلقة و المرتبطه بالقضايا الدينيه أو الخلقيه أو الاجتماعيه، يطرحها القرآن الكريم فى قالب التساؤل و الاستفهام تاركا للسامع -و بعد أن يضعه أمام كلا جانبي القضية- أن يختار هو بمعونه من فكره، و انطلاقا من تحليله و تقويمه.

ص: ٧٦٣

١- ١) -نور الثقليين: ج ١ ص ٤٠٦.

٢- ٢) -تفسير مجمع البيان عند تفسير الآيه.

إن لهذا الأسلوب-الذى لا بد أن نسميه بالأسلوب التربوى غير المباشر-أثرا بالغاً فى تحقيق الأهداف المرجوه من البرامج التربويه وتأثيرها فيمن يراد توجيههم و تربيتهم،و ذلك لأن الإنسان-فى الأغلب-يهتم أكثر بما توصل إليه بنفسه من النتائج و الأفكار و الآراء و ما انتهى إليه بفكره من التفاسير و التحاليل فى القضايا المختلفه،فإذا طرحت عليه قضيه بصوره قطعيه و صبغه جازمه،قاومها أحياناً،و لعله ينظر إليها كما ينظر إلى أيه فكره غريبه.

و لكن عند ما يطرح عليه الأمر فى صوره التساؤل الذين يطلب منه الجواب عليه حسب قناعته الشخصيه ثم يسمع ذلك الجواب من أعماق ضميره و فؤاده، فإنه لا يسعه حينئذ أن يقاوم هذا الجواب و يعاديه،بل ينظر إليه نظر العارف به، و لن تعود لديه-حينئذ-تلك الفكره الغريبه البعيده،بل تكون الفكره القريبه إلى قلبه،المأنوسه إلى فؤاده.

إن هذا الأسلوب من التوجيه و الإرشاد مؤثر غاية لتأثير خاصه مع المعاندين،و كذا الأطفال و الناشئين.

و لقد استفاد القرآن الكريم من هذا الأسلوب التربوى الرائع المؤثر فى مواضع عديده نذكر منها بعض النماذج:

١- هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١).

٢- قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ لَا تَتَفَكَّرُونَ (٢).

٣- قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ (٣).

ص: ٧٦٤

١- ١) - الزمر: ٩.

٢- ٢) - الأنعام: ٥٠.

٣- ٣) - الرعد: ١٦.

اشاره

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١٦٤)

التفسير

اشاره

النعمة الإلهية الكبرى:

في هذه الآيه يدور الحديث حول أكبر النعم الإلهية، ألا و هي نعمة «بعثه الرسول الأكرم و النبي الخاتم» صلى الله عليه و آله و سلم، و هو في الحقيقة إجابة قويه على التساؤل الذي خالج بعض الأذهان من الحديثي العهد بالإسلام بعد «معركة أحد» و هو:

لماذا لحق بنا ما لحق، و لماذا أصبنا بما أصبنا به؟ فيجيبهم القرآن الكريم بقوله:

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ

أى إذا كنتم قد تحملتم كل هذه الخسائر، و أصبتم بكل هذه المصائب، فإن عليكم أن لا تنسوا أن الله قد أنعم عليكم بأكثر نعمه، ألا- و هي بعثه نبي يقوم بهدايتكم و تربيتكم، و ينقذكم من الضلالات و ينجيكم من المتاهات، فمهما تحملتم فى سبيل الحفاظ على هذه

النعمة العظمى و الموهبه الكبرى، و مهما كلفكم ذلك من ثمن، فهو ضئيل إلى جانبها، و حقير بالنسبه إليها.

و الجدير بالاهتمام-فى المقام-هو أن هذه النعمة قد شرع ذكرها بكلمه «منّ» التى قد لا تبدو جميله و لا مستحسنه فى بادئ الأمر، و لكننا عند ما نراجع ماده هذه اللفظه و أصلها اللغوى يتضح لنا الأمر غايه الوضوح، و توضيحه هو: ان المن- كما قال الراغب فى مفرداته: هو ما يوزن به، و لذلك أطلق على النعمة الثقيله: المنه، و يقال ذلك إذا كان ذلك بالفعل، فيقال: من فلان على فلان إذا أنقله بالنعمة الجميله الثمينه و هو حسن لا- بأس فيه، أما إذا عظم أحد-فى القول و الادعاء- ما قام به من حقير الخدمات و الأفعال و الصنائع فهو فى غايه القبح.

و على هذا فإن المن المستقبح هو الذى يكون استعظاما للصنائع و النعم فى القول، أما المنه المستحسنه فهى بذل النعم الكبرى و الصنائع العظيمه.

أما تخصيص المؤمنين بالذكر فى هذه الآيه فى حين أن الهدف من بعثه النبى صلى الله عليه و آله و سلّم هو هدايه عموم البشر، فلأن المؤمنين هم الذين يستفيدون- بالنتيجه و المآل- من هذه النعمة العظمى فهم الذين يستأثرون بآثارها عملا دون غيرهم.

ثم إن الله سبحانه يقول: مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَنْ إِحْدَى مِمِّزَاتِ هَذَا النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ هُوَ أَنَّهُ مِنْ نَفْسِ الْجِنْسِ وَ النَّوْعِ الْبَشَرِيِّ، لا- من جنس الملائكه و ما شابهها، و ذلك لكى يدرك كلّ احتياجات البشر بصوره دقيقه، و لا يكون غريبا عنها، غير عارف بها، و حتّى يلمس آلام الإنسان و آماله، و مشكلاته و مصائبه، و متطلبات الحياه و مسائلها، ثمّ يقوم بما يجب أن يقوم به من التربيه و التوجيه على ضوء هذه المعرفه.

هذا مضافا إلى أن القسط الأكبر من برامج الأنبياء التربويه يتكون من تبليغهم

العملى بمعنى أن أعمالهم تعتبر أفضل مثل، و خير وسيله تربويه للآخرين، لأن التبليغ بلسان العمل أشد تأثيرا، و أقوى أثرا من التبليغ بأيه وسيله أخرى، و هذا إنما يمكن إذا كان المبلِّغ من نوع البشر و جنسه بخصائصه، و مواصفاته الجسميه، و بذات غرائزه و بنائه الروحى.

فإذا كان الأنبياء من جنس الملائكة-مثلا- كان للبشر الذين أرسل الأنبياء إليهم أن يقولوا: إذا كان الأنبياء لا يعصون أبدا، فلاجل أنهم من الملائكة ليست فى طبائعهم الشهوات و الغرائز، و لا الغضب و لا الحاجه. و هكذا كانت رساله الأنبياء و مهمتهم تتعطل و تفقد تأثيرها، و لا تحقق أغراضها.

و لهذا اختير الأنبياء من جنس البشر و من فصيله الإنسان بغرائزه، و احتياجاته، ليمكنهم أن يكونوا أسوه لغيرهم من البشر، و قدوه لسواهم من بنى الإنسان.

ثم إن الله سبحانه يقول واصفا مهمات هذا النبى العظيم: **يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ** أى أنه صلى الله عليه و آله و سلم يقوم بثلاثة أمور فى حقهم:

١- تلاوه آيات الله على مسامعهم، و إيقافهم على هذه الآيات و الكلمات الإلهيه.

٢- تعليمهم بمعنى إدخال هذه الحقائق فى أعماق ضمائرهم و قلوبهم.

٣- تزكيه نفوسهم، و تنمية قابلياتهم الخلقيه، و مواهبهم الإنسانيه.

و لكن حيث إن الهدف الأصلى هو «التربيه» لذلك قدمت على «التعليم» مع أن الحال-من حيث الترتيب الطبيعى- تقتضى تقديم التعليم على التربيه.

إن الذين يبتعدون عن الحقائق الإنسانيه بالمره، ليس من السهل إخضاعهم

للترييه، فلا بدّ أولاً من إسماعهم آيات الله مده من الزمن حتّى تذهب عنهم الوحشه التى وقعوا فريسه لها من قبل، ليتسنى حينئذ إدخالهم فى مرحله التعليم، ثمّ يمكن اقتطاف ثمار الترييه بعد ذلك.

ثمّ إن هناك احتمالاً آخر فى تفسير الآيه و هو أن المقصود من الترييه هو التنقيه من رواسب الجاهليه و الشرك، و من بقايا العقائد الباطله و الأفكار الخرافيه، و الأخلاق الحيوانيه القبيحه لأن الضمير الإنسانى ما دام لم يطهر من الأدران و الرواسب لم يمكن إعدادة و تهيئته لتعليم الكتاب الإلهى، و الحكمه و العلم الواقعيين، تماماً مثل اللوحه التى لا تقبل الألوان و النقوش الجميله ما لم تنظف من النقوش القبيحه أولاً.

و لهذا السبب قدمت الترييه فى الآيه الحاضره على تعليم الكتاب و الحكمه التى يراد بها معارف الإسلام العالميه، و مفاهيمه الساميه.

### متى تعرف قيمه البعثه النبويه؟

إن أهميه هذه النعمه العظمى (البعثه النبويه) إنما تتضح تمام الوضوح و تتجلى تمام الجلاء عند ما يقاس الوضع الذى آلوا إليه بالوضع الذى كانوا عليه، و ملاحظه مدى التفاوت بينهما و هذا هو ما يعنيه قوله: **وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .**

و كأن القرآن يخاطبهم قائلاً: ارجعوا إلى الوراء و انظروا إلى ما كنتم عليه من سوء الحال قبل الإسلام، كيف كنتم، و كيف صرتم؟؟ إن الجدير بالتأمل هو وصف القرآن الكريم للعهد الجاهلى بقوله: **ضَلَالٍ مُّبِينٍ** لأن للضلال أنواعاً و أصنافاً: فمن الضلال ما لا يمكن معه للإنسان أن يميز بين الحق و الباطل، و الخطأ و الصواب بسهولة، و من الضلال ما يكون بحيث لو



رجع الإنسان إلى نفسه أدنى رجوع، و تمتع بأقل قدر من الإدراك و الشعور اهتدى إلى الصواب و أدرك الخطأ فوراً.

و لقد كان الناس و خاصه سكان الجزيره العربيه قبل البعثه النبويه المباركه، و مجيء الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم بالإسلام فى ضلال مبین، فقد كان الشقاء و الجهل، و غير ذلك من حالات الانحطاط و السقوط و الفساد سائدا فى كل أرجاء المعموره فى ذلك العصر، و هو أمر لم يكن خافيا على أحد.

ص: ٧٦٩

اشاره

أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥)

التفسير

اشاره

دراسه اخرى لمعركه أحد:

هذه الآيه تتضمن دراسه اخرى و تقييما آخر لمعركه أحد و توضيح ذلك: إن بعض المسلمين كانوا يعانون من حزن عميق و قلق بالغ لنتائج أحد، و كانوا لا يكتفون حزنهم و قلقهم هذا بل طالما كرروه و أظهروه على ألسنتهم، فذكرهم الله - في هذه الآيه - بثلاث نقاط هي:

١- يجب أن لا- تقلقوا لنتائج معركه معينه، بل عليكم أن تحاسبوا كل قضايا المجابهه مع العدو، و تزونا المسأله من جميع أطرافها فلو أنه أصابكم على أيدي أعدائكم في هذه المعركه مصيبه فإنكم قد أصبتم أعداءكم ضعفا في معركه اخرى (معركه بدر) لأنهم قتلوا من المسلمين في معركه «أحد» سبعين و لم يأسروا أحدا بينما قتل المسلمون من المشركين في معركه «بدر» سبعين و أسروا سبعين أَوْ لَمَّا

و عباره قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا هي في الحقيقة بمثابة إجابته مقدمه على سؤال.

٢- أنتم تقولون. هذه المصيبة كيف أصابتنا؟ قُلْتُمْ أَتَى هَذَا و لكن «قل» أيها النبي: هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ أَى هو نابع من مواقفكم في تلك المعركة، فابحثوا عن أسباب الهزيمة في أنفسكم.

فأنتم الذين خالفتهم أمر الرسول، و تركتم الجبل ذلك الموقع الخطير.

و أنتم الذين لم تحسموا المعركة، و لم تذهبوا إلى نهايتها، بل انصرفتم إلى جمع الغنائم بعد انتصار محدود.

و أنتم الذين تركتم ساحه المعركة و فررتم و لم تصمدوا عند ما باغتكم العدو من الخلف، و من ناحيه الجبل الذى تركتم حراسته.

فكلّ هذه العيوب و الذنوب، و كلّ هذا الوهن هو الذى سبب تلك الهزيمة النكراء، و أدى إلى قتل تلك المجموعه الكبيره من المسلمين.

٣- يجب أن لا تقلقوا للمستقبل لأن الله قادر على كلّ شىء، فإذا أصلحتم أنفسكم، و أزلتم النواقص، و تخلصتم ممّا تعانون منه من نقاط الضعف شملكم تأييده، و أنزل عليكم نصره إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

إشاره

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ  
إِدْفَعُوا قَاتِلُوا لَوْ نَعْلَمُ فِتْلَانًا لَا تَبْغِذَ أَكُفْرًا هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا  
يَكْتُمُونَ (١٦٧)

التفسير

إشاره

لا بد أن تتميز الصفوف:

تنوه الآيتان الحاضرتان بحقيقه هامه هي أن أيه مصيبه (كتلك التي وقعت في أحد) مضافا إلى أنها لم تكن دون سبب وعله، فإنها  
خير وسيله لتميز صفوف المجاهدين الحقيقيين عن المنافقين أو ضعفاء الإيمان، و لذلك جاء في القسم الأول من الآيه الأولى وَ  
مَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ أَى أن ما أصابكم يوم تقاتل المسلمون و المشركون فهو بإذن الله و مشيئته و إرادته  
لأن لكل ظاهره في عالم الكون المخلوق لله سبحانه سببا خاصا و عله معينه.

و أساسا أن هذا العالم عالم مقنن يجرى وفق قانون الأسباب و المسببات، و هذه حقيقه ثابتة لا تتغير.

و على هذا الأساس إذا وهنت جماعه فى الحرب، و تعلقت بالدنيا و حطامها، و الثروه و جواذبها، و تجاهلت أوامر قائدها المحنك الرؤوف كانت محكومته بالهزيمه و الفشل، و هذا هو المقصود من إذن الله، فإذن الله و مشيئته هى تلك القوانين التى أرساها فى عالم الكون و دنيا البشر.

ثم يقول سبحانه فى المقطع التالى من الآيه: **وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا .**

إنه إشاره إلى أثر آخر من آثار هذه الحرب و هو تمييز المؤمنين عن المنافقين، و فرز أقوياء الإيمان عن ضعفاء الإيمان.

و على العموم فقد تميز المسلمون- فى معركة أحد- فى طوائف ثلاث:

الطائفة الأولى: و هم قله، قد ثبتوا أمام العدو فى تلك الموقعه حتى آخر لحظه، حتى قضى بعض و جرح بعض و تحمل أشد الآلام.

الطائفة الثانيه: هم الذين زلزلوا، و وقعوا فريسه الاضطراب و لم يمكنهم الثبات حتى آخر لحظه، ففروا من الميدان.

الطائفة الثالثه: و هم جماعه المنافقين الذين رجعوا من منتصف الطريق و أحجموا عن المشاركه و الإسهام فى القتال بحجج و أعذار واهيه، و عادوا إلى المدينه، و هم عبد الله بن أبى سلول، و ثلاثمائه شخص من أعوانه و أنصاره و جماعته.

فلو لم تقع حادثه أحد لما تميزت هذه الصفوف مطلقا، و لما اتضح الأمر بمثل هذا الانضاح أبدا، و لما تبين كل شخص بقسماته الحقيقيه، و ملامحه الواقعيه و صفاته الخاصه به، و بالتالى كان يمكن أن يتصور الجميع- فى مقام الادعاء- أنهم

مؤمنون واقعيون، وأنهم الأمثلة الكاملة للصالحين.

و في الحقيقة-تتضمن الآية الإشارة إلى أمرين:

الأول:العله الفاعليه للهزيمة.

الثاني:العله الغائيه(و النتيجة النهائيه)لها.

على أن هناك نقطه يلزم التنويه بها و هي أن الآية الحاضره تقول: وَ لِيُعَلِّمَ الَّذِينَ نَافَقُوا و لم تقل «ليعلم المنافقين».

و بتعبير آخر:جاء ذكر النفاق بصيغه الفعل،و لم يأت بصورة«الوصف»و هو- لعله-لأجل أن النفاق لم يكن قد حصل في الجميع في شكل الصفه الثابته اللازمه و لهذا نقرأ في التاريخ أن بعضهم قد وفق للتوبه و هدى إليها فيما بعد،و التحق بصف المؤمنين الصادقين،ثم إن القرآن الكريم يستعرض حوارا قد وقع بين بعض المسلمين،و المنافقين قبل المعركه بالشكل التالي: وَ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا فَإِنْ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ «و هو عبد الله بن عمر بن حزام على ما نقل عن ابن عباس)عند ما رأى انسحاب عبد الله بن أبي سلول و انفصالهم عن الجيش الإسلامى،و اعتزامهم العوده إلى المدينه قال:تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا عن حريمكم و أنفسكم إن لم تقاتلوا في سبيل الله.

و لكنهم تعلقوا،و اعتذروا بأعذار واهيه إذ قالوا: لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا- لَا تَبْعَدُكُمْ أَي إِنَّا نَنْظُنُّ أَنَّ الْأَمْرَ يَنْتَهَى بِأَقْتَالِ فُلَانٍ فَلَا حَاجَةَ لَوْجُودِنَا مَعَكُمْ.

و بناء على تفسير آخر قال المنافقون:لو أننا كنا نعتبر هذا قتالا معقولا لتعاوننا معكم و لاتبعناكم،و لكننا لا نعتبر هذا قتالا بل نوعا من الانتحار و المغامره الانتحاريه لعدم التكافؤ بين قوى الكفر و قوى الإسلام،الأمر الذى يعنى أن قتالهم أمر غير عقلائى،خاصه أن الجيش الإسلامى قد استقر فى مكان غير مناسب و نقطه غير مؤاتيه و لا ملائمه.

و على كل حال فإن هذه كانت مجرد اعتذارات و تعللات، لأن الحرب كانت حتمية الوقوع، و لأن المسلمين انتصروا في بدايه المعركه، و أما ما لحق بهم من الهزيمه و الانكسار فلم يكن إلا بسبب أخطاء و مخالفات ارتكبوها هم أنفسهم بحيث لولاها لما وقعت بهم هزيمه، و لذا يقول الله سبحانه: هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ (أى أنهم يكذبون)، هذا مضافا إلى أنه يستفاد من هذه الجملة (أى أقرب) أن للإيمان و الكفر درجات ترتبط باعتقاد الإنسان و أسلوب عمله و سلوكه.

ثم علل سبحانه ما ذكره عنهم بقوله: يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ أى أنهم يظهرون خلاف ما يضمرون، و يبدوون من القول خلاف ما يكتُمون من الاعتقاد و النيه، فإنهم لإصرارهم على اقتراحهم بالقتال داخل أسوار المدينه، أو رهبه من ضربات العدو، أو لعدم حبهم للإسلام أحجموا عن الإسهام فى تلك المعركه، و امتنعوا عن المضى إلى أحد فى صحبه المسلمين، و الله أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ فإن الله يعلم جيدا ما يخفونه و يضمرونه من النوايا، و سيكشف عن نواياهم للمسلمين فى هذه الدنيا، كما سيعاقبهم و يحاسبهم على مواقفهم و نواياهم الشريره فى الآخره.

اشاره

الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأْوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)

التفسير

اشاره

مزاعم المنافقين الباطله:

لم يكتف المنافقون بانصرافهم عن الإسهام مع المؤمنين في القتال، والسعى في إضعاف الروح المعنويه للآخرين، بل عمدوا إلى لوم المقاتلين المجاهدين بعد عودتهم من المعركه، و بعد ما لحق بهم ما لحق قائلين لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا .

فيرد عليهم القرآن الكريم فى الآيه الحاضره قائلا الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأْوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

يعنى أنكم بكلامكم هذا تريدون الادعاء بأنكم مطلعون على عالم الغيب.

و إنكم عارفون بالمستقبل و حوادثه، فإذا كنتم صادقين فى ذلك فادفعوا عن أنفسكم الموت، لأنكم -طبقا لهذا الادعاء- ينبغى أن تعرفوا عله موتكم، و تقدرتون على تجنبها، و تحاشيها، و إبطال مفعولها.



افرضوا أنكم لم تقتلوا في ساحات الجهاد و الشرف، فهل يمكنكم أن تضمّنوا لأنفسكم سنا طويلا، و عمرا خالدا؟؟ هل يمكنكم أن تمنعوا الموت عن أنفسكم أبدا و دائما؟؟ فإذا لم يمكنكم تحاشى الموت-هذه النهايه المحتّمه لكل نفس- فلما ذا تموتون في الفراش بذل و هوان، و لا تختارون الشهاده و الموت بشرف و عز في ساحات الجهاد ضد أعداء الله و أعداء رساله؟؟ ثم إن الآيه الحاضره تتضمن نقطه أخرى يجب الانتباه إليها و هي:

لقد عبّر القرآن عن المؤمنين في هذه الآيه بأنهم إخوان للمنافقين في حين لم يكن المؤمنون إخوانا للمنافقين إطلاقا، فما هذه الأنواع من الملامه و التوبيخ للمنافقين؟ فيكون المعنى هو: إنكم أيها المنافقون كنتم تعتبرون المؤمنين إخوانا لكم فكيف تركتم نصرتهم في هذه اللحظات الخطيره؟ و لهذا أردف سبحانه هذه الكلمه لِإِخْوَانِهِمْ بكلمه «الذين قعدوا» أى تقاعسوا عن المشاركه في المعركه.

فهل يصحّ أن يدعى الإنسان إخوته لآخر ثم يخذله حين يحتاج إلى نصره و تأييده و يقعد عنه حين يحتاج إلى حمايته؟!!

اشاره

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرحين بما آتاهم الله من فضله وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)

التفسير

اشاره

الحياه الخالده:

يرى بعض المفسرين أن الآيات الحاضره نزلت في شهداء «أحد» و يرى آخرون أنها نزلت في شهداء «بدر»، ولكن الحق هو أن ارتباط هذه الآيات بما قبلها من الآيات يكشف عن أنها نزلت في أعقاب حادثه «أحد»، وإن كان محتواها، و مضمونها يعم حتى شهداء «بدر» الذين كانوا ١٤ شهيدا و لهذا روى عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: إنها تتناول قتلى بدر و أحد معا (١).

ص: ٧٧٨

روى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال اطلع إليهم (أى أرواح شهداء أحد و هى فى الجنة) ربهم اطلعه فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أى شىء نشتهى و نحن نسرح من الجنة حيث شئنا. ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أين يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرّة أخرى فقال تعالى: قد سبق منى أنهم لا يرجعون قالوا: فتقرئ نبينا السلام و تبلغهم ما نحن فيه من كرامه فلا يحزنوا «فتزلت هذه الآيات» (١).

و على كلّ حال فإن الذى يبدو للنظر هو أن بعض ضعاف الإيمان كانوا فى مجالسهم و ندواتهم بعد حادثه أحد- يظهرون الأسف على شهداء أحد، و كيف أنهم ماتوا و فنوا، و خاصة عند ما كانت تتجدد عليهم النعمة فيتأسفون لغياب أولئك القتلى فى تلك المواقع، و كانوا يحدثون أنفسهم قائلين كيف ننعم بهذه النعم و المواهب و إخواننا و أبناءنا رهن القبور لا يصيبهم ما أصابنا من الخير، و لا يمكنهم أن يحظوا بما حظينا به من النعيم؟؟.

و قد كانت هذه الكلمات- مضافا إلى بطلانها و مخالفتها للواقع- تسبب إضعاف الروح المعنوية لدى ذوى الشهداء.

فجاءت الآيات الحاضرة لتفند كلّ هذه التصورات، و تذكر بمكانه الشهداء الساميه، و مقامهم الرفيع و تقول: **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا .**

و الخطاب- هنا- متوجه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاصة حتى يحسب الآخرون حسابهم.

ثم يقول سبحانه معقبا على العبارة السابقة **بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ .**

و المقصود من الحياه فى الآيه هى «الحياه البرزخيه» فى عالم ما بعد الموت، لا الحياه الجسمانيه و الماديه، و إن لم تختص الحياه البرزخيه بالشهداء فللكثير

ص: ٧٧٩

من الناس حياه برزخيه أيضا (١) و لكن حيث أن حياه الشهداء من النمط الرفيع جدا، و من النحو المقرون بأنواع النعم المعنويه، هذا مضافا إلى أنها هي محط البحث و الحديث فى هذا السياق القرآنى لذلك خصوا بالذكر و خصت حياتهم بالإشاره فى هذه الآيه، دون سواهم و دون غيرها أيضا.

إن حياتهم البرزخيه محفوفه بالنعم و المواهب المعنويه العظيمه و كأن حياه الآخرين من البرزخيين بما فيها لا تكاد تكون شيئا يذكر بالنسبه إليها.

ثم إن الآيه التاليه تشير إلى بعض مزايا حياه الشهداء البرزخيه، و ما يكتنفها و يلازمها من عظيم البركات من خلال الإشاره إلى عظيم ابتهاجهم بما أتوا هناك فتقول: فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ .

ثم إن السبب الآخر لابتهاجهم و مسرتهم هو ما يجدونه و يلقونه من عظيم الثواب و رفيع الدرجات الذى ينتظر إخوانهم المجاهدين الذين لم ينالوا شرف الشهاده فى المعركه إذ يقول القرآن: وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ .

ثم يردف هذا بقوله: أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يعنى أن الشهداء يحسون هناك و فى ضوء ما يرونه أن إخوانهم المجاهدين لن يكون عليهم أى خوف مما تركوه فى الدنيا، و لا أى حزن من الآخره و وقائعها الرهيبه.

على أنه من الممكن أن يكون لهذه العبارة تفسير آخر هو أن الشهداء بالإضافة إلى سرورهم و فرحهم لما يشاهدونه من الدرجات و المراتب الرفيعه لا إخوانهم الذين لم ينالوا شرف الشهاده و لم يلحقوا بهم، لا يشعرون هم أنفسهم بأى خوف من المستقبل و لا أى حزن من الماضى (٢).

ص : ٧٨٠

---

١- ١) - ينقسم أصحاب الحياه البرزخيه - حسبما يذهب إليه بعض المحققين - إلى نوعين الصالحون جدا، و الطالحون جدا.  
٢- ٢) - الضمائر فى «لا خوف عليهم و لا هم يحزنون» حسب التفسير الأول تعود إلى المجاهدين الباقين على قيد الحياه الذين لم يلحقوا بالشهداء، و على التفسير الثانى تعود إلى الشهداء أنفسهم.

ثم إنه سبحانه يقول: يَسْتَبْشِرُونَ (١) بِنِعْمِهِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِهِ .

و هذه الآيه- في الحقيقه- مزيد تأكيد و توضيح حول البشائر التي يتلقاها الشهداء بعد قتلهم و استشهادهم.. فهم فرحون و مسرورون من ناحيتين:

الأولى: من جهه النعم و المواهب الإلهيه التي يتلقونها، لا- بها فقط بل لما يتلقونه من الفضل الإلهي الذي هو التصعيد المتزايد المستمر للنعم الذي يشمل الشهداء أيضا.

و الثانيه: من جهه أنهم يرون أن الله سبحانه و تعالى لا يضيع أجر المؤمنين...

لا- أجر الشهداء الذين نالوا شرف الشهاده، و لا- أجر المجاهدين الصادقين الذين لم ينالوا ذلك الشرف رغم اشتراكهم في المعركه: وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ أَجَلٌ، إنهم يرون بأمر أعينهم ما كانوا يوعدون به و يسمعون بأذانهم. إنها فرحه مضاعفه.

شهاده على بقاء الروح تعد الآيات الحاضره من جمله الآيات القرآنيه ذات الدلاله الصريحه على بقاء الروح.

فهذه الآيات تتحدث عن حياه الشهداء بعد الموت و القتل. و ما يحتمله البعض من أن المراد بهذه الحياه هو معنى مجازي، و أن المقصود هو بقاء اسمهم، و خلود آثارهم، و أعمالهم و جهودهم بعيد جدا عن معنى الآيه، و غير منسجم بالمرة مع أى واحد من العبارات الواردة في الآيات الحاضره، سواء تلك التي

ص: ٧٨١

---

١- (١) - الاستبشار يعنى الابتهاج و السرور الحاصل بسبب تلقى بشاره أو مشاهده نعمه للنفس أو للغير من الأحبه. و ليست بمعنى التبشير و الإخبار.

تصرح بأن الشهداء يرزقون، أو التي تتحدث عن سرورهم من نواح مختلفه، هذا مضافا إلى أن الآيات الحاضره دليل بين و برهان واضح على مسأله «البرزخ» و النعم البرزخيه التي سيأتى الحديث عنها و شرحها عند تفسير قوله سبحانه:

وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ

(١)

إن شاء الله.

### أجر الشهداء

لقد قيل عن الشهداء و مكانتهم و أهميه مقامهم الكثير الكثير، فكلّ الأمم، و كلّ الشعوب تحترم شهداءها و تقيم لهم وزنا خاصا و لكن ما يوليه الإسلام للشهداء فى سبيل الله من الاحترام و ما يعطيهم من المقام لا مثيل له أصلا، و هذه حقيقه لا مبالغه فيها، فإن الحديث التالى نموذج واضح من هذا الاحترام العظيم، الذى يوليه الإسلام الحنيف للذين استشهدوا فى سبيل الله، و فى ظل هذه التعاليم استطاعت تلك الجماعه المحدوده المختلفه أن تكتسب تلكم القوه العظيمه الهائله التى استطاعت بها أن ترقع أمامها أعظم الإمبراطوريات، بل و تدحر أعظم العروش.

و إليك هذا الحديث:

عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام عن الحسين بن على عليهما السلام قال: بينما أمير المؤمنين يخطب و يحضهم على الجهاد إذ قام إليه شاب فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنى عن فضل الغزاه فى سبيل الله فقال: كنت رديف رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم على ناقته العضباء و نحن منقلبون عن غزوه ذات السلاسل فسألته عمّا سألتنى عنه فقال:

الغزاه إذا هموا بالغزو كتب الله لهم براه من النار.

فإذا تجهزوا لغزوهم باهى الله بهم الملائكه.

فإذا ودعهم أهلوهم بكت عليهم الحيطان و البيوت، و يخرجون من الذنوب...

ص: ٧٨٢

و يكتب له (أى لكل شهيد و غاز) كل يوم عباده ألف رجل يعبدون الله...

و إذا ضاروا بحضره عدوهم انقطع علم أهل الدنيا عن ثواب الله إياهم.

فإذا برزوا لعدوهم و أشرعت الأسنان و فوقت السهام، و تقدّم الرجل إلى الرجل حفتهم الملائكة بأجنحتها يدعون الله بالنصره و التثبيت فينادى مناد: «الجنة تحت ظلال السيوف» فتكون الطعنه و الضربه على الشهيد أهون من شرب الماء البارد فى اليوم الصائف.

و إذا زال الشهيد من فرسه بطعنه أو ضربه لم يصل إلى الأرض حتى يبعث الله إليه زوجته من الحور العين فتبشره بما أعد الله له من الكرامه. فإذا وصل إلى الأرض تقول له الأرض: مرحبا بالروح الطيب الذى خرج من البدن الطيب، أبشر فإن لك ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا - خطر على قلب بشر و يقول الله: أنا خليفة فى أهله من أرضاهم فقد أرضانى و من أسخطهم فقد أسخطنى (١).

ص: ٧٨٣

---

١ - ١) - هذه قبسات من الروايه التى نقلها المفسر الإسلامى الكبير العلامة الطبرسى رحمه الله فى تفسيره (مجمع البيان) عند تفسير هذه الآيات.



























































بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ  
الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام  
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية  
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب  
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات  
توسيع عام لفكرة المطالعة  
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية  
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة  
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة  
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات  
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : [www.ghaemiyeh.com](http://www.ghaemiyeh.com)

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ( sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آواده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : [www.ghbook.ir](http://www.ghbook.ir)

البريد الإلكتروني : [Info@ghbook.ir](mailto:Info@ghbook.ir)

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز  
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية  
الغمامة اصحمان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى  
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

[www.Ghaemiyeh.com](http://www.Ghaemiyeh.com)

[www.Ghaemiyeh.net](http://www.Ghaemiyeh.net)

[www.Ghaemiyeh.org](http://www.Ghaemiyeh.org)

[www.Ghaemiyeh.ir](http://www.Ghaemiyeh.ir)

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩